

أَنَا هُوَ

ماريا فالتورتا

L'EVANGELO COME MI È STATO RIVELAT

THE GOSPEL AS REVEALED TO ME

بالفرنسية: (الإنجيل كما أوحى به إليّ)

L'ÉVANGILE TEL QU'IL M'A ÉTÉ RÉVÉLÉ

MARIA VALTORTA

الجزء التاسع

IX

{الآلام}

الترجمة إلى اللغة العربية : ماري حلمي وفيكتور مصحح.

آخر تحديث : 26/01/2026

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

(فهرس الجزء التاسع)

- الجزء التاسع - 1 (وداع لعازر)
- الجزء التاسع - 2 (يهوذا يمضي للقاء رؤساء السنهدرين)
- الجزء التاسع - 3 (من بيت عنيا إلى أورشليم)
- الجزء التاسع - 4 (دخول يسوع إلى أورشليم)
- الجزء التاسع - 5 (مساء الأحد في جثسيماني)
- الجزء التاسع - 6 (الاثنين السابق للفصح، I- النهار)
- الجزء التاسع - 7 (الاثنين السابق للفصح، II- الليل)
- الجزء التاسع - 8 (الثلاثاء السابق للفصح، I- النهار)
- الجزء التاسع - 9 (الثلاثاء السابق للفصح، II- الليل)
- الجزء التاسع - 10 (الأربعاء السابق للفصح، I- النهار)
- الجزء التاسع - 11 (الأربعاء السابق للفصح، II- الليل)
- الجزء التاسع - 12 (الخميس السابق للفصح، I- النهار)
- الجزء التاسع - 13 (الوصول إلى العلّية ووداع يسوع لأُمّه)
- الجزء التاسع - 14 (العشاء الفصحّي)
- الجزء التاسع - 15 (ثوب الكفّارة)
- الجزء التاسع - 16 (النزاع والقبض على يسوع في جثسيماني)

- الجزء التاسع - 17 (كنتُ، أنا كائن، ابن الله. لكنني كنتُ أيضاً ابن الإنسان)
- الجزء التاسع - 18 (المحاكمات وإنكار بطرس، تأملات في سلوك بيلاطس)
- الجزء التاسع - 19 (يهودا الاسخريوطي بعد خيانتة)
- الجزء التاسع - 20 (التجديد الكامل)
- الجزء التاسع - 21 (يوحنا يمضي لاصطحاب الأم)
- الجزء التاسع - 22 (من دار الولاية إلى الجلجلة)
- الجزء التاسع - 23 (الصَّلب)
- الجزء التاسع - 24 (كرب مريم الرهيب عند القبر. تطيب جسد المخلص.)
- الجزء التاسع - 25 (ختم القبر والعودة إلى قاعة العشاء)
- الجزء التاسع - 26 (ليلة الجمعة المُقدَّسة. مراثي العذراء.)
- الجزء التاسع - 27 (تأملات حول آلام يسوع ومريم)
- الجزء التاسع - 28 (السبت المقدس، I- النهار)
- الجزء التاسع - 29 (السبت المقدس، II- الليل)

--- نهاية فهرس الجزء التاسع ---

----- (عودة إلى بداية الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

1- (وداع لعازر)

1945 / 03 / 02

يسوع في بيت عنيا. إنه المساء، إحدى أمسيات نيسان [أبريل] الساكنة. من النوافذ الواسعة لقاعة الولايم تُرى حديقة لعازر المزهرة بكليتها، البستان الذي يبدو وكأنه غيمة من البتلات الرهيفة. عطر خُصرة جديدة، وأريج أزهار الأشجار المثمرة ذو المرارة العذبة، وعبير ورود وزهور أخرى تتمازج كلها، وهي تلج مع نسيم المساء الهادئ، الذي يجعل الستائر المنسدلة على الأبواب تتموّج برفق، ونور مصباح منتصف الغرفة يرتجف، مختلطة مع الرائحة النافذة لمسك روميّ، لزنيق الوادي، لياسمين، ومتمازجة مع الخلاصة النادرة، الباقية من البلمس الذي عَطّرت به مريم المجدليّة يسوعها، الذي بقي شعره أكثر قتامة على أثر الدهن.

مازال في القاعة سمعان، بطرس، متى وبرتلماوس. أمّا الآخرون فقد خرجوا إلى أشغالهم.

ينهض يسوع عن المائدة ويتفحص لفافة من الرقّ أراه إيّاها لعازر. مريم المجدليّة تجول في القاعة... تحسبها فراشة يجذبها النور. إنّها لا تعرف سوى الدوران حول يسوعها. مرثا تُشرف على الخُدّام الذين يرفعون آنية المائدة الثمينة التي وُضعت على الطاولة.

يضع يسوع اللفافة على خزانة صحن عالية من خشب أسود مصقول مُطعم بالعاج، ويقول: «لعازر، تعال إلى الخارج، أنا في حاجة إلى التحدّث إليك.»

«على الفور يا رب.» ولعازر ينهض من مقعده القريب من النافذة ويتبع يسوع إلى الحديقة، حيث يمتزج آخر ضوء من النهار مع أول شعاع من ضوء القمر المُتألّق.

يسوع يسير مُتّجها إلى ما بعد الحديقة، إلى حيث قبر لعازر، الذي يحيط الآن بمدخله الفارغ إطار كبير من شجيرات ورد مُزهرة. وفي أعلاه، على الصخرة المائلة قليلاً، نُقش: «لعازر، هلمّ خارجاً!» يسوع يتوقّف هناك. المنزل لم يعد يُرى وقد حجبته أشجار وأسيجة. يَرين صمت مُطبق وعزلة مُطلقة.

«لعازر، يا صديقي» يَسأل يسوع الواقف في مواجهة صديقه، ويُحدّق فيه بظُلّ ابتسامة على وجهه النحيل والشاحب أكثر من المعتاد. «لعازر، يا صديقي، أتعلم مَنْ أكون؟»

«أنت؟ ولكن أنتَ يسوع الناصريّ، يسوعي العذب، يسوعي القدّوس، يسوعي القدير!»

«هذا بالنسبة لك. إنّما بالنسبة للعالم، مَنْ أكون أنا؟»

«أنتَ مَسِيّا إسرائيل.»

«وَمِنْ ثَمَّ؟»

«أنتَ الموعود، المُنتظر... ولكن لماذا تسألني هذا؟ أتشكّ بإيماني؟»

«لا يا لعازر. لكنني أريد أن أفضي لك بحقيقة. لا أحد يعرفها، سوى أمّي وواحد من أتباعي. أمّي لأنّها لا تجهل شيئاً. وآخر لأنّه يُشارك في هذا الأمر. لقد قُلّته للآخرين، خلال السنوات الثلاث التي أمضوها معي، مرّات

ومرات كثيرة. ولكن محبتهم كان لها مفعول شراب مخدر وجعلت عائقاً أمام الحقيقة المعلنّة. لم يتمكنوا من فهم كلّ شيء... وحسناً أنّهم لم يفهموا، وإلاّ فلَمنع جريمة كانوا سيرتكبون أخرى. عبثاً. لأنّ ما يجب أن يحدث سوف يحدث، رغم كلّ قتل. أمّا لك أنت، فأريد أن أقولها.»

«أعتقد أنّي أحبّك أقلّ منهم؟ عن أيّة جريمة تتحدّث؟ أيّ جريمة ينبغي أن تحدّث؟ تكلم، باسم الله!» لعازر مُنفعل.

«سأتكلّم، نعم. أنا لا أشكّ بمحبّتك. إنّ ارتياحي بها ضئيل هو بحيث أنّي أعهد إليك بكلّ ما أريد...»

«آه! يسوعي! ولكنّ ذلك يَفعله مَنْ هو على وشك الموت! لقد قمتُ أنا بذلك حينما أدركتُ أنّك لن تأتي وأنّني كنتُ على وشك الموت.»

«وأنا عليّ أن أموت.»

«لا!» يُطلق لعازر أنيناً عميقاً.

«لا تصرخ، لا يسمعن أحد. أنا بحاجة للتحدّث إليك وحدك. لعازر، يا صديقي، أتعلم ما يحدث في هذه اللحظة التي أنت فيها إلى جانبي، في الصداقة الوفيّة التي منحتنيها منذ اللحظة الأولى، والتي لم تهتزّ أبداً لأيّ سبب؟ إنّ رجلاً، هو الآن مع رجال آخرين، يُساوم على ثمن الحمل. أتعرف أيّ اسم يحمل هذا الحمل؟ اسمه يسوع الناصري.»

«لا! هناك أعداء، هذا صحيح. ولكن لا يمكن لأحد أن يبيعك! مَنْ؟ مَنْ

يكون؟»

«إنّه واحد من أتباعي. لا يمكن إلا أن يكون واحداً من هؤلاء الذين خاب أمني فيهم بشدة، والذي، إذ تعب من الانتظار، يريد أن يتخلص ممن لم يعد سوى خطر شخصي. ويعتقد أنه بذلك يستعيد اعتباره، بحسب ظنه، أمام عظماء العالم. وعلى العكس، سيكون مُحَقَّرًا من عالم الصالحين وعالم المجرمين. لقد وصل إلى هكذا قدر من التعب منّي، من انتظار ما حاول بكلّ الوسائل أن يتوصّل إليه: العظمة البشريّة، التي سعى إليها بادئ ذي بدء في الهيكل، وظنّ أنه يبلغها مع ملك إسرائيل، والآن يسعى إليها من جديد، في الهيكل، ولدى الرومان... يأمل... ولكنّ روما، إن كانت تعرف أن تكافئ خدامها المُخلصين... فهي أيضاً تُحسِن أن تدوس باحتقار الوشاة الدون. لقد تعب منّي، من الانتظار، من عبء أن يكون صالحاً. لأنّ مَنْ كان سيّئاً، فأن يكون صالحاً، وجوب التظاهر أنه كذلك، هو عبء شديد الوطأة عليه. قد يتحمّله لبعض الوقت... ومن ثمّ... لا يعود يطيقه... ويتخلّص منه لكي يعود حرّاً. حرّاً؟ هذا ما يعتقده الأشرار. هذا ما يعتقده هو. ولكنّها ليست الحرّية. إنّ الانتماء إلى الله هو الحرّية. والوقوف ضدّ الله هو سجن بحديد وسلاسل، بأثقال وضربات سيّاط، تلك التي لا يتحمّلها أيّ محكوم بالأشغال الشاقّة في التجديف، تلك التي لا يتحمّلها أيّ عبد في البناء، في العمل تحت سوط حارس مساجين الأشغال الشاقّة.»

«مَنْ هو؟ أخبرني. مَنْ يكون؟»

«لا ضرورة.»

«بلى، ضروريّ هو... آه!... لا يمكن أن يكون إلّا هو: الرجل الذي كان دوماً لطخة وسط مجموعتك، الرجل الذي كذلك قد أهان أختي منذ زمن قصير. إنه يهوذا الاسخريوطي!»

«لا. إنه الشيطان. إنّ الله قد اتخذ جسداً فيّ أنا: يسوع. والشيطان قد اتخذ جسداً فيه هو: يهوذا الاسخريوطي. ذات يوم... بعيد جداً... هنا، في بستانك هذا، قد واسيتُ دموعاً وسامحتُ نفساً ساقطة في الوحل. قلتُ إنّ المسّ هو عدوى من الشيطان الذي يبثّ عصارته في الكائن ويمسّحه. لقد قلتُ أنّه اقتران روح مع الشيطان ومع الطبيعة الحيوانية. ولكنّ الاستحواذ يبقى أمراً بسيطاً مقارنة بالتجسّد. إنّ قديسيّ سيمتلكونني، وأنا سأمتلكهم. ولكنّ الله هو فقط في يسوع المسيح كما هو في السماء، ذلك أنّي الله المتجسّد. لا يوجد سوى تجسّد إلهي واحد. وكذلك في واحد فقط سيكون الشيطان، لوسيفر، كما هو في مملكته، ذلك أنّ الشيطان تجسّد فقط في قاتل ابن الله. وأثناء حديثي معك، هو أمام السنهدين يساوم على قتلي ويجتهد فيه. إنّما ليس هو: إنه الشيطان. الآن اسمع يا لعازر، يا صديقي الوفي. إنّني ألتمس منك بعض الطلبات. وأنت لم ترفض لي أبداً أيّ أمر. إنّ محبّتك عظيمة لدرجة أنّها، دون أن تتقض الاحترام، كانت دائماً فعّالة تجاهي، بألف عون، بمساعدات كثيرة احترازية، ونصائح حكيمة قد تقبّلتها دوماً، لأنني كنتُ أرى في قلبك رغبة حقيقية لما فيه صالحي.»

«آه! ربّي! إنّما فرحي كان في الاهتمام بك! ما الذي سأفعله الآن إن لم أعد أهتمّ بمعلمي وربّي؟ قليل جداً، قليل جداً ما سمحت لي أن أفعله! إنّ ديني لك، أنت الذي أعدت مريم إلى محبّتي وإلى الكرامة، والذي أعدتني إلى الحياة هو بحيث.... آه! لماذا أعدتني من الموت كي أعيش هذه الساعة؟ الآن

بعدما كنتُ قد تخطّيتُ كلَّ هَلَعِ الموتِ وكلَّ ضيقِ الروحِ، محمولاً مِنَ الشيطانِ على الخوفِ مِنْ لحظةِ المثلِ أمامِ الديانِ الأبديِّ، وكان الظلام... ماذا بكَ يا يسوع؟ لماذا ترتعش وتُصبح أكثر شحوباً ممّا كنتَ عليه؟ إنّ وجهك أكثر شحوباً مِنْ زهرةِ الثلجِ هذه التي تذوي تحتِ القمرِ. آه! يا معلّم! يبدو وكأنّ الدم والحياة يهجرانك...»

«إنّني بالفعل كمن يموت وعروقه مفتوحة. إنّ أورشليم كلّها، وبهذا أقصد القول "إنّ كلَّ أعدائي الذين هم بين أقوياء إسرائيل"، قد ألصقوا أفواههم النهمة فيّ ليمتصّوا حياتي ودمي. إنّهم يريدون كتم الصوت الذي، قد عذبهم لثلاث سنوات، مع كونه قد أحبّهم... لأنّ كلَّ أقوالي، حتّى ولو كانت كلمات محبّة، فقد كانت هزّة تدعو نفوسهم إلى الاستيقاظ، وهم لم يكونوا يريدون سماع نفّسهم تلك التي قيّدوها بالشهوة الثلاثيّة. وليس فقط العظماء... بل أورشليم كلّها، أورشليم بأكملها سوف تتألّب على البريء وتريد موته... ومع أورشليم، اليهوديّة... ومع اليهوديّة البيريّة، الأدوميين، المدن العشر، الجليل، فينيقية-سورية... إنّ إسرائيل، إسرائيل بأكملها قد اجتمعت في صهيون مِنْ أجل "عبور" المسيح مِنَ الحياة إلى الموت... يا لعازر، أنتَ يا مَنْ مُتّ وقمتَ مِنَ الموت، قل لي: ما هو الموت؟ ماذا اختبرت؟ ماذا تتذكّر؟»

«الموت؟... لا أتذكّر تماماً ما كان. فبعد الألم الشديد حصل ارتخاء عظيم... كان يبدو لي توقّف الألم والشعور بنعاس عميق فقط... كانت الأضواء والضجيج تخفت وتبعد باطّراد... تقول أختاي ومكسيمين إنّني كنتُ أظهر علامات ألم عنيف... أمّا أنا، فلا أتذكّر شيئاً مِنْ ذلك...»

«أجل. إنّ رحمة الآب تُضعِف حواسّ المُحتَضِرِينَ الذهنيّة، بحيث أنّ الألم ينحصر فقط في الجسد الذي ينبغي له أن يتنقّى بهذا الذي يسبق المطهر الذي هو النزاع. أمّا أنا... وعن الموت ماذا تتذكّر؟»

«لا شيء يا معلّم. في رُوحِي مساحة مظلمة. منطقة فارغة. في مجرى حياتي انقطاع لا أعرف كيف أملاه. لا ذكريات لي. ولو كنتُ أنظر إلى عمق هذا الثقب المُظلم الذي احتفظَ بي لأربعة أيام، ورغم أنّه كان الليل وأنا فيه بمثابة الظلّ، لشعرتُ، ولو لم أكن أرى، بالرطوبة الباردة تصعد من أحشائه وتنفخ في وجهي. إنّهُ، عموماً، إحساس. ولكنّي إن فكّرتُ في تلك الأيام الأربعة، فليس لديّ شيء. لا شيء. هي ذي الكلمة.»

«أجل. الذين يرجعون لا يُحسِنون الكلام... إنّ السرّ ينكشف تدريجياً لمن يدخل فيه. أمّا أنا، يا لعازر، فأعلم ما ستكون آلامي. أعلم أنّي سأتألم بملء الوعي. لن تكون هناك حلاوة أيّ شراب أو ارتخاء يخفّف وطأة النزاع. سأشعر بالموت. وقد بدأتُ أشعر به... إنّني أموت بالفعل يا لعازر. وعلى مثال إنسان يُعاني من مرض عضال، فقد استمرّيتُ بالموت طوال الثلاثة والثلاثين عاماً. والموت كان يتسارع أكثر فأكثر كلّما كان الزمن يدنيني من هذه الساعة... في البدء كان فقط الموت من معرفة أنّي إنّما وُلدتُ لكي أكون الفادي. ثمّ كان موت من يرى نفسه مُحارباً، مُتّهماً، مُهاناً، مُضطهداً، معاقاً... يا له من إنهاك! ثمّ... الموت من مجاورة ذاك الذي يقترب مني أكثر فأكثر، حتّى يطوّقني كما يطوّق الأخطبوط الغريق، ذاك الذي كان ينبغي أن يكون الخائن بالنسبة إليّ. يا له من غثيان! والآن أنا أموت مُمزّقاً لاضطراري القول: "وداعاً" لأعزّ الأصدقاء ولأُمّي...»

«آه! يا معلّم! أنتَ تبكي؟! أعلم أنّك بكيتَ كذلك أمام قبري لأنّك كنتَ تحبّني. ولكنّك الآن... تبكي من جديد. أنتَ بارد كالثلج. يداك باردتان كما جثّة. إنّك تتألّم... أنتَ تتألّم كثيراً!...»

«إنّني الإنسان يا لعازر. لستُ فقط الله. من الإنسان لي الأحاسيس والعواطف. ونفسي تختبر الانقباض حينما أفكّر بأُمّي... بل وأقول لك، إنّ عذابي هذا صار مُريعاً للغاية وأنا أتحمّل مجاورة الخائن، والكراهية الشيطانيّة لعالم بأسره، وصمّم أولئك الذين، إنّ لم يكونوا يكرهون، فلا يجيدون الحبّ بفاعليّة، لأنّ المحبّة الفاعلة هي التوصل إلى ما يريده المحبوب ويُعلّمه، وهنا على العكس!... نعم، كُثُر يحبّونني. لكنّهم ظلّوا "هم". لم يتّخذوا "أنا" أخرى حبّاً بي. هل تعلم من من بين أقرب المقرّبين إليّ، عرف أن يغيّر طبيعته لكي يكون للمسيح، مثلما يريد المسيح؟ واحدة فقط: أختك مريم. لقد انتقلت من حيوانيّة كاملة ومنحطّة كي تبلغ روحانيّة ملائكيّة. وذلك بفضل قوّة المحبّة وحدها.»

«لقد افتديتَها.»

«لقد افتديتُ الجميع بالكلمة. ولكنّها هي وحدها التي تغيّرت بالكامل بفاعليّة المحبّة. ولكنّي كنتُ أقول: إنّ معاناتي المتأثّية من كلّ تلك الأمور مُريّة هي بحيث لن أتنفّس إلّا بعد أن يتمّ الكلّ. إنّ قوّتي تنتهي... الصليب سيكون أقلّ وطأة من عذاب الروح والمشاعر هذا...»

«الصليب؟! لا! آه! لا! هذا فظيع جدّاً! هذا شائن جدّاً! لا!» لعازر، الواقف في مواجهة معلّمه، والذي يمسك منذ برهة بيديّ يسوع المُتلجّتين

بين يديه، يتركهما وينهار على المقعد الحجريّ القريب منه. ويخبّئ وجهه بين يديه، يبكي يائساً.

يسوع يدنو منه، يضع يده على كتفيه اللذين يهتزّان من النحيب، ويقول: «وماذا؟ أينبغي لي أنا، الذي أموت، أن أعزّيك أنت الذي تحيا؟ يا صديقي، أنا محتاج إلى قوّة ومعونة. وأطلب ذلك منك. ليس لي سواك من يمكنه أن يمنحني إياها. الآخرون، من الأفضل ألا يعلموا، لأنهم إن كانوا يعرفون... فإنّ دماً سوف يسيل. وأنا لا أريد أن يتحوّل الحملان إلى ذئاب، حتّى ولو بدافع محبة للبريء. أمّي... آه! كم يحزّ في قلبي التكلّم عنها!... أمّي أصبحت في غاية الضيق! هي أيضاً تحتضر منهكة... منذ ثلاثة وثلاثين عاماً تموت هي كذلك، والآن لم تعد سوى جرح كما ضحية عذاب مريع. أوكد لك أنّ صراعاً نشب بين روحي وقلبي، بين المحبة والمنطق، كي أقرّر إن كان صائباً إبعادها، إعادتها إلى منزلها، حيث لا تتوقّف عن الحلم بالمحبة التي جعلتها أمّاً، تتذوّق طعم قبلته المضطربة، ترتعش في نشوة تلك الذكرى، ولا تنفك ترى بعينيّ نفسها نسمات الهواء التي تتحرك وتهتزّ من الوميض الملائكيّ. ففي الجليل سيصل إليها خبر موتي في اللحظة التي سأتمكّن فيها من أن أقول لها: "أمّي، أنا المنتصر!". ولكنني لا أستطيع، لا، لا يمكنني فعل ذلك. إنّ يسوع المسكين، الحامل خطايا العالم، يحتاج إلى تعزية، وأمّي ستمنحني إياها. والعالم الذي هو أكثر بؤساً بحاجة إلى ضحيتين. لأنّ الرجل أخطأ مع المرأة؛ وعلى المرأة أن تكفّر، كما يكفّر الرجل. ولكن طالما لم تحن الساعة بعد، فإنّي أُمْنَح أمّي ابتسامة واثقة... إنّها ترتعد... أعلم ذلك. هي تشعر بدنوّ العذاب. أعلم ذلك. وهي تنبذه باشمئزاز طبيعيّ ولمحبة مقدّسة، كما أنا أنبذ الموت لأنني "حيّ" عليه أن يموت. ولكن يا له من شقاء لو كانت

لتعلم أنّ خلال خمسة أيام... فلن تصل إلى تلك الساعة وهي حيّة، وأنا أريدها حيّة لكي أستمّد من شفيتها القوّة كما أخذت الحياة من أحشائها. والله يريد لها في موضع صلبى (الجلجلة) لمزج ماء دموعها العذريّ بخمر الدم الإلهيّ والاحتفال بالقدّاس الأوّل. هل تعرف ما سيكون القدّاس؟ لا تعرف. ولا يمكنك أن تعرف. سيكون موتى المبذول باستمرار للجنس البشرىّ الحىّ أو المتألّم. لا تبكى يا لعازر. إنّها قويّة، لن تبكى. لقد بكت طوال حياتها كامّاً. والآن لن تبكى بعد. لقد صلبت الابتسامة على وجهها... هل رأيت أيّ وجه اكتسبت فى الآونة الأخيرة؟ لقد صلبت الابتسامة على وجهها لتعزّينى. أسألك أن تقتدى بأُمّى. لم أكن أستطيع بعد الاحتفاظ بسرّى لِنفسى فقط. لقد بحثت حولى عن صديق صادق وثقة. والتقيتُ بنظرتك النزيهة. فقلتُ: "للعازر". أنا، عندما كنتَ أنتَ مثقل القلب، احترمتُ سرّك ودافعتُ عنه حتّى ضدّ الفضول الطبيعىّ للقلب. وأنا أسألك ذات الاحترام لسرّى. فيما بعد... بعد موتى ستتكلّم عنه. ستتكلّم عن هذا الحوار. كي يصير معلوماً أنّ يسوع ذهب عن إدراك إلى الموت، وإلى العذابات المعلومة قد أضاف أيضاً أنّه لم يكن يجهل شيئاً، لا عن الأشخاص ولا عن مصيره. وكى يكون معلوماً أنّه عندما كان باستطاعته أن ينقذ نفسه بعد، لم يرد، لأنّ محبّته اللامتناهية للبشر لم تكن تتحرّق إلّا كى تستنفذ التضحية من أجلهم.»

«آه! أنقذ نفسك يا معلّم! أنقذ نفسك! بإمكانى مساعدتك على الهرب. هذه الليلة بالذات. لقد هربت ذات مرّة إلى مصر! اهرب الآن أيضاً. تعال، لنرحل. نأخذ معنا مريم وأختى، ونرحل. لن تعيقنى أيّ من ثرواتي، أنت تعلم هذا. أنت هو ثروتى وثروة مريم ومرثا. فلنرحل.»

«يا لعازر، قد هربتُ آنذاك لأنَّ الساعة لم تكن قد حانت بعد. الآن هي الساعة. وأبقى.»

«فإذاً آتي معك. لن أفارقك.»

«لا. أنتَ تبقى هنا. باعتبار أنَّه مسموح لمن لا يبعد منزله أكثر من مسير سبت أكل الحَمَل في المنزل، لذلك فأنتَ، وكما هو الحال دائماً، ستأكل حَمَلَكَ هنا. ومع ذلك، دع أختيكَ تأتيان... لأجل أُمِّي... آه! ما الذي كانت تخفيه عنك، أيا أيَّها الشهيد، ورود المحبَّة الإلهيَّة! الهاوية! الهاوية! ومنها ترتفع الآن وتنطلق ألسنة لهب الكراهية لتنهش قلبك! أختاك، نعم. إنَّهما شجاعتان ونشيطتان... وأُمِّي ستكون كمن في نزاع وهي تتحني فوق جثتي. يوحنا لا يكفي. هو المحبَّة، يوحنا، ولكنَّه مازال يفتقر إلى النضوج. آه! سينضج ليصبح رجلاً بفعل انفطار القلب في الأيام القادمة. أمَّا المرأة فهي بحاجة إلى النسوة لجراحها الرهيبة. هل تهبهما لي؟»

«ولكنَّني أعطيتُك كلَّ شيء دائماً، كلَّ شيء، بفرح، وكنتُ أعاني فقط من أنَّك تطلب منِّي القليل!...»

«أنتَ ترى. إنَّني لم أقبل من أيِّ إنسان آخر بقدر ما قبلتُ من أصدقائي من بيت عنيا. وكان هذا واحداً من الاتِّهامات التي وجَّهها إليَّ الظالم أكثر من مرَّة. إنَّما أنا، هنا بينكم، كنتُ أجد ما يكفي لتعزية ابن الإنسان من كلِّ مرارته كإنسان. في الناصرة، كان الله هو الذي يتعزَّى بقرب بهجة الله الوحيدة. هنا كان الإنسان. وأنا، قبل أن أرتقي إلى الموت، أشكركَ يا صديقي الوفيَّ، الودود، اللطيف، المُبادِر، المتحفِّظ، العالِم، الكتوم والكريم. أشكركَ على كلِّ شيء. وأبي، فيما بعد، سوف يكافئك...»

«لقد نلتُ كلَّ شيءٍ بالفعل بمحبَّتِكَ وبافتداءِ مريم.»

«آه! لا. ينبغي أن تنال الكثير أيضاً. وستنالُه. اسمع. لا تقنط هكذا. أعِرنِي ذَهَنَكَ كي أتمكّن من قول ما أطلبه منك بعد. أنتَ ستبقى هنا تنتظر...»

«لا، هذا لا. لماذا مريم ومرثا وليس أنا؟»

«لأنّني لا أريد أن تفسد مثلما سيفسد كلّ الرجال. إنّ أورشليم في الأيام القادمة ستفسد كما الهواء حول جيفة تتفسّخ، وفجأة تنفجر نتيجة ضربة غافلة من عَقِب أحد المارّة. إنّها فاسدة وتنشر الفساد. إنّ روائحها النتنة ستصيب بالجنون حتّى الأقلّ قسوة، حتّى تلاميذي. هم سيهربون. وإلى أين يذهبون في ارتباكهم؟ إلى لعازر. كم من مرّة، خلال هذه السنوات الثلاث، قد أتوا بحثاً عن خبز، مضجع، حماية، ملجأ، والمعلّم!... الآن سيعودون. مثل النعاج التي شتّتتها الذئب الذي اختطف راعيها، سيهرعون إلى حظيرة. اجمعهم. شدّد عزمهم. قل لهم إنّني أغفر لهم، أعهد لك بغفراني لهم. لن يشعروا بالسلام بسبب هروبهم. قل لهم ألاّ يسقطوا في خطيئة أعظم بيأسهم من غفراني.»

«أجميعهم سيهربون؟»

«الجميع، ما عدا يوحنا.»

«يا معلّم، لن تطلب منّي استقبال يهوذا؟ اجعلني أموت مُعَذَّباً، إنّما لا تطلب منّي ذلك. مرّات كثيرة ارتعشت يدي على سيفي، متلهّفة لقتل عار العائلة. ولم أفعل ذلك أبداً لأنّني لستُ عنيفاً. فقط قد جُرّبتُ لفعل ذلك. ولكن أقسم لك أنّني لو عاودتُ رؤية يهوذا فسأذبحه ككبش فداء.»

«لن تراه أبداً. أوكد لك ذلك.»

«هل سيهرب؟ لا يهم. لقد قلتُ: "لو رأيته". والآن أقول: "سألق به، ولو كان في آخر الدنيا، وسأقتله".»

«لا ينبغي لك أن تشتهي هذا.»

«سأفعله.»

«لن تفعله، ذلك أنه لا يمكنك الذهاب إلى حيث يكون هو.»

«في قلب السنهدين؟ في قدس الأقداس؟ هناك أيضاً سألق به وأقتله.»

«لن يكون هناك.»

«عند هيرودس؟ سأقتل، إنما قبل ذلك سأقتله.»

«سيكون عند الشيطان. وأنت لن تكون أبداً عند الشيطان. إنما دعك على الفور من فكرة القتل هذه، وإلا سأتركك أنا.»

«آه! آه!.. لكن... نعم، من أجلك... آه! يا معلّم! يا معلّم! يا معلّم!»

«نعم، معلّمك... سوف تستقبل التلاميذ، وتعزيهم. ستردهم إلى السلام. أنا السلام. وحتى بعد ذلك... بعد ذلك ستساعدهم. فبيت عنيا ستبقى على الدوام بيت عنيا، طالما لم تنبش الكراهية بيت المحبة هذا ظناً منها أنها ستبدد السنة الذهب، وهي على العكس تنثرها في العالم كي تلهبه كله. إنني أباركك يا لعازر، من أجل كل ما فعلته وكل ما ستفعله...»

«لا شيء، لا شيء. أنتَ جَذَبْتَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَلَا تَسْمَحْ لِي أَنْ أَدْفَعَ عَنْكَ. فَمَا الَّذِي فَعَلْتَهُ إِذَا؟»

«لَقَدْ أُعْطِيتَنِي مَنَازِلَكَ. أَتَرَى؟ قَدْ كَانَ مُقَدَّرًا. إِنَّ أَوَّلَ مَسْكَنٍ فِي صَهْيُونَ كَانَ فِي أَرْضِ عَائِدَةِ لَكَ. وَالْأَخِيرَ أَيْضًا فِي وَاحِدَةٍ مِنْهَا. كَانَ مُقَدَّرًا لِي أَنْ أَكُونَ ضَيْفَكَ. أَمَّا فِيمَا يَخْصُ الْمَوْتَ فَلَا يُمْكِنُكَ الدِّفَاعُ عَنِّي. سَأَلْتُكَ فِي بَدَايَةِ هَذَا الْحِوَارِ: "أَتَعْلَمُ مَنْ أَكُونُ؟" وَالْآنَ أَجِيبُ: "إِنِّي الْفَادِي". وَعَلَى الْفَادِي أَنْ يَنْجِزَ التَّضْحِيَةَ حَتَّى آخِرِ الذَّبِيحَةِ. عَدَا ذَلِكَ، صَدَّقْنِي: إِنَّ الَّذِي سَيَصْعَدُ إِلَى الصَّلِيبِ وَسَيَكُونُ عَرْضَةً لِنَظَرَاتٍ وَاحْتِقَارِ الْعَالَمِ لَنْ يَكُونَ حَيًّا، بَلْ مَيِّتًا. وَأَنَا مِنْذُ الْآنَ مَيِّتٌ. فَقَدْ قَتَلَنِي غِيَابُ الْمَحَبَّةِ أَكْثَرَ وَقَبْلَ الْمَوْتِ بِالْعَذَابِ. وَشَيْءٌ آخَرٌ بَعْدَ يَا صَدِيقِي، غَدًا، عِنْدَ الْفَجْرِ، أَمْضِي إِلَى أُورُشَلِيمَ، وَتَسْمَعُ مَنْ يَقُولُ إِنَّ صَهْيُونَ هَتَفَتْ لِمَلِكِهَا الْمَفْعَمِ وَدَاعَةٍ كَمَا مَنْتَصَرٍ، الَّذِي سَيَدْخُلُهَا رَاكِبًا عَلَى جَحْشٍ. فَلَا يَخْدَعَنَّكَ هَذَا النِّصْرُ وَلَا يَجْعَلَكَ تَحْكُمَ أَنَّ الْحِكْمَةَ الَّتِي تَكَلَّمْتَ لَمْ تَكُنْ حَكِيمَةً فِي تِلْكَ الْأَمْسِيَةِ الْهَادئةِ. فَاسْرِعْ مِنْ نَجْمٍ يَشِقُّ السَّمَاءَ وَيَخْتَفِي فِي فُضَاءَاتٍ مَجْهُولَةٍ، سَيَخْتَفِي رِضَى النَّاسِ، وَأَنَا بَعْدَ خَمْسِ أَمْسِيَّاتٍ، فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ، سَأَبْدَأُ الْعَذَابَ بِقَبْلَةِ غَاشَّةٍ سَتَفْتَحُ الْأَفْوَاهَ، الْمُنْهَمَكَةَ غَدًا بِالْهَتَافِ هَوْشَعْنَا، لَتَسْتَحِيلَ جَوْقَةُ اللَّعْنَاتِ الْمَرِيعَةِ وَصِيحَاتِ اتِّهَامَاتٍ وَحْشِيَّةٍ.

نعم، أخيراً تحصلين، يا مدينة صهيون، يا شعب إسرائيل، على الحَمَلِ الفَصْحِيِّ! سَوْفَ تَتَالَيْنِي فِي هَذَا الطُّقْسِ الْقَرِيبِ. هَا هُوَ. إِنَّهُ الضَّحِيَّةُ الْمَعْدَّةُ مِنْذُ عَصُورِ. الْمَحَبَّةُ وَلَدَتْهُ، بِإِعْدَادِ أَحْشَاءِ بَلَا دَنْسٍ وَكَأَنَّهَا مَهَادٍ. وَالْمَحَبَّةُ تَسْتَنْفِذُهُ. هَا هُوَ. الضَّحِيَّةُ الْمُدْرِكَةُ. لَيْسَ كَمَا الْحَمَلُ الَّذِي، بَيْنَمَا يَسُنُّ الْجَزَارَ سَكَّيْنَهُ لِلذَّبْحِ، مَا زَالَ يَقْضِمُ عَشْبَ الْمَرْجِ، أَوْ وَهُوَ جَاهِلٌ يَصْدُمُ بِفَمِهِ الْوَرْدِيَّ

ضرع أمّه. أمّا أنا، فإنّي الحَمَلُ القائل عن وعي: "الوداع!" لحياته، لأُمّه، لأصدقائه، ويذهب إلى مُقدّم الذبيحة قائلاً: "ها أنا ذا!" أنا غذاء البشر. الشيطان وَضَعَ جوعاً لا يُشَبَّعُ أبداً، ولا يمكن أن يُشَبَّع. ليس هناك سوى غذاء واحد يُشَبَّعه، إذ يهدّئ هذا الجوع. وها هو هذا الغذاء. ها هو ذا خبزك، هو ذا خمرك أيّها الإنسان. انجزي فصحك أيّا أيتها الإنسانيّة! اجتازي بحركِ الأحمر من النيران الشيطانيّة. إن اصطبغت بدمي فستجتاز، أيّا أيّها الجنس البشريّ، مُصانناً من النار الجهنّميّة. إنّك تستطيع المرور. إنّ السماوات، إذ تدفعها رغبتني، تشرع بفتح الأبواب الأزليّة. انظروا، أيّا أرواح الموتى! انظروا، أيّا أيّها البشر الأحياء! انظري أيّا أيتها النفوس الّتي ستتخذ جسداً في المستقبل! انظروا، يا ملائكة الجنّة! انظروا، يا شياطين جهنّم! انظر، أيّها الأب، انظر، أيّها البراقليط! إنّ الضحيّة تبتسم، إنّها لم تعد تبكي...

كلّ شيء قد قيل. الوداع يا صديقي. أنت أيضاً لن أراك مجدداً قبل الموت. فلنتبادل قبلات الوداع. ولا تشكّ. سيقولون لك: "كان مجنوناً! كان شيطانياً! كاذباً! لقد مات بينما كان يقول إنّّه الحياة". أجبهم، أجب نفسك على وجه الخصوص: "قد كان وما يزال هو الحقّ والحياة. هو المنتصر على الموت. أنا أعلم ذلك. إنّّه لا يمكن أن يموت إلى الأبد. أنا أنتظره. ولن يُستهلك زيت المصباح كلّهُ، الّذي جعله الصديق جاهزاً كي ينير العالم المدعو لحضور عرس المنتصر، حتّى يعود العريس. والنور، هذه المرّة، لا يمكن أن ينطفئ أبداً". ثق بذلك يا لعازر. أطع رغبتني. هل تسمع هذا البلبل كيف يغنى بعد أن صمّت بسبب نحيبك؟ افعل مثله. فلترتل نفسك بثقة بعد البكاء المحتمّ على الضحيّة، ترتيلة إيمانك. كن مباركاً، من الأب والابن الروح القدس.»

كم تألّمتُ! طوال الليل من الخميس الأوّل من أذار [مارس] الساعة الحادية عشرة حتّى الساعة الخامسة من صباح الجمعة. رأيتُ يسوع في كرب داخليّ أقلّ قليلاً من الضيق في جثّسيّمني، خاصّة حينما يتكلّم عن أمّه، عن الخائن، وعندما يشير إلى هلعه من الموت، لقد أطعتُ وصيّة يسوع بأن أكتب هذا في دفتر منفصل، كي أصف الآلام بأكثر تفصيلاً. رأيتُ وجهي هذا الصباح... صورة ضعيفة عن الألم الذي قاسيته... ولن أضيف المزيد ذلك أنّ هناك حياء لا يمكن تجاوزه.

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

2- (يهوذا يمضي للقاء رؤساء السنهدرين)

1947 / 03 / 29

يهوذا يصل ليلاً إلى منزل قيافا الريفى. ولكن القمر يتواطأ مع المجرم بإنارة الطريق. يُفترض أنه واثق جداً من أنه سيجد هناك، في ذاك المنزل خارج الأسوار، أولئك الذين كان يبحث عنهم، لأنه بخلاف ذلك أظنه كان سيحاول دخول المدينة وكان سيذهب إلى الهيكل. إنما هو يصعد بثقة وسط أشجار زيتون التل الصغير، وهو واثق من نفسه أكثر من المرة السابقة. ذلك أن الوقت ليل والظلال والساعة تحميانه من كل مفاجأة محتملة. الطرق الريفية أصبحت مقفرة، بعدما ازدحمت طوال النهار بجموع الحجاج الذاهبين إلى اورشليم من أجل الفصح. والبرص المساكين أنفسهم هم في جحورهم ينامون نومهم التعيس، ناسين مصيرهم لبضع ساعات.

ها هو يهوذا عند باب البيت الأبيض تحت ضوء القمر. يطرق: ثلاث دقات، ثم واحدة، فثلاث دقات ثم اثنتين... ذلك أنه حتى يعلم بدقة الإشارة المتفق عليها!

لا بدّ أنها بحق الإشارة الأكيدة، لأنّ الباب يُفتح دون أن يلقي البوّاب سلفاً نظرة من فتحة في الباب.

ينسلّ يهوذا إلى الداخل ويسأل الخادم البوّاب الذي يبجله: «هل اجتمع المجلس؟»

«نعم يا يهوذا الاسخريوطي. ويمكنني القول بالكامل.»

«قدني إليهم. ينبغي لي أن أتكلّم بأمر هامّة. بسرعة!»

يُغلق الرجل الباب بالمزاليج كلّها ويتقدّمه في الممر شبه المظلم، ويتوقّف أمام أحد الأبواب الثقيلة ويدقّ. يتوقّف صخب الأصوات في الغرفة المغلقة، ويحلّ محلّه صوت القفل وصرير الباب، الذي يُفتح ملقياً مخروط ضوء ساطع على الممر المظلم.

«أنت؟ أدخل!» يقول الذي فتح الباب والذي لا أعرف من يكون.

ويهوذا يدخل القاعة، بينما ذاك الذي فتح الباب، يغلقه من جديد بالمفتاح.

هناك حركة ذهول، أو على الأقلّ، اضطراب، عندما يرون يهوذا يدخل. ولكنهم يحيّونه جوقة: «السلام لك يا يهوذا بن سمعان.»
«السلام لكم يا أعضاء السنهدرين المقدّس.» يجيب يهوذا.
«تقدّم. ماذا تريد؟» يسألونه؟

«التحدّث إليكم... التحدّث إليكم عن المسيح. ما عاد يمكن الاستمرار هكذا. لن يعود بإمكانني مساعدتكم إن لم تقرّروا اتّخاذ قرارات حاسمة. الرجل أصبح يرتاب من الآن فصاعداً.»

«كشفت نفسك أيّها الأحمق؟» يقاطعونه.

«لا، بل أنتم الحمقى، فبان دفاعكم الغبيّ قمتم بتحركات خاطئة. كنتم تعرفون جيّداً أنّني أخدمكم! ولم تثقوا بي.»

«لديكَ ذاكرة ضعيفة يا يهوذا بن سمعان! ألا تتذكّر كيف تركتنا في المرّة السابقة؟ مَنْ كان ليظنّ أنّكَ مُخلص، لنا، بعدما أعلنتَ بتلك الطريقة أنّكَ لن تخونه؟» يقول أليشع ساخراً، أفعوياً أكثر من أيّ وقت مضى.

«أتظنّون أنّه من السهل التوصل إلى أن أغشّ صديقاً. الوحيد الذي يحبّني بحقّ، البريء؟ أتظنّون أنّه من السهل أن أصل إلى الجريمة؟» يهوذا قد أصبح هائجاً.

يحاولون تهدئته. ويتملقونه. ويغوونه، أو على الأقلّ يسعون إلى ذلك، بجعله يلاحظ أنّ فعله ليس جريمة. «بل هو عمل مقدّس تجاه الوطن، الذي به يتلافى ثار الحاكمين، حيث يُبدون بالفعل علامات سخطهم من هذه الاضطرابات المستمرّة فيه وانقسام الطوائف والجموع في مقاطعة رومانيّة، وتجاه الإنسانيّة، إن كان حقّاً مقتنعاً بطبيعة المَسِيّا الإلهيّة ورسالته الروحيّة.»

«إذا كان ما يقوله صحيحاً -حاشا لنا أن نصدّق- ألسْتَ أنتَ المُعاون في الفداء؟ إنّ اسمكَ سيرتبط باسمه على مدى الأجيال، وسيحسبك الوطن بين بواسله، ويُشرفك بالمهامّ الأسمى. إنّ كرسيّاً معدّ لكّ بيننا. سترتقي يا يهوذا. سوف تضع شرائع لإسرائيل. آه! لن ننسى ما فعلته من أجل خير الهيكل المقدّس، الكهنوت المقدّس، للدفاع عن الشريعة المقدّسة، لأجل خير الأمّة كلّها! ساعدنا فقط وبعدها، نُقسم لكّ، بل أقسم لكّ أنا باسم أبي القدير وباسم قيافا حامل الأفود، أنّكَ ستصبح أعظم رجل في إسرائيل. أعظم من رؤساء الربع، أعظم من أبي نفسه، الحبر الأعظم المستقيل الآن. مثل ملك، مثل نبيّ سوف تُخدم ويُسمّع لكّ. وإن لم يكن يسوع الناصريّ بعد ذلك سوى

مَسِيًّا مَزِيْف، وإن لم يكن في الحقيقة مُسْتَحَقًّا للموت لأنَّ أفعاله لم تكن صادرة عن لصٍّ، إنّما عن مجنون، فها نحن نذكرك بأقوال الحبر الأعظم قيافا الموحى بها -إنّك تعرف أنّ مَنْ يحمل الأفود والصدرة يتكلّم بإيعاز إلهي ويتنبأ بما هو خير وما يجب فعله من أجل الخير- قيافا، هل تتذكّر؟ لقد قال قيافا: "خير أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأُمَّة كلّها". لقد كانت كلمة نبويّة.

«في الحقيقة كان نبيًّا. إنّ العليّ قد تكلم بلسان الكاهن الأعظم. فليكن مُطاعاً!» يقولون جوقّة، بأداء مسرحيٍّ ومشابهين لآليين ينبغي لهم أداء حركات معطاة، أولئك الدمى الشنيعة الذين هم أعضاء المجلس الأعلى للسُنهدين. يهوذا موحى إليه، مغوى... ولكنّ بقيّة من حسّ سليم، إن لم يكن من طيبة، ما زالت تعتمل في نفسه وتمنعه من التلقّظ بالكلمات المشؤومة.

إذ يحيطون به باحترام، بمشاعر مُصطنعة، يضغطون عليه: «ألا تصدّقنا؟ أنظر: نحن رؤساء الأربع والعشرين عائلة كهنوتيّة، شيوخ الشعب، الكتّبة، أعظم فرّيسيّ إسرائيل، الرابّيين الحكماء، قُضاة المعبد. نخبة إسرائيل هي هنا، حولك، مستعدّة لأن تهلّل لك، وتقول لك بصوت واحد: "فعل ذلك، هو عمل مقدّس".»

«وعَمَلائيل، أين هو؟ يوسف ونيقوديموس أين هما؟ وأين أليعازر صديق يوسف، ويوحنا بن جاعص؟ أنا لا أراهم؟»

«عَمَلائيل في كفّارة عظيمة، يوحنا مع امرأته الحامل والمتألّمة هذا المساء. أليعازر... نحن لا نعرف لماذا لم يأت. ولكنّ وعكة قد تصيب أيّاً كان فجأة. أليس كذلك؟ بالنسبة ليوسف ونيقوديموس، فنحن لم نُعلمهما بهذه

الجلسة السريّة، محبّة بك، وصوناً لشرفك... لأنّه إن حدث سوء ما وفّش الأمر، فلا يُنقل اسمك إلى المعلّم... نحن نحمي اسمك، ونحبّك يا يهوذا، المكابّي الجديد مُخلص الوطن.»

«المكابّي كان يخوض المعركة الشريفة. أنا... أرتكب خيانة.»

«لا تنظر إلى تفاصيل العمل، بل إلى صوابيّة الهدف. تكلم أنت، أيا صادق، أيّها الكاتب الذهبيّ. من فمك تسيل كلمات ثمينة. وإذا كان غملاًئيل عالماً، فأنت حكيم، لأنّ على شفّيتك تكمن حكمة الله. تحدّث أنت إلى الذي ما يزال متردّداً.»

يتقدّم صادق بقده الجميل ومعه كنعان الهرم: ثعلب نحيف منازع إلى جانب ابن آوى محتال قويّ وشرس.

«اسمع، أيا رجل الله!» يبدأ صادق بأبهة متخذاً وضعيّة ملهمة وخطابية، رافعاً ذراعه الأيمن في حركة شيشرونيّة¹، وذراعه الأيسر يمسك بكلّ تلك الطيّات المزدحمة التي لثوبه ثوب الكاتب. ومن ثمّ يرفع أيضاً ذراعه الأيسر، تاركاً ثوبه الفخم يفقد ترتيب طيّاته، وهكذا، الوجه واليدان مرفوعة صوب سقف الغرفة، يردد: «أنا أقول لك ذلك! أقوله لك في حضرة الله العليا!»

«ماران-اتا!» الجميع بصدى صوت واحد، منحنين كما لو أنّ ريحاً من أعلى قد أحنتهم، ومن ثمّ يستقيمون والأذرع متصالبة على صدورهم.

«أنا أقول لك ذلك: إنّهُ مكتوب في صفحات تاريخنا ومصيرنا! إنّهُ مكتوب في العلامات والرموز المتوارثة عبر العصور! إنّهُ مكتوب في

الطقس الذي لم يتوقّف منذ تلك الليلة المشؤومة للمصريّين! إنّهُ مكتوب في صورة إسحاق! مكتوب في صورة هابيل! وما هو مكتوب يتحقّق.»

«ماران-اتا!» يقول الآخرون في جوقة خافتة وحزينة، إيحائية، بنفس الحركات السابقة، الوجوه يضيئها بشكل غريب نور مصباحين مضاءين عند طرفي القاعة، بلون الميكا البنفسجيّ الشاحب، مُصدرة نوراً غير مألوف. وتلك الجماعة من الرجال الذين يكادون جميعاً يلبسون الأبيض، مع صبغات أصلهم الشاحبة والزيتونيّة، وقد زاد الضوء المنتشر من شحوب ألوانهم الزيتونيّة، يبدوون وكأنّهم بالفعل جماعة من الأشباح.

«إنّ كلمة الله قد نزلت على شفاه الأنبياء لتحدّد هذا القرار. هو يجب أن يموت! قد قيل!»

«قد قيل! ماران-اتا!»

«هو يجب أن يموت، مصيره مكتوب!»

«هو يجب أن يموت. ماران-اتا!»

«بأدقّ التفاصيل قد كُتب مصيره المحتوم، والمحتوم لا يُنقّض!»

«ماران-اتا!»

«مُحدّد هو حتّى الثمن الرمزيّ الذي سيُدفع لمن سيكون أداة الله لإنجاز

الوعد.»

«مُحدّد هو! ماران-اتا!»

«على أنّه فادٍ، أو كنبّيّ مزيّف، هو يجب أن يموت!»

«يجب أن يموت، ماران-اتا!»

«الساعة قد حانت! يهوه يريد ذلك! إنني أسمع صوته! يصرخ: "فليتم ذلك!"»

«العليّ قد تكلم! فليتم ذلك! فليتم! ماران-اتا!»

«فلتعطك السماء الشجاعة كما أعطتها لياعيل ويهوديت، وقد كانتا امرأتين وعرفتا أن تكونا بطلتين؛ مثلما أعطتها ليفتاح، الذي مع كونه أباً، عرف أن يضحي بابنته من أجل الوطن. كما أعطتها لداود ضدّ جليات، فأنجز الحركة التي ستجعل إسرائيل أبدية في ذاكرة الشعوب!»

«فلتمنحك السماء الشجاعة! ماران-اتا!»

«فلتكن منتصراً!»

«فلتكن منتصراً! ماران-اتا!»

يرتفع صوت كنعان الأجنّ الشيوخية: «الذي يتردد أمام الأمر المقدّس مُدان هو بالخزي والموت!»

«مُدان. ماران-اتا!»

«إذا لم تشأ أن تسمع صوت الرب إلهك، وإذا لم تتصرّف بحسب وصيته، بالعمل بما يأمرُك به بفمنا، فلتحلّ عليك كلّ اللعنات!»

«كلّ اللعنات! ماران-اتا!»

«فليضربك الربّ بكلّ اللعنات الموسوية وليشتتكَ بين الأمم.»

«فليضربك ويشتتكَ! ماران-اتا!»

صمت موت يلي هذا المشهد الموحى... كل شيء يجمد في سكون مربع.

أخيراً ها هو صوت يهوذا يرتفع، وأتعرّف عليه بصعوبة بقدر ما هو متغيّر: «نعم، سأفعل ذلك. يجب أن أفعله. وسأفعله. إنّ الجزء الأخير من اللعنات الموسويّة هي بالفعل تخصّني، ويجب أن أتخلّص منها لأنّي بالفعل قد تأخّرت كثيراً. وأصبحتُ مجنوناً لعدم إيجادي هدنة ولا راحة، ومرتعب القلب، تائه العينين، والنّفس قد أضناها الحزن. مرتعداً من خشيتي أن يكشفني ويصعقني في لعبتي المزدوجة -لأنّي لا أعلم، لستُ أعلم إلى أيّ مدى أعلم أفكارى- إنّني أرى حياتي معلّقة بحبل، وصُباحاً وعشيّة أطلب أن تنتهي هذه الساعة بسبب الهلع الذي يعتصر قلبي. بسبب الهول الذي عليّ أن أتمّه. آه! استعجلوا هذه الساعة! اسحبوني من ضيقي الذي يخنقني! فليتمّ كلّ شيء. على الفور! الآن! ولأكن معتقاً! هيّا بنا!»

إنّ صوت يهوذا يتأكّد ويزداد قوّة كلّما كان يتكلّم أكثر فأكثر. حركاته، التي في البداية كانت آلية وغير واثقة، كتلك التي لإنسان مُنوّم، قد صارت حرّة، إرادية. إنّهُ يقف مُنتصب القامة تماماً، متّخذاً جمالاً شيطانيّاً، ويصيح: «فلتسقط أربطة رعب مجنون! لقد تحرّرتُ من خضوع مخيف. أيّها المسيح! لم أعد أخشاك وسأسلمك إلى أعدائك! هيّا بنا!» صيحة شيطان مُنتصر، وبالفعل يتوجّه صوب الباب بجسارة.

ولكنّهم يوقفونه: «مهلاً! أجبنا: أين هو يسوع الناصري؟»

«في منزل لعازر. في بيت عنيا.»

«نحن لا نستطيع الدخول إلى ذاك المنزل المُحصَّن جيّداً بخدّام أوفياء.
منزل حليف لروما. سوف نواجه متاعب أكيدة.»

«عند الفجر سنأتي إلى المدينة. ضعوا الحراس على طريق بيت فاجي،
افتعلوا صخباً واقبضوا عليه.»

«كيف تعرف أنّه يأتي من هذه الطريق؟ يمكنه كذلك أن يسلك
الأخرى...»

«لا. لقد قال لأتباعه أنّه سيسلك هذه الطريق ليدخل المدينة، من باب
أفرايم، وأن ينتظروه بالقرب من عين روجيل. فإن قبضتم عليه قبل...»

«لا يمكننا ذلك. سيتوجّب علينا أن ندخل المدينة وهو معنا وسط
الحراس، وكلّ الطرق المؤدّية إلى الأبواب وكلّ دروب المدينة هي مليئة
بالحشود من الفجر إلى الليل. سيحدث شغب. ويجب ألاّ يحصل ذلك.»

«سيصعد إلى الهيكل. استدعوه كي تسألوه في إحدى القاعات. استدعوه
باسم الكاهن الأعظم. هو سيأتي، إذ أنّه يحترمكم أكثر من حياته. وبمجرّد أن
يكون وحده معكم... سوف تحظون بالفرصة لاصطحابه إلى مكان آمن
والحكم عليه في الوقت المناسب.»

«سيحدث شغب على حدّ سواء. ينبغي أن تكون قد أدركت أنّ الجموع
متعصّبة له. وليس فقط الشعب، بل أيضا عظماء ومُعقد آمال شعب إسرائيل.
إنّ غمّالائيل يفقد تلاميذه، وبالمثل يوناثان بن عوزيل وآخرون منّا، والكلّ
يتركوننا، وقد تمّ إغواؤهم من قبله. وحتىّ الأمميّون يبجلّونه، أو يخشونه،
وهذا بالفعل نوع من التبجيل، وهم مستعدّون لأن يثوروا علينا لو أسأنا
معاملته. عدا ذلك، فإنّ بعض اللصوص الذين جنّدناهم كي يكونوا له تلاميذ

مزيّفين ويحدثوا الشغب، قد اعتقلوا وتكلّموا آملين الرحمة بسبب وشايتهم، والحاكم الرومانيّ يعلم... الجميع يتبعونه بينما نحن لا نحقق شيئاً. لذا يجب أن نتصرّف بحذاقة كي لا تلاحظ الجموع.»

«نعم، هذا ما ينبغي فعله! حنّان أيضاً يوصي به. يقول: "يجب ألاّ يحدث ذلك في العيد وألاً يحصل شغب وسط الشعب المتعصّب". هذا ما قرّره، مُصدراً أوامره بأن يُعامل باحترام حتّى في الهيكل وأيّ مكان آخر، وألاً تتمّ مضايقته حتّى يتمّ التمكن من خداعه.»

«فإذاً ما الذي تريدون فعله؟ أنا قد كنتُ على أتمّ الاستعداد هذه الليلة، إنّما أنتم متردّون...» يقول يهوذا.

«هاك: عليك أن تأخذنا إليه في ساعة يكون فيها وحيداً. أنت تعرف عاداته. لقد كتبتَ لنا أنه يبيّيك إلى جواره أكثر من الجميع. فيُفترض إذن أنّك تعرف ما ينوي عمله. نحن سنكون دوماً على أهبة الاستعداد. وعندما ترى أنّ الساعة والمكان مؤاتيان، فتعال، ونحن سنأتي.»

«اتفقنا... وأيّة مكافأة أنالها؟» أصبح يهوذا يتكلّم ببرود، كما لو كان الأمر كان يتعلّق بتجارة ما.

«ما قاله الانبياء، لكي نكون أمناء للكلام الموحى به: ثلاثون ديناراً...»
«ثلاثون ديناراً لقتل رجل، وهذا الرجل؟ ثمن حَمَل عادي في أيّام العيد هذه؟! أنتم مجانين! ليس لحاجتي للمال. فلديّ مدّخرات لا بأس بها. فلا تفكّروا إذن أن تقنعوني عن طريق الحاجة للنقود. إنّما هذا ثمن بخس مقابل معاناتي من خيانة ذاك الذي أحبّني على الدوام.»

«ولكننا قلنا لك ما سنعمله من أجلك. المجد، الشرف! ما كنت تنتظره منه ولم تتله. نحن نعالج خيبتك. أمّا الثمن فقد حدّده الانبياء! آه! هو أمر شكلي! رمز ليس إلّا. البقيّة تأتي فيما بعد...»

«والنقود متى؟»

«في اللحظة التي تقول فيها: "تعالوا". وليس قبل ذلك، لا أحد يدفع قبل أن يضع يده بالفعل على البضاعة. أفلا يبدو لك ذلك عدلاً ربّما؟»

«هذا صحيح. ولكن فليكن ثلاثة أضعاف المبلغ على الأقل...»

«لا، هذا ما قيل في الأنبياء. وهذا ما ينبغي فعله. آه! إنّنا نحسن الطاعة للأنبياء! ولن نهمل حرفاً ممّا كتبوه عنه. إيه! إيه! إيه! نحن أمناء للكلام الموحى به! إيه! إيه! إيه! يقول ضاحكاً هذا الهيكل العظمي المثير للاشمئزاز الذي هو كنعان. وكُثُر، جوقة، يقتدون به بضحكات استهزاء متفجّعة، مُرائية، مأكرة، قهقهات حقيقيّة لشياطين لا يعرفون سوى ضحك السخرية. ذلك أنّ الضحك خاصّ بالإنسان ذي الصفاء والمحَبّ، أمّا ضحك السخرية فهو من القلوب المضطربة المشبعة بالحقْد.

«كلّ شيء قد قيل. يمكنك الذهاب. سننتظر الفجر لنعاود دخول المدينة من طرق مختلفة. الوداع. السلام لك، أيا أيّها النعجة الضالّة العائدة إلى حظيرة إبراهيم. السلام لك! السلام لك! واعتراف اسرائيل بأكملها بجميلك! اعتمد علينا! كلّ رغبة منك هي قانون لنا. فليكن الله معك، كما كان مع كلّ خدّامه الأكثر وفاء! عليك كلّ البركات!»

يصحبونه بهياج وتأكيدات محبة وصولاً إلى المخرج... ينظرون إليه وهو يبتعد عبر الممرّ شبه المظلم... يسمعون صرير مزاليح الباب الذي يُفتح ثم يُغلق....

يعودون إلى القاعة، متهلّلين.

يرتفع صوتان أو ثلاثة فقط، أولئك الأقلّ شيطانيّة: «والآن؟ ما الذي سنفعله مع يهوذا بن سمعان؟ نحن نعرف جيّداً أنّنا لن نستطيع إعطاءه ما وعدناه به، عدا الدنانير الثلاثين البائسة!... ماذا سيقول عندما يتبيّن خيانتنا له؟ ألن نكون قد سبّبنا لأنفسنا ضرراً أعظم؟ ألن يقصد الشعب ويقول لهم ما نفعله؟ إنّنا نعلم جيّداً أنّه رجل متذبذب.»

«أنتم بالفعل سدّج وحمقى بهذه الأفكار وهذه البلبلة! لقد قرّرنا بالفعل ما سنفعله بيهوذا. لقد قرّرناه في المرّة السابقة. ألا تتذكّرون؟ ولن نغيّر رأيّنا. عندما ينتهي كلّ شيء، بالنسبة للمسيح، سيموت يهوذا. لقد قيل.»

«إنّما إن تكلم قبل ذلك؟»

«لمن؟ للتلاميذ وللشعب، كي يُرجم؟ هو لن يتكلّم. إنّ الرعب من تصرّفه سيكفّم فمه...»

«ولكنّه قد يتوب بعد ذلك، يؤنّبه ضميره، ويصاب بالجنون كذلك... ذلك أنّ تأنيب ضميره، إذا ما استيقظ فلا يمكن إلّا أن يقوده إلى الجنون...»

«لن يكون لديه الوقت لذلك. سنتدبّر الأمر قبلها. لكلّ شيء أوانه. أولاً الناصري ومن ثمّ الذي خانّه.» يقول أليشع بتمهل رهيب.

«نعم. وحاذروا! ولا كلمة للغائبين. إنهم بالفعل يعرفون الكثير عن أفكارنا. إنني لا أثق بيوسف ونيقوديموس، وثقتي قليلة بالآخرين.»
«أتشكّ بغمّ لا ئيل؟»

«لقد انعزل عنا منذ عدّة أشهر. وبلا أمر مباشر من الحبر الأعظم لن يشارك في جلساتنا. يقول إنّه يكتب كتابه بمساعدة ابنه. ولكنني أتحدّث عن أليعازر ويوحنا.»

«آه! إنهما لم يعارضانا قطّ.» يقول على الفور أحد أعضاء السنهدرين، الذي رأيته في مرّات سابقة مع يوسف الذي من الرّامة، ولكنني لا أتذكّر اسمه.

«بالأحرى! إنهما لم يعارضانا إلّا قليلاً جدّاً. إيه! إيه! إيه! ويجب التنبّه منهما! أظنّ أنّ ثعابين كثيرة قد عَشَّشت في السنهدرين، إيه! إيه! إيه! ولكن سيتمّ إخراجها... إيه! إيه! إيه!» يقول كنعان وهو يمضي منحنيّاً ومرتعشاً، متّكئاً على عصاه، ليبحث عن مكان مريح على إحدى الأرائك العريضة المنخفضة والمغطاة بسجاد ثقيل، المتواجدة على طول جدران القاعة، ويتمدّد راضياً ويغطّ سريعاً في النوم، الفم مفتوح، وهو منقرّ في شيخوخته الشريرة.

يراقبونه. ودوراس، ابن دوراس، يقول: «إنّه يشعر بالرضا برؤية هذا اليوم. إنّ أبي قد حلم به، ولكنّه لم يحظّ به. إلّا أنّني سأحمل في قلبي روحه، كي يكون حاضراً يوم الانتقام من الناصريّ وليحظى بفرحه...»

«تذكروا أننا يجب أن نكون في الهيكل بشكل دائم، بالتناوب، وكثيرون منّا في كلّ مرّة.»

«سنتواجد فيه.»

«وعلينا إصدار الأمر بأن يدخل يهوذا بن سمعان على الكاهن الأعظم في أيّ وقت.»

«سنفعل ذلك.»

«والآن فلنهيئ قلوبنا للخاتمة.»

«إنّها مهياة بالفعل! هي جاهزة بالفعل!»

«بدهاء.»

«بدهاء.»

«بحذاقة.»

«بحذاقة.»

«كي نخفّ كلّ ريبة.»

«كي نغوي كلّ القلوب.»

«أيّ شيء يقوله أو يفعله، لا ردّة فعل. سننتقم من كلّ شيء مرّة واحدة.»

«هذا ما سنفعله. ويكون انتقاماً شرساً.»

«كاملاً!»

«رهيباً!»

ويجلسون ليسترخوا في انتظار الفجر.

1- شيشرون (Marco Tullio Cicerone): كاتب روماني وخطيب في روما القديمة.

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

3- (من بيت عنيا إلى اورشليم)

1945 / 03 / 03

يسوع يسير وسط البساتين وأشجار الزيتون المزهرة بالكامل. حتى أوراق الزيتون الفضية تبدو زهوراً وهي مُرصّعة هكذا بندى يلمع تحت أول شعاع من الفجر ويهتزّ بفعل نسيم عطر. كلّ غصين هو صنّعة صائغ، والعين تنظر إليه معجبةً بالجمال. أشجار اللوز وقد اكتست تماماً بأوراقها الخضراء، تبرز عن كتل الأشجار المثمرة الأخرى البيضاء-الوردية، وتحت الكروم تتبدّى نتوءات طلائع أوراقها الطرية، الزاهية والحريّة بحيث تبدو كأنّها رقائق من الزمرد الرقيق جداً أو قطعة من الحرير الثمين. في الأعلى سماء فيروزيّة داكنة، سويّة، هادئة، ومهيبة. وفي كلّ مكان شدو عصافير وعطور أزهار. جوّ منعش يعيد القوّة والسعادة. إنّها حقّاً بهجة نيسان [أبريل] الضاحك في كلّ مكان.

يسوع وسط رُسله. الاثني عشر، ويتكلّم.

«لقد أرسلتُ النساء إلى الأمام لأنني أريد أن أتحدّث إليكم أنتم فقط. في الأوقات الأولى التي كنتُ فيها معكم قلتُ لكم، لأولئك الذين كانوا معي: "لا تُقلّقوا أمّي برواية تصرّفات الناس السيئة تجاهي". لقد كانت تبدو فادحة للغاية تلك التصرفات... الآن، أنتم ثلاثة شهود على تلك التي كانت بداية السلسلة التي بها سيقاد ابن الإنسان إلى الموت -أنت يا يوحنا، أنت يا سمعان، وأنت يا يهوذا الاسخريوطي- يمكنكم أن تروا جيّداً أنّها كانت تشبه حبّات رمل تسقط من أعلى مقارنة بالصخرة، بالصخور التي هي تصرّفات

الوقت الحاضر. إنّما حينها لم تكونوا أنتم، ولا أمّي، ولا أنا، مهَيَّئين للخبث البشريّ. في الخير كما في الشرّ، هو ذا، إنّ الإنسان لا يصل إلى القمّة دفعة واحدة. فهو يصعد أو ينزل بالتدريج. وهكذا الأمر في الألم. الآن، أنتم الطيّبون قد ارتقيتم في الخير، وبإمكانكم، دون أن تصابوا بتلك الصدمة التي قد كنتم لتصابوا بها حينذاك، التحقق إلى أيّة درجة من الفساد يمكن أن يَنحطّ الإنسان المكرّس للشيطانيّة، مثلما نستطيع أنا وأمّي تحمّل كلّ الألم المتأتّي من البشر دون أن نموت به. لقد قوّينا نفسنا. كلّنا. في الخير، في الشرّ أو في الألم. ومع ذلك لم نبلغ القمّة بعد. لم نبلغ القمّة بعد... آه! لو علمتم ما هي وكم هي مرتفعة قمّة الخير، الشرّ، الألم! ولكنني أكرّر لكم ما قلّته آنذاك. لا تكرّروا لأُمّي ما سوف يقوله لكم ابن الإنسان. فهي ستتألم منه كثيراً. إنّ مَنْ ينبغي له أن يُعَدَم يشرب الشراب المُخدّر الذي يُعطى له إشفاقاً عليه، ليتمكّن من انتظار ساعة العذاب دون أن يرتجف في كلّ لحظة. إنّ صمتكم سيكون مثل شراب الشفقة بالنسبة لها، لأُمّ الفادي! الآن أريد، كيلا يبقى شيء مظلماً بالنسبة لكم، أن أكشف لكم معنى النبوءات. وأطلب منكم أن تبقوا معي، كثيراً، كثيراً. في النهار سأكون للجميع. وفي الليل، أرجوكم أن تبقوا معي لأنّي أريد أن أكون معكم. أنا محتاج ألاّ أشعر بالوحدة...»

يسوع حزين للغاية. يراه الرُّسل ويشعرون بالضيق. يتجمّعون حوله. حتّى يهوذا يُحسن الالتصاق بالمعلّم كما لو كان أكثر الرُّسل ودّاً.

يسوع يلاطفهم ويتابع: «أريد في هذه الساعة التي مازالت ممنوحة لي، أن أكمل معرفتكم بالمسيح. في البداية، أعلمتُ يوحنا وسمعان ويهوذا عن حقيقة النبوءات حول مولدي. إنّ النبوءات قد صوّرتني، كما لا يستطيع أمهر رسّام، من فجري إلى مغيبتي. وحتّى إنّ الفجر والغروب هما بالضبط

الموضوعان اللذان جعلهما الأنبياء الأكثر جلاء. الآن إنّ المسيح الذي قد نزل من السماء، البارّ الذي تركته الغيوم يطر على الأرض، البذرة السامية، سيُسَلَّم إلى الموت، مكسوراً مثل أرزة أصابتها الصاعقة. فلننتحدث إذاً عن موته. لا تتنهّدوا، لا تهزّوا رؤوسكم. لا تتهامسوا في قلوبكم. لا تلعنوا البشر. هذا لا يفيد في شيء. نحن صاعدون إلى اورشليم. لقد قَرُب الفصح.

"هذا الشهر يكون لكم أوّل أشهر السنة". سيكون هذا الشهر بداية العهد الجديد للعالم. ولن ينتهي أبداً. وعبثاً سيسعى الإنسان، من حين لآخر، لتعيين أخرى جديدة. والذين سيريدون تعيين عهد جديد، حاملين اسم صنمهم، سيُصعقون ويُضربون. لا يوجد سوى إله واحد في السماء ومسيّا واحد على الأرض: ابن الله: يسوع الناصريّ. وهو، لأنّه يُعطي كلّ شيء من ذاته، يمكنه أن يشاء كلّ شيء ويضع ختمه الإلهيّ ليس فقط على ما هو لحم وطين، بل على ما هو زمن وروح.

"في اليوم العاشر من هذا الشهر ليأخذ كلّ واحد حملاً لكلّ عائلة ولكلّ بيت. فإن كان أهل البيت أقلّ من أن يأكلوا حملاً، فليأخذه هو وجاره القريب مع عائلته بحيث يتمكنوا من استهلاك الحمل كلّهُ". ذلك أنّه ينبغي أن تكون الذبيحة والقربان كاملين وأن يُستهلكا. ينبغي ألاّ تبقى ولا قطعة صغيرة. ولن تبقى. كثيرون جداً من سوف يتغذّون بالحمل، عدد لا يحصى، لوليمة لا حدود زمنيّة لها، ولا حاجة للنيران لتحرق البقايا، لأنّه لن تكون هناك بقايا. إنّ تلك الأجزاء التي ستُقدّم وتُرفّض بسبب الكراهية سوف تستهلك بنار الضحيّة نفسها، بمحبّته. إنّني أحبّكم أيّها البشر. أنتم، أصدقائي الاثني عشر الذين اخترتكم بنفسي، أنتم الذين بكم يكون أسباط إسرائيل الاثنا عشر وأوردة

الإنسانية الثلاثة عشر. لقد جمعتُ الكلّ فيكم وفيكم أرى الكلّ مجتمعاً...
الكلّ.»

«ولكن في أوردّة جسد آدم أوردّة قايين كذلك. لا أحد منا رفع يده على صاحبه. فأين هابيل إذن؟» يسأل الاسخريوطي.

«أنت قلتَ. في أوردّة جسد آدم أوردّة قايين كذلك. وهابيل هو أنا، هابيل الوديع راعي القطعان، المرضي للربّ لأنّه كان يقدّم البواكير التي بلا عيب، وقبلها، وبين كلّ التقدّمات، ذاته. إنني أحبّكم أيّها البشر. حتّى ولو لم تحبّوني، فأنا أحبّكم. المحبّة تتسارع وتكمّل عمل مقدّمي الذبائح.

"ليكن الحَمَل بلا عيب، ذَكَراً، ابن سنة". لا وجود للزمن بالنسبة إلى حَمَل الله. هو الكائن. إنّهُ يبدو في اليوم الأخير كما كان في اليوم الأوّل لهذه الأرض. ذاك الذي هو مثل الآب، لا يعرف الشيخوخة في طبيعته الإلهيّة. وشخصه لم يعرف سوى شيخوخة واحدة، تعب واحد: الإحباط لأنّ مجيئه هو بلا جدوى بالنسبة لعدد كبير. حين ستعلمون كيف متّ -والعيون التي ستري ربّها وقد استحال أبرصاً تغطّيه القروح هي الآن مفعمة بالدموع إلى جانبي، ولم تعد ترى هذا التلّ الضاحك، لأنّ الدموع تغميها بسائلها- فقولوا كذلك: "ليس هذا هو سبب موته. بل لأنّه كان مجهولاً بالنسبة إلى الذين كانوا الأعزّ لديه، ومرفوضاً من كثير من البشريّة". ولكن إن لم تكن مسألة زمن بالنسبة لابن الله، وهو بالتالي يختلف عن حَمَل الطقس، فهو مشابه له لأنّه دون عيب وذَكَر مكرّس للربّ. نعم. عبثاً يعتذر الجلادون، الذين يقتلونني بالأسلحة، أو بإرادتهم، أو بخيانتهم قائلين: "كان مذنباً". فلا يمكن لأيّ شخص صادق أن يبيّنتني على خطيئة. هل يمكنكم أنتم؟

إننا نواجه الموت. أنا في مواجهته. وآخرون أيضاً. مَنْ؟ هل تريد أن تعرف مَنْ يا بطرس؟ الجميع. إنَّ الموت يقترب ساعة إثر ساعة ويقبض على الأقلّ توقّعاً له. ولكن حتّى أولئك الذين مازال أمامهم حياة طويلة ينسجونها، فهم ساعة إثر ساعة في مواجهة الموت، لأنّ الزمن هو ومضة مقارنة بالأبدية، ولأنّه في أوان الموت فحتّى أطول حياة تنتهي إلى لا شيء، وأعمال عقود وعقود بعيدة، منذ أوّل العمر، تعود مُحْتَشِدَةً لتقول: "هو ذا، بالأمس كنتَ تقوم بهذا الأمر". الأمس! هو دوماً الأمس عند الممات! والشرف والذهب اللذان يرغبهما الإنسان بحرقه هما غبار دائماً! وتفقد كلّ مذاق الثمرة التي كان مجنوناً بها! المرأة؟ المال؟ السُلطة؟ العلم؟ ماذا يتبقّى؟ لا شيء! فقط الضمير وحُكم الله الذي يقف أمامه الضمير، مسكيناً ومجرّداً من حمايات والثروات البشريّة، ومُحمّلاً فقط بأعماله.

"فليأخذوا دمه ويجعلوه على قائمتي الباب وعتبته العليا... وعندما يمرّ الملاك لا يضرب البيوت التي عليها علامة الدم". خذوا دمي. لا تضعوه على الأحجار الميته، بل على قلبكم الميت. إنّهُ الختان الجديد. وأنا، أختتن من أجل العالم بأسره. إنني لا أضحيّ بالجزء غير النافع، بل أقضي على رجولتي الرائعة، السليمة، النقيّة، أضحيّ بها بالكامل، ومن أعضائي المشوّهة، وأوردتي المفتوحة، آخذ دمي، وأخطّ على الإنسانيّة أختام الخلاص، أختام العرس الأبديّ مع الله الذي في السماوات، مع الآب الذي ينتظر، وأقول: "هاك، الآن لن يمكنك أن ترفضهم، لأنّك بهذا ترفض دمك".

"ويقول موسى: '...ومن ثمّ اغمسوا باقة زوفى في الدم وانضحوا القائمتين'". ألا يكفي إذن الدم؟ لا يكفي. مع دمي يجب أن تكون توبتكم. بدون توبة، مُرّة وخلاصيّة، يصبح موتي من أجلكم سدى.

هذه أوّل كلمة في الكتاب تتحدّث عن الحَمَل الفادي. ولكنّ الكتاب مليء منها. وكما تزيد كثافة الأوراق على هذه الأغصان مع كلّ طلعة شمس، فهكذا، طالما سنة تعقب أخرى تنتهي ونقترب من زمن الفداء، فهي الإزهار يتضاعف.

والآن إنني مع زكريا أقول لكم، لكم أنتم من أجل أورشليم: "هو ذا المَلِك يأتي مفعماً وداعة، راكباً على أتان وجحش ابن أتان. فقير هو". ولكنّه يُشَتَّت الأقوياء الذين يجورون على الناس. وديع هو، ومع ذلك فإنّ ذراعه المرتفع ليُبَارِك سينتصر على الشيطان والموت. "هو يعلن السلام، لأنّه مَلِك السلام". وهو، رغم كونه مصلوباً، فستمتدّ سيطرته من بحر إلى بحر. "هو الذي لا يصيح، الذي لا يَكسِر، الذي لا يُطفئ من ليس نوراً بل هو دخان، من ليس قوّة بل ضعف، المستحقّ كلّ لوم، يقيم العدل بحسب الحقّ". مسيحك يا مدينة صهيون، مسيحك يا شعب الربّ، مسيحك يا شعب الأرض.

"دون أن أكون حزيناً أو هائجاً" وأنتم ترون كم أنّه لا وجود فيّ للحزن الساخط الذي للمهزوم، ولا الحزن الحاقد الذي للفاقد، بل فقط جدّيّة من يرى إلى أيّة درجة يمكن أن يصل تملّك إبليس في الإنسان، وأنتم ترون كيف، مع إمكانيّة التحويل إلى رماد وتبديده بخفّة واحدة من مشيئتي، فأنا، خلال ثلاث سنوات، مددتُ يديّ لأدعو الجميع إلى المحبّة، بلا توقّف، والآن أيضاً سوف تُمدّ يداي هاتان وتُجرحان! "دون حزن أو هياج سأتوصّل إلى إقامة ملكوتي". ملكوت المسيح حيث يكون خلاص العالم.

يقول لي الآب، الربّ الأزليّ: "دَعَوْتُكَ، وأخذتُ بيدك، جعلتُك عهداً بين الشعوب والله ونوراً للأمم"، وقد كنتُ نوراً. نوراً لفتح عيون العميان، كلمة

لإعطاء الكلام للصمّ، مفتاحاً لفتح السجون السفليّة للذين كانوا في ظلمات الزلل.

والآن، أنا الكائن كلّ هذا، سوف أموت. أدخل في ظلمة الموت. الموت، أتفهمون؟...

ها هي ذي أوّل الأشياء المعلنة ستتمّ، أقولها أيضاً مع النبيّ. والأمر الأخرى سأقولها لكم قبل أن يفرّقنا الشيطان.

ها هي صهيون هناك في العمق. اذهبوا وخذوا الأتان والجحش. قولوا للرجل: "الرابّي يسوع محتاج إليهما". وقولوا لأُمّي إنّني سألحق بها. إنّها هناك مع المريمات على المنحدر. تنتظرني. إنّهُ انتصاري البشريّ... وليكن انتصارها. متّحدين دائماً. آه! متّحدين!..

ومن يكون قلب الضبع، الذي بضربة واحدة من مخالب قائمته، ينتزع قلب القلب الأموميّ: أنا، ابنها؟ إنسان هو؟ لا. إنّ أيّ إنسان يولد من امرأة، لا يمكنه أن يضرب أمّاً لأنّه يفكّر في أمّه وتمنعه غريزته وضميره. إذاً فهو ليس إنساناً. فمن هو إذن؟ شيطان. وهل يمكن لشيطان أن يهين المنتصرة؟ لكي يهينها يجب أن يلمسها. والشيطان لا يتحمّل نور وردة الله العذريّ. وإذا؟ من تقولون أنّه هو؟ ألا تتكلّمون؟ إذاً أنا سأقول ذلك.

لقد انصهر أكثر الشياطين مكرّاً في أكثر الرجال فساداً، وكما أنّ السمّ كامن في أنياب الحيّة، فقد كمن فيه هو الذي يمكنه أن يقترب من المرأة، ثمّ بغدر يلدغها. ملعون المسخ الهجين الذي هو شيطان وهو إنسان! هل ألغنه؟ لا. هذه الكلمة لا تصدر عن الفادي. وإذن أقول لنفس هذا المسخ الهجين ما قلّته لأورشليم المشوّهة، مدينة الله والشيطان: "آه! ليتك، في هذه الساعة

الممنوحة لك بعد، كنت تعرفين أن تأتي إلى المخلص!" ما من محبة أعظم من محبتي! ولا قدرة أعظم من قدرتي. الأب نفسه يسمح حينما أقول: "أشاء" وأنا لا أحسن قول سوى كلمات الرحمة لأجل الذين سقطوا والذين من هوتهم يمدّون لي أذرعهم. يا نفس أعظم خاطئ، إن مخلصك وهو على عتبة الموت، ينحني على هوتك ويدعوك لأن تأخذي يده. موتي لن يُمنع... ولكن أنت... لكن أنت... تخلصين، أنت التي ما زلت أحبك، ونفس صديقك لن ترتعش رعباً وهو يفكر أنه بفعل الصديق سيعرف هلع الموت، وهذا الموت...»

يسوع يصمت... مُنهكاً...

يثرثر الرُّسل ويتساءلون فيما بينهم: «ولكن عمّن يتكلّم؟ من يكون؟»

ويهوذا دون أيّ خجل من الكذب: «بالتأكيد واحد من الفرّيسيّين الزائفين... أنا أفكر بيوسف أو نيقوديموس، أو خوزي ومناين... كلّهم جشعون للسلطة وللمال... أنا أعلم أنّ هيرودس... وأعلم أنّ السنهدرين، قد وثق فيهم كثيراً! أترون أنّهم لم يكونوا حاضرين بالأمس أيضاً؟! لا يملكون الشجاعة لمواجهته...»

يسوع لا يسمع. فقد تقدّم إلى الأمام ولحق بأمّه، التي هي مع المريمات ومع مرثا وسوسنة. لا يغيب عن مجموعة السيّدات التقيّات سوى يونا امرأة خوزي.

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

4- (دخول يسوع إلى اورشليم)

1947 / 03 / 30

يسوع يحيط بذراعه كتف أمّه، التي نهضت حينما لحق بها يوحنا ويعقوب بن زبدي كي يقولوا لها: «ابنك على وشك الوصول.» ثم رجعا كي ينضمّا لرفاقهما الذين يتقدّمون على مهل وهم يتحدثون، بينما توما وأندراوس قد هرعا إلى بيت فاجي للبحث عن الأتان والجحش وإحضارهما إلى يسوع.

أثناء ذلك يتحدّث يسوع إلى النسوة: «ها نحن بالقرب من المدينة. أنصحكن بالذهاب إليها، والذهاب إليها بكلّ ثقة. ادخلن المدينة قبلي. قرب عين روجيل هناك الرعاة والتلاميذ الأكثر وفاء. لديهم أوامر بأن يرافقوكن ويحموكن.»

«الأمر هو أننا... قد تكلمنا مع أشير الذي من الناصرة وهابيل الذي من بيت لحم الجليل وكذلك مع سليمان. كانوا قد جاؤوا إلى هنا كي يرصدوا وصولك. فالجموع تُعدّ احتفالاً عظيماً. وكنا نريد أن نرى... انظر كيف تتحرّك قمم أشجار الزيتون؟ ليست الريح هي التي تحرّكها هكذا. إنّما هم الناس الذين يقطعون الأغصان ليفرشوا الطريق ويحموك من الشمس. وهناك؟! انظر هناك، إنهم يجردون أشجار النخيل من سعفها. تحسبهم عناقيد وهم رجال يتسلّقون الجذوع ولا يتوقّفون عن القطف منها... وعلى المنحدرات، ترى أطفالاً يحنون ليقطفوا الزهور. وبالتأكيد تُجرّد النساء الحقائق من الورود والأعشاب العطريّة ليفرشن بها الطريق. كنا نريد أن

نرى... ونقتدي بحركة مريم لعازر التي جمعت كلّ الزهور التي دستّها
بقدميك حينما دخلت حديقة لعازر.» تطلب مريم التي لحفى باسم جميعهنّ.

يُلاطف يسوع خذ قريبته العجوز، التي تبدو كأنّها طفلة تتشوّق إلى
رؤية مشهد، ويقول لها: «وسط الجمع الكثير لا ترين شيئاً. تقدّمن إلى
الأمام، إلى منزل لعازر الذي يحرسه متياس. سأمرّ من هناك، وسترينني من
أعلى.»

«بني... وتذهب وحيداً؟ ألا يمكنني البقاء إلى جانبك؟» تقول مريم وهي
ترفع وجهها الحزين للغاية، ومثبّطة عينيها السماويتين على ابنها الوديع.

«أودّ أن أرجوك البقاء في الخفاء. مثل الحمامة في تجويف الصخرة.
أنا في حاجة إلى صلاتك أكثر من حضورك. يا أمّي المحبوبة!»
«إن كان الأمر هكذا يا بنيّ، سنصلّي. جميعنا. من أجلك.»

«نعم. وبعد أن نراه مارّاً، ستأتين جميعكنّ معنا إلى قصري في
صهيون. وسأرسل خداماً إلى الهيكل ودوماً في إثر المعلّم، ليحملوا لنا أوامره
وأخباره.» تقرّر مريم أخت لعازر، السريعة دائماً في إدراك ما هو الأفضل
والقيام به بلا تأخير.

«أنتِ على حقّ يا أختي. رغم أنّه يؤلمني ألاّ أتبعه، إلا أنّي أدرك
الخير المؤسّس على هذا الأمر. عدا عن أنّ لعازر قد طلب منا ألاّ نعارض
المعلّم في شيء، ونطيعه في أدقّ التفاصيل. وسنفعل ذلك.»

«إذا، هيّا. هل ترين؟ الحركة تنشط على الطرق. إنّ الرُّسل سينضمّون
إليّ. هيّا. ليكن السلام معكنّ. سأدعكن تأتين في الأوقات التي أراها مناسبة.

الوداع يا أُمِّي. كوني في سلام. إِنَّ الله معنا.» يعانقها ويصرفها. وتمضي التلميذات المطيعات بلا تأخير.

ينضمّ الرُّسل العشرة إلى يسوع: «هل أرسلتهنّ قُدُماً؟»

«نعم، وسيرين دخولي من أحد المنازل.»

«من أيّ منزل؟» يسأل يهوذا الاسخريوطي.

«إيه! منازل الصديقات أضحت كثيرة!» يقول فيلبس.

«أليس في بيت أنايا؟» يصرّ الاسخريوطي.

يجيب يسوع بالنفي ويسلك طريق بيت فاجي البعيد قليلاً.

حينما يصبح على مقربة، يرجع الاثنان اللذان أرسلهما كي يجلبا الأتان والجحش. ويصيحان: «لقد وجدنا كما قلت، وأتيناك بالحيوانين. ولكنّ صاحبهما أراد أن يعدّهما ويزيّنهما بأفضل السروج ليكرمك. والتلاميذ، وقد انضمّوا إلى الذين قضوا الليل في شوارع بيت عنيا ليكرموك، يريدون أن يكون لهم شرف قيادتهما إليك، ونحن قَبَلْنَا. فقد بدا لنا أنّ محبّتهم تستحقّ مكافأة.»

«أحسنتم صنعاً. وفي غضون ذلك فلننتقدّم.»

«هل التلاميذ كُثُر؟» يسأل برتلماوس.

«آه! كثيرون. لا يمكن الولوج إلى شوارع بيت فاجي. كذلك قلتُ

لإسحاق أن يقود الحمار إلى كليونت بائع الجبن.» يجيب توما.

«أحسنَت صنعاً. لنمضِ حتّى منحدر التلال ذاك. ولنتنظر قليلاً في ظلّ تلك الأشجار.»

يمضون إلى المكان الذي حدّده يسوع.

«ولكنّا نبتعد! إنّك تتجاوز بيت فاجي دائراً خلفها!» يهتف الاسخريوطي.

«ولو أردتُ فعل ذلك، فمن يمنعني؟ هل أصبحتُ سجيناً ربّما، حتّى لا يعود مسموحاً لي المضيّ إلى حيث أريد؟ وهل من عجلة على ذلك والخوف من أن أفلت من القبض عليّ؟ وإن كنتُ مصيباً بابتعادي إلى أماكن أكثر أماناً، فهل من يمكنه منعي من ذلك؟» يسوع يرمق بنظرة خاطفة الخائن، الذي لا يعود يتكلّم ويرفع كتفيه كما ليقول: «افعل ما يحلو لك.»

يدورون بالفعل خلف البلدة الصغيرة، أظنّها إحدى ضواحي المدينة نفسها، لأنّها من جانبها الغربي هي في الحقيقة قليلة البعد عن المدينة، حيث تشكّل جزءاً من منحدرات بستان الزيتون التي تكلّل أورشليم من الجهة الشرقيّة. في الأسفل، بين المنحدرات والمدينة، يلمع القدرون تحت شمس نيسان [أبريل].

يجلس يسوع في هذا الاخضرار الصامت ويستغرق في أفكاره. ثمّ يقف ويتّجه بالضبط إلى قمّة المنحدر...

يقول يسوع: «هنا ستضعين رؤيا 31 / 07 / 1944. "يسوع الذي يبكي على أورشليم"، بدءاً من الجملة التي قلّتها لك في بداية الرؤيا.» بعد ذلك يستأنف إظهاره لي مراحل دخوله المنتصر.

30 تمّوز [يوليو]

لست أدري ما العمل لأكتب الوصف، ذلك أنني أشعر في قلبي من الضيق ما يجعلني أتألم من البقاء جالسة. ولكن وقتاً طويلاً مرّ وأنا على هذه الحال. وعليّ كتابة ما أراه.

بالنسبة إليّ يتّضح إنجيل اليوم: الأحد التاسع بعد العنصرة.

... من رابية قريبة من أورشليم، ينظر يسوع إلى المدينة الممتدة تحت قدميه.

الرابية ليست مرتفعة جداً. بالأكثر هي تشبه الميدان الصغير للقديس منياتو الجبل، في فلورنسا؛ ولكن هذا يكفي ليهيمن البصر على امتداد كلّ المنازل والشوارع، الصاعدة والهابطة بحسب عدم الاستواء في الأرض التي عليها تقوم أورشليم. تلك التلة بالتأكيد هي أكثر ارتفاعاً، إذا ما أخذنا في الاعتبار أدنى مستوى في المدينة، وهي ليست الجلجلة، ولكنها أقرب إلى الأسوار من تلك الأخيرة. إنها تبدأ تماماً بالقرب من الأسوار وترتفع بسرعة مبتعدة عنها، بينما تهبط من الجهة الأخرى برفق باتجاه ريف أخضر بكليته يمتدّ جهة الشرق. جهة الشرق إن قدرْتُ ذلك على الأقلّ بحسب نور الشمس.

يسوع وأتباعه تحت دغل أشجار، يجلسون في الظلّ. يرتاحون من المسافة التي قطعوها. ثمّ يقف يسوع، ويغادر المكان المشجر حيث كانوا يجلسون ويمضي مباشرة إلى قمة الرابية.

يبرز امتشاق قامته بوضوح وسط المساحة الفارغة التي تحيط به. إنه يبدو أطول بعد وهو هكذا واقف وبمفرده. يداه مشدودتان إلى صدره، فوق رداءه الأزرق، وينظر بجديّة إلى أبعد حدّ.

يراقبه التلاميذ. لكنهم يدعونه يفعل دون أن يتحركوا أو يتكلموا. ربّما اعتقدوا أنّه ابتعد ليصلّي.

ولكنّ يسوع لا يصلّي. فبعد أن ينظر طويلاً إلى المدينة بكلّ أحيائها، بكلّ ارتفاعاتها، بكلّ خصوصيّاتها، أحياناً بنظرات مطوّلة على هذه النقطة أو تلك، أحياناً بإصرار أقلّ، يبدأ يسوع البكاء بلا نحيب ولا ضجيج. الدموع تُورّم عينيه، ثمّ تسيل وتجري على خديّه ثمّ تسقط على الأرض... دموع صامتة وحزينة للغاية، كتلك التي لمن يعلم أنّ عليه أن يبكي، وحيداً، لا أمل له بتعزية وتفهم من أحد. بسبب ألم لا يمكن أن يُلغى وينبغي أن تتمّ معاناته، حتماً.

أخو يوحنا، بسبب موقعه، هو أوّل من يرى هذه الدموع ويخبر الآخرين الذين يتبادلون النظرات مندهشين.

«لا أحد منا قد فعل شراً.» يقول أحدهم، وآخر: «والجمع أيضاً لم يوجّه لنا إهانة، ولم يتواجد أحد عدوّ له.»
«لماذا يبكي إذا؟» يسأل أكبرهم سنّاً.

يقف بطرس ويوحنا معاً ويقتربان من المعلّم. ويعتقدان أنّ الشيء الوحيد الذي يمكن فعله هو أن يجعلاه يشعر بمحبّتهما ويسألاه ما به.

«يا معلم، أتبكي؟» يقول يوحنا واضعاً رأسه الأشقر على كتف يسوع، الذي يفوقه طولاً بالرأس والرقبة.

وبطرس، إذ يضع يده على خصره، ويحيط به وكأنّه يعانقه ليجذبه إليه، ويقول له: «ما الذي يؤلمك يا يسوع؟ قله لنا نحن الذين نحبك.»

يسند يسوع خذّه على رأس يوحنا الأشقر، ويفلت ذراعيه، ويحيط بدوره كتف بطرس بذراعه. ويظلّون هم الثلاثة هكذا في عناق، في وضع محبة هائلة. ولكنّ الدموع تستمرّ في السيلان.

ويوحنا الذي يشعر بها تسقط على شعره، يعاود السؤال: «لماذا تبكي يا معلّم؟ أيمن أن نكون نحن من سببنا لك الألم؟»

ينضمّ الرُّسل الآخرون إلى المجموعة الودودة وينتظرون إجابة بلهفة.

«لا.» يقول يسوع. «ليس منكم، أنتم لي أصدقاء، والصدّاقة عندما تكون مُخلصة، فهي بلسم وابتسامة، وليست دموعاً على الإطلاق. أودّ أن تبقوا دوماً أصدقائي. حتّى الآن ونحن على وشك الدخول في الفساد، الذي يختمر ويُفسد من لا يملك إرادة ثابتة للبقاء نزيهاً.»

«إلى أين نحن ذاهبون يا معلّم؟ أليس إلى أورشليم؟ إنّ الجموع بالفعل قد استقبلتك بفرح. هل تريد أن تخيّب آمالها؟ أم قد نذهب إلى السامرة لاجتراح معجزة؟ الآن بالضبط والفصح يقترب؟»
تُطرح الأسئلة من كلّ صوب في الوقت ذاته.

يرفع يسوع يده ليفرض الصمت، ثمّ بيده اليمنى، يشير إلى المدينة. إشارة واسعة كما الزارع الذي يلقي الحبوب أمامه ويقول: «هي الفساد. سندخل أورشليم. سندخل إليها. ووحده العليّ يعلم كيف أودّ أن أقدّسها بجلب القداسة الآتية من السماوات إليها. معاودة تقديسها، هذه المدينة التي يجب أن تكون المدينة المقدّسة. ولكن لا يمكنني فعل شيء من أجلها. فاسدة هي وفسادة ستبقى. وأنهار القداسة التي تجري من الهيكل الحيّ، والتي ستجري أكثر أيضاً خلال الأيام القليلة القادمة حتّى إفراغه من الحياة، لن تكفي

لافتدائها. سيقبل إلى القدوس السامرة والعالم الوثني. وسترتفع على المعابد الكاذبة معابد الله الحق. وستعبد قلوب الأمميين المسيح. ولكن هذا الشعب، هذه المدينة ستكون عدوة له على الدوام، وكراهيتها ستقودها إلى أعظم خطيئة. ينبغي لهذا أن يحدث. ولكن ويل لهؤلاء الذين سيكونون أدوات لهذه الجريمة. الويل!...»

يُمنع يسوع النظر بيهودا الذي هو تقريباً في مواجهته.

«هذا لن يحدث لنا أبداً. نحن رُسُلكَ ونؤمن بك، ومستعدون للموت من أجلك.» يكذب يهوذا بوقاحة ويقاوم بلا ارتباك نظرة يسوع. ويوحّد الآخرون احتجاجاتهم.

يردّ يسوع على الجميع متفادياً الإجابة المباشرة ليهودا.

«فلتسأ السماء أن تكونوا هكذا. إنّما الكثير من الضعف ما يزال في داخلكم، ويمكن للتجربة أن تجعلكم مشابهين للذين يكرهونني. صلّوا كثيراً واسهرُوا كثيراً على أنفسكم. إنّ الشيطان يعلم أنّه سوف يُهزَم ويريد أن ينتقم بانتزاعكم منّي. إنّ الشيطان يحيط بنا جميعاً: بي كي يمنعني من أن أعمل مشيئة أبي وأن أتم رسالتي؛ بكم أنتم كي يجعل منكم خدماً له. اسهرُوا. داخل هذه الأسوار سيأخذ الشيطان من لا يُحسن أن يكون قوياً. ذاك الذي صار اختياره لعنة له لأنّه أعطى لهذا الاختيار هدفاً بشرياً. لقد اخترتكم من أجل ملكوت السماوات لا ملكوت العالم. تذكّروا هذا.

وأنت، أيتها المدينة التي تريد أن خرابك والتي أبكي عليها، فلتعلمي أنّ مسيحك يصلّي من أجل فدائك. آه! لو كنت تُحسنين، على الأقلّ في هذه الساعة التي مازالت لك، المجيء إلى من هو سلامك! لو كنت تدركين، على

الأقلّ في هذه الساعة، المحبّة التي تعبر وسطك وتتجرّدين من الكراهية التي تجعلك عمياء ومجنونة، قاسية بحق نفسك وخيرك! لكن سيأتي يوم تتذكّرين فيه هذه الساعة! حينئذ يكون الوقت قد تأخّر جداً على بكائك وتوبتك! ستكون المحبّة قد عبرت واختفت من شوارعك، وستبقى الكراهية التي آثرتها. والكراهية سترتدّ ضدك، ضدّ أولادك. ذلك أنّ المرء ينال ما أراد، والكراهية تُسدّد بالكراهية. ولن تكون آنذاك كراهية الأقوياء ضدّ العزّل، بل ستكون كراهية ضدّ كراهية، وبالتالي حرب وموت. محاطة بخنادق ومسلّحين، ستعانين قبل أن تُهدمي وسترين سقوط بنيك بالأسلحة والجوع، والناجين يُسجنون ويحتقرون، وستطلبين الرحمة، ولن تجديها، لأنك لم تريدي معرفة خلاصك.

إنّي أبكي، يا أصدقائي، حيث أنّ لي قلب إنسان، وخراب الوطن ينتزع منّي الدموع. ولكنّ ما هو عدل يتمّ لأنّ الفساد داخل هذه الأسوار يتجاوز كلّ حدّ ويستنزل غضب الله. ويل للسكان الذين هم سبب الشرّ لوطنهم! ويل للرؤساء الذين هم السبب الرئيسيّ لذلك! ويل لمن يفترض فيهم أن يكونوا قديسين كي يقودوا الآخرين للاستقامة، وعلى العكس هم يُدنّسون مكان خدمتهم وأنفسهم! تعالوا. لن يجدي تصرّفي نفعاً. إنّما فلنجعل النور يشعّ مرّة أخرى وسط الظلمات!»

وينزل يسوع يتبعه أتباعه. يمضي سريعاً عبر الدرب، بوجه جادّ بل يكاد يكون متجهماً. لم يعد يتكلّم. يدخل منزلاً صغيراً عند أسفل التل ولا أرى شيئاً آخر...

يقول يسوع:

«المشهد الذي رواه لوقا يبدو بلا ربط، تقريباً غير منطقيّ. أرثي لفواج مدينة مذنبه ولا أعرف أن أشفق على عادات هذه المدينة؟

لا، لا أعرف، ولا يمكنني الإشفاق عليها، لأنّ هذه العادات هي بالضبط التي تولّد الفواجع، ورؤيتي لها تجعل ألمي أكثر حدّة. إنّ غضبي تجاه مُدّيسي الهيكل هي نتيجة منطقيّة لتأملي فواجع أورشليم المقبلة.

إنّ تدنيس عبادة الله، شريعة الله، هي التي تسبّب عقوبات السماء على الدوام. بجعل بيت الله مغارة للصوص، هؤلاء الكهنة غير الجديرين والمؤمنين (بالاسم فقط) غير الجديرين كانوا يجلبون للشعب كلّ اللعنة والموت. لا فائدة من إطلاق هذه التسمية أو تلك على الشرّ الذي يسبّب الألم للشعب. ابحثوا عن الاسم الدقيق له في هذا: "عقاب على حياة بهيميّة". الله ينسحب والشرّ يتقدّم. تلك هي ثمرة الحياة القوميّة [الأممية] غير المستحقّة لمسمّى مسيحيّة.

كما آنذاك، كذلك الآن، في هذه الفترة من العصر، لم أتأخّر عن معجزات الاستنهاض والتذكير. إنّما، وكما في السابق، لم أجلب إليّ وإلى أدواتي سوى الاستهزاء، اللامبالاة والكراهية. ومع ذلك، فليتذكّر الأخصّاء والأمم أنّ لا فائدة من البكاء حيث رفضوا مسبقاً معرفة خلاصهم، لا فائدة من تضرّعهم لي إذ حينما كنت معهم قد طردوني بحرب دَنَسَة، التي انطلافاً من ضمائر خاصّة، مكرّسة للشرّ، قد انتشرت في كلّ الأمّة. والأوطان لا تُخلّص بالأسلحة بقدر ما يكون ذلك بأسلوب حياة يجلب حمايات السماء.

استريح، يا يوحنا الصغيرة، واعلمي على أن تكوني دائماً وفيّة لاختياري لك. امضي في سلام.

يا له من تعب! في الحقيقة لم أعد أستطيع...

...ما كاد يدخل يسوع المنزل ليبارك قاطنيه، حتّى سُمِعَت رنّات صنوج فرحة وأصوات احتفال. وبعد ذلك مباشرة يظهر وجه إسحاق الناحل الشاحب من خلال فتحة الباب، ويدخل الراعي الأمين ويسجد أمام ربّه يسوع.

ضمن إطار الباب المفتوح على سعته تتزاحم وجوه كثيرة، وخلفها ترى وجوه أخرى... تزاحم، تدافع، رغبة في التقدّم... بعض هتافات نساء، بكاء أطفال وسط الجمع الغفير، تحيّات، هتافات فرحة: «مغبوط هو اليوم الذي قادك إلينا! السلام لك يا رب! عودة سعيدة يا معلّم، مكافأة لإخلاصنا.» يقف يسوع ويشير إلى أنّه سيتكلّم. يصمت الجميع، ويُسمَع صوت يسوع بوضوح.

«السلام لكم! لا تتزاحموا. سنصعد الآن معاً إلى الهيكل. لقد جنّت لأكون معكم. سلام! سلام! لا تتسبّبوا بأذى لأنفسكم. افسحوا المجال يا أحبائي! دعوني أخرج واتبعوني، لندخل معاً المدينة المقدّسة.»

يطيع الناس كيفما اتّفق، يفسحون المجال قليلاً، بما يكفي ليخرج يسوع ويمتطي الجحش. إذ إنّ يسوع قد حدّد مطيّته، ابن الأتان الذي لم يمتطه أحد حتّى ذاك الوقت، حينئذ بعض الأغنياء من الحجاج الذين يتدافعون وسط الجمع، يمدّون أروديتهم الفاخرة على ردف الجحش، ويجعل أحدهم إحدى ركبتيه على الأرض والأخرى كما مرقاة قدم ليجلس الربّ على الجحش، وتبدأ الرحلة، فيما يمشي بطرس إلى جانب المعلم وفي الجانب الآخر إسحاق، الذي يمسك لجام الدابة غير المروّضة، ومع ذلك تمشي بهدوء كما لو كانت معتادة على هذه المهمّة، دون أن تجمع أو تفرع من الأزهار التي إذ

تُلقى على يسوع، فتصيب غالباً الدابة في عينيها وخطمها الطريّ، ولا من أغصان الزيتون وسعف النخيل التي تتحرّك أمامها وحولها، وتُلقى على الأرض مع الأزهار لتكون سجّادة، ولا من الصيحات التي تتعالى باطّراد: «هوشعنا، يا ابن داود!» التي تتصاعد نحو السماء الصافية، بينما تتزاحم الجموع أكثر فأكثر وتزداد بسبب الوافدين الجدد.

إنّ المرور من بيت فاجي، وسط الشوارع الضيّقة والملتوية، ليس بالأمر السهل، فعلى الأمّهات أخذ الأولاد بين أذرعهنّ، والرجال يحمون نساءهم من الضربات العنيفة، ويحصل أن يجلس أب ابنه على كتفيه بانفراج الساقين ويحمله عالياً فوق الجمع، بينما أصوات الصغار تبدو وكأنّها ثغاء حملان أو صيحات سنونو، وأيديهم الصغيرة ترمي الورود وأوراق الزيتون التي تقدّمها لهم أمّهاتهم، وكذلك يرسلون قبالات ليسوع الوديع...

ولدى الخروج من الشوارع الضيّقة للضاحية الصغيرة، يترتّب الموكب ويتمدّد، ومتطوّعون كُثُر يتقدّمون إلى الأمام ليكونوا في المقدّمة لإفساح المجال وإزالة العوائق من الطريق، ويتبعهم آخرون وهم يفرشون الأرض بالأغصان، وأحدهم يرمي أولاً رداءه ليكون بساطاً، وآخر، وأربعة، وعشرة، ومائة، وألف يقتدون به. لقد أصبح وسط الطريق شريطاً من الملابس المبسوطة على الأرض بألوان متعدّدة، وبعد مرور يسوع تُلْتَقَط الملابس وتُنْقَل إلى الأمام، مع أخرى وأخرى، ودائماً أزهار، أغصان، وسعف نخل تتحرّك أو تُلقى على الأرض، هتافات أقوى ترتفع حول ملك إسرائيل إكراماً له، لابن داود، لملكوته!

يَخرج جنود الحراسة عند الباب ليروا ما يحدث. ولكنّه ليس عصياناً،
وهم، متكئين على رماحهم، يتوقّفون جانباً، مراقبين بذهول أو باستهزاء
الموكب الغريب لهذا المَلِك الجالس على جحش، البهيّ مثل إله، البسيط مثل
أفقر الناس، الوديع، المبارك... يحيط به نساء وأطفال ورجال غير مسلّحين
وهم يصيحون: «السلام! السلام!» لهذا المَلِك الذي قبل دخوله المدينة،
يتوقّف للحظة على مستوى قبور برص هنوم وسلوام (أظنّني تكلمتُ عن هذه
الأماكن بشكل جيّد، حيث رأيتُ في مرّات أخرى معجزات كثيرة على
البرص) وإذ يستند على الركاب الوحيد الذي يسند عليه رجله، حيث إنّهُ
يجلس على الحمار ولا يمتطيه، يقف ويفتح ذراعيه وهو يصيح في اتّجاه هذه
المنحدرات الرهيبة (حيث تظهر وجوه وأجساد مرعبة وهي تنظر إلى يسوع
وتطلق صيحات عويل البرص: «نحن مصابون!» كي يبعد غير المحترسين
الذين لرغبتهم في رؤية يسوع بشكل جيّد، فإنّهم يرتقون أيضاً المسطّحات
الموبوءة: «مَنْ يؤمن بي فليدعُ باسمي وليبرأ بفضل ذلك!» ويبارك وهو
يكمل طريقه، ويأمر يهوذا الاسخريوطيّ: «اشترِ طعاماً للبرص واحمله إليهم
مع سمعان قبل المساء.»

يدخل الموكب تحت قنطرة باب سلوام، وثمّ مثل سيل ينصبّ في المدينة
ماراً بضاحية عوفل -حيث أضحت كلّ شرفة باحة علويّة صغيرة مليئة
بالناس الذين يهتفون الهوشعنا، الذين يلقون الأزهار ويسكبون العطور إلى
أسفل على الطريق، محاولين إلقاءها على المعلّم، والجوّ قد أشبع برائحة
الأزهار التي تموت تحت خطوات الجموع، وبرائحة العطور التي تنتشر في
الجوّ قبل أن تسقط على تراب الطريق- إنّ صيحات الجموع تبدو أنّها تتعاضم

وتشتدّ، كما لو أنّ كلّاً منهم يصرخ في مكبر صوت، لأنّ القناطر المزخرفة
العديدة التي تمتلئ بها أورشليم تُضخم الصوت ولا تتي ثرّج صداحه.

أسمعهم يهتفون، وأظنه بمعنى ما يقوله الإنجيليون: «شياليم، شياليم
ملشيل!» (أو مالشي: اجتهد في تمييز نغمة الكلمات، ولكنّها صعبة لأنّ بها
نطقاً لا مثيل له عندنا). صخب مستمرّ، شبيه بصخب بحر في عاصفة، لم
يتلاش فيه بعد هدير موجة تضرب الشاطئ والصخور، حتّى تتجمّع وترتفع
موجة أخرى في هدير جديد دونما توقّف. ممّا أصابني بالصمم!

عطور، روائح، هتافات، أغصان وملابس تتحرك، ألوان... إنّها رؤيا
مذهلة.

أرى اختلاط جموع لا نهاية له، وجوهاً معروفة تظهر وتختفي: كلّ
التلاميذ من كلّ أصقاع فلسطين، كلّ التابعين ليسوع... أرى للحظة
يائيروس، أرى جايا المراهق من بيللا (كما يبدو لي) الذي كان أعمى مع أمّه
وشفاه يسوع، أرى يواكيم الذي من بصرى، وفلاح سهل شارون مع إخوته،
أرى متياس الكهل والمتوحّد من ذاك المكان الذي بالقرب من الأردن (الضفة
الشرقيّة)، حيث التجأ يسوع حينما كان كلّ شيء غارقاً، أرى زكّا مع
أصدقائه المهتدين، أرى العجوز يوحنا من نوبة مع كلّ أهل بلدته تقريباً،
أرى زوج سارة من يافا... إنّما من يقدر أن يحفظ تلك الوجوه وهذه الأسماء،
وهي تشكيلة من الوجوه المعروفة وغير المعروفة، المشاهدة مرّة واحدة أو
عدّة مرّات؟... ها هو الآن وجه الراعي الصغير الذي من عين نون.
وبالقرب منه، تلميذ كورازين الذي ترك جنازة والده ليتبع يسوع؛ وقريب
منه، للحظة، والد بنيامين وأمّه من كفرناحوم مع ابنهم الشابّ، الذي كاد يقع

تحت قوائم الجحش باندفاعه إلى الأمام كي ينال ملاطفة من يسوع. و
-للأسف!- هناك وجوه لفرّيسيّين وكتّبة، ممتنعين غضباً بسبب هذا الانتصار،
والذين بتعجرف، يخترقون دائرة المحبة المتزاحمة حول يسوع، ويصيحون
فيه: «أُسكِت هؤلاء المجانين! أَعِدْهم إلى العقل! لله وحده هتاف الهوشعنا. قل
لهم أن يصمتوا!»

يجيبهم يسوع بهدوء: «حتّى ولو قلتُ لهم أن يصمتوا وأطاعوني، فإنّ
الحجارة لتَهْتَف بمعجزات كلمة الله.»

بالفعل إنّ الناس يهتفون: «هوشعنا، هوشعنا لابن داود! مبارك الآتي
باسم الربّ! هوشعنا له ولملكوته! الله معنا! عمّانويل قد أتى. لقد أتى ملكوت
مسيح الربّ! هوشعنا! هوشعنا من الأرض حتّى أعالي السماوات! سلام!
سلام يا ملكي! سلام وبركة لك أيّها المَلِك القدّوس! سلام ومجد في السماوات
وعلى الأرض! المجد لله لأجل مسيحه! السلام للناس الذين يُحْسِنُونَ استقباله!
السلام على الأرض للناس ذوي الإرادة الصالحة والمجد في السماوات العليا
لأنّ ساعة الربّ أتت!» (والذين يطلقون هذا الهتاف الأخير هم جماعة
الرعاة المتلاحمة الذين يكرّرون هتاف الميلاد). عدا هذه الهتافات
المتواصلة، فإنّ أهل فلسطين يروون لحاج الشّتات المعجزات التي رأوها.
ولأولئك الذين لا يعرفون ما الذي يجري، الغرباء الذين يمرّون مصادفة
بالمدينة، ويسألون: «إنّما مَنْ يكون هذا؟ ماذا يحدث؟» يشرحون: «هو
يسوع! يسوع، معلّم ناصرة الجليل! النّبيّ! مَسِيّا الربّ! الموعود! القدّوس!»

من منزل قد تمّ تجاوز بابه منذ قليل، ذلك أنّ السير بطيء جداً في مثل
تلك الفوضى، يخرج رهط من الشباب الأقوياء حاملين أواني نحاسيّة مليئة

بفحم مشتعل وبخور، الذي يتّقد ناشراً سُحْب دخان معطّر. وحركتهم معتبرة ويتم تكرارها، وكثير يهرعون إلى الأمام أو يعودون إلى الخلف، إلى منازلهم، ليجلبوا ناراً ورائتجاً عطراً كي يحرقوها إجلالاً للمسيح.

يظهر منزل أناليا. الشرفة المتوّجة بالكروم ذات الأوراق الجديدة التي ترتعش بفعل نسيم نيسان [أبريل] اللطيف، عليها من الجهة المطلّة على الشارع صفّ من الصّبايا اللابسات الأبيض مع الأوشحة البيضاء، وفي وسطهنّ أناليا، معها سلال من بتلات ورود مُورقة وزنايق الوادي التي أضحت ترفرف في الهواء.

«عذارى إسرائيل تحيّيك يا رب!» يقول يوحنا، الذي شقّ لنفسه طريقاً وقد أصبح الآن بجوار يسوع، لافتاً انتباهه إلى إكليل النقاء المنحني على سور الشرفة مبتسماً، ليفرش الدرب ببتلات حمراء كالدّم وبزنايق وادي بيضاء كاللّألئ.

يشدّ يسوع اللّجام للحظة ويوقف الجحش. يرفع وجهه ويده ليبارك تلك البتوليّة المفعمة محبةً تجاهه لدرجة رفض كلّ محبة أرضيّة.

وتنحني أناليا وتهتف: «لقد رأيتُ انتصارك يا ربّي! خذ حياتي لأجل مجدك الكلّي!» وهاتفة بكلّ قوّة، بينما يمرّ يسوع تحت منزلها ويتقدّم، تحيّيه: «يسوع!»

وصيحة أخرى، مختلفة، تفوق صراخ الجموع. ولكنّ الناس، رغم سماعها لا يتوقّفون. إنه نهر حماسة، نهر ناس في هذيان لا يمكن أن يتوقّف. وبينما ما تزال الأمواج الأخيرة لهذا النهر خارج الباب، يصعد الأولون المنحدرات التي تقود إلى الهيكل.

«أُمَّكَ!» يصيح بطرس مشيراً إلى منزل هو تقريباً عند زاوية طريق تصعد إلى جبل موريا، والتي يتوجّه إليها الموكب. ويسوع يرفع وجهه ليبتسم لأُمّه التي هي في الأعلى وسط النسوة المخلصات.

الالتقاء بقافلة كثيرة العدد يوقف الموكب بعد بضعة أمتار من اجتياز المنزل. وأثناء توقّف يسوع مع الآخرين، ملاطفاً الأطفال الذين تقدّمهم الأمّهات له، يجري رجل فاسحاً الطريق وهو يصيح: «دعوني أمراً! إنّ امرأة قد ماتت. شابة صغيرة. فجأة. أمّها تدعو المعلم. دعوني أمراً! لقد سبق أن أنقذها مرّة!»

يفسح له الناس المجال ويهرع الرجل صوب يسوع: «يا معلّم، إنّ ابنة إليز قد ماتت. لقد حيّتكِ بتلك الصيحة، ثمّ انهارت وهي تقول: "أنا سعيدة"، ثمّ لفظت أنفاسها. لقد انسحق قلبها من شدّة فرح رؤيتكِ منتصراً. لقد رأيتني أمّها على الشرفة الملاصقة للمنزل فأرسلتني كي أستدعيكِ. تعال يا معلّم.»

«ماتت! ماتت أناليا! ولكنّها بالأمس فقط كانت سليمة، بصحة جيّدة، وسعيدة؟» يتجمّع الرُّسل مضطربين، والرعاة أيضاً. الجميع رآها بالأمس في أكمل صحّة. ومنذ قليل رأوها وردية، ضاحكة... إنّهم لا يستطيعون تصديق المصيبة... يسألون ويستعلمون عن التفاصيل...

«لا أعلم. لقد سمعتم جميعاً كلامها. كانت تتكلّم بقوة وثقة. ثمّ رأيتموها تنهار وقد صارت أكثر ابيضاضاً من ثوبها وسمعتُ أمّها تصيح... لا أعرف شيئاً آخر.»

«لا تضطربوا، لم تمت. إنّ وردة قد سقطت وتلقّاها ملائكة الله ليحملوها إلى حضن إبراهيم. وقريباً ستفتح الزنبقة الأرضيّة سعيدة في

الفردوس، جاهلة إلى الأبد هول العالم. يا رجل، قل لاليز ألا تبكي مصير ابنتها. قل لها إنها نالت نعمة عظيمة من الله، وخلال ستة أيام ستفهم أية نعمة قد وهب الله لابنتها. لا تبكوا. لا يبكين أحد. إن انتصارها هو أعظم بعد من انتصاري، لأن الملائكة ترافق العذراء ليقودوها إلى سلام الأبرار. وهذا هو الانتصار الأبدي الذي يتعاضم دون أن يعرف الانحدار أبداً. الحق أقول لكم أن من حَقكم جميعاً البكاء على ذواتكم ولكن ليس على أناليا. هيّا بنا.» ويكرّر للرُّسل وللذين يحيطون به: «إنّ وردة قد سقطت، إنّها تترقد في سلام وقد تلقّاها الملائكة. طوبى لنقيّة الجسد والقلب لأنّها سوف ترى الله قريباً.»

«إنّما كيف، ما الذي جعلها تموت يا ربّ؟» يسأل بطرس غير القادر على التصديق.

«من المحبّة. من النشوة. من الفرح اللامتناهي. يا لها من مية سعيدة!» الذين تقدّموا كثيراً لم يعرفوا، والذين إلى الوراء كثيراً لم يعرفوا. ولذلك فقد استمرّت الهوشعنا، رغم أنّ دائرة من الصمت المتأمل قد تكوّنت بالقرب من يسوع.

ويوحنا هو الذي يقطعه: «آه! أودّ لو يكون لي المصير ذاته قبل الساعات المقبلة!»

«وأنا أيضاً» يقول إسحاق. «أودّ لو أرى وجه الصبيّة التي ماتت حبّاً بك...»

«أرجوكم أن تضحّوا برغباتكم من أجلي. أنا في حاجة لوجودكم إلى جانبي...»

«لن نتركك أبداً يا ربّ. ولكن أما من تعزية لهذه الأم؟» يسأل نثنائيل.

«سأتدبّر الأمر...»

هم الآن عند أبواب أسوار الهيكل. ينزل يسوع عن الجحش، الذي يهتم به أحدهم وهو من بيت فاجي.

جدير بالذكر أنّ يسوع لم يتوقّف عند أوّل باب للهيكل، ولكنّه حاذى السور، متوقّفاً فقط عندما يصل إلى الجهة الشماليّة للسور، بالقرب من قلعة أنطونيا. هناك ينزل ويدخل الهيكل، كما ليُظهر أنّه لا يختبئ من السلطة الحاكمة، ويحسب نفسه بريئاً في كلّ تصرّفاتِهِ.

الباحة الأولى للمعبد تُظهر الضوضاء المعتادة للسيارة وبائعي الحمام، والطيور والحملان، بفارق واحد هو أنّ الباحة الآن قد تُركوا وحدهم حيث هرع الجميع لرؤية يسوع. ويسوع يدخل، مهيباً في ثوبه القرمزيّ، ويجول ببصره في هذا السوق وعلى مجموعة من الفريسيين والكتبة الذين يراقبونه من تحت الرواق.

نظرته وامضة بالسخط. يندفع إلى وسط الباحة. قفزته غير المتوقّعة تبدو وكأنّها طيران. طيران لهب، ذلك أنّ ثوبه شعلة هو تحت الشمس التي تغمر الباحة. ويدوي بصوت قادر: «اخرجوا من بيت أبي! فهو ليس مكان ربا وسوق. مكتوب: "بيتي بيت صلاة يدعى". فلماذا إذن حوّلتُم إلى مغارة لصوص هذا البيت الذي يُبتَهَل فيه لاسم الربّ؟ اخرجوا من هنا! طهّروا بيتي. حتّى لا أضربكم بصواعق الغضب السماويّ بدلاً من الحبال. اخرجوا من هنا! اخرجوا من هنا أيّها اللصوص، يا تجار السقط، الفجار، القتلّة، مُدَنّسي المقدّسات، الوثنيين بأشع وثنيّة: التي هي الأنا المتكبّرة، المُفسدين،

الكذبة. خارجاً خارجاً! وإلا فسيكنس العليّ هذا المكان إلى الأبد ويحلّ انتقامه على شعب بأكمله.» لم يكرّر ضرب السوط كالمرّة السابقة، إنّما، إذ رأى أنّ الباعة والصيارفة قد تأخّروا عن الطاعة، فيذهب ويقلب مائدة الصرافة الأقرب، جاعلاً الموازين وقطع النقود تتناثر على الأرض.

يسرع البائعون والصيارفة لوضع أمر يسوع موضع التنفيذ، بعدما رأوا أوّل مثال. ويسوع يصيح خلفهم: «وكم مرّة ينبغي لي أن أقول أنّ هذا ليس مكان قذارة بل مكان صلاة؟» وينظر إلى القائمين على الهيكل الذين، إذ يطيعون أوامر كبير الكهنة، فإنّهم لا يقومون بأيّة حركة اعتراضية.

ما أن تُطهر الباحة، حتّى يمضي يسوع نحو الأروقة حيث اجتمع عميان، مشلولون، صمّ، مُقعّدون، ومرضى آخرون، والذين يتضرّعون إليه بصيحات هائلة.

«ماذا تريدون أن أصنع لكم؟»

«الإبصار يا ربّ! الأعضاء! أن يتكلّم ابني! أن تبرأ امرأتي! إنّنا نؤمن بكّ كابن الله!»

«فليسمع الله لكم. انهضوا وقلوا هوشعنا للربّ!»

لا يشفي المرضى الكثيرين واحداً إثر الآخر. لكنّه يقوم بحركة واسعة بيده، وتنزل النعمة والصحة على التعساء، الذين ينتصبون أصحّاء مع هتافات الفرح التي تختلط مع هتافات أطفال كثيرين يتزاحمون حوله وهم يردّدون: «المجد، المجد لابن داود! هوشعنا ليسوع الناصريّ، ملك الملوك، وربّ الأرباب!»

فَرِيسِيّونَ، متصنّعين الاحترام، يصيحون: «يا معلّم، أسمعهم؟ هؤلاء الأطفال يقولون ما يجب عدم قوله. أوقفهم! وليصمتوا!»

«ولماذا؟ ألم يقل الملِكُ النبيّ، الملِكُ الَّذي أنا من ذريّته: "من أفواه الأطفال والرضع أخرجتَ التسبيح الكامل كي يربك أعداءك"؟ ألم تقرأوا هذه الأقوال من مؤلّف المزامير؟ دعوا الصغار يسبّحوني. لقد أُوحيت لهم من ملائكتهم، الَّذِينَ يرون أبي بلا توقّف ويعرفون أسرارهِ ويوحون بها لهؤلاء الأبرياء، والآن دعوني جميعكم أذهب للصلاة للربّ.» وبمروره أمام الناس يعبر إلى الردهة الخاصّة بالإسرائيليين للصلاة...

ومن ثمّ، إذ يخرج من الباب الآخر، محاذياً بركة الغنم، يخرج من المدينة عائداً إلى تلال جبل الزيتون.

الرُّسُل متحمّسون... الانتصار منحهم ثقة، وقد نسوا، نسوا تماماً كلّ المخاوف التي أثارها كلام المعلّم... يتحدّثون عن كلّ شيء... متحرّقين للاستعلام عن أناليا. وبمشقة يمنعهم يسوع من الذهاب، مؤكّداً لهم أنّه سيتدبّر الأمر بطريقة يعلمها هو... صمّ، صمّ، صمّ عن كلّ كلمة إنذار إلهي... بشر، بشر، بشر، ينسيهم هتاف هوشعنا واحد كلّ شيء...

يتحدّث يسوع إلى خدام مريم المجدليّة، الَّذِينَ لحقوا به إلى الهيكل، ثمّ يصرفهم...

«والآن إلى أين نذهب؟» يسأل فيلبّس.

«هل إلى منزل مرقس بن يونا؟» يقول يوحنا.

«كلّا. إلى معسكر الجليليين. ربما يكون إخوتي قد حضروا وأودّ أن ألقى عليهم التحيّة.» يقول يسوع.

«يمكنك فعل ذلك غداً.» يلفت نظره تداوس.

«حسن أن نفعل الأمر حين نستطيع فعله. هيّا بنا إلى الجليليين حيث هم. سيسرّون برؤيتنا. وستعرفون أخبار عائلاتكم. أنا، سأرى الأطفال...»

«وهذا المساء؟ أين ننام؟ في المدينة؟ في أيّ مكان؟ حيث هي والدتك؟ أو عند يُونّا؟» يسأل يهوذا الاسخريوطيّ.

«لا أعرف. بالتأكيد ليس في المدينة. ربما أيضاً تحت الخيام الجليليّة...»

«ولكن لماذا؟»

«لأنّني الجليليّ وأحبّ موطني. هيّا بنا.»

يعاودون المسير صاعدين صوب معسكر الجليليين، الذي هو على جبل الزيتون من جهة بيت عنيا، والذي هو مجموعة من الخيام البيضاء تحت شمس نيسان [أبريل] المتهلّلة.

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

5- (مساء الأحد في جثسيماني)

1945 / 03 / 04

يسوع مع أتباعه في سلام بستان الزيتون. إنه المساء. مساء دافئ لقمر كامل. يجلسون على مقاعد طبيعية هي منحدرات بستان الزيتون، بالضبط هي الأولى، المائلة على تلك الفسحة الطبيعية الصغيرة التي تشكّل فرجة عند المدخل. يُسمع هدير قدرون باصطدام حصى مجراه وكأنّه يحدث نفسه. صداح بلبل. النسيم المتنهد ولا شيء آخر.

يسوع يتكلّم.

«بعد نصر هذا الصباح، أصبح روحكم مختلفاً. ماذا ينبغي لي أن أقول؟ فُرّج عنه؟ آه! نعم! بحسب البشريّة هو مُفَرّج عنه. لقد دخلتم المدينة وأنتم ترتعشون بسبب كلامي. كان يبدو أنّ كلّ واحد منكم خائف على نفسه من القتلة المأجورين خلف الأسوار، المتأهّبين للانقضاض عليه ووضعه في السجن.

في كلّ إنسان يوجد إنسان آخر يتكشف في الأوقات الأكثر شدّة. فهناك البطل، الذي في ساعات الخطر الأعظم، يثب خارجاً من الإنسان الوديع الذي اعتاد العالم رؤيته والاعتقاد بتفاهته، البطل الذي يقول للمعركة: "ها أنا ذا"، الذي يقول للعدوّ، للمتغطرس: "كن ندّاً لي". وهناك القديس الذي، حينما يهرب الجميع هلعين أمام الطغاة الذين يريدون ضحايا، يقول: "خذوني رهينة وضحية. أنا أفدي الجميع". وهناك الوقح، الذي ينتفع شخصياً من مصائب

الجميع ويضحك على أجساد الضحايا. وهناك الخائن الذي له شجاعته الخاصة: شجاعة الشر. الخائن الذي هو مزيج من الوقح والجبان، وهو كذلك ينتمي لفئة تظهر في ساعات الشدة. لأنه ينتفع بوقاحة من مصيبة وينضمّ بجبن إلى الجهة الأقوى، متجاسراً، للاستفادة منها، في مواجهة احتقار الأعداء ولعنات الذين هجرهم. وفي النهاية هناك النوع الأكثر انتشاراً، وهو الجبان الذي في ساعات الشدة، لا يمكنه سوى الأسف من انتمائه لجهة وإنسان، إذ يُرشق الآن بالحرَم، والفرار... هذا الجبان ليس مجرمًا كالوقح ولا مقزراً كالخائن. ولكنه يُظهر دائماً النقص في بنيته الروحية.

أنتم... أنتم نظير ذلك. لا تنكروا. إنني أقرأ الضمائر. هذا الصباح كنتم تفكرون فيما بينكم: "ماذا سيحصل لنا؟ هل نذهب إلى الموت نحن أيضاً؟" والقسم الأدنى كان يتمتم: "مطلقاً!..."

نعم. ولكن هل خدعْتُكم يوماً؟ من بداية كلامي حدّثْتُكم عن اضطهاد وموت. وعندما أراد واحد منكم، لفرط إعجابه، أن يرى فيّ ملكاً وأراد أن يقدّمني كمَلِك، كواحد من ملوك الأرض المساكين، مسكين دوماً وإن يكن مَلِكاً ويعيد المَلِك لإسرائيل. فصَحَّحتُ على الفور خطأه، وقلتُ: "أنا مَلِك الروح. أهب حرماناً، توضحيات، آلاماً. ليس لديّ أشياء أخرى. هنا على الأرض لا شيء آخر لديّ. ولكني بعد موتي، وموتكم في الإيمان بي، سأعطيكُم ملكوتاً أبدياً: ملكوت السماوات". هل قلتُ لكم ربّما شيئاً مختلفاً؟ لا. تقولون لا.

وأنتم حينذاك كنتم تقولون أيضاً: "نحن لا نريد سوى هذا. معك، مثلك، بسببك، نريد أن نكون ونُعامل ونُعاني". نعم كنتم تتكلّمون هكذا. وكنتم

صادقين كذلك. ولكن كان ذلك لأنكم كنتم لا تفكرون إلا كأطفال، كأطفال طائشين. كنتم تفكرون أن أتباعي سهل، وقد كنتم مُشرّبين بالشهوات الثلاثية، لدرجة أنكم لم تكونوا قادرين على الإقرار بأن ما كنتُ أُلَمِّحُ إليه حقّ هو. كنتم تفكرون: "هو ابن الله. إنه يقول هذا كي يختبر محبّتنا. ولكنّه لن يُضرب من البشر. فهو الذي يجترح المعجزات، سيعرف اجترح معجزة كبيرة لنفسه!" وكان كلّ واحد يضيف: "لا يمكنني التصديق بإمكانية أن يخونه أحد، ويُقبَض عليه ويُقتل". كان إيمانكم البشريّ قوياً جداً بقدرتي حتّى وصلتُم إلى عدم الإيمان بأقوالي، الإيمان الحقّ، الروحيّ، المُقدّس والمُقدّس.

"هو الذي يجترح معجزات يمكنه أن يجترح واحدة لنفسه!" كنتم تقولون. وليس واحدة، بل معجزات كثيرة سأجترحها أيضاً. واثنان منها لن يكون بإمكان أيّ عقل أن يتصوّرهما. ستكونان بحيث مَنْ يؤمن بالربّ فقط يمكنه تقبّلهما. وعلى مدى عصور وعصور، سيقول كلّ الآخرين: "محال!" وحتّى بعد الموت سأكون موضوع معارضة لكثيرين.

في صباح يوم ربيعيّ لطيف، أعلنتُ من على أحد الجبال التطويبات المختلفة. هناك واحدة أخرى: "طوبى للذين سوف يؤمنون دون أن يروا". لقد قلتُ بالفعل وأنا أجول في فلسطين: "طوبى للذين يسمعون كلمة الله ويحفظونها"، وأيضاً: "طوبى لمن يصنع مشيئة الله" وتطويبات أخرى، وقلتُ أخرى، ذلك أنّ في منزل أبي كثيرة جداً هي الأفراح التي تنتظر القديسين. إنّما هناك كذلك هذه. آه! طوبى للذين سيؤمنون دون أن يروا بعيونهم الجسديّة! سيكونون قديسين لدرجة أنّهم وهم على الأرض سيرون الله. الله المختفي في سرّ المحبة.

أَمَّا أَنْتُمْ، الَّذِينَ كُنْتُمْ مَعِيَ مِنْذُ ثَلَاثِ سِنَوَاتٍ، لَمْ تَتَوَصَّلُوا بَعْدَ إِلَى هَذَا الْإِيمَانِ. وَتُؤْمِنُونَ فَقَطْ بِمَا تَرُونَ. وَلِهَذَا مِنْذُ الصَّبَاحِ، بَعْدَ الْإِنْتِصَارِ، تَقُولُونَ: "هَذَا مَا كُنَّا نَقُولُهُ. إِنَّهُ يَنْتَصِرُ، وَنَحْنُ مَعَهُ". وَمِثْلُ عَصَافِيرٍ تَرْتَّبُ رِيشَهَا الْمَنْفُوشَ بَعْدَ عَنَفٍ أَحَدُهُمْ، تَرْتَقُونَ لِلطَّيْرَانِ، سَكَارَى مِنَ الْفَرَحِ، مِمْتَلئينِ ثَقَّةً، أَحْرَاراً مِنَ انْقِبَاضِ كَانٍ قَدْ وَضَعَهُ كَلَامِي فِي قُلُوبِكُمْ.

إِذِنْ هَلْ أَنْتُمْ أَكْثَرُ سَكِينَةٍ، حَتَّى فِي رُوحِكُمْ؟ لَا. مَازَالُ رُوحِكُمْ أَقَلَّ سَكِينَةٍ، لِأَنَّكُمْ مَا زِلْتُمْ غَيْرَ مُسْتَعِدِّينَ لِلسَّاعَةِ الْآتِيَةِ. لَقَدْ تَجَرَّعْتُمْ هَتَافَاتِ الْهُوشَعْنَا كَخَمَرٍ قَوِيٍّ وَمُسْتَسَاغٍ. وَسَكَرْتُمْ بِهِ. هَلِ الرَّجُلُ الْسَكْرَانُ قَوِيٌّ؟ تَكْفِيهِ يَدُ طِفْلِ حَتَّى يَتَرَنَّحَ وَيَسْقُطَ؟ هَكَذَا أَنْتُمْ. يَكْفِيكُمْ ظُهُورُ قَتْلَةِ مَاجُورِينَ حَتَّى تَفْرُوا كَالْغَزْلَانِ الْخَجِلَةِ الَّتِي تَرَى قَرَبَ صَخْرَةٍ مِنَ الْجَبَلِ خَطْمَ ابْنِ آوَى الْحَادِّ، وَبَسْرَةَ الرِّيحِ، تَتَفَرَّقُ فِي الْأَمَاكِنِ الصَّحْرَاوِيَّةِ الْمَوْحِشَةِ.

أَه! احْذَرُوا الْمَوْتَ مِنَ الْعَطَشِ الرَّهيبِ فِي هَذِهِ الرَّمَالِ الْمَحْرِقَةِ الَّتِي هِيَ الْعَالَمُ بِدُونِ اللَّهِ! لَا تَقُولُوا، لَا تَقُولُوا أَيَا أَصْدِقَائِي، مَا قَالَهُ إِشْعِيَاءُ وَهُوَ يَلْمَحُ إِلَى حَالَةِ أَرْوَاحِكُمُ الزَّائِفَةِ وَالْخَطَرَةِ. لَا تَقُولُوا: "هَذَا لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا عَنِ الْمَوَاسِمَاتِ. وَلَكِنْ مَا مِنْ شَيْءٍ يَدْعُو لِلْخَوْفِ، مَا مِنْ شَيْءٍ يَسْتَدْعِي الْخَوْفَ. عَلَيْنَا أَلَّا نَخَافَ مِمَّا يَتَنَبَّأُ بِهِ لَنَا. إِنَّ إِسْرَائِيلَ تَحَبَّهُ، وَنَحْنُ رَأَيْنَا ذَلِكَ". كَمْ مِنْ مَرَّةٍ يَطَأُ طِفْلٌ عَشْبَ الرَّابِيَةِ الْمُزْهِرِ بِرِجْلِهِ النَّاعِمَةِ الْعَارِيَةِ لِيَجْمَعَ الْوَرُودَ مِنْهُ، وَيَحْمِلُهَا إِلَى أُمِّهِ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ لَنْ يَجِدَ سِوَى الزَّهْوَرِ، وَعَلَى الْعَكْسِ يَطَأُ بِعَقْبِهِ رَأْسَ حَيَّةٍ، فَتَعْضُّهُ وَيَمُوتُ! فَلَقَدْ كَانَتْ الْوَرُودُ تَخْفِي الْحَيَّةَ.

هذا الصباح أيضاً... أيضاً هذا الصباح كان كذلك! أنا المدان المُكَلَّل بالورود. الورود!... كم تدوم الورود؟ ماذا يتبقى منها حينما تتساقط تويجاتها كتلج من البتلات العطرة؟ أشواك.

أنا -قالها إشعياء- سأكون لكم، ومعكم أقول أنني سأكون للعالم، تقديساً، ولكن أيضاً حجر عثرة، وصخر عثار وشركاً وخراباً لإسرائيل وللأرض. سأقدس الذين ستكون لهم إرادة صالحة وسأسقط وأحطم إلى ألف قطعة الذين ستكون لهم إرادة فاسدة.

الملائكة لا يقولون أقوالاً كاذبة، ولا أقوالاً لا تدوم طويلاً. هي تأتي من الله، الذي هو الحق والذي هو أزلي، وما يقولونه هو الحق والكلمة الثابتة. لقد قالوا: "السلام للناس ذوي الإرادة الصالحة". آنذاك كان قد وُلِدَ مخلصك أيتها الأرض. والآن يذهب فاديك إلى الموت. إنما للحصول على السلام من الله، أي القداسة والمجد، يجب امتلاك "الإرادة الصالحة". فعبثاً هو ميلادي، عبثاً هو موتي لمن ليس لديهم هذه الإرادة الصالحة. إن صرختي الطفولية وحشرجتي، خطوتي الأولى والأخيرة، جرح الختان والذبح، كانت لتبقى بلا جدوى إن لم تكن فيكم، ولا في البشر، الإرادة الصالحة للتقدس والافتداء.

وأقول لكم: كثيرون جداً هم الناس الذين سيتعثرون فيّ، أنا الذي وُضِعْتُ كعمود داعم لا كفخ للبشر، وسيسقطون لأنهم سكارى من الكبرياء، من الفسق، من البخل، وسيكونون محبوسين في شبكة خطاياهم، ويُسْتَوَلَى عليهم ويُسلّمون إلى الشيطان. ضعوا هذه الكلمات في قلوبكم، اختموها من أجل تلاميذ المستقبل.

هَيَّا بِنَا. إِنَّ الصخرة يقوم. خطوة أخرى إلى الأمام. على الجبل. يجب أن يتألق على القمة لأنه هو الشمس، هو النور، وهو المشرق. والشمس تتلألأ على القمم. يجب أن يكون على الجبل، لأن الهيكل الحقيقي ينبغي أن يراه العالم كله. وأنا بذاتي سأبنيه بصخرة جسدي الحيّ الذبيح. سأجمع الأجزاء بملاط عَرَقِي ودمي. وسأجلس على عرشي المغطى بالقرمز الحيّ، مكلّلاً بإكليل جديد، والبعيدون سيأتون إليّ، سيعملون في هيكلي، حوله. أنا الأساس والقمة. وسيمتدّ المسكن حوله وبشكل أعظم. وأنا بذاتي سأعمل حجارتِي وصُنّاعي. كما عُمِلْتُ بالإزميل مِنْ قَبْلِ الآب، مِنْ قَبْلِ المحبّة والإنسان والكراهية، هكذا سأعملها. ثمّ بعد أن يُنزع ظلم الأرض في يوم واحد، على صخرة الكاهن إلى الأبد، ستأتي العيون السبع لترى الله وتفتح الينابيع السبعة لدحر نار الشيطان.

الشيطان... يا يهوذا. هَيَّا بِنَا. وتذكّر أنّ الوقت يضيق وينبغي أن يُسلّم الحَمَل مساء الخميس.»

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

6- (الاثنين السابق للفصح، ا- النهار)

1947 / 03 / 31

يَخْرُجُ يَسُوعُ بَاكِرًا مِنْ خِيْمَةِ أَحَدِ الْجَلِيلِيِّينَ، هُنَاكَ عَلَى هَضْبَةِ بَسْتَانَ الزَيْتُونِ، حَيْثُ يَجْتَمِعُ عِدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْجَلِيلِيِّينَ بِمُنَاسَبَةِ الْإِحْتِفَالِ. الْمَعْسَكَرُ نَائِمٌ بِأَكْمَلِهِ تَحْتَ ضَوْءِ الْقَمَرِ الَّذِي يَخْتْفِي بِبَطْءٍ، وَهُوَ يَلْفُ بِبَيَاضٍ فَضِّيَ الْخِيَامِ، الْأَشْجَارِ وَالْمُنْحَدِرَاتِ، وَالْمَدِينَةِ الَّتِي تَنَامُ فِي الْأَسْفَلِ...

يَمُرُّ يَسُوعُ بِثِقَةٍ وَدُونَ جَلْبَةٍ بَيْنَ الْخِيَامِ، وَبِمَجَرَّدِ خُرُوجِهِ مِنَ الْمَعْسَكَرِ، يَنْزِلُ بِسُرْعَةٍ عَبْرَ سُبُلٍ شَدِيدَةِ الانْحِدَارِ إِلَى جَثْسَيْمَانِي، يَجْتَازُهَا، يَخْرُجُ مِنْهَا، يَتَجَاوَزُ الْجِسْرَ الصَّغِيرَ عَلَى الْقَدْرُونَ، ذَلِكَ الشَّرِيطُ الْفَضِّي الَّذِي يَغْنِي لِلْقَمَرِ، يَصِلُ إِلَى الْبَابِ الَّذِي يَحْرُسُهُ الْجُنُودُ. رُبَّمَا تِلْكَ الْحِرَاسَةُ اللَّيْلِيَّةُ هِيَ تَدْبِيرُ احْتِرَازِيٍّ مِنْ قَبْلِ الْوَالِي عَلَى الْأَبْوَابِ الْمَغْلُقَةِ. الْجُنُودُ الْأَرْبَعَةُ، يَتَكَلَّمُونَ فِيمَا هُمْ جَالِسُونَ عَلَى صَخُورٍ ضَخْمَةٍ، وَضُيْعَتْ كَمَا مَقَاعِدُ أَمَامِ السُّورِ الْقَوِيِّ، وَيَصْطَلُونَ عَلَى نَارٍ مِنْ أَغْصَانٍ تَعْكَسُ نُورًا مُحْمَرًّا عَلَى الدَّرُوعِ اللَّامِعَةِ وَالْخُوذَاتِ الصَّلْبَةِ، الَّتِي تَبْرُزُ مِنْ تَحْتِهَا وَجُوهٌ تَخْتَلِفُ قِسْمَاتُهَا الْإِيطَالِيَّةُ كَثِيرًا عَنْ تِلْكَ الْيَهُودِيَّةِ.

«مَنْ يَمْضِي هُنَاكَ!» يَقُولُ الْأَوَّلُ، الَّذِي يَرَى قَامَةً يَسُوعَ الْمَمْشُوقَةَ تَتَبَدَّى مِنْ خَلْفِ زَاوِيَةِ مَسْكَنٍ مُتَوَاضِعٍ قَرِيبٍ مِنَ الْبَابِ، وَيَمْسُكُ بِقُضَيْبِ الرَّمْحِ الَّذِي يَنْتَهِي بِحَرْبَةِ مُدْبَّيَّةٍ، الَّذِي كَانَ يَسْنَدُهُ عَلَى الْحَائِطِ قَرْبَهُ، وَيَقِفُ فِي وَضْعٍ نِظَامِيٍّ، وَيَقْتَدِي بِهِ الْآخَرُونَ. يَقُولُ دُونَ أَنْ يَتْرَكَ لِيَسُوعَ فُرْصَةَ الرَّدِّ: «لَا يُمْكِنُ الدَّخُولُ. أَلَا تَعْرِفُ أَنَّ الْهَزِيعَ الثَّانِيَّ عَلَى وَشْكَ الْإِنْتِهَاءِ؟»

«أنا يسوع الناصريّ. إنّ أمّي في المدينة، وأنا ذاهب إليها.»

«آه! الرجل الذي أقام ميت بيت عنيا! بحقّ جوبيتر! أخيراً سأراه!»
ويقترّب منه لينظر إليه بفضول، ملتقاً حوله كما ليتأكّد أنّه ليس بخيال،
بغريب، بل هو بحقّ رجل مثل سائر الناس، ويقول: «آه! يا للآلهة! إنّهُ جميل
كأبولو، إنّما مثلنا تماماً! لا عصا له، ولا قضيب، ولا آية علامة تشير إلى
قدرته!» إنّهُ حائر. وبصبر ينظر إليه يسوع، مبتسماً بوداعة.

الآخرون، الأقلّ فضولاً -الذين ربما رأوا يسوع من قبل- يقولون: «كان
من المستحسن لو كان هنا عند منتصف الهزيع الأوّل، عندما حملوا إلى
المقبرة تلك الشابة الجميلة التي ماتت هذا الصباح. لكنّا نراه يقيمها...»

يعيد يسوع ما قاله بهدوء: «هل يمكنني الذهاب إلى أمّي؟»

ينتفض الجنود الأربعة. الأكبر سنّاً يتكلّم: «الأمر بحقّ هو عدم السماح
لأحد بأن يمرّ، ومع ذلك أنتَ تمرّ. مَنْ يدفع أبواب الهادس يمكنه أن يدفع
أبواب مدينة مغلقة. أنتَ لا تحرّض على الثورات. والموانع تسقط أمامك.
حاول ألاّ يراك أحد من الدوريات في الداخل. افتح يا ماركوس جراتوس.
وأنتَ اعبر بدون ضجة. نحن جنود وعلينا أن نطيع...»

«لا تخافوا. إنّ طبيبتكم لن تتحوّل إلى عقاب لكم.»

يفتح أحد الجنود بحذر باباً صغيراً في البوّابة الهائلة ويقول: «اعبر
بسرعة. الهزيع يوشك على الانتهاء، وسيحلّ مكاننا آخرون...»

«السلام لكم.»

«نحن رجال حرب...»

«حتّى في الحرب، السلام الذي أعطيه يدوم، لأنّه سلام النّفس.»

ويغيب يسوع في ظلمة القنطرة المفتوحة في ثخانة السور. ويعبر بصمت من أمام مهجع الحراسة الذي يسمح بمرور نور يرتعش لمصباح زيت من الباب المفتوح، فانوس عاديّ معلّق بحلقة في السقف المنخفض، ممّا يسمح برؤية أجساد الجنود النائمين على حصائر ممدودة على الأرض، والمتدثرين بمعاطفهم، وأسلحتهم إلى جانبهم.

أصبح يسوع داخل المدينة... لم أعد أراه، بينما أرى عودة جنديّين من الأربعة السابقين ينظران فيما إذا ابتعد، قبل الدخول وإيقاظ النائمين لمبادلة المناوبة.

«لم يعد يُرى... ماذا يقصد بتلك الكلمات؟ أوّد لو أعرف.» يقول الأصغر سنّاً.

«كان يجب عليك سؤاله. فهو لا يحتقرنا. اليهوديّ الوحيد الذي لا يحتقرنا ولا يضيق علينا بأيّة طريقة.» يجيبه الآخر الذي في كامل قوّة سنّه.

«لم أجرو. أنا، فلاح من بينفنت، أتكلّم مع من يقولون عنه الله؟»

«إله على حمار؟ ها! ها! ربّما كان سكيراً مثل باخوس [إله الخمر والسُّكر الروماني]، يمكن أن يكون كذلك. ولكنّه ليس سكيراً. أعتقد أنّه لا يشرب حتّى Mulsum (نبيذ معتّق بالعسل). ألا ترى كم هو شاحب ونحيل؟»

«ومع ذلك فاليهود...»

«نعم، هم يشربون، رغم أنهم يتظاهرون بالعكس! وسُكاري من نبذ
هذه الأراضي القويّ ومُسكِراتها، فقد رأوا إلهاً في إنسان. صدّقني: الآلهة
أسطورة. الأولمب فارغ، وليس للأرض إله.»

«لو كانوا سمعوك!...»

«أنتَ ما زلتَ طفلاً لدرجة أنّك غير مؤهل ولا تعرف أنّ قيصر بذاته
لا يؤمن بالآلهة، ولا الأحبار يؤمنون، ولا الكهّان، ولا العرّافون، ولا خدام
المعبد، ولا عذارى الآلهة فيستا، ولا أحد؟»

«وإذاً لماذا...»

«لماذا الطقوس؟ لأنها ترضي الشعب وتفيد الكهنة وتخدم قيصر كي
يكون مُطاعاً كما لو كان إلهاً أرضياً تمسكه آلهة الأولمب باليد. ولكن أول
من لا يؤمنون به هم الذين نجلّهم كسفراء للآلهة. أنا بيرونيّ (بيرون هو
فيلسوف رومانيّ مؤسس الارتيابيّة). وقد جلتُ حول العالم. لقد اكتسبتُ
خبرات كثيرة. لقد ابيضّ شعر رأسي عند صدغيّ ونضج فكري. وكوّنتُ
لنفسي قانوناً من ثلاثة مبادئ: حُبّ روما، آلهة واحدة ويقين واحد، وصولاً
للتضحية بحياتي. وعدم الإيمان بشيء لأنّ كلّ ما يحيط بنا وهم هو. ما عدا
الوطن المقدّس والذي لا يفنى. ويجب أن نشكّ حتّى في ذواتنا أنفسها، لأنّه
ليس أكيداً حتّى أنّنا أحياء. المشاعر والعقل لا يكفيان للتأكّد من توصلنا
لمعرفة الحقيقة، والحياة والموت لهما نفس القيمة، لأنّنا لا نعرف ما هي
الحياة وما هو الموت.» يقول أحدهم متصنّعاً فلسفة ارتيابيّة لكائن متفوّق...

ينظر إليه الآخر، متردداً. ثم يقول: «أنا على العكس أوّمن. وأودّ أن أعرف... أن أعرف من ذلك الرجل الذي مرّ منذ قليل. هو بالتأكيد يعرف الحقيقة. إذ يخرج منه شيء ما غريب. وكأنّه نور يخترقك!»

«فلينقذك إسكولاب [آلهة الطب]! أنت مريض! لقد صعدت منذ وقت قصير من الوادي إلى المدينة، والحُمّيات [جمع حُمّى] تصيب بسهولة من يقومون بهذه الرحلة وهم بعد غير متأقلمين مع هذه المنطقة. إنك تهذي. تعال. لا شيء سوى الخمر الساخن والتوابل لتتعرّق ويخرج منك سمّ الحُمّى الأردنيّة...» ويدفعه نحو مهجع الحراسة.

ولكنّ الآخر يتخلّص منه قائلاً: «لست مريضاً. لا أريد خمرًا مُخدّراً. أريد السهر هناك، خارج الأسوار (ويشير إلى داخل الحصن) وانتظار الرجل المدعوّ يسوع.»

«إن كنت لا تملّ هذا الانتظار... سأذهب لإيقاظ هؤلاء لتبديل نوبة الحراسة. وداعاً...»

ويدخل بصخب إلى مهجع الحراسة لإيقاظ رفاقه، وهو يصيح: «لقد حانت الساعة. هيّا، أيّها التنايل الكسالى! إنني متعب!...» ويتشاءب بجلبة وتذمّر لأنّهم تركوا النار تنطفئ وشربوا الخمر الساخن كلّهم «الضروريّ جدّاً في تجفيف ندى فلسطين...»

الآخر، الجنديّ الشابّ، المستند إلى الحائط الذي يلامسه القمر من جهة المغيب، ينتظر أن يعود يسوع على أعقابهِ. والنجوم تسهر على أمله....

في تلك الأثناء وصل يسوع إلى منزل لعازر على تلّ صهيون، ويقرع. يفتح له لاوي.

«أنتَ يا معلّم؟! السيدات نائمات. لماذا لم تُرسلَ خادماً إذا كنتَ محتاجاً إلى شيء؟»

«لم يكونوا ليسمحوا له بالمرور.»

«آه! هذا صحيح! إنّما أنتَ كيف مررتَ؟»

«أنا يسوع الناصريّ، وقد سمح لي الجنود بالمرور. إنّما يجب ألاّ يقال هذا يا لاوي.»

«لن أقول ذلك... هم أفضل من كثيرين منّا!»

«قُدني إلى حيث تنام أمّي ولا توقظ أحداً سواها بالمنزل.»

«كما تريد يا ربّ. فلقد أصدر لعازر الأمر لجميع الذين يديرون المنازل بإطاعتك في كلّ شيء، بلا نقاش، ولا تأخير. كان بالكاد قد بزغ الفجر عندما أتى بالأمر أحد الخدّام، بل العديد من الخدّام، إلى كلّ المنازل... الطاعة والصمت. وسنفعل... لقد أعدتَ إلينا السيّد...»

الرجل يهرع بسرعة عبر ممرّات واسعة كما أروقة، في قصر لعازر الرائع على تلّ صهيون، والمصباح الذي في يده ينير بطريقة مذهشة الأثاث والمفارش التي تزيّن تلك الممرّات الواسعة. الرجل يتوقّف أمام باب مغلق: «هنا أمّك.»

«يمكنك الانصراف.»

«والمصباح؟ ألا تريده! يمكنني العودة في الظلام. أنا معتاد على المنزل. فلقد وُلدتُ فيه.»

«اتركه ولا تُخرج المفتاح من الباب. سأخرج على الفور.»

«أنتَ تعرف أين تجدني. سأغلقه احتراساً. ولكنني سأكون متأهباً لأفتح لك الباب عندما تأتي.»

يبقى يسوع بمفرده. يقرع بخفة، دقة خفيفة بحيث لا يمكن سوى لمستيقظ أن يسمعها.

صوت في الغرفة، كصوت كرسيٍّ يُزاح، ووقع خطى خفيف، وصوت هامس: «مَن الطارق؟»

«أنا يا أُمِّي. افتحي لي.»

يُفتح الباب على الفور. ضوء القمر هو الضوء الوحيد الذي ينير الحجرة الساكنة وتمتدّ أشعته إلى السرير الذي لم يُمسّ. مقعد إلى جانب النافذة المفتوحة على مصراعيها على سرّ الليل.

«ألم تنامي بعد؟ الوقت متأخر!»

«كنتُ أصليّ... تعال يا بنيّ، اجلس هنا حيث كنتُ أنا.» وتشير إلى الكرسيّ القريب من النافذة.

«لا يمكنني المكوث. لقد جئتُ أصحابك للذهاب إلى إيلز، في ضاحية عوفل، إنّ أناليا قد ماتت. ألم تكونوا تعلمون بعد؟»

«لا. لا أحد... متى يا يسوع؟»

«بعد مروري.»

«بعد مروركَ! إذاً فقد كنتَ لها الملاك المُحرّر؟! هذه الأرض كانت سجنًا لها! هي سعيدة! أودّ أنا أن أكون محلّها! هل ماتت... بشكل طبيعي؟ أقصد: ليس على أثر بليّة؟»

«ماتت من فرح المحبة. قد علمتُ عندما كنت في طريق صعودي إلى الهيكل. تعالي معي يا أمّي. نحن لا نخشى التدنّس لتعزية أمّ تلقّت بين ذراعيها ابنتها المتوقّاة بسبب فرح فائق الطبيعة... إنّها عذراؤنا الأولى! تلك الّتي ذهبت إليك في الناصرة، لكي تلقاني وتطلب منّي ذلك الفرح... إنّها أيام بعيدة وهادئة.»

«أمس الأوّل كانت تغني مثل عصفور القرقب المغرم وكانت تعانقني وهي تقول: "أنا سعيدة!" وكانت متلهّفة لمعرفة كلّ شيء عنك. كيف كوّنك الله. كيف اختارني. وأوّل خطواتي كعذراء مكرّسة... الآن فهمتُ. أنا جاهزة يا بني.»

مريم، وهي تتكلّم، تشبك ضفائرها المتدلّية على كتفيها، والّتي كانت تُظهرها في غاية الشباب، ووضعت وشاحها ومعطفها.

يُخرجان بأقلّ ضجّة ممكنة. لاوي ما يزال قرب الباب. ويشرح: «لقد فضّلتُ ذلك... بسبب زوجتي... النساء فضوليّات. وكانت لتسألني مائة سؤال. هكذا هي لا تعرف...»

يفتح، وهو على وشك الإغلاق. يقول يسوع: «قبل نهاية هذا الهزيع سأعود بأُمّي.»

«سأسهر هنا قريباً. لا تقلق.»

«السلام لك.»

يسيران عبر الشوارع الصامتة، الخالية، التي ينسحب منها القمر ببطء وهو ما يزال ينير قمم المنازل العالية لرابية صهيون. الأكثر ضياء هي ضاحية عوفل بمنازلها الصغيرة الأكثر انخفاضاً وتواضعاً.

ها هو منزل أناليا، مغلق، مظلم، صامت. ورود ذابلة ما زالت على درجتي سلم البيت، قد تكون تلك التي ألقتها العذراء قبل موتها، أو التي سقطت من نعشها...

يسوع يقرع الباب. يقرع من جديد....

صوت فتح نافذة من أعلى. صوت حزين: «مَن الطارق؟»

«مريم ويسوع الناصري.» تجيب مريم.

«آه! آتي!...»

انتظار قصير ثم صرير مزاليج تتحرك. يُفتح الباب ليظهر الوجه المنكسر لإليز، التي تستند بألم على قائمة الباب، وعندما تفتح مريم ذراعها لدى دخولها، ترتمي على صدرها بشهقات ضعيفة ممّن بكت كثيراً حتّى لم يعد بكاؤها يُسمع.

يُغلق يسوع الباب وينتظر بصبر حتّى تُسكّن أمّه هذا الحزن الشديد. هناك غرفة قريبة من الباب. يدخلونها، وقد حمل يسوع المصباح الذي وضعته إليز على بلاط المدخل قبل فتحها الباب.

يبدو أنّ بكاء الأم لا نهاية له. ووسط الشهقات المبحوحة، تتحدّث إلى مريم. الأم تتكلّم مع الأم. ويقف يسوع بجوار الحائط، صامتاً... إليز لا

تستكين إلى هذا الموت، الذي حدث هكذا... وفي ألمها، تُلقي السبب على صموئيل، الخطيب الذي حنث بيمينه: «لقد كسر قلبها، ذاك الملعون! لم تكن تبوح بذلك، بالتأكيد كانت تعاني مَنْ يعلم منذ متى! وفي الفرح، في الهتاف، انفتح قلبها. فليكن ملعوناً على الدوام.»

«لا يا عزيزتي. لا. لا تلعني. الأمر ليس هكذا. لقد أحبها الله كثيراً حتى إنه أرادها في سلامه. لكن وإن تكن قد ماتت بسبب صموئيل - ما ليس هو، إنما فلنفترضه لحظة- ففكري بالموت المغبوط الذي حظيت به، وقولي إنَّ الفعل السيئ قد أتاح لها موتاً سعيداً.»

«لن أحظى بها بعد أبداً! لقد ماتت! ماتت! أنتِ لا تدريين معنى فقدان ابنة! أمّا أنا فقد ذقت طعم هذا الألم مرّتين. لقد كنتُ قد بكيْتُها ميتة حينما شفاها ابنك. أمّا الآن... الآن... هو لم يعد! لم يُشفَق... لقد فقدتها! فقدتها! هي في القبر الآن، طفلي! أتدريين ماذا تعني رؤية نزاع ولد؟ والعلم أنه يجب أن يموت؟ رؤيته ميتاً في حين كان الاعتقاد أنه قد شفي وهو قوي؟ أنتِ لا تدريين. ولا يمكنكِ الحديث عنه... كانت جميلة مثل وردة تتفتح عند شروق الشمس بينما كانت تتزيّن هذا الصباح. أرادت أن ترتدي الثوب الذي كنتُ قد عملته لها ليوم عرسها. وكانت تريد أن تتكلّل مثل العروس. ثم فضّلت أن تحلّ طوق الزهور وانتزاع أوراقها لتلقيها على ابنك، وكانت تغني! تغني! وقد ملأ صوتها البيت. كانت بهيئة مثل الربيع. كان الفرح يجعل عينيها تلمعان مثل النجوم، وشفتيها المفتوحتين على بياض أسنانها كانتا بلون أرجواني مثل حبّ الرمان، وكانت وجنتاها ورديتين ونصرتين مثل وردتين جديدتين قد جمّلهما الندى. ثم صارت بيضاء مثل زنبقة على وشك التفتح. ووهنت على صدري كساق مكسور... لا كلام! لا أنفاس! لا لون! لا نظرة!

ساكنة، جميلة كملاك الله، ولكن بلا حياة. أنت تجهلين حزني، يا مَنْ تتمتعين بانتصار ابنك وترينه سليماً وقوياً! لماذا لم يرجع؟ بماذا كدّرتَه هي، وأنا معها، حتّى لا يرحم توسّلي؟»

«إليز! إليز! لا تتكلّمي... فالألم يجعلك عمية وصمّاء... إليز، أنت لا تعرفين معاناتي. ولا البحر العميق الذي سيستحيله ألمي. لقد رأيته ساكنة جميلة متعلّبة في السلام. بين ذراعيك. أنا... أنا منذ أكثر من ثلاثين عاماً أتأمّل ابني، وما وراء جلده الناعم النقي الذي أتأمّله وألطفه، أرى جراح رجل الآلام الذي سيصبحه ابني. أتعلمين، أنت يا مَنْ تقولين إنني أجهل معنى رؤية ابن يذهب مرّتين إلى الموت، ويلجّه مرّة ويسكن في سلام، أتعلمين معنى رؤية أمّ، طوال سنوات عديدة، لهذه الرؤيا؟ رؤية ابني! ها هو. يلبس الأحمر وكأنّه خارج من حمّام دم. وقريباً، خلال وقت قليل، قبل أن يكلح وجه ابنتك في القبر، سأراه يلبس قرمز دمه البريء، الدم الذي منحته له. وإذا أنت تلقّيت ابنتك على صدرك، فهل تعلمين مدى شدّة ألمي وأنا أرى ابني يموت كمجرم على خشبة؟ انظري إليه، مخلص الكل! بالروح والجسد، إذ إنّ جسد المخلصين من قبله لن يفسد وسيطوّب في ملكوته. وانظري إليّ! انظري إلى هذه الأمّ التي ساعة بعد ساعة تصاحب وتقود ابنها إلى التضحية! -آه! لن أعيقه خطوة واحدة!- أنا يمكنني أن أفهمك، أيّتها الأمّ المسكينة. ولكن افهمي أنت قلبي! لا تكرهي ابني. أنا ليا لم تكن لتتحمل نزع ربّها. وربّها جعلها مغبوبة في ساعة ابتهاج.»

إليز أمام هذا البوح كفّت عن البكاء. تحدّق بمريم، بوجه شهيد شاحب مبلّل بدموع صامته، تنظر إلى يسوع الذي ينظر إليها بإشفاق... وتنزلق عند قدمي المسيح وهي تننّ: «ولكنّها ماتت! ماتت، يا ربّ! كزنبقة، كزنبقة

مكسورة. الشعراء يقولون عنكَ إِنَّكَ تسعد بين الزنابق! آه! حقاً، أنتَ يا مَنْ وُلِدْتَ مِنَ الزنبقة-مريم، وتنزل كثيراً إلى الرياض المزهرة، ومن الورود القرمزية تصنع زنابق بيضاء، وتجمعها وترفعها مِنَ العالم. لماذا؟ لماذا يا رب؟ أليس مِنَ العدل أن تتمتع أُمٌّ بالوردة التي وُلِدَتْ منها؟ لماذا إطفاء القرمز في برودة بياض موت الزنبق؟»

«الزنابق! سوف تكون رمزاً للواتي سوف يحببنني كما أحبَّت أُمِّي الله. روضة المَلِكِ الإلهي البيضاء.»

«ولكن نحن الأمّهات سنبكي. نحن الأمّهات لنا الحقّ بأولادنا. لماذا انتزاعهم مِنَ الحياة؟»

«ليس هذا ما أريد قوله يا امرأة. البنات سيبقين، إنّما مكرّسات للمَلِكِ مثل العذارى في قصور سليمان. تذكّري النشيد... وسيصرن عرائس محبوبات، على الأرض وفي السماء.»

«ولكنّ ابنتي ماتت! ماتت!» ويُستأنف البكاء المفجع.

«أنا هو القيامة والحياة. مَنْ يؤمن بي، ولو مات، فسيحيا، والحقّ أقول لك إنّهُ لن يموت إلى الأبد. ابنتكِ حيّة. هي تحيا للأبد لأنّها آمنت بالحياة. موتي سيكون لها حياة كاملة. لقد عرفت فرح الحياة فيّ قبل أن تعرف ألم رؤيتي مُنتزِعاً مِنَ الحياة. إنّ المَلِكِ يجعلكِ عمياء وصمّاء. لقد أصابت أُمِّي في قولها ذلك. ولكن قريباً ستقولين ما أرسلتُ أقوله لكِ هذا الصباح: "في الحقيقة كان موتها نعمة مِنَ الله". ثقي بذلك يا امرأة. الهول ينتظر هذا المكان. وسيأتي يوم تقول فيه الأمّهات المصابات مثلك: "المجد لله الذي جنّب أولادنا هذه الأيام". والأمّهات غير المصابات سيصرخن للسماء: "لماذا يا

الله، لم تُمتِ أولادنا قبل هذه الساعة؟" ثقي بذلك يا امرأة. صدّقي كلامي. لا ترفعي بينك وبين أناليا سور الفصل الحقيقي: ذاك الذي هو اختلاف الإيمان. أترين؟ كان بإمكانني ألا آتي. أنتِ تعرفين كم يكرهونني. لا يخدعُكَ انتصار ساعة!... كل ركن منعزل يمكن أن يُخفي لي فخاً. وقد أتيت وحيداً، ليلاً، كي أعزّيك وأقول لك هذا الكلام. إنني أشفق على ألم أمّ. ولكن من أجل سلام نفسك آتي كي أقول لك هذا الكلام. كوني في سلام! في سلام!»

«امنحنيهِ أنتَ يا ربّ! أنا لا أستطيع! لا أستطيع في ألمي أن أمنح نفسي السلام. أمّا أنتَ، يا مَنْ تهب الحياة للأموات والصحة للمحتضرين، هب السلام لقلب أمّ ممزّق.»

«فليكن لك ذلك يا امرأة. لك السلام.» يضع يديه مباركاً إياها ومصلّياً عليها في صمت. ومريم قد ركعت بدورها بجوار إليز وهي تحيطها بذراعها.

«الوداع يا إليز. إنني أمضي...»

«ألن نرى بعضنا ثانية يا ربّ؟ أنا لن أخرج من البيت لأيام عديدة وأنت ستذهب بعد الاحتفالات الفصحية. أنت... ما يزال فيك شيء ما من ابنتي... لأنّ أناليا... لأنّ أناليا كانت تعيش فيك ولك.» وتبكي، بهدوء أكثر، ولكن كم هي تبكي!

ينظر إليها يسوع... يمسح شعر رأسها الشائب. يقول لها: «ستريني ثانية.»

«متى؟»

«بعد ثماني ليال.»

«وهل ستعزيني بعد؟ تباركني لتمنحني القوة؟»

«قلبي يباركك بكلّ ملء محبّتي للذين يحبّونني. تعالي يا أمّي.»

«بنيّ، لو تسمح لي فإنّني أودّ البقاء بعد مع هذه الأمّ. فالألم موج يرتدّ بعد ابتعاد مُعطي السلام... سأعود في الساعة الأولى. لستُ أخشى الذهاب بمفردي، أنتَ تعرف ذلك. وتعرف أنّني أمرّ وسط جيش من الأعداء من أجل تعزية أخ لي في الربّ.»

«فليكن كما تريدن. سأمضي. فليكن الله معكما.»

يَخرج بلا ضجّة، مُغلِقاً خلفه باب الغرفة وباب المنزل. يعود صوب الأسوار، إلى باب أفرايم أو باب الفضلات أو الزبل، لأنّني مرّات كثيرة سمعتهم يشيرون إلى هذين البابين بهذه الأسماء الثلاثة، ربّما لأنّ أحدهما ينفّتح على طريق أريحا، الّتي هي بالتالي طريق تقود إلى أفرايم، والآخر لأنّه قريب من وادي هنّوم حيث يحرقون قمامة المدينة، وهما متشابهان كثيراً حتّى إنّني لا أُميّز بينهما.

لقد شرعت السماء بالابيضاض من جهة الشرق، رغم أنّها مازالت مرصّعة بالنجوم. تلفّ الطرقات شبه عتمة أكثر إعياء من ظلمة الليل الّتي كان القمر يلطّفها بنوره الأبيض.

لكنّ الجنديّ الرومانيّ له عينان حادّتان، وما أن يرى يسوع يتقدّم نحو الباب، حتّى يذهب للقائه.

«تحية. لقد انتظرتك...» يتوقّف متردّداً.

«تكلّم دونما خوف. ماذا تريد منّي؟»

«أن أعرف. لقد قلت: "السلام الذي أعطيه يبقى حتّى أثناء الحرب، لأنّه سلام النّفس". أوّد معرفة ماهيّة هذا السلام، وما تكون النّفس. كيف يمكن للإنسان الذي في حرب أن يكون في سلام؟ عندما يُفتح معبد جانوس، يُغلق الذي للسلام. لا يمكن أن يكون الأمران معاً في العالم.» يتكلّم وهو يستند إلى سور مخضّرٍ لحديقة صغيرة، في شارع صغير ضيّق مثل درب وسط الحقول، رطب، كئيب، مظلم، وسط منازل متواضعة. وفيما عدا لمعان خفيف يُظهر الخوذة المصقولة، فلا شيء آخر يُرى من المتكلّمين. إنّ الظل يغلف الوجهين والجسدين في ظلّمة واحدة.

صوت يسوع يرنّ عذباً ومشرقاً بفرحه لإلقاء بذرة نور في الوثنيّ:
«في العالم، حقّاً، إنّ الحرب والسلام لا يمكن أن يجتمعا معاً. فالواحد يقصي الآخر. إنّما في رجل الحرب يمكن أن يوجد السلام حتّى ولو كان يخوض حرباً مأموراً بها. يمكن أن يوجد سلامي. لأنّ سلامي يأتي من السماء ولا تجرحه قرقة الحرب ووحشيّة المذابح. فهو، كأمر إلهيّ، يجتاح الأمر الإلهيّ الذي في داخل الإنسان، والذي يُدعى نفس.»

«إلهيّ؟ في داخلي؟ القيصر إلهيّ. أنا ابن فلاّح. والآن أنا جنديّ بلا رتبة. إن أصبحتُ شجاعاً، قد أصبح قائد مائة. ولكن أن أصبح إلهيّاً، لا.»

«فيك يكمن جزء إلهيّ: النّفس. وهي تأتي من الله، من الله الحقيقيّ. فهي أيضاً إلهيّة، لؤلؤة حيّة في الإنسان، وتتغذى من الأشياء الإلهيّة والحيّة: الإيمان، السلام، الحقّ. لا تقلقها الحرب. الاضطهاد لا يجرحها. الموت لا

يقتلها. فقط الشرّ، فعل السيّئات، يجرحها أو يقتلها، ويحرمها أيضاً من السلام الذي أعطيه أنا. ذلك أنّ الشرّ يفصل الإنسان عن الله.»

«وما هو الشرّ؟»

«البقاء في الوثنيّة وعبادة الأصنام بعدما يُعلمنا صلاح الله الحقيقيّ وجود الله الحقّ. عدم محبة الأب، الأمّ، الإخوة والقریب. السرقة، القتل، العصيان، الفسق، الكذب. هذا هو الشرّ.»

«آه! إذا أنا لا يمكنني أن أحظى بسلامك! فأنا جنديّ ومأمور بأن أقتل، إذاً ليس لنا خلاص؟!»

«كن عادلاً في الحرب كما في السلم. أكمل واجبك بلا وحشيّة ولا نهم. وفي أثناء الحرب والغزو فكّر أنّ عدوكّ شبيه لك، وأنّ لكل مدينة أمّهاتها وصباياها مثل أمّك وأخواتك، وكن شجاعاً دون أن تكون شرساً. وبذلك لن تفارق العدالة والسلام، وسلامي يبقى فيك.»

«وبعد ذلك؟»

«وبعد ذلك؟ ماذا تقصد؟»

«بعد الموت؟ ماذا يحصل للخير الذي صنّعه، وللنفس التي تقول عنها إنّها لا تموت إن لم تفعل شرّاً؟»

«تحيا، تحيا مزيّنة بالخير الذي صنّعه، في سلام بهيج، أعظم من ذاك الذي يتمتّع به المرء على الأرض.»

«إذاً، واحد فقط كان قد صنع الخير في فلسطين! فهمتُ.»

«مَنْ؟»

«لعازر بيت عنيا. نفسه لم تمت!»

«في الحقيقة هو بارّ. ومع ذلك كثيرون يشبهونه ويموتون دون أن يقوموا، ولكنّ أنفسهم تحيا في الله الحقّ. ذلك أنّ النّفس لها مقام آخر، في ملكوت الله. ومن يؤمن بي سيلج هذا الملكوت.»

«حتّى أنا، الرومانيّ؟»

«حتّى أنت، إن آمنّت بالحقّ.»

«وما هو الحقّ؟»

«أنا هو الحقّ، والطريق المؤدّي إلى الحقّ، وأنا الحياة وأهب الحياة، لأنّ مَنْ يتقبّل الحقّ يتقبّل الحياة.»

يفكّر الجنديّ الشاب... يصمت... ثمّ يرفع وجهه. وجه شاب ما يزال نقيّاً، وله ابتسامة صافية، مشرقة. يقول: «سأحاول تذكّر هذا ومعرفة المزيد أيضاً. فذلك يسعدني...»

«ما اسمك؟»

«فيتال من بينيفنت. من أرياف المدينة.»

«سأتذكر اسمك. اجعل روحك حيويّاً بحقّ مغذياً إياه بالحقّ. وداعاً. الباب يُفتح. سأخرج من المدينة.»

«تحية!»

يمضي يسوع بسرعة صوب الباب ويسلك بسرعة الطريق المؤدية إلى القديرون وجثسيماني ومن هناك إلى مخيم الجليليين.

وسط زيتون الجبل، يلاقي يهوذا الاسخريوطي، الذي يصعد هو أيضاً بسرعة إلى المخيم الذي يستيقظ.

يقوم يهوذا بحركة تكاد تكون حركة دُعر وقد وجد نفسه في مواجهة يسوع. يسوع يحدّق فيه، دون أن يتكلّم.

«ذهبتُ أحمل الطعام إلى البرص. ولكنّي... وجدتُ اثنين في هُتوم، وخمسة في سلوام. الآخرون، برئوا. إنهم ما يزالون هناك، ولكنهم برئوا، لدرجة أنّهم طلبوا منّي إعلام الكاهن. كنتُ قد نزلتُ في الصباح الباكر لأكون حرّاً بعدها. فالأمر سيسبّب جلبه. لأنّ عدداً كبيراً جدّاً من البرص قد برئوا معاً بعد أن باركتهم بحضور أناس كثيرين!»

يسوع لا يتكلّم. يدعه يتكلّم... لم يقل له لا: "أحسنّت صنعاً"، ولا أيّ شيء آخر يشير إلى عمل يهوذا أو المعجزة، ولكنّه إذ يتوقّف فجأة ويحدّق بالرسول، يسأله: «وإذا؟ ما الذي تبدّل بعدما تركتُ لك الحرية والمال؟»

«ماذا تقصد؟»

«هذا ما أقصده: أسألك إذا ما كنت قد تقدّست منذ أن أعدتُ لك الحرية والمال. وأنت تفهمني... أه! يهوذا! تذكّر! تذكّر هذا دائماً: كنت أنت من أحببت أكثر من كلّ الآخرين، وبالمقابل كان لي منك محبة أقلّ ممّا أعطاه لي الآخرون. بل كانت كراهية أكبر، لأنّها كراهية من شخص عاملته كصديق، كراهية أكثر شراسة من أشرس فريسيّ. وتذكّر أيضاً هذا: أنّي ولا حتّى

الآن أكرهك، بل وفيما يتعلّق بابن الإنسان، فأنا أسامحك. اذهب الآن. لم يعد هناك ما يُقال بيننا. كلّ شيء قد عُمِل...»

يوّد يهوذا أن يقول شيئاً ما، ولكنّ يسوع بإشارة أمره يشير إليه بالتقدّم... ويهوذا، محنيّ الرأس كالمهزوم يتقدّم...

عند حدود معسكر الجليليّين كان الرُّسل الأحد عشر وخادما لعازر قد أصبحوا متأهّبين.

«أين كنت يا معلم؟ وأنت يا يهوذا؟ هل كنتما معاً؟»

يسبق يسوع يهوذا بالإجابة: «كان لديّ ما أقوله لبعض القلوب. يهوذا ذهب إلى البرص.. ولكنّهم برئوا جميعاً إلاّ سبعة.»

«آه! لماذا ذهبت؟ كنتُ أريد المجيء أنا أيضاً!» يقول الزيلوتي.

«كي يكون حرّاً الآن في المجيء معنا. هيّا بنا. سندخل المدينة من باب القطيع. فلنسرع.» يقول أيضاً يسوع.

ينطلق في المقدّمة، ماراً ببستان الزيتون الذي يقود من المعسكر، الواقع في منتصف الطريق تقريباً بين بيت عنيا وأورشليم، إلى الجسر الصغير الآخر الذي يعبر القديرون بالقرب من باب القطيع.

منازل لفلاحين متناثرة على المنحدرات، وفي الأسفل، بالقرب من ماء السيل، تينة مشعّثة تتدلى فوق النهر. يتّجه يسوع إليها ويبحث بين أوراقها الكثيفة النضرة لعلّه يجد بعض ثمار التّين الناضجة. ولكنّ التّينة ذات الأوراق الكثيرة، عديمة النفع هي، فلا ثمرة واحدة على أغصانها. «إنّك مثل

قلوب كثيرة في إسرائيل. لا تحملين اللطف ولا الشفقة لابن الإنسان. لا يكن لك ولا ثمرة واحدة من بعد، ولا يشبع منك أحد فيما بعد.» يقول يسوع.

يتبادل الرُّسل النظرات. غضب يسوع على النبتة العقيمة، التي هي ربّما برّية، يذهلهم. ولكنهم لا ينبسون ببنت شفة. فقط بعد حين، بعد أن عبروا القديرون، يسأله بطرس: «أين أكلت؟»

«ولا في أيّ مكان.»

«آه! إذا أنت جائع! ها هو هناك راعٍ يرعى بعض الماعز. سوف أطلب منه حليباً لأجلك. سأسرع.» ويمضي بخطى واسعة ويعود بهدوء مع إناء قديم مليء بالحليب.

يشرب يسوع ويعيد الوعاء للراعي الصغير الذي رافق بطرس، وهو يلاطفه...

يدخلون المدينة ويصعدون إلى الهيكل، وبعد تقديم واجب العبادة للربّ، يرجع يسوع إلى الباحة حيث يعطي الراتبون دروسهم.

يحيط به الناس، وتُقدّم له أمّ أتت من سنتيوم ابنها المصاب بالعمى بسبب مرض ما، على ما أظنّ. عيناه بيضاوان كما لو أنّه مصاب بساد واسع على الحدقة أو غشاوة.

يشفيه يسوع بلمس محجري العينين بأصابعه. ثمّ يبدأ الكلام مباشرة.

«رجل اشترى أرضاً وغرس كرماً، بنى بيتاً للكرّامين، برجاً للمراقبة، أقبيةً للمؤن ومعاصر عنب، وأوكل حفظه لكرّامين كان يثق بهم. ثمّ مضى بعيداً.

ولمّا حان الوقت الَّذي يمكن للكروم أن تعطي فيه ثمارها، وأثمرت الكروم، أرسل سيّد الكرم خدّامه إلى الكرّامين ليأخذ عائدات الجني الحاصل. إلّا أنّ الكرّامين أحاطوا بهؤلاء الخدّام، فضربوا بعضهم بالعصيّ، ورجموا بعضاً بحجارة ثقيلة أصابتهم بجروح جسيمة، وقتلوا بعضاً منهم. والَّذين أمكنهم الرجوع أحياء إلى السيّد، قصّوا عليه ما حدث لهم. فعالجهم السيّد وعزّاهم، وأرسل خدّاماً آخرين أكثر عدداً. ففعل الكرّامون بهم كما فعلوا بالأوّلين.

حينئذ قال سيّد الكرم: "سأرسل لهم ابني الحبيب، بالتأكيد سيهابون وريثي".

أمّا الكرّامون، فلمّا رأوه آتياً وعلموا أنّه الوارث، فقد نادى بعضهم بعضاً قائلين: "تعالوا، لنجتمع كي نكون كثرة. ولنقّده خارجاً، إلى مكان منعزل، ونقتله. فيبقى ميراثه لنا". فاستقبلوه بترحيب زائف، وأحاطوه كما لو للاحتفال به، ثم قيّدوه بعد أن عانقوه، وضربوه بشدّة وبألف سخرية قادوه إلى مكان العذاب وقتلوه.

الآن قولوا لي أنتم. ذاك الأب والسيّد الَّذي سيدرك يوماً أنّ ابنه ووريثه لم يرجع، ويكتشف أنّ خدّامه الكرّامين، أولئك الَّذين كان قد أعطاهم الأرض الخصبة لكي يزرعوها باسمه، متمتّعين بما هو يحقّ لهم ومعطين لسيّدهم ما هو حقّه، قد قتلوا ابنه، ماذا سيفعل؟» ويحدج يسوع بحدقتيه السفيريتين، كما لو كانت الشمس قد اشعلتهما، أولئك الَّذين أتوا، وخاصّة بمجموعات من اليهود النافذين، الفرّيسيّين والكتّبة المنتشرين وسط الجمع. لا أحد يتكلّم.

«قولوا إذا! أقله أنتم يا رابيو إسرائيل. قولوا كلمة حق تقنع الشعب بالعدالة. أنا قد أقول كلمة لا تكون طيبة، بحسب تفكيركم. تكلموا أنتم إذا، حتى لا يضلّ الشعب.»

الكتبة يجيئون، مرغمين، هكذا: «سُعاقِب الأشرار، ويميتهم شرّ مِيتة، ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يزرعونه له بأمانة، ويعطونه عائد الأرض التي أكلها إليهم.»

«لقد أحستتم القول. جاء في الكتاب: "الحجر الذي رذله البنّائون قد صار رأس الزاوية. من قبل الربّ كان هذا، وهو عجيب في أعيننا". وحيث أنّ هذا مكتوب وأنتم تعرفونه، وتحكمون بالصواب أن أولئك الكرامين، قتلة ابن سيّد الكرم الوارث، سُعاقِبون عقاباً شديداً، وأنّه سيسلم الكرم لآخرين يزرعونه بأمانه، ولذلك أقول لكم: "إنّ ملكوت الله سينزع منكم ويعطى لأناس يجنون منه الثمار. ومنّ سيسقط 'ضدّ' (يصطدم ب) هذا الحجر سيتهشم، ومنّ سيسقط عليه هذا الحجر سيُسحق".»

رؤساء الكهنة، الفرّيسيّون والكتبة، بفعل بطوليّ... بحق، لا يُبدون أيّة ردّة فعل. قويّة هي إرادة الوصول إلى هدف! في أحيان أخرى كثيرة، لأمر أقلّ من هذه، قد عارضوه، واليوم حيث يقول لهم الربّ يسوع بصراحة إنّ السّلطة ستُنزع منهم، لا ينفجرون بالاتّهامات، ولا يتصرّفون بعنف، ولا يُهدّدون، حملان زائفة صابرة تخفي قلب الذئب غير المتبدّل تحت مظهر وداعة نفاقية.

يكتفون بالاقتراب منه وقد عاود المسير جيئةً وذهاباً وهو يستمع لهذا وذاك من الأعداد الغفيرة من الحجاج، الذين تجمّعوا في الباحة الواسعة،

حيث كُثِرَ مِنْ بَيْنِهِمْ يَسْأَلُونَهُ مَشُورَةً بِمَسَائِلَ تَخَصُّ النَّفْسَ أَوْ أَوْضَاعَ عَائِلِيَّةٍ واجتماعيَّة، منتظرين أن يتمكّنوا من أن يقولوا له شيئاً بعدما سمعوه يعطي رأيه لرجل فيما يخصّ مسألة شائكة تتعلّق بميراث، والتي قد سبّبت انقساماً وحقداً بين الورثة المختلفين بسبب ابن للأب كان له من خادمة في المنزل وتبنّاه، والأبناء الشرعيّون لا يريدونه بينهم، ولا بمثابة وارث في تقسيم المنازل والأراضي. هم لا يريدون أيّ شيء مشترك مع ابن الزنا، ولا يعرفون حلاًّ للمسألة، لأنّ الأب عند موته قد جعلهم يُقسّمون على أنّ كما قسّم الخبز دائماً بين الأبناء الشرعيّين وغير الشرعيّ بنفس المقدار، فعليهم أيضاً تقاسم الإرث معه بنفس المقدار.

يقول يسوع لمن يسأله باسم الإخوة الثلاثة الآخرين: «ضَحّوا جميعكم بقطعة من الأرض، تبيعونها بحيث تجمعون قدراً من المال يساوي خمس الثروة الكاملة، وأعطوه للابن غير الشرعيّ قائلين له: "هذا هو نصيبك. لم تُحرّم مما يخصّك، ولم نُسئ إلى إرادة والدنا. اذهب وليكن الله معك". وكونوا كرماء معطين له زيادة على القيمة المقدّرة لنصيبه. افعلوا ذلك أمام شهود مستقيمين، وبذلك لن يستطيع أيّ كان على الأرض، ولا فيما وراء الأرض، أن يلومكم أو يشكّك فيكم. وستحظون بالسلام بينكم وفي داخلكم، فلا تندمون على عدم طاعتكم لوالدكم، ولا يكون بينكم هذا، البريء بحقّ، الذي سبّب لكم اضطراباً أكثر مما لو كان قد وُضِعَ لصّ بينكم.»

يقول الرجل: «إنّ ابن الزنا هذا قد انتزع حقّاً السلام من العائلة، الصّحة من أمّا التي ماتت حزناً، ومكانة لا تخصّه.»

«ليس هو المذنب يا رجل. بل الذي أنجبه. فهو لم يطلب أن يُولَد ليحمل سمة ابن الزنا. قد كانت شهوة أبيكم هي التي أنجبته كي يُسبَّب له ولكم الألم. كونوا إذاً عادلين تجاه البريء الذي يدفع بقسوة ثمن خطأ لم يرتكبه. ولا تلعنوا روح أبيكم. إنّ الله قد دانه. وهو لا يحتاج إلى صواعق لعناتكم. كرّموا والدكم، دائماً، حتّى وإن كان مذنباً، ليس من أجل نفسه، ولكن لأنّه مثّل إلهكم على الارض، وقد أنجبكم بأمر من الله وكونه ربّ منزلكم. الأبوان يأتیان مباشرة بعد الله. تذكّر الوصايا العشر، ولا تخطئ. امض في سلام.»

يقترّب منه الكهنة والكتبة ليسألوه: «لقد سمعناك. لقد قلت الصواب. لم يكن لسليمان أن يقدّم نصيحة أكثر حكمة منها. إنّما الآن قل لنا، أنت يا مَنْ تجترح المعجزات وتعطي أحكاماً لا يمكن سوى لمَلِك حكيم أن يعطيها، بأيّ سلطان تفعل هذه الأمور؟ من أين تأتيك هذه القدرة؟»

يحدّق فيهم يسوع. لم يكن عدوانياً أو مُحتقراً، بل كثير المهابة، يقول: «وأنا أيضاً لديّ سؤال أطرحه عليكم، وإذا ما أجبتُموني أقول لكم بأيّ سلطان، أنا الإنسان غير المكلف بسلطان والفقير -لأنّ هذا ما تقصدون- أفعل هذه الأمور. قولوا: معمودية يوحنا من أين كانت آتية؟ أمِن السماء أم من الإنسان الذي كان يعطيها؟ أجيبوني. بأيّ سلطان كان يوحنا يعطيها كطقس تطهير كي يعدّكم لمجيء مَسِيّا، لأنّ يوحنا كان أكثر فقراً، وأكثر جهلاً منّي، وبلا تكليف من أيّ نوع، إذ قد أمضى حياته في الصحراء منذ طفولته؟»

يتشاور الكتبة والكهنة فيما بينهم. والناس، بعيون مفتوحة وآذان متنبّهة، على أهبة الاستعداد للاحتجاج والصراخ إذا ما الكتبة حكموا بعدم أهلية يوحنا أو إهانة المعلم، وإذا ما أظهروا عجزهم أمام سؤال رابّي الناصرة،

الإلهيَّ الحكمة، يكتظُّون حولهم. مؤثّر هو الصمت المطبق للجمع الذي ينتظر الإجابة. إنّه صمت عميق بحيث يمكن سماع الأنفاس وهمسات الكهنة أو الكتّبة، الذين يتواصلون فيما بينهم تقريباً دون كلام، ويراقبون في نفس الوقت الناس، ويتكهّنون مشاعرهم الأقرب إلى الانفجار. وأخيراً، يقرّرون الإجابة. يلتفتون إلى المسيح الذي، إذ يستند إلى أحد الأعمدة، ذراعه متصالبتان، يتفحصهم دون أن يغيّبوا عن نظره، ويقولون: «يا معلّم، نحن لا نعلم بأيّ سلطان كان يوحنا يفعل هذا ولا من أين كانت معموديته آتية. لم يكن أحد ليفكرّ بسؤال المعمدان عن هذا أثناء حياته، وهو لم يقل ذلك أبداً بشكل عفويّ.»

«ولا أنا سأقول لكم بأيّ سلطان أفعل هذه الأمور.» ويدير لهم ظهره منادياً الاثني عشر، ويشقّ له طريقاً بين الجمع الذي يهتف له، ويخرج من الهيكل.

عندما يصبحون خارجاً، خلف بركة الغنم، يقول له برتلماوس: «لقد أصبح خصومك كثيرون الفطنة. لعلّهم يهتدون إلى الربّ الذي أرسلك ويعترفون بك كمسيّاً القدّوس.»

«هذا صحيح. إنهم لم يناقشوا سؤالك ولا إجابتك...» يقول متى.

«ليكن هكذا. فمن الحسن أن تهتدي أورشليم إلى الربّ إلهها.» يقول أيضاً برتلماوس.

«لا توهموا أنفسكم! هذا الجزء من أورشليم لن يهتدي أبداً. فهم لم يجيبوا بغير ذلك لأنّهم خافوا من الجمع. أنا كنتُ أقرأ أفكارهم رغم عدم سماع أقوالهم التي قيلت همساً.»

«ماذا كانوا يقولون؟» يسأل بطرس.

«كانوا يقولون التالي. وأرغب أن تعلموا ذلك لكي تعرفوهم بعمق وتتمكنوا من إعطاء من سيأتون في المستقبل وصفاً دقيقاً لقلوب الناس في زمني. إن لم يجيبوني فليس لأنهم اهتموا إلى الرب، بل لأنهم كانوا يقولون فيما بينهم: "إن أجبتنا: 'معمودية يوحنا تأتي من السماء'، سيجيب الرابي: 'إذن فلماذا لم تؤمنوا بما جاء من السماء وعلم الاستعداد للزمن المسياني؟'، وإن قلنا: 'من الناس'، فسيتمرد الجمع قائلين: 'فلماذا إذن لا تؤمنون بما قاله يوحنا، نبينا، عن يسوع الناصري؟' إذاً فمن الأفضل القول: 'لا نعلم'". هذا ما كانوا يقولونه. ليس لأنهم كانوا قد رجعوا إلى الله، ولكن بسبب حساب جبان، وكي لا يتوجب عليهم أن يعترفوا بأفواههم أنني المسيح، وأني أفعل هذه الأمور لأنني حمل الله الذي تكلم عنه السابق. ولا أنا قد شئت أن أقول لهم بأي سلطان أنجز هذه الأمور التي أفعلها. فقد سبق أن قلت ذلك مراراً كثيرة ضمن هذه الأسوار وفي كل فلسطين، ومعجزاتي تشهد أكثر من كلامي. الآن لن أقولها بعد بكلامي. سادع الكلام للأنبياء وأبي، وعلامات السماء. لأن الزمن التي تُعطى فيها كل هذه العلامات قد أتى. تلك التي قالها الأنبياء، وحددت برموز في تاريخنا، والتي قلناها: علامة يونان؛ هل تذكرون ذلك اليوم في قادش؟ هي العلامة التي ينتظرها عملائيل. وأنت يا استفانوس، وأنت يا هرّماس وأنت يا برنابا يا من تركت رفاقك، اليوم، كي تتبعني، بالتأكيد قد سمعتم الرابي يتكلم مراراً عن تلك العلامة. حسناً، قريباً تُعطى العلامة.»

يبتعد صاعداً عبر زيتون الجبل، يتبعه أتباعه وكثير من التلاميذ (من
الاثنين والسبعين) بالإضافة إلى آخرين، مثل يوسف برنابا الذي يتبعه لكي
يسمعه ثانية.

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

7- (الإثنين السابق للفصح، II- الليل)

1947 / 03 / 31

ما يزال يسوع، في المساء، في بستان الزيتون. إنه مع رُسُلِهِ. ومن جديد يتكلّم.

«ومرّ يوم آخر أيضاً. والآن هو الليل ومن ثمّ الغد، ثمّ غد آخر، ومن ثمّ العشاء الفصحى.»

«أين سنقيمه يا ربّي؟ ستكون النساء كذلك هذه السنة.» يسأل فليبيس.

«ولم نعدّ شيئاً بعد، المدينة مزدحمة فوق الحدّ. يبدو كأنّ إسرائيل كلّها هذه السنة، حتّى المتهودين الذين هم من أبعد الأماكن، قد هرعوا لأجل الطقس.» يقول برتلماوس.

ينظر إليه يسوع، وكما لو أنّه كان يتلو أحد المزامير، يقول: «اجتمعوا، أسرعوا، اركضوا من جميع الجهات نحو ذبيحتي التي أضحي بها من أجلكم، نحو الذبيحة العظيمة التي يُضحي بها على جبال إسرائيل، كي تأكلوا جسدها، كي تشربوا دمها.»

«ولكن أيّ ذبيحة؟ أيّ ذبيحة؟ إنّك تبدو كمن استحوذ عليه جنون مُحكم. أنت لا تتكلّم سوى عن الموت... وتحزننا.» يقول برتلماوس بحدّة.

يلتفت إليه يسوع مرّة أخرى، مبتعداً بعينه عن سمعان الذي ينحني ويتكلّم مع يعقوب بن حلفى وبطرس، ويقول: «كيف؟ أنت تسألني ذلك؟ أنت لست واحداً من أولئك الصغار الذين، لكي يتعلّموا، يجب أن يتلقّوا النور

السباعي. فأنت قد درستَ الكتاب بالفعل، قبل أن أدعوكَ بواسطة فليبيّس، في ذلك الصباح الربيعي اللطيف. من ربيعي. وأنتَ تسألني بعد عن الذبيحة المضحى بها على الجبال، تلك التي سيُقبل إليها جميع الناس ليقتاتوا منها؟ وتقول عني مجنوناً جنوناً مُحكماً لأنني أتكلّم عن الموت؟ آه! برتلماوس! مثل صيحة الحرّاس، قد أطلّقتُ في ظلماتكم التي لم تفتح أبداً على النور، مرّة، واثنين وثلاث، الصيحة المُنذرة، إنّما أنتم لم تريدوا أبداً فهمها. لقد تألّمت منها وقتها، ومن ثمّ... مثل أطفال قد نسيتم بسرعة الكلام عن الموت وعدتم بفرح إلى عملكم، واثقين من أنفسكم وممثلين بالرجاء أنّ كلامي وكلامكم سيقنعان العالم أكثر فأكثر كي يتبع ويحبّ فاديّه.

كلا. فقط بعد أن تكون هذه الأرض قد ارتكبت الخطيئة ضدّي -وتذكّروا أنّها كلمات الربّ لنبيّه- فقط بعد أن يبدأ الشعب، وليس فقط هذا الشعب على وجه الخصوص، بل شعب آدم العظيم، يبدأ بالأنين: "لنقصد الربّ. فهو الذي جرحنا سيشفينّا". وعالم المفتدين سيقول: "بعد يومين، أي زمانين من الأبدية، اللذين سيكون قد تركنا خلالهما تحت رحمة العدو، الذي بكلّ أسلحته سيكون قد ضربنا وقتلنا مثلما نحن ضربنا وقتلنا القدّوس -ونحن نضربه ونقتله، ذلك أنّه سيكون على الدوام من هم من نسل قايين الذين سيقتلون بلعناتهم وبأعمالهم السيئة ابن الله، الفادي، راشقين سهاماً مميتة ليس على شخصه الأبدى الممجّد، إنّما على نفوسهم التي افتداها، لكي يقتلوها، ويقتلوه هو بالتالي في نفوسهم- فقط بعد هذين الزمنين سيأتي اليوم الثالث، فنقوم من الموت بحضوره في ملكوت المسيح على الأرض ونحيا بحضرته في انتصار الروح. سوف نعرفه، وسنتعلّم معرفة الربّ لتأهّب، بفضل هذه المعرفة الحقيقيّة لله، للثبات في آخر معركة يشنّها لوسيفوروس على الإنسان قبل

صوت البوق السابع للملاك الذي سيفتح الجوقة المطوّبة لقديسي الله، للعدد الكامل للأبدية -ولا يمكن لأصغر رضيع، ولا لأكبر كهل أن يضاف إلى العدد- الجوقة التي ستُنشد: "لقد انتهت مملكة الأرض البائسة، وقد مثل العالم مع كلّ سكّانه أمام القاضي المنتصر. والمختارون هم الآن بين يدي ربّنا ومسيحه، وهو ملكنا إلى الأبد. المجد للربّ الإله كلّيّ القدرة، الكائن والذي كان والذي سيكون، لأنّه أخذ سلطانه العظيم وتسلّم زمام ملكوته."

آه! مَنْ منكم سيُحسّن تذكّر كلمات تلك النبوءة، التي أضحت ترنّ متوارية في كلام دانيال، والتي تدوّي الآن بصوت الحكيم أمام العالم المذهول وأمامكم، أنتم الأكثر ذهولاً من العالم؟!

"مجيء المَلِك -العالم سيستمرّ وهو يئنّ في جراحه ومحبوساً في قبره، شريراً في الحياة وبائساً في الموت، حبيس رذائله السباعيّة وبدعه التي لا تنتهي، روح العالم المحتضر الحبيس مع آخر نزاعاته داخل كينونته، والمائت بالبرص بسبب كلّ أخطائه- مجيء المَلِك المهيباً كمجيء الفجر، وكمطر الربيع والخريف سيأتي إلينا."

إنّ الفجر يسبقه الليل ويعدّ له. هذا هو الليل. ليل الحاضر. وماذا أصنع لك يا أفرايم؟ ماذا أصنع لك يا يهوذا؟... سمعان، برتلماوس، يهوذا، وابنا العم، أنتم الأكثر معرفة بالكتاب، هل تعرفون هذه الأقوال؟ هي ليست من روح مجنون، بل هي متأتية ممّن يمتلك الحكمة والعلم. فأنا أتلو الأنبياء كالمَلِك الذي يفتح بثقة خزائنه الحديدية، لأنّه يعلم أين هي الجوهرة التي يفتش عنها، بعدما وضعها بيده داخلها. أنا الكلمة. خلال أجيال تكلمتُ عبر شفاه بشرية، ولأجيال سأتكلم عبر شفاه بشرية. ولكنّ كلّ ما قيل ممّا هو فائق

الطبيعة هو كلمتي. فلا يستطيع الإنسان، حتّى الأكثر علماً وقداًسة، الصعود بنفْس نسر إلى ما وراء حدود العالم الأعمى، لكي يدرك ويقول الأسرار الإلهيّة.

المستقبل ليس "حاضراً" إلّا في الفكر الإلهيّ. حُقم هو لدى الذين لم يرتقوا بإرادتنا، ادعاء الوحي والتنبؤ. والله يُكذّبهم ويضربهم، لأنّ واحداً فقط بإمكانه أن يقول: "أنا هو" ويقول: "أنا أرى" ويقول: "أنا أعلم". إنّما عند وجود إرادة بغير قياس، بغير حكم، والتي يجب قبولها مع انحناء من الرأس، قائلة: "ها أنا ذا"، فإنّه يقول، بلا نقاش: "تعال، اصعدي، اسمعي، انظري، كرّري"، حينئذ، غارقة في حاضر إلهها الأبديّ، فإنّ النّفْس المدعوّة من الربّ لتكون "صوتاً"، ترى وترتعش، ترى وتبكي، ترى وتتهلّل، حينئذ، النّفْس المدعوّة من الربّ لتكون "الكلمة"، تسمع، وإذ تبلغ إلى النشوة أو تعرّق الاحتضار، تردّد الكلام الرهيب لله الأبديّ. لأنّ كلّ كلمة لله رهيبة هي، حيث هي آتية من ذاك الذي منه الحكم ثابت والعدل لا هوادة فيه، وحيث هي موجهة إلى البشر الذين قليلون جدّاً منهم يستحقّون المحبّة والبركة وليس صواعق وإدانة. الآن هذه الكلمة، المعطاة والمحتقّرة، أليست هي سبب خطيئة رهيبة وعقاب للذين، إذ سمعوها، قد رفضوها؟ إنّها كذلك.

«وماذا عليّ أن أصنع لكم أيضاً أيا أفرام، ويا يهوذا، ويا أيّها العالم، ولم أصنعه؟ لقد أتيت لأحبّك أيا أرضي، وكلمتي قد كانت لك سيفاً يقتل لأنّك مقتّها. آه! أيّها العالم الذي تقتل مخلصك ظانّاً أنّك تفعل أمراً صائباً، كم تشيطنت بحيث أنّك لم تعد تدرك حتّى ماهيّة الأضحية التي يطلبها الله، أضحية الخطيئة الشخصيّة، لا دابة مذبوحة ومضحي بها والنّفْس قذرة! إنّما ما الذي قلّته لك خلال هذه السنوات الثلاث؟ وبماذا بشرت؟ لقد قلت: "اعرفوا

الله في شرائعه وطبيعته". وأنا قد يبستُ، مثل آنية خزفية مسامية قد وُضِعَتْ في الشمس، وأنا أنشر فيكم المعرفة الحيوية للشرية والله. وأنت مستمرّ في المحرقات دونما إتمام للشيء الوحيد الضروري: التضحية بإرادتك السيئة لله الحق!

الآن يقول لك الله الأبديّ، أيتها المدينة العاصية، أيها الشعب المرتد -وفي ساعة الحكم عليك سيُستخدَم لك سوط لن يُستخدَم لروما وأثينا، الغبيتين اللتين لا تعرفان الكلمة والمعرفة، إنّما اللتين عندما، من طفلين أديين أسىء الاعتناء بهما من قبل مربيتيهما ولبثا حيوانيين في قدراتهما، يعبران إلى ذراعيّ كنيسة المقدسين، عروستي السامية الوحيدة التي ستلد لي عدداً لا يحصى من الأبناء المستحقين للمسيح، سيصبحان في سنّ الرشد وقادرين، ويعطياني قصوراً وحشوداً، معابد وقديسين كي تعمر بهم السماء كما نجوم- الآن يقول لك الله الأبديّ: "ليست لي مسرة بكم ولا أقبل تقدمة من يديكم. بالنسبة لي هي شبيهة بقذارة، وأرميها في وجوهكم فتعلق بها. اتقرّز من مظهرية احتفالاتكم الخارجية. أفسخ العهد مع نسل هارون وأحيله لأبناء لاوي، لأنّ هذا هو لاوي الذي لي، وقد قطعتُ معه إلى الأبد عهد سلام وحياة وقد كان أميناً لي عبر الدهور، حتّى التضحية. كانت له مخافة الآب المقدسة، وقد ارتجف بسبب حنقه كمهان، لمجرّد سماع اسمي المُهان. شرية الحق كانت في فيه، ولم يكن من إثم على شفّتيه، سار معي في السلام والاستقامة، وردّ كثيرين عن الإثم. لقد بلغ الزمان الذي يُضحى ويُقرّب فيه لاسمي في كلّ مكان، وليس بعد على مذبح صهيون الوحيد ذلك أنكم غير جديرين لأن تقدّموها عليه، التقدمة الطاهرة، التي بلا عيب، المرضية للربّ."

هل تعرفون الكلمات الأبدية؟»

«نعرفها، أيا ربنا. وثق، بأننا مُنْهَكُونَ كما لو كنّا قد ضُربنا. إنّما ألا يمكن تغيير المصير؟»

«أُسمّيه مصيراً يا برتلمائوس؟»

«لا أعرف له أيّ اسم آخر...»

«تكفير. هذا هو الاسم. فإهانة الربّ تستلزم تكفيراً عنها. والله الخالق قد أهين من أول مخلوقاته. ومن ذاك الحين، لم تتوقّف الإهانة عن التعاضد. لم يُجد فيضان نوح، ولا إمطار النار على صادوم وعامورة في جعل الإنسان قديساً. لا الماء ولا النار. فالأرض هي صادوم بلا حدود يسرح فيها لوسيفر حُرّاً ومَلِكاً. فليأتِ إذاً ثالث لغسلها: نار الحبّ، ماء الألم، دم الضحية. ها هي ذي عطيتي أيا أيتها الأرض. لقد أُتيْتُ لأعطيها لك. والآن هل أتملّص من إتمامها؟ إنّهُ الفصح، ولا يمكن الفرار.»

«لماذا لا تذهب إلى لعازر؟ لن يكون فراراً، إنّما عنده لا يَمسّكَ أحد.»

«سمعان يُحسن القول. أتوسّل إليك يا ربّ، افعل ذلك!» يهتف يهوذا الاسخريوطيّ مرتعياً عند قدميّ يسوع.

يستجيب لحركته بكاء شديد من قبل يوحنا، ورغم تحكّم ابنيّ العم ويعقوب وأندراوس بألمهم، فإنّهم يبكون كذلك.

«أتؤمن أنّي 'الربّ'؟ انظر إليّ!» ويخترق يسوع بنظره وجه يهوذا القلق، ذلك أنّه قلق حقّاً، ولا يصطنع ذلك. ربّما كانت هذه آخر معارك نفسه مع الشيطان، ولا يُحسن الانتصار. يسوع يدرسه ويتابع المعركة كما يدرس

عَالِم نوبة مريض. ثمّ ينهض فجأة وبعنف لدرجة أنّ يهوذا، المستند على ركبتيه، يُدْفَع وَيَسْقُط جالساً على الأرض. يتراجع يسوع أيضاً، وقد تغيّر وجهه ويقول: «لكي يُقَبَض على لعازر أيضاً؟ فريستان وبالتالي فرح مزدوج. لا، فلعازر يُحَفَظ لأجل مسيح المستقبل، المسيح المنتصر. واحد فقط يُلقَى خارج الحياة ولن يرجع. أنا، سأرجع. أمّا هو فلن يرجع. لكنّ لعازر يبقى. أنت، أنت يا مَنْ تعرف أموراً كثيرة، تعرف أيضاً هذا. إنّما أولئك الذين يأملون في منفعة مزدوجة، القبض على النسر مع فرخه، في العشّ وبلا صعوبة، يمكنهم الوثوق من أنّ عينيّ النسر على الجميع، وأنّه بدافع حبه لصغيره سيذهب بعيداً عن العشّ، كي يُلقَى القبض عليه وحده مُخَلَّصاً إِيَّاه. إنّ الكراهية ستقتلني ومع ذلك أستمّر في الحبّ. امضوا. أنا سأبقى للصلاة. لم أكن أبداً محتاجاً لأرفع نفسي نحو السماء كما الساعة التي أحيّاها.»

«دعني أبقى معك يا ربّ.» يتوسّل يوحنا.

«لا. أنتم جميعاً في حاجة إلى الراحة. اذهب.»

«أتبقى بمفردك؟ وإنّ أدوك؟ كذلك يبدو عليك الألم... أنا سأبقى.» يقول

بطرس.

«أنت اذهب مع الآخرين. اتركوني أنسى البشر لساعة! دعوني

أتواصل مع ملائكة أبي! إنّهم يحلّون محلّ أمّي، التي تُتْهَكها الدموع في

الصلاة، والتي لا أريد أن أحملها ألمي الموحش. امضوا.»

«ألا تمنحنا السلام؟» يسأل ابن عمّه يوحنا.

«أنتَ على حقّ. ليحلّ سلام الربّ على الَّذِينَ ليسوا عاراً في عينيهِ.
الوداع.» وينفذ يسوع، صاعداً عبر منحدر صغير، وسط شجر الزيتون.

«ومع ذلك... ما يقوله مكتوب حقّاً! وحينما نسمعه منه، نفهم لماذا ومن
أجل مَنْ قيل.» يدمدم برتلمائوس.

«أنا قد قلتُ ذلك لبطرس خلال خريف السنة الأولى...» يقول سمعان.
«هذا صحيح... ولكن... لا! طالما أنا على قيد الحياة لن أدع أحداً
يقبض عليه. غداً...» يقول بطرس.

«ما الذي ستفعله غداً؟» يسأل الاسخريوطيّ.

«ما الذي سأفعله؟ إنني أتكلّم مع نفسي. إنّه زمن المكائد. أنا لن أبوح
بما في فكري حتّى للهواء. وأنتَ القادر، وقد قلتَ ذلك مراراً، لماذا لا تبحث
عن حماية ليسوع؟»

«سأفعل يا بطرس. سأفعل. لا تندهشوا إن غبتُ أحياناً. فأنا أعمل من
أجله. ومع ذلك لا تقولوا له.»

«اطمئنّ، ولتكن مباركاً. أحياناً كنتُ أرتاب فيك، فأعتذر. أرى أنّك
أفضل منّا في اللحظة الحاسمة. أنتَ تتصرّف... وأنا لا أحسن سوى الكلام
الفارغ.» يقول بطرس، متواضعاً وصادقاً.

ويضحك يهوذا كما لو كان التبجيل يسرّه. ويبتعدون عن جثسيماني
صوب الطريق المؤدّية إلى أورشليم.

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

8- (الثلاثاء السابق للفصح، ١- النهار)

1947 / 04 / 01

إنهم على وشك الدخول إلى المدينة من نفس الدرب المنعزل الذي سلكوه صباح الأمس، وكأنّ يسوع لا يريد أن يحيط به الشعب الذي ينتظره قبل أن يدخل إلى الهيكل، الذي يتم بلوغه بسرعة بدخول المدينة من باب القطيع القريب من بركة الغنم. ولكنّ كثيرين من الاثنين والسبعين ينتظرونه اليوم وراء القدرون، قبل الجسر، ولحظة رؤيته يهلّ وسط الزيتون الأخضر-الرمادي، بثوبه الأرجواني، يذهبون للقاءه.

يتجمعون ليمضوا صوب المدينة. بطرس، الذي ينظر إلى الأمام، أسفل المنحدر، حيث هو في شكّ دائم من ظهور بعض ذوي النوايا السيئة، يرى وسط آخر منحدر أخضر يانع كومة من الأوراق الذابلة تتدلى فوق ماء القدرون. الأوراق المتقلّصة والمائتة، تتناثر عليها بقع تشبه الصدا، وكأنّها نبات جفّقه اللهب، ومن وقت إلى آخر يفصل النسيم إحداها ويدفنها في ماء السيل.

«ولكنّها تينة الأمس! التينة التي لعنتها!» يهتف بطرس، وهو يشير بيده إلى النبات اليبس وهو يدير رأسه ليتحدّث إلى المعلم.

يهرع الجميع، عدا يسوع الذي يتقدّم بخطوته الاعتيادية.

يَروي الرُّسُل للتلاميذ ما سبق الحدث الذي يرونه، ويبدأ الجميع يعلّقون معاً وهم ينظرون إلى يسوع في ذهول. لقد رأوا آلاف المعجزات على البشر والعناصر، لكنّ هذه صعقتهم كما لم تفعل الأخرى.

يسوع، الذي وصل، يبتسم وهو يرى تلك الوجوه المذهولة والخائفة، ويقول: «ماذا؟ أنتم مندهشون لأنّ التينة قد يبست بكلمتي؟ ألم تروني يا ترى أقيم الأموات، أشفي البرص، أمنح البصر للعميان، أَكثّر الخبز، أَهدّي العواصف، أَطفئ النار؟ وأنتم مذهولون من تينة جفّت؟»

«ليس من أجل التينة. ولكن لأنها بالأمس كانت صلبة حينما لعنتها، والآن يبست. انظر! إنّها تتفتّت بسهولة مثل الخزف الجافّ. لم يعد لفروعها لبّ. انظر، صارت تتفتّت كالتراب.» ويحوّل برتلماوس بين أصابعه فروعاً كسرها بسهولة إلى غبار.

«لم يعد فيها لبّ. أنت قلتَ. وهو الموت حينما لا يعود يوجد لبّ، في شجرة كما في أمة، كما في ديانة، إنّما يتواجد فقط قشرة صلبة وإبراق عديم الفائدة: قسوة ورياء خارجيّ. إنّ اللبّ، الأبيض، الكامل، المليء بالعصارة، هو المقابل للقداسة، للروحانيّة. والقشرة الجافّة والإبراق غير المجدي هما المقابل للإنسانيّة الخالية من الحياة الروحانيّة والمستقيمة. الويل لتلك الديانات التي تستحيل بشريّة لأنّ كهنتها ومؤمنّيها لم يعد فيهم روح حيويّ. ويل للأمم التي لم يعد رؤساؤها سوى شراسة وثرثرة صاحبة خالية من الأفكار المثمرة! ويل للناس الذين تنقصهم حياة الروح!»

«ومع ذلك، لو كان عليك قول ذلك لعظماء إسرائيل، حتّى ولو كان كلامك صائباً، فلن تكون حكيماً. لا تنخدع كونهم تركوك إلى الآن تتكلّم. أنت

نفسك تقول أنه ليس بسبب اهتداء القلوب، بل بسبب حسابات. فاعلم إذاً، أنت كذلك، أن تحسب مآل ونتائج كلامك. لأنّ هناك أيضاً حكمة العالم إلى جانب حكمة الروح. ويجب معرفة استخدامها لمنفعتنا. إذ في النهاية، نحن الآن في العالم، ولسنا في ملكوت الله.» يقول الاسخريوطي بدون فظاظة، بل بنبرة عالم.

«الحكيم الحقيقيّ هو الذي يُحسِّن رؤية الأمور دون أن تفسدها ظلال الشهوة الذاتية ولا أفكار الحسابات، سأقول دائماً الحقّ الذي أراه.»

«ولكن الخلاصة، هل ماتت التينة لأنك أنت قد لعنتها، أو بالأحرى... هي مجرد صدفة... أو هي علامة... لا أعرف؟» يسأل فيلبس.

«هو كلّ ما قلّته. ولكن ما صنعته ستمكّنون من صنعه أنتم أيضاً إذا ما توصلتم إلى أن يكون لكم إيمان كامل. فليكن لكم هذا الإيمان بالربّ العليّ. وحينما تمتلكونه، الحقّ أقول لكم إنكم ستفعلون هذا وأكثر أيضاً. الحقّ أقول لكم إنّ من يصل إلى الثقة الكاملة بقوة الصلاة وصلاح الربّ، سيملكه أن يقول لهذا الجبل: "انتقل من هناك وانطرح في البحر" ولا يشكّ في قلبه وهو يقولها، بل يؤمن أنّ ما يأمر به ممكن التحقق، فما يقوله سيتحقّق.»

«وسنبذو كالسحرة ونُرجِم، كما قيل بخصوص من يمارس السحر. ستكون معجزة في غاية الحمق وضارّة لنا!» يقول الاسخريوطي وهو يهزّ رأسه.

«أنت أحمق، أنت يا من لا تفهم المثل!» يجيبه يوحنا.

يسوع لا يتحدّث إلى يهوذا، بل يتحدّث إلى الجميع: «أقول لكم هذا الدرس القديم وأردده في هذه الساعة، أيّ شيء تطلبونه بالصلاة، آمنوا أنكم

ستنالونه، فيكون لكم. إنّما إن كان لكم على أحد شيء قبل أن تُصلّوا، فاغفروا وتصالحوا حتّى يكون أبوكم الذي في السماوات صديقاً لكم، الذي يغفر لكم كثيراً، ويُغدّق عليكم كثيراً، من الصباح إلى المساء ومن المغيب إلى الفجر.»

يَدْخلون إلى الهيكل. ينظر إليهم جنود برج أنطونيا وهم يمرّون. يمضون لتقديم العبادة للربّ، ثمّ يرجعون إلى الباحة حيث يُعلّم الرابّيون.

وعلى الفور، وقبل أن يصل الناس ويتجمّعوا حول يسوع، يقترب منه جماعة من السافوريم وعلماء إسرائيل والهيرودسيّين، وباحترام مزيف، بعد أن يُحيّوه، يقولون له: «يا معلّم، نحن نعلم أنّك حكيم وصادق، وتُعلّم طريق الله دون أن تبالي بشيء أو بأحد، سوى الحقّ والعدل، وأنّك قليل الاهتمام بحكم الآخرين عليك، بل تهتمّ فقط بقيادة الناس إلى الخير. قل لنا إذاً: أيجوز أن نُعطي الجزية لقيصر، أم هو غير جائز؟ ما رأيك؟»

يرمقهم يسوع بواحدة من نظراته تلك نافذة البصيرة الخارقة والمهيبة، ويجيب: «لماذا تجرّبونني برياء؟ ومع ذلك فبعضكم يعلم أنّه لا يمكن خداعي بتشريفات منافقة! ولكن أروني قطعة من نقود الجزية.» يُقدّمون له قطعة نقود.

ينظر إليها من الأمام والخلف، وهو ممسك بها على كفّ يده اليسرى، ويضربها بسبّابة يده اليمنى ويقول: «لمن هذه الصورة وماذا تقول هذه الكتابة؟»

«هذه صورة قيصر، والكتابة تحمل اسمه. اسم كايوس طيباريوس قيصر، الذي هو الآن امبراطور روما.»

«إذاً أعطوا لقيصر ما هو لقيصر والله أعطوا ما هو لله.» ويدير ظهره لهم بعدما أرجع قطعة النقد لمن أعطاهها له.

يستمتع إلى هذا وذاك من الحجاج كثيري العدد الذين يسألونه، يعزي، يغفر، يشفي. تمرّ الساعات.

يخرج من الهيكل ليذهب ربّما خارج الباب، ليتناول الطعام الذي يقّده له خُدام لعازر الذين أحضروه.

عندما يعاود الدخول إلى الهيكل يكون الوقت بعد الظهر. إنّه لا يكلّ. تنساب النعمة والحكمة من يديه الموضوعتين على المرضى، من شفّتيه اللتين توجّهان نصائح شخصيّة للعديد ممّن يقتربون منه. يبدو أنّه يريد أن يعزي الجميع، يشفي الجميع، قبل أن يعود غير قادر على فعل ذلك.

إنّه المغيب تقريباً، والرُّسل المتعبون، يجلسون على الأرض تحت الرواق، إذ أذهلتهم حركة الجموع المستمرّة في باحات الهيكل بسبب اقتراب الفصح، في هذه الأثناء يقترب من الذي لا يكلّ بعض من الأغنياء، بالتأكيد أغنياء نظراً لملابسهم الفاخرة.

متّى، الذي لا ينام إلّا بعين واحدة، يهبّ ليهزّ الآخرين. ويقول: «صدوقيّون ماضون إلى المعلم. فلا نتركه بمفرده حتّى لا يهينوه أو يسعون لإيذائه أو احتقاره مجدّداً.»

يَهْبُونَ جميعاً قاصدين المعلم ويحيطون به على الفور. أظنني أخمن حدوث أعمال انتقامية لدى ذهابهم إلى الهيكل أو عودتهم إليه لصلاة الساعة السادسة.

الصدوقيون، الذين يقدمون الاحترام ليسوع بانحناءات مبالغ فيها، يقولون له: «يا معلم، لقد أجبت بحكمة على الهيروديين بحيث راودتنا الرغبة بأن نحظى نحن كذلك بشعاع من نورك. اسمع: قال موسى: "إن مات أحد وليس له أولاد، فليتزوّج أخوه أرملته كي يقيم نسلًا لأخيه". ولقد كان بيننا سبعة إخوة. فتزوّج الأول صبيّة، ومات دون أن يترك نسلًا، وهكذا ترك امرأته لأخيه. وكذلك الثاني مات ولم يترك نسلًا. وهكذا الثالث الذي تزوّج أرملة الإثنين اللذين سبقاه، وهكذا كان الحال وصولاً إلى السابع. وفي النهاية، بعد زواجها من الإخوة السبعة، ماتت المرأة. فقل لنا: عند قيامة الأجساد، إن كان صحيحاً أنّ الناس يقومون وأنّ نفوسنا تبقى حيّة وتتحد من جديد بالجسد في اليوم الأخير، معيدة تشكيل الأحياء، فلمن من الأخوة السبعة تكون امرأة، لأنّها كانت زوجة للسبعة جميعهم على الأرض؟»

«أنتم تضلّون. إذ لا تحسّنون فهم الكتُب ولا قدرة الله. إنّ الحياة الأخرى ستكون شديدة الاختلاف عن هذه، وفي الملكوت الأبديّ لا وجود لاحتياجات الجسد كما هنا. ذلك أنّ الجسد يقوم حقاً، بعد الدينونة النهائية ويتّحد بالنفس الخالدة لكي يعود فيشكّل كلاً واحداً، حياً مثل، بل أفضل ممّا نحيا به الآن أنا وأنتم، إنّما لن يكون خاضعاً بعد للشرائع وبالأخصّ إلى الدوافع والمفاسد الموجودة الآن. في القيامة، الرجال والنساء لا يُزوّجون ولا يتزوّجون، ولكنهم يكونون كملائكة الله في السماء، الذين لا يُزوّجون ولا يتزوّجون، إنّما يحيون في المحبّة الكاملة، الإلهيّة والروحيّة. ومن ثمّ بالنسبة لقيامة الأموات،

أفما قرأتم كيف أنه من العليقة تكلم الله مع موسى؟ ماذا قال حينئذ العلي؟ "أنا إله إبراهيم، وإله إسحاق وإله يعقوب". لم يقل "كنت" ليجعل المرء يدرك أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب كانوا موجودين، ولم يعد لهم وجود بعد. بل قال: "أنا" لأن إبراهيم وإسحاق ويعقوب موجودون. خالدون. مثل كل البشر في جزئهم الخالد، طالما دامت الدهور، وبعد ذلك مع الجسد القائم للأبد. موجودون مثلما هو موسى، الأنبياء، الأبرار ومثلما هو، بكل أسف، قايين، وجماعة الطوفان، والسادوميين، وكل الذين ماتوا في الخطيئة المميتة. إن الله ليس إله أموات، بل إله أحياء.»

«وهل تموت أنت أيضاً ثم تحيا؟» يقولون ليجربوه. فهم الآن متعبون من وداعتهم. وقد بلغ حقدهم حدّاً لم يعودوا معه عارفين أن يتمالكوا أنفسهم.

«أنا هو الحيّ وجسدي لن يعرف تحلاً. لقد انتزع منّا تابوت العهد، والحالي سيُنزع أيضاً على سبيل الرمز. والخيمة انتزعت منّا وستُدمر. ولكن هيكّل الله الحق لا يمكن أن يُنتزع أو يُدمر. وعندما يعتقد خصومه أنهم فعلوا ذلك، حينذاك تكون هي اللحظة التي يستقرّ فيها في أورشليم الحقّة، في كلّ مجدها. وداعاً.»

ويسرع نحو باحة الإسرائيليين لأن الأبواق الفضيّة تدعوا إلى ذبيحة المساء.

يقول لي يسوع:

«كما جعلتك تلاحظين عبارة "من كأسّي" في الرؤيا التي تطلب فيها أمّ يوحنا ويعقوب مكاناً لابنيها [ج8-ف38]، أقول لك كذلك أن تلاحظي في رؤيا الأمس [ج9-ف6] عبارة: "من سيسقط 'ضدّ' (يصطدم ب) هذا الحجر

سيتهشم". في الترجمات يستخدم دائماً كلمة 'على'. وأنا قلت 'ضد' وليس 'على'. وهذه نبوة ضدّ أعداء كنيسة. فالذين يعاكسونها مهاجمين إياها، لأنّها حجر الزاوية، سيتحطّمون. إنّ تاريخ الأرض، منذ عشرين قرناً، يؤكّد ما أقوله. مُضطهدو الكنيسة يتحطّمون بمهاجمتهم حجر الزاوية.

إنّما كذلك، وليضع ذلك في الاعتبار أيضاً أولئك الذين بانتمائهم إلى الكنيسة، يظنّون أنّهم بمأمن من العقوبات الإلهيّة، إنّ من سيهوي عليه ثقل إدانة رئيس وعريس تلك العروس الّتي هي لي، هذا الجسد السريّ الّذي هو جسدي، فهذا سيُسحق.

ولكبح اعتراض الكتّبة والصدّوقيين الأحياء [الحيويين] على الدوام، وسيئي النية تجاه خدامي، أقول: إذا ما كانت في هذه الرؤى الأخيرة جُمْل ليست في الأناجيل، كتلك الّتي في ختام رؤيا اليوم، والنقطة الّتي أتكلّم فيها عن التّينة اليابسة وأخرى أيضاً، فليتنذكروا أنّ الإنجيليين كانوا دائماً من هذا الشعب، وعاشوا في أزمنة كلّ صدام فيها، شديد الوطأة، قد يكون له عواقب عنيفة ومؤذية للمسيحيين حديثاً.

فليعيدوا قراءة أعمال الرُّسل، وسيرون أن اندماج الأفكار الكثيرة المختلفة لم يكن في سكون، فإنّهم وإن كانوا يتبادلون التقدير، معترفين بالاستحقاق لبعضهم البعض، إلّا أنّ الخصومات كانت قائمةً بينهم، لأنّ أفكار الناس متنوّعة وناقصة على الدوام. ولتجنّب الانشاقات الأعماق بين فكر وآخر، فإنّ الإنجيليين، بإلهام من الروح القدس، قد تعمّدوا في كتاباتهم إغفال الجمل الّتي تصدم حساسيّة اليهود المفرطة وتُعثر الأمم، الّذين كانوا في

حاجة إلى أن يؤمنوا بكمال اليهود، النواة التي كانت الكنيسة قد أتت منها، كي لا يبتعدوا قائلين: "إنهم مثلنا".

معرفة اضطهادات المسيح، نعم. أمّا الأمراض الروحية لشعب إسرائيل الفاسد، وخاصة في أوساطه العليا، فلا. لم يكن حسناً. فحجبوا أكثر ما يمكنهم. وليلاحظوا كيف أنّ الأنجيل تصبح أكثر فأكثر جلاء باطّراد، وصولاً إلى إنجيل يوحنا الصافي، كلّما كُتبت في أزمنة بعيدة عن زمن صعودي إلى أبي. فوحده يوحنا يروي بشكل كامل حتّى اللطخات الأكثر ألماً للنواة الرسولية ذاتها، مُطلقاً بصراحة على يهوذا تسمية 'سارق'، ويشير بشكل كامل إلى دناءة اليهود (الأصحاح السادس: الإرادة المصطنعة لتنصيب ملكاً، المشاجرات في الهيكل، هجر الكثيرين بعد الحديث عن خبز السماء، شكّ توما). فهو آخر الباقيين على قيد الحياة، إذ عاش بما يكفي ليرى الكنيسة وقد صارت قويّة، فيرفع الحُجب التي لم يجرؤ الآخرون على رفعها. والآن روح الله يريد ان تُعرَف حتّى هذه الكلمات، وليكن الربّ مباركاً على ذلك، كونها أنواراً وإرشادات غزيرة لمستقيمي القلوب.»

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

9- (الثلاثاء السابق للفصح، ١١- الليل)

1945 / 03 / 07

«لقد سمعتم اليوم أمميّين ويهوداً يتكلّمون. وقد رأيتم كيف انحنى الأولون أمامي وكيف أوشك الآخرون على ضربي. أنت يا بطرس، كنت على وشك التضارب بالأيدي لدى رؤيتكَ تعمّدهم دفع حملان وكباش وعجول إليّ لجعلي أقع أرضاً بين الفضلات. أنت يا سمعان، رغم فطنتك المعهودة، قد فتحتَ فمكَ لتهين أعضاء السنهدرين الأكثر حقداً، الذين كانوا يدفعونني بغلاظة قائلين: "ابتعد، أيّها الشيطان، كي يمرّ مرسلو الله". وأنت يا يوحنا، ابن العم، وأنت يا يوحنا، المفضّل لديّ، فقد صرختما، وحميتما بحيويّة، حيث الواحد أمسك لجام الحصان حتّى لا يصدمني، والآخر بوقوفه أمامي وتلقّيه صدمة القضيبيّ الموجه إليّ، عندما بضحكة هازئة، سار تجاهي صادق بمركبته الثقيلة عدواً عن عمد. إنني أشكركم على محبّتكم التي جعلتكم تقفون في وجه هؤلاء الذين يهينون الأعزل. ولكنكم سترون المزيد من الإهانات والأفعال الشرسة الأخرى. وعندما يعود هذا القمر مجدّداً في السماء بعد هذا المساء، فإنّ الإهانات، التي هي شفويّة للآن، أو التي هي بالكاد في مراحلها الأولى بصورتها المادّية، ستصبح محسوسة، وبأكثر كثافة من الأزهار التي هي الآن على الأشجار المثمرة، والتي لا تكفّ عن السرعة في كثرة الإزهار. لقد رأيتم —ودُهشتم— من تينة جفّت وبستان أشجار تفّاح بلا زهر. التينة، مثل إسرائيل، قد رفضت أن تُنْعِش ابن الإنسان وماتت في خطيئتها. وبستان التفّاح، هو مثل الأمم، ينتظر الساعة التي تحدّث عنها

اليوم، كي يُزهر ويلغي آخر ذكرى للبربرية البشرية بعذوبة الزهور التي سينثرونها على رأس وتحت أقدام المنتصر.»

«آية ساعة يا معلّم؟» يسأل متى. «إنّك اليوم قد تكلمت كثيراً وعن أمور كثيرة! لا أتذكّر جيّداً، وأودّ لو أتذكّر كلّ شيء. أيمن أن تكون ساعة عودة المسيح؟ هنا أيضاً تكلمت عن الأغصان التي تصير غصّة وتورق.»

«ولكن لا!» يهتف توما. «يتحدّث المعلّم كما لو أنّ تلك المؤامرة التي ينتظرها وشيكة هي. وإلا فكيف في وقت قليل، يحدث كلّ ما قال إنّه يسبق عودته؟ حروب، دمار، عبودية، اضطهادات، البشرى السارة معلنّة في العالم كلّها، خراب وكراهية في بيت الله، ثمّ زلازل، أوبئة، أنبياء كذبة، وعلامات في الشمس والنجوم... إيه! يلزم عصور ليتمّ كلّ هذا! سيفلس صاحب بستان التفّاح إن كان على بستانه انتظار تلك الساعة كي يُزهر!»

«لا يأكل بعد من ثماره، لأنّ حينذاك ستكون نهاية العالم.» يعلّق برتلماوس.

«إنهاء العالم لا يتطلّب سوى فكرة من الله، ويتحوّل كلّ شيء إلى عدم. وبالتالي يمكن أن يكون على بستان التفّاح هذا الانتظار لوقت قليل، ولكن كما قلتُ، هذا سيحصل. وبين هذا وذاك ستمرّ عصور. أعني حتّى الانتصار وعودة المسيح.» يشرح يسوع.

«فإذا؟ آية ساعة؟»

«آه! أنا أعلم الساعة!» يقول يوحنا وهو يبكي. «أعلمها. وستكون بعد موتك وقيامتك!...» ويعانقه يوحنا بشدّة.

«وهل تبكي إن قام؟» يمزح يهوذا الاسخريوطي.

«أبكي لأنه ينبغي أن يموت أولاً. لا تهزأ مني أيها الشيطان. أنا أفهم. ولا أقدر أن أفكر في هذه الساعة.»

«يا معلّم! لقد قال لي يا شيطان. لقد أخطأ ضدّ رفيقه.»

«يهوذا، هل أنت مُدرك أنّك لا تستحقها؟ إذاً، لا تغضب بسبب خطئه. فأنا أيضاً أطلقوا عليّ "شيطان" وسيكرّرونها.»

«ولكنّك أنت قلتَ أنّ الذي يهين أخاه هو مذنب...»

«صمتاً. أمام الموت تتوقّف تماماً هذه الاتّهامات البغيضة، هذه المشاجرات، هذه الأكاذيب. لا تُقلِّقوا الذي يموت.»

«سامحني يا يسوع.» يتمتم يوحنا. «شعرتُ بشيء ما كان يثور بداخلي لدى سماعي ضحكته... ولم أستطع أن أتمالك نفسي.» يوحنا يبكي على صدر يسوع، وهو مُعانق تماماً، الصدر على الصدر.

«لا تبك. أفهمك. دعني أتكلّم.»

ولكنّ يوحنا لا ينفصل عن يسوع ولا حتّى عندما يجلس على جذر ضخم بارز. يُبقي ذراعاً خلف ظهره والأخرى حول صدره، يسند الرأس على كتفه وهو يبكي بصمت. فقط تلمع تحت ضياء القمر دموعه التي تسقط على ثوب يسوع الأرجواني، فتبدو وكأنّها ياقوت، قطرات دم شاحب سلّطت عليها الأنوار.

«اليوم قد سمعتم أحاديث اليهود والأمميين. فعليكم إذاً ألاّ تندهشوا حينما أقول لكم: "من فمي خرجت كلمة، عدل هي، على الدوام. ولن تبطل". وإذا

ما كنتُ أقول، ودائماً مع إشعياء، متحدّثاً عن الأمميّين الذين سيُقبلون إليّ بعد أن أكون قد رُفِعْتُ عن الأرض: "لي ستجتو كلّ ركبة، ولي وبى سيُقسم كلّ لسان". ولن تشكّوا بعد، بعدما لاحظتم أساليب اليهود، أنّه من السهل القول دون خشية من الخطأ أن سيأتي إليّ كلّ الذين يقاومونني دون خجل.

لم يجعلني الآب خادمه لإحياء أسباط يعقوب فقط، وهداية ما بقي من إسرائيل: الباقين، ولكنّه أرسلني نوراً للأمم لأكون "المخلّص" لكلّ الأرض. ولهذا، خلال أعوام الغربية الثلاثة والثلاثين هذه عن السماء وعن حضن الآب، استمرّيتُ في النموّ بالنعمة والحكمة أمام الله والناس، لبلوغ السنّ الكامل، وفي هذه السنوات الثلاث الأخيرة، بعد أن تأجّجت نفسي وروحي بنار الحبّ وانغمست في برودة التكفير، جَعَلْتُ: "من فمي ما يشبه السيف الحادّ".

وفي ظلّ يده حفظني الآب القدّوس، أبي وأبوكم، إلى الآن، ذلك أنّ ساعة الكفّارة لم تكن قد أتت بعد. الآن هو يدعني أمضي. السهم المختار، سهم كنانته [جُعبته] الإلهيّة، بعدما جَرَحَ كي يشفي، بعدما جَرَحَ الناس ليفتح ثغرة في قلوبهم لكلمة ونور الله، الآن يمضي سريعاً وبثقة ليجرح الأَقنوم الثاني، المُكفّر، المطيع عوضاً عن كلّ عصيان آدم... وكالمحارب الذي أُصيب أسقط، قائلاً لأناس كثيرين: "عبثاً تعبتُ بلا سبب، وسدى. بددتُ قوّتي من أجل لا شيء".

ولكن لا! لا، من أجل الربّ الأزليّ الذي لا يصنع شيئاً بلا هدف! أغرب أيّها الشيطان، يا مَنْ تريد أن تقودني إلى اليأس وتجعلني عاصياً! من ألف مهمّتي إلى يائها أتيّت وتأتي. حسناً، ها أنا أقف للمعركة (وينتصب

بالفعل). أتحدّاك. وأعاهد نفسي، سأنتصر. إنّ قولي هذا ليس من قبيل الكبرياء. إنّها الحقيقة. سيُهزم ابن الإنسان في جسده من قبل البشر، الدود البائس الذي يعضّ ويسمّم بحمّاته الفاسدة. ولكن ابن الله، الأقنوم الثاني للثالوث الفائق الوصف، لن يهزمه الشيطان. أنت الكراهية. وأنت قدير في كراهيتك وفي تجربتك. إنّما معي ستكون قوّة عصيّة عليك، لا يمكنك اللحاق بها ولا إيقافها. إنّ المحبّة معي!

أنا على علم بالعذاب المجهول الذي ينتظرني. ليس الذي سأكلّمكم عنه غداً، لكي تعلموا أنّ لا شيء ممّا كان يُعمل أو يُبشّر به من أجلي أو حولي، وأنّ لا شيء مما يتكوّن في قلوبكم، كان غير معلوم لديّ. ولكنّ العذاب الآخر... ذلك الذي لا يقع على ابن الإنسان بالرمّاح أو بالعصيّ، بالهزء وبالضربات، ولكن من الله نفسه، العذاب الذي لن يكون معلوماً إلاّ من قلة من الأشخاص لما فيه من روع حقّاً، وأقلّ بعد سوف يتقبّلونه كأنّه ممكن الحدوث. ولكن في هذا العذاب، حيث اثنان سيكونان المُعذّبان الأساسيان: الله بغيابه، وأنت أيّها الشيطان، بحضورك، فالضحية ستكون معها المحبّة. والمحبّة الحيّة في الضحية، القوّة الأولى في مقاومة التجربة، وأيضا المحبّة في المعزّي الروحيّ، الذي يحرك منذ الآن أجنحته الذهبية متلهّفاً للنزول كي يمسح عرقي، ويجمع كلّ دموع الملائكة في الكأس السماويّ، ويذيب فيه غسل أسماء مُخلّصي والذين يحبّونني، لكي يخفّف بهذا الشراب عطش المُعذّب الشديد ومرارته التي لا حدّ لها.

وستُهزم أيّها الشيطان. فذات يوم، عند خروجك من أحد الممسوسين، قلت لي: "سأنتظر لكي أهزمك عندما ستصبح خرقة جسد دام". أمّا أنا

فأجيبك: "لن تنال مني، أنا أنتصر. إنّ تعبي كان مقدّساً، ودعواي هي أمام أبي. هو يدافع عن صنيعة ابنه ولن يسمح أن تتراخي عزيمة روحي".

أبتاه، أقول لك، من الآن أقول لك من أجل هذه الساعة المريعة: "بين يديك أستودع روحي".

لا تتركني يا يوحنا... اذهبوا أنتم. ليكن سلام الربّ حيث لا يكون الشيطان نزيلاً. وداعاً.»
وينتهي كلّ شيء.

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

10- (الأربعاء السابق للفصح، ا- النهار)

1947 / 04 / 02

يدخل يسوع الهيكل الأكثر ازدحاماً من الأيام السابقة. يرتدي الأبيض بالكامل اليوم، بثوبه الكتّاني. إنه يوم خانق.

يذهب ليتعبّد في ردهة الاسرائيليين ثمّ يقصد الأروقة، يتبعه موكب من الناس، بينما احتلّ آخرون أفضل الأماكن تحت الأروقة، ومعظمهم من الأمميّين، حيث أنّهم لا يستطيعون المضيّ أبعد من الباحة الأولى، بعد رواق الوثنيّين، فقد انتهزوا فرصة أنّ اليهود قد تبعوا المسيح كي يأخذوا أماكن الخطوة.

ولكنّ مجموعة كبيرة من الفرّيسيّين يزعجونهم. فلهم دائماً طريقتهم المتعجرفة، ويفسحون لأنفسهم الطريق بالقوّة، ليقتربوا من يسوع المنحني فوق أحد المرضى. ينتظرون إلى أن يشفيه، ثمّ يرسلون إليه أحد الكتّبة كي يسأله.

في الحقيقة كان بينهم قبلاً جدل قصير، لأنّ يوثيل المدعوّ الآموت، كان يريد الذهاب ليسأل المعلم. ولكنّ واحداً من الفرّيسيّين يعترض، ويؤيّد آخرون قائلين: «لا. معلوم أنّك من جهة الرابّي، رغم أنّك تفعل ذلك سرّاً. دع أوريا يذهب...»

«أوريا، لا» يقول أحد الكتبة الشباب، والذي لا أعرفه على الإطلاق.
«إنّ أوريا خشن جدّاً في كلامه. وهو يثير الجمع. أذهب أنا.»

ودون أن يسمع المزيد من احتجاجات الآخرين، يمضي إلى قرب المعلّم بالضبط في اللحظة التي يصرف فيها يسوع المريض قائلاً له: «كن مؤمناً. لقد شفيت. لن تعود الحمّى والألم لك أبداً.»

«يا معلّم، ما هي أعظم وصيّة في الشريعة؟»

يسوع، الذي كان الرجل يقف خلفه، يستدير وينظر إليه. ابتسامة عذبة مشرقة تنير وجهه، ثم يرفع رأسه الذي كانت منحنيّاً لأنّ الكاتب قصير القامة، وفوق ذلك كان ينحني ليقدم له التبجيل، ويجيل يسوع بصره في الجمع، ويحدّق بمجموعة الفرّيسيّين والعلماء ويلحظ وجه يوثيل الشاحب شبه المختبئ خلف أحد الفرّيسيّين ضخّم القامة وفخم اللباس. إنّ ابتسامته تزداد. كأنّها نور يداعب الكاتب الفاضل. ثمّ يعود ليخفض رأسه لينظر إلى سائله ويجيبه: «إنّ الوصيّة الأولى بين جميع الوصايا هي: "اسمع يا إسرائيل، الربّ إلّنا هو الربّ الأوحد. فأحبب الربّ إلّك بكلّ قلبك وكلّ نفسك وكلّ قدرتك". هذه هي الوصيّة الأولى والعظمى. ومن ثمّ الثانية التي تشبهها: "أحبب قريبك كنفسك". وما من وصايا أعظم من هاتين. وعليهما يقوم الناموس كلّهُ والأنبياء.»

«يا معلّم، لقد أجبت بحكمة وبحقّ. وهو هكذا. الله واحد وليس آخر غيره. ومحبّته من كلّ القلب وكلّ العقل وكلّ النّفس وكلّ القدرة، ومحبة القريب كالنّفس هما أعظم بكثير من كلّ المحرقات والذّبائح. أنا مقتنع بذلك

تماماً حينما أتأمل كلمات داود: "إِنَّكَ لَا تُسَرُّ بِالْمَحْرِقَاتِ؛ إِنَّ الذَّبِيحَةَ لِلَّهِ هِيَ
الروح المنكسر".»

«لست بعيداً عن ملكوت الله، لأنَّكَ فهمتَ ما هي المحرقة المرضية
لله.»

«ولكن ما هي المحرقة الأكثر كمالاً؟» يسأل الكاتب، بسرعة وبصوت
خافت، كما لو كان يقول سرّاً.

يشع يسوع بالمحبة تاركاً تلك اللؤلؤة تسقط في قلب ذاك الذي انفتح على
مذهبه، على مذهب ملكوت الله، ويقول له وهو ينحني فوقه: «الذبيحة الكاملة
هي أن نحبّ الذين يضطهدوننا كنفسنا ولا يكون لدينا حقد. مَنْ يفعل ذلك
سيحظى بالسّلام. قد قيل: الودعاء سيرثون الأرض ويستمتعون بفيض
السّلام. الحقّ أقول لك إنّ الذي يعرف أن يحبّ أعداءه يصل إلى الكمال
ويمتلك الله.»

يحييه الكاتب باحترام ويرجع إلى جماعته، الذين يلومونه بصوت خافت
على تبجيله للمعلّم، ويقولون له بغضب: «ماذا طلبتَ منه في السرّ؟ هل
أغواك أنت أيضاً؟»

«لقد سمعتُ روح الله يتكلّم على شفّتيه.»

«أنتَ أبله. هل تؤمن ربّما بأنّه المسيح؟»

«أؤمن.»

«إِنَّا بِحَقِّ سَنَرِي عَمَّا قَرِيبِ الْمَدَارِسِ وَقَدْ فَرِغْتَ مِنْ كَتَبَتِنَا وَهُمْ يَمْضُونَ مَخْدُوعِينَ خَلْفَ هَذَا الرَّجُلِ. وَلَكِنْ كَيْفَ تَرَى فِيهِ الْمَسِيحَ؟»

«كَيْفَ، لَا أَعْرِفُ. مَا أَعْرِفُهُ هُوَ أَنَّنِي أَشْعُرُ أَنَّهُ هُوَ.»

«مَجْنُونُ!» وَيَدِيرُونَ لَهُ ظُهُورَهُمْ غَاضِبِينَ.

لَا حَظَّ يَسُوعَ الْحَوَارِ، وَعِنْدَمَا يَمُرُّ الْفَرِيسِيُّونَ أَمَامَهُ فِي مَجْمُوعَةٍ مُتَرَاصَّةٍ لِيَمْضُوا غَاضِبِينَ، يَدْعُوهُمْ قَائِلًا: «اسْمَعُونِي. أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكُمْ أَمْرًا. بِحَسَبِ رَأْيِكُمْ، كَيْفَ يَبْدُو لَكُمْ الْمَسِيحُ؟ ابْنُ مَنْ هُوَ؟»

«سَيَكُونُ ابْنُ دَاوُدَ.» يَجِيبُونَ وَهُمْ يَشْدُدُونَ عَلَى "سَيَكُونُ"، إِذْ يَرِيدُونَ إِفْهَامَهُ أَنَّهُ لَيْسَ الْمَسِيحُ بِالنَّسَبَةِ إِلَيْهِمْ.

«إِذَا كَيْفَ أَنْ دَاوُدَ، مُلْهَمًا مِنَ اللَّهِ، يَدْعُوهُ: "رَبًّا"، قَائِلًا: قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَجْعَلَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِنًا لِقَدَمَيْكَ؟» فَإِذَا كَانَ دَاوُدَ يَدْعُو الْمَسِيحَ "رَبًّا"، فَكَيْفَ يَكُونُ الْمَسِيحُ ابْنَهُ؟»

إِذْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدُ الْإِجَابَةِ، يَبْتَغِدُونَ وَهُمْ يَجْتَرُّونَ سَمَمَهُ.

يَغْيِّرُ يَسُوعَ الْمَكَانَ الَّذِي كَانَ فِيهِ، وَقَدْ غَمَرَتْهُ الشَّمْسُ، لِيَمْضِيَ إِلَى أَعْدَ، إِلَى حَيْثُ هِيَ فَتَحَاتِ الْخَزَانَةِ، قَرَبَ قَاعَةِ الْخَزِينَةِ. هَذَا الْجَانِبُ، الَّذِي مَا يَزَالُ فِي الظِّلِّ، يَشْغَلُهُ الرَّاكِبُونَ الَّذِينَ يَخْطُبُونَ بِإِسْهَابٍ مَعَ حَرَكَاتٍ وَاسِعَةٍ لِمُسْتَمْعِيهِمُ الْيَهُودَ الَّذِينَ تَتَزَايَدُ أَعْدَادُهُمْ بِاطِّرَادٍ، كَمَا لَا يَتَوَقَّفُ سَيْلُ النَّاسِ الْمَتَدَفِّقِينَ نَحْوَ الْهَيْكَلِ عَنِ التَّزَايِدِ بِمُرُورِ السَّاعَاتِ.

يجهد الرابّيون بالخطب لتقويض تعاليم المسيح الّتي أعطّاها خلال الأيّام السابقة أو في الصباح نفسه. وكلّما رفعوا أصواتهم، رأوا تزايد جمع المؤمنين. بالفعل، رغم الاتساع الهائل للمكان، فهو يعجّ بالناس الذاهبين والآتين في كلّ اتجاه...

يقول لي يسوع: «أدرجي هنا رؤيا عطية الأرملة 19 / 06 / 1944 المصحّحة كما سأشير إليك.» بعدها، تُستأنف الرؤيا.

(رؤيا عطية الأرملة.)

فقط اليوم، وبإلحاح، أرى ظهور الرؤيا التالية:

في البداية، لا أرى سوى باحات وأروقة، الّتي أتعرف عليها بأنّها تخصّ الهيكل، ويسوع، الّذي يبدو كامبراطور بقدر ما هو مهيب في ثوبه الأحمر الزاهي وردائه الأحمر كذلك إنّما الأغمق، يتّكئ على عمود ضخّم مربع يحمل أحد أقواس الرواق.

إنّه يحدّق بي. فأهيم متمتعة بالنظر إليه لأنّني منذ يومين لم أكن أراه ولا أسمع. وتطول الرؤيا هكذا، وطالما هي مستمرة هكذا أنا لا أكتب، إذ هي مسرّتي. ولكن الآن، إذ أرى المشهد ينتعش، أدرك أنّ هناك شيئاً آخر وأكتب:

يكتظّ المكان بالناس الّذين يروحون ويجيئون في كلّ اتجاه. هناك كهنة ومؤمنون، رجال، نساء وأطفال. البعض يمرّون، وآخرون يتوقّفون

ويستمعون إلى العلماء، وآخرون يتوجّهون إلى أمكنة أخرى يقودون الحملان أو يحملون الحمام، ربما لتقديمها كذبائح.

يبقى يسوع متكئاً على عموده وينظر ولا يتكلّم. حتّى إنّ الرُّسل سألوهُ لمرّتين، وأشار بلا، ولكنّه لم يتكلّم. يراقب بكثير من الاهتمام، وتعبيره يوحي بأنّه يحكم على الذين ينظر إليهم. نظرته ووجهه كلّهُ يذكّرني بهيئته الّتي رأيته بها في رؤيا الجنّة¹، عندما كان يدين النفوس في الدينونة الخاصّة. الآن بالطبع، هو يسوع، الإنسان؛ أمّا هناك في العلى، فقد كان يسوع الممجّد، وبالتالي الأكثر مهابة. ولكنّ تغيّرات تعبير الوجه، الّذي يراقب بدقّة، هي نفسها. إنّهُ جادّ، متفحّص، ولكنّه إنّ بدا أحياناً بصرامة تجعل الأكثر وقاحة يرتعش، فهو في أحيان أخرى بغاية اللطف أيضاً، ذو حزن مبتسم، بحيث تبدو نظرته ملاطفة.

يبدو وكأنّه لا يسمع شيئاً، ولكنّه يسمع كلّ شيء. فبالفعل حينما من مجموعة مجتمعة على بعد عدّة أمتار منه حول أحد العلماء، يرتفع صوت أنفي يعلن: «الأكثر اعتباراً من أيّة وصيّة أخرى هي هذه: كلّ ما هو للهيكَل فليذهب للهيكَل. الهيكَل أسمى من الأب والأمّ، وإن أراد أحد أن يعطي كلّ ما يملك لمجد الربّ، فيمكنه ذلك وسيكون مباركاً على ذلك، لأنّ لا قرابة ولا مشاعر تسمو على الهيكَل.» يدير يسوع بتمهّل رأسه في هذا الاتّجاه وينظر نظرة... لا أودّ أن ينظر إليّ بها.

يبدو وكأنّه ينظر بشكل عام. ولكن عندما يهّمّ عجوز ضئيل مرتعش بصعود الدرجات الخمس لشرفة قريبة من يسوع، والّتي يبدو أنّها تؤدّي إلى باحة أخرى داخلية، ويؤشّر بعصاه ويوشك على السقوط متعثّراً بثوبه، فيمدّ

يسوع ذراعه الطويل، يمسك به ويسنده، ولا يدعه إلاّ عندما يراه في أمان. يرفع العجوز صغير القدّ وجهه المجعّد، ينظر إلى مخلصه طويل القامة ويتمتم كلمة بركة، ويسوع يبتسم له ويلطف رأسه شبه الأصلع. ثمّ يعود إلى عموده، ويبتعد عنه مرّة أخرى كي يرفع طفلاً انزلق من يد أمّه ويقع منبطحاً، تماماً عند قدميه، باكياً، على أوّل درجة. يرفعه، يلاطفه، ويواسيه. الأمّ، المضطربة، تشكر. يسوع يبتسم لها كذلك ويعيد إليها الصغير.

ولكنّه لا يبتسم حينما يمرّ فرّيسيّ منتفخ كبرياءً، ولا حينما تمرّ مجموعة من الكتّبة وآخرون لا أعرف من يكونون. تحيي هذه المجموعة بإيماءات عظيمة، وانحناءات. يحدّق فيهم يسوع حتّى يبدو وكأنّه يخترقهم، ويحيي إنّما بلا حرارة. إنّهُ صارم. وكذلك يمرّ كاهن يُفترّض أنّه عظيم المكانة لأنّ الجمع يتنحّى ويحيّيه، وهو يمرّ متفاخراً كالطاووس. ينظر يسوع إليه نظرة طويلة. نظرة جعلته، رغم امتلائه بالكبرياء، ينكس رأسه. لا يحيي، ولكنّه لا يصمد أمام نظرة يسوع.

يكفّ يسوع عن النظر إليه ليراقب امرأة صغيرة القدّ فقيرة تلبس الكستنائيّ الداكن، تصعد بخجل الدرجات وتتّجه إلى حائط به ما يشبه رؤوس سباع أو حيوانات من الفصيلة ذاتها بفم مفتوح. الكثيرون يذهبون إلى هناك. لكنّ يسوع كان يبدو وكأنّه لا يكثرث بهم. الآن، على العكس، يتتبّع مشية المرأة صغيرة القدّ. ينظر إليها بعين الشفقة ولطف عظيم عندما يراها تمدّ يدها وتلقي في فم أحد السباع الحجرية شيئاً ما. وعندما تمرّ الفقيرة أمامه، أثناء انسحابها، يبادرها بالقول: «السلام لك يا امرأة.»

وهذه، مندهشة، ترفع رأسها بذهول.

«السلام لك.» يكرّر يسوع «امضي فإنّ العليّ قد باركك.»

تلبث هذه المرأة المسكينة فاعرة فاهها، ثمّ تتمتم بالتحيّة وتمضي.

«إنّها سعيدة في بؤسها.» يقول يسوع خارجاً عن صمته. «الآن هي سعيدة لأنّ بركة الله تصحبها. اسمعوا يا أصدقائي، وأنتم الذين حولي. هل ترون هذه المرأة؟ إنّها لم تعط سوى فلسين، أقلّ مما يجب أن يُدفع لوجبة عصفور في قفص، ومع ذلك فقد أعطت أكثر من جميع الذين ألقوا عطيتهم في خزانة الهيكل، منذ فتح الهيكل في الفجر.

اسمعوا. لقد رأيتُ عدداً كبيراً من الأثرياء يضعون في تلك الأفواه مبالغ تكفي لإعاشة تلك لعام كامل وإكساء فقرها الذي لا يجعله لائقاً سوى كونها نظيفة. لقد رأيتُ أثرياء يضعون هناك في الداخل بارتياح واضح قدراً يمكنه إشباع فقراء المدينة المقدّسة ليوم أو أكثر، ويجعلهم يباركون الربّ. ولكن، الحقّ أقول لكم أنّ لا أحد قد أعطى أكثر منها. إنّ عطيتها محبة هي، الأخرى ليست كذلك. كرم هي، والأخرى ليست كذلك. تضحية هي، والأخرى ليست كذلك. إنّ هذه المرأة لن تأكل اليوم إذ لم يعد لديها شيء. عليها أن تعمل أولاً لتتال أجراً يسدّ رمقها. ليس لديها مدّخرات، ليس لها أهل يكسبون من أجلها. إنّها وحيدة. لقد أخذ الله منها الأهل، الزوج والأطفال، وأيضاً الخيرات القليلة التي تركوها لها، والتي انتزعها منها البشر أكثر من الله، هؤلاء الرجال ذوي الحركات المفخّمة الآن، هل ترونهم؟ يستمرّون بإلقائهم هناك في الداخل، الفائض عنهم الذي اغتصبوا قسماً كبيراً منه بالربا من الأيدي البائسة للضعفاء والجياع. هم يقولون أنّ ليس هناك قرابة ولا مشاعر تسمو على الهيكل، وبهذه الطريقة يُعلّمون عدم محبة القريب. وأنا أقول لكم إنّ المحبة

هي فوق الهيكل. شريعة الله هي المحبة، ولا يحبّ مَنْ لا يشفق على قريبه. إنّ المال الفائض، المال الملوّث بالربا، بالحقّد، بالقسوة، بالرياء، لا يُنشدّ تسبيحاً لله ولا يجلب لمُعْطيه البركة السماويّة. الله ينبذه. إنّهُ يُسمّن هذا الصندوق، ولكنّه ليس ذهباً للبخور: هو وحل يطمركم، أيّا أصحاب المناصب، الذين لا تخدمون الله بل مصلحتكم؛ إنّما هو حبل يخنقكم، أيّا أيّها العلماء، يا مَنْ تُعلّمون مذهباً من ابتداعكم؛ إنّما هو سمّ يجعل ما بقي لكم من النّفس يتآكل، أيّا أيّها الفريسيّون. الله لا يريد ما يتبقّى. لا تكونوا كقايين. الله لا يريد ما هو ثمرة القسوة. الله لا يريد مَنْ يرفع صوتاً نائحاً يقول: "كان عليّ أن أشبع جائعاً، ولكنّهم مانعوني ليراكموا بذخهم في الداخل. كان عليّ أن أساعد أباً عجوزاً، وأمّاً ضعيفة، ومُنعتُ لأنّ هذه المساعدة لا يعلم بها العالم، بل عليّ أن أدقّ جرسي كي يرى العالم المعطي". لا، أيّها الرّابي الذي تُعلّم أنّ ما يتبقّى ينبغي أن يُعطى لله وأنّه مسموح منعه عن الأب والأمّ كي يُعطى لله. إنّ الوصيّة الأولى هي: "أحبب الله من كلّ قلبك، كلّ نَفْسك، كلّ فكريّ، ومن كلّ قوّتك". إذاً ليس الفائض، بل دمنا هو ما يجب أن يُعطى له، مع حبّ الألم من أجله. التألّم، لا التسبّب بالألم. وإن كان العطاء يكلف الكثير، لأنّ التجرّد عن الثروات غير مستحبّ، والكنز هو قلب الإنسان، الفاسد بطبعه، فتحدّداً بسبب هذه الكلفة يجب أن نعطي. توخّياً للعدل: لأنّ كلّ ما لنا، حصلنا عليه بفعل طيبة الله. بفعل المحبة: لأنّه دليل على المحبة أن نحبّ التضحية لمنح الفرح لمن نحبّهم. أكرّر، أن نتألّم من أجل العطاء. إنّما أن نتألّم. وليس أن نتسبّب بالألم. ذلك أنّ الوصيّة الثانية تقول: "أحبب قريبك كنفسك". والشريعة تحدّد أنّ، بعد الله، الأهل هم القريب الذي يلتزم المرء بمنحهم التبجيل والعون. إذاً الحقّ أقول لكم إنّ هذه المرأة الفقيرة قد فهمت

الشرية بأفضل من الحكماء، وإنها مُبرّرة ومباركة أكثر من أيّ آخر، لأنّها في فقرها أعطت كلّ شيء لله، بينما أنتم تعطون ما هو فائض، وتعطوه كي تتعاضموا في تقدير الناس لكم. أعلم أنّكم تكرهونني لأنني أتكلّم هكذا. ولكن طالما بوسع هذا الفم الكلام، فسيتكلّم بهذه الطريقة. وتضيفون إلى كراهيتكم لي، الازدراء بالمسكينة التي أمدحها. ولكن لا تعتقدوا أنّكم ستجعلون من هاتين الصخرتين قاعدة مضاعفة لكبريائكم. فإنّهما سيكونان حجريّ الرحيّ اللذين سيسحقانكم.

هيا بنا. لنُدع الأفاعي تلدغ بعضها البعض ليتفاهم سمّها. ومن هو طاهر، طيّب، متواضع، نادم، ويريد معرفة وجه الله الحقيقيّ فليتبعني.»

يقول يسوع: «وأنت يا مَنْ لم يعد معك شيء، لأنّك أعطيتني كلّ شيء، أعطني هذين الفلسين الأخيرين. أمام الكثير الذي أعطيتني لي، سيبدوان، للغرباء، لا شيء. ولكن بالنسبة لك أنت يا مَنْ لم تعود تملكين سواهما، فهما كلّ شيء. ضعيهما في يد ربّك. ولا تبكي. أو على الأقلّ: لا تبكي وحيدة. ابكي معي، حيث أنّي الوحيد الذي أستطيع أن أفهمك، والذي أفهمك بدون ضباب البشريّة التي هي حجاب نفعيّ للحقيقة.»

تكملة رؤيا: 02 / 04 / 1947

...يتبعه الرُّسل، التلاميذ والجمع في مجموعات متلاحمة فيما يعود إلى موضع السور الأوّل، الذي يكاد يكون في ظلّ حائط سور الهيكل، هناك حيث القليل من الرطوبة، ذلك أنّ اليوم خانق جدّاً. بما أنّ الأرض قد خرّبتها حوافر الحيوانات، وقد تناثرت الحجارة التي وضعها البائعون والصرّافون

ليثبتوا زرائبهم وخيامهم، فهناك لا يأتي رابيو إسرائيل. فهم كانوا يسمحون بإقامة السوق في الهيكل، إلا أنهم يشعرون بالاشمئزاز في حمل نعال صنادلهم إلى حيث تمّ محو بشكل سيّئ آثار فضلات ذوات الأربع التي أزيلت من هناك منذ أيام قليلة.

يسوع لا يشمئزّ منها ويلجأ إلى هناك، وسط دائرة كبيرة من المستمعين. إنّما، قبل أن يتكلّم، ينادي الرُّسل إلى جانبه ويقول لهم: «تعالوا واسمعوا جيّداً. بالأمس كنتم تريدون معرفة أشياء عديدة سأقولها الآن لكم، والتي كنتُ قد أشرتُ إليها أمس بتلميحات غامضة عندما كنّا نستريح في بستان يوسف. إذاً انتبهوا جيّداً، لأنّها دروس عظيمة للجميع وبالأخصّ لكم أنتم، مُرسليّ واستمرااريّتي.

اسمعوا. جلس الكتّبة والفريسيّون على كرسيّ موسى في الأوان المناسب. في ساعات كانت حزينة للوطن. ما أن انتهى المنفى في بابل، وأعيد بناء الدولة بفضل شهامة قورش، أدرك قادة الشعب ضرورة إعادة بناء الديانة أيضاً ومعرفة الشريعة. لأنّه ويل لذاك الشعب الذي لا يكونان له بمثابة المدافع عنه، المرشد والداعم، في مواجهة أعتى أعداء أمّة، التي هي فساد أخلاق المواطنين، التمرد ضدّ الرؤساء، الانشقاق بين مختلف الطبقات والفرق، الخطايا ضدّ الله والقريب، الإلحاد، وهي كلّها عوامل تفكّك لأنفسهم وتتسبّب بجلب العقوبات السماويّة!

فهبّ إذن الكتّبة، أو علماء الشريعة، للتمكّن من أن يُعلّموا الشعب الذي، إذ يتكلّم الكلدانيّة، إرث المنفى القاسي، لم يكن ليفهم الكتب المكتوبة بالعبريّة الخالصة. هبّوا لمساعدة الكهنة، غير الكافي عددهم للنهوض بواجب تعليم

الجموع. علمانيّة علميّة ومكرّسة لتبجيل الربّ، بحمل معرفته للناس واقتياد الناس إليه. وكان لهذه العلمانيّة مبرّرات لوجودها وصنعت خيراً أيضاً. ذلك أنّ، تذكّروا هذا كلّكم، حتّى الأمور، الّتي بسبب ضعف بشريّ قد انحدرت فيما بعد، كما حصل في هذه الحالة الّتي فسدت بمرور العصور، لها دائماً شيء ما من الصّلاح، ولها، في البداية، على الأقلّ، مبرّر لوجودها، ولأجل ذلك يسمح العليّ لها بأن تنشأ وتدوم، إلى لحظة بلوغ الانحطاط فيها إلى أقصاه، فيبيدّها العليّ.

وبعدها أتت شيعة الفريسيّين الأخرى، المَحَوّلة من تلك الّتي للأسديّين، الّتي نشأت لتدعم بالأخلاق الأكثر صلابة والطاعة الأكثر تشدّداً شريعة موسى وروح الاستقلال لشعبنا، عندما تكوّنت الفرقة الهيّلينية تحت الضغط والفتن الّتي بدأت في عصر أنطيوخس أبيفانيوس والّتي سرعان ما تحوّلت إلى اضطهادات لمن لا يخضعون لضغوط المَلِك الماكر، الّذي كان يعتمد على تفكيك الإيمان في القلوب أكثر من اعتماده على أسلحته كي يملك على وطننا وكان يحاول جعلنا عبيداً.

بالمِثْل تذكّروا هذا: خافوا بالأحرى من التحالفات السهلة وممالقات الغريب أكثر منه من جنوده. لأنّه طالما أنتم أوفياء لشرائع الله والوطن، فستنتصرون حتّى وإن كنتم محاطين بجيوش قويّة، ولكن حينما تفسدون بسّم مخفيّ، مُقَدَّم كعسل مُسكر من الغريب الّذي رسم المخطّطات ضدّكم، فسيهجركم الله بسبب خطاياكم، وستُهزَمون وتصيرون خاضعين، حتّى من دون أن يخوض حليفكم الزائف معركة دمويّة ضدّكم. الويل لمن لا يكون متنبّهاً كالحارس اليقظ ولا يرفض الفخّ الماكر لجار محتال وكاذب، أو

حليف، أو متحكّم يبدأ سيطرته على الأفراد، بإضعاف قلوبهم وإفسادهم بممارسات وعادات ليست عاداتنا، وليست مقدّسة، وبالتالي تجعلنا غير مرضيين للرب! الويل! تذكّروا كلّ النتائج التي حلّت بالوطن لأنّ بعض أبنائه تبنّوا ممارسات وعادات الغريب لكي يستفيدوا من إحساناته ويستمتعوا. حسنة هي المحبة تجاه الجميع، حتّى تجاه الشعوب التي لا تشاركنا الإيمان، وليست لها أعرافنا، وسببت الضيق لنا على مرّ العصور. ولكنّ محبة هذه الشعوب، الذين هم دائماً بمثابة القريب لنا، يجب ألاّ تجعلنا أبداً نجحد شريعة الله والوطن بسبب حسابات بعض المنافع التي نبتزّها من القريب. لا. فالغرباء يحتقرون أولئك الذين يتذلّلون لدرجة التخلّي عن أقدم مقدّسات الوطن. فليس بجحود تجاه الأب والأمّ: الله والوطن، يتمّ الحصول على الاحترام والحرية.

كان خيراً إذاً، في تلك اللحظة المناسبة، أن يقف الفريسيّون كذلك سداً في وجه الفيضان الموحل للممارسات والعادات الغريبة. أكرّر: كلّ شيء ينشأ ويدوم له مبرّر وجوده. ويجب احترامه لأثره الماضي. إن لم يكن لأثره الحاضر. الذي، إن كان قد أصبح مستنكراً، فليس من اختصاص الناس أن يحقّروه أو حتّى الطعن به. هناك من يُحسن فعل ذلك: الله والذي أرسله، والذي له الحقّ والواجب أن يفتح فاه ويفتح أعينكم، كي تعرفوا أنتم ويعرفوا هم فكر العليّ وتتصرّفوا باستقامة. أنا ولا أحد آخر. أنا، لأنني أتكلّم بأمر إلهي. أنا، لأنني أستطيع الكلام وليس بي آية واحدة من الخطايا التي تثير حفيظتكم حين ترون الفريسيين والكتبة يفعلونها، إنّما التي، لو كنتم تستطيعون، لفعلتموها أنتم كذلك.»

يسوع الذي بدأ خطبته بهدوء، قد رفع تدريجياً صوته، وفي هذه الكلمات الأخيرة يصبح صوته قوياً كأنه صдах بوق.

اليهود والأمميون مستغرقون ومتنبّهون لسماعه. وإن يصفق الأولون حينما يذكر يسوع الوطن ويذكر صراحة، بالأسماء، أولئك الغرباء الذين أخضعوهم وسبّوا معاناتهم، فالآخرون أيضاً يظهرون إعجابهم بالصيغة الخطابية للحديث ويسعدون بحضور هذه الخطبة لهذا الخطيب العظيم، كما يقولون فيما بينهم.

يخفض يسوع من جديد صوته عندما يستأنف الكلام: «هذا قلته لكم كي تتذكروا سبب كونهم كتّبة وفرّيسيّين، وكيف ولماذا قد جلسوا على كرسيّ موسى، وكيف ولماذا يتكلّمون وكلامهم ليس عبثاً. فافعلوا إذاً كما يقولون، إنّما لا تقتدوا بأعمالهم. فهم يقولون بأن تتصرفوا بطريقة معيّنة، ولكنهم من ثمّ لا يفعلون ما يقولون بوجوب فعله. إنّهم في الواقع يعلمون الشرائع البشريّة للأسفار الموسويّة الخمسة، إنّما بعد ذلك يُحمّلون الآخرين الأحمال الضخمة المستحيلة الحمل، غير البشريّة، بينما هم لا يرفعون حتّى الإصبع الصغير، ليس لحمل هذه الأثقال، بل حتّى للمسها.

إنّ قاعدة حياتهم هي أن يراهم الناس ويلاحظوهم ويصفقوا لأعمالهم، التي يعملونها بحيث يراها الناس، كي يمجّدوهم عليها. ويخرقون وصيّة المحبة، لأنّهم يحبّون أن يسبغوا على أنفسهم صفة التميّز، ويحتقرون من ليسوا من طائفتهم، ويطالبون تلاميذهم بدعوتهم معلّمين وبتعبّد لا يعطونه هم أنفسهم لله. يظنّون أنفسهم آلهة بسبب الحكمة والسلطة، ويريدون أن تفوق مكانتهم في قلوب تلاميذهم مكانة الأب والأمّ، ويزعمون أنّ مذهبهم يفوق

مذهب الله ويطالبون أن يُمارَس حرفياً، حتّى وإن شَوّه الشريعة الحقيقيّة، وهو أدنى من تلك الأخيرة كما هو هذا الجبل مقارنة بعلو جبل حرمون العظيم الذي يشرف على فلسطين كلّها. بعضهم هراطقة، حيث يؤمنون بالتناسخ والقضاء والقدر كما الوثنيّين، فيما آخرون، بشكل محسوس إن لم يكن بالجوهر، ينكرون ما يعترف به الأوّلون، والذي أعطاه الله بذاته كإيمان، عندما عرّف عن نفسه بأنّه هو الله الأحد الذي تؤول إليه العبادة، وقائلاً أنّ الأب والأمّ يأتيان بعد الله مباشرة، وهكذا يكون لهما الحقّ في الطاعة أكثر من معلّم ليس إلهياً. فإن قلتُ لكم الآن: "مَن يحبّ أباه وأمّه أكثر منّي لا يستحقّ ملكوت الله"، فليس كي ألّفنكم اللامبالاة تجاه الوالدين، الواجب عليكم احترامهما ومساعدتهما، وغير مسموح أن تنزعوا منهما المساعدة قائلين: "هذا مال الهيكل"، أو الضيافة قائلين: "عبيّ يمنعني"، أو الحياة قائلين: "أقتلك لأنك تحبّ المعلّم"، بل كي يكون لكم من المحبّة لوالديكم ما هو واجب، أي محبّة صبورة وقويّة في وداعتها، محبّة -دون التوصل إلى كراهية للوالد الذي يُخطئ ويحزن، بعدم جعلكم اتّباع طريق الحياة: طريقي- تحسّن الاختيار بين شريعتي والأنانيّة العائليّة والاستبداد العائليّ. أحبّوا والديكم، أطيعوهما في كلّ ما هو مقدّس. ولكن كونوا على استعداد للموت، لا التسبّب في الموت، ولكن للموت، أقول، إن أرادوا أن يقودوكم إلى خيانة الدعوة التي وضعها الله فيكم بأن تكونوا سگان ملكوت الله الذي جنّت أقيم.

لا تقتدوا بالكتبة والفريسيّين، المنقسمين فيما بينهم رغم تظاهرهم بالاتّحاد. أنتم، تلاميذ المسيح، فلتكونوا حقّاً متّحدين، الواحد لأجل الآخرين، الرؤساء مفعمين لطفاً تجاه الرعايا، الرعايا مفعمين لطفاً تجاه الرؤساء، متّحدين في المحبّة وفي غاية اتّحادكم: نيل ملكوتي وأن تكونوا عن يميني

عند الدينونة الأخيرة. تذكّروا أنّ ملكوتاً منقسماً ليس بملكوت ولا يمكن أن يدوم. إذاً كونوا متّحدين فيما بينكم في محبّتي، ولأجل عقيدتي. لتكن المحبّة والاتّحاد، المساواة في اللباس فيما بينكم، اقتسام الخيرات، أخوّة القلوب، هي زيّ المسيحي، لأنّ هذا سوف يكون اسم رعاياي. الكلّ للواحد، والواحد للكلّ.

مَنْ يملك، فليعط بتواضع. ومَنْ ليس له، فليقبل بتواضع ويعرض بتواضع احتياجاته لإخوته، عالماً أنّهم كذلك، وليسمع الإخوة بودّ احتياجات الإخوة، شاعرين أنّهم كذلك بالنسبة إليهم. تذكّروا أنّ معلّمكم كثيراً ما تعرّض للجوع والبرد، وألف احتياج آخر وحرمان، وعرضها بتواضع على الناس، وهو، كلمة الله. تذكّروا أنّ الذي يشفق سوف يكافأ عندما لا يعطي سوى جرعة ماء. تذكّروا أنّ العطاء أفضل من الأخذ. إنّ الفقير في هذه الذكريات الثلاث يجد قوّة ليطلب دون الشعور بالتذلّل، مفكّراً أنّي قمتُ به قبله، وأن يغفر إن رُفِض، مفكّراً أنّ مرّات كثيرة قد رُفِض أن يعطى لابن الإنسان مكان وطعام يُعطى لكُلاب حراسة القطيع. وليكن الثريّ كريماً في العطاء من ثروته، وهو يفكّر أنّ المال الدنيء، المال البغيض الذي يحرّض الشيطان على طلبه، وهو المُسبّب لتسعين في المئة من خراب العالم، إذا ما أُعطي بمحبّة فهو يتحوّل إلى جوهرة فردوسيّة خالدة.

كونوا متسرّبلين بفضائلكم. ولتكن عظيمة إنّما لا يعلمها سوى الله وحده. لا تكونوا كالفرّيسيّين الذين يلبسون التمام الأعرّض والأهداب الأطول ويحبّون المقاعد الأولى في المجمع وآيات الإجلال في الساحات، ويريدون أن يدعوهم الناس: "رابّي". ليس لكم سوى معلّم واحد: المسيح. أنتم، يا مَنْ

ستكونون في المستقبل العلماء الجدد، أتكلّم إليكم، يا رسلي وتلاميذي، تذكّروا أنّي أنا وحدي معلّمكم. وسأكونه كذلك أيضاً عندما لا أعود في وسطكم. لأنّ الحكمة وحدها هي المعلّمة. إذاً فلا تجعلوا أنفسكم تُدعّون معلّمين، لأنّكم أنتم أنفسكم تلاميذ.

لا تطالبوا بأن تُدعوا آباء ولا تدعوا أباً أحداً على الأرض، لأنّ واحداً فقط هو أب الجميع: أبوكم الذي في السماوات. فلتمنحكم هذه الحقيقة حكمة الشعور حقاً بأنكم جميعكم إخوة فيما بينكم، سواء الذين يقودون أو الذين يُقادون، وبالتالي تحابّوا كإخوة صالحين. ولا يجعل أحد من المُوجّهين نفسه يدعى مُرشداً لأنّ المُرشِد الوحيد لجميعكم: المسيح. وليكن الكبير فيكم لكم خادماً. ليس تذلاًّ أن يكون المرء خادماً خدام الله، بل هو اقتداء بي، أنا المتواضع والوديع، المستعدّ دائماً لمحبة إخوتي في آدم ومساعدتهم بالسلطان الذي فيّ كوني الله. إنني لم أذلّ الألوهة بخدمتي البشر. فالملك الحقّ ليس هو من يسود الناس، بل انفعالات الإنسان: وعلى رأسها جميعاً الكبرياء الأخرق. تذكّروا: من يتواضع سيرتفع ومن يرفع نفسه سيّضع.

المرأة، التي تكلم عنها الربّ في سفر التكوين الثاني²، العذراء المعنيّة في إشعياء³، الأمّ-العذراء لعمّانوئيل، قد تنبّأت بهذه الحقيقة للعهد الجديد حينما أنشدت: "الربّ حطّ المقتدرين عن العروش ورفع المتواضعين". إنّ حكمة الله كانت تتكلّم على شفّتيّ من هي أمّ النعمة وعرش الحكمة. وأكرّر الأقوال الملهمّة التي مجّدتني، متّحداً بالآب والروح القدس، في أعمالنا الرائعة عندما، دون إساءة للبتول، أنا، الإنسان، تكوّنت في أحشائها دون أن أتوقّف عن كوني الله. فلتكن هذه قاعدة للذين يشاؤون ولادة المسيح في قلوبهم

وبلوغ ملكوت المسيح. لن يكون يسوع: المخلص، ولا المسيح: الرب، ولن يكون ملكوت السماوات للمتكبرين، ولا للزناة، ولا للوثنيين، الذين يعبدون ذواتهم، وإرادتهم الخاصة.

الويل لكم إذاً، أيها الكتبة والفريسيون المراءون، الذين تظنون بأنكم تستطيعوا أن تسدّوا بأحكامكم المتعذرة التنفيذ -التي لو كانت حقاً مؤيدة من الله، لصارت أقفالاً منيعة أمام معظم البشر- الذين تظنون بأنكم تستطيعون إغلاق ملكوت السماوات في وجه الناس الذين يرفعون أرواحهم إليه ليجدوا القوة في أيامهم الأرضية الصعبة! الويل لكم يا من لا تدخلون، يا من لا تريدون الدخول لأنكم لا تقبلون شريعة الملكوت السماوي، ولا تدعون الآخرين الذين هم أمام ذاك الباب الذي، بتصلّبكم، سلّحتموه بأقفال لم يضعها الله، يدخلون.

الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون، الذين تلتهمون بيوت الأراامل بحجة إقامة صلوات طويلة. ومن أجل ذلك ستنالكم دينونة صارمة!

الويل لكم، أيها الكتبة والفريسيون المراءون، الذين تطوفون البر والبحر، باذلين خيرات ليست لكم، كي تجعلوا من أحدهم متهوداً، وحينما يحصل ذلك، تجعلونه ابن جهنم، ضعف ما أنتم عليه من السوء!

الويل لكم أيها القادة العميان القائلون: "إذا أقسم أحد بالهيكل فقسمه ليس بشيء، ولكن إذا أقسم بذهب الهيكل، حينئذ يكون مُلْزماً بقسمه." أيها الجهال والعميان! ما الأعظم: الذهب أم الهيكل الذي يقّس الذهب؟ والذين تقولون: "إذا أقسم أحد بالمذبح فقسمه ليس بشيء، أمّا إذا أقسم بالتقدمة التي فوق المذبح حينئذ يكون قسمه قائماً ويظلّ مُلْزماً بقسمه." أيها العميان! ما هو

الأعظم؟ التقدمة أم المذبح الذي يقدّس التقدمة؟ فَمَنْ يُقَسِّمُ بالمذبح فهو يُقَسِّمُ به وبكلِّ ما عليه، وَمَنْ يُقَسِّمُ بالهيكل فهو يُقَسِّمُ به وبالسّاكن فيه، وَمَنْ يُقَسِّمُ بالسّماء فهو يُقَسِّمُ بعرش الله وبالجالس عليه.

الويل لكم أيّها الكَتَبَةُ والفَرِيسِيُّونَ المِراؤُونَ، الَّذِينَ تدفعون عشور النعنع والفيجن (نبات بري طَبِّي) والشبث والكمّون، وَمِنْ ثَمَّ تهملون الأحكام الأهمّ ممّا في الناموس: العدل والرحمة والأمانة. هذه هي الفضائل الّتي كان يجب التحلّي بها، دون إهمال تلك الأقلّ أهميّة! أيّها القادة العميان، الَّذِينَ تُصَفّون الشراب خوفاً من عدوى مرض ببلع بعوضة غارقة فيه، ثَمَّ تبتلعون جَمَلاً دون الاعتقاد بتنجّسكم بذلك. الويل لكم أيّها الكَتَبَةُ والفَرِيسِيُّونَ المِراؤُونَ، الَّذِينَ تنقّون خارج الكأس والصحفة، إنّما داخلكم مملوء نهباً ونجاسة. أيّها الفَرِيسِيُّ الأعمى، نَقِّ أَوَّلًا داخل كأسك وصحفتك بحيث يتطهّر الخارج أيضاً.

الويل لكم أيّها الكَتَبَةُ والفَرِيسِيُّونَ المِراؤُونَ، الَّذِينَ تطيرون في الظلمات كعصافير الليل [الوطايط] لأجل أعمال خطيئتكم وتتفاوضون ليلاً مع الوثنيين، اللصوص والخونة، وَمِنْ ثَمَّ، في الصباح، تصعدون الهيكل، حَسَنِي الملبس بعد أن تمسحوا آثار تجارتكم الخفيّة.

الويل لكم يا مَنْ تُعَلِّمون شرائع المحبّة والعدل المحتواة في سفر اللاويين، ثَمَّ تكونون جشعين، سارقين، كذبة، مفترين، جائرين، ظالمين، منثارين [محبين للانتقام]، مفعمين كراهية، وتصلّون حدّاً أن تصرعوا مَنْ يضايقكم، حتّى وإن كان من دمكم، وأن تُطَلّقوا العذراء الّتي صارت عروسكم، وتتخلّوا عن أطفالكم منها لأنّهم ذوو عاهة، وتتهموا امرأتكم

بالزنى لأنها لم تعد تعجبكم، أو تتهمونها بمرض قذر لتتخلصوا منها، يا مَنْ أنتم نجسون في قلوبكم الشهوانية، حتّى وإن لم تظهروا هكذا في عيون الناس الذين يجهلون أفعالكم. إنكم تشبهون القبور المبيضة، التي تبدو بهيئة من الخارج، فيما داخلها مملوء عظام أموات ومنتانة. الأمر ذاته بالنسبة لكم. نعم، الأمر ذاته! ظاهرياً تبدون أبراراً، أمّا داخلكم فممتلئ رياء وإثمًا.

الويل لكم أيّها الكتّبة والفرّيسيّون المراءون، الذين تُشيدون قبوراً فاخرة للأنبياء وتزيّنون مدافن الأبرار قائلين: "لو كنّا في أيّام آبائنا لما كنّا شركاء الذين أراقوا دم الأنبياء، ولما ساهمنا في ذلك". وهكذا تشهدون على أنفسكم أنكم بنو قتلة أنبياءكم. وأنتم، فوق ذلك، تطفحون كيل آبائكم... أيا أيّها الحيّات أولاد الأفاعي، كيف تهربون من دينونة جهنّم؟

لأجل ذلك، أنا، كلمة الله، أقول لكم: أنا، الله، أرسل إليكم من جديد أنبياء وحكماء وكتّبة. فمنهم مَنْ تقتلون، ومنهم مَنْ تصلبون، ومنهم مَنْ تجلدون في محاكمكم ومجامعكم، خارج أسواركم، ومنهم مَنْ تلاحقون من مدينة إلى مدينة، إلى أن يأتي عليكم كلّ دم ذكيّ سفك على الأرض، من دم هابيل البارّ إلى دم زكريّا بن بركيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح، لأنّه من محبّته لكم، ذكّركم بخطيئتكُم كي تتوبوا عنها راجعين إلى الربّ.

هكذا هو الأمر. إنكم تكرهون مَنْ يحبّون خيركم ويدعونكم إلى دروب الربّ حبّاً بكم.

الحقّ أقول لكم إنّ كلّ هذا هو على وشك الحدوث، والجريمة ونتائجها. الحقّ أقول لكم إنّ هذا كلّهُ سيتمّ في هذا الجيل.

آه! أورشليم! أورشليم! أورشليم، يا راجمة المرسلين إليكِ وقاتلة أنبيائكِ!
كم مرّة أردتُ أن أجمع بنيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، وأنتِ
لم تريدي!

الآن اسمعي يا أورشليم! الآن، اسمعوا أنتم جميعاً يا مَنْ تكرهونني
وتكرهون كلّ ما يأتي من الله. الآن، اسمعوا أنتم يا مَنْ تحبّونني والذين
سوف تُجْتَذَبُونَ إلى العقاب المحفوظ لمُضْطَهْدِي المرسلين من الله. واسمعوا
أنتم أيضاً يا مَنْ لستم من هذا الشعب ولكنكم تستمعون إليّ على حدّ سواء،
أنتم يا مَنْ تسمعون، كي تعلموا مَنْ هو الذي يكلمكم ويتنبأ دون أن يكون
بحاجة لدراسة الطيران، شدو العصافير، ولا الظواهر السماوية وأحشاء
الذبائح الحيوانية، ولا النار ودخان المحرقات، لأنّ كلّ ما هو مستقبليّ هو
حاضر بالنسبة للذي يكلمكم. "هذا البيت الذي هو بيتكم سوف يُترَك لكم
خراباً. أنا أقول لكم، يقول الربّ، إنكم من الآن لا ترونني حتّى تقولوا أنتم
أيضاً: 'مبارك الآتي باسم الربّ'".»

يَظْهَرُ على يسوع التعب والحرّ، بسبب العظة الطويلة المدوّية والحرارة
الخانقة لهذا النهار الذي بلا هواء. تحاصره عند الجدار حشود من آلاف
الأحداق التي ترمقه، شاعراً بكلّ كراهية الذين يسمعون من تحت أروقة باحة
الوثنيين، وكلّ المحبّة أو على الأقلّ الإعجاب المحيط به، دون اكتراث
بالشمس التي تضرب ظهور الناس ووجوههم المحمّرة التي يتصبّب منها
العرق، إنّه يبدو منهكاً بحقّ وبحاجة إلى سلوان. ويلتمسه قائلاً لرسله
وللتلاميذ الاثنين والسبعين، الذين كما أركان عدّة قد شقّوا على مهل ممراً
وسط الجمع، والذين هم الآن في الصفّ الأوّل، سدّ محبّة وفيّة حوله:

«فلنخرج من الهيكل ولنذهب إلى الهواء الطلق وسط الأشجار. أنا محتاج للظلّ، للصمت والانتعاش. الحقّ أقول إنّ هذا المكان يبدو وكأنّه أصبح يحترق بنار الغضب الإلهيّ.»

يَشْفُون له ممراً بصعوبة ويتمكّنون هكذا من الخروج من أقرب باب، حيث يحاول يسوع جاهداً، ولكن عبثاً، صرف الكثيرين. إنّهم يريدون اتّباعه بأيّ ثمن.

أثناء ذلك يتأمّل التلاميذ مكعب الهيكل الذي يسطع تحت شمس الظهيرة، ويوحنا الذي من أفسس يشير للمعلّم إلى عظمة البناء: «انظر آية حجارة وأيّ بناء هذا!»

«ومع ذلك لن يبقى منه حجر على حجر.» يجيب يسوع.

«لا؟ متى؟ كيف؟» يسأل كثيرون. ولكنّ يسوع لا يقول.

ينزل من جبل مورياح ويخرج مسرعاً من المدينة، ماراً بضاحية عوفل ومن باب أفرايم أو الفضلات، ملتجئاً أولاً إلى قلب حدائق الملّك، إلى أنّ كلّ أولئك الذين، ليسوا من الرُّسل والتلاميذ، قد أصرّوا على اتّباعه، ينصرفون على مهل عندما مَنّين، الذي جعل البوّابات الثقيلة تُفَتَح، يتقدّم، مهيباً، كي يقول للجميع: «امضوا. لن يدخل إلى هنا إلاّ الذين أريدكم أنا أن يدخلوا.»

ظلّ، صمت، عطر أزهار، أريج كافور وقرنفل، قرفة، خزامى وألف نبتة عطريّة أخرى، وخرير جداول تغذيها بالتأكيد ينابيع وخزانات قريبة، تحت أروقة مُورقة، زقزقات العصافير، تجعل من هذا المكان استراحة

فردوسية. تبدو المدينة وكأنها بعيدة جداً بشوارعها الضيقة، المظلمة بقناطرها أو المشمسة إلى حدّ الإبهار، وروائحها ونتاجة مجاريها التي لا تُنظف دائماً، ودروبها التي يجوبها ذوات الأربع بكثرة لتكون نظيفة، وخاصة الثانوية منها.

يُفترض بحارس الحقائق أنه يعرف يسوع جيداً، لأنه يحييه بألفة واحترام معاً، ويسأله يسوع عن أخبار أولاده وزوجته.

الرجل يودّ أن يستقبل يسوع في منزله، ولكنّ المعلم يفضل السلام المنعش والمريح لحديقة الملك الفسيحة، روضة استمتاع بحق. وقبل أن يذهب خادماً لعازر المتفانيان جداً واللذان لا يكلّان، لإحضار سلّة الطعام، يقول لهما يسوع: «قولاً لسيدتيكما أن تأتيان. سنبقى هنا عدّة ساعات، مع أمي والتلميذات الوفيات، وسيكون ذلك رائعاً جداً...»

«أنت متعب جداً يا معلم! وجهك ينبى بهذا.» يلاحظ مَناين.

«نعم. لدرجة أنّ لا قوّة لي بعد كي أمضي أبعد.»

«ولكنّي قدّمتُ لكّ هذه الحقائق مرّات عديدة هذه الأيام. أنت تعلم كم يسرّني أن أقدم لكّ السلام والسلوان!»

«أعلم ذلك يا مَناين.»

«وأمس أردت الذهاب إلى ذاك المكان الحزين! الذي محيطه قاحل، المجرد من النبات بشكل غريب هذا العام! القريب جداً من هذا الباب الحزين!»

«أردتُ أن أُسعدَ رسلي. إنَّهم أطفال في العمق، أطفال كبار. انظر إليهم هناك وهم يرتاحون بفرح!... وقد نسوا على الفور ما يُحاك ضدِّي خلف هذه الأسوار...»

«ونسوا كم أنتَ حزين... ولكن يبدو أن لا مجال كثيراً للتنبّه. قد بدا لي المكان أكثر خطراً في مرّات سابقة.»

ينظر إليه يسوع ويصمت. كم من مرّة رأيتُ فيها يسوع ينظر ويصمت هكذا، في هذه الأيام الأخيرة!

ثمّ يبدأ يسوع بالنظر إلى الرُّسل والتلاميذ. الذين خلعوا أغطية الرأس والأردية والنعال كي ينعشوا وجوههم وأطرافهم في مياه الجداول الصغيرة الباردة، ويقتدي بهم كُثْر من الاثنين والسبعين تلميذاً الذين صاروا الآن أكثر عدداً بحق، كما أعتقد، الذين وقد اجتمعوا جميعاً في أخوة مثالية، فإنّهم يستلقون هنا وهناك للاستراحة، بعيداً بعض الشيء، كي يتركوا يسوع يرتاح في هدوء.

كذلك مَنّاين ينسحب كي يتركه في سلام. الجميع يحترمون راحة المعلم المتعب للغاية. فهو قد لجأ إلى تحت تعريشة ياسمين مُزهر وكأنّها كوخ منعزل بمنعطف مائيّ يجري بخير في قناة صغيرة تغطس فيها الأعشاب والزهور. ملجأ سلام حقيقيّ يفضي إليه جسر صغير بعرض شبرين وبطول أربعة أشبار، وله سياج مُزهر بإكليل من تويجات الياسمين.

يرجع الخادمان مع آخرين كثيرين لأنّ مرثا أرادت تدبير احتياجات كلّ خدام الربّ، ويقولون إنّ معلّمتيهما لن تتأخرا في المجيء.

يسوع يستدعي بطرس ويقول له: «مع أخي يعقوب، بارك، قدّم، ووزّع مثلما أفعل أنا.»

«أن أوزّع نعم، أمّا أن أبارك فلا يا رب. فلك أنت أن تقدّم وتبارك، لا أنا.»

«عندما كنت على رأس رفاقك، بعيداً عني، ألم تكن تفعل ذلك؟»

«بلى. ولكن حينذاك... كنت مجبراً على فعله. الآن أنت معنا وأنت من يبارك. يبدو لي هذا أفضل عندما تُقدّم أنت من أجلنا وتوزّع علينا...»
ويعانق سمعان المخلص يسوعه، الجالس منهكاً في ذاك الظلّ، ويميل الرأس على كتفيه، سعيداً لتمكنه من أن يضمّه ويعانقه هكذا...

ينهض يسوع ويسعده. يذهب صوب التلاميذ، يقدّم الطعام، يباركه، يقسمه، ينظر إليهم يأكلون بسرور ويقول لهم: «ناموا بعدها، ارتاحوا ما دامت الساعة، وكي تستطيعوا بعدها أن تسهروا وتصلّوا عندما ستحتاجون لذلك، وحتى لا يغلب أعينكم وأرواحكم النعاس من التعب والإرهاق عندما تكون حاجتكم إلى النشاط والصحو.»

«ألا تبقى معنا؟ ألا تأكل؟»

«دعوني أرتاح. أنا محتاج لهذا فقط؟ كُلوا، كُلوا!» يلاطف الذين هم في طريقه، وهو يمرّ، ويعود إلى مكانه...

حلو هو وعذب مجيء الأمّ إلى ابنها. تتقدّم مريم بثقة، لأنّ مَنّين، المتأهبّ عند البوّابة والأقلّ تعباً من الآخرين، يشير لها إلى مكان يسوع.

الأخريات، وهناك كلّ التلميذات اليهوديّات، ومن الرومانيّات هناك فاليريا فقط، ينتظرن قليلاً، بصمت كي لا يوقظن التلاميذ النائمين في ظلّ أوراق الأشجار، أشبه بالنعاج الممدّدة وسط الأعشاب، إنّها الساعة السادسة.

تدخل مريم تحت تعريشة الياسمين دون أن تجعل الجسر الخشبيّ الصغير، ولا حصى التربة تصدر صوتاً، وبحرص أكبر تدنو من ابنها، الذي غلبه التعب فنام ورأسه على مائدة حجريّة تحته، يده اليسرى بمثابة وسادة تحت وجهه المحجوب بشعره. تجلس مريم بصبر قرب ابنها المتعب. تتأمّله... كثيراً... وعلى شفّتها ابتسامة حزينة ومُحبّة، بينما دموعها الصامتة تسقط على صدرها. ولكن إن تكن شفّتها مقفلتين وصامتتين، فإنّ قلبها يصليّ بكلّ القوّة التي يملكها، وقدرة هذه الصلاة وألمها تُفشيها يداها المضمومتان على ركبتيها، المتلاصقتين، المتشابكتين كي لا ترتجفا ومع ذلك تهتزّان برجفات خفيفة. يدان لا تنفكان إلّا لطرّد ذبابة مزعجة تريد أن تستقرّ على النائم وقد توقّظه.

إنّها الأمّ التي تسهر على ابنها. هو النوم الأخير لابنها الذي يمكنها السهر عليه. وإذا كان وجه الأمّ في هذا الأربعاء الفصحّي يختلف عن ذاك الذي ليوم ولادة الربّ، ذلك أنّ الحزن قد جعله شاحباً وغائر القسمات، إلّا أنّ له ذات نقاء النظرة المُحبّة، نفس العناية المرتعشة التي كانت لها حينذاك وهي منحنية على مذود بيت لحم، تحمي بمحبّتها أوّل نوم غير مريح لطفلها.

يتحرّك يسوع فتمسح مريم عينيها بسرعة حتّى لا تُظهر الدموع لابنها. ولكنّ يسوع لم يستيقظ. إنّهُ يغيّر وضعيّة وجهه فقط، ليستدير إلى الجهة الأخرى، ومريم تعود إلى جمودها ومراقبته.

ولكنّ شيئاً ما يفطر قلب مريم. إنّهُ سماع ابنها يبكي في نومه، يتمتم بشكل مبهم لأنّه يتكلّم وفمه ملتصق بذراعه وثوبه، ويذكر اسم يهوذا...

تنهض مريم، تقترب، تنحني على ابنها، تتابع تلك التمتمة المبهمة، ضاغطة بيديها على قلبها. فكلام يسوع، المتقطّع، ولكن ليس إلى الدرجة التي لا يمكن معها متابعته، يجعل المرء يدرك أنّه يحلم ويحلم من جديد بالحاضر والماضي، ومن ثمّ بالمستقبل، إلى إنّ يستيقظ منتفضاً كأنّه يهرب من أمر مهول. ولكنّه يجد صدر أمّه، ذراعي أمّه، ابتسامة أمّه، صوت أمّه العذب، قُبَلتها، ملاطفاتها، ووشاحها الذي يمرّ برقّة على وجهه ليمسح دموعه وعرقه، وهي تقول: «كنتَ منزعجاً وتحلم... أنتَ تتصبّب عرقاً ومتعب يا بنيّ.» ثمّ تمشط شعره الأشعث، وتمسح وجهه وتعانقه، تضمّه إلى قلبها، دون أن تتمكن من أخذه على ركبتيها كما عندما كان صغيراً.

يبتسم لها يسوع قائلاً: «إنّك دائماً الأمّ. الأمّ التي تواسي. الأمّ التي تعوّض عن كلّ شيء. أمّي!» ويُجلسها إلى جانبه، تاركاً لها يده على ركبتيها، وتأخذ مريم بين يديها الصغيرتين هذه اليد الطويلة، المتميّزة جداً ومع ذلك القويّة جداً، يد حرفيّ، تداعب أصابعه وظهر يده، تُلمّس عروقه التي انتفخت بينما كانت متدلّية أثناء نومه. تحاول أن تُروّح عنه...

«لقد أتينا. إنّنا جميعنا هنا. كذلك فاليريا. الأخريات هنّ في قلعة أنطونيا. لقد طلبتهنّ كلوديا، "التي هي في غاية الحزن" هذا ما قالته مُعَتَّقَتها. تقول، لا أعرف لأيّ سبب، أنّها تُنبئ بالكثير من الدموع. خرافات!... الله وحده يعلم الأمور...»

«أين التلميذات؟»

«هناك، عند مدخل الحدائق. أرادت مرثا أن تُعَدَّ لك طعاماً وشراباً منعشاً ومغذياً متنبّهة لكونك منهكاً. أمّا أنا فقد أحضرتُ لك، ما أنت تحبّ دائماً، انظر. هذه هي مشاركتي. إنها الأفضل لأنها من أمّك.» ثريه عسلاً وفطيرة صغيرة من الخبز تدهنها بالعسل كي تعطيها لابنها قائلة: «كما في الناصرة، عندما كنت تأخذ قيلولتك في الساعة الأكثر حرارة ثم كنت تستيقظ وأنت تشعر بالحرّ، وكنتُ آتي أنا من المغارة الرطبة مع هذه الوجبة الخفيفة.» تتوقّف لأنّ صوتها يرتعش.

ينظر إليها ابنها ومن ثم يقول: «وعندما كان يوسف، كنتُ تُحضرين الوجبة الخفيفة لاثنين، والماء البارد من الجرة الفخاريّة الموضوعة في المجرى المائيّ لتصير أكثر برودة، وما كان يجعلها أكثر انتعاشاً أعواد النعناع البريّ التي كنتِ تلقينها داخلها. كم من النعناع هناك تحت أشجار الزيتون! وكم من النحل على أزهار النعناع! لقد كان لعسلنا دائماً شيء من ذلك العطر...» يفكّر... يتذكّر...

«أتعلم؟ لقد رأينا حلفى. يوسف تأخّر لأنّ واحداً من أطفاله مريض قليلاً. إنّما غداً سيكون هنا بالتأكيد مع سمعان. سالومة التي لسمعان تحرس منزلنا ومنزل مريم.»

«أمّي، عندما ستكونين وحيدة، مع مَنْ ستقيمين؟»

«مع مَنْ تقول يا بنيّ. لقد أطعُتك قبل أن تكون لي ابناً. وسأواصل الطاعة بعد أن تغادرني.» صوتها يرتعش، إنّما تعلو شفيتها ابتسامة بطوليّة.

«إِنَّكَ تُحْسِنِينَ الطَّاعَةَ. يَا لَهَا مِنْ رَاحَةِ مَعَكَ! إِذْ هَلْ تَرِينَ يَا أُمِّي؟ لَا يُمْكِنُ لِلْعَالَمِ أَنْ يَدْرِكَ، وَلَكِنِّي أَجِدُ كُلَّ الرَّاحَةِ بِقَرَبِ الَّذِينَ يَطِيعُونَ... نَعَمْ. اللَّهُ يَرْتَاحُ بِقَرَبِ الْمُطِيعِينَ. لَمْ يَكُنْ لِيَتَأَلَّمَ اللَّهُ، وَيَتَعَبُ، لَوْ لَمْ يَكُنِ الْعَصِيَانِ قَدْ أَتَى إِلَى الْعَالَمِ. كُلُّ ذَلِكَ يَحْصُلُ بِسَبَبِ عَدَمِ الطَّاعَةِ. مِنْ ذَلِكَ يَأْتِي أَلَمُ الْعَالَمِ... مِنْهُ يَأْتِي أَلَمُنَا.»

«وَلَكِنْ أَيْضاً سَلَامُنَا يَا يَسُوعَ. لِأَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ طَاعَتَنَا تَعْزِي الْأَزْلَى. آه! بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ بِشَكْلِ خَاصٍّ، هِيَ هَذِهِ الْفِكْرَةُ! أَنَّهُ قَدْ أُعْطِيَ لِي، أَنَا الْمَخْلُوقَةُ، أَنْ أَعْزِي خَالِقِي!»

«آه! يَا لِفَرَحِ اللَّهِ! إِنَّكَ لَا تَعْلَمِينَ، يَا لِفَرَحِنَا، مَا يَعْنِيهِ لَنَا قَوْلُكَ هَذَا! إِنَّهُ يَفُوقُ تَنَاقُصَ الْجَوَاقِتِ السَّمَاءِيَّةِ... مَبَارَكَةٌ! مَبَارَكَةٌ أَنْتِ، الَّتِي تَعْلَمِينَ مَنَتهَى الطَّاعَةِ، وَتَجْعَلِينَهَا لِي بِتِلْكَ الْفِكْرَةِ، مُسْتَحَبَّةً جِداً لِإِتْمَامِهَا!»

«أَنْتَ لَسْتَ بِحَاجَةٍ لِأَنْ أَعْلَمَكَ يَا يَسُوعَ، لَقَدْ تَعَلَّمْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْكَ.»

«يَسُوعُ الْإِنْسَانُ، قَدْ تَعَلَّمْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ مَرْيَمِ الَّتِي مِنَ النَّاصِرَةِ.»

«نُورُكَ هُوَ الَّذِي كَانَ يَخْرُجُ مِنِّي. النُّورُ الَّذِي هُوَ أَنْتَ، وَالَّذِي كَانَ آتِياً مِنَ النُّورِ الْأَبَدِيِّ الْمُتَلَاشِيِّ تَحْتَ مَظْهَرِ بَشَرِي... لَقَدْ أَخْبَرَنِي أَخَوَا يُوْنَا بِالْخُطْبَةِ الَّتِي أَلْقَيْتَهَا. كَانَا مُفْتَوْنَيْنِ إِعْجَاباً. لَقَدْ كُنْتُ شَجَاعاً مَعَ الْفَرِيسِيِّينَ...»

«إِنَّهَا سَاعَةُ الْحَقَائِقِ الْفَائِقَةِ يَا أُمِّي. بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ تَبْقَى حَقَائِقُ مَيَّةٍ، أَمَّا لِلْآخَرِينَ سَتَكُونُ حَقَائِقُ حَيَّةٍ. وَبِالْمَحَبَّةِ وَالْقِسْوَةِ عَلَيَّ خَوْضَ الْمَعْرَكَةِ الْآخِرَةِ لِأَنْتَشِلَهُمْ مِنَ الشَّرِّ.»

«هذا صحيح. لقد قالوا لي إنّ غَمَلائيل، الذي كان يقف مع الآخرين في إحدى قاعات الأروقة، قال في النهاية، في حين كان الكثيرون غاضبين: "إن لم نرد التوبيخ، علينا التصرّف باستقامة." ومضى بعد هذه الملاحظة.»

«يسرّني أن يكون الراي قد سمعني. مَنْ قال ذلك لك؟»

«لعازر. وقال له ذلك إلعازر، الذي كان في القاعة مع الآخرين. لعازر حضر الساعة السادسة. ألقى التحيّة ورحل دون الاستماع لأختيه اللتين كانتا تريدان استبقاءه حتّى المغيب. طلب إرسال يوحنا، أو آخرين، لأخذ الثمار والورود، التي هي جاهزة تماماً.»

«سأرسل يوحنا، غداً.»

«لعازر يحضر يومياً. ولكنّ مريم غاضبة إذ تقول إنه يبدو كالطيف. يصعد إلى الهيكل، يأتي، يُصدِر أوامره ثمّ يرحل.»

«كذلك لعازر يُحسن الطاعة. أنا مَنْ أمره بذلك. لأنّه هو أيضاً عرضة للخطر. ولكن لا تخبري الأختين. لن يحصل له شيء. والآن هيّا بنا نذهب إلى التلميذات.»

«لا تتحرّك. أنا سأستدعيهنّ. فالتلاميذ كلّهم نيام...»

«وسندعهم للنوم. فهم ينامون قليلاً في الليل، إذ إنّني أعلمهم في سكون جَسْيمانِي.»

تخرج مريم وتعود مع النسوة، اللواتي يبدن وكأنهنّ أصبحن بلا وزن، بقدر ما كانت مشيتهنّ خفيفة.

يلقين عليه التحيّة بتبجيلهنّ العميق، وحدها مريم التي لحلفى بأكثر ألفة. تُخرج مرثا من كيس كبير جرّة تنضح، بينما تُخرج مريم من أنية مسامية أيضاً، ثماراً طازجة من بيت عنيا وتضعها على المنضدة بجوار ما أعدّته أختها، أي حمامة مشويّة على النار، مقرمشة، شهية، وتتوسّل إلى يسوع أن يتذوّقها، قائلة: «كُل، هذا اللحم مغدّ. أنا من أعدّدته.»

يُونّا من جهتها قد أحضرت خلاً وريّاً، تشرح: «إنّه منعش للغاية في بدايات الحرّ هذا. يستخدمه زوجي أيضاً حينما يكون تعباً في جولاته الطويلة.»

«نحن ليس لدينا شيء.» تعتذر مريم سالومة ومريم التي لحلفى وسُوسنة وإليز. وتقول نيقى وفاليريا بدورهما: «ونحن كذلك. لم نكن نعلم أننا سنأتي.»

«لقد قدّمتنّ لي كلّ قلوبكنّ. هذا يكفي. وستقدّمن لي المزيد...»

يأكل، ولكن بالأخصّ يشرب الماء البارد الممزوج بالعسل الذي سكبته له مرثا من الجرّة الفخاريّة، والثمار الطازجة المنعشة للمُنهك.

التلميذات لا يتكلّمن كثيراً. ينظرن إليه وهو يجدّد قواه. عيونهنّ تبوح بالمحبّة والقلق. وفجأة تجهش إليز بالبكاء وتعتذر قائلة: «لا أدري. قلبي مثقل بالحزن...»

«نحن جميعاً حزينات، حتّى كلوديا في قصرها...» تقول فاليريا.

«أودّ لو تكون الآن العنصرة.» تتمتم سالومة.

«أنا على العكس، أريد إيقاف الزمن عند هذه الساعة.» تقول مريم المجدلية.

«ستكونين أنانية يا مريم.» يجيبها يسوع.

«لماذا يا رابوني؟»

«لأنك ستكونين تريدين فرحة الفداء لنفسك فقط. هناك الآلاف والملايين ينتظرون هذه الساعة، أو الذين بسبب هذه الساعة سيكونون مُفَتِّدين.»

«هذا صحيح، لم أكن أفكر بهذا...» تحني رأسها وهي تعضّ شفتيها كي لا تُرى الدموع التي تنساب من عينيها ورعدة شفتيها. ولكنها المقاتلة الشجاعة دائماً، وتقول: «إن أتيت غداً تستطيع أخذ الثوب الذي أرسلته. إنه منعش ونظيف، جدير بالعشاء الفصحي.»

«سأتي... أليس لديك ما تقلنه لي؟ أنتن صامتات ومكتئبات. ألم أعد بعد يسوع؟...» ويبتسم للنسوة مشجعاً.

«آه! أنتَ هو! ولكنك عظيم للغاية هذه الأيام، حتّى إنني لم أعد قادرة على أن أرى فيك الطفل الصغير الذي كنتُ أحمله بين ذراعي.» تهتف مريم التي لحفى.

«وأنا، الرابي البسيط الذي كان يدخل مطبخي بحثاً عن يوحنا ويعقوب.» تقول سالومة.

«أنا قد عرفتُك على الدوام هكذا: ملك نفسي!» تُعلن مريم المجدلية.

ويؤنّا، المفعمة عذوبة وادعة: «وأنا أيضاً: الإلهي، منذ أن تجليت لي في الحلم وقد كنتُ أحتضر كي تدعوني إلى الحياة.»

«لقد منحنا كلّ شيء أيا ربّ، كلّ شيء!» تقول إليز متنهّدة وقد تماكنت نفسها.

«وأنتنّ قد أعطيتنني كلّ شيء.»

«قليل جدّاً!» يقلن جميعاً.

«لن يتوقّف العطاء بعد هذه الساعة. سيتوقّف فقط عندما تصبحن معي في ملكوتي. تلميذاتي المخلصات. لن تجلسن، لا، إلى جانبي، على الاثني عشر كرسيّاً لإدانة أسباط إسرائيل الاثني عشر، إنّما ستنشدن الهوشعنا مع الملائكة، لتشكلن جوقة شرف لأُمّي، وحينذاك، كما الآن، سيفرح قلب المسيح وهو يتأمّلكن.»

«أنا شابّة! وطويل هو الوقت اللازم كي أصدع إلى ملكوتك. طوباك يا أناليا!» تقول سوسنة.

«أنا عجوز، وسعيدة لأنني كذلك. أتمنّى أن يكون موتي قريباً.» تقول إليز.

«أنا لي أبناء... وأودّ أن أخدمهم، خدام الله هؤلاء!» تتنهّد مريم التي لحفي.

«لا تَنْسَنَا يَا رَبِّ!» تقول المجدليّة بقلق بالغ، أحسبها صحيحة من نفسها، لأنّ صوتها رغم خفوتها كي لا توقظ النائمين، إلّا أنّ له قوّة تأثير أكثر من صحيحة.

«لن أنساكن. سآتي. أنتِ تعلمين، يا يُونّا، أنّ باستطاعتي أن آتي حتّى وإن كنتُ بعيداً جداً... وعلى الأخريات أن يؤمنّ بذلك. وسأترك لكنّ شيئاً... سرّاً يحفظني فيكنّ وأنتنّ فيّ، إلى أن نكون معاً، أنتنّ وأنا، في ملكوت الله. الآن اذهبن. ستقلن إنّني قلتُ لكنّ أشياء قليلة، تكاد تكون عديمة الجدوى لا تستدعي قدومكنّ. ولكنّي رغبتُ أن تكون حولي قلوب أحبّتي بلا حساب. لأجل ذاتي. لأجل ذاتي أنا: يسوع. ليس ملك إسرائيل المستقبليّ الذي يحلمون به. اذهبن. ولتكنّ مباركات مرّة أخرى. كذلك الأخريات اللواتي لسن هنا، إنّما اللواتي يفكرن بي بمحبّة: حنّة، ميرتا، أنستاسيا، نُعمي، وسنّتيخي البعيدة، وفوتينا، وأغليّا وسارة، مارسيل، ابنتي فيلبّس، ومريام بنت يائيروس، والعذارى، والمفتديّات، والزوجات، والأمّهات اللواتي أتين إليّ، وكنّ لي أخوات وأمّهات، وأفضل، آه! أفضل جداً من الرجال، حتّى الأفضل منهم!... كلهنّ، كلهنّ! أباركهنّ جميعاً. إنّ النعمة قد شرعت بالنزول، النعمة والمغفرة، على المرأة، ببركتي هذه أُنحكنّ. اذهبن...» يصرفهنّ مستبقياً أمّه: «قبل المساء سأكون في قصر لعازر. أنا بحاجة لأن أراك بعد. وسيكون معي يوحنا. لكنّي لا أريد سواك، يا أمّي والمريمات الأخريات، ومرثا وسوسنة. أنا تعب للغاية...»

«لن يكون أحد سوانا. وداعاً يا بنيّ...»

يتعانقان. ينفصلان... تمضي مريم على مهل. تلتفت قبل أن تخرج. وتلتفت قبل مغادرة الجسر الصغير. وتستدير بعد، طالما هي تستطيع رؤية يسوع... يبدو أنها لا تستطيع الابتعاد عنه...

يسوع بمفرده مرّة أخرى. ينهض ويخرج. يذهب لمناداة يوحنا الذي ينام منبطحاً وسط الزهور كطفل، ويعطيه جرّة الخلّ الورديّ الصغيرة التي أحضرتها له يُونّا، قائلاً له: «سنذهب هذا المساء إلى أمّي، إنّما كلانا فقط.»

«فهمتُ. هل أتين؟»

«نعم. فضّلتُ ألاّ أوقظكم...»

«أحسنّت صنعاً. ليكون فرحك أعظم. هنّ يعرفن أن يحبينك بأفضل منّا...» يقول بحزن داعم العين.

«تعال معي.»

يتبعه يوحنا.

«ما بك؟» يسأله يسوع عندما يصبحان من جديد في ظلّ التعريشة الخضراء حيث ما يزال هناك طعام.

«يا معلّم، نحن في غاية السوء. جميعنا. لا طاعة فينا... ولا رغبة في البقاء معك. حتّى بطرس وسمعان قد ابتعدا. لا أدري إلى أين. ويهوذا قد وجد في هذا الفرصة للمشاجرة.»

«هل رحل يهوذا؟»

«لا يا ربّ، لم يرحل. يقول إنّهُ ليس بحاجة لذلك، وإنّهُ ليس شريكاً في الدسائس التي نقوم بها للحصول على حماية لكّ. ولكن إن ذهبتُ أنا إلى حنّان، أو الآخرون إلى الجليليّين الذين يقيمون هنا، فليس هذا للشرّ!... ولا أظنّ أنّ سمعان بن يونا وسمعان الغيور قادران على الحيل المشبوهة...»

«لا تكثرث لذلك. بالفعل لا يحتاج يهوذا لأن يمضي أثناء راحتكم. فهو يعلم متى وأين يذهب ليكمل كلّ ما عليه فعله.»

«وإذاً لماذا يتكلّم هكذا؟ هذا ليس حسناً أمام التلاميذ!»

«ليس حسناً ولكنّه هكذا. اهدأ يا حملي.»

«أنا، حمّلك؟ لا حمّل سواك!»

«نعم، أنت. أنا حمّل الله، وأنت حمّل حمّل الله.»

«آه!!! مرّة أخرى، في الأيام الأولى التي كنتُ فيها معك، قلتُ لي هذا الكلام. كنّا معا بمفردنا كما الآن، وسط الخضرة، كما الآن. وكان ذلك في الفصل الجميل.» يوحنا كان مستمتعاً للغاية بالذكرى التي تعود. ويتمتم: «أنا دائماً، وما زلت حمّل حمّل الله...»

يلاطفه يسوع. ويقدم له قطعة من الحمام المشويّ الباقي على المنضدة ملفوفاً بورقة رقّ. ثمّ يفتح تيناً لذيذاً ويقدمه له، فرحاً لرؤيته يأكل. يجلس يسوع أمامه عند حافة المنضدة ويمعن النظر بيوحنا بحيث أنّ هذا يسأله: «لماذا تنظر إليّ هكذا؟ هل لأنني أكل بنهم؟»

«لا. لأنك مثل طفل... آه! يا محبوبي! كم أحبك من أجل قلبك!»
وينحني يسوع ليقبل شعر الرسول الأشقر ويقول له: «ابق هكذا، دائماً هكذا،
بقلبك الذي بلا كبرياء ولا حقد. هكذا، حتى في أوقات هيجان الوحشية. لا
تقتد بمن يخطئون يا ولدي.»

يوحنا مأخوذ بألمه ويقول: «ولكن أنا لا يمكنني الاعتقاد بأن سمعان
وبطرس...»

«إنك لتخدع نفسك بحق إن كنت تظنهما خاطئين. اشرب. إنه شراب
طيب ومنعش. هي مرثا التي أعدته... الآن استرجعت قواك. فأنا متأكد أنك
لم تكن قد أنهيت طعامك...»

«هذا صحيح. لقد غلبني البكاء. فبالفعل أن يكرهنا العالم، هذا مفهوم.
أما أن يلمح أحداً بـ...»

«لا تعد تفكر بذلك. أنت وأنا نعلم نراهة سمعان والغيور. وهذا يكفي.
وأنت تعلم، للأسف، أن يهوذا خاطئ. ولكن اصمت. عندما تمر سنوات
وسنوات، ويصبح من الصواب أن تفصح عن كل هول ألمي، حينذاك، حتى
ما عانيته من تصرفات هذا الرجل، بالإضافة إلى ما عانيته منه كرسول. هيّا
بنا. أن أوان ترك هذا المكان للذهاب إلى معسكر الجليليين و...»

«هل سنقضي هذه الليلة كذلك هناك؟ وهل نذهب قبل ذلك إلى
جثسيماني؟ كان يهوذا يريد أن يعرف. يقول إنه تعب من المكوث تحت
الندى، ومع استراحة قصيرة جداً وغير مريحة.»

«سينتهي هذا قريباً. ولكن لن أفصح ليهوذا عن نواياي...»

«لست ملزماً بذلك. فأنت من عليك أن تقودنا، لا نحن من علينا أن نقودك.» يوحنا أبعد ما يكون عن أن يفشي أنه لا يفهم حتى سبب الحذر الذي بموجبه يرفض يسوع بشكل مطلق، منذ بضعة أيام، أن يقول ما ينوي فعله.

ها هما وسط النائمين. يناديانهم. يستيقظون. من جهته مَنَيْن، إذ انتهت مهمته، يعتذر من المعلم عن عدم تمكّنه البقاء، وعن عدم قدرته على أن يكون إلى جانبه في الغد في الهيكل، لأنّ عليه البقاء في القصر. وأثناء قوله هذا يمعن النظر في بطرس وسمعان، اللذين عادا في تلك الأثناء، ويشير بطرس بإشارة سريعة من رأسه كما ليقول: «فهمت.»

يُخرجون من الحدائق. ما يزال الجوّ حارّاً. الشمس ما تزال ساطعة، ولكن نسمة المساء تلطّف الحرارة وتدفع بعض الغيوم الصغيرة في السماء الصافية.

ينطلقون صعوداً عبر سلوام، متجنّبين أماكن البرص، حيث يحمل سمعان الغيور ما بقي من طعامهم، إلى العدد القليل المتبقّي الذين لم يُحسِنوا أن يؤمنوا بيسوع.

متّياس، الراعي السابق، يقترب من يسوع ويسأله: «ربّي ومعلّمي، فكّرتُ كثيراً مع رفاقي في كلامك حتّى أخذ منا التعب كلّ مأخذ، ونمنا قبل أن نجد إجابة على الأسئلة التي كنّا قد طرحناها على أنفسنا. والآن، نحن أكثر غباءً ممّا سبق. فلو أجدنا فهم عظات هذه الأيام، فأنت تنبأت بأنّ أشياء كثيرة ستتغيّر، رغم بقاء الشريعة بلا تغيير، وأنّه يجب أن نشيّد هيكلًا جديدًا،

مع أنبياء جدد، حكماء وكتّبة، وستنشب ضدّه الحروب، ولكنّه لن يفنى، بينما هو، إن فهمتُ جيّداً، يبدو وكأنّ مصيره الفناء.»

«مصيره الفناء. تذكر نبؤة دانيال...»

«ولكن نحن، الفقراء وقليلي العدد، كيف سيمكننا أن نبنيه من جديد إن كان الملوك قد بنوا هذا بصعوبة؟ وأين سنبنيه؟ ليس هنا، لأنّك تقول أنّ هذا المكان سيترك خراباً إلى أن يباركوك كمُرسَل من الله.»

«الأمر هو هكذا.»

«في ملكوتك، لا. نحن مقتنعون بأنّ ملكوتك روحيّ. وإذن كيف، وأين سنبنيه؟ بالأمس قلت أنّ الهيكل الحقيقيّ - وهذا إذاً ليس الهيكل الحقيقيّ؟- أنّ الهيكل الحقيقيّ، وحينما يظنّون أنّهم قد هدموه، حينذاك سيرتفع منتصراً نحو أورشليم الحقيقيّة. أين هي؟ لقد صرنا مشوشين كثيراً.»

«هكذا يكون. إنّ الأعداء سيهدمون الهيكل الحقيقيّ. وأنا في ثلاثة أيّام أقيمه مجدّداً، ولن يعرف المكائد بعد، بارتفاعه حيث لا يستطيع إنسان أن يُلحق به الأذى.»

فيما يخصّ ملكوت الله، فهو فيكم وحيثما وُجد أناس يؤمنون بي. مشتّت هو الآن، وسينتشر في الأرض عبر العصور. ثمّ سيغدو أبدياً، واحداً، كاملاً في السماء. فهناك، في ملكوت الله، سيُشاد الهيكل الجديد، أي حيث تكون الأرواح التي تقبل مذهبي، مذهب ملكوت الله، وتمارس الوصايا. كيف سيُشاد إن كنتم فقراء وقليلي العدد؟ آه! الحقّ أنّ لا حاجة لمال ولا قوى، سواء فردية أو جماعية، لبناء صرح مسكن الله الجديد. إنّ ملكوت الله فيكم، وباتّحاد كلّ

الَّذِينَ سَيَكُونُ فِيهِمْ مَلَكُوتُ اللَّهِ، كُلِّ الَّذِينَ سَيَكُونُ اللَّهُ فِيهِمْ، اللَّهُ: النعمة؛ الله: الحياة؛ الله: النور؛ الله: المحبة، سَيُشَادُ مَلَكُوتُ اللَّهِ الْعَظِيمِ عَلَى الْأَرْضِ، أُورُشَلِيمَ الْجَدِيدَةِ الَّتِي سَتَمْتَدُّ حَتَّى أَطْرَافِ الْعَالَمِ، وَالَّتِي، حَيْثُ هِيَ تَامَّةٌ وَكَامِلَةٌ، دُونَ نَقَائِصٍ، وَدُونَ ظِلَالٍ، سَتَعِيشُ إِلَى الْأَبَدِ فِي السَّمَاءِ.

كَيْفَ سَتَعْمَلُونَ لَتَشِيدُوا الْهَيْكَلَ وَالْمَدِينَةَ؟ آه! لَيْسَ أَنْتُمْ، بَلِ اللَّهُ هُوَ مَنْ سَيَشِيدُ هَذِهِ الْأَمَاكِنَ الْجَدِيدَةَ. أَنْتُمْ عَلَيْكُمْ فَقَطْ أَنْ تَعْطُوهُ إِرَادَتَكُمْ الصَّالِحَةَ. الْإِرَادَةُ الصَّالِحَةُ هِيَ الثَّبَاتُ فِيَّ. الْإِرَادَةُ الصَّالِحَةُ هِيَ عِيشُ مَذْهَبِي. الْإِرَادَةُ الصَّالِحَةُ هِيَ الْبَقَاءُ مُتَّحِدِينَ. الْإِتِّحَادُ بِي وَصُولاً إِلَى تَشْكِيلِ جَسَدٍ وَاحِدٍ تَتَغَذَّى كُلُّ أَجْزَائِهِ وَحَتَّى الْأَصْغَرَ مِنْهَا، مِنْ نَسْغٍ وَاحِدٍ. صَرَحَ وَاحِدٌ يَرْتَكِزُ عَلَى أَسَاسٍ وَاحِدٍ وَقَوَامٍ وَاحِدٍ بِمِلَاطٍ سَرِّيٍّ. وَلَكِنْ بَدُونَ مُسَاعِدَةِ الْآبِ، الَّذِي عَلَّمْتُمْ أَنْ تُصَلُّوا لَهُ وَالَّذِي سَوْفَ أَصَلِّي لَهُ مِنْ أَجْلِكُمْ قَبْلَ مَوْتِي، لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَكُونُوا فِي الْمَحَبَّةِ، فِي الْحَقِّ، فِي الْحَيَاةِ، أَيْ فِي أَيْضاً وَمَعِي فِي اللَّهِ الْآبِ، وَفِي اللَّهِ الْمَحَبَّةِ، لِأَنَّا أُلُوْهِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، لِهَذَا السَّبَبِ أَقُولُ لَكُمْ بَأَن تَحْظُوا بِاللَّهِ فِي دَاخِلِكُمْ حَتَّى تَتِمَكَّنُوا مِنْ أَنْ تَكُونُوا: الْهَيْكَلُ الَّذِي لَنْ يَعْرِفَ نَهَايَةَ. مِنْ أَنْفُسِكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ. إِنْ لَمْ يَبْنِ اللَّهُ، وَهُوَ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَبْنِيَ حَيْثُ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَّخِذَ لَهُ مَسْكناً، فَبَاطِلاً يَجْهَدُ الْبَشَرُ لِلْبِنَاءِ أَوْ إِعَادَةِ الْبِنَاءِ. الْهَيْكَلُ الْجَدِيدُ، كَنِيستِي، سَتَرْتَفِعُ فَقَطْ عِنْدَمَا يَكُونُ قَلْبُكُمْ مَقَامَ اللَّهِ، وَهُوَ، مَعَكُمْ، أَنْتُمْ الْحَجَارَةُ الْحَيَّةُ، مَنْ سَيَبْنِي كَنِيستِهِ.»

«وَلَكِنْ أَلَمْ تَقُلْ إِنَّ سَمْعَانَ بْنَ يُونَا هُوَ رَئِيسُهَا، الصَّخْرَةُ الَّتِي عَلَيْهَا سَتُبْنَى كَنِيستُكَ؟ وَأَلَمْ تَجْعَلْنَا نَدْرَكَ أَيْضاً أَنَّكَ أَنْتَ حَجَرُ الزَّاوِيَةِ؟ مَنْ يَكُونُ الرَّئِيسُ إِذَا؟ هَلْ هَذِهِ الْكَنِيسَةُ مَوْجُودَةٌ أَمْ لَا؟» يَقَاطِعُ الْإِسْخَرِيوطِيَّ.

«أنا هو الرئيس السرّي، وبطرس هو الرئيس المنظور. فأنا أرجع إلى الآب تاركاً لكم الحياة، النور، والنعمة بكلمتي، بآلامي، بالبارقليط الذي سيكون صديق المخلصين لي. أنا واحد مع كنيسة، جسدي الروحي الذي أنا رأسه. إنّ الرأس يتضمّن الدماغ أو العقل. العقل هو كرسي المعرفة، الدماغ هو الذي يوجّه حركات الأعضاء بأوامره اللامادية، التي هي أكثر سلطاناً على تحريك الأعضاء من كلّ تحريض آخر. لاحظوا ميتاً مات دماغه. هل تتحرك أعضاؤه؟ لاحظوا معتوهاً بالكامل. ألا يمكن أن يكون خاملاً لدرجة أنه لا يُحسن أداء الحركات البدائية الغريزية التي يُحسنها أدنى حيوان، التي هي الدودة التي نسحقها أثناء المشي؟ لاحظوا كيف يُفسد الشلل اتصال الأعضاء، عضو أو أكثر، بالدماغ. هل من حركة في الجزء الذي ليس له أيّ ارتباط حيويّ مع الرأس؟ ولكن إن قاد العقل بواسطة أوامره اللامادية، فالأعضاء الأخرى: العينان، الأذنان، اللسان، الأنف، الجلد، هي التي تقوم بإيصال الأحاسيس إلى العقل، والأجزاء الأخرى من الجسم، المُنبّهة بواسطة الأعضاء المادية والمنظورة حيث الذهن غير منظور، هي التي تنفّذ وتعمل على تنفيذ ما يأمر به العقل. هل أستطيع، دون أن أقول لكم: "اجلسوا"، أن أحقق جلوسكم على منحدر هذا الجبل؟ حتّى ولو فكّرتُ أنّي أريد أن تجلسوا، فإنكم لن تعرفوا ذلك طالما أنا لم أترجم فكري بكلمات وأقول ذلك، مستخدماً لساني وشفتي. هل أستطيع أنا بذاتي الجلوس، إن كنتُ أفكر في هذا فقط، لأنّي أحسّ بتعب ساقي، ولكن إن رفضتُ أن تنتنّيا وبالتالي تجعلاني أجلس؟

العقل يحتاج إلى الأعضاء والأطراف كي تعمل وكي تحقّق العمليات التي يفكر فيها الذهن. هكذا في الجسد الروحي الذي هو كنيسة ساكون أنا هو العقل، أي الرأس، كرسي العقل، وبطرس والمعاونون له هم الذين

سيلاحظون ردود الأفعال ويدركون الأحاسيس وينقلونها إلى العقل، لكي ينير ويأمر بما يجب عمله من أجل خير الجسد كلّ، ولكي، فيما بعد، منارين ومتوجّهين بأمرى، يتكلّموا ويوجّهوا بقيّة أجزاء الجسد. إنّ اليد التي ترفض ما يمكن أن يجرح الجسد، أو التي تُبعد الذي بفساده يمكن أن يُفسد، القدم التي تتجاوز العقبات دون أن تصدمكم وتسقطكم وتجرحكم، قد تلقّتا الأمر بفعل ذلك من الجزء الذي يقود. إنّ الطفل، وكذلك الرجل، الذي أنقذ من خطر أو الذي يحقق كسباً من أيّ نوع: تعليمًا، أعمالاً جيّدة، زواجًا، تحالفًا جيّدًا، بسبب نصيحة تلقّاها، بسبب كلمة قيلت له، هو بفعل النصيحة وهذه الكلمة يتحاشى الإضرار بنفسه أو يحقق خيراً لذاته. هكذا يكون الأمر في الكنيسة. الرئيس، والرؤساء، الموجهون بالفكر الإلهيّ، والمُنارون بالنور الإلهيّ والمُتفقون بالكلمة الأبديّة، يعطون الأوامر والنصائح، والأعضاء تتصرّف، للحصول على الصحة الروحيّة والكسب الروحيّ.

أصبحت كنيسة موجودة، فهي تملك رأسها الفائق الطبيعة، رأسها الإلهيّ، ولها أعضاؤها: التلاميذ. مازالت صغيرة: بذرة تتكوّن، كاملة فقط في الرأس الذي يوجّهها، غير كاملة في البقيّة المحتاجة إلى لمسة الله لتصير كاملة، وإلى الوقت لتنمو. ولكن الحقّ أقول لكم إنّها قد أضحت موجودة وهي مقدّسة بفضل من هو رئيسها والإرادة الصالحة للأبرار الذين تتكوّن منهم. مقدّسة ومنيرة. ستهاجمها الجحيم آلاف المرّات، وتحاربها تحت ألف شكل، جهنّم المكوّنة من شياطين ومن بشر-شياطين، ولكنها لن تقوى عليها. الصرح لن يتزعزع.

إلا أن الصرح لم يُبنَ بحجر واحد فقط. لاحظوا الهيكل، هناك، واسع، جميل، تحت شمس المغيب. هل هو مبنيّ ربّما بحجر واحد؟ إنه مجموعة أحجار تُكوّن كُلاً متناغماً. يُدعى: الهيكل. أي وحدة واحدة. ولكن هذه الوحدة مصنوعة من أحجار عديدة كوّنتها وشكّلتها، فلا فائدة كانت من صنع أساسات إذا لم يكن عليها بعد ذلك تدعيم الجدران والسقف، إذا لم يكن ينبغي بعد ذلك أن تشيّد عليها الجدران. وقد كان من المستحيل أن تشاد الجدران ويدعم السقف إن لم يبدأ بعمل أساسات صلبة، متناسبة مع كتلة عظيمة كهذه.

هكذا، بترابط الأجزاء، الواحدة مع الأخرى، يرتفع أيضاً الهيكل الجديد. ستبنونه على مدى العصور مرتكزين على الأساسات التي أعطيتها له، كاملة، في كتلته. ستبنونه بتوجيه من الله، بصلاح الأشياء المستخدمة لإشادته: الأرواح التي يسكنها الله. والله في قلبكم، كي يجعل منه حجراً مصقولاً وبلا صدع للهيكل الجديد. سيبنى ملكوته بشرائعه في روحكم. وإلاّ فستصبحون كالأجر سيئ الشيء، كالخشب المسوّس، ككسر أحجار متصدّعة لا تتحمّل، وإن كان البناء فظناً، فيلقوها، أو فإنّها لن تتحمّل، تنكسر، مسببةً انهيار جزء إذا كان البناء، البنّائون المكلفون من قبل الأب ببناء الهيكل، بنّائين يعبدون الأصنام، يختالون باستحقاقاتهم في قلبهم دون السهر والتعب على البناء الذي يشاد وعلى المواد التي تُستخدم فيه، بنّائين عابدين للأصنام، موجّهين وثنّيين، حرّاساً وثنّيين، سارقين! سارقين لثقة الله، لتقدير الناس، لصوصاً ومتكبرين يسعدون بأن تتاح لهم الفرصة للكسب، والحصول على أكوام من المواد، دون الانتباه إلى كونها صالحة أو فاسدة، مسببة للدمار.

أنتم أيّها الكَهَنَةُ والكَتَبَةُ الجدد للهيكل الجديد، اسمعوا. الويل لكم ولمن يأتون بعدكم إذا عبدتم الأصنام ولم تسهرُوا ولم تنتبهُوا إلى ذواتكم والآخرين، المؤمنين، كي تتفحصُوا، تختبرُوا جودة الأحجار والأخشاب، دون الثقة بالمظاهر فتتسبّبون بالخراب، بسماحكم للمواد الرديئة أو الضارة بحقّ، أن تستعمل من أجل الهيكل، موقعة الشكّ ومحدثّة الخراب. الويل لكم إن تركتم الصدوع تتشكّل والأسوار غير آمنة، مائلة، سهلة الانهيار كونها غير متوازنة على أساسات صلبة وكاملة. ليس من الله، مؤسس الكنيسة، بل منكم جميعاً، ستحلّ الكارثة، وستكونون مسؤولين عن ذلك أمام الربّ والناس. اجتهد، رصد، تمييز، فطنة! إنّ الحجر، الآجرّ، العارضة الضعيفة، التي قد تخرّب جداراً ضخماً، يمكن أن تُستخدم، وتُستخدم جيّداً في الأجزاء الأقلّ أهميّة. هكذا ينبغي لكم أن تحسّنوا الاختيار. بمحبّة كيلا تنفر الأجزاء الضعيفة، بحزم كي لا ينفر الله وينهار صرحه. وإن تبيّنتم أنّ حجراً، موضوعاً في مكان يدعم زاوية أساسيّة، ليس صالحاً ولا متّزناً، فلتكن لكم الشجاعة، الجرأة، واعرفوا أن تزيلوه من ذلك المكان، شذّبوه بتحديد زواياه بإزميل الغيرة المقدّسة. إن صاح ألماً، لا يهتمّ. سيبارككم فيما بعد على مدى العصور، لأنكم تكونون قد أنقذتموه. انقلوه، كلّفوه بعمل آخر، كذلك لا تخشوا من إبعاده تماماً إن رأيتم أنّه سبب شكّ وخراب، معيقاً لعملكم. إنّ أحجاراً قليلة أفضل من حشو كثير. لا تتعجّلوا. إنّ الله لا يتعجّل أبداً، ولكنّ ما يخلقه أبدّيّ هو، لأنّه يزنه جيّداً قبل التنفيذ. وحتىّ إن لم يكن أبديّاً، فسوف يدوم مدى العصور. انظروا إلى الكون. منذ عصور، آلاف العصور، وهو كما عمله الله بعمليات متتابعة. اقتدوا بالربّ. كونوا كاملين كأبيكم. فلتكن شريعته فيكم، ملكوته فيكم، ولن تفشلوا.

ولكن إن لم يكن الأمر هكذا، فينهار الصرح وعبثاً تكونون قد تعبتُم في إقامته. سوف ينهار ولن يبقى منه سوى حجر الزاوية والأساسات... مثلاً سيحدث لهذا!... الحق أقول لكم إنَّ هذا ما سيحصل له. وهذا ما سيحدث لذاك الذي لكم إن وضعتم فيه ما هو موجود في هذا: الأجزاء المريضة بالكبرياء، بالجشع، بالخطيئة، بالفسق. ومثلاً يتبدّد من هبة ريح هذا الغمام البديع جماله، الذي كان يبدو وكأنه راسخ على قمة هذا الجبل، كذلك ستنهار الصروح التي ليس لها من القداسة سوى الاسم بهبوب ريح من العقاب فائق الطبيعة والبشري...»

يصمت يسوع مفكّراً. وعندما يعاود الكلام فلكي يأمر: «فلنجلس هنا لنرتاح قليلاً.»

يجلسون على أحد منحدرات جبل الزيتون، في مواجهة الهيكل الذي تُقبّله الشمس الغاربة. يحدّق يسوع بذلك المكان، بحزن. والآخرين بكبرياء بسبب جماله، إنّما على الكبرياء يخيم ستار من القلق الذي أضفاه كلام المعلم. وإذا كان ينبغي لهذا الجمال أن يندثر بحقّ؟...

بطرس ويوحنا يتحدّثان معاً ثمّ يهمسان بأمر ما ليعقوب بن حلفى وأندراوس، المجاورين لهما، اللذين يعبران عن موافقتهما بهزّ الرأس. حينئذ يلتفت بطرس نحو المعلم ويقول له: «تعال على حِده، وقل لنا متى تتحقّق نبوءتك حول خراب الهيكل. لقد تكلم عنها دانيال، ولكن إن كان كما قال وكما تقول أنت، فلن يكون للهيكل سوى بضعة ساعات. ولكننا لا نرى جيوشاً ولا استعدادات لحرب. متى يكون هذا إذن؟ وما ستكون العلامة على ذلك؟ أنت قد أتيت. وتقول إنك على وشك أن تمضي. ومع ذلك فالمعروف

أنّ هذا لن يحدث إلّا وأنتَ بين الناس. ستعود إذّا؟ ومتى تكون عودتك؟
اشرح لنا حتّى نعرف...»

«لا حاجة للانفراد. هل ترى؟ لقد بقي التلاميذ الأكثر وفاءً، أولئك الذين سيساعدونكم كثيراً، أنتم الاثني عشر. يمكنهم سماع الكلام الذي أقوله لكم. تعالوا كلّكم إلى جانبي!» يهتف في النهاية ليجمع الكلّ.

يدنو التلاميذ المتناثرون على المنحدر، ويشكّلون مجموعة مترابطة، ملاصقة للمجموعة الأساسيّة ليسوع ورسله، ويستمعون.

«انتبهوا ألاّ يضلّكم أحد في المستقبل. أنا هو المسيح ولن يكون هناك مسحاء آخرون. إذن عندما يأتيكم كثيرون قائلين لكم: "أنا هو المسيح"، ويضلّون كثيرين، فلا تصدّقوا كلامهم ذاك، حتّى وإن رافقته المعجزات. فالشيطان، أبو الكذب وحامي الكذابين، يساعد خدّامه والذين يتبعونه بعجائب كاذبة، والتي يمكن مع ذلك تبين أنّها ليست صالحة لأنّها دائماً مقترنة بالخوف، بالاضطراب وبالكذب. معجزات الله أنتم تعرفونها: تمنح سلاماً مقدّساً، الفرح، الخلاص، الإيمان، تقود إلى رغبات وأعمال مقدّسة. الأخرى لا. فكّروا إذّا في شكل ونتائج المعجزات التي يمكنكم رؤيتها في المستقبل والتي يجريها المسحاء الكذبة وكلّ أولئك الذين يتدنّثون بملابس مخلصي الشعوب وسيكونون على العكس ضواري تدمّرهم.

سترون وستسمعون كذلك كلاماً عن حروب وصخب حروب، وسيقولون لكم: "إنّها علامات المنتهى". لا تضطربوا: لن يكون المنتهى. فإنّه لا بدّ أن يحدث هذا كلّهُ قبل المنتهى، ولكن لن يكون المنتهى بعد. سيقوم شعب على شعب، ومملكة على مملكة، أمّة على أمّة، وقارّة على قارّة، ويتبعها

أوبئة، مجاعات، زلازل في أماكن شتى. ولكن هذه كلها لن تكون إلا مبتدأ الأوجاع. حينئذ يرمونكم في المحنة ويقتلونكم، متّهمينكم أنكم سبب آلامهم، وآملين بالخروج منها باضطهاد خدّامي وتحطيمهم. فالبشر يتّهمون دوماً الأبرياء بأنهم سبب الشرّ الذي يُحدثه الخطأ بأنفسهم. يتّهمون الله ذاته، كامل البراءة، والصالح الأسمى، أنّه السبب في آلامهم، ويتصرّفون بالمثل معكم، وستكونون مبعوضين لأجل اسمي. إنّهُ الشيطان هو الذي يحرّضهم. فيضلّ الكثيرون ويخونون بعضهم بعضاً ويمقت بعضهم بعضاً. وأيضاً هو الشيطان من يدفعهم. يقوم أنبياء كذبة يحملون كثيرين على الخطأ. كذلك الشيطان هو المؤلف الحقيقي لشرّ كثير. ولكثرة الإثم، تبرد محبة الكثيرين. إنّما من يثبت إلى المنتهى سيخلص. وقبل ذلك يجب أن يُكرز ببشرى ملكوت الله في كلّ المسكونة، شهادة لجميع الأمم. حينئذ يأتي المنتهى. العودة إلى مسيح إسرائيل الذي يتقبّله والتبشير بمذهبي في المسكونة كلها.

ثمّ علامة أخرى. علامة نهاية الهيكل ونهاية العالم. متى رأيتم رجسة الخراب التي تكلم عنها دانيال -فليفهم من يسمعي، ومن يقرأ النبيّ فليقرأ ما بين السطور- حينئذ فليهرب الذين في اليهوديّة إلى الجبال، والذي على السطح فلا ينزل ليأخذ ما له من بيته، والذي في الحقل فلا يرجع إلى البيت ليأخذ رداءه، إنّما فليهرب دون أن يلتفت إلى الوراء، حتّى لا يحصل له عدم القدرة على فعل ذلك بعد، وحتّى أثناء الهرب لا يلتفت إلى الوراء لينظر، كي لا يحتفظ في قلبه بالمنظر الرهيب فيجنّ. ويل للحبالى والمرضعات في تلك الأيام! والويل لمن كان عليه الهرب في سبت! الهرب لن يكفي ليخلص نفسه دون خطيئة. صلّوا لنلّا يكون الهرب في الشتاء أو في سبت، لأنّها ستكون حينئذ محنة شديدة لا مثيل لها منذ أول العالم إلى الآن، ولن يكون لها مثيل

لأنّه سيكون المنتهى. وإن لم تقصّر تلك الأيام لأجل المختارين، لما خلاص إنسان، لأنّ البشر-الشياطين سيتحالفون في جهنّم ليعذبوا الناس.

وحينئذ أيضاً، لإفساد الذين سيظلّون أوفياء للربّ وجذبهم خارج طريق الاستقامة، سيظهر أناس يقولون: "المسيح هناك، المسيح هنا. هو في ذلك المكان. ها هو ذا. "فلا تصدّقوا. فلا يصدّقهم أحد، لأنّه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة يصنعون عجائب وأموراً خارقة قادرة أن تضلّ المختارين أنفسهم لو أمكن. سيقولون مذاهب موافقة للغاية ظاهرياً، صالحة للغاية تضلّ حتّى الأفضل إن لم يكن معهم روح الله الذي سينير لهم الحقيقة والأصل الشيطانيّ لهذه المعجزات والمذاهب. أنا أقول ذلك لكم، أخبركم مسبقاً كي تقدروا أن تحدّدوا وجهتكم. ولكن لا تخشوا السقوط. فإن ثبتّم في الربّ، لن تنجذبوا إلى التجربة وإلى الهلاك. تذكّروا ما قلّته لكم: "لقد أعطيتكم سلطاناً أن تدوسوا الحيات والعقارب، ومن قوّة العدو كلّها، لا شيء يضرّكم، لأنّ كلّ شيء سيخضع لكم". وأذكّركم أيضاً أنّه كي تنالوا هذا يجب أن يكون الله فيكم، وعليكم أن تفرحوا، لا لأنكم تسيطرون على قوى الشرّ والأشياء المسمّمة، بل لأنّ اسمكم مكتوب في السماء.

اثبتوا في الربّ وفي حقّه. أنا هو الحقّ وأعلّم الحقّ. وبالتالي أكرّر لكم ثانية: لا تصدّقوا أيّ شيء ممّا يقال لكم عني. أنا فقط قد قلتُ الحقّ. أنا فقط أقول لكم إنّ المسيح سيأتي، ولكن عندما سيكون المنتهى. إذاً إن قالوا لكم: "ها هو في البريّة" فلا تذهبوا. وإذا قالوا لكم: "إنّه في هذا المنزل" فلا تصدّقوا. بالفعل فإنّ ابن الإنسان في مجيئه الثاني سيكون مثل البرق يخرج من المشرق وينساب إلى المغارب، في وقت أقلّ من طرفة عين. وسينساب

على الجسد العظيم الذي يصبح فجأة جثة، يتبعه ملائكته المتألقون، وسوف يدين. فحيثما ستكون جثة، فهناك تجتمع النسور.

ومباشرة بعد محنة تلك الأيام الأخيرة التي قيل لكم عنها -أتكلّم الآن عن نهاية الزمان والعالم وعن قيامة العظام التي تكلّم عنها الأنبياء- ستُظلم الشمس، ولن يعطي القمر نوراً، وكواكب السماء تتساقط مثل حبات عنقود ناضج للغاية هزّته ريح عاصفة، وقوّات السماوات ستتزعزع. وحينئذ على الجّد المظلم ستظهر علامة ابن الإنسان ساطعة، وتنوح كلّ أمم الأرض، ويرى البشر ابن الإنسان آتياً على سحاب السماء بسلطان عظيم ومجد عظيم. وسيأمر ملائكته بالحصاد والقطاف، وفصل الزّوان عن الحبوب، وإلقاء العنب في المعصرة، إذ سيكون قد آن أوان حصاد نسل آدم، ولن تعود هناك حاجة لحفظ العناقيد أو البذور، لأنّه لن يكون هناك بعد استدامة لجنس البشر على الأرض الميتة. وسيأمر ملائكته أن يجمعوا بصوت البوق العظيم المختارين من الرياح الأربع، من أقاصي السماء إلى أقاصيها، ليكونوا بجانب الديّان الإلهيّ ليدِينوا معه آخر الأحياء وأولئك الذين سيقامون من الموت.

من التينة تعلّموا المثل: فعندما ترون أغصانها قد لانت وأخرجت أوراقها، تعلمون أنّ الصيف قريب. كذلك أنتم، عندما ترون هذا كلّهُ، فاعلموا أنّ مجيء المسيح قريب. الحقّ أقول لكم: لا يمضي هذا الجيل الذي لم يقبلني حتّى يكون هذا كلّهُ. كلمتي لن تسقط. ما أقوله سيكون. يمكن لقلب وفكر البشر أن يتغيّرا، ولكنّ كلامي لا يتغيّر. السماء والأرض تزولان، ولكنّ كلامي لا يزول.

أما متى ذلك اليوم وتلك الساعة بالتحديد، فلا يعلمهما أحد، ولا حتى ملائكة الرب، وحده الآب يعلم. وكما في زمان نوح، كذلك سيكون الأمر في مجيء ابن الإنسان. في الأيام التي سبقت الطوفان، كان البشر يأكلون ويشربون ويتزوّجون ويسكنون، دون اكتراث بالعلامة إلى يوم دخل نوح الفلك وانفتحت طاقات السماء وغمر الفيضان كلّ الأحياء وكلّ شيء. هكذا أيضاً سيكون بالنسبة لمجيء ابن الإنسان. حينذاك يكون اثنان في حقل، الواحد بجانب الآخر، فيؤخذ الواحد ويترك الآخر، واثنان تديران الرحى، فتؤخذ الواحدة وتترك الأخرى، من قبل أعداء الوطن وبالأكثر من الملائكة التي تفصل البذور الجيدة عن الزؤان، ولن يكون لهم الوقت للاستعداد لدينونة المسيح.

فاسهروا إذاً لأنكم لا تعلمون في أية ساعة سيأتي ربكم. أعيدوا التفكير بهذا: لو علم رب الأسرة في أية ساعة يأتي السارق، لسهر ولم يدع بيته ينقب. اسهروا إذاً وصلّوا، دائمي الاستعداد لمجيئه، دون أن يسقط قلبكم في الغفلة، بفعل تعديّات وإفراط من كلّ نوع، ولا تكن أرواحكم مشتتة ومغلقة أمام الأمور السماوية بالاهتمام الزائد بأمور الأرض، وحتى لا تأخذكم حبال الموت بغتة وأنتم غير مستعدين. إذ، تذكّروا، الجميع مصيرهم الموت. كلّ البشر، منذ ولادتهم، مقدّر لهم أن يموتوا، وهذا الموت والدينونة اللاحقة هي مجيء خاص للمسيح، وسيكرّر ثانيةً لكلّ البشر بالمجيء المهيّب لابن الإنسان.

ماذا يا ترى سيكون أمر ذلك العبد الأمين واليقظ، الذي أقامه سيّده كي يتولّى إطعام أهل بيته أثناء غيابه؟ مصير مغبوط مصيره، إذا ما جاء سيّده

بغته، يجده يفعل ما ينبغي باهتمام وبرّ ومحبة. الحقّ أقول لكم إنّهُ سيقول له: "تعال أيّها العبد الصالح الأمين. أنتَ مستحقّ لثوابي. خذ، كن قيماً على كلّ خيراتي". أمّا إن كان في الظاهر طيباً وأميناً، دون أن يكون كذلك، وداخلياً كان رديئاً كما هو في الظاهر منافق، وبعد رحيل سيّده قال في قلبه: "سيبطني السيّد في العودة! فلنستمتع"، فجعل يضرب ويسيء معاملة الخدّام رفاقه، مستغلاً إيّاهم في طعامهم ويفعل كلّ الأمور لينال مالاً أكثر ينفقه في العربة والسُّكر، فماذا سيكون من أمره؟ سيأتي المعلّم بغته، وفي وقت لا يظنّه العبد بهذا القرب، فيُكشَف مسلكه الرديء، ويُنزع منه موقعه والمال، ويُطرَد إلى حيث يقتضي العدل، ويبقى هناك.

هكذا يكون مع الخاطيء غير التائب، الذي لا يتساءل كم هو الموت قريب وكم هي قريبة دينونته، فيتمتّع ويغالي قائلاً: "سوف أتوب فيما بعد". الحقّ أقول لكم بأنّه لن يكون له وقت لذلك وسيُدان بالبقاء أبدياً في مكان الرعب الرهيب، حيث لا يكون إلّا اللعنات، الدموع والعذابات، وسيخرج فقط للدينونة الأخيرة، حينما يلبس جسده القائم ليمثل بكليّته في الدينونة الأخيرة، كما أخطأ بكلّ كيانه في زمن حياته الأرضيّة، وسيمثل بجسده ونفسه أمام الديّان يسوع الذي لم يقبله كمخلّص.

الجميع سيمثلون أمام ابن الإنسان. عدد لا متناه من الأجساد، مستعادة من الأرض والبحر ومعاد تشكيلها بعد أن كانت تراباً لزمن طويل، والأرواح في الأجساد. ولكلّ جسد أُعيد إلى هيكله العظميّ روحه الخاص به الذي أحياه ذات مرّة. وسوف يقفون أمام ابن الإنسان، المتألّق في جلاله الإلهي، جالساً على عرش مجده الذي تحمله ملائكته.

وهو سيفصل البشر عن بعضهم، واضعاً الأخيار في جانب وفي الآخر الأشرار، مثلما يفصل الراعي النعاج عن الكباش، فيقيم النعاج عن اليمين والكباش عن اليسار. وبصوته العذب وهيئته اللطيفة يقول لهؤلاء الهادئين ذوي الجمال الممجّد في ألق جسد مقدّس، وهم ينظرون إليه بكلّ ما في قلوبهم من محبة: "تعالوا أيا مباركى أبى، رثوا الملكوت المُعدّ لكم منذ إنشاء العالم. لأنّى جعتُ فأطعمتمونى، عطشتُ فسقيتمونى، كنتُ غريباً فأويتمونى، عرياناً فكسوتهمونى، مريضاً فزرتهمونى، محبوساً فأتيتم لتواسوننى". فيسأله الأبرار: "يا ربّ، متى رأيناك جائعاً فأطعمناك، أو عطشانا فسقيناك؟ متى رأيناك غريباً فأويناك، عرياناً فكسوناك؟ ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتيانا لزيارتك؟" فيقول لهم ملك الملوك: "الحقّ أقول لكم: إنكم عندما فعلتم إحدى تلك الأمور لأحد أصاغر إخوتي فلي أنا فعلتموه."

ثمّ سيلتفت للذين سيكونون عن يساره وسيقول لهم بصرامة، ونظراته ستكون كسهام تصعق المدانين، وفي صوته سيهدر غضب الله: "اخرجوا من هنا! بعيداً عنّى أيا ملاعين! إلى النار الأبدية المُعدّة من غضب الله للشيطان وملائكة الظلمات، والذين استمعوا لهم، بصوتهم مثلث الأهواء والفاحش. لقد جعتُ فلم تطعمونى. عطشتُ فلم تسقونى. كنتُ عرياناً فلم تكسونى، كنتُ غريباً فلم تؤوونى، مريضاً ومحبوساً فلم تزورونى، لأنّ ليس فيكم سوى شريعة واحدة: متعة أناكم الخاصة". وهم سيقولون له: "متى رأيناك جائعاً، عطشانا، عرياناً، غريباً، مريضاً، محبوساً؟ ففي الحقيقة نحن لم نعرفك، ولم نكن نحن حينما كنت أنت على الأرض". فيجيبهم: "هذا صحيح. فأنتم لم تعرفونى، لأنكم لم تكونوا حينما كنت أنا على الأرض. ولكنكم مع ذلك عرفتم كلمتي وكان بينكم فقراء، جياع، عطاش، عراة، مرضى، سجناء.

فلماذا لم تفعلوا لهم، ما كان من الممكن أن تفعلوه لي؟ فما من أحد قال إنّ أولئك، الذين حظوا بي بينهم، قد كانوا رحومين تجاه ابن الإنسان. ألم تكونوا تعلمون أنني في إختي، وأني حيث يتألم واحد منهم، وأنّ ما لم تفعلوه لأحد إختي الأكثر تواضعاً، قد رفضتم أن تفعلوه لي أنا، بكر البشر؟ اذهبوا واحترقوا في أنايتكم. اذهبوا ولتلفكم الظلمات والجليد لأنكم ظلمات وجليد كنتم، رغم علمكم أين كان النور ونار المحبة". فيذهب هؤلاء إلى العذاب الأبدي، بينما الأبرار يلجئون إلى الحياة الأبدية.

تلك هي الأمور المستقبلية...

الآن امضوا. ولا تتفرّقوا عن بعضكم. أنا ماضٍ مع يوحنا وسأكون معكم في منتصف الهزيع الأول، للعشاء ومن ثمّ لاستئناف التعليم.»

«هذا المساء أيضاً؟ هل سنفعل ذلك كلّ مساء؟ إنّ الندى يضرّ بي جدّاً. أليس من الأفضل أن ندخل أحد المنازل المضيفة؟ دائماً تحت الخيام! دائماً السهر أثناء الليالي، الباردة والرطوبة...» يقول يهوذا متذمّراً.

«هذه آخر ليلة. غداً... سيكون الأمر مختلفاً.»

«آه! كنتُ أظنّك تريد الذهاب كلّ ليلة إلى جثسيماني. ولكن إن كانت الأخيرة...»

«لم أقل هذا يا يهوذا. لقد قلتُ إنّ هذه ستكون آخر ليلة نقضيها في معسكر الجليليين كلّنا معاً. غداً، سوف نعدّ الفصح ونأكل الحمل، ثمّ سأمضي بمفردي للصلاة في جثسيماني. وأنتم سيكون بإمكانكم أن تفعلوا ما تشاؤون.»

«بل سنأتي معك يا رب! متى ترانا قد أردنا أن نتركك؟» يقول بطرس.

«أنت أصمت، أيها الخاطيء. فأنت والغيور لا تفعلان شيئاً سوى القفز هنا وهناك، ما إن لا يعود المعلم يراكما. إنني أبقيكما تحت نظري. في الهيكل... أثناء النهار... تحت الخيام، هناك...» يقول الاسخريوطي سعيداً بالوشاية بهما.

«كفى! إن قاما بهذا فحسناً يفعلان. ومع ذلك لا تتركوني وحيداً... أرجوكم...»

«يا رب، لم نفعل شيئاً سيئاً. ثق بذلك. إن الله يعلم أفعالنا ولا يشيح وجهه عنها باشمئزاز.» يقول الغيور.

«أعلم ذلك، ولكن دون جدوى. وغير المجدي قد يكون ضاراً دائماً. ابقوا بقدر المستطاع متّحدين.» ثم يتوجّه إلى متى: «أنت، الإخباري الجيد، سوف تعيد على هؤلاء مثل العذارى العشر الحكيمات والعذارى العشر الجاهلات، ومثل السيّد الذي أعطى الوزنات لعبيده الثلاثة لاستثمارها، والاثنتين الرابحين الضعف والكسول الذي دفن التي له. هل تذكره؟»

«نعم يا رب، تماماً.»

«إذا كرّرها لهؤلاء. فليس الجميع يعرفونهما. وحتى من يعرفوهما سيسعدون بسماعهما مجدداً. اقضوا الوقت هكذا في محادثات حكيمة إلى حين عودتي. اسهروا! اسهروا! احفظوا أرواحكم ساهرة. هذان المثالان موافقان لما أقوله. وداعاً. ليكن السلام معكم.»

يمسك يد يوحنا ويتوجّه معه إلى المدينة... والآخرين ينطلقون صوب
معسكر الجليليين.

1- الرؤيا وردت في دفاتر 1944 [رؤيا 05 / 25].

2- سفر التكوين [3-15].

3- سفر إشعياء [7-14].

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

11- (الأربعاء السابق للفصح، II- الليل)

1945 / 03 / 08

«لقد قلتُ لكم: "كونوا متيقّظين، اسهروا وصلّوا حتّى لا تجدوا أنفسكم مثقلين بالنعاس". ولكّني أرى عيونكم المتعبة تميل إلى الإغماض، وأجسادكم، دون إرادتكم، تسعى إلى وضعيّة الاستراحة. أنتم على حقّ، يا أصدقائي المساكين! إنّ معلّمكم قد طلب منكم الكثير هذه الأيام، وأنتم متعبون للغاية. ولكن خلال بضعة ساعات، بضعة ساعات من الآن، ستسرّون لأنكم لم تضيعوا ولا حتّى دقيقة واحدة بعيداً عني. ستسرّون لأنكم لم ترفضوا شيئاً ليسوعكم؟ وعلى كلّ حال، هذه آخر مرّة أكلمكم عن هذه الأمور المبكية. غداً سأكلّمكم عن المحبّة وسأجترح لكم معجزة كلّها محبّة. أعدّوا أنفسكم بتطهّر عظيم لتقبّلها. آه! كم يوافق الأنا الذي لي بالأكثر أن أكلمكم عن المحبّة أكثر من العقاب! كم هو عذب لي أن أقول: "أحبّكم. تعالوا. حلّمتُ طوال حياتي بهذه الساعة!" ولكن من المحبّة أيضاً الحديث عن الموت. إنّهُ محبّة، لأنّ الموت من أجل من نحبّ هو أسمى إثبات للمحبّة. محبّة هي، لأنّ إعداد الأصدقاء الأعزّاء للفاجعة هو فطنة ودودة تريدهم مستعدّين وغير مذعورين في تلك الساعة. محبّة هي، لأنّ انتمان سرّ هو إثبات للتقدير الذي يكلّمه المرء للذين يأتّمّنهم عليه. أعلم أنّكم انهلتم على يوحنا بالأسئلة لمعرفة ما كنتُ أقوله له عندما لبثتُ معه بمفردي. ولم تصدّقوا أنّه لم يكن من كلام. ولكن هذا ما حدث. كفاني أن يكون أحد بجانبني...»

«إذاً، لماذا هو وليس آخر؟» يسأل الاسخريوطي بتعالٍ ساخط.

كذلك بطرس ومعه توما وفيلبس يقولون: «نعم. لماذا له وليس للآخرين؟»

يسوع يجيب الاسخريوطي: «هل ترغب في أن تكون أنت؟ هل يمكنك المطالبة بذلك؟»

كان صباحاً بارداً من آذار [مارس]... كنتُ عابر سبيل مجهولاً على الطريق قرب النهر... متعباً، مغطّى بالغبار، شاحباً بفعل الصوم، غير مشدّب اللحية، نعلي مثقوب، كنتُ شبيهاً بشحاذ على دروب العالم... هو رأي... وعرف أنني أنا من نزلت عليه حمامة النار الأزلي. في هذا التجلي الأول لي كُشِفَتْ بالتأكيد ذرّة واحدة من إلهيّي المتألّقة. والعينان اللتان فتحتهما توبة المعمدان، واللذان حفظهما الطهر ملائكتين، رأتا ما لم يره الآخرون. والعينان الطاهرتان حملتا تلك الرؤيا في تابوت عهد القلب، لتضمّنها مثل لؤلؤة في صندوق جواهر... ولما رمقتا بعد حوالي الشهرين المسافر الرث، تعرّفت نفسه علي... كنتُ حبه، حبه الأول والوحيد. والحبّ الأول والوحيد لا يُنسى. فالنفس تشعر بمجيئه، حتّى وإن كان بعيداً، تشعر به مقبلاً من مسافات بعيدة، وترتتش فرحاً، وتوقظ العقل، وهذا يوقظ الجسد، كي يتشارك الكلّ في وليمة فرح التلاقي والتحابّ. وقد قال لي الفم المرتعش: "أحييك يا حَمَل الله". آه! يا لإيمان الأطهار، كم أنت عظيم! كم تتجاوز العوائق كلّها! لم يكن يعرف اسمي. مَنْ أكون؟ مِنْ أين كنتُ آتياً؟ ماذا كنتُ أفعل؟ هل كنتُ ثرياً؟ فقيراً؟ هل كنتُ حكيماً؟ جاهلاً؟ هل يهتمّ الإيمان معرفة كلّ ذلك؟ هل تزيد الإيمان هذه المعرفة أو تنقصه؟ هو كان يؤمن بما كان السابق قد قاله له. ومثل نجم يرتحل بأمر الخالق، من سماء إلى أخرى، انفصل عن سمائه: المعمدان، من كوكبته. وأتى إلى سمائه الجديدة: المسيح،

في كوكبة الحَمَل. لم يكن أكبر النجوم، ولكنه أجملها والأكثر طهرًا في كوكبة المحبة.

مرّت سنوات ثلاث منذ ذلك الحين. النجوم، الكبيرة منها والصغيرة، انضمت إلى كوكبتي ثم انفصلت عنها. البعض منها سقط ومات. والبعض صار مدخنًا بفعل أبخرة ثقيلة. أمّا هو فقد بقي ثابتاً بنقاء نوره بقرب نجمه القطبي. دعوني أنظر إلى نوره. نوران سيكونان في ظلمات المسيح: مريم ويوحنا. ولكني بالكاد سأستطيع رؤيتهما، لأنّ ألمي سيكون عظيماً. دعوني أطبع في مقلتي هذه القزحيّات الأربع التي هي قطع من السماء بين أهدابها الشقراء، كي أحملها معي، إلى حيث لا أحد سيمكنه المجيء، ذكرى من الطهارة. إنّ الخطيئة كلّها! كلّها على كتفيّ الإنسان! آه! آه! تلك القطرة من الطهر!... أمّي! يوحنا! وأنا!... الغرقى الثلاثة الطافون في غرق الإنسانية في بحر الخطيئة!

ستأتي الساعة التي فيها، أنا سليل ذرية داود، سأنوح بتنهيدة داود القديمة: "إلهي التفت إليّ. لماذا تركتني؟ صرخات الجرائم التي حملتها عليّ عن الجميع أبعدتني عنك... أنا دودة، لم أعد إنساناً، عار البشر، وسقط عامّة الشعب." واسمعوا إشعياء: "أسلمتُ جسدي للذين كانوا يضربونه، وخديّ للذين كانوا ينتفون لحيتي، لم أبعد وجهي عن الذين كانوا يشتمونني ويغطّونني بالبصاق." واسمعوا داود من جديد: "أحاطت بي عجل كثيرة، ثيران كثيرة هاجمتني. فغروا عليّ أفواههم ليمزّقوني إرباً كأسود تفترس وتزأر. أنا كالماء انسكبتُ." ويكمل إشعياء: "صَبَغْتُ بنفسي ثيابي". آه ثيابي، من ذاتي صَبَغْتُها، وليس من غيظي، ولكن بألمي وبمحبّتي لكم. مثل حجرٍ الرحي، يعصرونني ويريقون دمي. لستُ مختلفاً عن العنقود الذي يُعصر،

الذي بجماله يدخل المعصرة، ويوم يعصر يصبح سحقاً بلا عصارة ولا جمال.

وعن قلبي أقول مع داود: "صار مثل الشمع وذاب في صدري". آه! ما الذي أصبحت عليه الآن أيها القلب الكامل لابن الإنسان؟ أصبحت شبيهاً بالذي أنهكته حياة طويلة في العربة وأفقدته حيويته. يبست كل حيويتي. ولساني لصق بحنكي بتأثير الحمى والاحتضار. وتقدم الموت برماده الذي يخنق ويعمي.

وأيضاً ما من رحمة! "تحيط بي عصابة، زمرة كلاب تحاصرني وتعضني. وتقع العضات فوق الجراح، وعلى العضات ضربات العصي. لا مكان من جسدي لم يطله الألم، العظام تطلق، وتتخلع بتمزق شنيع. لا أعرف أين أسند جسدي، الإكليل المخيف دائرة من نار تخرق رأسي. معلق من يدي ورجلي المثقوبة. مرفوع أنا في الهواء، أعرض جسدي للعالم، ويمكن للجميع أن يحصوا عظامي..."»

«اصمت! اصمت!» يقول يوحنا منتحباً.

«لا تقل المزيد! أنت تجعلنا نلفظ أنفاسنا!» يتوسل ابنا العم.

أندراوس لا يتكلم، ولكنه يضع رأسه بين ركبتيه ويبكي بصمت. سمعان ممتقع. يبدو أن بطرس ويعقوب بن زبدي يتعذبان. فيلبس، توما، برتلماوس، يبدون ثلاثة تماثيل حجريّة تُعبر عن الضيق.

يهوذا الاسخريوطي قناع مرعب، شيطاني. يبدو وكأنه مدان قد فهم أخيراً ما فعله. فمه مفتوح ليطلق صرخة تدوي في أناه دون أن تخرج من حلقه الذي يضيق، عيناه كأنهما لمجنون موسّعتان مذعورتان، الخدان

شاحبان تحت الستار الأسمر للحيته المحلوقة، شعره مشعث إذ إنه من وقت لآخر يمرر يده فيه، يتصبّب منه عرق بارد، ويبدو وكأنّه على وشك الإغماء.

متى وهو يرفع بصره المذهول باحثاً عن معونة لعذابه، يراه ويقول: «يهودا! هل تشعر بسوء؟... يا معلّم، يهوذا يتألّم!»

«وأنا أيضاً.» يقول المسيح. «إنّما أنا أتألّم بسلام. تحوّلوا أرواحاً [تروحنوا] لتتمكّنوا من تحمل هذه الساعة. من كان مجرد "لحم" لا يمكنه تحملها دون أن يصاب بالجنون...

يتكلّم داود أيضاً وهو يرى عذابات مسيحه: "ولم يسرّوا بعد، يتفرّسون فيّ هازئين ويقتسمون ما سلبوه منّي مقترعين على ردائي. أنا الشرير. هذا حقّهم."

آه! يا أيتها الأرض، انظري إلى مسيحيك! اعرفي أن تتعرّفي عليه، حتّى وإن يكن مُحطّماً هكذا. اسمعي، تذكّري أقوال إشعياء وافهمي السبب، السبب الأعظم، الذي لأجله أصبح هكذا، واستطاع الإنسان أن يقتل، أن يحيل كلمة الآب إلى هذه الحالة. "لا جمال له ولا بهاء، لقد رأينا. هيئته كانت بغير جمال ولم نحبه. مزدري، كأحقر الناس، هو، رجل الأوجاع وقد اعتاد الألم، كان يستر وجهه. كان مذموماً ونحن لم نعبأ به". لقد كان جماله كفادي، قناع المعذب هذا. أمّا أنتِ، أيتها الأرض الغبيّة، كنتِ تفضّلين وجهه الصافي! "حقاً قد أخذ عاهاتنا، وحمل أوجاعنا. ونحن نظرنا إليه وكأنّه أبرص، كأنّه ملعون من الله ومزدري. وهو، على العكس، جرح لأجل معاصينا. عليه وقع العقاب المحفوظ لنا، العقاب الذي يعيد منحنا السلام مع الله. بجراحاته شفيينا.

كُنَّا كَالنَّعَاجِ الضَّالَّةِ. كُلَّنَا ضَلَلْنَا الطَّرِيقَ الْقَوِيمَ وَالرَّبَّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا". إِنَّ الَّذِي، الَّذِينَ يَفْكَرُونَ أَنَّهُمْ نَافِعُونَ لَأَنْفُسِهِمْ وَلِإِسْرَائِيلَ فَلْيَفْقِدُوا أَوْهَامَهُمْ. وَكَذَلِكَ الَّذِينَ يَفْكَرُونَ أَنَّهُمْ أَقْوَى مِنَ اللَّهِ. وَكَذَلِكَ الَّذِينَ يَفْكَرُونَ أَنَّ لَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكْفُرُوا عَنْ هَذِهِ الْخَطِيئَةِ فَقَطْ لِأَنِّي تَرَكْتُهُمْ يَقْتُلُونَنِي طَوْعاً. أَنَا أَكْمَلُ مَهْمَّتِي الْمَقْدَسَةَ، الطَّاعَةَ الْكَامِلَةَ لِلَّابِ. لَكِنَّ هَذَا لَا يَسْتَبْعِدُ طَاعَتَهُمُ لِلشَّيْطَانِ وَعَمَلَهُمُ الشَّنِيعَ. نَعَمْ. لَقَدْ ضَحَّيْتُ بِفَادِيكَ لِأَنَّهُ هُوَ أَرَادَ ذَلِكَ أَيَا أَيْتِهَا الْأَرْضُ: "لَمْ يَفْتَحْ فَاهُ يَتَوَسَّلُ عَذَاباً أَقْلَ، وَلَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ لَعْنَةً لِقَتْلِهِ. كَشَاةً سَيَقُ إِلَى الْمَسْلُخِ لِيُنْحَرَ، وَكَحَمَلٍ صَامَتٍ تَرَكَ نَفْسَهُ يَسَاقُ إِلَى الَّذِي يَجْزُهُ."

"بَعْدَ إِلْقَاءِ الْقَبْضِ عَلَيْهِ وَإِدَانَتِهِ رُفِعَ. لَنْ تَكُونَ لَهُ ذَرِيَّةٌ. كَنْبَتُهُ قَدْ قُطِعَ مِنْ أَرْضِ الْأَحْيَاءِ. اللَّهُ ضَرَبَهُ لِأَجْلِ خَطَايَا شَعْبِهِ. أَلَنْ يَبْكِيهِ أَحَدٌ مِنْ ذَرِّيَّتِهِ مِنْ أَرْضِهِ؟ أَلَنْ يَكُونَ لَهُ أَبْنَاءُ ذَاكَ الَّذِي قُطِعَ مِنْ الْأَرْضِ؟"

آه! أَنَا مَنْ أَجْبِيكَ أَيَا نَبِيِّ مَسِيحِكَ. إِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَى شَعْبِي مِنْ دُمُوعٍ لِأَجْلِ الْمَقْتُولِ الْبَرِيِّ، فَمَلَايِكَةُ الشَّعْبِ السَّمَائِيِّ سَتَبْكِيهِ. إِنْ لَمْ يَكُنْ لِرَجُولَتِهِ مِنْ أَبْنَاءٍ بَشَرِيًّا، لِأَنَّ طَبِيعَتَهُ لَمْ تَكُنْ لَتَتَّحِدَ بِجَسَدٍ قَابِلٍ لِلْمَوْتِ، فَسَيَكُونُ لَهُ أَبْنَاءُ وَبِأَعْدَادٍ كَبِيرَةٍ لِذَرِيَّةٍ لَيْسَتْ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ حَيَوَانِيٍّ، بَلْ ذَرِيَّةٌ تَكُونُ لَهَا حَيَاةٌ مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ مَحَبَّتِهِ وَدَمِهِ الْإِلَهِيِّ، ذَرِيَّةُ الرُّوحِ تَجْعَلُ سَلَالَتَهُ أَبَدِيَّةً.

أَيُّهَا الْعَالَمُ، الَّذِي لَا يَفْهَمُ النَّبِيَّ، أَفْسَرْ لَكَ الْمَزِيدَ. مَنْ هُمُ الْأَثْمَةُ الْمُرْسَلُونَ لِدَفْنِهِ وَالْغَنِيِّ لِمَوْتِهِ. انْظُرْ أَيُّهَا الْعَالَمُ، إِنْ كَانَ وَاحِدٌ فَقَطْ مِنَ الَّذِينَ قَتَلُوهُ قَدْ نَالَ السَّلَامَ وَحَيَاةً مَدِيدَةً! هُوَ، الْحَيِّ، سَرَعَانَ مَا سَيُغَادِرُ الْمَوْتَ. وَلَكِنْ، مِثْلَ أَوْرَاقٍ تَدْفِنُهَا رِيحُ الْخَرِيفِ وَاحِدَةً إِثْرَ أُخْرَى فِي حُفْرَةِ الثَّلَمِ بَعْدَ نَزْعِهَا بِهَبَّاتٍ مُتَكَرِّرَةٍ، فَوَاحِدٌ إِثْرَ وَاحِدٍ سَيُرْقَدُونَ قَرِيباً فِي قَبْرِ قَبِيحٍ مُعَدٍّ لَهُ؛ وَوَاحِدٌ مِنْهُمْ إِذَا عَاشَ لِأَجْلِ الذَّهَبِ، يُمْكِنُهُ، لَوْ كَانَ مَسْمُوحاً أَنْ يَوْضَعَ الْقَدْرَ

حيث كان القدّوس، يمكنه أن يوضع حيث ما تزال رطوبة الجراح التي لا تحصى التي من الضحية المذبوح على الجبل.

إذ اتّهم بلا ذنب، فالله ينتقم له، ذلك أنّه لم يوجد في فمه غشّ ولا في قلبه إثم. لقد أنهكتة الآلام. إنّما ما أن يُنْهَكَ، وتقطع حياته بذبيحة التكفير، فسيبدأ مجده بالنسبة للذين سيأتون في المستقبل. كلّ رغبات الله وإراداته المقدّسة بخصوصه ستتحقّق. وبسبب انقباضات نفسه، سيرى مجد شعب الله الحقيقيّ ويُسرّ به. مذهب السماويّ الذي سيختمه بدمه، سيبرّر كثيرين من بين النخبة، وسيأخذ عليه إثم الخطأة. ولذلك سيكون له جمهور عظيم، أيا أيتّها الأرض، هذا المَلِك غير المعروف الذي هزء به الغادرون، والذي لم تفهمه النخبة. ومع أتباعه سيتقاسم غنيمة المهزومين. سيتقاسم غنيمة الأقوياء، هو القاضي الوحيد للممالك الثلاث وللملكوت.

هو استحقّ كلّ شيء لأنّه أعطى كلّ شيء. سيُسَلَم إليه كلّ شيء لأنّه أسلم حياته للموت وأُحصي مع الأثمة، هو الذي كان بلا خطيئة. بلا خطيئة أخرى سوى محبة كاملة وصلاح لامتناه. خطيئتان لا يغفرهما العالم، محبة وصلاح دفعاه إلى أن يحمل خطايا كثيرين، من العالم بأكمله، وأن يصلّي من أجل الخطأة. من أجل كلّ الخطأة. حتّى أولئك الذين أسلموه إلى الموت.

لقد أتممت كلامي. ليس لديّ شيء آخر أقوله. كلّ ما كنتُ أريد قوله لكم عن النبوءات المَسِيَّانِيَّة قد قيل. من ميلادي حتّى موتي، لقد سلّطتُ النور على كلّها، كي تعرفوني ولا تشكّوا. ولا يكون لكم عذر لخطيئتكم.

الآن لنصلّ معاً. إنّهُ آخر مساء يمكننا فيه أن نصليّ هكذا، متّحدين كلّنا كحبات العنب في العنقود الذي يحملها. تعالوا. لنصلّ: "أبانا الذي في

السموات، ليتقدّس اسمك. ليأت ملكوتك. لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض. خبزنا كفافنا أعطنا اليوم. اترك لنا ديوننا كما نحن نتركها للمدينين لنا. لا تُدخلنا¹ في التجربة ولكن نجّنا من الشرير. آمين".

"ليتقدّس اسمك". أيّها الآب، لقد قدّسته. الرحمة لمن هو من مصدرك.

"ليأت ملكوتك". من أجل إقامته أموت. ارحمني.

"لتكن مشيئتك". أعن ضعفي، أنت يا مَنْ خلقت جسد الإنسان وألبسته لكلمتك كيما أطيعك هنا على الأرض مثلما أطعتك دائماً في السماء. ارحم ابن الإنسان.

"أعطنا الخبز... خبزاً للنفس، خبزاً ليس من هذه الأرض. لست أطلبه من أجلي. لم أعد محتاجاً إلاّ لتعزيتك الروحية. ولكن من أجلهم، أنا المستعطي، أمدّ يدي. وعمّا قليل سوف تُثَقِّب وتُعلّق، ولن تعود قادرة على أن تقوم بإشارة حبّ. أمّا الآن فما زالت تقدر، امنحني يا أبي أن أعطيهم الخبز الذي يقوّي كلّ يوم ضعف أولاد آدم المساكين. إنهم ضعفاء يا أبي، ذليلون هم، لأنّ ليس لهم الخبز الذي هو قوّة، الخبز الملائكي الذي يروحن الإنسان ويقوده إلى التألّه فينا.

"اترك لنا ديوننا..."»

يسوع الذي تكلم واقفاً وصلّى فاتحاً ذراعيه، يركع الآن ويرفع ذراعيه ووجهه نحو السماء. وجهاً ابيضّ من قوّة التضرّع وقُبلة القمر، وجهاً خطّته دموع صامّة.

«اغفر لابنك أيا أبت إن قصّر تجاهك في شيء. أمام كمالك قد أبدو ناقصاً أيضاً، أنا، مسيحك، الذي أثقله الجسد. أمام الناس... لا. ذكائي الفطن

يؤكد لي أنني عملت من أجلهم كل شيء. ولكن أنت اغفر ليسوعك... أنا أيضاً أغفر. لكي تغفر لي أنا أغفر. كم عليّ أن أغفر! كم!... ومع ذلك أغفر. للحاضرين، للتلاميذ الغائبين، لأولئك أصحاب القلب الأصم، للأعداء، للساخرين، للخائنين، للقتلة، لقاتلي الله... ها قد غفرت لكل البشرية. فيما يخصني، أيا أيها الآب، أعتبر أن كل ديون الإنسان للإنسان لاغية. لمنح ملكوتك للجميع أموت، ولا أريد أن تحسب الخطيئة ضد المحبة المتجسدة للإدانة. لا؟ تقول لا؟ إنه ألمي. هذه الـ "لا" تسكب في قلبي أول جرعة من الكأس المريع. ولكن أيها الآب الذي أطعته على الدوام، أقول لك: "ليكن كما تشاء".

"لا تدخلنا¹ في التجربة". آه! إن شئت، فأنت قادر أن تبعد الشيطان عنا! فإنه هو التجربة التي تحرّض الجسد، العقل، القلب. هو المضلّ. أبعد يا أبي! فليجعله رئيس ملائكتك، لصالحنا، يهرب، ذاك الذي من الميلاد إلى الموت، يهدّدنا! آه أيها الآب القدّوس، ارحم أبناءك!

"نجّنا، نجّنا من الشرّير!" أنت قادر على ذلك. نحن هنا نبكي... السماء جميلة للغاية ونحن نخشى أن نفقدها. أنت تقول: "قدّيسي لا يمكن أن يفقدها". ولكنني أريدك أن ترى في الإنسان، بكر البشر. أنا أخوهم. أصلي من أجلهم ومعهم. أيها الآب، الرحمة! آه! الرحمة!...»

ينحني يسوع وصولاً إلى الأرض. ثم ينهض: «هيا بنا. فلنسلّم على بعضنا هذا المساء. غداً مساءً لن تكون لنا إمكانيّة لذلك. سنكون في غاية الاضطراب، ولا محبة حيث الاضطراب. فلنتبادل قبلة السلام. غداً... غداً يكون كلٌّ لنفسه... هذا المساء ما زلنا قادرين على أن يكون الواحد للكلّ والكلّ للواحد.»

ويقبلهم واحداً فواحداً، مبتدئاً ببطرس، ثمّ متى، سمعان، توما، فيلبس، برتلموس، الاسخريوطي، ابني العم، يعقوب بن زبدي، أندراوس وأخيراً يوحنا، الذي يبقى مستنداً عليه أثناء الخروج من جثسيماني.

1- الجمعية العامة للمؤتمر الأسقفي الإيطالي في الدورة 72 بتاريخ (15 نوفمبر 2018) في بيانها الختامي: [\(رابط البيان\)](#)، وافقت على تعديل المقطع الأخير من صلاة الأبانا ليصبح: "لا تتركنا نتعرض للتجربة" (Non abbandonarci alla tentazione). بدلاً من: "لا تُدْخِلْنَا في تجربة" (Non ci indurre in tentazione). وقد صادق قداسة البابا فرنسيس على هذا التعديل ضمناً في المقابلة العامة يوم (الأربعاء 1 مايو 2019). [\(رابط المقابلة\)](#).

----- [\(عودة إلى الفهرس\)](#) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

12- (الخميس السابق للفصح، ا- النهار)

1947 / 04 / 03

صباح جديد. صاف جداً! مُفرح جداً! لم يعد هناك ولا حتى السُحُب النادرة التي كانت تطوف بالأمس على مهل عبر زرقة السماء. لم تعد هناك كذلك الحرارة الثقيلة التي كانت مضنية جداً بالأمس. نسمة رقيقة تلمح الوجوه. تحمل شيئاً من عطر الزهور، القش، الهواء النقي. وتُحرّك ببطء أوراق الزيتون. تحسبها تريد أن تُعرب عن إعجابها بلون الأوراق الصغيرة الرمحية الفضّي، وتنتثر زهوراً صغيرة، بريئة، عطّرة، على قدميّ المسيح، على رأسه الأشقر، تُقبّله، تُنعشه، إذ لكلّ كأس زهرة ناعم قطرته الصغيرة من الندى، فتُقبّله، تُنعشه ثمّ تموت قبل أن ترى الهول المُحْدِق. وتميل أعشاب المنحدرات لتحرك التويجات، البراعم، والأوراق العريضة لآلاف الأزهار. نجوم ذوات قلب من ذهب، الأحيوانات الكبيرة البرية تستقيم على سوقها كما لتُقبّل اليد التي ستُقبّل، وزهور اللؤلؤ والبابونج تُقبّل القدمين الكريمتين، اللتين لن تتوقفا عن المشي من أجل خير البشر إلا حينما تُسمّرا كي تمنحنا خيراً أسمى بعد، وزهر النسرين يفوح عطره والزعرور الذي لم تعد له أزهار يُحرّك أوراقه المطرّزة. يبدو وكأنّه يقول: «لا، لا.» لأولئك الذين سيستخدمونه في تعذيب الفادي. و«لا.» يقولها أيضاً قصب القدرين. هو كذلك لا يريد أن يضرب، فأرادتها كأشياء صغيرة لا تريد إلحاق الأذى بالرب. وربما كذلك حجارة المنحدرات تغتبط لكونها خارج المدينة، في بستان الزيتون، كي لا تجرح هكذا الشهيد. ويبكي اللبلاب الرقيق الورديّ،

الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يَحِبُّهُ كَثِيرًا، وَكَذَلِكَ الْأَكَاسِيَا الْبَرِيَّةُ كَعَنَاقِيدٍ مِنَ الْفَرَاشَاتِ الْمَتَجَمِّعَةِ عَلَى سَاقٍ. رُبَمَا تَفَكَّرَ: «لَنْ نَرَاهُ بَعْدَ». وَزَهَرَ إِذْنُ الْفَأْرِ الرَّقِيقِ وَالنَّقِيِّ يَدْعُ تَوِيجَاتِهِ تَسْقُطُ عِنْدَمَا تَلْمَسُ الثُّوبَ الْقَرْمِزِيَّ الَّذِي لَبَسَهُ يَسُوعُ مِنْ جَدِيدٍ. يُفَتَرَضُ أَنْ يَكُونَ جَمِيلًا الْمَوْتُ حِينَمَا يَأْتِي مِنَ يَسُوعِ الَّذِي يَصْدَمُ. كُلُّ الزُّهُورِ، حَتَّى زَنْبِقِ الْوَادِي التَّائِهِ، السَّاقِطُ هُنَا رُبَّمَا عَرَضًا وَتَجَدَّرُ بَيْنَ الْجُذُورِ الْبَارِزَةِ لِشَجَرَةِ الزَّيْتُونِ، هُوَ سَعِيدٌ لَكُونَ تَوَمَا قَدْ لَحِظَهُ وَقَطَفَهُ وَقَدَّمَهُ لِلرَّبِّ... وَسَعِيدَةٌ هِيَ آلَافُ الْعَصَافِيرِ عَلَى الْأَغْصَانِ لَكُونِهَا تَحْيِيهِ بِتَغَارِيدِ فَرَحٍ! آه! الْعَصَافِيرُ الَّتِي أَحَبَّهَا دَائِمًا لَا تَلْعَنُهُ! حَتَّى قَطِيعٌ صَغِيرٌ مِنَ النِّعَاجِ الَّتِي تَبْدُو وَكَأَنَّهَا تَرِيدُ أَنْ تَحْيِيَهُ رَغْمَ بَكَائِهَا، كُونِهَا قَدْ حُرِّمَتْ مِنَ صِغَارِهَا الْمُبَاعَةِ مِنْ أَجْلِ التَّضْحِيَةِ الْفَصْحِيَّةِ. إِنَّهُ عَوِيلُ أُمَّهَاتٍ يَمَلَأُ الْأَجْوَاءَ، وَهِيَ تَتَخَوُّ وَتَتَنَادِي صِغَارِهَا الَّتِي لَنْ تَعُودَ بَعْدَ، وَتَفْرِكُ أَجْسَادَهَا بِيَسُوعَ وَهِيَ تَرْمُقُهُ بِنَظَرِهَا الْوَدِيعَةِ.

رُؤْيَا النِّعَاجِ تُذَكِّرُ الرُّسُلَ بِالطَّقْسِ الْفَصْحِيِّ وَيَسْأَلُونَ يَسُوعَ عِنْدَمَا يَصْبَحُونَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ جَثْسَيْمَانِي: «أَيْنَ سَنَأْكُلُ الْفَصْحَ؟ أَيْ مَكَانَ تَخْتَارُ؟ قُلْ، وَسَوْفَ نَذْهَبُ لِإِعْدَادِ كُلِّ شَيْءٍ.»

وَيَهُودَا الْأَسْخَرِيُوطِيُّ: «أَصْدُرْ لِي الْأَوَامِرَ وَسَأَذْهَبُ.»

«بَطْرُسُ، يُوْحَنَّا، اسْمَعَانِي.»

الْإِثْنَانِ، اللَّذَانِ كَانَا مُتَقَدِّمِينَ قَلِيلًا، يَقْتَرِبَانِ مِنَ يَسُوعَ الَّذِي نَادَاهُمَا.

«أَسْبَقْنَا وَادْخَلْنَا الْمَدِينَةَ مِنْ بَابِ الزُّبْلِ. وَبِمَجَرَّدِ دُخُولِكُمَا سَتَلْتَقِيَانِ بِرَجُلٍ عَائِدٍ مِنْ عَيْنِ رُوحِيلٍ حَامِلًا جَرَّةَ مَاءٍ مِنْ مَائِهَا الطَّيِّبِ. اتَّبِعَاهُ حَتَّى

يدخل أحد البيوت. وقولا لِمَنْ يتواجد فيه: "المعلّم يقول: 'أين هي الغرفة التي يمكنني أن أكل فيها الفصح مع تلاميذي؟'". وهو يريكما عليّة كبيرة جاهزة. فأعدّا فيها كلّ ما يلزم. امضيا بسرعة ثمّ الحقا بنا إلى الهيكل.»

يمضي الاثنان بسرعة. يسوع، على العكس، يتقدّم ببطء. ما تزال الصبيحة باردة والشوارع التي تؤدّي إلى المدينة تُظهر تماماً أوائل الحجاج. يعبرون القديرون من على الجسر الصغير الذي يسبق جَسِيماني. يَلجُون المدينة. الأبواب لم يعد عليها حراسة من الجنود، ربّما على أثر أمر عسكريّ معاكس من بيلاطس، المطمئنّ نتيجة غياب المجادلات حول يسوع. بالفعل، يسود هدوء عظيم في كلّ مكان.

آه! لا يمكن القول إنّ اليهود لم يُحسِنوا تمالك أنفسهم! فلا أحد منهم قد ضايق المعلّم ولا تلاميذه. إنهم يتصرّفون باحترام إن لم يكن بمودّة، وكأنّاس خلوّقين، فقد حيّوه دائماً، حتّى وإن كان الذين يحيّونه هم الأكثر كراهية له من أعضاء السندهرين. صبر لا مثيل له رافق حتّى اتّهامات الأمس. وها الآن كذلك بالضبط، ذلك أنّ منزل قيافا الريفيّ قريب جدّاً من هذا الباب، وها الآن بالضبط يمرّ، قادمين من ذاك المنزل، جمع غفير من الفريسيّين والكتّبة، بينهم ابن حنّان، أليشع مع دوراس وصادوق. وبانحناءات شخصيّات بأردية واسعة، يحيّون وسط تموجات الملابس والأهداب وأغطية الرأس الواسعة جدّاً. يحيّي يسوع ويمرّ، ملوكيّ هو في ثوبه الصوفيّ الأحمر وردائه ذي اللون الداكن، وفي يده غطاء الرأس الذي من سنّتيخي، الشمس التي تجعل من شعره الأحمر النحاسيّ إكليلاً من ذهب ووشاحاً برّاقاً ينسدل حتّى كتفيه. تستقيم الظهور بعد مروره وتظهر وجوه الضباع المسعورة.

يهوذا الاسخريوطي، الذي لم يكن يكفّ عن النظر حوله بوجهه الخائن، وبحجة إعادة ربط شريط الحذاء، يبتعد إلى حافة الطريق، وأراه جيّداً، يشير إلى هؤلاء القوم الذين كانوا ينتظرونه... يترك مجموعة يسوع والتلاميذ تتقدّم، ويظلّ منشغلاً بربط سير الحذاء ليمنح نفسه فرصة، ثم يمرّ بسرعة بجانب أولئك الناس ويهمس: «عند باب الجَمِيلُ [أحد أبواب الهيكل]، حوالي الساعة السادسة. واحد منكم.» ثم ينسلّ مسرعاً ليلحق برفاقه. إنه مجاهر، مجاهر بصفاقته!...

يصعدون إلى الهيكل. ما يزال هناك القليل من اليهود، إنّما الكثير من الأمميّين. يمضي يسوع ليتعبّد للربّ. ثمّ يعود أدراجه ويأمر سمعان وبرتلماوس أن يشتريا الحَمَلَ آخذين النقود من يهوذا الاسخريوطي.

«ولكن أنا كان بإمكانني فعل ذلك!» يقول هذا الأخير.

«سيكون لك عمل آخر، أنت تعرفه. هناك تلك الأرملة التي يجب إيصال عطية مريم أخت لعازر إليها، والقول لها أن تأتي بعد الأعياد إلى منزل لعازر في بيت عنيا. هل تعلم أين هي؟ هل فهمت جيّداً؟»

«أعلم، أعلم! زكريّا الذي يعرفها جيّداً دلّني على المكان.» ويضيف:

«أنا مسرور للغاية بذهابي إلى هناك، أكثر من الذهاب لأجل الحَمَل. متى أذهب؟»

«لاحقاً. لن أتوقّف كثيراً هنا. اليوم سأستريح لأنني أريد أن أكون قوياً هذا المساء ومن أجل صلاتي ليلاً.»

«حسناً.»

إنني أتساءل: يسوع، الذي التزم الصمت حول نواياه في الأيام السابقة حتى لا يعطي التفاصيل ليهودا، لماذا الآن يقول، ويردد ما ينوي القيام به في الليل؟ هل الآلام بدأت بالفعل بالتعامي عن احتراسه، أو لأنّ هذا الاحتراس قد عظم للغاية فقراً في كتب السماوات أنّ "هذه هي الليلة" وبالتالي يجب أن يُعلم مَنْ ينتظر معرفة ذلك كي يسلمه إلى أعدائه، أو لأنّه عرف دوماً أنّ هذه الليلة هي بداية تقدمته كذبيحة؟ لا أستطيع أن أجد إجابة. ويسوع لم يعط لي إجابة. وأبقى مع هذا الكمّ من الـ لماذا أثناء مراقبتي يسوع وهو يشفي أواخر مرضاه... الأواخر، فغداً، بعد ساعات قليلة من الآن، لن يعود بإمكانه ذلك... ستُحرَم الأرض من شافي الأجساد ذي السلطان. والضحية، آنذ، سيبدأ على صليبه السلسلة المتواصلة منذ عشرين قرناً لشفاءاته الروحية.

اليوم أتأمل أكثر ممّا أصف. يجعلني ربّي أوجّه نظري الروحيّ ابتداءً ممّا أراه يحصل، في آخر يوم لحرية المسيح، حتى مدى العصور.. اليوم أتأمل الأحاسيس، أفكار المعلم أكثر منه الأحداث المحيطة به. الآن أدرك، قلقاً، عذابه في جَسَيْماني...

يسوع تحصره كالمعتاد الجموع التي زاد عددها، والتي هي الآن في غالبيتها من اليهود، والذين نسوا الإسراع إلى مكان التضحية بالحملان كي يقتربوا من يسوع، حَمَل الله الذي سيضحّى به. ويطلبون بعد، ويريدون المزيد من الشروح. كثيرون هم من اليهود الآتين من الشتات، والذين، إذ سمعوا الكلام عن المسيح، النبيّ الجليليّ، ربّي الناصرة، فهم يشعرون بالفضول لسماعه يتكلّم، وهم متلهّفون لأن يزيلوا عنهم كلّ شكّ ممكن. وهؤلاء يَشقّون لهم ممراً متوسّلين هكذا إلى يهود فلسطين: «هو معكم دائماً».

أنتم تعرفون مَنْ يكون. وتحظون بكلامه متى شئتم. نحن أتينا مِنَ البعيد وسوف نرحل على الفور بعد أن نتمّ الشريعة، دعونا نذهب إليه!»

يتباعد الجمع بصعوبة كي يفسحوا لهم مجالاً. وهؤلاء يتقدّمون نحو يسوع ويرمقونه بفضول. يتكلّمون فيما بينهم، بمجموعات. يسوع يرمقهم كذلك وهو يُنصِت إلى مجموعة أتت مِنَ البيريه. وبعدها يقدّمون له مالاً مِنْ أجل فقرائه، كما يفعل كثيرون، ويمرّره كالمعتاد إلى يهوذا، يصرفهم ويبدأ الكلام.

«متّحدين بالدين، ولكن مِنْ منابت مختلفة، كثير مِنْ الحاضرين يتساءلون: "مَنْ يكون ذاك المدعو ناصريّاً؟" وتختلط آمالهم بشكوكهم.

اسمعوا. قيل عني: "يُخرج قضيب مِنْ جذر يسّى، وينمو فرع مِنْ أصوله ويستقرّ عليه روح الربّ. لا يقضي بحسب الظاهر في العيون ولا يحكم بحسب سماع الأذنين. بل يقضي للمساكين بعدل ويدافع عن المتواضعين. ويكون قضيب أصل يسّى علامة وسط الأمم، وإياه تترجّى الشعوب ويكون مثواه مجيداً. وبعد أن يرفع رايته للأمم، يجمع لاجئي إسرائيل، المشتّتين مِنْ يهوذا، يجمعهم مِنْ أربعة أطراف الأرض". وقيل عني: "هوذا، السيّد الربّ يأتي بسلطان، وذراعه تنتصر. يحمل معه ثوابه، وعمله قدّام عينيه. وسيرعى قطيعه كالراعي". وقيل عني: "هوذا خادمي الّذي سأكون معه، وبه تُسرّ نفسي. قد جعلتُ روحي عليه. فهو سيجلب العدل بين الأمم. هو لن يصيح، قسبة مرضوضة لن يكسر، وفتيلاً مدخناً لن يطفئ. سيقضي بالعدل بحسب الحقّ. ودون أن يحزن ويضطرب، سيتوصّل إلى أن يحقّق العدل في الأرض، والجُزر ستنتظر شريعته". وقيل عني: "أنا،

الربّ، دعوتُكَ في العدل، أخذتُ بيدِكَ، حفظتُكَ، جعلتُكَ عهداً للشعب ونوراً
للأمم كي تفتح العيون العمياء وتُخرج الأسرى من السجن، والقابعين في
ظلمات السجن السفليّ". وقيل عنيّ: "روح الربّ عليّ، لأنّ الربّ مسحني
لأبشّر الودعاء، لأجبر منكسري القلب، لأنادي بالعتق للعبيد، بالتحريّر
للمأسورين، وأعلن سنة نعمة الربّ". وقيل عنيّ: "هو القويّ، الذي سيرعى
القطيع بقوة الربّ، بعظمة اسم الربّ إلهه. إليه يهتدون، لأنّه من الآن يتمجّد،
إلى أقاصي الأرض". وقيل عنيّ: "سأذهب بنفسي أبحث عن خرافي.
سأذهب للبحث عن الخراف الضائعة، وأردّ المطرودة منها، وأجبر المكسورة
وأقويّ الضعيفة وأحفظ السمينّة والقويّة، وأرعاها بعدل". وقيل: "هو أمير
السلام ويصبح هو السلام". وقيل: "هو ذا يأتي ملكك، العادل، المخلص. هو
فقير، يركب على أتان. هو سيعلم السلام للأمم. وسيكون سلطانه من بحر
إلى بحر إلى أقاصي الأرض". وقيل: "إنّ سبعين أسبوعاً حدّدت لشعبك
ولمدينة قدسك لاجتثاث قلة الأمانة وإزالة الخطيئة، ومحو الظلم والإتيان
بالعدل الأبديّ، وتحقيق الرؤى والنبوءات، ومسح قدّوس القديسين. وبعد
سبعة إضافة إلى الاثنين والسّتين سيأتي المسيح. بعد الاثنين والسّتين سيقتل.
وبعد أسبوع واحد هو سيثبت العهد، ولكن في منتصف الأسبوع تُبطل الذبائح
والتقادم، وفي الهيكل تقوم رجاسة الخراب، وستستمرّ إلى آخر العصور".

ألن تكون هناك تقدمات إذن في هذه الأيام؟ ألن يكون للمذبح أضحية؟
ستكون له الضحية العظمى. هذا ما رآه النبيّ: "مَنْ ذا الآتي بثياب مصبوغة
بالحُمْرة؟ هذا الذي يتباهى بلباسه ويختال بعظمة قوّته".

وكيف، الفقير، يُصَبِّغ ثوبه بالأرجوان؟ ها هو النبيّ يقول ذلك: "لقد أسلمتُ جسدي للذين كانوا يضربونه، وخدّي للذي كان ينتف لحيتي، ولم أستر وجهي عن الذي كان يُعَيِّرني. ضاع جمالي وبهائي، لم يعد يحبّني الناس. مزدري من الناس ومعتبر كآخر الكل! رجل أوجاع، وجهي يُحَجَّب ويُحتقر، وسينظرون إليّ كأبرص، بينما من أجل الجميع سأصير مُغطّى بالجروح وميتاً. هو ذا الضحية! لا تخف يا إسرائيل! لا تخف! لن يُفقد الحَمَل الفصحيّ! لا تخافي أيتها الأرض! لا تخافي. ها هو المخلّص. كشاة سوف يساق إلى الذبح لأنّه هو أراد ذلك، ولم يفتح فاه ليلعن قاتليه. وبعد إدانته سيرفع ويُسحق بالآلام، ستتخلّع أعضاؤه، وتنكشف عظامه، وتُنقَب يداه ورجلاه. ولكن بعد الضيق، الذي به سيرر كثيرين، ستكون له أعداد كثيرة لأنّه، بعد أن يكون قد أسلم حياته إلى الموت من أجل خلاص العالم، سيقوم ويحكم الأرض، سيروي الناس من المياه التي رآها حزقيال، التي كانت تخرج من الهيكل الحقيقيّ الذي، وإن هُدم، سيرتفع مجدداً بقوّته الذاتية، بالخمير الذي به يُصَبِّغ بالأرجوان الثوب الأبيض للحَمَل الذي بلا عيب، وبالخبز النازل من السماء."

إن كنتم عطاشاً، تعالوا إلى المياه! جِيعاً، فلتأكلوا! متعبين ومرضى اشربوا خمري! تعالوا، أنتم يا مَنْ لا تملكون مالاً، أنتم يا مَنْ لا صحّة لكم، تعالوا! وأنتم يا مَنْ في الظلمات! وأنتم أيّها الموتى، تعالوا! فأنا الغنى والخلاص. أنا النور والحياة. تعالوا، يا مَنْ تبحثون عن الطريق! تعالوا يا مَنْ تبحثون عن الحقّ! فأنا الطريق والحقّ! لا تخافوا من ألاّ تتمكّنوا من أكل الحَمَل لأنّ هذا المعبد المدنّس تنقصه الذبيحة المقدّسة بحقّ. سيكون لجميعكم

أن تأكلوا من حَمَلِ الله الآتي ليمحو خطايا العالم، كما قال عني آخر أنبياء شعبي.

هذا الشعب الذي أسأله: "يا شعبي، ماذا فعلتُ لك؟ بماذا أحرزْتُكَ. ما الذي كان يمكن أن أمنحك إياه أكثر ممّا منحتُكَ؟ ثَقَّفْتُ عقولَكَ، شفيتُ مرضاكَ، أفضتُ الخير على فقرائكَ، أشبعتُ جموعَكَ، أحببتُكَ بأبنائكَ، غفرتُ، صليتُ من أجلكَ. لقد أحببتُكَ حتّى التضحية. وأنتَ، ماذا تُعدّ لربِّكَ؟ ساعة، وهي الأخيرة، أعطيت لك أيا شعبي، أيا مدينتي المَلَكِيَّة والمقدَّسة. ارجعي إلى الربِّ إلهِكَ في هذه الساعة!»

«لقد قال الكلام الحق!»

«هو هكذا قيل! هو بحق يفعل ما قيل!»

«كمثل راع قد اعتنى بالجميع!»

«كما لو كنّا النعاج المشتتة، المريضة، في الضباب، وهو أتى كي يقودنا إلى الدرب الصحيح، كي يشفي نفوسنا وأجسادنا، كي ينيرنا.»

«حقاً إنّ كلّ الشعوب تأتي إليه. انظروا إلى مدى إعجاب أولئك الأمميّين هناك!»

«أعلن السلام.»

«منح المحبة.»

«لستُ أفهم ما الذي يقصده بالتضحية. يتكلّم كما لو أنّه من المفروض أن يُقتل.»

«الأمر هو هكذا، إن كان هو الإنسان الذي رآه الأنبياء، المخلص.»

«ويتكلم كما لو كان المفروض أن يسيء الشعب كله معاملته. وهذا لن يحدث أبداً. الشعب، نحن، ونحن نحبه.»

«إنه صديقنا. سندافع عنه.»

«هو جليلي، ونحن من الجليل، سنبدل حياتنا من أجله.»

«إنه من نسل داود، ولن نرفع يدنا إلا للدفاع عنه، نحن أهل اليهودية.»

«ونحن، الذين أحببنا كما أحبكم أنتم، نحن أهل حورانيطس [حوران]، البيرييه، المدن العشر، أيمننا أن ننساه؟ كلنا، كلنا سندافع عنه.»

هذه كانت أقوال الجموع التي أضحت حاشدة جداً. يا لهشاشة النوايا البشرية! بحسب موقع الشمس أظن أن الساعة هي حوالي التاسعة صباحاً. بعد أربع وعشرين ساعة، سيكون هؤلاء قد تجمهروا حول الشهيد منذ ساعات عديدة كي يعذبوه بالكراهية والضرب، وسيزعقون طالبين موته. قلائل، قلائل جداً، أقل القليل من بين آلاف البشر الذين يتدافعون من كل صوب في فلسطين وما وراءها، والذين نالوا النور، الصحة، الحكمة، والغفران من المسيح، سيكونون هم الذين ليس فقط لا يعملون على انتزاعه من أعدائه، لأن عددهم الضئيل بالنسبة لأعداد الذين يضربونه الغفيرة يمنعهم من ذلك، إنما كذلك لن يجيدوا مواساته بتقديم الدليل على محبتهم باتباعه بوجه صديق.

إن التبجيلات، التأييد، تعليقات الإعجاب تنتشر عبر الباحة الكبيرة كالأمواج الآتية من عرض البحر، لتموت بعيداً عند الضفة.

يسعى بعض الكتّبة والفرّيسيّين واليهود لتحديد حماسة الشعب، وكذلك هيجانه ضدّ أعداء المسيح، قائلين: «إنّه يهذي. إنّ تعبه شديد لدرجة تقوده إلى الهذيان. فيرى الاضطهاد حيث التبجيل. في كلامه سيل من حكمته المعتادة، ولكنها مختلطة بعبارات من الهذيان. لا أحد يريد به شراً. لقد أدركنا، أدركنا من يكون...»

ولكنّ الناس لا يثقون بتغيّر بالغ في المزاج كهذا، ممّا يدفع أحدهم للثورة قائلاً: «لقد شفى ابني المعتوه. وأنا أعلم ما معنى الجنون. فليس هكذا يتكلّم المجنون!»

وآخر: «دعهم يقولون. فهم أفاعي يخافون من أن تُحطّم عصا الشعب كِلاهم [جمع كُلية]. إنهم يغنّون تغريد العندايب العذب لخداعنا، ولكنّك لو تنصت جيّداً فهناك فحيح أفعى.»

وآخر أيضاً: «يا حرّاس شعب المسيح، احترسوا! حينما يُلاطف العدو فخنجره مخبّأ في كمّه ويمدّ يده ليعض. لتكن العينان مفتوحتين والقلب متأهباً! فلا يمكن لأبناء آوى أن تستحيل حملاناً وديعة.»

«تجيد القول: فالبومة تُفرّح وتسحر العصافير الساذجة بسكون جسمها وبهجة تحيّتها الزائفة. تضحك وتدعو بصيحتها، ولكنها تكون متأهبة للافتراس.»

وهكذا من مجموعة إلى أخرى.

ولكن هناك أيضاً الأمميّون، أولئك الأمميّون الذين كان عددهم يتزايد باطراد ولا يتأخرون عن الاستماع إلى المعلّم في أيّام الأعياد هذه. دائماً هم

على هامش الجمع، لأنّ النزعة التفوّقيّة اليهوديّة-الفلسطينيّة شديدة جدّاً وتدفّعهم مبتغيّة الأماكن الأولى حول المعلّم، ولكنّهم يرغبون في الاقتراب منه والتحدّث إليه. تلمح مجموعة كبيرة منهم فيلبّس الذي دفعه الجمع إلى ركن. يقتربون منه قائلين: «يا سيّد، نوّد أن نرى عن قرب يسوع، معلّمك، ونتحدّث إليه مرّة على الأقلّ.»

يقف فيلبّس على أطراف أصابع قدميه ليرى إن أمكنه رؤية رسول ما أكثر قرباً من الربّ. يرى أندراوس ويناديه صائحاً: «هنا أمميّون يودّون تحيّة المعلّم. اسأله إن كان يريد استقبالهم.»

أندراوس الذي يبعد عن يسوع عدّة أمتار، يزحمه الجمع، يشقّ له ممراً دون كثير مراعاة، مستخدماً بوفرة الكوعين وصائحاً: «أفسّحوا المجال! أفسّحوا المجال أقول لكم! يجب أن أذهب إلى المعلّم.» يصل إليه وينقل إليه رغبة الأمميّين.

«قدّمهم إلى ذاك الركن. وسأذهب إليهم.»

وبينما يحاول يسوع المرور بين الناس، فإنّ يوحنا، الذي رجع مع بطرس، بطرس نفسه، يوضّاس تدّاوس، يعقوب بن زبدي وتوما، الذي ترك مجموعة أهله المتواجدين وسط الجمع كي يساعد رفاقه، يجهدون لشقّ طريق له.

ها هو يسوع هناك حيث الأمميّون الذين يحيّونه.

«السلام لكم. ماذا تريدون منّي؟»

«أن نراك. أن نحدّثك. كلامك جعلنا مضطرب. لطلما رغبتنا في محادثتك منذ زمن بعيد لنقول لك إن كلامك يؤثّر فينا، إنّما كنّا ننتظر اللحظة المناسبة للقيام بذلك. اليوم... أنت تتكلّم عن الموت... ونحن نخشى عدم التمكن من التحدّث إليك إن لم نستغلّ هذه الساعة. ولكن هل يمكن لليهود أن يقتلوا أفضل ابن لهم؟ نحن أمميّون، ويدك لم تفعل لنا خيراً. كلمتك كنّا نجهلها. كنّا قد سمعنا عنك بشكل مبهم، إنّما لم نكن قد رأيناك ولا اقتربنا منك. ومع ذلك، كما ترى! نحن نكرّمك. والعالم بأكمله يجلّك معنا.»

«نعم، أنت الساعة التي يُمَجّد فيها ابن الإنسان من الناس والأرواح.»

يعود الجمع من جديد الآن ليحيط بيسوع، مع الاختلاف أنّ الأمميّين في الصفّ الأوّل والآخرين إلى الخلف.

«ولكن إذاً، إذا كانت ساعة تمجيدك هي هذه، فلن تموت كما تقول أو كما فهمنا. ذلك أنّه ليس الموت بهذه الطريقة تمجيداً. كيف سيمكنك أن تجمع العالم تحت رايتك إذا ما متّ قبل أن تفعل ذلك؟ إذا ما توقّف ذراعك عن الحركة في الموت، فكيف تستطيع أن تنتصر وتجمع الشعوب؟»

«بموتي أُنح الحياة. بموتي أبني. بموتي أخلق الشعب الجديد. فبالضحية بلوغ النصر. الحقّ أقول لكم إنّ حبة الحنطة الواقعة على الأرض إن لم تمت، تبقى عقيمة، ولكن، على العكس، إن ماتت، فهي تأتي بثمر كثير. من يحبّ حياته فإنّه يفقدها، ومن يبغض حياته في هذا العالم، فإنّه سيحفظها للحياة الأبدية. ومن ثمّ، عليّ واجب أن أموت لأمنح هذه الحياة الأبدية لكلّ من يتبعني كي أخدم الحقّ. من أراد أن يخدمني فليقبل: الأمكنة ليست محدّدة في ملكوتي لهذا الشعب أو ذاك. من يريد خدمتي، أيّاً كان، فليأت ويتبعني،

وحيث أكون أنا، سيكون خادمي. وَمَنْ يخدمني سيكرّمه أبي، الواحد، الله الحقّ، ربّ السماء والأرض، خالق كلّ ما هو موجود، الفكر، الكلمة، المحبّة، الحياة، الطريق، الحقّ، الذي هو الآب، الابن، الروح القدس، واحد مع كونه ثالثاً، وثالث وهو واحد، الأوحد، الله الحقّ. إنّما الآن نفسي مضطربة. ماذا سأقول؟ ربّما سأقول: "يا أبت نجّني من هذه الساعة؟" لا، لأنني من أجل هذا أتيتُ: من أجل الوصول إلى هذه الساعة. إذاً سأقول: "يا أبت مجد اسمك!"»

يفتح يسوع ذراعيه مثل صليب، صليب أرجوانيّ أمام بياض مرمّر الرواق، ويرفع وجهه، مصلّياً، مقدّماً ذاته، مرتفعاً بنفسه إلى الآب.

وصوت، أقوى من الرعد، لا ماديّ بمعنى أنّه لا يشبه أيّ صوت بشريّ، ولكنّه مرهف جداً لكلّ أذن، يملأ السماء الصافية في نهار نيسان [أبريل] الرائع، يرتجّ، أكثر قوّة من انتلاف أرغن عملاق، جميل جداً في نغمته، ويعلن: «وأنا مجدّته وسأمجده أيضاً.»

لقد خاف الناس. هذا الصوت، القويّ للغاية الذي جعل الأرض وما عليها تهتزّ، هذا الصوت الغامض، المختلف عن أيّ صوت آخر، الذي يأتي من مصدر مجهول، هذا الصوت الذي يملأ كلّ شيء، من الشمال إلى الجنوب، ومن المشرق إلى المغرب، يُرعب اليهود ويذهل الأمميين. الأولون، حينما يستطيعون إلى ذلك سبيلاً، يرتمون أرضاً، هامسين في رعبهم: «سوف نموت الآن! لقد سمعنا صوت السماء. لقد كلّّمه ملاك!» ويقرعون صدورهم منتظرين الموت. والآخرين يصيحون: «رعد، هدير، فلنهرب! الأرض زارت، ارتجّت!» ولكن الهروب مستحيل في هذا الحشد

الغفير الذي يتزايد عندما الناس الذين كانوا ما يزالون خارج أسوار الهيكل، يهرعون إلى الداخل وهم يصيحون: «الرحمة لنا! فلنهرع! هذا هو المكان المقدس. لن يتصدّع الجبل حيث يرتفع هيكل الله!» وهكذا يبقى الكلّ في مكانه، حيث يثبتهم الجمع والهلع.

على شرفات الهيكل يجري الكهنة، الكتبة، الفرّيسيّون، الذين كانوا مشتتين في تعرّجاته، واللاويّون والقضاة. مضطربين، مذهولين. ولكن من كلّ هؤلاء لم ينزل بين الناس الذين في الباحات سوى غمّالائيل مع ابنه. يراه يسوع ماراً، في لباسه الكتّاني الأبيض بالكامل، والذي لشدة بياضه يتألّق تحت الشمس المشرقة التي تسطع عليه.

يسوع ينظر إلى غمّالائيل، إنّما كما لو أنّه كان يكلم الجميع، يرفع صوته قائلاً: «ليس من أجلي، بل من أجلكم قد أتى هذا الصوت من السماء.»

يتوقّف غمّالائيل، يلتفت، يخترق بنظرات عينيه العميقتين والسوداوين جداً -حيث الاعتياد على تبجيل المعلّم كما شبه إله يجعلها بشكل لا إرادي قاسية مثل نظرات الكواسر- نظرة يسوع السفيريّة، الصافية، الوديدة في جلالها...

ويتابع يسوع: «الآن هي دينونة هذا العالم. الآن سيُلقي أمير الظلام خارجاً. وأنا، عندما سأرتفع، سأجذب إليّ الجميع، لأنّ هكذا يحقّق ابن الإنسان الخلاص.»

«إِنَّا قَدْ تَعَلَّمْنَا مِنْ كُتُبِ الشَّرِيعَةِ أَنَّ الْمَسِيحَ يَحْيَا إِلَى الْأَبَدِ. وَأَنْتَ تَقُولُ إِنَّكَ الْمَسِيحَ وَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تَمُوتَ. وَتَقُولُ أَيْضاً إِنَّكَ ابْنُ الْإِنْسَانِ وَإِنَّكَ سَتُخَلَّصُ لَأَنَّكَ سَتُزْفَعُ. مَنْ أَنْتَ إِذَا؟ ابْنُ الْإِنْسَانِ أَمْ الْمَسِيحُ؟ مَنْ هُوَ ابْنُ الْإِنْسَانِ؟» يَقُولُ الْجَمْعُ الَّذِي يَسْتَعِيدُ جَسَارَتَهُ.

«إِنَّهُمَا وَاحِدٌ. افْتَحُوا عَيُونَكُمْ لِلنُّورِ. النُّورُ مَعَكُمْ زَمَاناً يَسِيرًا بَعْدَ، فَسِيرُوا صَوْبَ الْحَقِّ مَا دَامَ النُّورُ وَسَطُكُمْ، لئَلَّا يَدْرِكْكُمْ الظُّلَامُ. لِأَنَّ الَّذِينَ يَمْشُونَ فِي الظُّلَامِ لَا يَدْرُونَ إِلَى أَيْنَ سَوْفَ يَنْتَهِي بِهِمُ الْأَمْرُ. مَا دَامَ النُّورُ مَعَكُمْ، فَآمِنُوا بِهِ، لَتَكُونُوا أَبْنَاءَ النُّورِ.» يَصْمَتُ.

الْجَمْعُ حَائِرٌ وَمُنْقَسِمٌ. جُزْءٌ مِنْهُمْ يَمْضِي وَهُوَ يَهْزُ رَأْسَهُ. وَجُزْءٌ يَرِاقِبُ مَوْقِفَ كِبَارِ الشَّخْصِيَّاتِ: الْفَرِيسِيِّينَ، رُؤَسَاءَ الْكَهَنَةِ، الْكَتَبَةَ... وَخَاصَّةً غَمَلَاثِيلَ، وَيَضْبُطُونَ سُلُوكَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْمَوْقِفِ. آخَرُونَ أَيْضاً يُوَافِقُونَ بِهِزَّ رُؤُوسِهِمْ وَيَنْحَنُونَ أَمَامَ يَسُوعَ بِإِشَارَاتٍ غَايَةِ الْوُضُوحِ تَقُولُ: «نَحْنُ نُؤْمِنُ! وَنَبْجَلُكَ لَمَّا أَنْتَ كَانَهُ.» لَكِنْهُمْ لَا يَجْرَؤُونَ عَلَى اتِّخَاذِ مَوْقِفٍ صَرِيحٍ لِمُصَالِحِهِ. إِنَّهُمْ يَخَافُونَ مِنْ عَيُونِ أَعْدَاءِ الْمَسِيحِ الْمُنْتَبِهَةِ، مِنْ أَصْحَابِ السُّلْطَةِ، الَّذِينَ يَرِاقِبُونَهُمْ مِنْ عَلَى الشَّرَفَاتِ الْمُطَّلَّةِ عَلَى الْأُرُوقَةِ الرَّائِعَةِ الْمَحِيطَةِ بِحَرَمِ الْهَيْكَلِ.

غَمَلَاثِيلُ أَيْضاً، بَعْدَ أَنْ ظَلَّ مَفْكَراً بِضَعَةِ دَقَائِقَ، وَكَأَنَّهُ يَسْأَلُ الْأَرْضِيَّةَ الرَّخَامِيَّةَ لَعَلَّهُ يَجِدُ إِجَابَةً عَنِ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي يَطْرَحُهَا عَلَى نَفْسِهِ، يَتَوَجَّهُ مِنْ جَدِيدٍ إِلَى الْمَخْرَجِ بَعْدَ حَرَكَةٍ مِنْ رَأْسِهِ وَكَتْفَيْهِ تَتَرَجَّمُ خَبِيئَتَهُ أَوْ ازْدِرَاءَهُ... وَيَمُرُّ مُبَاشَرَةً أَمَامَ يَسُوعَ، دُونَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ بَعْدَ.

يسوع، من جانبه، ينظر إليه بشفقة... ويرفع من جديد صوته بقوة -مثل بوق برونزي- ليعلو على كل الأصوات وليسمعه الكاتب العظيم الذي مضى خائب الظن. يبدو وكأنه يتكلم للجميع، ولكن من الواضح أنه يتحدث إليه وحده. يقول بصوت قوي جداً: «مَنْ يُؤْمِن بي فليس بي بالحقيقة يؤمن، بل بالذي أرسلني، وَمَنْ يراني، فإنه يرى الذي أرسلني. وهو بحق إله إسرائيل! لأنه ما مِنْ إله آخر غيره. كذلك أقول لكم: إن لم تتمكنوا من الإيمان بي لأنني أدعى ابن يوسف من نسل داود، وابن مريم من نسل داود، العذراء التي رآها النبي، المولود في بيت لحم، كما قيل في النبوءات، الذي تقدّمه المعمدان، كما قيل أيضاً منذ عصور، فأمنوا على الأقل بصوت إلهكم الذي كلّمكم من السماء. آمنوا بي كابن لإله إسرائيل هذا. فإنكم إذا لم تؤمنوا بمن كلّمكم من السماء، فليس أنا من تهينون، بل إلهكم الذي أنا ابنه.

لا تكن إرادتكم أن تمكثوا في الظلمات! أنا أتيت إلى العالم نوراً حتّى إنّ كلّ مَنْ يؤمن بي لا يمكث في الظلام. لا تُسبّبوا لأنفسكم ندماً لن تعودوا تتمكنون من تهدئته حينما أكون قد عدتُ إلى من حيث أتيت، ويصبح عقاب الله لكم شديداً من أجل صلابة رؤوسكم. أنا متأهب للغفران طالما أنا وسطكم، ومادامت الدينونة لم تقم، وفيما يخصّني، لي رغبة أن أغفر. ولكنّ فكر أبي مختلف، ذلك أنّي أنا الرحمة وهو العدل.

الحقّ أقول لكم أنّه إن كان أحد يسمع أقوالي ولا يحفظها، فلست أنا من يدينه. فأنا لم آتِ إلى العالم لأدينه، بل لأخلّصه. إنّما وإن أنا لم أدين أحداً، فالحقّ أقول لكم إنّ هناك مَنْ يدين أعمالكم. إنّ أبي، الذي أرسلني، يدين الذين يرفضون كلمته. نعم، مَنْ يحتقروني ولا يقبل كلمة الله ولا يتقبّل أقوال

الكلمة، فهذا سيكون له ليدينه: الكلمة ذاتها التي أعلنتها وهي التي ستدينه في اليوم الأخير.

قيل: لا سخرية من الله. والله الذي يُهزأ به يكون رهيباً مع أولئك الذين يصمونهم بالجنون والكذب.

تذكروا جميعكم أنّ الكلام الذي سمعتموه منّي هو من الله. ذلك أنّي لم أتكلّم من نفسي، لكنّ الآب الذي أرسلني، هو بذاته أوصاني بما عليّ أن أقول وعن ماذا عليّ أن أقول. وأنا أطيع وصيّته لأنني أعلم أنّ وصيّته حقّ. كلّ وصيّة من الله هي حياة أبدية، وأنا، معلّمكم، أعطيكُم مثلاً في الطاعة لكلّ وصيّة من الله. كونوا إذن على يقين أنّ ما قلّته لكم وأقوله لكم، قد قلّته وأقوله كما قال لي الآب أن أقوله لكم. وأبي هو إله إبراهيم، إسحاق ويعقوب؛ إله موسى، الآباء والأنبياء، إله اسرائيل، إلهكم.»

كلمات نور تسقط في الظلمة التي تزداد قتامة في القلوب!

غمّالائيل الذي كان قد توقّف من جديد، حاني الرأس، يعاود المسير.. آخرون يتبعونه وهم يهزّون رؤوسهم أو يسخرون.

يمضي يسوع أيضاً... وقبل ذلك يقول ليهودا الاسخريوطي: «اذهب إلى حيث عليك أن تذهب.» وللآخرين: «كلّ منكم حرّ في أن يذهب. حيث ينبغي له أو حيث يرغب. وليمكث معي التلاميذ الرعاة.»

«آه! خذني معك أيضاً يا رب!» يقول استفانوس.

«تعال...»

يتفرّقون. لا أعرف أين يمضي يسوع. ولكنّي أعلم أين يمضي يهوذا الاسخريوطيّ. يذهب إلى الباب الجميل، مرتقياً الدرجات المؤدّية من ردهة الأمميّن إلى ردهة النساء، وبعد أن يجتازه، مرتقياً في نهايته درجات أخرى، يُلقي نظرة على بهو اليهود، وبغضب يضرب الأرض بقدمه لأنّه لم يجد من يبحث عنه. يعود أدراجه. يرى أحد حراس الهيكل. يناديه. يأمره بعجرفته المعتادة: «اذهب وابحث عن إيعازر بن حنّان. فليأت بسرعة إلى الباب الجميل. يهوذا بن سمعان ينتظره لأمر جسيمة.»

يتّكئ على عمود وينتظر. بعد وقت قصير، إيعازر بن حنّان، حلقيّا، سمعان، دوراس، كورنيليوس، صادق، ناحوم وآخرون، يهرعون بملابسهم التي تطير في الهواء.

يتكلّم يهوذا بصوت خافت، إنّما مندفع: «هذا المساء! بعد العشاء. في جثسيماني. تعالوا واقبضوا عليه. أعطوني المال.»

«لا، سنعطيك إياه حينما تأتي لتأخذنا هذا المساء. نحن لا نثق بك! نريدك معنا. من يعلم!» يتهكّم حلقيّا. الآخرون يوافقون جوقاً.

يهوذا يشتعل سخطاً من التلميحات. ويُقسم: «أقسم بيهوه أنّي أقول الصدق!»

يجيبه صادق: «حسناً. ولكن من الأفضل فعل هذا. حينما تحلّ الساعة، أنت تأتي، وتأخذ معك المنوط بهم إجراء الاعتقال وتذهب معهم، كيلا يحدث ويقوم الحراس الحمقى بالقبض على لعازر بالمصادفة ونتسبّب بحدوث كارثة... أنت ستحدّد لهم الرجل بإشارة... يجب أن تتفهّم! الليل... سيكون

الضوء ضعيفاً والحراس متعبين، ويشعرون بالنعاس... ولكن إن قدتهم!... هو ذا! ما رأيكم؟» وملتفت صادق الماكر إلى رفاقه ويقول: «أقترح كإشارة قبلة. قبلة! أفضل إشارة يُحدّد بها الصديق المغدور به. ها! ها!»

الكلّ يضحك. جوقة من الشياطين الساخرة.

يهودا هائج، ولكنّه لا يتراجع. لن يتراجع أبداً. هو يعاني من الاحتقار الذي يظهرونه له، وليس ممّا سوف يفعله، بحيث إنه يقول: «تذكّروا أنني أريد النقود عدّاً ونقداً في كيس قبل أن أخرج من هنا مع الحراس.»

«ستأخذها! ستأخذها! وسنعطيك حتّى الكيس لتتمكّن من الحفاظ على النقود، كذخيرة لمحبتك. ها! ها! ها! إلى اللقاء أيّها الثعبان!»

يمتقع لون يهوذا. لقد أصبح ممتقعاً. لن يفقد أبداً هذا اللون وتعبير الذعر اليائس ذاك... وعلى العكس، مع مضيّ الساعات، سيزداد باستمرار حتّى لا يعود بالإمكان النظر إليه عندما سيتدلّى من الشجرة... ويهرب...

يلجأ يسوع إلى حديقة منزل صديق. حديقة ساكنة في طليعة منازل صهيون. محاطة بأسوار مرتفعة وقديمة. هي صامتة ومنعشة، تكسوها أوراق الأشجار العتيقة قليلة الاهتزاز. صوت امرأة من بعيد تهدد هدهدة رقيقة.

يُفترض أنّ ساعات قد مرّت، إذ إنّ خدام لعازر، أثناء عودتهم بعد ذهابهم لا أدري إلى أين، يقولون: «تلاميذك هم الآن في المنزل حيث يُعدّ العشاء، ويوحنا، بعد أن جلب معنا الثمار لأطفال يُونّا امرأة خُوزي، قد مضى ليُحضّر النسوة كي يصحبهنّ إلى يوسف بن حلفى، الذي أتى اليوم

بمفرده في الوقت الذي لم تعد أمّه تتوقّع رؤيته، ثمّ من هناك إلى منزل العليّة لأنّ المساء حلّ.»

«سنذهب نحن أيضاً. حان وقت العشاء.» ينهض يسوع ليرتدي رداءه.

«يا معلّم، في الخارج بعض الأشخاص، أشخاص أثرياء. يودّون التحدّث معك دون أن يراهم الفرّيسيّون.» يقول أحد الخدّام.

«أدخّلهم. لن تعترض إستير. أليس كذلك يا امرأة؟» يقول يسوع وهو يستدير نحو امرأة ناضجة تجري لتحيّيه.

«لا يا معلّم. منزلي هو منزلك، أنتَ تعرف ذلك. ولم تستخدمه إلّا قليلاً جدّاً!»

«بما يكفي لأقول لقلبي: قد كان منزل صديق.» ويأمر الخادم: «فُدّ الذين ينتظرون.»

يدخل حوالي الثلاثين من الأشخاص حَسَنِي المظهر. يحيّونه. يتكلّم أحدهم باسم الجميع: «يا معلّم، كلماتك هزّتنا. سمعنا فيك صوت الله. ولكنهم يعتبروننا من المجانين لأنّنا نؤمن بك. ما العمل إذن؟»

«مَنْ يؤمن بي، فليس بي يؤمن، بل بالذي أرسلني والذي سمعتم اليوم صوته القدّوس. ومَنْ يراني فلا يراني أنا، بل يرى الذي أرسلني، لأنّي أنا وأبي واحد. لأجل هذا أقول لكم يجب أن تؤمنوا حتى لا تهينوا الله، الذي هو أبي وأبوكم، والذي يحبّكم إلى حدّ أنّه يبذل ابنه الوحيد. وإن كنتم تشكّون في قلوبكم أنّي المسيح، فليس هناك شكّ أنّ الله هو في السماء، وأنّ صوت الله الذي دعوته أبي، اليوم في الهيكل، طالباً منه أن يمجد اسمه، هو الذي أجاب

الَّذِي كَانَ يَدْعُوهُ أَبِي، وَدُونَ أَنْ يَقُولَ لَهُ: "كَاذِبٌ أَوْ مُجَدِّفٌ" كَمَا يَقُولُ كَثِيرُونَ. إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَكَّدَ أَنِّي: نوره. أَنَا هُوَ النُّورُ الَّاتِي إِلَى الْعَالَمِ حَتَّى لَا يَبْقَى كُلٌّ مَن يُؤْمِنُ بِي فِي الظُّلُمَاتِ. إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَسْمَعُ أَقْوَالِي وَلَا يَعْمَلُ بِهَا، فَأَنَا لَا أَدِينُهُ. إِنَّنِي لَمْ آتِ لِأَدِينِ الْعَالَمَ بَلْ لِأَخْلَصَ الْعَالَمَ. مَن يَحْتَقِرْنِي وَلَا يَقْبَلُ أَقْوَالِي فَإِنَّ لَهُ مَن يَدِينُهُ. إِنَّ الْكَلِمَةَ الَّتِي أَعْلَنْتُهَا هِيَ الَّتِي سَتَدِينُهُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ. فَهِيَ بِالْفِعْلِ كَانَتْ حَكِيمَةً، كَامِلَةً، وَدِيعَةً، بَسِيطَةً، كَمَا هُوَ اللَّهُ. ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةُ هِيَ اللَّهُ. لَسْتُ أَنَا، يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ، الْمَدْعُوُّ ابْنُ يَوْسُفَ النَّجَارِ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ وَابْنِ مَرْيَمَ، الطِّفْلَةُ الْعَبْرِيَّةُ، الْعِذْرَاءُ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ، الْمَتَزَوِّجَةُ لِيَوْسُفَ، هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ. لَا. أَنَا لَمْ أَتَكَلَّمْ مِنْ نَفْسِي، بَلْ أَبِي، الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، وَالَّذِي يُدْعَى يَهُوه، هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ الْيَوْمَ، الَّذِي أَرْسَلَنِي، وَالَّذِي أَوْصَانِي بِمَا أَقُولُ وَبِمَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَتَكَلَّمَ. وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ فِي وَصِيَّتِهِ الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ. وَمَا أَتَكَلَّمَ بِهِ إِذْنِ أَقُولُهُ كَمَا قَالَ لِي الْآبُ، وَفِيهِ الْحَيَاةُ. وَمِنْ أَجْلِ هَذَا أَقُولُ لَكُمْ: اسْمَعُوهُ. اْعْمَلُوا بِهِ فَتَكُونُ لَكُمْ الْحَيَاةُ. ذَلِكَ أَنَّ كَلِمَتِي حَيَاةٌ هِيَ، وَالَّذِي يَقْبَلُهَا يَقْبَلُنِي فِي ذَاتِ الْوَقْتِ أَنَا وَأَبِي السَّمَاوِيِّ الَّذِي أَرْسَلَنِي كِي أَهْبِكُمْ الْحَيَاةَ. وَمَنْ يَحْظِي بِاللَّهِ فِيهِ يَحْظِي بِالْحَيَاةِ فِيهِ. اذْهَبُوا. فَلْيَأْتِ السَّلَامُ إِلَيْكُمْ وَيَمَكُثْ فِيكُمْ.»

يَبَارِكُهُمْ وَيَصْرِفُهُمْ. وَيَبَارِكُ أَيْضاً التَّلَامِيذَ. وَيَسْتَبْقِي مَعَهُ فَقَطْ إِسْحَاقُ وَاسْتَفَانُوسُ. يَعَانِقُ الْآخَرِينَ وَيَصْرِفُهُمْ، وَعِنْدَمَا يَمْضُونَ، يَخْرُجُ آخِراً مَعَ الْاِثْنَيْنِ وَيَمْضِي مَعَهُمَا، عَبْرَ الدُّرُوبِ الْأَكْثَرِ عِزْلَةً وَالَّتِي أَضْحَتْ مَظْلَمَةً، إِلَى مَنْزِلِ الْعَلْيَةِ. وَحِينَ يَصِلُ إِلَى هُنَاكَ، يَعَانِقُ إِسْحَاقُ وَاسْتَفَانُوسُ وَيَبَارِكُهُمَا بِمَحَبَّةٍ خَاصَّةٍ، يُقْبَلُهُمَا وَيَبَارِكُهُمَا مِنْ جَدِيدٍ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمَا يَمْضِيَانِ، ثُمَّ يَقْرَعُ وَيَدْخُلُ...

يقول يسوع:

«ستضعين هنا رؤى وداع أمي، العلية، والعشاء. والآن لنحيي معاً، أنا وأنتِ، الذكرى الفصحية الحقيقية. تعالي...»

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

13- (الوصول إلى العلية ووداع يسوع لأُمَّه)

1944 / 02 / 17

أرى العلية حيث سيجري تناول الفصح.

أراها بوضوح. إنّ بوسعي أن أعدّ كلّ خشونة في الجدران وكلّ شقّ في البلاط. إنّها غرفة ليست مربّعة تماماً، إنّما هي مستطيلة بعض الشيء. وبين الجانب الأطول وذاك الأقصر قد يكون الفرق على الأكثر متراً أو يزيد قليلاً. السقف منخفض. ربّما يبدو هكذا بسبب اتّساعها الذي لا يتناسب مع ارتفاعها. إنّها مقبّبة بعض الشيء، أي أنّ الجانبين الأقصر لا ينتهيان عند السقف بزاوية قائمة إنّما بانحناءة.

على الجانبين الأقصر نافذتان عريضتان، عريضتان ومنخفضتان، تطلّان إلى الخارج. لا أرى إلى أين تطلّان، أكان على فناء أم على طريق، لأنّهما مجهّزان بأطر تبقّيهما مغلقتين. قلتُ أطر: ولا أدري إن كانت الكلمة الصحيحة. هي مصاريع من ألواح خشبية مغلقة بإحكام بقضيب حديديّ يعبرها. البلاط من مربّعات كبيرة من الآجر المشويّ وقد أشحب الزمن لونها. في وسط السقف يتدلّى مصباح زيت برؤوس متعدّدة. أحد الجدارين الأطول ليس فيه فتحات. الآخر، على العكس، في ركنه باب صغير يفضي إلى سلّم بلا درابزين من ست درجات، تنتهي بمسطّح مساحته حوالي متر مربّع. وهذا عليه درجة أخرى على الجدار يُفتح الباب على مستواها. لستُ أدري إذا ما كنتُ قد أجدتُ التعبير.

الجدران مبيضة ببساطة، دون زينة ولا زخارف. وسط الغرفة، مائدة مستطيلة، طويلة جداً بالنسبة لعرضها، موازية للجدار الأطول، مصنوعة من خشب عاديّ جداً. عند الجدارين الأطول، هناك ما يقوم مقام المقاعد. قرب الجدارين الأقصر، من جهة تحت النافذة، صندوق فوقه أحواض وجرار، وتحت النافذة الأخرى خزانة أطباق منخفضة وطويلة ليس عليها شيء الآن. هذا هو وصف الغرفة التي سيؤكل فيها الفصح.

طوال النهار وأنا أراها بوضوح، حتّى إنّي استطعتُ أن أحصي درجات السلم وألاحظ كلّ التفاصيل. ثمّ، الآن وقد حلّ الليل، يصحبني يسوعي إلى الباقي من التأمل.

أرى أنّ الغرفة تقود عبر السلم الصغير ذي الدرجات الست إلى مدخل مظلم، عن يساره بالنسبة لي، باب واسع يفضي إلى الطريق، منخفض وثقيل جداً، مدعّم بمسامير وصفائح حديدية. وفي مواجهة الباب الصغير الذي يؤدّي من العلّية إلى المدخل، باب آخر يؤدّي إلى غرفة أقلّ اتّساعاً. أحسب العلّية ناجمة عن اختلاف مستويات الأرض بالنسبة إلى بقية المنزل والشارع، وهي تبدو كقبو، شبه كهف نظيف ومرتب، ولكن دائماً تحت مستوى الأرض بحوالي المتر، ربّما لجعلها أكثر ارتفاعاً ومتناسبة مع مساحتها.

في الغرفة التي أراها الآن، مريم مع نساء أخريات. أتعرف على المجدلية ومريم أمّ يعقوب، يوحنا وسمعان. يبدو أنّهنّ وصلن للتوّ يرافقهن يوحنا، إذ إنّهنّ يخلعن أرديتهن، وبعد أن يطوينها، يضعنها على المقاعد المتناثرة في الغرفة، في حين يحيين الرسول الذي يمضي، وامرأة ورجل

يهرعان لدى وصولهنّ. لديّ انطباع بأنّهما صاحبا البيت وتلميذان أو مؤيّدان للناصريّ، ذلك أنّهما ممثّلان اندفاعاً وألفة مراعية للاحترام تجاه مريم.

ثوب مريم أزرق داكن، أزرق نيليّ داكن جداً. على رأسها وشاح أبيض يظهر عندما تخلع رداءها الذي كان يغطّي حتّى رأسها. وجهها ذابل جداً. تبدو وكأنّها قد هَرِمَت. حزينّة للغاية، رغم ابتسامتها الوداعة. شاحبة جداً. حتّى حركاتها متعبة ومشوّشة كما لإنسان مستغرق في أفكاره.

من الباب الموارب أرى المالك يروح ويجيء بين المدخل والعلّيّة، التي أضاءها بالكامل بإضاءة رؤوس مصباح الزيت المتبقّيّة. بعد ذلك يمضي إلى باب الشارع ويفتحه، ويدخل يسوع مع رسله. أرى أنّ الوقت مساء، إذ إنّ ظلال الليل قد غمرت الطريق الضيّقة بين المنازل العالية. إنّهُ مع الرُّسل جميعهم.

يلقي على المالك تحيّته المعتادة: «السلام لهذا البيت»، ثمّ، بينما ينزل الرُّسل إلى العلّيّة، يدخل هو إلى الغرفة حيث مريم.

تحيّيه النساء التقيّات باحترام عميق ويمضين مغلقات الباب، كي يتركّن مريم مع ابنها بحريّة.

يعانق يسوع أمّه ويقبّلها على جبهتها. تُقبّل مريم أولاً يد ابنها ثمّ خدّه الأيمن. يُجلّس يسوع مريم ويجلس هو إلى جانبها على مقعد مجاور، يُجلّسها وهو يُمسك بيدها، ويبقى ممسكاً بيدها كذلك وهي جالسة.

يسوع أيضاً مستغرق، يفكّر، حزين، رغم اجتهاده في الابتسام. تدرس مريم تعابير وجهه بضيق. الأمّ المسكينة التي تجعلها النعمة والمحبة تدرك أنّها الساعة! انقباضات مؤلمة تجول على وجه مريم، وعيناها تتّسعان في

رؤيا داخلية لألم وحشي. ولكنّها لا تأتي بحركة. هي مهيبة مثل ابنها الذي يُحدّثها، يحييها ويوصيها بالصلاة.

«أُمِّي، أتيتُ لأستمدّ منكِ القوّة والتعزية. أنا مثل طفل صغير، يا أُمِّي، محتاج إلى قلب أُمّه بسبب ألمه، وإلى صدر أُمّه لينال القوّة. لقد عدتُ، في هذه الساعة، يسوعك الصغير كما في الماضي. لستُ المعلم يا أُمِّي، أنا ابنك فقط، كما في الناصرة عندما كنتُ صغيراً، كما في الناصرة قبل أن أغادر الحياة الخاصّة. ليس لي سواكِ. إنّ الرجال، في هذه اللحظة، ليسوا بأصدقاء يسوعك الأوفياء. ليسوا حتّى شجعاناً في الخير. الأشرار فقط هم الثابتون والأقوياء وهم يصنعون الشرّ. إنّما أنتِ، أنتِ الوفيّة لي وأنتِ قوّتي، يا أُمِّي، في هذه الساعة. اسنديني بمحبّتك وصلاتك. أنتِ وحدكِ تعلمين كيف تُصلّين في هذه الساعة وسط الذين يحبّونني أكثر أو أقلّ. تُصلّين وتدرकिन. الآخرون في عيد، مستغرقون في أفكار العيد أو أفكار الجريمة، بينما أنا أتألم من أمور كثيرة. أمور كثيرة ستموت بعد هذه الساعة. ومن بينها بشريّتهم، وسوف يُحسنون أن يكونوا أهلاً لي، كلّهم، عدا الذي ضلّ، والذي ما من قوّة قادرة على أن تقوده على الأقلّ إلى التوبة، لكنهم حالياً ما زالوا غير واعين لا يدركون أنّي سوف أموت، فيما هم يبتهجون طائنين أنّ انتصاري لم يكن يوماً بمثل هذا القرب. إنّ الهوشعنا التي كانت منذ بضعة أيّام قد أسكرتهم. أُمِّي، من أجل هذه الساعة أتيتُ، وبشكل فائق الطبيعة أراها بفرح آتية. ولكنّ الأنا فيّ تخافها أيضاً، لأنّ هذه الكأس تُدعى خيانة، جحوداً، شراسة، تجديفاً، تخلياً. اعضديني يا أُمِّي. كما عندما جذبتِ إليك روح الله بصلاتك، لتعطي بواسطته للعالم من تنتظره الأمم، اجذبي لابنك الآن القوّة التي تساعدني في

إتمام العمل الذي من أجله أتيتُ. الوداع يا أمي، باركيني يا أمي، حتّى باسم
الآب. واغفري للجميع. فلنغفر معاً، منذ الآن فلنغفر للذين يعذبوننا.»

إنّ يسوع قد انزلق وهو يتكلّم عند قدميّ أمّه، على ركبتيه، ينظر إليها
وهو يعانق خصرها.

تبكي مريم بلا أنين، وجهها مرتفع قليلاً في صلاة داخلية لله. تسيل
الدموع على وجنتيها الشاحبتين وتسقط على صدرها وعلى رأس يسوع الذي
يتّكئ في النهاية على قلبها. ثمّ تضع مريم يدها على رأس يسوع كما لو كانت
تباركه، ثمّ تنحني، تُقبّل شعره، تمسحه، تربت على كتفيه، ذراعيه، تأخذ
وجهه بين يديها وتديره إليها وتضمّه إلى قلبها. وتُقبّله مرّة أخرى، وهي
تبكي، على جبهته، على خديّه، على عينيّه المتألّمتين، تهدد لهذا الرأس
المسكين المتعب، كما لو كان طفلاً، كما رأيته تهدد في المغارة لوليدها
الإلهيّ. ولكنّها لا تغني الآن. تقول فقط: «ابني! ابني! يسوع! يسوعي!» إنّما
بصوت يمزّقني.

ثمّ ينهض يسوع مجدّداً. يسوّي رداءه، يلبث واقفاً في مواجهة أمّه التي
ما زالت تبكي، وبدوره يباركها. ثمّ يتوجّه إلى الباب، وقبل أن يخرج، يقول:
«أمي، سأرجع ثانية قبل أن آكل فصحي. صلّي في انتظاري.» ويخرج.

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

14- (العشاء الفصحى)

1945 / 03 / 09

بداية آلام الخميس المقدس.

الرُّسُل، وعددهم عشرة، يعملون بهمة على إعداد العليّة.

يهودا متسلّقاً المنضدة، ينظر إذا ما كان الزيت متوفّراً في جميع أسرجة المصباح الكبير الذي يشبه تويج زهرة الفوشيا المزدوجة، ذلك أنّ الساق المتدلّي محاط بخمسة مصابيح شبيهة بالبتلات، ثمّ دور ثان، أخفض منه، أشبه بتاج حقيقيّ بشعلات صغيرة، ثمّ هناك أخيراً ثلاثة مصابيح نحيلة معلقة بسلاسل تشبه مدّقات الزهرة المضيئة.

ثمّ يقفز إلى الأرض ويساعد أندراوس في وضع الأواني بفنّ على المائدة الّتي مدّ عليها مفرّش في غاية الرقّة. وأسمع أندراوس يقول: «يا له من كتّان رائع!»

والاسخريوطي: «واحد من أفضل ما لدى لعازر. وقد شأئت مرثا بشكل حتميّ أن تجلبه.»

«وهذه الكؤوس؟ وهذه الجرار إذن؟» يراقب توما الذي وضع الخمر في الجرار الثمينة وهو ينظر إليها بإعجاب، ناظراً إلى نفسه كما المرأة في بطونها الدقيقة، ويلمس مقابضها المنقوشة بعين خبير.

«من يدري أيّة قيمة لها، إيه؟» يسأل يهوذا الاسخريوطي.

«مشغولة بالمطرقة. أبي يصاب بالجنون إن رآها. أوراق الفضة والذهب تُلوى بالحرارة بسهولة. ولكن أن تُشتغل هكذا... يمكن في لحظة ما أن يخرب العمل كله. يكفيها ضربة سيئة. تلزم القوة مع الخفة في نفس الوقت. هل ترى المقابض؟ إنها مُشكّلة من الكتلة نفسها. ليست ملحومة. أشياء ثمينة... فكّر في كلّ البرادة وبقايا الترقيق التي تُهدّر. لا أعرف إن كنت تفهمني.»

«إيه! بلى أفهم! فهذا مثلما يفعل النحات.»

«تماماً هو هذا.»

الجميع يُبدون إعجابهم، ثم يرجعون إلى عملهم. هذا يضع المقاعد وآخر يعدّ خزائن الأطباق.

يدخل بطرس وسمعان معاً.

«آه! أخيراً أتيتما! أين ذهبتما من جديد؟ بعد أن وصلتما مع المعلم ومعنا، عاودتما الهرب.» يقول الاسخريوطي.

«مُهمّة أخرى قبل أن يحين الوقت.» يجيب سمعان باختصار.

«هل أنت مكتئب؟»

«أعتقد أنّ مع ما سمعناه في هذه الأيام، ومن هذه الشفاه التي لم نسمعها تكذب قط، فهناك سبب وجيه.»

«ومع رائحة النتانة هذه لـ... حسن، اصمت يا بطرس.» يدمدم بطرس بين أسنانه.

«أنتَ أيضاً! تبدو لي مجنوناً منذ بضعة أيّام. وجهك مثل أرنب برّي يشعر أن وراءه ابن آوى.» يجيب يهوذا الاسخريوطيّ.

«وأنتَ، لك خطم نمس. أنتَ أيضاً، لست كثير الجمال منذ عدّة أيّام. تنظر بطريقة... لك حتّى عين منحرفة... مَنْ تنتظر أو ماذا تأمل أن ترى؟ تبدو مفعماً بالثقة، تريد إظهار ذلك، لكنك تبدو كمَنْ ينتابه خوف.» يجيب بطرس.

«آه! من جهة الخوف!... حتّى أنتَ لست بطلاً بالتأكيد!»

«لا أحد منّا بطل يا يهوذا. أنتَ تحمل اسم المكابيّ، ولكنك لست هو. أنا أقول، مع أنّ اسمي: "الله يُنعم"، ولكنّي أقسم لك أنّي أحمل في ذاتي رعشة مَنْ يحمل شقاء، وبالأخصّ مَنْ هو مجرد من نعمة الله. إنّ سمعان بن يونا، الذي تغيّر اسمه إلى "الصخرة"، هو الآن مائع مثل الشمع قرب النار. لم يعد متحكّماً بإرادته. ذاك الذي لم أراه قطّ يرتعش في أعنف العواصف! يبدو متّى وبرتلماوس وفليبيس وكائهما يسيران وهما نائمان. أخي وأندراوس لا يفعلان سوى التنهّد. ابنا العم، اللذان لديهما ألم القربى مع ألم حبّ المعلم، انظر إليهما. يبدوان وقد شاخا. توما فقد مرحه. وسمعان يبدو وكأنّه عاد الأبرص المنهك قبل ثلاث سنوات بقدر ما حفره الألم، أحسبه متأكلاً، ممتقّاً، ذليلاً.» يجيبه يوحنا.

«نعم، لقد أثر علينا كلّنا بسوداويّته.» يلاحظ الاسخريوطيّ.

«ابن عمّي يسوع، معلّمي وربّي وربّكم، سوداويّ هو وليس سوداويّاً. إن كنتَ تريد القول، بهذا التعبير، إنّ حزين بسبب الآلام الشديدة التي تسبّبها له إسرائيل كلّها، والتي نراها، وللألم الآخر المخفيّ الذي يراه هو وحده،

فأقول لك: "أنتَ على صواب". ولكن إن استخدمتَ هذا التعبير لتقول إنه مجنون، فأنا أمتنعك.» يقول يعقوب بن حلفى.

«أولست الفكرة السوداوية الراسخة ضرباً من الجنون؟ لقد درستُ أنا أيضاً أموراً وثنية، وأعلم. لقد بذل الكثير من ذاته. وروحه الآن منهك.»

«وهذا معناه العته [الخبل]. أليس كذلك؟» يسأل ابن العم الآخر يوضاس، الهادئ في الظاهر.

«هو كذلك تماماً! كان والدك قد رأى صواباً، فهو بارٌّ بذاكرة مقدّسة، وأنتَ تشبهه في البرِّ والحكمة! إنَّ يسوع، المصير المحزن لمنزل عريق مغرق في القدم ومبتلى بالهرم النفسي، كان له ميل لهذا المرض على الدوام. قد بدأ خفيفاً، ثمّ تفاقم شيئاً فشيئاً. قد رأيتَ كيف هاجم الفريسيين والكتّبة، الصدّوقيين والهيروديين. لقد جعل حياته مستحيلة مثل طريق مغطّى بشظايا صوّان. وهو الذي وضعها بذاته. نحن... قد أحببناه طالما الحب أخفى لنا ذلك. إنّما أولئك الذين أحبّوه دون أن يعبدوه: والدك، أخوك يوسف، وسمعان في البداية، بالصواب رأوا... كان علينا أن نفتح عيوننا لدى سماعهم. على العكس، فقد أغوتنا كلّنا فتنته اللطيفة كمريض. والآن... واحسرتاه!»

يوضاس تدّوس، الذي هو بحجم الاسخريوطي، هو في مواجهته تماماً ويبدو كأنّه يستمع إليه بهدوء، ينتفض بعنف، وبظاهر يد قويّة، يرمي يهوذا على أحد المقاعد، وبغضب مُسيطر عليه، دون انفجار صوت، وإذ ينحني ينفخ في وجهه الجبان، ولا تظهر على يهوذا أية ردّة فعل، ربّما خوفاً من أن يكون تدّوس على علم بجريمته: «هذا من أجل العته، أيّها الدنيء! ولأنّه فقط قريب، ولأنّه مساء الفصح لا أخنقك. ولكن فكّر، فكّر جيّداً! إن أصابه شرٌّ

ولم يعد موجوداً هنا كي يوقف عزمي، فلن ينقذك أحد. وكما لو كان الحبل على رقبتك، ستقوم هاتان اليدان الأمينتان والقويتان لنجار من الجليل وسليل لرامي المقلاع على جليات بتلك المهمة. قف. أيها الفاسق المائع! وانتبه لسلوكك.»

يقف يهوذا، ممتقاً، دون أدنى ردّة فعل. وما يدهشني، أنّه لم يفعل أحد لتصرّف تدّاوس الجديد. بل على العكس!... من الواضح أنّهم جميعاً يوافقونه.

ما كاد الجوّ يسكن حتّى دخل يسوع. يقف أمام عتبة الباب الصغير الذي تمرّ قامته الفارعة منه بصعوبة، يضع رجله على المسطح الصغير، وبابتسامته الوديعة والحزينة، يقول وهو يفتح ذراعيه: «السلام معكم.» صوته متعب كمن يعاني نفسياً وجسدياً.

ينزل، ويداعب الرأس الأشقر ليوحنا الذي جرى إلى جانبه. وكما لو كان يجهل كلّ شيء، يبتسم لابن عمّه يوحنا ويقول لابن عمّه الآخر: «أمك ترجوك أن تكون لطيفاً مع يوسف. لقد سألت النساء للتوّ عن أخباري وأخبارك. آسف لأنني لم أسلم عليه.»

«ستفعل غداً.»

«غداً؟... لكن سيكون لديّ دائماً الوقت لرؤيته... آه! يا بطرس! أخيراً سنبقى معاً قليلاً! منذ أمس، وأنت تبدو لي مثل شعلة المستنقعات، أراك، ثم لا أعود أراك. اليوم يمكنني القول إنني تقريباً فقدتك. أنت أيضاً يا سمعان.»

«شعرنا الذي بياضه أكثر من سواده يمكنه أن يؤكّد لك أننا لم نغب بسبب رغبة جسدية.» يقول سمعان بجديّة.

«رغم أن... في كلّ الأعمار يمكن لهذا الجوع أن يكون... الكهول! أسوأ من الشباب...» يقول الاسخريوطيّ مهاجماً.

ينظر إليه سمعان ويهمّ بالردّ. لكنّ يسوع ينظر إليه أيضاً ويقول: «هل لديك ألم في أسنانك؟ خذك الأيمن متورّم وأحمر.»
«نعم، أتألم. ولكنه لا يستحقّ الاهتمام به.»

الآخرون لا يقولون شيئاً، وينتهي الموضوع بهذا الشكل.

«هل قمتم بما يلزم؟ أنت يا متى؟ وأنت يا أندراوس؟ وأنت يا يهوذا، هل فكرت في التقدمة للهيكّل؟»

الأولان، وكذلك الاسخريوطيّ يقولون: «كلّ ما قُلْتَه لنقوم به اليوم فعلناه. فاطمئنّ.»

«لقد حملتُ باكورات لعازر إلى يُونَا امرأة خُوزي لأجل الأطفال. لقد قالوا لي: "تلك التفاحات كانت أفضل!" كان فيها طعم الجوع، تلك! وكانت تفاحاتك.» يقول يوحنا مبتسماً وحالماً.

يبتسم يسوع أيضاً لذكرى...

«لقد رأيتُ نيقوديموس ويوسف.» يقول توما.

«هل رأيتهما؟ هل تكلمتَ معهما؟» يسأل الاسخريوطيّ باهتمام مبالغ فيه.

«نعم. ما الغريب في هذا؟ يوسف زبون جيّد لأبي.»

«لم تقل هذا من قبل... ولهذا أنا مندهش!...» يحاول يهوذا أن يزيل الانطباع، الذي كان قد أحدثه من قبل، عن قلقه بشأن لقاء يوسف ونيقوديموس مع توما.

«يبدو لي غريباً عدم مجيئهما إلى هنا لتقديم الاحترام لك. لا هما ولا خوزي ولا مَناين... ولا أحد من...»

ولكنّ الاسخريوطيّ بضحكة زائفة، يقطع برتلماوس ويقول: «التمساح يتخفّى في الأرض عند اللزوم.»

«ماذا تقصد؟ إلامَ تلمح؟» يسأل سمعان بعدوانيّة لم يسبق له أن كان بها.

«هدوءاً! هدوءاً! ماذا بكم؟ إنّها الأمسية الفصحية! لم نحظْ أبداً بمثل هذه الأبّهة التي تليق بأكل الحَمَل. فلنأكل إذاً العشاء بروح سلاميّ. أرى أنّي سبّبتُ لكم اضطراباً شديداً بتعاليمي في الأمسيات الأخيرة هذه. ولكن أترون؟ لقد انتهيتُ! الآن لن أسبّب لكم المزيد من الاضطراب. لم يُقلّ كلّ ما يتعلّق بي. فقط الأساسيّ منه. الباقي... ستدركونه فيما بعد. سيقال لكم... نعم. سيأتي من يقوله لكم. يوحنا، اذهب مع يهوذا وآخر لجلب أواني التطهير. ثمّ فلنجلس إلى المائدة.» يقول يسوع في رقة ممزّقة.

يوحنا مع أندراوس، يوضاس تداوس مع يعقوب، يجلبون الأنية الكبيرة، ويسكبون فيها الماء ويقدمون المنشفة ليسوع ولرفاقهم الذين يفعلون معهم الشيء نفسه. الأنية [حوض من المعدن] توضع في ركن.

«والآن إلى أماكنكم. أنا هنا، وهنا (إلى اليمين) يوحنا، وعلى الجانب الآخر الوفيّ لي يعقوب. أوّل تلميذين لي. بعد يوحنا، صخرتي القويّة، وبعد

يعقوب، ذاك الذي مثل الهواء، لا نلاحظه ولكنّه دائماً حاضر ويعزّي:
أندراوس. بجانبه، ابن العم يعقوب. ألا تتذمّر يا أخي الوديع إن أعطيتُ
المكان الأوّل للأوائل؟ أنتَ ابن أخ البار، الذي ترفرف روحه وتحوم عليّ في
هذه الأمسية أكثر من أيّ وقت آخر. لتحظّ بالسلام، يا أبا ضعف طفولتي،
البلوطة التي ارتاح في ظلّها الأمّ والابن! ليكن لك السلام! وبعد بطرس:
سمعان... سمعان، تعال إلى هنا لحظة. أريد أن أحّدق في وجهك الوفي...
ففيما بعد لن أراك إلا بصعوبة لأنّ الآخرين سيحبّون عني وجهك الفاضل.
شكراً يا سمعان. من أجل كلّ شيء..» ويعانقه.

سمعان، حينما يتركه، يعود إلى مكانه واضعاً يديه على وجهه في تعبير
عن الحزن.

«مقابل سمعان، عزيزي برتلماوس، اثنان من النزاهة والحكمة
ينعكسان على بعضهما. حسناً كونهما معاً، وإلى جانبه، أنتَ يا أخي
يوضاس. هكذا أراك... وسيبدو لي وكأنّني في الناصرة... عندما كانت
تجمعنا بعض الاحتفالات معاً على مائدة واحدة... وأيضاً في قانا... هل
تذكر؟ كنّا معاً. احتفال... حفلة عرس... أوّل معجزة... الماء المحوّل
خمرًا... اليوم أيضاً احتفال... واليوم أيضاً ستكون معجزة... الخمر سيغيّر
طبيعته... ويصبح...»

يستغرق يسوع في أفكاره، رأسه منحن، وكأنّه منعزل في عالمه
السريّ. ينظر إليه الآخرون ولا يتكلّمون.

يرفع رأسه ثانية ويحدّق بيهودا الاسخريوطيّ، الذي يقول له: «ستكون
قبالتي.»

«هل تحبني إلى هذه الدرجة؟ أكثر من سمعان، حتّى تريدني دائماً
قبالتك؟»

«للغاية. أنت قلت.»

«لماذا يا معلّم؟»

«لأنّك أنت الذي عملت من أجل هذه الساعة أكثر من الجميع.»

يلقي يهوذا نظرة مختلفة على المعلّم ورفاقه. على الأوّل نظرة إشفاق،
وعلى الآخرين نظرة انتصار.

«وإلى جانبك، متى من جهة ومن الأخرى توما.»

«إذا متى عن يساري، وتوما عن يميني.»

«كما تريد، كما تريد.» يقول متى. «يكفيني أن يكون مخلصي قبالتني.»

«الأخير فيلبس. هاكم، أترون؟ من ليس له مكان الشرف إلى جانبي،

فله الشرف أن يكون قبالتني.»

يسوع، وهو واقف في مكانه، يسكب الخمر في الكأس الكبير الموضوع
أمامه (الجميع أمامهم كؤوس طويلة، إنّما هو لديه كأس أكبر كثيراً، إضافة
إلى المشابهة للكؤوس الأخرى. يُفترض أنّه الكأس الطقسيّ). يرفعه، يقدّمه
ويضعه.

ثمّ جميعاً معاً يسألون بنغمة مزمور: «لماذا هذا الطقس؟» سؤال له
صيغة خاصّة، يفهم على أنّها طقسيّة.

يسوع، كما ربّ عائلة، يجيب: «هذا اليوم يذكر بحرّيتنا من مصر. مبارك يهوه الذي خلق ثمرة الكرمة.» ويشرب جرعة من هذا الخمر الذي قدّمه ويمرّر الكأس للآخرين. ثمّ يقدّم الخبز، يقسمه ويوزّعه، ثمّ الخضار المغموسة في الصلصة الحمراء الموضوعة في أربع من الأواني.

وبمجرد أن انتهى هذا الجزء من الوجبة، يرتلون المزامير جوقة.

يُجلب من الخزانة طبق الحَمَل المشوي الكبير ويوضع على المائدة أمام يسوع.

بطرس الذي يؤدّي دور... الصوت الأوّل للجوقة، إن شئتم، يسأل: «لماذا هذا الحمل المقدّم هكذا؟»

«في ذكرى إسرائيل حين افتُدي بالحمل المذبوح. لم يمت البكر حيث كان الدم يلعب على قائمتيّ الباب والسكف (الجزء الذي يلي تاج العمود). وبعد ذلك، وبينما كانت مصر تبكي أولادها البكور الموتى، بدءاً من القصر الملكي حتّى أوضع كوخ، بدأ اليهود، يقودهم موسى، مسيرتهم تجاه أرض الحرية والوعد. أحقاؤهم مشدودة، ونعالهم في أرجلهم والعصا في اليد، تعجّل شعب إبراهيم السير مرتلين ترانيم الفرحة.»

يقف الجميع وينشدون: «حين خرج إسرائيل من مصر وبيت يعقوب من وسط الشعب البربري، صارت اليهوديّة ملاذه.» إلخ.

الآن، يقطع يسوع الحَمَل، ويسكب كأساً جديدة، ويمرّرها بعد أن يشرب منها. ثمّ يرتّل أيضاً: «أيّها الأولاد، سبّحوا الربّ. فليكن مباركاً اسم الأزلّي الآن ودائماً على مرّ العصور. من المشرق إلى المغرب فليمجّد اسمه.» إلخ.

يوزّع يسوع الأجزاء، منتبهاً إلى أن يأخذ كل واحد قسماً طيباً، تماماً كآب لعائلة بين الأولاد الأعزاء عليه جميعهم. إنه مهيب، حزين قليلاً، فيما يقول: «شهوة اشتهيت أن أكل هذا الفصح معكم. هذه رغبة رغباتي مذ كنتُ من الأزل "المخلص". كنتُ أعلم أن هذه الساعة تسبق الأخرى، والفرح ببذل ذاتي، كان يضع هذه التعزية في المقدمة قبل استشهادي... شهوة اشتهيت أن أكل هذا الفصح معكم لأنني لن أذوق ثمرة الكرمة حتى يأتي ملكوت الله. حينئذ سأجلس من جديد مع المختارين إلى وليمة الحمل، لعرس الأحياء مع الحيّ. ولكن سيأتي إليه فقط من كانوا متواضعين وأنقياء القلب مثلي.»

«يا معلّم، قلتُ قبل قليل أن من ليس له شرف المكان إلى جانبك، فله شرف أن يكون قبالتك. إذاً كيف نعرف من هو الأوّل بيننا؟» يسأل برتلماوس.

«الجميع ولا أحد. مرّة... كنّا عائدين متعبين... مع غثيان حقد الفريسيّين. ولكنكم لم تكونوا تعبين من المناقشة بينكم عمّن هو الأعظم... وطفل جرى بالقرب مني... واحد من أصدقائي الصغار... وبراءته لطّفت اشمزازي من أشياء كثيرة. لم تكن هذه آخر بشريّتكم العنيدة. أين أنت الآن يا صغيري بنيامين صاحب الإجابة الحكيمة التي أوتيّها من السماء، ذلك أنّك الملاك الذي كنته، فالروح كان يكلمك؟ قد قلتُ لكم آنذاك: "إن أراد أحد أن يكون أولاً، فليكن الأخير وخادم الكل". وأعطيكم كمثال الطفل الحكيم. الآن أقول لكم: "ملوك الأمم يسودونهم. والشعوب المضطّهدة، رغم كراهيتهم لهم، يهلّلون لهم، ويدعونهم الملوك 'المحسنين' و'آباء الوطن'، ولكن الكراهية تكمن تحت مظهر الاحترام الكاذب". فلا يكن الأمر هكذا بينكم. بل ليكن الأكبر فيكم كالأصغر، والرئيس كالخادم. من بالفعل هو الأكبر؟ هل هو

الجالس على المائدة، أم الذي يخدم؟ هو الجالس على المائدة. ومع ذلك أنا أخدمكم. وعمّا قليل سأخدمكم أكثر بعد. إنكم مَنْ كنتم معي في المحن، وأنا أعدّ لكم مكاناً في ملكوتي، عندما سأكون فيه ملكاً وفقاً لمشية أبي، لتأكلوا وتشربوا على مائدتي الأبدية، وتجلسوا على العروش لتدينوا أسباط إسرائيل الاثني عشر. إنكم قد لبثتم معي في المحن... وليس سوى هذا ما يمنحكم العظمة في عينيّ الأب.»

«والذين سيأتون؟ ألن يكون لهم مكان في الملكوت؟ نحن فقط؟»

«آه! كم من أمير في بيتي! كلّ الذين كانوا مخلصين للمسيح في تجارب الحياة سيصيرون الأمراء في ملكوتي. لأنّ الذين ثابروا حتّى النهاية في بلوى الوجود سيصيرون مماثلين لكم أنتم، الذين ثبتّتم معي في محني. إنني أتماثل في الذين يؤمنون بي. إنّ الألم الذي أعانقه من أجلكم ولكلّ الناس أعطيه كتعليم للمختارين بشكل خاصّ. مَنْ سيكون مخلصاً لي في الألم سيكون واحداً من مطوبيّ المماثلين لكم، أيا أحبائي.»

«نحن ثابروا حتّى النهاية.»

«أتظنّ هذا يا بطرس؟ وأنا أقول لك إنّ ساعة المحنة لم تأت بعد. سمعان، سمعان بن يونا، هو ذا الشيطان قد طلب أن يغربلكم مثل الحنطة. وأنا صليت لأجلك لنألاً يتزعزع إيمانك. وأنت متى تبت، فثبتت إخوتك.»

«أنا أعلم أنّي خاطئ. ولكنّي سأكون وفياً لك حتّى الموت. لم تكن لي تلك الخطيئة، ولن تكون أبداً.»

«لا تكن متكبراً يا عزيزي بطرس. هذه الساعة ستغيّر أموراً لا حصر لها، قد كانت قبلاً هكذا والآن ستصير مختلفة. كم من أمور!... تجلب

وتفرض ضرورات جديدة. أنتم تعرفون ذلك. قُلْتُهَا لَكُمْ دائماً، حتّى عندما كنّا نمضي في دروب منعزلة، يرتادها اللصوص: "لا تخافوا، لن يصيبكم أيّ شرّ لأنّ ملائكة الربّ معنا. لا تهتمّوا لشيء." هل تتذكّرون حينما كنتُ أقول لكم: "لا تقلقوا بشأن ما تأكلون أو ما تلبسون. إنّ الآب يعلم ما نحن بحاجة إليه؟" كنتُ أقول لكم أيضاً: "الإنسان أفضل كثيراً من عصفور ومن الزهرة التي هي اليوم نبتة وغداً هي تبس. ومع ذلك يعتني الآب كذلك بالزهرة وبالعصفور الصغير. فهل لكم أن تشكّوا إذاً في عنايته بكم؟" وكنتُ أقول لكم أيضاً: "أعطوا كلّ مَنْ يسألكم، والذي يهينكم، قدّموا له خذكم الآخر". كنتُ أقول لكم: "لا تحملوا مالاً ولا عصاً". لأنّني علّمتكم المحبة والثقة. أمّا الآن... الآن هو ليس ذاك الزمن. الآن أقول لكم: "هل أعوزكم شيء إلى الآن. هل أهنتم أبداً؟"»

«لا شيء يا معلّم. أنت وحدك أهنت.»

«أنتم ترون إذاً أن كلمتي كانت صادقة. ولكنّ الربّ قد دعا ملائكته جميعاً الآن. إنّها ساعة الشياطين... إنّ ملائكة الربّ يغطّون عيونهم بأجنحتهم الذهبية، يستترون ويتألّمون لأنّ أجنحتهم ليس لها لون الغمّ، ذلك أنّها ساعة حداد، حداد قاسٍ، انتهاك مقدّسات... لا ملائكة على الأرض هذا المساء. هم أمام عرش الله يُغطّون بأناشيدهم لعنات العالم قاتل الله وبكاء البريء. ونحن وحدنا... أنتم وأنا: بمفردنا. والشياطين هم سادة الساعة. كذلك سنأخذ الآن مظاهر ومعايير الناس المساكين الذين يرتابون ولا يحبّون. الآن مَنْ له كيس فليأخذ أيضاً خُرْجاً، ومَنْ ليس له سيف فليبع رداءه وليشترِ واحداً، لأنّ ذلك أيضاً قد قيل عني في الكتب وينبغي له أن يتمّ: "قد أُحصي مع الأثمة". ففي الحقيقة كلّ ما يختصّ بي له غايته.»

سمعان، الذي نهض ليذهب إلى الصندوق حيث وضع رداءه الثمين -فبالفعل في هذا المساء يلبس الجميع أفضل ملابسهم، ومعهم بالتالي في أحزمتهم الفاخرة خناجرهم، المرصّعة والقصيرة جدّاً، الأقرب إلى السكاكين منها إلى الخناجر- يأخذ سيفين، سيفين حقيقيّين، طويلين، لهما انحناءة خفيفة، ويحضرهما إلى يسوع: «أنا وبطرس مسلّحان هذا المساء. معنا هذان، أمّا الآخرون فليس معهم سوى الخنجر القصير.»

يسوع يتناول السيفين، يتفحصهما، يستلّ أحدهما من غمده ويجرّب مدى حدّة نصله على أحد أظافره. مشهد غريب، ورؤية ذلك السلاح الوحشيّ بين يديّ يسوع تعطي انطباعاً أكثر غرابة بعد.

«مَنْ أعطاكما إياهما؟» يسأل الاسخريوطيّ فيما يسوع يراقب بصمت. ويظهر يهوذا وكأنّه على شوك...

«مَنْ؟ أذكرك أن أبي كان نبيلًا، وذا سلطان.»

«ولكن بطرس...»

«وبعد؟ منذ متى ينبغي أن أقدم حساباً عن الهدايا التي أريد أن أقدمها لأصدقائي؟»

يرفع يسوع رأسه بعد أن يعيد السلاح إلى غمده ويرجعه إلى الغيور.

«حسنًا، هذا يكفي. أحسنت بأخذهما. إنّما الآن، قبل أن نشرب الكأس الثالث. انتظروا لحظة. قد قلّت لكم إنّ الأكبر فيكم كالأصغر وإنّني الخادم على هذه المائدة، وسأخدمكم أكثر بعد. إلى الآن أعطيتكم غذاء. خدمة للجسد. والآن أريد أن أعطيكم غذاء للروح. هو ليس طبَقاً من الطقس القديم. بل هو

ينتمي إلى الطقس الجديد. لقد شئتُ أن أعتد قبل أن أصبح "المعلم". فمن أجل نشر الكلمة كان هذا العماد كافياً. أمّا الآن فالدّم سيُهرق. إذا يلزم عماد جديد حتّى لكم، أنتم الذين قد تطهّرتُم، على يد المعمدان، في زمانه، وكذلك اليوم في الهيكل. ولكنّ هذا لا يكفي أيضاً. تعالوا أطهّركم. أوقفوا العشاء. هناك شيء أكثر سموّاً وأكثر ضرورة من الطعام المعطى ليملاً المعدة، حتّى وإن كان طعاماً مقدّساً مثل طعام الطقس الفصحى. إنّهُ روح نقيّ، مهياً لتلقّي نعمة السماء الّتي تنزل الآن كي تجعل لها عرشاً فيكم وتمنحكم الحياة. تمنح الحياة لمن كان طاهراً.»

ينهض يسوع، ويجعل يوحنا ينهض ليسهل خروجه من مكانه، ويذهب إلى صندوق ويخلع ثوبه الأحمر ليطويه ويضعه على الرداء المطويّ آنفاً، ويأتزر بمنشفة كبيرة، ثمّ يذهب إلى حوض آخر ما يزال فارغاً ونظيفاً. يصبّ فيه ماء ويحمله إلى وسط الغرفة، بجوار المائدة، ويضعه على أحد المقاعد. ينظر إليه الرُّسل مندهشين.

«ألا تسألوني ماذا أفعل؟»

«نحن لا نعرف. أقول لك إنّنا قد تطهّرنا.» يجيب بطرس.

«وأنا أكرّر لك، هذا لا أهميّة له. تطهيري يلزم كي يجعل الطاهر أكثر طهراً.»

ويركع، ويحل سير نعل الاسخريوطيّ ويغسل قدميه الواحدة بعد الأخرى. إنّهُ من السهل القيام بذلك، إذ إنّ المتكآت متوضّعة بشكل تكون فيه الأقدام باتّجاه الخارج. يهوذا منذهل ولا يقول شيئاً. فقط حينما يسوع، قبل أن يُلبسه حذاءه في القدم اليسرى ويقف، يقوم بحركة تقبيل قدمه اليمنى الّتي

كانت آنذاك مُنتَعلة، يسحب يهوذا قدمه بسرعة ويضرب بنعله الفم الإلهي. يفعل ذلك بغير قصد. لم تكن ضربة قويّة، ولكنها تسبّب لي ألماً شديداً. يبتسم يسوع، وللرسول الذي يسأله: «هل أذيتك؟ لم أكن أريد... سامحني.» يجيب «لا، يا صديقي، لقد قمتَ به بغير سوء نية وهذا لا يسيئني.» ينظر إليه يهوذا... نظرة مرتعشة، هاربة....

ثمّ ينتقل يسوع إلى توما، ثمّ فليبي... يتبع الجهة الضيقة من المائدة ويصل إلى ابن عمه يعقوب. يغسله، وأثناء نهوضه يُقبّله في جبهته. ينتقل إلى أندراوس الذي يحمّر خجلاً ويبذل جهداً كيلا يبكي، يغسله، يلاطفه كطفل، ثمّ إلى يعقوب بن زبدي الذي لا يكفّ عن التمتمة: «آه! يا معلّم! يا معلّم! يا معلّم! أنت تتلاشى، يا معلّم السامي!» يوحنا كان قد حلّ سير نعليه وبينما ينحني يسوع كي يمسح له قدميه، ينحني ليقبّل له شعره. أمّا بطرس!... فليس سهلاً إقناعه بهذا الطقس!

«أنت تغسل رجليّ؟ لا تفكر بذلك! طالما أنا حيّ، لن أسمح بذلك. أنا دودة، وأنت الله. لكلّ منّا مكانته.»

«الذي أعمله أنا لا يمكنك أن تفهمه الآن. ولكنك ستفهمه فيما بعد. دعني أفعل.»

«كلّ ما تريده يا معلّم. هل تريد أن تقطع رقبتني؟ اقطعها. أمّا أن تغسل رجليّ فلن يكون أبداً.»

«آه! يا سمعاني! ألا تعلم أنّه إن لم أغسلك فلن يكون لك نصيب في ملكوتي؟ سمعان، سمعان! أنت محتاج لهذا الماء من أجل نفسك والطرق

الكثيرة التي عليك سلوكها. ألا تريد أن تأتي معي؟ إن لم أغسلك، فلن تأتي إلى ملكوتي.»

«آه! يا ربي المبارك! اغسلني إذن بالكامل! رجلي، يدي ورأسي!»

«إن الذي اغتسل، مثلكم، لا يحتاج إلا إلى غسل الأرجل، لأنه طاهر كله. أما الأرجل... فالإنسان بأرجله يمضي في القذارات. وهذا ليس بشيء، فكما قلت لكم، ليس ما يدخل ويخرج مع الطعام هو الذي يلوّث، وليس ما يعلق بالأرجل في الطريق هو الذي ينجس الإنسان. بل ما يُحتَضَن ويُنَضَج في قلبه ويصدر منه لينجس أفعاله وأعضائه. وأرجل الإنسان ذي النفس الدنسة تمضي إلى الخلاعات، إلى الفسق، إلى التجارات المحرّمة، إلى الجرائم... فهي إذن من بين أعضاء الجسم، التي تحتاج بالأكثر إلى التطهير... مع العينين، والفم... آه! أيها الإنسان! الإنسان! الكائن الكامل يوماً، الأوّل! ثم أفسد للغاية من قبل المغوي! ولم يكن فيك خبث أيا أيها الإنسان ولا خطيئة!... والآن؟ كلّك خبث وخطيئة، وما من جزء فيك لا يخطئ!»

يغسل يسوع قدمي بطرس، يقبلهما، ويبكي بطرس ويأخذ بين يديه الضخمتين يدي يسوع، ويمرّرها على عينيه ليقبلهما بعد ذلك.

سمعان أيضا يخلع نعليه ويستسلم للغسل دونما كلام. ولكن بعدها، عندما يهّم يسوع بالانتقال إلى برتلمائوس، يركع سمعان ويقبل قدمي يسوع قائلاً: «طهرني من برص الخطيئة كما طهرتني من برص الجسد، حتّى لا أخزي ساعة الدينونة، يا مخلصي!»

«لا تخف يا سمعان. ستأتي إلى المدينة السماوية أبيض كالثلج.»

«وأنا يا ربّ؟ لبرتلمائوس العجوز ماذا تقول؟ أنت رأيتني تحت ظلّ التينة وقرأت قلبي. والآن ماذا ترى، وأين تراني؟ طمئن عجوزاً مسكيناً يخشى ألا تكون لديه القوّة والوقت ليصل إلى ما تشاء أن يكون.» برتلمائوس في غاية التأثر.

«أنت أيضاً لا تخف. لقد قلتُ آنذاك: "هذا إسرائيليّ حقيقيّ لا غشّ فيه." والآن أقول: "هذا مسيحيّ حقيقيّ أهل بالمسيح". أين أراك؟ على عرش أبديّ، لابساً الأرجوان. سأكون دائماً معك.»

هو دور يوحنا تداوس. هذا، حينما يرى يسوع عند قدميه، لا يتمالك نفسه، فيميل برأسه على ذراعه الذي على المائدة ويبيكي.

«لا تبك يا أخي الوديع، أنت تبدو الآن كمن عليه أن يتحمّل نزع عصب منه ويبدو لك عدم تمكّنك التحمّل. ولكنه سيكون ألماً قصيراً. ثم... آه! ستصبح سعيداً لأنك تحبّني. أنت تُدعى يوحنا، وأنت مثل يوحنا الكبير: كعملاق. أنت الذي تحمي. أفعالك أفعال أسد وشبل يزأر. ستكتشف الكفرة فيتراجعون أمامك، والجائرون يرتعدون. أنا، أعلم. كن شجاعاً. وسيضمّنا ثانية اتحاد أبديّ وتكتمل قرابتنا في السماء.» ويُقبله هو أيضاً في جبهته مثل ابن العم الآخر.

«أنا خاطئ يا معلم. ليس لي...»

«كنت خاطئاً يا متى. الآن أنت الرسول. أنت الآن واحد من "أصواتي". أباركك. هذه الأرجل، كم من دروب قطعت لتتقدّم باستمرار، نحو الله... كانت النفس تثيرها وهي تركت كلّ درب ليس دربي. تقدّم. هل تعلم أين ينتهي الدرب؟ في حضن الأب الذي هو أبي وأبوك.»

يسوع يُنهي الغسل. ينزع المنشفة، يغسل يديه في المياه النظيفة، يلبس ثوبه من جديد، يعود إلى مكانه، وبينما يجلس في مكانه يقول: «أنتم الآن طاهرون، إنما ليس جميعكم. فقط الذين لديهم الإرادة بأن يكونوا كذلك.»

يحدّق بيهوذا الاسخريوطي الذي يتظاهر بأنه لا يسمع، فهو منشغل بالشرح لرفيقه متى كيف أنّ أباه قرّر أن يرسله إلى اورشليم. محادثة عبثية هدفها الوحيد أن يتمالك يهوذا نفسه، الذي، رغم جراته، يشعر بعدم الارتياح.

يسكب يسوع النبيذ للمرّة الثالثة في الكأس المشتركة. يشرب ويسقيهم. ثمّ يُنشد والجميع يرتدون معه كجوقة: «أُحِبُّ لَأَنَّ الرَّبَّ يَسْمَعُ صَوْتَ تَضَرَّعِي، لِأَنَّهُ يَمِيلُ أُذُنُهُ إِلَيَّ. فَأَدْعُوهُ مَدَّةَ حَيَاتِي. كَانَتْ آلامُ الْمَوْتِ تَحِيطُ بِي.» الخ. لحظة توقّف ثمّ يعاود الإنشاد: «آمَنْتُ، وَلِذَلِكَ تَكَلَّمْتُ. وَلَكِنِّي تَذَلَّلْتُ جَدًّا. كُنْتُ أَقُولُ فِي اضْطِرَابِي: "كُلُّ إِنْسَانٍ كَاذِبٌ."» يحدّق بيهوذا. صوت يسوعي، المتعب هذا المساء، يستعيد قوّته عندما يهتف: «ثَمِينٌ فِي عَيْنِي الرَّبُّ مَوْتَ الْقَدِّيسِينَ.» و «لَقَدْ حَطَّمْتُ قِيودي. فَلَا أَذْبَحُ ذَبِيحَةَ الْحَمْدِ دَاعِيًا اسْمَ الرَّبِّ.» الخ. وقفة قصيرة أخرى عن الإنشاد ثمّ يستأنف: «سَبِّحُوا الرَّبَّ، يَا جَمِيعَ الْأُمَمِ؛ امدحوه يا جميع الشعوب. لِأَنَّ رَحْمَتَهُ قَدْ عَظُمَتْ عَلَيْنَا وَحَقِيقَةُ الرَّبِّ تَدُومُ إِلَى الْأَبَدِ.» وقفة قصيرة أخرى ثمّ مزموّر طويل: «احتفوا بالرّبّ لأنّه صالح، لأنّ إلى الأبد رحمته...»

يهوذا الاسخريوطي يخطئ في الإنشاد للغاية بحيث إنّ توما، لمرّتين، يعيده للنغمة بصوته القويّ الجهير ويحدّق فيه. آخرون أيضاً ينظرون إليه لأنّه بشكل عامّ يجيد النغمة، فمنّ صوته أدركت أنّه متفاخر في هذا كما في كلّ شيء آخر. ولكن هذا المساء! بعض الجمل تزعجه إلى درجة أن يخطئ

في الإنشاد، وكذلك نظرات يسوع الذي يشدد على بعض الجمل. وإحداها: «الاعتصام بالله خير من الاتكال على البشر.» وأخرى: «إذ دُفِعْتُ تَرَنُّحْتُ وكدتُ أسقط ولكنَّ الربَّ أزرني.» وأخرى: «لن أموت بل سأحيا وأحدثُ بأعمال الرب.» وفي النهاية هاتان الجملتان، اللتان أقولهما الآن، واللذان تخنقان الصوت في حلق الخائن: «الحجر الذي رذله البنّاؤون هو صار رأساً للزاوية.» و«مبارك الآتي باسم الرب!»

ينتهي المزمور، وبينما يسوع يقطع قطعاً من الحمل ويقدمها، متى يسأل يهوذا الاسخريوطي: «لكن هل تشعر بسوء؟»

«لا. دعني وشأني. لا تشغل بي.»

يهزّ متى كتفيه.

يوحنا، الذي سمع، يقول: «المعلم أيضاً ليس بخير. ما بك يا يسوعي؟ صوتك ضعيف، كصوت مريض أو كمن بكى كثيراً.» ويعانقه تاركاً رأسه على صدر يسوع.

«هو تكلم كثيراً فقط، كما أنا قد مشيت كثيراً وأصابني برد.» يقول يهوذا بعصبيّة.

ويسوع، دون أن يردّ عليه، يقول ليوحنا: «أنت أصبحت تعرفني... وتعرف ما الذي يتعبني...»

انتهى تقريباً الحمل. ويسوع، الذي أكل قليلاً جداً وشرب جرعة واحدة في كلّ مرة من الكأس، بينما شرب ماءً كثيراً كما لو كان محموماً، يستأنف الكلام: «أريد أن تدركوا ما صنعتُ الآن. قُلْتُ لكم ليكن الأوّل كالآخر،

وسأعطيكم طعاماً ليس للجسد. طعام التواضع هو الذي أعطيتكم من أجل روحكم. أنتم تدعونني: معلماً ورباً. حسناً تقولون، لأنّي كذلك. فإن كنتُ أنا قد غسلتُ أرجلكم، فعليكم أنتم أيضاً أن تفعلوا ذلك لبعضكم البعض. أعطيتكم المثل حتّى إنكم كما صنعتُ أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً. الحقّ أقول لكم: ليس عبد أعظم من سيّده ولا رسول أعظم من مُرسِله. اجتهدوا في فهم هذه الأشياء. وبعد ذلك، إذ فهتموها، فطوبى لكم إذا عملتم بها. إنّما لن تكونوا جميعكم مطوّبين. أنا أعرفكم. أعرف من اخترتُ. لستُ أتكلّم عن جميعكم بالطريقة ذاتها، ولكنّي أقول ما هو حقّ. ومن جهة أخرى يجب أن يتمّ ما كتب عني: "إنّ الذي أكل الخبز معي قد رفع عليّ عقبه". أقول كلّ هذا لكم قبل أن يكون، حتّى لا تشكّوا فيّ. ومتى تمّ كلّ شيء تؤمنون أكثر أنّي أنا هو. إنّ الذي يقبلني يقبل الذي أرسلني: الأب القدّوس الذي في السماوات، والذي سيقبل من سأرسلهم له سوف يقبلني أنا. ذلك أنّي أنا مع الأب وأنتم معي... أمّا الآن فلنكمل الطقس.»

يسكب من جديد النبيذ في الكأس المشتركة، وقبل أن يشرب منها ويجعلهم يشربون، يقف ويقف الجميع معه ويرتل من جديد أحد المزامير السابقة: «آمنتُ ولذلك تكلمتُ...» ثمّ بعده آخر لا ينتهي. جميلاً... ولكن بلا نهاية! أظنني وجدته، ببدايته والطول، في المزمور 118 (119 حسب الطبعة). يرتّلونه هكذا. فقرة كلّهم معاً، ثمّ كلّ واحد بدوره يقول آية والآخرين قطعة معاً، وهكذا حتّى النهاية. أظنهم في النهاية قد عطشوا!

يجلس يسوع، ولم يتمدّد. يظلّ جالساً. مثلنا، ويتكلّم: «الآن وقد تمّ الطقس القديم، أحتفل بالطقس الجديد. لقد وعدتكم بمعجزة حبّ. وهذا أوان اجتراحها، ومن أجلها اشتهيتُ هذا الفصح. من الآن فصاعداً، هو ذا القربان

الَّذِي سَيَقْدَمُ فِي طَقْسِ مَحَبَّةٍ مُتَوَاصِلٍ. لَقَدْ أَحْبَبْتُكُمْ مَدَى حَيَاةِ الْأَرْضِ يَا أَصْدِقَائِي الْأَعْزَاءَ، أَحْبَبْتُكُمْ مَدَى الْأَبَدِيَّةِ يَا أَبْنَائِي، وَأُرِيدُ أَنْ أَحَبَّكُمْ إِلَى النِّهَايَةِ. مَا مِنْ شَيْءٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا. تَذَكَّرُوهُ. أَنَا أَمْضِي، وَلَكِنْ سَنَبْقَى مُتَّحِدِينَ عَلَى الدَّوَامِ بِفَضْلِ الْمَعْجَزَةِ الَّتِي أَتَمَّهَا الْآنَ.»

يَأْخُذُ يَسُوعُ رَغِيفَ خُبْزٍ كَامِلاً، وَيَضَعُهُ عَلَى الْكَأْسِ الْمَمْتَلَى. يَبَارِكُ وَيَقْدَمُ الْخُبْزَ وَالْكَأْسَ، ثُمَّ يَقْسِمُ الْخُبْزَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ قِطْعَةً وَيُعْطِي وَاحِدَةً لِكُلِّ مَنْ الرُّسُلُ قَائِلًا: «خُذُوا وَكُلُوا. هَذَا هُوَ جَسَدِي. اصْنَعُوا هَذَا لِذِكْرِي أَنَا الَّذِي أَمْضِي.» يُعْطِي الْكَأْسَ قَائِلًا: «خُذُوا وَاشْرَبُوا. هَذَا هُوَ دَمِي. هَذَا هُوَ كَأْسُ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ فِي الدَّمِ وَبِدَمِي، الَّذِي سِيرَاقُكُمْ مِنْ أَجْلِكُمْ لِمَغْفَرَةِ خَطَايَاكُمْ وَلِيُعْطِيَكُمْ الْحَيَاةَ. افْعَلُوا هَذَا لِذِكْرِي.»

يَسُوعُ حَزِينٌ لِلْغَايَةِ. كُلُّ ابْتِسَامَةٍ، كُلُّ أَثَرٍ لِلنُّورِ، لِلْوَنِّ قَدْ فَارَقَهُ. وَجْهَهُ وَجْهٌ مُحْتَضِرٌ. الرُّسُلُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فِي كَرْبٍ.

يَنْهَضُ يَسُوعُ قَائِلًا: «لَا تَتَحَرَّكُوا. سَارْجِعْ عَلَى الْفُورِ.» وَيَأْخُذُ الْقِطْعَةَ الثَّلَاثَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْخُبْزِ، يَأْخُذُ الْكَأْسَ وَيُخْرِجُ مِنَ الْعَلِيَّةِ. «هُوَ ذَاهِبٌ إِلَى أُمِّهِ.» يَهْمَسُ يُوْحَنَّا.

يَتَنَهَّدُ يَوْضَاسُ تَدَاوَسَ: «يَا لَهَا مِنْ امْرَأَةٍ مَسْكِينَةٍ!»

وَيَسْأَلُ بَطْرُسُ بِصَوْتٍ مُنْخَفَضٍ: «هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّهَا تَعْلَمُ؟»

«إِنَّهَا تَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ. هِيَ قَدْ عَلِمَتْ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى الدَّوَامِ.»

يَتَكَلَّمُ الْجَمِيعُ بِصَوْتٍ مُنْخَفَضٍ جَدًّا كَأَنَّهُمْ فِي حَضْرَةِ مَيِّتٍ.

«ولكن هل تعتقدون أنه بالحقيقة...» يسأل توما الذي ما يزال يرفض التصديق.

«وهل تشكّ في ذلك؟ إنها ساعته.» يجيب يعقوب بن زبدي.

«فليعطنا الله القوة لنكون أوفياء.» يقول الغيور.

«آه! أنا...» يهّم بطرس بالكلام. ولكنّ يوحنا الذي يرصد يقول: «صه!

ها هو ذا.»

يدخل يسوع. وفي يديه الكأس الفارغ. بالكاد في قاعه أثر من النبيذ،
وتحت ضوء المصباح يبدو حقاً وكأنه دم.

يهوذا الاسخريوطي، الذي أمامه الكأس، ينظر إليه كالمفتون، ثم يدير
بصره. يراقبه يسوع، ويرتعش بحيث يوحنا المتكئ على صدره يحسّ
برعشته فيهتف: «ولكن قل! أنت ترتعش...»

«لا. أنا لا أرتعش من الحمى... لقد قلتُ لكم كلّ شيء وأعطيتكم كلّ
شيء. لم يكن بإمكانني أن أعطيكم المزيد. لقد أعطيتكم ذاتي.»

ليديه حركتهما الودیعة، في البدء هما مضمومتان، والآن تنفصلان
وتتباعدان بينما يخفض رأسه كما ليقول: «اعذروني، إن كنتُ لا أستطيع
المزيد. الأمر هو هكذا.»

«لقد قلتُ لكم كلّ شيء، وأعطيتكم كلّ شيء. وأكرّر. الطقس الجديد قد
أُكمل. افعلوا هذا لذكري. غسلتُ لكم أرجلكم كي أعلمكم أن تكونوا
متواضعين وأنقياء كمعلمكم. إذ الحقّ أقول لكم أنه على التلاميذ أن يكونوا
كما المعلم. تذكّروا هذا، تذكّروه. حتّى عندما تبلغون المراتب العليا، تذكّروا

هذا. ليس تلميذ أعظم من المعلم. وكما غسلتكم، افعلوا ذلك فيما بينكم. أي أحبوا بعضكم كاخوة، بمساعدة الواحد للآخر، محترمين بعضكم بعضاً، مع كون كل واحد قدوة للآخر. وكونوا أنقياء. كي تكونوا أهلاً لأكل الخبز الحيّ النازل من السماء وتكون فيكم بواسطته القدرة على أن تكونوا تلاميذي في عالم عدوّ سيكرهكم بسبب اسمي. لكنّ واحداً منكم ليس نقيّاً. واحد منكم سيخونني. من ذلك روعي مضطرب بشدّة... يد الذي يخونني معي على هذه المائدة، ولا محبّتي، ولا جسدي ولا دمي ولا كلامي يردّونه ويجعلونه يتوب. أنا أغفر له، وأنا ذاهب إلى الموت من أجله أيضاً.»

ينظر التلاميذ إلى بعضهم مرتعدين. يتفحصون بعضهم، مشتبّهين الواحد بالآخر. يحدّق بطرس بالاسخريوطيّ في استعادة لكلّ شكوكه. يوضّاس تدّوس يهبّ واقفاً فجأة كي ينظر بدوره إلى الاسخريوطيّ من فوق متّى.

ولكنّ الاسخريوطيّ مليء بالثقة! بدوره يحدّق بمتّى كما لو كان يشكّ فيه، ثمّ يحدّق بيسوع ويبتسم وهو يسأل: «ألعليّ أنا أكون هو؟» يبدو الأكثر تأكّداً من نزاهته وأنّه يتكلّم هكذا كيلا يُسقط الحوار.

يكرّر يسوع حركته قائلاً: «أنت تقول ذلك، يا يهوذا بن سمعان. لا أنا. بل أنت الذي تقول ذلك. أنا لم أذكر اسمك. لماذا تتّهم نفسك؟ اسأل محدّرك الداخليّ، ضميرك الإنسانيّ، الضمير الذي منحك إياه الله الأب كي يقودك كإنسان، وتنبّه إن كان يتّهمك. ستعرف ذلك قبل الجميع. ولكن إن كان يطمئنك، فلماذا تقول كلاماً وتفكّر بأمر هو محرّم حتّى الحديث عنه أو التفكير فيه على سبيل المزاح؟»

يتكلم يسوع بهدوء. يبدو كأنه يدعم البحث المطروح كما يمكن لعالم أن يفعل في صفه. الاضطراب شديد. لكن هدوء يسوع يسكنه.

في هذه الأثناء بطرس، الأكثر شكاً بيهودا -ربما تداوس هو كذلك أيضاً، ولكنه يبدو أقل، مجرداً من سلاحه كما هو عليه بسبب تماسك الاسخريوطي- يجذب يوحنا من كمه، وعندما يلتفت يوحنا الذي التصق بيسوع وهو يسمعه يتكلم عن الخيانة، يهمس له: «اسأله من يكون.»

يعود يوحنا إلى وضعيته، فقط يرفع رأسه كما ليُقبل يسوع، وفي الوقت نفسه يهمس له في أذنه: «يا معلم، من هو؟»

ويسوع بهدوء بالغ، راداً له القبلة في شعره: «هو الذي سأعطيه قطعة الخبز التي أغمسها.»

وإذ يأخذ رغيفاً ما يزال كاملاً، ليس ممّا بقي من ذاك الذي استخدمه في الافخارستيا، يقطع منه لقمة كبيرة، ويغمسها في طبق مرق الحمل، ويمد ذراعه من فوق المائدة ويقول: «خذ يا يهوذا. أنت تحب هذا.»

«شكراً يا معلم. نعم أحب هذا.» وإذ لم يكن يعرف ما هذه اللقمة، يأكلها، بينما يوحنا، المرتعد، يغلق عينيه حتى لا يرى ضحكة الاسخريوطي الرهيبة وهو يأكل بملء فمه قطعة الخبز التي تدينه.

«حسناً! اذهب الآن وقد أسعدتُك.» يقول يسوع ليهودا. «كل شيء تمّ، هنا. (يركّز كثيراً على هذه الكلمة) ما يبقى بعد لتفعله في مكان آخر فافعله عاجلاً يا يهوذا بن سمعان.»

«سأطيعك فوراً يا معلّم. وبعدها سألقاك في جثسيماني. أنت ذاهب إلى هناك كما دائماً، أليس كذلك؟»

«أنا ذاهب إلى هناك... كما دائماً... نعم.»

«ماذا لديه ليفعله؟» يسأل بطرس. «أذهب بمفرده؟»

«لستُ طفلاً.» يمزح يهوذا الذي يلبس رداءه.

«دعه يذهب. أنا وهو نعلم ما يجب فعله.» يقول يسوع.

«نعم، يا معلّم.» ويصمت بطرس. ربّما يظنّ أنّه أخطأ بالشكّ في رفيقه. ويده على جبهته، يفكّر.

يسوع يضمّ يوحنا إلى قلبه ويلتفت ليهمس له في شعره: «لا تقل شيئاً لبطرس الآن. ستكون فضيحة لا جدوى منها.»

«الوداع يا معلّم. الوداع يا أصدقاء.» يحيّي يهوذا.

«الوداع.» يقول يسوع.

وبطرس: «أحييك يا ولد.»

يوحنا، ورأسه يكاد يكون على صدر يسوع، يهمس: «شيطان!» فيسمعه يسوع وحده ويتنهد.

هنا يتوقّف كلّ شيء، ولكنّ يسوع يقول: «أتوقّف رحمة بك. سأعطيك نهاية العشاء في وقت آخر.»

[تكملة العشاء]

بضعة دقائق من الصمت التام. يسوع حاني الرأس، وهو يداعب عفويًا شعر يوحنا الأشقر.

ثم ينتفض. يرفع رأسه، ويدير بصره، مع ابتسامة تُسرّي عن التلاميذ. يقول: «فلنغادر المائدة ونجلس كلنا بجوار بعضنا، كما أبناء كُثر حول أبيهم.»

يحملون المتكآت التي كانت خلف المائدة (تلك التي ليسوع، يوحنا، يعقوب، بطرس، سمعان، أندراوس وابن العمّ يعقوب) ويحملونها إلى الجهة الأخرى.

يجلس يسوع على متّكئه، دائماً بين يعقوب ويوحنا. ولكن حينما يرى أندراوس وقد ذهب ليجلس في المكان الذي تركه الاسخريوطيّ، يهتف: «لا، ليس هناك.» صرخة مندفعة لم تنجح فطنته المفرطة في منعها. ثمّ يتمالك نفسه وهو يتكلّم هكذا: «لا ضرورة لأماكن كثيرة. فبالبقاء جالسين، يمكن الاعتماد على هذه فقط. إنّها تكفي. أريدكم قريبين جداً.»

هم الآن كما بهذا التشكيل U ويسوع في الوسط وبمواجهته الطاولة، الخالية من الطعام الآن، ومكان يهوذا.

يعقوب بن زبدي ينادي بطرس: «اجلس هنا. أنا أجلس على هذا الكرسي الصغير، عند قدميّ يسوع.»

«ليباركك الله يا يعقوب! كنتُ أرغب بذلك كثيراً!» يقول بطرس، ويلتصق بمعلمه الذي يصبح هكذا ملتصقاً بيوحنا وبطرس، ويعقوب عند قدميه.

يبتسم يسوع: «أرى أنّ الكلام الذي قيل من قبل بدأ يفعل فعله. الإخوة الطيّبون يتحابّون. وأنا كذلك أقول لك يا يعقوب: "ليباركك الله". هذه الحركة كذلك لن ينساها الأزليّ، وستجدها هناك في العلى.

أنا أستطيع كلّ ما أطلبه. قد رأيتم ذلك. كانت تكفي واحدة من رغباتي حتّى يحقق الآب للابن أن يعطي ذاته طعاماً للإنسان. بما جرى للتوّ قد تمجّد ابن الإنسان، ذلك أنّه شهادة على القدرة على اجترّاح هكذا معجزة غير الممكنة إلّا لأصدقاء الله. وكلّما كانت المعجزة أعظم كلما توثّقت وتعمّقت هذه الصداقة الإلهيّة. إنّها معجزة، بشكلها، وديمومتها وطبيعتها، بامتدادها والحدود التي تصل إليها، هي أقوى ما يمكن أن يكون. أقول لكم ذلك: إنّها قويّة للغاية، فائقة الطبيعة، لا يمكن لإنسان متكبر أن يدركها، وقليلون جدّاً هم الذين يفهمونها كما يجب أن تفهم، وكثيرون يتهاونون فيها. ماذا أقول إذا؟ إدانة لهم؟ لا. أقول: الرحمة!

ولكن كلّما عظمت المعجزة، عظم المجد الذي يعود على مجترحها. إنّ الله نفسه هو الذي يقول: "هو ذا، محبوبي قد أراد ذلك وناله، وأنا الذي منحتّه له، لأنّه يمتلك نعمة كبيرة أمام عينيّ". وهنا يقول: "له نعمة لا حدود لها كما المعجزة التي أتمّها لانهائيّة". كما المجد الذي يعود إلى مجترح المعجزة من قبل الله، هناك المجد الذي يعود إلى الآب من قبل مجترحها. ذلك أنّ كلّ مجد روحيّ، آتٍ من الله، يعود إلى منبعه. ومجد الله، رغم أنّه غير متناهٍ، فهو ينمو باستمرار ويتألّق في مجد قديسيه. ولهذا أقول لكم: كما أنّ ابن الإنسان قد تمجّد من الله، كذلك الله قد تمجّد من ابن الإنسان. قد مجّدتُ الله في ذاتي. وبدوره، الله سيمجّد ابنه فيه. وسوف يمجّده قريباً.

فلنتهَلَّ أنتَ العائد إلى كرسيِّكَ، أيا أيَّها الجوهر الروحيّ للأقنوم الثاني! تهَلَّل، يا أيَّها الجسد الَّذي سيصعد بعد طول منفى في الوحل. وليس جنَّة آدم، بل جنَّة الآب السامية هي الَّتِي سَتُعْطَى لَكَ كمسكن. وإذا كان قد قيل بأنَّ الشمس قد توقَّفت بأمر مدهش من الله، على لسان إنسان، فما الَّذي سوف لا يحدث للكواكب حينما ترى معجزة جسد ابن الإنسان وهو يصعد ويجلس عن يمين الآب في كماله كمادَّة ممجَّدة؟ يا أبنائي، أنا معكم زماناً يسيراً. وأنتم، بعد ذلك، تطلبونني، كما يطلب اليتامى أباهم الميت. ستذهبون وأنتم تبكون، تتكلَّمون عنه وعبثاً ستقرعون قبره الأبكم، ثم أيضاً، ستقرعون أبواب السماء اللازوردية، بنفسكم المندفعة الَّتِي تتوسَّل باحثةً عن المحبَّة، قائلين: "أين هو يسوعنا؟ نحن نريده. بدونه لم يعد نور في العالم، لا فرح، ولا محبَّة. فأعيدوه لنا، أو دعونا ندخل. نريد أن نكون حيث يكون". ولكنكم لا تقدرون الآن أن تأتوا حيث أذهب. لقد قُلْتُ ذلك أيضاً لليهود: "بعد ذلك ستطلبونني، ولكن حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا". وأقوله لكم أيضاً.

فكُروا بأُمِّي... ولا حتَّى هي تقدّر أن تأتي حيث أنا ذاهب. مع أنِّي تركتُ أبي كي آتي إليها وأكون يسوع في أحشائها الطاهرة. مع أنِّي من الَّتِي لم تُمسَّ أُنْتُ في انخطاف ولادتي النوراني. ومن محبَّتِها الَّتِي غدت حليياً تغذيتُ. نَمُوتُ بالطهر والمحبَّة، ذلك أنَّ مريم قد غدَّتني من بتوليَّتِها الَّتِي أخصبتِها المحبَّة الكاملة الَّتِي تحيا في السماء. مع أنِّي بها كبرتُ مكلفاً إيَّها أتعاباً ودموعاً... ومع ذلك أطلب منها بطولة لم يتمَّ التحلِّي بها على الإطلاق، والَّتِي مقارنة بها تكون تلك الَّتِي ليهوديت وياويل بطولات نساء مسكينات يقارن عن خصمهنَّ قرب نبع قريتهنَّ. ومع أنه لا يماثلها أحد عندما يتعلَّق الأمر بمحبَّتِها لي. وبالرغم من ذلك، أتركها وأذهب إلى حيث هي لن تأتي

إلاّ بعد وقت طويل. وبالنسبة إليها لا أعطيها الوصيّة التي أعطيها لكم: "قدّسوا أنفسكم سنة بعد سنة، شهراً إثر شهر، يوماً تلو يوم، ساعة فساعة، لتتمكّنوا من أن تأتوا إليّ عندما تأتي ساعتكم". إنّها الممتلئة نعمة والمفعمة قداسة. إنّها المخلوقة التي نالت كلّ شيء وأعطت كلّ شيء. ليس هناك ما يُضاف أو يُنزع. إنّها الشهادة الأقدس لما يستطيعه الله.

إنّما كي تتيقّنوا أنّ فيكم إمكانيّة القدرة على اللحاق بي، ونسيان ألم حداد الافتراق عن يسوعكم، أعطيك وصيّة جديدة. أن تحبّوا بعضكم بعضاً. كما أحببتكم أنا كذلك أحبّوا أنتم بعضكم بعضاً. بهذا يعرف الجميع أنّكم تلاميذي. حينما يكون لأب أولاد كثيرون، كيف يُعرّف أنّهم أبناؤه؟ ليس إلى حدّ كبير بالمظهر الجسدي -لأنّه قد يوجد من يتشابهون فيما بينهم دون أن يكون بينهم علاقة دم أو وطن- بل بالمحبّة المشتركة للعائلة، تجاه الأب وفيما بينهم. وكذلك بموت الأب لا تتفكّك العائلة الطيّبة، لأنّ لها نفس الدم الذي يأتي من بذرة الأب، ويربطهم بروابط لا يحلّها حتّى الموت، لأنّ المحبّة أقوى من الموت، فإن أحببتم بعضكم حتّى بعد أن أكون قد غادرتكم، سيعرف الجميع أنّكم أبنائي وبالتالي تلاميذي، وأنّكم إخوة لكم أب واحد.»

«رَبِّي يسوع، لكن إلى أين تذهب؟» يسأل بطرس.

«أذهب إلى حيث لا تقدر الآن أن تتبعني. ولكنك ستتبعني فيما بعد.»

«ولماذا ليس الآن؟ لقد تبعك دائماً مذ قلت لي: "اتبعني". لقد تركت كلّ شيء دونما ندم... إذ، لو كنت ذهبت بلا سمعانك المسكين، تاركاً إياي بدونك، يا مَنْ أنت كلّ شيء بالنسبة لي، بينما أنا تركت من أجلك الخيرات القليلة التي كانت لديّ، فلا يكون هذا حسناً ولا عدلاً من قبلك. هل تذهب إلى

الموت؟ حسناً. إنّما أنا أيضاً آتي. فلنذهب معاً إلى العالم الآخر. ولكن قبل ذلك سأكون قد دافعتُ عنك. إنّني مستعدّ لأن أبذل حياتي لأجلك.»

«أتبذل حياتك لأجلي؟ الآن؟ الآن لا. في الحقيقة، آه! الحقّ أقول لك: قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات. الآن ما زال الهزيع الأوّل. ثمّ يأتي الثاني... ثمّ الثالث. وقبل أن يصيح الديك تنكر ربّك ثلاث مرات.»

«مستحيل يا معلّم! أنا صدّق كلّ ما تقول. لكن ليس هذا. أنا واثق من نفسي.»

«الآن في هذه اللحظة أنت واثق، إنّما ذلك لأنّي ما زلتُ معك. الله معك. ولكن عمّا قليل الله المتجسد سيُقبَض عليه ولا يعود معكم. والشيطان، بعد أن يثقل كاهلكم -تفتك نفسها هي حيلة من الشيطان، عبء يثقل- سيرعبكم. وسيلمّح لكم: "الله غير موجود. أنا موجود". وحيث أنّ بصيرتكم ستعمى بسبب الهلع، ستلبثون مدركين، وستفهمون أنّه حين يكون إبليس هو سيّد اللحظة، فيكون الخير ميتاً والشرّ فاعلاً، والروح منهاراً والبشريّة منتصرة. حينذاك ستبقون كالمحاربين بلا قائد، يتعقبكم العدو، وفي رعبكم كمهزومين ستحنون ظهوركم أمام الغالب، وكي لا تُقتلوا تُنكرون البطل الساقط. ولكن أرجوكم ألا تضطرب قلوبكم. آمنوا بالله، وآمنوا بي أيضاً. آمنوا بي بعكس كلّ المظاهر. فليؤمن برحمتي وبرحمة الآب الذي يبقى كما الذي يهرب. الذي يصمت كما الذي سيفتح فمه ليقول: "لا أعرفه". ثقوا أيضاً بغفراني. وآمنوا أنّه مهما تكن تصرّفاتكم في المستقبل، في الخير وفي مذهبي، وبالتالي في كنيسة، فهي ستعطيك المكان نفسه في السماء. في منزل أبي مساكن كثيرة. لو لم يكن الأمر كذلك لكنتُ قلتُ لكم ذلك. إنّني

أسبقكم لأعدّ لكم مكاناً. أليس هكذا يفعل الآباء الصالحون حينما يريدون أن يصبحوا عائلتهم الصغيرة إلى مكان آخر؟ إنهم يتقدّمون ليعدّوا المنزل، الأثاث، المؤن، ثم يأتون لأخذ أولادهم الأعزاء. يتصرّفون هكذا بدافع المحبة، حتّى لا ينقص الصغار شيء ولا يعانون في البلدة الجديدة. وأنا أتصرّف بالمثل ولنفس السبب، الآن أنا أمضي. وحينما أُعدّ لكلّ واحد مكاناً في أورشليم السماويّة، سأتي مجدّداً، وسأخذكم معي كي تكونوا معي حيث أكون، حيث لن يكون موت ولا حزن، ولا دموع، ولا صراخ، ولا جوع، ولا ألم، ولا ظلمات، ولا نار، بل فقط نور، سلام، غبطة ونشيد. آه! نشيد السماوات الشاهقة عندما سيجلس المختارون الاثنا عشر على عروشهم مع الأحبار الاثني عشر لأسباط إسرائيل، وينشدون في وهج نار المحبة الروحيّة، منتصبين على بحر الأنعام، النشيد الأبديّ المدوزن على الهلّوليا الأبدية للجيش الملائكيّ... أريد أن تكونوا حيث سأكون أنا. وأنتم تعلمون إلى أين أذهب وتعرفون الطريق.»

«ولكن يا ربّ! لسنا نعلم شيئاً! أنت لا تقول لنا أين تذهب. فكيف يمكننا معرفة الطريق التي نتّخذها كي نأتي إليك ونختصر الانتظار؟» يقول توما.

«أنا الطريق والحقّ والحياة. لقد سمعتموني أقول وأشرح ذلك مرّات عدّة، والحقّ إنّ كثيرين من الذين لم يكونوا يعلمون حتّى بوجود الله، قد تقدّموا على الطريق، على طريقي، وسبقوكم. آه! أين أنت، أيتها النعجة التي ضلّت عن الله فأعدّتها إلى الحظيرة؟ وأين أنت، يا مَنْ نفسك قامت من الموت؟»

«مَنْ؟ عَمَّنْ تَتَكَلَّمْ؟ عن مريم أخت لعازر؟ إنها في الجوار، مع أُمِّكَ؟ هل تريدها؟ أم تريد يُونَّا؟ بالتأكيد هي في قصرها. ولكن إن شئت نذهب لندعوها...»

«لا. ليس هما... بل أفكّر في تلك التي لن يُكشَف عنها إلا في السماء... وفي فوتينا [المرأة السامرية]... هما قد عثرتا عليّ ولم تحيدا عن طريقي أبداً. للواحدة أشرتُ إلى أنّ الآب هو الله الحقّ وأنّ الروح مثل اللاوي في هذه العبادة الشخصيّة. وللأخرى، التي لم تكن تعلم حتّى أنّ لها روحاً، قُلْتُ لها: "اسمي هو المخلّص. أنا أخلّص مَنْ له إرادة صالحة للخلاص. أنا مَنْ يبحث عَمَّنْ ضلّوا كي أمنحهم الحياة، الحقّ والطُّهر. مَنْ يفتش عَنِّي يجدني". والاثنتان قد وجدتا الله... أبارككما. حوَّاءتان ضعيفتان صرتما أقوى مِنْ يهوديت... أنا آتي، أينما كنتما آتي.. أنتما تعزيّانني فلتكونا مباركتين!...»

«أرنا الآب يا ربّ، وسنصير مثلهما.» يقول فيلبس.

«أنا معكم كلّ هذا الزمان، وأنتَ لم تعرفني بعد يا فليبيّس؟ مَنْ يراني فإنّه يرى أبي. فكيف إذن يمكنك القول: "أرنا الآب"؟ ألا تتوصّل إلى الإيمان بأنّي أنا في الآب والآب فيّ؟ الكلام الذي أكلّمكم به لا أتكلّم به مِنْ عندي. بل الآب المقيم فيّ يتمّ كلّ أعماله، أوّما تؤمنون أنّي أنا في الآب والآب فيّ؟ ماذا ينبغي لي أن أقول لكم كي تؤمنوا؟ لكن إن كنتم لا تؤمنون بكلامي، فأمنوا أقلّه بأعماله. أقول لكم، وأقول لكم ذلك بحقّ: إنّ مَنْ يؤمن بي سيعمل الأعمال التي أنا أعملها، وسيعمل أعظم منها، لأنّي ماضٍ إلى الآب. وكلّ ما تسألون الآب باسمي فأنا سأفعله ليتمجّد الآب في ابنه. وسأفعل ما تسألونه باسم اسمي. اسمي معلوم هو، لما هو عليه بحقّ، لي وحدي، وللآب الذي

ولدني وللروح الذي ينبثق من محبتنا. وبهذا الاسم كل شيء ممكن. فمن يفكر باسمي بمحبة يحبني، وينل. ولكن لا يكفي أن يحبني. بل يجب أن يحفظ وصاياي كي يحظى بالمحبة الحقيقية. فإن الأعمال هي التي تشهد للمشاعر، وباسم هذه المحبة، أسأل الآب، وهو يعطيكم معزياً آخر ليقدم معكم إلى الأبد، معزياً لا يستطيع الشيطان ولا العالم أن ينالاه منه، روح الحق الذي لا يمكن للعالم أن يتقبله ولا أن يؤثر فيه، لأنه لا يراه ولا يعرفه. سيهزأ به. ولكنه مهيب وسامٍ لدرجة أن الهزء لا يمكنه أن يبلغه، بينما، إذ هو شقوق فوق كل قياس، فسيكون دائماً مع من يحبه، حتى ولو كان مسكيناً وضعيفاً. أنتم ستعرفونه لأنه أصبح مقيماً معكم وقريباً سيكون فيكم. لا أترككم يتامى. لقد قلت لكم ذلك سابقاً: "سأعود إليكم". ولكن، قبل أن تحين ساعة قدومي لأخذكم إلى ملكوتي، سأتي إليكم. بعد قليل لن يعود العالم يراني. أما أنتم فترونني وسترونني لأنني أحياء وأنتم تحيون، ولأنني سأحياء وأنتم أيضاً ستحيون. في ذلك اليوم ستعلمون أنني أنا في أبي، وأنتم فيّ وأنا فيكم. بالفعل من يقبل وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبني، والذي يحبني سيحبّه أبي وسيملك الله، لأن الله محبة والذي يحبّ يكون الله فيه. وأنا سأحبّه لأنني سأرى الله فيه، وسأظهر له ذاتي وأجعله يعرفني في أسرار محبتي وحكمتي وألوهيتي المتجسدة. وسيكونون تكرر رجوعي بين أبناء البشر الذين أحبهم رغم كونهم ضعفاء وحتى أعداء. ولكن هؤلاء سيكونون ضعفاء فقط. وسأقويهم وأقول لهم: "انهض!" سأقول: "هلمّ خارجاً!" سأقول: "اتبعني"، سأقول: "اسمع"، سأقول: "اكتب"... وأنتم من بين هؤلاء.»

«لماذا يا ربّ تُظهر لنا ذاتك ولا تُظهرها للعالم؟» يسأل يوحنا

تداوس.

«لأنكم تحبّونني وتحفظون كلامي. مَنْ سيفعل هذا سيحبّه أبي وإليه سنأتي وعنده سنجعل مقامنا، فيه. بينما الذي لا يحبّني لا يحفظ كلامي ويعمل بحسب الجسد والعالم. الآن اعلّموا أنّ ما قُلْتُهُ لكم ليس كلام يسوع الناصريّ، بل هو كلام الآب لأنّي أنا كلمة الآب الذي أرسلني. قُلْتُ لكم هذه الأشياء وأنا أتحدّث هكذا، معكم، لأنني أريد أن أعدّكم بنفسي للامتلاك الكامل للحقّ والحكمة. ولكنكم لا تستطيعون بعد أن تفهموا وتذكّروا. إنّما حينما سيأتيكم المعزّي، الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي، حينئذ يمكنكم أن تُدرِكوا، وهو سيعلمكم كلّ شيء وسيذكركم بما قُلْتُهُ لكم.

سلامي أترك لكم. سلامي أعطيكُم. أعطيكُموه ليس كما يعطيه العالم، ولا مثلما أعطيتكموه حتّى الآن: سلام مبارك ممّن هو مبارك للمباركين. أكثر عمقاً هو السلام الذي أعطيه لكم الآن. في هذا الوداع، إنّني أنقل لكم ذاتي، روح السلام الذي لي، كما نقلتُ جسدي ودمي، كي تبقى فيكم قوّة في المعارك الوشيكة. سوف يشنّ الشيطان والعالم حرباً ضدّ يسوعكم. إنّها ساعتهما. فليكن فيكم السلام، رُوحِي الذي هو روح سلام، ذلك أنّي أنا ملك السلام. فليكن فيكم كي لا تكونوا مخذولين. مَنْ يتألّم و سلام الله فيه يتألّم، إنّما بلا تجديف ولا يأس.

لا تبكوا. قد سمعتم أيضاً أنّي قُلْتُ: "أنا ذاهب إلى الآب ثمّ سأعود". لو كنتم تحبّونني بما يتجاوز الجسد لكنتم تفرحون لأنّي ماضٍ إلى الآب بعد منفى طويل، ماضٍ إلى الذي هو أعظم منّي ويحبّني. لقد قُلْتُهُ لكم الآن، قبل أن يتمّ، مثلما أخبرتكم عن كلّ آلام الفادي قبل المضيّ إليها، حتّى إذا ما تمّ كلّ هذا، تؤمنون أكثر بي. لا تضطربوا هكذا! لا تجزعوا. قلبكم بحاجة إلى الاتّزان... لم يعد لديّ سوى وقت قليل أكلمكم به... وما زال لديّ الكثير

لأقوله! وإذ قد وصلتُ إلى نهاية المدة التبشيريّة، يبدو لي وكأنّني لم أقل فيها شيئاً ومازال هناك الكثير الكثير لعمله. إنّ حالتكم تُفاقم الإحساس هذا. وماذا أقول إذن؟ أنّي قصّرتُ في واجبي؟ أم إنّكم غلاظ القلوب لدرجة أنّ هذا لم يفد في شيء؟ هل أشكّ؟ لا. إنّني أتكلم على الله وأوكلكم إليه، أنتم أحبائي. هو سيتمّ عمل كلمته. لستُ مثل أب يموت وليس له نور آخر سوى البشريّ. إنّني أرجو بالله. ورغم شعوري بتدافع كلّ النصائح التي أرى أنّكم في حاجة إليها ورؤيتي الوقت يهرب، إلّا أنّي أمضي مطمئناً إلى مصيري. فأنا أعلم أنّ على البذور الساقطة فيكم، سوف ينهمر الندى الذي يجعلها كلّها تنمو، ثمّ تأتي شمس الباراقليط، فتصير شجرة عظيمة. سيأتي أمير هذا العالم، الذي ليس لي فعل شيء معه. وإذا لم يكن ذلك بهدف إتمام الخلاص، فما كان له من قدرة عليّ. ولكن يكون هذا ليعلم العالم أنّي أحبّ الأب، وأحبّه حتّى الطاعة التي تُخضعني للموت، أنّي أعمل ما أوصاني به.

قد حانت ساعة الرحيل. قوموا، واسمعوا الكلام النهائيّ.

أنا الكرمة الحقيقيّة وأبي الكرّام. كلّ غصن لا يأتي بثمر يقطعه، والذي يأتي بثمر يشدّبه ليأتي بثمر أكثر. لقد تطهرتم بكلمتي. اثبتوا فيّ وأنا فيكم كي تستمروا بأن تكونوا هكذا. الغصن المنفصل عن الكرمة لا يأتي بثمر. كذلك أنتم إن لم تثبتوا فيّ. أنا الكرمة وأنتم الأغصان. والذي يثبت متّحداً بي يأتي بثمر كثير. ولكن إن انفصل أحد عني، يصبح غصناً جافاً يُلقى في النار ويُحرق، إذ دون الاتحاد بي، لا تقدرون أن تعملوا شيئاً. فاثبتوا إذاً فيّ وليثبت كلامي فيكم، ثمّ اسألوا ما تشاؤون فيكون لكم. وهكذا سيتمجدّ أبي على الدوام بقدر ما تأتون بثمر كثير وتكونون لي تلاميذاً.

كما أحببني الآب، كذلك أحببتكم أنا. اثبتوا في محبتي المخلصة. بمحبتكم لي تصبحون مطيعين، والطاعة تُنمي المحبة المتبادلة. لا تقولوا إنني أكرّر ذاتي. أنا عالم بضعفكم، وأريد أن تخلصوا. إنني أقول لكم هذا كي يكون فيكم الفرح الذي شئتُ أن أهبكم إياه ويكون كاملاً. تحابّوا، تحابّوا! هذه هي وصيتي الجديدة. أحبّوا بعضكم بعضاً أكثر مما يحبّ كلّ واحد منكم نفسه. ما من محبة أعظم من أن يبذل الإنسان نفسه عن أحبائه. أنتم أحبائي وأنا أبذل حياتي من أجلكم. اعملوا بما أعلمكم وأوصيكم به. لا أسميكم عبيداً بعد، لأنّ العبد لا يعلم ما يصنع سيّده، أمّا أنتم فتعلمون ماذا أصنع. أنتم تعلمون كلّ شيء عني. ولم أظهر لكم نفسي فقط، بل أيضاً الآب والبار اقليط، وكلّ ما سمعته من الله. لستم أنتم من اخترتم أنفسكم. بل أنا اخترتكم واصطفيتكم لتمضوا بين الشعوب وتأتوا بثمار فيكم وفي قلوب من تبشّرونهم، ولتدوم ثماركم، ويعطيكم الآب كلّ ما تسألونه باسمي.

لا تقولوا: "فإذن إن كنت قد اخترتنا، فلماذا اخترت خائناً؟ إذا كنت تعلم كلّ شيء، فلماذا فعلت هذا؟" لا تسألوا كذلك من يكون هذا. فهو ليس بشراً، إنّهُ شيطان. قلّته للصديق الوفيّ وتركتُ الابن الحبيب يقوله. إنّهُ الشيطان. لو لم يكن الشيطان قد تجسّد، ذلك المقلّد الأبديّ لله، في جسد قابل للموت، لما عرف ذلك الممسوس أن يفلت من سلطاني أنا يسوع. قلّْتُ "ممسوس". لا. بل هو أكثر كثيراً: لقد تلاشى في الشيطان.»

«أنت، يا من طردت الشياطين، لماذا لم تحرّره؟» يسأل يعقوب بن حلفي.

«أتسأل هذا حباً لنفسك، خوفاً أن تكون هو؟ لا تخف؟»

«أنا إذا؟»

«أنا؟»

«أنا؟»

«اصمتوا. لن أقول ذاك الاسم. أتصرف برحمة، وأنتم اصنعوا بالمثل.»

«ولماذا لم تتغلب عليه؟ ألم تكن تستطيع ذلك؟»

«كنت أقدر. ولكن كي أمنع الشيطان من التجسد كي يقتلني، كان عليّ أن أستأصل الجنس البشري قبل الفداء. حينئذ من أفندي؟»

«قُله لي يا ربّ، قُله لي!» ينزل بطرس على ركبتيه ويهزّ يسوع بجنون، كأنه كان فريسة للهذيان. «هل أنا؟ هل أنا؟ أأختبر نفسي؟ لا يبدو لي. ولكن أنت... قُلت إنّي سأنكرك... وأرتعد... آه! يا للهول لو كنت أنا!...»
«لا يا سمعان بن يونا، لست أنت.»

«لماذا نزعيت عني اسم "بطرس"؟ هل عدت إذا سمعان؟ أنت ترى هذا؟ أنت تقول!... إنه أنا! ولكن كيف أمكنني ذلك؟ قولوا... قولوا أنتم... متى استطعت أن أصبح خائناً؟... سمعان؟... يوحنا؟... ولكن تكلموا!...»

«بطرس، بطرس، بطرس! أدعوك سمعان لأنني أتذكر لقاءنا الأوّل حين كنت سمعان. وأفكر كيف كنت مخلصاً دائماً منذ اللحظة الأولى. لست أنت. أقول لك ذلك أنا: الحقّ.»

«من إذا؟»

«ولكنّه يهوذا الاسخريوطيّ! ألم تفهم بعد؟» يصيح تداوس الذي لم يعد يتمالك نفسه.

«لماذا لم تقل لي هذا مسبقاً؟ لماذا؟» يصرخ بطرس بعد.

«الصمت. إنّهُ الشيطان. لا اسم آخر له. إلى أين أنتَ ذاهب يا بطرس؟»

«للبحث عنه.»

«اترك في الحال هذا الرداء وذلك السلاح. وإلاّ فينبغي لي أن أطردك وألعنك؟»

«لا، لا! آه! ربّي! ولكن أنا... لكن أنا... قد أكون مصاباً بالهذيان، أنا؟ آه! آه!» يبكي بطرس وقد ارتمى أرضاً عند قدميّ يسوع.

«أوصيكم أن تحبّوا بعضكم. وأن تغفروا. هل فهتم؟ إن كان ما يزال بغض في العالم، فلا يكن بينكم إلاّ المحبّة. للجميع. كم من الخونة ستلاقونهم على طريقكم! ولكن عليكم ألاّ تبغضوا ولا تردّوا الشرّ بالشرّ. وإلاّ فإنّ الآب سيبغضكم. لقد أحاق بي البغض والخيانة قبلكم. ومع ذلك، أنتم ترون أنّي لا أبغض. لا يمكن للعالم أن يحبّ من ليس مثله. إذاً فهو لن يحبّكم. لو كنتم من العالم لأحبّكم، ولكنكم لستم من العالم، ذلك أنّي قد انتزعكم من وسط العالم، لأجل هذا أنتم مبغوضون.

لقد قلتُ لكم: ليس عبد أعظم من سيّده. إن كانوا اضطهدوني فسيضطهدونكم أنتم أيضاً. وإن كانوا سمعوني فيسمعونكم أنتم أيضاً. إنّما هم سيفعلون هذا كلّهُ بسبب اسمي، لأنّهم لا يعرفون، ولا يريدون أن يعرفوا من

الَّذِي أَرْسَلَنِي. وَلَوْ لَمْ أَكُنْ قَدْ أَتَيْتُ وَكَلَّمْتَهُمْ، لَمَا كَانَتْ لَهُمْ خَطِيئَةٌ، أَمَّا الْآنَ فَلَيْسَ لَهُمْ حُجَّةٌ فِي خَطِيئَتِهِمْ. لَقَدْ رَأَوْا أَعْمَالِي، وَسَمِعُوا أَقْوَالِي، وَمَعَ ذَلِكَ أَبْغَضُونِي، وَالْآبَ مَعِي، لِأَنَّنِي وَالْآبَ وَاحِدَةٌ وَاحِدَةٌ مَعَ الْمَحَبَّةِ. إِنَّمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: "أَبْغَضْتَنِي بِلَا سَبَبٍ". إِنَّمَا مَتَى جَاءَ الْمُعْزِي، رُوحَ الْحَقِّ الَّذِي يَنْبَثِقُ مِنَ الْآبِ، فَهُوَ سَيَشْهَدُ لِي، وَأَنْتُمْ سَتَشْهَدُونَ لِي أَيْضًا، لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ مَعِي مِنْذُ الْبَدَايَةِ.

أَكَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا، حَتَّى إِذَا مَا أَتَتِ السَّاعَةُ، لَا تَنْهَارُوا وَلَا تَشْكُوا. سَيَأْتِي وَقْتُ يُخْرِجُونَكُمْ فِيهِ مِنَ الْمَجَامِعِ وَيُظَنُّ كُلُّ مَنْ يَقْتُلُكُمْ أَنَّهُ يُقَرِّبُ اللَّهَ عِبَادَةً. هُمْ لَمْ يَعْرِفُوا الْآبَ وَلَمْ يَعْرِفُونِي. بِهَذَا يَكْمُنُ عَذْرَاهُمْ. لَمْ أَخْبِرْكُمْ بِهَذَا بِالتَّفْصِيلِ مِنْ قَبْلِ لَأَنَّكُمْ كُنْتُمْ كَالْمَوَالِيدِ الْجَدِيدِ. أَمَّا الْآنَ فَالْأَمُّ تَتْرَكُكُمْ. أَنَا ماضٍ. وَعَلَيْكُمْ أَنْ تَأْلَفُوا طَعَامًا آخَرَ. أَرِيدُ أَنْ تَعْرِفُوهُ.

لَا يَسْأَلُنِي أَحَدٌ بَعْدَ: "إِلَى أَيْنَ تَمْضِي؟" الْحُزْنُ يَكْمُنُ أَفْوَاهَكُمْ. وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ مِنَ الْخَيْرِ لَكُمْ أَنْ أَمْضِيَ، وَإِلَّا فَلَنْ يَأْتِيَ الْمُعْزِي. فَأَنَا الَّذِي سَأَرْسِلُهُ لَكُمْ. وَمَتَى جَاءَ، وَبِوَسْطَةِ الْحِكْمَةِ وَالْكَلِمَةِ، الْأَعْمَالِ وَالْبَطُولَةِ الَّتِي يَسْكُبُهَا فِيكُمْ، يَقْنَعُ الْعَالَمَ بِخَطِيئَتِهِ قَتْلَ اللَّهِ وَبِرَّ قِدَاسْتِي. وَالْعَالَمُ سَيَنْقَسِمُ بِوُضُوحٍ إِلَى رَافِضِينَ، أَعْدَاءَ اللَّهِ، وَإِلَى مُؤْمِنِينَ. وَهَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ يَكُونُونَ أَكْثَرَ أَوْ أَقَلَّ قِدَاسَةً، حَسَبَ إِرَادَتِهِمْ. أَمَّا دِينُونَةُ رَئِيسِ الْعَالَمِ وَخُدَّامُهُ فَسَتَقَامُ. لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ لَكُمْ أَكْثَرَ لِأَنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ الْإِدْرَاكَ بَعْدَ. أَمَّا هُوَ، الْبَارَاقْلِيْطُ الْإِلَهِيُّ، فَإِنَّهُ سَيَهْبِكُ الْحَقِيقَةَ الْكَامِلَةَ لِأَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ مِنْ عِنْدِهِ، بَلْ سَيَقُولُ كُلُّ مَا سَيَكُونُ قَدْ سَمِعَهُ مِنْ فِكْرِ اللَّهِ وَيَعْلَنُ لَكُمْ مَا يَأْتِي. إِنَّهُ سَيَأْخُذُ مَا هُوَ مِنِّي، أَيُّ مَا هُوَ مِنَ الْآبِ أَيْضًا، وَيُخْبِرُكُمْ.

ما زال لنا وقت قليل نرى فيه بعضنا، بعد ذلك لا تعودون ترونني. ثم وقت قليل بعد، ثم ترونني.

أنتم تهمسون فيما بينكم وفي قلوبكم. اسمعوا مثلاً. وهو الأخير لمعلمكم. عندما تحمل امرأة ويحين موعد ولادتها، تحزن كثيراً لأنها تتألم وتئن. ولكن متى ولدت طفلها، وضمتها إلى قلبها، يتوقف كل ألم، والحزن يتحول فرحاً، لأنّ إنساناً جاء إلى العالم.

هكذا أنتم. أنتم ستبكون والعالم يهزأ بكم، إنّما بعد ذلك يتحول حزنكم إلى فرح. فرح لن يعرفه العالم أبداً. أنتم محزونون الآن، ولكن حينما ترونني من جديد، سيمتلئ قلوبكم فرحاً لن ينتزعه منكم أحد. فرح مفعم يجعل كلّ احتياج يُسأل للروح والقلب والجسد يتلاشى. ستتغذون برويتي فقط، ناسيين كلّ شيء آخر. ولكن بالضبط اعتباراً من تلك اللحظة سيمكنكم أن تطلبوا كلّ شيء باسمي، والآب سيعطيه لكم ليكون لكم فرح أكثر على الدوام. اسألوا، اسألوا وستنالون.

تأتي الساعة التي سأستطيع فيها أن أخبركم عن الآب صراحة. ذلك لأنكم ستكونون قد مكثتم أوفياء في الاختبار وسيكون قد تمّ تجاوز كلّ شيء. ستكون محبتكم قد أصبحت كاملة بحيث تمنحكم القوة في الاختبار. وما سوف ينقصكم، سأكمّله آخذاً إياهم من كنزي العظيم وقائلاً: "أيّها الآب، أنت ترى. لقد أحبوني مؤمنين أنني أتيت منك". قد نزلت إلى العالم، والآن أتركه وأمضي إلى الآب. وسأصلي من أجلكم.»

«آه! الآن تفهم مرادك. الآن نعرف ما تريد قوله وأنك عالم بكلّ شيء وتجيب دون أن يسألك أحد. حقاً إنك من الله خرجت!»

«أتؤمنون الآن؟ في الساعة الأخيرة؟ سنوات ثلاث وأنا أكلمكم! ها هو الآن قد بدأ فيكم عمل الخبز الذي هو الله والخمر الذي هو دم غير آتٍ من إنسان، وهو الذي سيمنحكم أول رعدة تأليه. ستصيرون آلهة إن ثابرتم على محبتي وفي امتلاكي. ليس كما قال الشيطان لأدم وحواء، ولكن كما أقول لكم أنا. هذه هي الثمرة الحقيقية لشجرة الخير والحياة. الشرّ انهزم أمام من يأكل منها، ومات الموت. من يأكل منها يعيش إلى الأبد ويصير "آلهة" في ملكوت الله. أنتم ستصبحون آلهة إن مكثتم فيّ. ومع ذلك... رغم أن فيكم هذا الخبز وهذا الدم، ولأن الساعة التي تتشتتون فيها قد حانت، فستمضون كلّ منكم في سبيله وتتركونني وحدي... ولكني لست وحدي. الآب معي. أيها الآب، أيها الآب! لا تتركني! لقد قلتُ لكم كلّ شيء... كي أهبكم السلام، سلامي. ستكونون في ضيق أيضاً. ولكن ثقوا. فإنّي قد غلبتُ العالم.»

يقف يسوع، يفتح ذراعيه على شكل صليب ويقول بوجه منير الصلاة السامية للآب. ويوحنا يرددها بالكامل.

يجهش الرُّسل ببكاء يكاد يكون واضحاً وبجلبة. وفي النهاية ينشدون ترتيلة.

يباركهم يسوع، ثمّ يأمر: «فلنلبس أرديتنا الآن ونرحل. أندراوس، قل لصاحب المنزل أن يترك كلّ شيء على حاله، بحسب مشيئتي. غداً... ستسعدكم رؤية هذا المكان من جديد.» ينظر إليه يسوع. يبدو وكأنّه يبارك الجدران والأثاث وكلّ شيء. ثمّ يلبس رداءه وينطلق، يتبعه التلاميذ. إلى جانبه يوحنا الذي يتكى عليه.

«ألا تحيي الأمّ؟» يسأله ابن زبدي.

«لا. كل شيء قد تمّ. لا تُحدثوا جلبة.»

سمعان، الذي أضاء شعلة من المصباح، ينير الممرّ الواسع المؤدّي إلى الباب. يفتح بطرس البوّابة باحتراس ويخرجون جميعاً إلى الطريق، ثمّ بمفتاح يقفلون من الخارج ويمضون.

تأملات في العشاء الأخير

1944 / 02 / 17

يقول يسوع:

«من حدث العشاء، إضافة إلى باعث محبة إله صار غذاء للبشر،
تُستخلص أربعة تعاليم رئيسيّة.

أولاً: ضرورة أن يطيع أبناء الله الشريعة:

كانت الشريعة تقول بوجوب استهلاك الحَمَل للفصح بحسب الطّقس
الذي أعطاه الله لموسى، وأنا الابن الحقيقيّ لله الحقّ، لم أعتبر نفسي، بسبب
منزلتي الألوهيّة، مستثنى من الشريعة. على الأرض: كنتُ إنساناً بين الناس
ومعلّماً للبشر. وبالتالي كان ينبغي لي إذن أن أوّدي واجبي كإنسان نحو الله
مثل الآخرين بل وأفضل منهم. الحظوة الإلهيّة لا تُعفي من الطاعة والاجتهاد
صوب قداسة تنمو باستمرار. لو أنكم تقارنون أرفع قداسة بالكمال الإلهيّ،
تجدونها دائماً مليئة بالأخطاء، ومجبرة بالتالي على الاجتهاد لإزالتها
والوصول إلى درجة من الكمال يشبه كمال الله قدر الإمكان.

ثانياً: قدرة صلاة مريم:

كنتُ الله في الجسد. الجسد الذي، كي يكون بلا شائبة، كان يملك القوة الروحية ليسود على الجسد. ومع ذلك لا أرفض، بل على العكس أطلب المساعدة من الممتلئة نعمة، التي، حتّى في ساعة التكفير هذه، وجدت، وهذا صحيح، السماء مقفلة فوق رأسها، ولكن ليس إلى درجة عدم التوصل إلى انتداب ملاك، هي، ملكة الملائكة، كيما تشدّد عزيمة ابنها. آه! ليس لأجلها، الأمّ المسكينة! هي كذلك تجرّعت مرارة تخلي الأب، ولكن بآلامها المقدّمة للفداء نالت لي قدرة تجاوز ضيق بستان الزيتون وتحمل الآلام إلى النهاية بكلّ أشكالها المتعدّدة العنف، حيث كلّ منها كانت تهدف إلى غسل شكل ووسيلة للخطيئة.

ثالثاً: سيادة النّفس واحتمال الإهانة، ومحبة سامية فوق كلّ شيء، لا يمكن أن تكون إلّا لهؤلاء الذين يعيشون جلّ حياتهم في شريعة المحبة، التي كنتُ قد أعلنتها. التي لم أعلنها فقط، بل مارسْتُها حقّاً:

لا يمكنكم أن تتصوّروا ما كان بالنسبة لي جلوس الذي كان يخونني على مائدتي، وجوب أن أمنحه ذاتي، وأن أتصاغر أمامه، أن أتقاسم معه الكأس الطقسيّ واضعاً شفّتي حيث وضعهما هو، وأجعل أمّي تضعهما. أطبّأؤكم ناقشوا ويناقدشون سرعة نهايتي ويرجعون سببه إلى خلل قلبيّ مرده إلى ضربات الجلد. نعم، بفعل تلك الضربات كذلك صار قلبي مريضاً. ولكنّه كان هكذا منذ العشاء. محطّماً، محطّماً في مجهود تحمّل الخائن في جوارِي. بدأ حينذاك موتي جسديّاً. البقيّة لم تكن سوى تفاقم الاحتضار الذي كان قد تحقّق. كلّ ما أمكنني عمله، عملته، ذلك أنّني لم أكن سوى واحد مع المحبة. حتّى ساعة ابتعاد الله-المحبة عني، عرفتُ أن أكون محبة، لأنّني طوال الثلاث والثلاثين سنة قد عشت بالمحبة. لا يمكن الوصول إلى كمال مثل هذا

الَّذِي يَتَطَلَّبُ الْغُفْرَانَ، وَتَحْمَلُ مَنْ يَخْطِئُ إِلَيْنَا، دُونَما الْإِعْتِيَادِ عَلَى الْمَحَبَّةِ.
وَأَنَا كُنْتُ أَمْتَلِكُهُ، وَتَمَكَّنْتُ مِنَ الْغُفْرَانِ وَتَحْمَلُ آيَةَ الْمَسِيئِينَ الَّذِي كَانَ يَهُودًا.

رابعاً: السرّ يعمل بقدر استحقاقنا لتقبّله. إن جعلنا ذواتنا مستحقّة بالإرادة الثابتة التي تحطّم الجسد وتجعل الروح سلطاناً، منتصراً على الشهوات، مُخَضِّعاً الكائن للفضائل، بشدّه كوتر القوس نحو كمال الفضائل وخاصة المحبّة.

بالفعل، عندما يحبّ أحدهم، فإنّه يسعى إلى إمتاع مَنْ يحبّه. يوحنا، الَّذِي كَانَ يَحْبُّنِي كإنسان نقيّ، حصل من السرّ على أقصى تحوّل. وقد بدأ من تلك اللحظة يصبح النسر الَّذِي يَأْلَفُ وَيَسْهَلُ عَلَيْهِ الارتفاع إلى سماء الله والتحدّق بالشمس الإلهيّة. ولكن الويل لمن يتلقّى السرّ دون أن يكون مستحقّاً له تماماً، بل على العكس يزيد من عدم استحقاقه البشريّ بالخطايا المميّنة. حينئذ لا يصبح السرّ بذرة وقاية وحياة، بل فساداً وموتاً. موت الروح وانهلال الجسد، الَّذِي هُوَ "منهك" كما يقول بطرس عن جسد يهوذا. جسد لا يسري فيه الدم، السائل الحيويّ دائماً والجميل في أرجوانيّته، ولكنّ أحشاءه، السوداء بسبب الأهواء جميعها، هي تعفن ينسكب من الجسد المتحلّل كما من جيفة حيوان نجس، شيء مقرّر بالنسبة للمارّة. موت مَنْ يَدْنُسُ السرّ هُوَ دائماً موت يائس، وهو لا يعرف بالتالي العبور الهادئ الخاصّ بمن هُوَ فِي النعمة، ولا العبور البطوليّ للضحية التي تتألم بطريقة مبرّحة ولكنّ نظرها مثبتة على السماء والنفس واثقة من السلام. موت اليائس يتّسم بالتشنّج والرعب الفظيع، إنّهُ اختلاج مريع للنفس التي تستولي عليها يد الشيطان، التي تضيق عليها كي تنتزعها من الجسد وتخفقها بتنفسها المقرّر. هذا هُوَ الفرق بين الَّذِي يعبر إلى الحياة الأخرى بعد التَغْذِيّ بالمحبّة، بالإيمان، بالرجاء وبكلّ فضيلة

أخرى، وبمذهب سماويّ وبالخبز الملائكيّ الذي يصحبه مع كلّ ثماره، بشكل أفضل إذا كان بحضوره الفعليّ، في الرحلة الأخيرة، وذاك الذي يموت بعد حياة بربريّة وموت بربريّ لا ينعشه السرّ ولا النعمة. الأوّل هو النهاية الصافية للقديس الذي يفتح له الموت باب الملكوت الأبديّ. والثاني هو السقوط المرعب للمدان الذي يشعر بانحداره إلى الموت الأبديّ ويعلم في لحظة ما أراد أن يفقده دون أن يعود قادراً على الإصلاح. للأوّل هو الغنى وللآخر هو التجريد. للواحد الفرح وللآخر الرعب.

هذا ما تمنحونه لأنفسكم بحسب إيمانكم ومحبتكم، أو عدم إيمانكم واحتقار نعمتي. وهذا هو التعليم من هذا التأمل.»

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

15- (ثوب الكفارة)

1944 / 02 / 10

يقول يسوع:

«والآن تعالي. رغم أنكِ هذا المساء كمن يوشك على الموت، تعالي، حيث أصحبكِ إلى آلامي. طويل سيكون الدرب الذي سنسلكه معاً، إذ لم يوفر عني أيّ ألم: لا الآلام الجسدية، ولا الذهنية، ولا القلبية، ولا الروحية. لقد ذقتُها جميعها، جعلتُ من كلّ منها طعامي وشرابي، حتّى الموت.

لو كنتِ تضعين فمكِ على شفتيّ، لكنتِ تشعرين أنّهما ما تزالان تحتفظان بمرارة آلام كثيرة. لو كنتِ تستطيعين رؤية إنسانيتي في ثوبها، المُشعّ الآن، لرأيتِ أنّ هذا الإشعاع ينبعث من آلاف الجراح التي تُغطّي بثوب أرجواني حيّ أعضائي المُمزّقة، النازفة، الموسومة بالضربات، المثقوبة حباً بكم.

الآن تتألق إنسانيتي. ولكنّها كانت آنذاك تشبه تلك التي لأبرص من كثرة الضرب والذلّ. إنّ الإنسان-الله، الذي كان له في ذاته كمال البهاء الجسديّ كونه ابن الله والمرأة التي بلا دنس، قد ظهَرَ وقتها، في عيون الذين كانوا ينظرون إليه آنذاك بمحبّة، أو بفضول، أو باحتقار، دميماً: "دودة" كما يقول داود، عار البشر، ومُحتقَر الشعب.

لقد قادتني محبّتي لأبي ولأولاد أبي إلى أن أدع جسدي للذين كانوا يضربونني، أن أقدم وجهي للذين كانوا يصفعونني ويغطّونني بالبصاق، للذين كانوا يظنّون أنّهم يصنعون عملاً مُستحقّاً للثواب، بنزع شعري ومنتفّ لِحيتي، بخرق رأسي بالأشواك، جاعلين الأرض وثمارها شريكة في العذابات المفروضة على مُخلّصها، بخلع أعضائي، بكشف عظامي، بنزع ثيابي مسبّين لبراءتي أشدّ العذاب، بتعليقي على خشبة ورفعي كالحمل المذبوح على كُلاب الجزّار، نابحين حول احتضاري مثل زمرة ذئاب جوعى جعلتهم رائحة الدم أكثر شراسة.

قاموا باتّهامي، قاموا بإدانتي، قاموا بقتلي. خانوني، جحدوني، باعوني. تمّ التخلّي عني حتّى من الله نفسه، إذ كانت الجرائم التي حمّلتها قد ران ثقلها عليّ. صرتُ أكثر فقراً من شحاذ عراه قُطّاع الطرق، إذ إنّهم لم يتركوا لي حتّى ثيابي أُعطّي بها شحوب عُرِّي كشهيد. حتّى بعد الموت لم تكفّ إهانة وجرح وافتراءات أعدائي. غُمِرْتُ بأوحال خطاياكم، مدفوعاً إلى أعماق ظلام الألم، دون أيّ قَبس من نور السماء يُجيب على نظري المائت [المحتضر]، وبلا كلمة من الله تُجيب على آخر نداء لي.

يشير إشعياء إلى سبب كل تلك الآلام: "حقّاً أخذ عاهاتنا وحمل أوجاعنا".

أوجاعنا! نعم، حمّلتها بدلاً منكم! كي أخفّف أوجاعكم، الطّفها، أزيلها، فيما لو بقيتم أوفياء لي. ولكنكم لم تريدوا أن تكونوا كذلك. وماذا نلتُ من ذلك؟ "حسبتموني ذا برّص، مضروباً من الله". نعم، كنتُ أحمل برّص خطاياكم التي لا تُحصى، كانت عليّ كثوب الكفّارة، كالمسوح؛ ولكن كيف لم

تروا محبة الله اللامتناهية متجلية من خلال هذا الثوب الذي وضعه من أجلكم على قداسته؟

"جرح لأجل معاصينا، وسحق لأجل آثامنا". يقول إشعيا، الذي كان يرى بنظرته النبوية ابن الإنسان الذي صار جرحاً عظيماً بكليته ليشفي جروح الناس. وكما لو لم يكن سوى جرحاً لجسدي!

ولكن أكثر ما جرحتم كان مشاعري وروحي. فجعلتم منهما أداة هزء ونطاق تهديف، وقد جرحتم صداقتي التي منحتموها لكم، من خلال يهوذا؛ جرحتم الإخلاص الذي كنتُ آمله منكم، عبر بطرس الذي أنكرني؛ جرحتم عرفان الجميل للخير الذي صنعته، من خلال الذين كانوا يهتفون لي: "مُتْ!" رغم أنني كنتُ قد شفيتهم من عديد من الأمراض؛ جرحتم المحبة، بالعذابات التي تكبدتها أمي؛ جرحتموها عبر الدين، مُعلنين أنني أجدف على الله، أنا، الذي بسبب الغيرة على مشيئة الله، كنتُ قد وضعتُ نفسي بين أيدي البشر بتجسدي، وبمعاناتي طوال عمري، وباستسلامي لوحشية البشر دون أن أتفوه بأية كلمة أو شكوى.

نظرة واحدة كانت كافية لتحوّل الذين يتهمونني، القضاة والجلادين، إلى رماد. ولكنني كنتُ قد أتيتُ طوعاً كي أتمّ التضحية، إذاً كَحَمَلٍ -لأنني حَمَلُ الله وأنا كذلك للأبد- تركتُ نفسي أساق للسلخ والموت. وهكذا جعلتُ من جسدي حياة لكم.

عندما رُفعتُ عن الأرض، كنتُ منهكاً بالفعل بالآلام التي بلا اسم، أو بالأحرى التي كانت تحمل كلّ المُسمّيات. قد بدأتُ فعلاً بالموت في بيت لحم، وأنا أرى نور الأرض المختلف تماماً على نحو مقلق بالنسبة لي، أنا

الذي كنتُ حيَّ السماء. وتابعتُ الموت في الفقر، في الهَرَب، في المنفى، في العمل، في عدم الفهم، في التعب، في الخيانة، في المودّات التي كانت تُسَلِّب منّي، في العذابات، في الأكاذيب، وفي التجاديف. هذا ما أعطانيه الإنسان، أنا الذي كنتُ قد جنّتُ كي أصالحه مع الله!

ماريّا، انظري إلى مُخلّصك. هو لا يرتدي ثوبه الأبيض، ولا شعره أشقر. ليست له نظرتة اللازوردية التي تعرفينها له. إنّ ثوبه أحمر من الدم، ممزّق هو، مُغطّى بالقذارة والبصاق. وجهه مُتورّم ومُشوّه، نظرتة مُغشّاة بالدم والدموع، وينظر إليك من خلال القشور التي تُكوّنها ممزوجة بالغبار ممّا يُثقل الجفنين. يداي -أترينهما؟- ليستا سوى جرح واحد في انتظار الجرح النهائي.

انظري، يا يوحناي الصغيرة، كما فعل أخوك يوحنا. لقد تركتُ آثاراً دموية أثناء مروري. العرق يُخفّف لون الدم الباقي من نزاع البستان والذي ينزف من تمزيقات الشياطين. الكلمة تخرج، في لهاث ضيق قلب أضحى يموت من العذاب بكلّ المسمّيات، من شفتيّ المُحتَرقتين والمرضوضتين.

من الآن فصاعداً سترينني غالباً هكذا. إنّني ملك الآلام وسأتي لأُكَلِّمك عن ألمي في ثوبي الملكي. اتبعيني، رغم نزاعك. ولأني مُفعم رحمة، سأعرف أن أضع على شفتيك المسمومتين بفعل آلامي، كذلك العسل المُعطر بالتأمّلات الأكثر صفاء. ولكن ينبغي لك أن تُفضّلي أكثر بعد هذه التأمّلات الدموية، لأنّ بها تنالين الحياة وبها ستحملين الحياة إلى الآخرين. قبّلي يدي المُدَمّاة واسهري وأنتِ تتأمّلين فيّ أنا الفادي.»

أرى يسوع كما يصف نفسه. ومنذ الساعة السابعة من مساء اليوم (الآن الساعة هي الواحدة والرابع من يوم 11 / 02). إني حقاً في نزاع.

يقول لي يسوع هذا الصباح 11 / 02 / 1944 في السابعة والنصف:

«مساء أمس، لم أشأ أن أكلّمك سوى عن آلامي، إذ بدأت وصفها ورؤياها. مساء أمس كانت المُقدّمة. وقد كنت يا صديقتي في غاية الإنهاك! ولكن قبل أن يعاودك النزاع، عليّ أن أعاتبك بلطف.

صباح أمس، بدوت أنانيّة. قلتُ للأب [ميغليوريني]: "لنأمل أن أستطيع الصمود، ذلك أنّي أنا التي أعاني أكثر." كلاً، فمعاناته أعظم من معاناتك: فهي ليست ثقيلة فقط، بل هي بلا تعويض من غبطة رؤية وامتلاك يسوع حاضراً، مثلك أنت، كذلك في إنسانيّته المُقدّسة. لا تكوني أنانيّة أبداً، حتّى في أصغر الأمور. ينبغي للتلميذة، يوحنا الصغيرة، أن تكون متواضعة جداً ومُحبّة مثل يسوعها.

والآن هلمّي وابقِ معي. "قد ظهّرت الأزهار... ووافى أوان التشذيب... وسُمع صوت اليمامة في الحقول..." وهي الأزهار التي نبتت في برك دم مسيحي. والذي سيُقطّع مثل الفرع الذي يُشذب، هو الفادي. وصوت اليمامة التي تُنادي العروس لوليمة العرس الأليمة والمُقدّسة، فهو صوتي الذي يحبك.

قفي وهلمّي، كما يقول نص قدّاس اليوم. تعالي لتتأملي وتتألّمي. هذه هي الهبة التي أقدمها للذين أحبّهم.»

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

16- (النزاع والقبض على يسوع في جَثْسِيمَانِي)

1945 / 03 / 16

صمت مطبق على الطريق. لا يقطع الصمت العميق سوى تساقط ماء ينبوع في حوض حجريّ. على طول جدران المنازل، من الجهة الشرقيّة، ما يزال ظلام، فيما يبيّض القمر، في الجهة الأخرى قمم المنازل، وحيث تتسع الطريق لتشكّل ساحة صغيرة، ها هو ضياء القمر اللبنيّ والفضيّ يحلّ ليُجَمِّل الحصى وتراب الطريق. أمّا تحت العقود [الأقواس] الكثيرة التي تمتدّ من منزل إلى آخر، والمشابهة لجسور متحرّكة أو دعامات لهذه المنازل القديمة ذات الفتحات غير الكثيرة على الشوارع، والتي، في مثل هذه الساعة، هي مغلقة جميعها ومظلمة، كما لو كانت منازل مهجورة، إنّ الظلام الدامس، ممّا أكسب الشعلة الحمراء التي يحملها سمعان توقّداً فريداً وفائدة عظيمة. وتظهر الوجوه، في هذا النور الأحمر والمتحرّك، واضحة المعالم جميعها، وهي على حالها، تكشف حالات نفسيّة متعدّدة ومختلفة.

الوجه الأبهى والأكثر سكوناً هو وجه يسوع. ومع ذلك فإنّ التعب جعله يشيخ مُظهِراً خطوطاً غير اعتياديّة تجعل صورة وجهه المستقبلية المعاد تركيبها بعد الموت تظهر.

يوحنا الذي بجواره، يلتفت بنظرة مندهشة، حزينة من أجل كلّ ما يرى. وكأنّه طفل مُرَوِّع من قصة سمعها أو وعد مخيف ويطلب العون ممّن يعرف أنّه أقدر منه. ولكن من يستطيع عونه؟

سمعان، الذي إلى الجانب الآخر من يسوع، وجهه غامض، متجهّم، لإنسان يجترّ أفكاراً مريّة، وهو أيضاً الوحيد، بعد يسوع، الذي يظهر بمظهر مُفعم وقاراً.

الآخرون، الذين هم في مجموعتين لا تكفّان عن التبدل، هم جميعاً في هياج. ومن وقت إلى آخر يرتفع صوت بطرس الأَجشّ أو صوت توما الجهير برنين غريب. ثمّ يخفضان صوتهما كما لو كانا مرتعبين ممّا يقولان. يتناقشان فيما يجب عمله، أحدهما يقترح أمراً والثاني أمراً آخر. ولكنّ كلّ الاقتراحات تسقط لأنّ "ساعة الظلمة" سوف تبدأ بالفعل وتبقى الأحكام البشريّة مظلمة ومُشوّشة.

«كان يجب أن يقال لي ذلك قبل الآن.» يقول بطرس غاضباً.

«ولكن لم يتكلّم أحد. ولا المعلّم...» يقول أندراوس.

«نعم! هو بالضبط كان ليقول لك ذلك. إنّما يا أخي! يبدو أنّك لا تعرفه!...» يجيبه بطرس.

«أنا كنتُ أشعر ببعض الاضطراب وقلتُ: "فلنذهب ولنمت معه". هل تتذكّرون؟ بحقّ إلّها الكلّيّ قدسه، لو كنتُ علمتُ أنّه يهوذا بن سمعان!...» ويهدر صوت توما مُهدّداً.

«وما الذي كنتَ تريد فعله؟» يسأل برتلماوس.

«أنا؟ أفعله الآن أيضاً إن كنتم تساعدوني!»

«ماذا؟ أتذهب لتقتله؟ وأين؟»

«لا. أبعد المعلّم. هذا أبسط.»

«ما كان ليأتي!»

«لم أكن لأطلب منه أن يأتي. أخطفه كما تُخطف المرأة.»

«ليست بفكرة سيئة!» يقول بطرس. ويتراجع إلى الخلف بنزق، وينضم إلى مجموعة ابني حلفى اللذين مع متى ويعقوب يتكلمون بصوت خافت كالمتأمرين.

«اسمعوا: يقول توما بإبعاد يسوع. كلنا معاً. يمكن ذلك... من جتسامني [Get-Samni] عن طريق بيت فاجي إلى بيت عنيا ومن هناك... في الطريق إلى مكان ما. هل نفعّل؟ وبمجرد أن يصبح في مكان آمن، نرجع ونُهلك يهوذا.»

«لا فائدة. إسرائيل ليست سوى مصيدة.» يقول يعقوب بن حلفى.

«وهي تكاد تطبق الآن. كنّا ندرك ذلك. الكراهية هائلة!»

«ولكن يا متى! أنت تغيظني! كان لديك المزيد من الشجاعة وأنت خاطئ! فيلبس، تكلم أنت.»

فيلبس، الذي كان مُقبلاً وحيداً ويبدو كأنه يكلم نفسه، يرفع وجهه ويتوقّف. فيلحق به بطرس ويتهامسان فيما بينهما. ثم يلحقان بالمجموعة الآنفة الذكر. «أنا أقول إنّ أفضل مكان هو الهيكل.» يقول فيلبس.

«هل أنت مجنون؟» يصرخ ابنا العم ومتى ويعقوب. «ولكن إن كانوا هناك يطلبون موته!»

«صه! يا لها من ضجة! أنا أعلم ما أقول. سيبحثون عنه في كل مكان، إنما ليس هناك. أنت ويوحنا لكما صداقات طيبة بين خدام حنان. تُعطى قبضة لا بأس بها من الذهب... وكل شيء يتم. ثقوا! أفضل مكان لإخفاء إنسان يجري البحث عنه، هو بيت السجان.»

«أنا لا أفعل ذلك.» يقول يعقوب بن زبدي. «ولكن أسمع الآخرين أيضاً، وابدأ بيوحنا. وإن قبضوا عليه بعد ذلك؟ لا أريد أن يقولوا إنني أنا الخائن...»

«لم أكن أفكر في هذا. وإذاً؟» بطرس يصيبه الإعياء.

«وإذاً أقول يجب القيام بأمر ما بدافع من رحمة. الشيء الوحيد الذي يمكننا عمله: إبعاد الأم.» يقول يوحنا بن حلفي.

«حسناً!... ولكن... من يذهب إليها؟ ماذا يقال لها؟ اذهب إليها أنت، قريبها.»

«أنا باقٍ مع يسوع. هذا حقّي. اذهب أنت.»

«أنا؟! أنا مسلّح بسيف كي أموت مثل إلعازار بن سواران. سأجتاز الفرق لأدافع عن يسوعي وسأضرب بلا هوادة. وإن قتلتنني قوّة الذين هم أكثر عدداً، لا يهمّ. فسأكون قد دافعتُ عنه.» يعلن بطرس. «ولكن هل أنت متأكّد بحقّ أنّه الاسخريوطيّ؟» فيلبس يسأل تداوس.

«أنا متأكّد من ذلك. لا أحد ممّا له قلب ثعبانيّ. لا أحد سواه... اذهب يا متى إلى مريم وقل لها...»

«أنا؟ أغشّها؟ وأراها إلى جانبي لا تعلم شيئاً، ومن ثمّ؟... آه! لا. أنا مستعدّ للموت ولكن لا أخون هذه الحمامة...»
الأصوات تتداخل في همس.

«هل تسمع؟ يا معلّم نحن نحبّك.» يقول سمعان.

«أنا أعلم. ولا حاجة لي بهذه الأقوال لأعلم. فهي إن كانت تمنح السلام لقلب المسيح، إلّا أنّها تجرح نفسه.»

«لماذا يا ربّي؟ إنّها كلمات محبّة.»

«محبّة بشريّة تماماً. في الحقيقة لم أفعل شيئاً في السنوات الثلاث هذه، ذلك أنّكم مازلتُم أكثر بشريّة ممّا كنتم عليه في الساعة الأولى. تختمر فيكم هذا المساء كلّ الخمائر الأكثر حمأة. ولكن هذا ليس خطأكُم...»

«خلّص نفسك يا يسوع!» يئنّ يوحنا.

«إنّني أخلّصها.»

«نعم؟ آه! ربي، شكراً!» ويبدو يوحنا كأنّه زهرة تذبل جفافاً، وتعود إلى نصرتها من جديد على ساقها. «أقول ذلك للآخرين. إلى أين نحن ذاهبون؟»

«أنا إلى الموت. وأنتم إلى الإيمان.»

«ولكن ألم تقل للتوّ إنّك ستخلّص نفسك؟» المفضّل يصبح منهكاً من

جديد.

«أنا أخلّص نفسي بالفعل، أخلّصها. لو لم أكن أطيع أبي لضلّلتُ. أطيع، إذاً أخلّص نفسي. لكن لا تبك هكذا! هل أنت أقلّ شجاعة من تلاميذ ذلك

الفيلسوف اليونانيّ الذي كلّمتك عنه ذات يوم. هم بقوا بجوار معلّمهم الذي أماته سمّ الشوكران، ليعزّوه بألمهم الرجوليّ. وأنت... تبدو كطفل قد فقد أباه.»

«أليس الأمر هو هكذا؟ بل أكثر ممّا لو كنتُ فقدتُ أبي! إنني أفقدك أنت...»

«لا تفقدني لأنّك تستمرّ في حبّي. يضلّ من يفصل عنّا بالنسيان على الأرض وبدينونة الله في الآخرة. ولكن نحن لن نفرق أبداً. لا بهذا ولا بذاك.»

ولكنّ يوحنا لا يستمع للعقل.

يقترّب سمعان أكثر من يسوع ويهمس له: «يا معلّم... أنا... سمعان بطرس وأنا، كنّا نأمل أن نفعل شيئاً جيّداً... ولكن... أنت يا من تعلم كلّ شيء، قل لي: خلال كم من الوقت تظنّ أنّه سيتم القبض عليك؟»

«قبل وصول القمر إلى قمّة مداره.»

يقوم سمعان بحركة ألم ونفاذ صبر، إن لم يكن غيظ. «إذا كلّ شيء كان بلا فائدة... يا معلّم، سوف أشرح لك. كدت تعاتبني أنا وسمعان بطرس على تركك وحيداً خلال الأيام الماضية... ولكننا كنّا نبتعد من أجلك... حبّاً بك. بطرس، ليلة الإثنين، متأثراً بأقوالك، جاءني أثناء نومي وقال لي: "أنا أثق بك، فأنا وأنت يجب أن نفعل شيئاً من أجل يسوع. حتّى يهوذا قال إنّه يريد أن يهتمّ بالأمر." آه! لماذا لم نفهم حينذاك؟ لماذا لم تقل لنا شيئاً، أنت؟ ولكن قل لي: ألم تقل ذلك لأحد؟ حقّاً لأيّ أحد؟ ربما قد أدركت ذلك من عدّة ساعات فقط؟»

«كنتُ دائم العلم به. حتّى قبل أن ينضمّ إلى زمرة التلاميذ. وكي لا تكتمل جريمته، ومن الناحية الإلهيّة والناحية البشريّة، حاولت بكلّ الطرق أن أبعده عنيّ. الذين يريدون أن أموت هم جلاّدو الله. وهو، تلميذي وصديقي، هو كذلك الخائن. جلاّد الإنسان. جلاّدي الأول، ذلك أنّه كان أوّل من جعلني أموت بتحمّل قربه منّي، على مائدتي، بوجوب حمايته منكم بنفسي.»

«ولا أحد يعرف؟»

«يوحنا. أخبرته في نهاية العشاء، ولكن ما الذي فعلتموه؟»

«ولعازر؟ ألا يعرف شيئاً حقّاً؟ اليوم ذهبنا إليه. بالفعل لقد حضر مبكّراً، ضحّى ومضى، دون أن يتوقّف حتّى في قصره أو يذهب إلى دار الولاية، ذلك أنّه يذهب إلى هناك دوماً، حسب عادة درج عليها من أيّام أبيه. وببلاطس، كما تعلم، موجود في المدينة هذه الأيام...»

«نعم جميعهم هناك، توجد روما، صهيون الجديدة، مع ببلاطس. إسرائيل مع قيافا وهيرودس. كلّ إسرائيل، ذلك أنّ الفصح جمع أبناء هذا الشعب على عتبة هيكل الله... هل رأيت غمّالائيل؟»

«نعم. لماذا تسألني؟ وينبغي لي لقاءه أيضاً غداً...»

«غمّالائيل هذا المساء في بيت فاجي. أنا أعلم هذا. عندما نصل جثسيماني ستذهب إلى غمّالائيل وتقول له: "عمّا قليل ستكون لكّ العلامة التي تنتظرها من واحد وعشرين عاماً." ولا كلمة أخرى. ثمّ تعود إلى رفاقك.»

«ولكن كيف تعلم هذا؟ آه! يا معلّم، معلّمي المسكين الذي لم تكن لك
حتى تعزية عدم العلم بأعمال الآخر!»

«تحسن القول! تعزية عدم العلم! المعلّم المسكين! لأنّ الأعمال السيئة
أكثر من الحسنة. ولكنّي أرى أيضاً الأعمال الحسنة وأسرّ بها.»
«إذا أنت تعلم أنّ...»

«سمعان، إنّها ساعة ألمي. ولجعلها أكثر اكتمالاً، يسحب الله منّي النور
كلّما دنت. عمّا قليل، لن يكون لي سوى الظلمات والتأمّل فيما تكون
الظلمات: أي خطايا البشر كلّها. لا يمكنك، بل لا يمكنكم إدراك ذلك. ولا
أحد، إلّا من يكون مدعوّاً من الله لرسالة خاصّة، سيفهم هذا الألم الذي هو
أعظم ألم. لأنّ الإنسان مادّي، حتّى في المحبّة والتأمّل. هناك من سوف
يكون ويعانون بسبب الضربات التي تلقّيئها، وعذاباتي كفادي، ولكن لا
قياس لهذا العذاب الروحيّ الذي، ثقوا يا من تسمعونني، سيكون الأكثر
فضاعة... كلّمني إذن يا سمعان. أرشدني إلى الدروب التي سلّكتها صداقتك
من أجلي، لأنّي مسكين يفقد الرؤية ويرى أشباحاً، وليس أشياء حقيقية...»

فيشده يوحنا إليه ويسأله: «ماذا؟ ألم تعد ترى يوحناك؟»

«أراك، ولكن الخيالات تنبتق من ضباب الشيطان، رؤى كوابيس
وأوجاع. كلّنا محاطون هذا المساء ببخار جهنّم العفن. وهو يحاول أن يخلق
فيّ التخاذل والعصيان والألم. وفيكم خيبة الأمل والخوف. وفي آخرين، الذين
هم مع ذلك ليسوا خائفين ولا مجرمين، سيتسبّب في الجريمة والهلع. وفي
آخرين، الذين أضحوا ينتمون للشيطان، فيقدّم فساداً فائق الطبيعة. أتكلّم هكذا

لأنّ إتقانهم للشرّ سيكون بشكل يفوق الإمكانيات البشريّة ويصل إلى الإتقان الذي يفوق دائماً قدرة البشر. تكلم يا سمعان.»

«نعم. منذ الثلاثاء، ونحن لم نفعل شيئاً سوى التنقّل كي نعرف، كي نتدارك، كي نبحث عن عون.»

«وما الذي أمكنكم عمله؟»

«لا شيء، أو القليل القليل.»

«والقليل يصبح "لا شيء" عندما يشلّ الخوف القلوب.»

«لقد صُدمتُ أيضاً بلعازر... يحدث هذا لي لأوّل مرّة... صُدمتُ لأنّه بدا لي خاملاً... وهو يمكنه أن يتصرّف. فهو صديق للحاكم. وهو ابن ثيوفيلوس! ولكنّ لعازر رفض كلّ مقترحاتي. تركّته وأنا أصيح: "أظنّ أنّ الصديق الذي يتكلّم عنه المعلّم هو أنت! إنّك ترعيني!" ولم أكن أريد العودة إليه. ولكنّه دعاني هذا الصباح وقال لي: "أما زال بإمكانك الاعتقاد أنّي الخائن؟" وكنتُ بالفعل قد رأيتُ هذا الصباح غمّالائيل ويوسف وخوزي، ونيقوديموس ومناين، وفي النهاية أخاك يوسف... ولم أكن أستطيع بعد تصديق ذلك. قلتُ له: "اغفر لي يا لعازر. ولكنني أشعر ببلبلّة في فكري أكثر ممّا حين كنتُ أنا مُداناً". الأمر هو هكذا يا معلّم... لم أعد أنا نفسي.. ولكن لماذا تبتسم؟»

«لأنّ هذا يؤكّد ما قلّته لك سابقاً. ضباب الشيطان يلفّك ويسبّب لك

الاضطراب. بماذا أجاب لعازر؟»

«قال: "أفهمك. تعال اليوم مع نيقوديموس. أنا محتاج لرؤيتك." وذهبتُ إليه، بينما ذهب سمعان بطرس إلى الجليليين، لأنَّ أخاك الآتي من بعيد يعلم أخباراً أكثر منا. يقول إنّه علمها بالصدفة من حديثه مع جليليَّ كهل، صديق لحلفي ويوسف يسكن بالقرب من الأسواق.»

«آه! ... نعم... صديق للبيت عظيم...»

«إنّه هنا مع سمعان والنساء. وهناك أيضاً عائلة قانا.»

«لقد رأيتُ سمعان.»

«حسناً، لقد علم يوسف من صديقه هذا، الذي هو صديق أيضاً لواحد من الهيكل أصبح نسيبه عن طريق النساء، أنّه قد تقرّر القبض عليك، وقال لبطرس: "لقد حاربته دائماً، ولكن بمحبّة وطالما كان ما يزال قوياً. إنّما الآن وقد صار مثل طفل تحت رحمة أعدائه، فأنا قريبه الذي أحبه دائماً، معه. إنّّه واجب دم وقلب".»

يبتسم يسوع مستعيداً للحظة وجهه الصافي الذي لأوقات الفرح.

«ويوسف قال لبطرس: "فرّسيّو الجليل ثعابين سامّة ككلّ الفرّسيّين. ولكنّ الجليل ليست كلّها فرّسيّين. فهنا جليليّون كثيرون يحبّونه. هيّا بنا نقول لهم أن يتجمّعوا للدفاع عنه. ليس لدينا سوى السكاكين، ولكنّ العصيّ هي أيضاً أسلحة عندما تُستخدم جيّداً. وإن لم تتدخّل الفرق الرومانيّة، سنتغلّب سريعاً على أولئك الحثالة الجبناء الذين هم جنود الهيكل." وبطرس ذهب معه. وأنا في تلك الأثناء ذهبتُ إلى لعازر، مع نيقوديموس. كنّا قد قرّرنا إقناع لعازر بأن يأتي معنا ويفتح المنزل ليبقى معك. فقال لنا: "ينبغي لي أن أطيع يسوع وأبقى هنا. كي يتضاعف ألمي... هل هذا صحيح؟»

«صحيح. لقد أعطيته هذا الأمر.»

«ومع ذلك فقد أعطاني السيوف، وهي له: واحداً لي وواحداً لبطرس. خوزي أيضاً كان يريد إعطائي سيوفاً. ولكن... ما قيمة حدين من الحديد في مقابل جمهور كبير؟ خوزي لا يستطيع تصديق أن ما تقوله صحيح. إنه يُقسم أنه لا يعلم شيئاً وأنّ البلاط لا يفكر سوى بالتمتع بالعيد... قصوف كالمعتاد. حتّى إنه طلب من يُونّا أن تعود إلى واحد من منازلها في اليهوديّة. ولكنّ يُونّا تريد البقاء هنا، حبيسة في قصرها كما لو كانت غير موجودة فيه. ولكنّها لم تبتعد. ومعها بلوتينا، حنة ونيقي، وسيدتان رومانيّتان من بيت كلوديا. يبكين ويصلّين، ويجعلن الأبرياء يُصلّون. ولكنّه ليس وقت صلاة. إنه وقت دم. أشعر بولادة "الغيور" فيّ من جديد وأتحرّق للقتل من أجل الانتقام!...»

«سمعان! لو كنتُ أريد جعلك تموت ملعوناً، لما كنتُ انتزعُكَ من الأسي!» يسوع بغاية الصرامة.

«آه! اغفر لي يا معلّم... اغفر لي! أنا كالسكران وأهذي.»

«ومَنّاين، ماذا يقول؟»

«مَنّاين يقول إنّ هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً، ولو كان كذلك، فهو سيتبعك حتّى إلى العذاب.»

«كم أنكم جميعاً واثقون بأنفسكم!... أيّ كبرياء في البشر! ونيقوديموس ويوسف؟ ماذا يعرفان؟»

«ليس أكثر منّي، منذ بعض الوقت، في إحدى الاجتماعات، تصادم يوسف مع السنهدرين، لأنّه اعتبرهم قتلة لأنهم كانوا يريدون قتل بريء، ويقول: "كلّ شيء هنا في الداخل غير قانوني". هو قد أحسن بقوله: إنّهُ الرّجس هو في بيت الربّ. وهذا الهيكل سيُدمّر لأنّه مدنّس". لم يرموه لأنّه هو. إنّما منذ ذلك الحين جعلوه يجهل كلّ شيء تماماً. فقط غمّالائيل ونيقوديموس ظلّوا أصدقاءه. ولكنّ الأوّل لا يتكلّم. والآخر... لا هو ولا يوسف لم يعودا يُدعّيان إلى السنهدرين في القرارات الحقيقيّة. السنهدرين يجتمع بشكل غير شرعيّ هنا وهناك، في أوقات مختلفة، ذلك أنّهم خائفون منهم ومن روما. آه! نسيّت!... الرعاة. هم أيضاً مع الجليليّين. ولكنّ عددنا قليل! لو شاء لعازر الاستماع إلينا والذهاب للقاء الحاكم الشرعيّ! ولكنّه لم يستمع إلينا... هذا ما فعلناه... الكثير... ولا شيء... وأنا مكدر لدرجة أنّني أودّ أن أجري في الحقول وأصرخ مثل ابن آوى، أتصرّف في خبَل عريضة، أقتل مثل قاطع طريق، لأتخلّص من فكرة "لا شيء يجدي نفعا" كما قال لعازر، وكما قال يوسف وخوزي ومناين وغمّالائيل...» الغيور لا يبدو هو نفسه...

«ماذا قال الرّابّي؟»

«قال: "أنا لا أعرف بالضبط نوايا قيافا، ولكنّي أقول لكم إنّ ما تقولونه قد تمّ التنبؤ به من أجل المسيح فقط. وحيث إنّني لم أتعرف على المسيح في هذا النّبيّ، فلست أرى من داع للاضطراب. رجل سيقتل، صالح، وصديق لله. ولكن كم ممّن يشبهونه شربت صهيون دماءهم؟!". وبما أنّنا كنّا نصرّ على الطبيعة الإلهيّة، فقد كرّر بعناد: "عندما أرى العلامة، سأؤمن". وواعد أن يمتنع عن التصويت على موتك، وحتّى، إن أمكن، أن يحاول إقناع

الآخرين بعدم إدانتك. هذا، وليس أكثر. إنه لا يؤمن! لا يؤمن! لو كنا نستطيع الوصول إلى الغد... ولكن أنت تقول لا. آه! ماذا نفعل نحن؟!»

«ستذهب إلى لعازر وتحاول أن تصحب قدر استطاعتك إليه. ليس فقط رؤسلاً، بل أيضاً تلاميذ تجدهم تائهين على طرقات الريف. حاول أن ترى الرعاية وتعطيهم هذا الأمر. منزل بيت عنيا الآن هو أكثر من أي وقت مضى منزل بيت عنيا، منزل الضيافة الصالحة. ومن ليس لهم الشجاعة لمواجهة كراهية شعب كامل فليلتجئوا إلى هناك، لينتظروا...»

«ولكننا لن نتركك.»

«لا تنفصلوا... بالانقسام لا تكونون شيئاً. بالاتحاد، ستكونون قوة. سمعان، عدني بهذا. أنت وديع، مخلص، تعرف كيف تتكلم وتقود حتى بطرس. وعليك التزام كبير نحوي. أذكرك به لأول مرة لأفرض عليك الطاعة. انظر: نحن في قدرون. من هنا صعدت لي أبرصاً ومن هنا مضيت مطهراً. أعطني من أجل ما أعطيتك. أعط للإنسان ما أعطيته أنا للبشر، الآن الأبرص هو أنا...»

«لا! لا تقل هذا!» يقول التلميذان وهما يئنّان.

«هو هكذا! بطرس، إخوتي سيصبحون الأكثر إعياء. سيشعر بطرس النزيه وكأنه مجرم ولن يحظى بالسلام. وإخوتي... لن تكون لهم الشجاعة للنظر إلى أمهم ولا إلى أمي... أوصيك بهم...»

«وأنا يا رب، لمن توكلني؟ ألا تفكر بي؟»

«يا ولدي الصغير! أنت موكل لمحبتك. إنها قوّة لدرجة أنّها ستقودك كأمّ. لن أُصدر لك أمراً ولا توجيهاً. سأتركك على مياه المحبة. هي فيك نهر ساكن جداً وعميق جداً حتّى إنّني لست قلقاً بشأن غدك. سمعان، هل سمعت؟ عدني، عدني!» من المؤلم رؤية يسوع قلقاً لهذا الحدّ... ويستأنف: «قبل أن يأتي الآخرون! آه! شكراً! كن مباركاً!»

تجتمع المجموعة كلّها.

«الآن، فلنفترق. أنا أعود إلى الأعلى للصلاة. أريد معي بطرس، يوحنا ويعقوب. أنتم، ابقوا هنا. وإن كنتم منهكين، نادوا. ولا تخافوا. لن تُمسّ شعرة من رؤوسكم. صلّوا من أجلي. اطرحوا الكراهية والخوف. لن تكون سوى لحظة... ومن ثمّ سيكتمل الفرح. ابتسموا. لتكن في قلبي ابتساماتكم. وأيضاً، شكراً على كلّ شيء يا أصدقائي. الوداع. لا يتخلّين عنكم الربّ...»

ينفصل يسوع عن الرُّسل ويمضي إلى الأمام، بينما يعطي سمعان المشعل إلى بطرس بعدما أشعل به أغصاناً راتنجيّة تطلق وهي مشتعلة على حافة بستان الزيتون ناشرة رائحة العرعر.

أتألم من رؤية تداوس الذي ينظر إلى يسوع تلك النظرة الحادّة والأليمة للغاية، حتّى إنّ يسوع يلتفت ويبحث عمّن نظر إليه. ولكنّ تداوس يختبئ خلف برتلمائوس ويعضّ شفتيه كي يهدأ.

يحرك يسوع يديه بالبركة والوداع، ثمّ يكمل طريقه. القمر، الذي هو الآن في كبد السماء، يحيط بنوره قامته الممشوقة ويجعلها تبدو أكبر، مُروّحناً إيّاه، جاعلاً ثوبه الأحمر أكثر إشراقاً، وشعره الذهبيّ أكثر شحوباً. خلفه يسرع بطرس الخطى بالشعلة وكذلك ابنا زبدي.

يتابعون حتّى وصولهم إلى طرف أوّل منحدر لمدّرج بستان الزيتون،
الّذي مدخله فسحة صغيرة غير منتظمة وهي مدّرج لانحدارات مختلفة
تصعدّ الجبل على شكل درجات من أشجار الزيتون. ثمّ يقول لهم يسوع:
«توقّفوا، انتظروني هنا فيما أصلي. ولكن لا تناموا. قد أحتاج إليكم. وأطلب
منكم ذلك بمحبّة: صلّوا! فمعلّمكم مُثقل للغاية.»

بالفعل لقد أصبح مُثقلاً حتّى الأعماق. يبدو وكأنّه يحمل حملاً ثقيلاً. أين
هو الآن يسوع الشجاع الّذي كان يتحدّث إلى الجموع، البهيّ، القويّ، ذو
النظرة المهيمنة، والابتسامة الهادئة، بصوته المدوّي والمفعم روعة؟ يبدو
الآن مأخوذاً بالانقباض. يبدو كمن ركض أو بكى. صوته متعب وقلق.
حزين، حزين، حزين...

يجيب بطرس باسم الجميع: «كن مطمئنّاً يا معلّم. سنسهر ونصليّ. ليس
لك سوى النداء وسنأتي.»

ويتركهم يسوع، بينما ينحني الثلاثة كي يجمعوا أوراقاً وأغصاناً ليوقدوا
ناراً تساعد على البقاء متيقّظين، وأيضاً لمكافحة الندى الّذي بدأ بالتساقط
بوفرة.

يمشي، مديراً لهم ظهره، من الغرب نحو الشرق، في مواجهة ضوء
القمر. أرى أنّ ألماً عظيماً يفتح عينه أكثر، ربّما قد اتّسعت بسبب العياء
المُكدّر، أو هو ظلّ قوس الحاجب. لستُ أدري. أعلم أنّ عينه مفتوحة أكثر
وغائرة أكثر. يصعد، رأسه منحن، يرفعه فقط من وقت إلى آخر في تنهيدة
كما لو كان متعباً ويلهث، حينئذ يدير بصره الحزين للغاية إلى بستان الزيتون

الساكن. يصعد بضعة أمتار، ثم يستدير حول أحد المنحدرات الذي بينه وبين الثلاثة الذين تركهم بالأسفل.

المنحدر الذي لا يتصاعد في البداية سوى بضع ديسيمترات [الديسمتر = 10سم]، ثم يستمرّ في الارتفاع، حيث بعدها بلغ المترين، ممّا جعل يسوع بمنأى تماماً عن أيّة نظرة فضوليّة أو صديقة. يتابع يسوع حتّى يبلغ صخرة كبيرة تسدّ الدرب الصغير إلى حدّ ما، ربما وُضعت لتدعيم الجانب المنحدر بشدّة والعاري حتّى فسحة منعزلة تتقدّم الأسوار التي خلفها أورشليم، ومن الأعلى تستمرّ في الارتفاع بمنحدرات أخرى وأشجار زيتون أخرى. ومباشرة فوق هذه الصخرة الضخمة تتحني شجرة زيتون ملتوية وملبّنة بالعقد. تبدو كإشارة استفهام غير مألوفة وضعتها الطبيعة كي تطرح سؤالاً ما. والأغصان الكثيفة في القمة تعطي إجابة على سؤال الجذع، مجيبة أحياناً بنعم حينما تميل نحو الأرض، وأحياناً بلا حينما تتحرّك من اليمين إلى اليسار، بتأثير أمواج نسائم متتابعة عبر الأوراق فتتشر أحياناً رائحة الأرض فقط، وأحياناً الرائحة اللاذعة قليلاً للزيتون، وأحياناً عطر زهور مختلط بزنايق الوادي، الذي يجعل المرء يتساءل من أين يمكن أن يأتي. وإلى ما وراء الدرب الصغير، إلى الأسفل، أشجار زيتون أخرى، وواحدة منها، تماماً أسفل الصخرة، وقد ضربتها صاعقة ومع ذلك عاشت، أو شُقّت، لا أدري كيف، قد استحال جذعها الأصليّ جذعين ينتصبان كطرفي حرف V، وكلّ من الإيراقين في جهة من الصخرة، كما لو كانا في نفس الوقت يرغبان أن ينظرا ويختفيا، أو أن يجعلا قاعدة لها رماديّة مفضّضة مسالمة للغاية.

يتوقّف يسوع في هذا المكان. لا ينظر إلى المدينة التي تتبدّى هناك في الأسفل، بيضاء بكليّتها تحت ضوء القمر. على العكس يدير لها ظهره

وَيَصِلِّي، ذِرَاعَاهُ مَفْتُوحَتَانِ عَلَى شَكْلِ صَلِيبٍ، وَجْهَهُ مَرْتَفِعٌ نَحْوَ السَّمَاءِ. لَا أَرَى وَجْهَهُ لِأَنَّهُ فِي الظِّلِّ، كَوْنِ الْقَمَرِ عَمُودِيًّا تَقْرِيْبًا فَوْقَ رَأْسِهِ، هَذَا صَحِيحٌ، إِنَّمَا أَيْضًا كَوْنُ أَوْرَاقِ الزَّيْتُونِ الْكَثِيفَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَمَرِ، حَيْثُ تَتَسَلَّلُ أَشْعَتُهُ بِالْكَادِ مِنْ بَيْنِ الْأَوْرَاقِ لِتَشْكَلَ بَقْعًا مُضِيئَةً فِي حَرَكَةٍ دَائِمَةٍ. صَلَاةٌ حَارَّةٌ وَطَوِيلَةٌ. مِنْ وَقْتٍ إِلَى آخِرٍ يَطْلُقُ زَفْرَةً وَكَلِمَةً وَاضِحَةً. لَيْسَ مَزْمُورًا، وَلَا الْآبَانَا. إِنَّهَا صَلَاةٌ تَنْطَلِقُ مِنْ دَفْقِ مَحَبَّتِهِ وَمِنْ اِحْتِيَاجِهِ. مُحَادَثَةٌ حَقِيقِيَّةٌ مَعَ أَبِيهِ.

أُدْرِكُهَا مِنْ بَضْعَةِ كَلِمَاتٍ أَتَبَيَّنُهَا: «أَنْتَ تَعْرِفُ... أَنَا ابْنُكَ... كُلُّ شَيْءٍ، وَلَكِنْ سَاعِدْنِي... أَنْتَ السَّاعَةُ... لَمْ أَعُدْ مِنَ الْأَرْضِ. لَمْ يَعْذُ مِنْ حَاجَةِ لِلْعَوْنِ يُقَدِّمُ لِكَلِمَتِكَ... اجْعَلِ الْإِنْسَانَ يَرْضِيكَ كِفَادِي، كَمَا كَانَ الْكَلِمَةُ مَطِيعًا لَكَ... مَا تَرِيدُهُ... مِنْ أَجْلِهِمْ أَطْلُبُ مِنْكَ الرَّحْمَةَ... هَلْ سَأَخْلُصُهُمْ؟ هَذَا مَا أَطْلُبُهُ مِنْكَ. أُرِيدُهُمْ هَكَذَا: مُخَلَّصِينَ مِنَ الْعَالَمِ، مِنَ الْجَسَدِ، مِنَ الشَّيْطَانِ... هَلْ يُمْكِنُنِي أَنْ أَطْلُبَ مِنْكَ الْمَزِيدَ؟ هُوَ طَلَبٌ عَادِلٌ، يَا أَبِي. لَيْسَ مِنْ أَجْلِي. مِنْ أَجْلِ الْإِنْسَانِ، الَّذِي هُوَ خَلِيقَتُكَ، وَالَّذِي أَرَادَ جَعْلَ حَتَّى نَفْسِهِ وَحَلًّا. أَنَا أَلْقِي هَذَا الْوَحْلَ فِي أَلْمِي وَفِي دَمِي كَيْ يَصِيرَ مِنْ جَدِيدٍ جَوْهَرُ الرُّوحِ غَيْرِ الْقَابِلِ لِلْفَسَادِ الَّذِي هُوَ مَرَضِيٌّ لَدَيْكَ... وَالْفَسَادُ هُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ. إِنَّهُ الْمَلِكُ هَذَا الْمَسَاءِ: فِي الْقَصْرِ الْمَلِكِيِّ وَفِي الْمَنَازِلِ، وَسَطَ الْفِرْقِ وَفِي الْهَيْكَلِ... الْمَدِينَةُ مَلِيئَةٌ بِهِ، وَغَدًا سَيَكُونُ جَحِيمًا...»

يَسْتَدِيرُ يَسُوعُ، يَسْنَدُ ظَهْرَهُ عَلَى الصَّخْرَةِ وَيَبْقَى مَكْتُوفَ الذَّرَاعَيْنِ. وَيَنْظُرُ إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَجْهُ يَسُوعَ يَصْبَحُ حَزِينًا أَكْثَرَ فَاكْثَرَ. يَهْمَسُ: تَبْدُو وَكَأَنَّهَا ثَلْجٌ... وَهِيَ لَيْسَتْ سِوَى خَطِيئَةٍ. حَتَّى فِيهَا كَمْ شَفِيتُ! كَمْ تَكَلَّمْتُ!... أَيْنَ هُمْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ بَدَوْا لِي أَوْفِيَاءَ؟...»

يُحْنِي يَسُوعُ رَأْسَهُ وَيَحْدَقُ فِي الْأَرْضِ الْمَغْطَاةَ بِعُشْبٍ قَصِيرٍ يَجْعَلُهُ
النَّدَى يَتَلَأَلًا. وَلَكِنْ، رَغْمَ انْحِنَاءِ رَأْسِهِ، أُدْرِكُ أَنَّهُ يَبْكِي، لِأَنَّ قَطْرَاتٍ تَلْمَعُ
وَهِيَ تَسْقُطُ مِنْ وَجْهِهِ عَلَى التُّرْبَةِ. ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ، يَفْكُ ذِرَاعَيْهِ وَيَضْمَمُهُمَا
فَوْقَ رَأْسِهِ وَيَحْرِّكُهُمَا هَكَذَا مَضْمُومَتَيْنِ.

ثُمَّ يَسِيرُ، يَرْجِعُ إِلَى الرُّسُلِ الثَّلَاثَةِ الْجَالِسِينَ حَوْلَ نَارِ الْأَغْصَانِ.
وَيَجِدُهُمْ نِصْفَ نَائِمِينَ. بَطْرُسُ يَسْنُدُ كَتْفَيْهِ إِلَى جَذْعِ، ذِرَاعَاهُ مُتَصَالِبَتَانِ عَلَى
صَدْرِهِ، رَأْسُهُ يَتَأَرَّجِحُ، فِي أَوَّلِ ضُبَابِ نَوْمٍ عَمِيقٍ، يَعْقُوبُ يَجْلِسُ مَعَ أَخِيهِ
عَلَى جَذْرِ ضَخْمٍ نَاتِيٍّ، وَضَعَا عَلَيْهِ مَعْطَفِيهِمَا كَيْ يَتَجَنَّبَا خَشُونَتَهُ، وَرَغْمَ
أَنَّهُمَا فِي وَضْعٍ أَقْلَ رَاحَةٍ مِنْ بَطْرُسٍ، إِلَّا أَنَّهُمَا غَافِيَانِ. يَعْقُوبُ قَدْ أَرَخَى
رَأْسَهُ عَلَى كَتِفِ يُوْحَنَّا الَّذِي مَالَ بِرَأْسِهِ عَلَى رَأْسِ أَخِيهِ، كَمَا لَوْ أَنَّ شِبْهَ النَّوْمِ
جَعَلَهُمَا ثَابِتَيْنِ فِي ذَلِكَ الْوَضْعِ.

«أَتَنَامُونَ؟ أَلَمْ تَسْتَطِيعُوا السَّهْرَ سَاعَةً وَاحِدَةً فَقَطْ؟ وَأَنَا فِي أَمْسٍ الْحَاجَةِ
إِلَى تَشْجِيعِكُمْ وَصَلَوَاتِكُمْ!»

يَقْفُزُ الثَّلَاثَةُ مَشَوِّشِينَ. يَفْرِكُونَ عَيُونَهُمْ، يَدْمَدُمُونَ بِعُذْرٍ، مَتَّهِمِينَ عَمَلِيَّةَ
الْهَضْمِ بِأَنَّهَا السَّبَبُ الْأَوَّلُ لِنَعَاسِهِمْ: «إِنَّهُ الْخَمْرُ... الطَّعَامُ... إِنَّمَا سَيَزُولُ هَذَا
الْآنَ، إِنَّهَا مَجْرَدُ لَحْظَةٍ. لَمْ نَكُنْ نَرْغَبُ فِي الْحَدِيثِ وَهَذَا مَا جَعَلَنَا نَنَامُ. أَمَّا
الْآنَ فَسَنَصَلِّي بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ وَلَنْ يَتَكَرَّرَ هَذَا مَعَنَا.»

«نَعَمْ. صَلُّوا وَاسْهَرُوا. مِنْ أَجْلِكُمْ كَذَلِكَ، فَأَنْتُمْ فِي حَاجَةٍ لِهَذَا.»

«نَعَمْ يَا مَعْلَمَ، سَوْفَ نَطِيعُكَ.»

يستدير يسوع. القمر الذي يسطع على وجهه، قويّ لدرجة أنّ ضيائه الفضّيّ يجعل ثيابه الحمراء أكثر فأكثر شحوباً كما لو كان يغطّيها غبار أبيض ومضيء، ويجعلني أرى وجهه المحبّط، الحزين، الشائخ. النظرة الهائلة ذاتها ولكنها تبدو مغشاة بالدموع. الفم به ثنية تعب.

يعود إلى صخرته ببطء أكثر وانحناء أكبر. يركع متّكئاً بذراعيه على الصخرة الّتي ما هي بالمساء، ولكن عند منتصف ارتفاعها لها كما شكل بطن، كما لو كانت منحوتة قصداً. على هذا البطن الصغير الحجم، نبتت نبتة صغيرة، الّتي تبدو لي من تلك الزهيرات الشبيهة بالزنابق الصغيرة الّتي رأيّتها كذلك في إيطاليا، أوراقها الصغيرة مستديرة ولكنها مزخرفة على الحواف ولحميّة مع زهيرات على سوق نحيلة جدّاً. وكأني بها ندف من ثلج منثورة على رماديّ الصخرة والأوراق الخضراء الداكنة. يسند يسوع يديه قربها فتلامس الزهيرات خده، ذلك أنّه يضع رأسه على يديه المضمومتين ويصلّي. بعد لحظة يشعر بنداوة هذه التويجات ويرفع رأسه. ينظر إليها يداعبها ويكلّمها: «أنتِ نقيّة! تواسيني! في مغارة أمّي الصغيرة، كانت كذلك من تلك الزهيرات... وهي كانت تحبّها ذلك أنّها كانت تقول: "عندما كنتُ صغيرة، كان أبي يقول لي: 'أنتِ زنبقة صغيرة للغاية ومفعمة بالندى السماويّ'... أمّي! أه! أمّي!» وينفجر بالبكاء... رأسه على يديه المضمومتين، يتهاوى قليلاً على عقبيه، أراه وأسمعه يبكي، بينما يداه تهصران الأصابع ويؤلّم أحدها الآخر. أسمعه يقول: «في بيت لحم أيضاً... حملتها إليك يا أمّي. أمّا هذه فمن سيحملها إليك الآن؟...»

ثمّ يعود من جديد إلى الصلاة والتأمّل. لا بدّ أنّه تأمّل حزين جدّاً، بل هو في ضيق أكثر منه حزين، وكى يتخلّص منه، يقف، يمضي إلى الأمام

والخلف وهو يدمدم بأقوال لم أتبيّن لها، رافعاً وجهه، خافضاً إِيَّاه، يقوم بحركات، ممرّراً يديه على عينيه وخديّه وشعره بحركات آليّة ومضطربة، كما لشخص في ضيق عظيم. أمر لا يمكن قوله. مستحيل وصفه. رؤيته تعني مشاركته في ضيقه.

يقوم بحركات باتّجاه أورشليم. ثمّ يعود إلى رفع ذراعيه نحو السماء كما كي يسأل المعونة. يخلع رداءه كما لو كان يشعر بالحرّ. ينظر إليه... ولكن ما الذي يراه؟ عيناه لا تريان شيئاً سوى عذابه، وكلّ شيء يقود إلى مزيد منه، حتّى الرداء الذي نسجته أمّه. يُقبّله ويقول: «سامحيني يا أمّي! سامحيني!» يبدو وكأنّه يطلب ذلك من قماش مغزول ومنسوج بحبّ أمّه... يعاود ارتدائه. أخذ منه ألم مبرّح كلّ مأخذ. يريد أن يصلّي ليتغلّب عليه، ولكن مع الصلاة تعود الذكريات، التحوّفات، الشكوك، الأسف... سيل من الأسماء... المدن... الأشخاص... الأعمال... لا أتمكّن من متابعته لسرعته، وعدم انتظامه. إنّها حياته التبشيريّة التي تتوالى أمامه... وتقوده إلى يهوذا الخائن. إنّ كربه عظيم، وكى يتغلّب عليه يصيح باسم بطرس ويوحنا ويقول: «الآن سيأتيان. فهما مخلصان للغاية!» أمّا "هما" فلا يأتيان. ينادي ثانية. يبدو هَلِعاً وكأنّه كان يرى ما لا أعرف ما هو. يهرب بسرعة إلى المكان الذي فيه بطرس والأخوان. ويجدهم في نوم أكثر ثقلًا وأكثر راحة حول بضع جمرات على وشك الانطفاء وتُنتج فقط ومضات حمراء في الرماد الرمادي.

«بطرس! ناديتكم ثلاث مرّات! ولكن ما الذي تفعلونه؟ أما زلتم نائمين؟ ولكن ألا تشعرون كم أتألم؟ صلّوا. كي لا يعلن الجسد، وينتصر عليكم.

على أيّ واحد فيكم. إذا كان الروح متأهباً، يكون الجسد ضعيفاً...
ساعدوني...»

يستيقظ الثلاثة ببطء. ولكنهم في النهاية يتوصلون إلى ذلك ويعتذرون،
وعيونهم مدهولة. ينهضون، بدءاً بالجلوس ثم ينهضون بحق.

«ولكن انظر قليلاً!» يتمم بطرس. «هذا لم يحدث لنا أبداً! لا بدّ أنّه
ذاك الخمر. كان قوياً. وأيضاً هذا البرد. لقد تغطّينا لكيلا نشعر به (بالفعل
كانت الأردية تغطّيهم حتّى الرأس) لم نعد نرى ناراً، ولم نعد نشعر بالبرد،
فحلّ النعاس. تقول إنّك ناديتنا؟ ومع ذلك لا يبدو لي أنّي كنتُ أنام بكلّ هذا
العمق... هيا يا يوحنا، لنبحث عن أغصان، لنحرّك. هذا سيمرّ. كن مطمئناً
يا معلّم، إنّنا من الآن فصاعداً!... سنبقى واقفين...» ويلقي قبضة من
الأوراق اليابسة على الجمر وينفخ إلى أن تتأجج الشعلة. يغذيها بالأغصان
التي أحضرها يوحنا، بينما يُحضر يعقوب غصن عرعر كبير أو نبتة من
نفس الفصيلة قطعها من دغل بعيد قليلاً، ويضعها فوق الباقي.

ترتفع النار عالياً وجذلة منيرة وجه يسوع المسكين، إنّهُ وجه حزين حقاً
لدرجة أنّه لا يمكن النظر إليه دون بكاء. كلّ إشراق هذا الوجه قد اختفى في
إعياء مميت. ويقول: «أختبر ضيقاً يقتلني! آه! نعم! نفسي حزينة حتّى
الموت. أصدقائي! أصدقائي! أصدقائي!» ولكن حتّى لو لم يكن يقول ذلك،
فمظهره يقول إنّهُ حقاً كمن يموت، وفي التخلّي الأكثر كرباً وانعزالاً. فتبدو
كلّ كلمة من كلماته وكأنّها نحيب...

ولكنّ الثلاثة مثقلون بالنعاس. يبدون وكأنّهم سكارى وهم يمشون ويترنّحون بعيون نصف مغمضة... ينظر إليهم يسوع... لا يكدرهم بلوم. يهزّ رأسه، يتنهّد ويمضي إلى المكان الذي كان يشغله.

يصليّ ثانية وقوفاً، ذراعاه متصالبتان. ثمّ جاثياً كالسابق، وجهه منحنيّ على الأزهار الصغيرة. يفكر. يصمت... ثمّ يبدأ بالأنين والنشيج بقوة، في شبه سجود لارتخائه على عقبيه. ينادي الآب، بضيق أشدّ...

«آه!» يقول «يا لمرارة هذه الكأس! لا أستطيع! لا أستطيع. إنّهُ فوق ما أستطيع. استطعتُ كلّ شيء! ولكن ليس هذا... أبعدهُ يا أبي عن ابنك! ارحمني!... ماذا فعلتُ كي أستحقّه؟» ثمّ يستأنف ويقول: «إنّما لا تسمع يا أبي صوتي إنّ سألَكَ شيئاً يخالف مشيئتك. لا تتذكّر أنّي ابنك، بل فقط خادمك. ولا تكن مشيئتي، بل مشيئتك.»

يبقى هكذا لبعض الوقت، ثمّ يُطلق صيحة مكتومة ويرفع وجهاً مضطرباً. لحظة فقط، ثمّ يتهاوى على الأرض، وجهه حقاً على الأرض، ويبقى هكذا. حطام إنسان يحمل ثقل كلّ خطيئة العالم، يقع عليه عدل الآب، تهبط عليه الظلمات، الرماد، المرارة، وهذا الشيء المريع، المريع، المريع للغاية الذي هو تخليّ الله، بينما يعذبنا الشيطان... إنه اختناق النّفس، الدفن أحياء في هذا السجن الذي هو العالم لدى عدم إمكانيّة الشعور برباط بيننا وبين الله، إنّهُ القيد، الإسكات، الرجم بصلواتنا الخاصّة التي ترتدّ علينا مكتنفة بروؤوس واخزة وملينة بالنار، إنّهُ الاصطدام بسماء مغلقة لا يخترقها صوت ولا نظرات ضيقنا، إنّهُ "اليتم من الله" إنّهُ الجنون، الاحتضار، الشكّ في

البقاء مخدوعين حتّى ذلك الحين، إنّهُ الاقتناع بالطرد من قبل الله، بالإدانة. إنّها جهنّم!...

آه! عرفتُ ذلك! ولا أستطيع، لا أستطيع أن أرى آلام مسيحي. ومعرفة أنّها أفضع مليون مرّة مما أصابني العام الماضي، والذي كلّما تذكّرتُهُ، يهزّني أيضاً وأيضاً...

يئنّ يسوع وسط حشرات وشهقات احتضار حقيقيّ: «لا شيء!... لا شيء!... اذهب!... مشيئة الآب! هي! هي! فقط!... مشيئتكَ يا أبي. مشيئتكَ، لا مشيئتي... لا جدوى... ليس لي سوى ربّ واحد: الله القدّوس. شريعة واحدة: الطاعة. محبة واحدة: الفداء... لا. لم يعد لي أمّ. لم تعد لي حياة. لم تعد لي ألوهيّة. لم تعد لي رسالة. لا جدوى من تجربتي، أيّها الشيطان، بأُمّي، بالحياة، بألوهيّتي، برسالتّي. لي أمّ هي الإنسانيّة وأحبّها حتّى الموت من أجلها. الحياة أردّها لمن منحنيها ويطلبها منّي، إلى المعلّم الأسمى لكلّ حيّ. الألوهيّة، أوّكّدها بإظهار أنّها قادرة على هذا التكفير. الرسالة، أتمّمها بموتي. لم يعد لي سوى فعل مشيئة الربّ، إلهي. اذهب أيّها الشيطان! قُلْتُها في المرّة الأولى والمرّة الثانية. وأعود فأقولها في الثالثة: "أبت: إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس، ولكن مع ذلك لا تكن مشيئتي، بل مشيئتكَ." اذهب أيّها الشيطان. إنّني لله.»

ثمّ لم يعد يتكلّم سوى كي يقول بين لهاته: «إلهي! إلهي! إلهي!» يناديه مع كلّ دقّة من دقّات قلبه، ويبدو أنّ الدم ينضح مع كلّ نبضة. النسيج المشلوح على كتفيه يتشرّبه ويصبح داكناً رغم نور القمر الكبير الذي يغلفه بالكامل.

بيد أن نوراً أكثر حيويّة يتشكّل فوق رأسه، ممتدّاً حوالي المتر منه، نور في غاية الشدّة حتّى إنّ المنهك يراه يتخلّل تموجات الشعر الذي أثقله الدم، وبالرغم من الغشاوة التي تغلّف عينيه بالدم. يرفع رأسه... فيتألق القمر على الوجه المسكين، والأكثر تألقاً هذا النور الملائكي المشابه للماس الأبيض السماويّ لكوكب الزهرة. ويظهر النزاع الرهيب في الدم الذي ينضح من المسام. الجفون، الشعر، الشارب، اللحية تنضح وهي مغطّاة بالدم. دم يسيل من الصدغين، دم ينضح من أوردة الرقبة، دم يسيل من اليدين. يمدّ يديه نحو النور الملائكيّ وعندما ينزلق الكُمان الواسعان نحو الكوعين، يظهر ساعداً المسيح وهما يعرقان دماً. في الوجه وحده تخطّ الدموع خطّين واضحين عبر القناع الأحمر.

يعاود نزع ردائه ويمسح اليدين، الوجه، العنق، والساعدين. ولكنّ العرق يستمرّ. يضغط النسيج على وجهه مرّات عديدة ويبقيه مضغوطاً بيديه، وفي كلّ مرّة يغيّر المكان، تظهر بوضوح على النسيج الأحمر الداكن البقع التي لرطوبتها تبدو سوداء. العشب على الأرض أحمر من الدم.

يبدو يسوع على وشك الإغماء. يحلّ ثوبه عند الرقبة كما لو كان يشعر بالاختناق. يضع يده على قلبه ثمّ على رأسه ويحرّكها أمام وجهه كما للتهوية، مبقياً على فمه شبه مفتوح. يجرّ نفسه إلى الصخرة، أو بالأحرى إلى قمة المنحدر ويسند ظهره. ويبقى ذراعيه ممدودتين على طول جسده، كما لو كان ميتاً بالفعل، الرأس يتدلّى على الصدر. لم يعد يتحرّك.

النور الملائكيّ يخفت على مهل، ثمّ يصبح وكأنّه غارق في ضياء القمر. يسوع يعاود فتح عينيه. يرفع رأسه بعناء. ينظر. إنّّه وحيد، ولكنّه أقلّ

ضيّقاً. يمدّ يداً. يجلب إليه الرداء الذي تركه على العشب ويشرع بمسح الوجه، اليدين، العنق، اللحية، الشعر. يأخذ ورقة عريضة نمت تماماً على حافة المنحدر، مغطّاة تماماً بالندى، وبها يكمل المسح، غاسلاً الوجه والأيدي ومن ثمّ ماسحاً إياها من جديد. ويفعل هذا مرّات عديدة بأوراق أخرى، إلى أن مسح كلّ أثر لعرقه الرهيب. ثوبه فقط ملطّخ، وخاصّة عند الكتفين وثنيت الكوع، عند العنق والحزام والركبتين. ينظر إليه ويهزّ رأسه. ينظر أيضاً إلى الرداء، فيراه كثير اللطخ. يطويه ويضعه على الصخرة، حيث يشكّل مهذاً قرب الزهيرات.

وبصعوبة، بسبب ضعفه، يستدير ليركع. يصلّي مسنداً رأسه على الرداء الذي وضع عليه أيضاً يديه. ثمّ يستند إلى الصخرة ويقف، وبترنّح خفيف يذهب إلى التلاميذ. وجهه في غاية الشحوب، ولكنّه لم يعد مضطرباً. إنّ وجهه مفعم بجمال إلهيّ رغم كونه نازفاً دماً وأكثر حزناً من المعتاد.

الثلاثة في نوم عميق، ملتحفين بأرديتهم، ممدّدين تماماً بجوار النار المطفأة. يُسمَع تنفّسهم العميق في بداية شخير مدوّ. يناديهم يسوع، بلا جدوى. يجب أن ينحني ويهزّ بطرس كثيراً.

«ماذا؟ مَنْ يقبض عليّ؟» يقول وهو يخرج من ردائه الأخضر الداكن في ذهول وخوف.

«لا أحد. أنا مَنْ أناديك.»

«هل هو الصباح؟»

«لا. إنّهُ الهزيع الثاني وهو على وشك النهاية.»

بطرس متراخٍ للغاية. يهزّ يسوع يوحنا الذي يطلق صيحة رعب وهو يرى وجه شبح ينحني فوقه طالما يبدو كالرخام. «آه!... كنتَ تبدو لي كميت!»

يهزّ يعقوب، وهذا يظنّ أنّ أخاه هو الذي يناديه، ويقول: «هل قبضوا على المعلم؟»

«ليس بعد يا يعقوب.» يجيب يسوع. «ولكن انهضوا الآن ولنمض. إنّ الذي يخونني قريب.»

الثلاثة، وهم ما يزالون في ذهول، ينهضون. ينظرون حولهم... شجر الزيتون، القمر، العندليب، نسمات الهواء، السلام... لا شيء آخر. حينئذ يتبعون يسوع دون كلام. الثمانية أيضاً كانوا نياماً تقريباً بقرب النار المطفأة.

«انهضوا!» يدوي صوت يسوع. «فيما يقترب الشيطان، أظهروا لمن لا ينام أبداً ولأبنائه أنّ أبناء الله لا ينامون!»

«نعم يا معلم.»

«أين هو، يا معلم؟»

«يسوع، أنا...»

«ولكن، ماذا حدث؟»

ووسط الأسئلة والإجابات المشوشة، يرتدون أرواحهم...

يضعونها في الوقت المناسب للظهور بمظهر حسن أمام قطيع الجنود يقودهم يهوذا، الذي يقتحم الساحة الصغيرة الهادئة وينيرها بشدة بمشاعل

كثيرة مضيئة. إنهم جماعة لصوص متنكرون بعساكر، وجوه محكوم عليهم بالأشغال الشاقة تُشوّها ابتسامات شيطانية. وهناك أيضاً البعض من جماعة الهيكل.

يقفز الرُّسل جميعاً إلى أحد الأركان. بطرس في المقدمة، والآخرين جماعة خلفه. يسوع يبقى حيث هو.

يقرب يهوذا مقاوماً نظرة يسوع، النظرة التي عادت متألئة كما في أفضل أيّامه. إنّه لا يخفض وجهه. بل على العكس يدنو بابتسامة ضبع ويُقبله على خدّه الأيمن.

«يا صديقي، ما الذي جئتَ تفعله؟ أقبلة تخونني؟»

ينكّس يهوذا رأسه للحظة، ثمّ يرفعه ثانية... غير آبه بالتأنيب كما في كلّ دعوة له للتوبة.

يسوع، بعد الكلمات الأولى التي قالها بسموّ المعلّم، يتّخذ النبرة الحزينة كمن يستسلم لحدث أليم.

يتقدّم الجنود وهم يصيحون حاملين الحبال والعصي، ويحاولون احتجاز الرُّسل بالإضافة إلى المسيح، ما عدا يهوذا الاسخريوطيّ بالطبع.

«مَن تطلبون؟» يسأل يسوع بهدوء وسموّ.

«يسوع الناصريّ.»

«أنا هو!» صوته رعد. أمام عالم القتلة وعالم البراءة، أمام الطبيعة والنجوم، يعطي يسوع شهادة لنفسه بصراحة، بصدق، ومفعماً ثقة. أقول إنّه سعيد بالتمكّن من إعطائها لنفسه.

ولكن إن كان قد أطلق صاعقة، لما كان بوسعه أن يفعل أكثر. يسقط الجميع أرضاً مثل حزمة سنابل محصودة. لم يبقَ واقفاً سوى يهوذا، يسوع والرُّسل الذين يستردّون شجاعتهم أمام منظر الجنود الساقطين، حتّى إنهم يقتربون من يسوع مهدّدين بوضوح يهوذا الذي يقفز في الوقت المناسب ليتلافى ضربة محكمة من سيف سمعان. وقد تبعها بلا جدوى ضربات حجارة وعصيّ ألقاها عليه من الخلف الرُّسل غير المسلّحين بالسيوف، فيهرب إلى ما وراء قدرون ويختفي في ظلمة أحد الأزقة.

«انهضوا. مَنْ تطلبون؟ أسألكم ثانية.»

«يسوع، الناصريّ.»

«قد قُلْتُ لكم: إنّني أنا هو.» يقول يسوع بلطف. نعم، بلطف. «دعوا إذن هؤلاء أحراراً. أنا آتي. أنزلوا السيوف والعصيّ. لستُ لصّاً. كنتُ وسطكم على الدوام. لماذا لم تمسكونني آنذاك؟ ولكنّها ساعتكم، وساعة الشيطان...»

ولكن فيما هو يتكلّم، يقترب بطرس من الرجل الذي يمدّ الحبال ليوثق يسوع، ويضربه ضربة سيف فاشلة. ولو كان استخدم الحد، لكان ذبحه كخروف. ولكنّه قطع فقط أذنه التي بقيت مدلّاة نازفة دماً غزيراً، يصيح الرجل بأنّه مات. تحلّ الفوضى بين الذين يبعثون التقدّم والذين أخذهم الخوف من رؤية السيوف والخناجر التي تلمع.

«اتركوا تلك الأسلحة. أنا آمركم. لو كنتُ أريد، لجاءت ملائكة أبي تدافع عني. وأنتَ فلتبرأ. ولتبرأ نفسك في البداية إن استطعت.» وقبل أن يمدّ يديه للحبال، يلمس الأذن ويشفيها.

يُطْلِق الرُّسُلَ صِيحَاتٍ مُضْطَرِبَةٍ... نَعَمْ. أَنَا آسِفَةٌ أَنْ أَقُولَهَا، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ
هَكَذَا. هُنَاكَ مَنْ يَهْتَفُ بِشَيْءٍ وَالثَّانِي بِآخَرٍ. يَصِيحُ أَحَدُهُمْ: «لَقَدْ خَنَنْتُنَا!»،
وآخَرُ: «إِنَّهُ مَجْنُونٌ!»، وَآخَرُ: «مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَصَدِّقَكَ؟» وَمَنْ لَمْ يَصِحْ
يَهْرَبُ...

وَيَبْقَى يَسُوعُ وَحْدَهُ... هُوَ وَالْجُنُودُ... وَيَبْدَأُ الدَّرَبَ.

----- (عُودَةٌ إِلَى الْفَهْرَس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

17- (كنتُ، أنا كائن، ابن الله. لكنني كنتُ أيضاً ابن الإنسان)

1944 / 02 / 15

يقول يسوع:

«لقد تأملت في أمسية الخميس، ألم احتضاري الروحي. رأيت يسوعك وهو ينهار كمثل إنسان ضُرب حتى الموت شاعراً أن حياته تهرب من خلال جراحه التي تنزف، أو كمثل من أُصيب بصدمة نفسية تفوق قواه. ورأيت مراحل تنامي هذه الصدمة حتى وصلت إلى أقصى مدى لها في نضوح الدم، الناتج عن اختلال توازن الدورة الدموية من تأثير الجهد الذي بذلته كي أنتصر وأقاوم الحمل الذي يُنهكني.

أنا كنتُ، أنا الكائن ابن الله العليّ، ولكن كنتُ أيضاً ابن الإنسان. وأريد في هذه الصفحات، أن تنجلي هذه الطبيعة المزدوجة بوضوح بشكل كامل وكلّي.

من ألوهيتي، كلامي ينشئ إيماناً من لهجته التي وحده الله يملكها. ومن بشريتي، بينت لكم الاحتياجات، العواطف، الآلام التي عانيت منها في جسدي، جسد إنسان حقيقي، والتي أعرضها عليكم كنموذج لبشريّكم، وفي الوقت نفسه أثقف الروح فيكم بمذهبي مذهب الله الحق.

على مرّ العصور، ألوهيتي القدّوسة وإنسانيّتي الكاملة جعلهما انحلال "بشريّكم" الناقصة في التعريف بهما ناقصتين ومشوّهتين. لقد جعلتم إنسانيّتي غير حقيقية، جعلتموها غير بشريّة كما جعلتم مظهري الإلهي

ضئيلاً، بإنكاركم إياها في كثير من النقاط التي لم تكونوا تريدون أو التي لم تستطيعوا معرفتها بأرواحكم المُعاقبة بسبب فساد الرذائل والكُفر، والنزعة البشريّة والعقلانيّة.

إنني آتي، في هذه الساعة المأساويّة [الحرب العالمية الثانية]، النذير لبؤس عالمي، آتي كي أجدّد في عقولكم طبيعتي المزدوجة كما الله وكما إنسان، لكي تعرفوها كما هي، كي تتعرّفوا عليها بعد ظلاميّة طويلة حجبتموها بها عن أرواحكم، كيما تحبّوها، وترجعوا إليها وتخلصوا بواسطتها. إنّه وجه مُخلّصكم، ومن يتعرّف عليه ويحبّه سيخلص.

لقد جعلتك في هذه الأيام تتعرّفين على آلامي الجسديّة التي عذّبت بشريّتي. وجعلتك تتعرّفين على آلامي المعنويّة المُترابطة، المُتداخلة، المُمتزجة مع آلام أمّي مثل عرائش الغابات الاستوائيّة المُعقّدة التي لا يمكن فصلها لقصّ واحدة فقط منها، بل يجب قطعها كلّها معاً، بضربة واحدة من فأس لفتح ممرّ فيها؛ أو أيضاً كما هي أوعية الجسد الدمويّة، التي لا يمكن أن تُحرّم واحدة منها من الدم لأنّ سائلاً واحداً يملأها، وكما، وهو مثال أفضل بعد، الجنين الذي يتكوّن في أحشاء الأمّ، يُدركه الموت إن ماتت أمّه، لأنّ الحياة، الدفء، الغذاء، دم الأمّ يتغلل عبر الأغشية الباطنيّة بالتواتر الموافق لحركة قلبها، إلى الطفل الجنين لكي يجعل منه كائناً حيّاً.

هي، آه! هي، الأمّ الطاهرة التي لم تحملني فقط تسعة أشهر، الزمن الذي تحمل فيه أيّة امرأة ثمرة رجل، بل حمّلتني طوال حياتها. كان قلبانا مُتّحدين بأوتار رويّة ونبضا معاً دائماً، لم تسقط دمعة واحدة من دموع أمّي

دون أن تُبَلِّل قلبي بملوحتها، ولم يكن أنين واحد من أناتي الداخلية لم يترجّع صداه فيها ليستثير ألامها.

أنتم تتألمون لرؤيتكم أمّاً لطفل مدنف على الموت بسبب مرض عضال، أو أمّاً لشخص محكوم عليه بالإعدام بسبب قسوة العدل البشريّ. ولكن فكّروا بأُمِّي، التي منذ لحظة الحبل بي، ارتعشت وهي تُفكّر أنّي المحكوم عليه، هذه الأمّ التي عندما طَبَعَتْ أوّل قبلة على بشرتي الناعمة الوردية بشرة طفل ولید، قد شَعَرَتْ بجراح ابنها المستقبلية... هذه الأمّ التي ودّت أن تُقدّم حياتها عشر مرّات، مئة، ألف مرة لكي تمنعني من أن أصبح إنساناً وأصل إلى لحظة التضحية، هذه الأمّ التي كانت تعرف والتي كان ينبغي لها أن ترغب بهذه الساعة الرهيبة كي تقبل مشيئة الربّ، لأجل مجد الربّ، بدافع من محبة تجاه الإنسانية. لا، ليس هناك نزاع بمثل هذا الطول، وانتهى بألم أعظم من هذا الألم، ألم أُمِّي.

وما من ألم أعظم، وأكمل من ألمي. كنتُ واحداً مع الآب. لقد أحبّني مدى الأبدية كما الله وحده يحسن أن يحبّ. كان مُتهللاً بي ووَجَدَ فيّ فرحه الإلهيّ. وأنا أحببته كما يمكن لله وحده أن يُحبّ ووجدتُ في اتّحادي به فرحي الإلهيّ. هذه العلاقة فائقة الوصف التي تربط ربطاً عميقاً الآب بابنه لا يمكن أن تُشرح لكم حتّى بواسطة كَلِمَتِي، لأنّها، وإن كانت كاملة، فإنّ ذكاءكم ليس كذلك، ولا تستطيعون أن تفهموا أو تعرفوا ماهية الله طالما أنتم لستم معه في السماء.

ومع ذلك، كنتُ أشعر بقسوة أبي تجاهي تنمو باطراد كمِثل ماء يتصاعد ويضغط على سدّ. وكشهادة ضدّ البشَر-الوحوش، الذين لم يكونوا يُريدون أن

يُدرِكُوا مَنْ أَكُونُ، هُوَ قَدْ فَتَحَ السَّمَاءَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ خِلَالَ حَيَاتِي الْعَامَّةِ: فِي نَهْرِ الْأُرْدُنِّ، عَلَى جَبَلِ طَابُورٍ، وَفِي أُورُشَلِيمَ لَيْلَةَ الْآلَامِ. إِنَّمَا قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْبَشَرِ، لَا كَيْ يَمْنَحَنِي تَعْزِيَةً. لِأَنَّنِي كُنْتُ قَدْ أَصْبَحْتُ الْمُكْفَّرَ عَنْهُمْ.

يَا مَارِيَا، غَالِبًا مَا يَجْعَلُ اللَّهُ الْبَشَرَ يَتَعَرَّفُونَ عَلَى وَاحِدٍ مِنْ خِدَامِهِ، لَكِي يَهْزَأَ بِهِمْ بِوِاسْطَتِهِ وَيَقُودَهُمْ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ هَذَا يَتِمُّ كَذَلِكَ مِنْ خِلَالَ أَلَمِ هَذَا الْخَادِمِ. وَهُوَ يَدْفَعُ بِشَخْصِهِ، بِأَكْلِهِ خَبْزَ قَسْوَةِ اللَّهِ الْمَرِّ، ثَمَنَ تَعْزِيَّاتٍ وَخِلَاصٍ إِخْوَتِهِ. أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ ضَحَايَا التَّكْفِيرِ يَعْرِفُونَ قَسْوَةَ اللَّهِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ يُخَيِّمُ الْمَجْدُ، إِنَّمَا بَعْدَ أَنْ يَسْكُنَ الْعَدْلُ. إِنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ هُوَ ذَاتَهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَحَبَّتِي، الَّتِي تَطْبَعُ قِبَلَاتِهَا عَلَى ضَحَايَاهَا.

أَنَا يَسُوعُ، أَنَا الْفَادِي، الَّذِي يَتَأَلَّمُ وَيَعْلَمُ، بِاخْتِبَارِ شَخْصِيٍّ، مَا يَكُونُ الْعَذَابُ حِينَ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ بِصَرَامَةٍ وَيَهْجُرُهُ، وَأَنَا لَسْتُ أَبَدًا صَارِمًا، وَلَا أَهْجُرُ أَبَدًا. أُسْتَنْفَذُ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ، وَلَكِنْ بِحَرِيقِ مَحَبَّةٍ.

كَلَّمَا كَانَتْ سَاعَةُ التَّكْفِيرِ تَقْتَرِبُ، كَانَ شَعُورِي يَتَنَامَى بِابْتِعَادِ الْآبِ. وَكَلَّمَا ازْدَادَ الْانْفِصَالُ عَنِ الْآبِ، كَانَتْ بَشَرِيَّتِي تَشْعُرُ بِتَنَاقُصٍ مُسَانِدَةٍ أَلُوْهِيَّةٍ لِّلَّهِ لَهَا. وَكُنْتُ أَتَأَلَّمُ مِنْ ذَلِكَ بِكَافَّةِ السُّبُلِ. إِنَّ الْانْفِصَالَ عَنِ اللَّهِ يَجْلِبُ الْخَوْفَ، التَّمَسُّكَ بِالْحَيَاةِ، الْفُتُورَ، التَّعَبَ، وَالضَّجَرَ. وَكَلَّمَا زَادَ عَمَقُهُ زَادَتْ شِدَّةُ عَوَاقِبِهِ. وَعِنْدَمَا يُصْبِحُ تَامًّا، يَقُودُ إِلَى الْيَأْسِ. وَعِنْدَمَا يَخْتَبِرُ بَرِيءًا، مِنْ جَرَآءِ مَرَسُومِ اللَّهِ، التَّجَرُّبَةُ دُونَ أَنْ يَكُونَ مُسْتَحَقًّا لَهَا، فَهُوَ يُعَانِي أَكْثَرَ، لِأَنَّ الرُّوحَ الْحَيَّ يَشْعُرُ بِالْانْفِصَالِ عَنِ اللَّهِ، مِثْلَ الْجَسَدِ الْحَيِّ الَّذِي يَشْعُرُ بِبِتَرٍ أَحَدِ الْأَعْضَاءِ. إِنَّهُ لَذَهُولٌ مُؤَلِّمٌ، مُضْنٍ، لَا يَفْهَمُهُ مَنْ لَمْ يَخْتَبِرْهُ.

أنا قد اختبرته. كان عليّ أن أمرّ بكلّ ذلك حتّى أترافع عنكم في كلّ أمر أمام الآب. حتّى يأسكم. آه! لقد اختبرتُ ما يعني: "إنّي وحيد. الكلّ خانوني، هجروني. حتّى الآب، حتّى الله لم يعد يُساعدني."

ولهذا السبب أجتّرح معجزات النعمة الخفيّة للقلوب البائسة التي أضناها اليأس، وأطلب من مُفضّلِي أن يختبروا الشرب من كأس المرّ للغاية الذي للتجربة، حتّى لا يرفض الغارقون في بحر اليأس الصليب الذي أقدمه لهم كمرساة خلاص، بل ليتعلّقوا به فأتَمكّن من اصطحابهم إلى شاطئ الغبطة حيث لا وجود إلّا للسلام.

في أمسية الخميس، أنا وحدي أعرف مدى احتياجي لعون الآب! كنتُ روحاً أضحى في نزاع بسبب الجهد الذي بذلته لتجاوز أقصى ألمين لإنسان: وداع أمّ محبوبة جدّاً، ومجاورة الصديق الخائن. كانا جرحين يحرقان قلبي: هي بدموعها، الآخر بكراهيته.

كان عليّ أن أكسر خبزي مع قاييني. وأكلّمه كصديق حتّى لا أكشفه أمام الآخرين الذين كنتُ أخشى عنفهم، وكى أمتنع من جهة أخرى جريمة لا جدوى منها، لأنّ كلّ شيء كان مرسوماً بالفعل في كتاب الحياة الكبير: موتي المُقدّس وانتحار يهوذا. لا فائدة من موتٍ آخر ينبذه الله. لم يكن ينبغي أن يُراق دم آخر غير دمي، ولم يُهرق. الحبل خنق تلك الحياة حابساً دمه الفاسد المُباع للشيطان في جسد الخائن المُدنّس، لم يكن ينبغي أن يختلط هذا الدم، بسقوطه على الأرض، مع دم البريء فائق النقاء.

هذان الجرحان كافيان ليَجعلاً منّي مُنازِعاً في الأنا التي لي. ولكنني كنتُ المُكفّر، الضحية، الحَمَل. الحَمَل الذي، قبل الذبح، يعرف أثر الوسم

بالحديد المحمّر بالنار، يعرف الضربات، يعرف التجريد، يعرف البيع للجزّار. وفقط في النهاية، يعرف بَرْد السكّين الذي يخترق الحنجرة فيُريق الدم ويقتل. وعليه قبل ذلك أن يترك كلّ شيء: المرعى الذي نما فيه، الأمّ التي رضع ثديها ونعمَ بالدفء في حضنها، الرفاق الذين عاش معهم. كلّ شيء. أنا عرفتُ كلّ شيء: أنا، حمل الله.

وبينما كان أبي ينسحب في السماوات، أتى الشيطان. كان قد أتى في بداية رسالتني في محاولة لجعلي أحميد عنها. والآن كان قد عاد. كانت ساعته. ساعة المَحفل الشيطاني.

حشود وحشود من الشياطين كانت على الأرض تلك الليلة ليُضِلّوا القلوب ويُهَيِّئوها للغد ليُريدوا قتل المسيح. لقد كان لكلّ فرد من السنهدين شيطانه، لهيرونس الشيطان الخاص به، لبيلاطس شيطانه، وكلّ واحد من اليهود نادى إنّ دمي عليه، كان له شيطانه. الرُّسل أيضاً كان بالقرب منهم مُجربهم الذي كان يُنعسهم خلال سقمي، وكان يُهيئهم للجبن. لاحظي قدرة الطُّهر. يوحنا، الطاهر، سبق الجميع في التحرُّر من المَخلَب الشيطانيّ فرجع على الفور إلى يسوع وفهم رغبته التي لم يُعبّر عنها وقاد مريم إليّ.

إنّما مع يهوذا كان لوسيفوروس وأنا كان معي لوسيفوروس. هو في قلبه، وأنا إلى جانبي. كنّا الشخِصيّتين الأساسيّتين في المأساة، والشيطان كان بنفسه يهتمّ بنا. وبعد أن قاد يهوذا إلى نقطة اللاعودة، استدار إليّ.

بمكره التامّ، عَرَضَ أمامي عذابات جسدي بواقعيّة لا يمكن تجاوزها. في البريّة أيضاً بدأ بالجسد. هَزَمْتُهُ بالصلاة. وساد روحي على خوف الجسد.

عَرَضَ أُمَامِي عَدَمَ جَدْوَى مَوْتِي، وَجَدْوَى الْحَيَاةِ مِنْ أَجْلِ ذَاتِي دُونَ
الْإِهْتِمَامِ بِالْبَشَرِ الْجَا حِدِينَ. الْحَيَاةُ فِي الثَّرَاءِ، سَعِيداً، مَحْبُوباً. الْحَيَاةُ مِنْ أَجْلِ
أُمِّي، كَيْ لَا أَجْعَلَهَا تَتَأَلَّمُ.

الْحَيَاةُ كَيْ أَقُودَ إِلَى اللَّهِ، بِمَهْمَةٍ رَسُولِيَّةٍ طَوِيلَةٍ الْأَمَدِ، كَثِيراً مِنْ النَّاسِ،
الَّذِينَ، بِمَجْرَدِ مَوْتِي، سَيَنْسُونَنِي، بَيْنَمَا لَوْ كُنْتُ مُعَلِّماً لَيْسَ فَقَطْ لثَلَاثِ
سِنَوَاتٍ، بَلْ لَعَدِيدٍ وَعَدِيدٍ مِنْ خَمَاسِيَّاتِ الْأَعْوَامِ، لَانْتَهَيْتُ بِأَنْ يَنْفِذَ فِيهِمْ
مَذْهَبِي. وَيُسَاعِدَنِي مَلَائِكَتُهُ فِي إِغْوَاءِ النَّاسِ. أَلَمْ أَكُنْ أَرَى أَنَّ مَلَائِكَةَ اللَّهِ لَمْ
تَكُنْ تَتَدَخَّلُ لِمَعُونَتِي؟ ثُمَّ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَيَسَامَحَنِي وَهُوَ يَرَى حِصَادَ الْمُؤْمِنِينَ
الَّذِينَ كُنْتُ سَاقُودَهُمْ إِلَيْهِ. فِي الْبَرِّيَّةِ أَيْضاً دَفَعَنِي لَكِي أَجْرَبُ اللَّهُ بِالتَّهَوُّرِ.
وَهَزَمْتُهُ بِالصَّلَاةِ. سَادَ رُوحِي عَلَى التَّجَرُّبَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ.

وَضَعَ أُمَامِي تَخْلِيَّ اللَّهَ. هُوَ، الْآبُ، لَمْ يَعِدْ يُحِبِّنِي. كُنْتُ مُحَمَّلاً بِخَطَايَا
الْعَالَمِ. كُنْتُ أُرْعِبُهُ. كَانَ غَائِباً، تَرَكَنِي وَحِيداً. تَرَكَنِي لِسُخْرِيَّةِ جَمْعِ مَتَوَحِّشٍ،
وَلَمْ يُقَدِّمْ لِي وَلَا حَتَّى تَعْزِيَّتَهُ الْإِلَهِيَّةَ.

وَحِيداً، وَحِيداً، وَحِيداً. فِي تِلْكَ السَّاعَةِ، لَمْ يَكُنْ سِوَى الشَّيْطَانِ وَحْدَهُ إِلَى
جَانِبِ الْمَسِيحِ. اللَّهُ وَالْبَشَرُ كَانُوا غَائِبِينَ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُحِبُّونَنِي. كَانُوا
يَكْرَهُونَنِي أَوْ غَيْرَ مَبَالِينَ بِي. كُنْتُ أَصَلِّي لَكِي أَحْجَبَ بِمَنَاجَاتِي الْكَلِمَاتِ
الشَّيْطَانِيَّةِ. وَلَكِنْ صَلَاتِي لَمْ تَكُنْ تَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ. كَانَتْ تَعُودُ لَتَسْقُطَ عَلَيَّ مِثْلَ
حِجَارَةِ الرَّجْمِ وَتَسْحَقَنِي تَحْتَ كَتَلَتِهَا. الصَّلَاةُ الَّتِي كَانَتْ بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ عَلَى
الدَّوَامِ وَدّاً مُقَدِّماً لِلْآبِ، صَوْتاً صَاعِداً، يَسْتَجِيبُ لَهُ وَدٌّ وَكَلِمَاتُ أَبَوِيَّةٍ، قَدْ
صَارَتْ الْآنَ مَيِّتَةً، ثَقِيلَةً، مُوجَّهَةً عِبْثاً إِلَى السَّمَاوَاتِ الْمُقْفَلَةِ.

حينذاك شعرتُ بمرارة قاع الكأس. طعم اليأس. وهذا ما كان يُريده الشيطان. قيادتي إلى اليأس لكي يُصيرني عبداً له. تغلّبتُ على اليأس، وتغلّبتُ عليه بِقوّتي وحدها، لأنّني أردتُ أن أغلبه. بِقواي كإنسان فقط. لم أعد آنذاك سوى الإنسان. لم أعد آنذاك سوى إنسان لا يساعده الله. عندما يُساعد الله، يكون من السهل رفع العالم بذاته وحمله مثل لعبة أطفال. ولكن عندما لا يعود الله يُساعد، يصير حتّى ثقل الزهرة مُجهداً.

لقد تغلّبتُ على اليأس ومُبدعه الشيطان كي أخدم الله وأخدمكم، مانحاً لكم الحياة. ولكنني عرفتُ الموت. ليس موت المصلوب الجسديّ -فقد كان أقلّ شناعة- ولكن الموت الكامل، الواعي، للمُحارب الذي يسقط بعد أن ينتصر، والقلب مُحطّم والدم يُراق في صدمة مجهود يفوق التحمّل. وعرقتُ دماً. عرقتُ دماً لأكون أميناً لمشيئة الله.

ولهذا أظهر لي ملاك آلامي رجاء كلّ المُخلّصين بتضحيتي كأنّها دواء لاحتضاري.

أسمائكم! كلّ اسم كان لي قطرة من الدواء تُحقّن في أوردتي لتعطيها قوّة ودافعاً للعمل، كلّ اسم كان لي الحياة التي تعود، النور الذي يعود، القوّة التي تعود. كي لا أصرخ من عذابي البشريّ، كي لا أياس من الله وأقول إنّّه كان في غاية القسوة والظلم تجاه ضحيّته، ردّدتُ أسماءكم أثناء تلك العذابات اللاإنسانيّة، رأيّتكم. ومنذئذ بارتكتكم. ومنذئذ حملتكم في قلبي. وعندما آن أوان وجودكم على الأرض، انحنيتُ من السماء لكي أصحب مجيئكم، متهلّلاً بالفكر لولادة زهرة محبّة جديدة في العالم وعيشها من أجلي.

آه! يا مَبَارَكِيّ! تعزية المسيح المائت! أُمِّي، التلميذ، النساء التقيّات كانوا مُحِيطِينَ بي ساعة موتي، ولكن أنتم كذلك كنتم حاضرين. عيناى الْمُحْتَضِرَتَانِ كَانَتَا تَرِيَانِ وَجْهَ أُمِّي الْمُمَزَّقِ، وفي الوقت نفسه وجوهكم الْمُحِبَّةَ، وانغلقتا، هكذا، فَرِحَتَيْنِ لِأَنَّهُمَا خَلَّصَتَاكُم، أنتم الذين تستحقّون تضحية إله.»

الأربعاء 16 / 02 / 1944

يقول يسوع:

«لقد أخذتِ عِلْماً بِكُلِّ الْعَذَابَاتِ الَّتِي سَبَقَتْ الْآلَامَ. الْآنَ، سَأَجْعَلُكَ تَعْرِفِينَ الْآلَامَ الْفَعْلِيَّةَ. هَذِهِ الْآلَامُ الَّتِي تَصْفَعُ أَرْوَاحَكُمْ بِشِدَّةٍ عِنْدَمَا تَتَأَمَّلُونَ فِيهَا. وَلَكِنَّكُمْ تَتَأَمَّلُونَ فِيهَا قَلِيلاً، بَلْ أَقَلٌّ مِنَ الْقَلِيلِ. أَنْتُمْ لَا تُفَكِّرُونَ أَبَداً فِي مِقْدَارِ مَا كَلَّفْتُمُونِي وَبِأَيِّ عَذَابٍ تَمَّ خَلَاصُكُمْ.

أنتم يا مَنْ تَشْكُونَ مِنْ خَدَشٍ، صَدْمَةٍ بِزَاوِيَةٍ، أَلَمٍ بِالرَّأْسِ، لَا تَفَكِّرُونَ أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ سِوَى جَرَحٍ وَاحِدٍ، وَأَنَّ هَذِهِ الْجِرَاحَ قَدْ أَلْهَبَتْهَا أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ نَفْسَهَا أَلَمَتْ خَالِقَهَا، لِأَنَّهَا كَانَتْ تُعَذِّبُ اللَّهَ-الابْنَ الَّذِي أَضْحَى مُعَذِّباً، دُونَ احْتِرَامٍ لِلَّذِي، كَأَبٍ لِلْخَلِيقَةِ، كَانَ قَدْ كَوَّنَهَا.

ولكنّ الأشياءَ لم تكن هي المُذْنِبَةُ. بل الإنسان كان دائماً وأبداً هو المُذْنِبُ. المُذْنِبُ مِنْذُ الْيَوْمِ الَّذِي اسْتَمَعَ فِيهِ إِلَى الشَّيْطَانِ فِي الْجَنَّةِ الْأَرْضِيَّةِ. حَتَّى تِلْكَ اللَّحْظَةَ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ أَشْوَاكٌ، وَلَا سُمٌّْ، وَلَا فَظَاطَةٌ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ الْمَخْلُوقِ الْمُخْتَارِ.

كان الله قد جَعَلَ من هذا الإنسان مَلِكاً، مخلوقاً على صورته ومِثاله، وفي محبّته الأبويّة، لم يكن يُريد أن تتمكّن الأشياء من أن تكون فخاخاً له. الشيطان هو الَّذي وَضَعَ الفخّ. بداية في قلب الإنسان، ثمّ أنتجَ للإنسان، مع عقاب الخطيئة، العُلّيق والأشواك.

وهكذا كان عليّ، أنا الإنسان، أن أتألّم أيضاً من أجل الأشياء وبها، إضافة إلى الأشخاص. فهو لاء أهانوني وعدّبوني، وتلك الأشياء كانت الأسلحة لذلك.

اليَد الَّتِي صَنَعَهَا اللهُ لِلإنسان لكي يُميّزه عن الحيوانات، اليَد الَّتِي كان اللهُ قد علّم الإنسان استخدامها، اليَد الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ في علاقة مع العقل مُعطياً إيّاها القُدرة على تنفيذ أوامر الفكر، هذا الجزء منكم الكامل للغاية والَّذي ينبغي أن لا يتأتّى منه سوى ملاطفات لابن الله، لأنّه لم يَنلْ منه سوى المُلاطفات والشفاء إن كان مريضاً، قد ثار ضدّ ابن الله وكال له الصّفَعات، واللّكمات، تَسَلّح بالسياط، صار كَمَاشَة لانتزاع الشعر واللحية، ومطرقة لإدخال المسامير.

أقدام الإنسان، الَّتِي كان ينبغي لها أن تجري فقط بِخَفّة لكي تتعبّد لابن الله، جرت بسرعة للقبض عليّ، لدفعي وجَرّي في الطُرُقَات إلى جلاديّ، ورَكلي كما لا يجوز أن يُفَعَلَ حتّى لبغل حرون.

فم الإنسان، الَّذِي يجب أن يستخدمه في الكلام، الكلام الَّذِي لم يُعطَ سوى للإنسان وحده دون كلّ الحيوانات المخلوقة، لكي يُمَجّد ويُبارك ابن الله، امتلاً بالتجديف والأكاذيب يُلقِيها على شخصي مع بصاقه.

فكر الإنسان، الذي هو إثبات على أصله السماوي، أنهك نفسه في
تصور العذابات بقسوة يتفنن بها.

الإنسان، الإنسان بأكمله، استخدَم كل ما يُكونه لكي يُعَذِّب ابن الله.
واستدعى الأرض، بكلّ مكُوناتها، لتساعده في هذا التعذيب، صَنَعَ مِنْ حجارة
السيل مقاذيف لتجرحني، وَمِنْ فروع الأشجار هراوات لضربي، مِنْ القنب
المبروم حبلاً لسحبي، مُمزّقاً لحمي، وَمِنْ الأشواك إكليل نار كان يَخز رأسي
المُنْهَك، مِنْ المعادن سوطاً فائق الشدّة، مِنْ القصب أداة عذاب، مِنْ حجارة
الطريق فخاً للقدَم المترنّحة للذي كان يَصْعَد، وهو يحتضر، لكي يموت
مصلوباً.

وانضمت الأشياء السماوية للأشياء الأرضية: بَرَد الفجر لجسدي
المُنْهَك مِنْ جرّاء نزاع البستان، الريح التي تلهب جراحي، الشمس التي تزيد
الحريق والحمى وتجلب الذباب والغبار، وتبهر عينيّ المُتعبتين اللتين لا
تستطيع اليدان السجّينتان أن تحمياهما.

وانضمت للأشياء السماوية الألياف المُعطاة للإنسان ليُغطّي عريه بها:
الجلد يُصبح سوطاً، صوف الملابس يلتصق بالجراح المفتوحة بسبب السياط
ويسبب العذاب مع كلّ حركة نتيجة الاحتكاك والتمزيق.

كلّ شيء، كلّ شيء، كلّ شيء استُخدِم لتعذيب ابن الله. وهو، الذي
بواسطته خُلقت كلّ الأشياء، حينما صار القربان المُقرَّب إلى الله، أصبحت
كلّ الأشياء تنصب له العدا. لم يتلقَّ يسوعك التعزية مِنْ أيّ شيء يا ماريّا.
كالأفاعي الهائجة، شرع كلّ ما هو موجود في عضّ لحمي ومضاعفة آلامي.

هذا ما يجب أن تفكروا فيه حينما تتألمون، مقارنين نقصكم بكمالي،
وألّمي بآلمكم، وتعلموا أنّ الله يحبّكم، كما لم يحبّني في تلك الساعة، وتحبّوه
بالتالي بكلّ ذواتكم، مثلما أحببته أنا رغم قسوته.»

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

18- (المحاكمات وإنكار بطرس، تأملات في سلوك بيلاطس).

22 - 25 / 03 / 1945

تبدأ مسيرة الألم عبر درب حجريّ صغير يقود من الساحة الصغيرة التي أُلقي القبض فيها على يسوع إلى القدرّون، ومن هناك عبر درب آخر، إلى المدينة. وفي الحال تبدأ السخريات والمعاملات السيئة.

يسوع مُكبّل كما هو عليه من المعصمين وحتى الخصر كما لو كان مجنوناً خطيراً، وأطراف الحبال موكلة إلى ممسوسين سكارى بالكراهية، يجذبونه من جهة ومن أخرى مثل خرقة مشلّوحة لغضب زمرة كلاب. إنّما لو كان الذين يتصرّفون هكذا كلاباً لكانوا معذورين. ولكنهم بشر، رغم أنّه ليس لهم من البشريّة إلاّ المظهر. وللتسبّب في المزيد من الألم فقد فكّروا في ربط حبلين متعارضين، الواحد يُستخدم لتكبيّل المعصمين وخذشهما ونشرهما باحتكاكه الخشن، والآخر، الذي على الخصر، يضغط الكوعين على الجذع، وينشر ويضغط أعلى البطن، مُنهكاً الكبد والكليتين، حيث عُقدت عُقدة ضخمة، وحيث من وقت لآخر، ذاك الذي يمسك بأطراف الحبل يضربه به كالسوط وهو يصيح: «هيا! امض! أسرع، أحمق!» ويضيف ركلات كذلك، خلف ركبتيّ المعذب، الذي يترنّح ولا يسقط، فقط لأنّ الحبال تبقيه واقفاً. إنّما هذا لا يمنع، بشدّه يميناً من الذي يختصّ باليدين، ويساراً من الذي يمسك بحبل الخصر، من أن يرتطم يسوع بالجدران والجذوع، ويسقط بعنف أمام منحدر الجسر الصغير بسبب ضربة أكثر وحشيّة تلقّاها وهو يهّم باجتياز الجسر الصغير على القدرّون. الفم المرضوض ينزف. يرفع يسوع يديه

المكبلتين ليمسح الدم الذي يلوث اللحية، ولا يتكلم. إنه حقاً الحمل الذي لا يعضّ من يعذّبه.

في هذه الأثناء نزل بعض الناس لأخذ حجارة وحصى من الضفة، ومن أسفل يبدأ وابل من الحجارة السقوط على هدف سهل المنال. بالفعل أصبح المسير بطيئاً على الجسر الصغير الضيق غير الآمن الذي تراحم عليه الناس معيقين بعضهم البعض، والحجارة تصيب رأس يسوع، كتفيه، وليس يسوع فقط، بل أيضاً الذين يحرسونه، فيبادلونهم رمي الحجارة ذاتها وضرب العصي. وكلّ ذلك يؤدّي إلى ضرب يسوع من جديد على رأسه وعلى رقبتة. لقد تجاوزوا الجسر، والآن تخيم ظلمة الدرب الضيق على المعمة، لأنّ القمر الذي بدأ بالأفول لم يعد يبلغ هذا الدرب الملتوي، ولأنّ مشاعل كثيرة قد انطفأت أثناء الغوغاء.

ولكنّ الكراهية حلّت محلّ النور لرؤية الشهيد المسكين، الذي ساعد طوله الفارع في هذا العذاب. إنه أطول الجميع، فيسهل إذاً ضربه، وشده من شعره لإجباره على قلب رأسه بعنف إلى الوراء، لإلقاء قبضة من الأقدار عليه، التي تدخل عنوة في فمه وعينه مسببة له الغثيان والألم.

يشرع باجتياز ضاحية عوفل، الضاحية التي نشر فيها الكثير من أعمال الخير والملاطفات. يُطلق الجمع صيحات لدعوة النائمين إلى العتبات. وإن كانت النساء يطلقن صيحات ألم ويجرين مذعورات لدى رؤيتهنّ ما يحدث، فالرجال، الرجال الذين نالوا منه الشفاء، العون، كلمات المحبة، إمّا يخفضون رؤوسهم بلا مبالاة، متظاهرين على الأقلّ بعدم الاكتراث، أو إنهم يتحوّلون

من الفضول إلى الحقد، الهزاء، حركات تهديد، بل حتى يتبعون الموكب للتعذيب. الشيطان قد بدأ عمله...

رجل، زوج يريد اللحاق به ليهينه، تمسك به زوجته من ذراعه وهي تصرخ في وجهه: «جبان! إن كنت الآن حياً فبفضله، تذكر هذا أيها الرجل المقزّر المليء عفونة!» ولكن الرجل يتغلب على المرأة التي يضربها بوحشية ملقياً إياها على الأرض، ويجري بعد ذلك كي يلحق بالشهيد ليلقي حجراً على رأسه.

امرأة أخرى، مسنة، تحاول قطع الطريق على ابنها الذي يجري بوجه ضبع وبعصا ليضرب هو أيضاً، وتصرخ في وجهه: «لن تكون قاتل مخلصك ما دمت على قيد الحياة!» ولكن التعيسة، وقد ركلها الابن بوحشية على الحالب، انطرحت وهي تصيح: «يا قاتل الله وقاتل الأم! من أجل الأحشاء التي تمزّقها للمرة الثانية ومن أجل مسيّا الذي تضربه، لتكن ملعوناً!»

العنف يتعاظم باطراد كلما دنوا من المدينة.

قبل الوصول إلى الأسوار -الأبواب أضحت مفتوحة، والجند الرومان، في وضع استعداد، يراقبون من أين تأتي الجلبة وكيف تتطور، مستعدين للتدخل لو اهتزّت مكانة روما- كان يوحنا هناك مع بطرس. أظنهما وصلا من طريق مختصرة، مجتازين القديرون من الجسر، ثم متقدمين بسرعة الجمع الذي يمضي بطيئاً معيقاً سيره بنفسه. إنهما في ظلّ أحد المداخل، قرب ساحة صغيرة سابقة للأسوار، ردائيهما على رأسيهما ليسترا وجهيهما. ولكن حينما يصل يسوع، يترك يوحنا رداءه يسقط ويكشف وجهه الشاحب

والمضطرب تحت ضوء القمر الذي ما زال منيراً قبل أن يختفي خلف الهضبة التي هي فيما وراء الأسوار، والتي أسمع جنود الهيكل الذين قبضوا على يسوع يسمونها توفيت. بطرس لا يجرؤ على كشف وجهه، ولكنه يتقدم كي يرى... يسوع ينظر إليهما... بابتسامة لها طيبة لانهائية. بطرس يدور حول نفسه ويرجع إلى ركنه المظلم، يداه على عينيه، مقوساً، عجوزاً، وقد أصبح خرقة بشرية. يوحنا يبقى حيث هو غير هيّاب، وفقط حينما يمرّ الجمع الذي يعوي، يعود إلى بطرس، يمسكه من كوعه، ويقوده كما لو كان طفلاً يقود والده الأعمى، ويدخلان معاً المدينة، خلف الجمع الهادر.

أسمع هتافات الجنود الرومان الذاهلة، الهازئة، الحزينة. أحدهم يلعن الذين أيقظوه بسبب هذا «الخروف الأبله»؛ آخر يهزأ من اليهود القادرين على «الإمساك بمخنث»؛ آخر يشفق على الضحية «الذي رآه دائماً مفعماً صلاحاً»؛ وآخر يقول: «أفضل أن يقتلوني على أن أراه بين أيديهم. إنه لعظيم. إخلاصي في العالم لاثنين: له ولروما.»

«بجوبيتر!» يصيح الأعلى رتبة من الحرّاس: «لا أريد إزعاجاً. سأذهب إلى حامل الراية. وليفكر هو بإخبار من له السلطة. لا أريد أن يرسلوني لأحارب الجرمانيين. هؤلاء العبرانيون قذرون وهم حيّات ومزعجون. ولكن الحياة هنا آمنة وأنا على وشك إنهاء خدمتي، فبالقرب من بومباي لي ابنة صغيرة!...»

أسقط الباقي لأتبع يسوع الذي يتقدم على الدرب الذي ينعطف صاعداً إلى الهيكل. ولكنني أرى وأدرك أنّ بيت حنّان، حيث يريدون اصطحابه، هو ضمن وليس ضمن تلك المتاهة التي هي الهيكل الذي يحتلّ كلّ تلّ صهيون.

هو على طرفه، بالقرب من سلسلة أسوار، التي تبدو وكأنها تحدّد هنا حدود المدينة، ومن هذا المكان تمتدّ مع أروقة وباحات عبر منحدر التلّ إلى أن تصل إلى سور الهيكل بالمعنى الحصريّ، أي حيث يذهب الاسرائيليّون من أجل مختلف شعائر عبادتهم. هناك باب حديديّ عالٍ في السور. يتوجّه إليه الضباع طوعاً ويقرعون به بعنف. وما كاد يُفتح حتّى تدفقوا إلى الداخل موشكين أن يطرحوا ويدوسوا بأقدامهم الخادمة التي جاءت تفتح لهم، فيفتحونه على مصراعيه ليتمكّن الجمع النابح من الدخول، وفي وسطهم المقبوض عليه. وبمجرّد دخولهم، يغلقونه ويقلّونه، ربما خوفاً من روما أو من أنصار الناصريّ.

أنصاره! أين هم؟...

يجتازون فناء المدخل ثمّ باحة واسعة، فممرّاً، فرواقاً آخر وباحة أخرى، جارّين يسوع وجاعليّنه يصعد ثلاث درجات، وجاعليّنه يجتاز تقريباً جرياً أروقة مقنطرة ترتفع فوق الباحة للوصول بسرعة أكبر إلى قاعة فخمة حيث رجل عجوز يرتدي ملابس الكهنوت.

«فليعزّك الربّ يا حنّان.» يقول من يبدو أنّه القائد، إن أمكن تسمية الوغد الذي قاد قطاع الطرق أولئك. «ها هو المذنب. أوكله إلى قداستك كي يُظهر إسرائيل من الخطأ.»

«فليباركك الله على حدة بصيرتك وإيمانك.»

حده بصيرة جميلة! كان كافياً صوت يسوع ليجعلهم يرتمون أرضاً في جثسيماني.

«من أنت؟»

«يسوع الناصريّ، الرابّي، المسيح. وأنتَ تعرفني، فأنا لم أعمل في الخفاء.»

«في الخفاء، لا. ولكنّك أغويتَ الجموع بمذاهب غامضة. وللهيكل الحقّ والواجب في حماية نفوس أبناء إبراهيم.»

«النفوس! يا كاهن إسرائيل، هل يمكنكَ القول إنّك عانيتَ من أجل نفس أصغر واحد أو أكبر واحد من هذا الشعب؟»

«وأنتَ إذا؟ ماذا الذي فعلته ويمكن تسميته معاناة؟»

«ماذا فعلتُ؟ لماذا تسألني أنا؟ إسرائيل بأكملها تتحدّث عنه. من المدينة المقدّسة إلى أكثر القرى بؤساً، الحجارة أيضاً تتكلّم لتروي ماذا فعلتُ. لقد أعدتُ النظر إلى العميان: نظر العيون ونظر القلب. فتحتُ السمع للصمّ: لأصوات الأرض وأصوات السماء. جعلتُ المشلولين والكسيحين يمشون لكي يباشروا السير نحو الله بالجسد ثمّ يتقدّمون بالروح. طهرتُ البرص: من ذلك البرص الذي تحدّده الشريعة الموسويّة وأيضاً من ذلك المسبّب للنتانة أمام الله: الخطايا. أقمتُ الأموات، ولا أقول إنّهُ لأمر عظيم إعادة جسد إلى الحياة، بل الأمر العظيم افتداء الخاطيء، وفعلتُ هذا. أسعفتُ الفقراء بإرشادي العبرانيّين الجشعين والأغنياء إلى الوصيّة المقدّسة بمحبّة القريب، وبقائي فقيراً رغم نهر الذهب الذي مرّ بين يديّ، مسحتُ دموعاً بمفردي أكثر من جميعكم، يا مملّكي الثروات. في النهاية وهبتُ غنى لا اسم له: معرفة الشريعة، معرفة الله، اليقين من أنّنا جميعاً متساوون وأنّ، في نظر الآب القدّوس، تتساوى الدموع أو الجرائم التي ستسكب أو التي يرتكبها رئيس

الربع والحبر، أو المستجدي والأبرص الذي يموت على حافة الطريق. هذا ما فعلته. وليس أكثر.»

«هل تعرف أنك تتهم نفسك؟ تقول البرص المسبب للنتانة في نظر الله ولم يحدده موسى. أنت تهين موسى وتلمح بوجود نقص في شريعته...»

«ليست شريعته: بل شريعة الله. هكذا هي. فأفدح من البرص، الذي هو ويل للجسد وله نهاية، هي الخطيئة التي أُعلن أنها أفدح بكثير لأنها ويل، ويل أبدي للروح.»

«أنت تجرؤ على القول إنك تغفر الخطايا. كيف تفعل ذلك؟»

«إن كان بقليل من الماء المطهر وبتوضيحية كبش يكون محو الخطيئة مسموحاً ومصدقاً، ويتم التكفير عنها والتطهر منها، فكيف لا يمكن لدموعي ودمي ومشيتي فعل هذا؟»

«لكنك لست ميتاً. أين إذن الدم؟»

«لست ميتاً بعد. ولكني سأموت لأن هذا مكتوب، في السماء قبل أن تكون صهيون، وحينما لم يكن موسى، ولم يكن يعقوب ولم يكن إبراهيم، مذ كان ملك الشرّ يعضّ قلب الإنسان ويسمّمه وأبناءه. إنه مكتوب على الأرض في الكتابات حيث أقوال الأنبياء. إنه مكتوب في القلوب، في قلبك، وفي قلب قيافا وأعضاء السنهدرين الذين لا يغفرون لي، لا، هذه القلوب لا تغفر لي صلاح. أنا غفرت، مُستبقاً دمي. الآن سأتمم الغفران بحمام هذا الدم.»

«أنت تقول إننا جشعون وجاهلون لوصية المحبة...»

«أليس هذا صحيحاً؟ لماذا تقتلونني؟ لماذا تخشون أن أنزلكم عن عروشكم؟ آه! لا تخافوا. مملكتي ليست من هذا العالم. سأترك لكم سيادة كلّ السلطات. الأزلّي يعلم متى يجب أن تقال كلمة "كفى" التي ستُسقطكم مصعوقين...»

«مثل دوراس، أليس كذلك؟»

«لقد مات من الغضب، وليس بصاعقة سماويّة. كان الله ينتظره على الجانب الآخر ليصعقه.»

«وأنت تُردّد هذا عليّ، أنا قريبه؟ أتجرو؟»

«أنا هو الحقّ. والحقّ ليس جباناً على الإطلاق.»

«متكبر ومجنون!»

«لا: صادق. أنت تتّهمني بأنني أهينكم. إنّما أستم جميعكم تكرهون بعضكم؟ واحدكم يكره الآخر. الآن كرهكم لي هو الذي يوحدكم. ولكن غداً، عندما تقتلونني، ستعود الكراهية فيما بينكم، وبأكثر وحشيّة، وستعيشون مع ذلك الضبع على الظهر وذلك الثعبان في القلب. لقد علّمتُ المحبّة، رحمةً بالعالم. لقد علّمتُ عدم الجشع، التحلّي بالرحمة. فبماذا تتّهمني؟»

«بأنك أتيتَ بمذهب جديد.»

«أيا أيّها الكاهن! إنّ إسرائيل تعجّ بالمذاهب الجديدة: الأسينيّون لهم مذهبهم، الصدوقيّون لهم مذهبهم. للفريسيّين مذهبهم، لكلّ واحد مذهبهم السريّ، الذي للواحد يُدعى اللذة، للآخر الذهب، لآخر السلطة، ولكلّ منهم صنمه. ليس أنا. أنا قد أعدتُ شريعة أبي التي تمّ دوسها، شريعة الله الأزلّي،

وقد عدتُ لأقول ببساطة عبارات الوصايا العشر. قد جفت رئتِي كي أُدخلها في القلوب التي ما عادت تعرفها.»

«يا للهول! يا للتجديف! لي، أنا الكاهن، تقول هذا؟ أليس لإسرائيل هيكَل؟ هل نحن كمنفِيّي بابل؟ أجب.»

«هذا ما أنتم عليه. وأكثر بعد. هناك هيكَل. نعم. بناء. الله ليس فيه. لقد هرب من التدنيس الذي في بيته. ولكن لماذا تسألني كثيراً إن كان موتي مقرّراً؟»

«نحن لسنا قتلة. لنا الحق أن نقتل من أجل خطأ مُثَبَّت. أمّا أنا فأريد إنقاذك. أخبرني، وأنا سأُنقذك. أين هم تلاميذك؟ إن سلّمتم لي أتركك حراً. أسماء الجميع، والسريين منهم أكثر من المعروفين. قل: هل نيقوديموس معك؟ وأيضاً يوسف؟ وغَمَلائيل؟ وإليعازر؟ و... ولكن هذا أنا أعرفه... لا حاجة. تكلم. أنت تعلم: يمكنني أن أقتلك أو أخلّصك. لي سلطان.»

«إنّك وحل. وأنا أترك للوحل مهمّة الجاسوسية. أنا نور.»

أحد الجنود يلكمه.

«أنا نور. نور وحق. لقد كلّمتُ العالم علانية، علّمتُ في المجامع وفي الهيكل، حيث يجتمع اليهود، ولم أقل شيئاً في الخفاء. أكرّر: لماذا تسألني؟ اسأل الذين سمعوا ما قلّته. هم يعرفون.»

يصفعه جندي آخر وهو يصيح: «أهكذا تجيب كبير الكهنة؟»

«أنا أكلّم حنّان. الحبر هو قيافا. وأنا أكلّمه بالاحترام الواجب للشيخ. ولكن إن بدا لك أنّي تكلمتُ سوءاً، فأظهره لي. وإلا، فلماذا تضربني؟»

«دعوه. سأذهب إلى قيافا. وأنتم احرسوه هنا حتى أبت بأمره. ولا تدعوه يتحدث إلى أحد.» ويخرج حنّان.

يسوع لا يتكلّم، لا، لا يتكلّم. حتى ولا إلى يوحنا الذي يجرو على البقاء عند الباب متحدّياً كلّ جماعة الشرطة. ولكن ينبغي ليسوع، دون أن يتكلّم، أن يعطيه أمراً، ذلك أنّ يوحنا، بعد نظرة حزينة، يخرج من هناك وأفقد رؤيته.

يبقى يسوع وسط مُعذّبيه. ضربات بالحبْل، بصاق، شتائم، ركلات بالقدم، نتف شعر، هذا ما يبقى له حتى اللحظة التي أتى فيها خادم يخبرهم بقيادة السجين إلى منزل قيافا.

ويسوع الموثق والمُعامل دائماً بسوء، يخرج من جديد تحت الأروقة المقنطرة، يعبرها حتى أحد المداخل ثم يجتاز باحة يتدفّق فيها جمع كثير بالنار. لأنّ الليل صار بارداً والرياح تهبّ في ساعات يوم الجمعة الأولى هذه. كان هناك أيضاً بطرس ويوحنا، مختلطين بالجمع العدائيّ، لا بدّ أنهما يملكان شجاعة لا بأس بها للبقاء هناك... ينظر إليهما يسوع وظلّ ابتسامة على شفّتيه المنتفختين بسبب الضربات التي تلقّاها.

مسير طويل عبر الأروقة والردهات والباحات والممرّات. ولكن ما هذه المنازل التي كان يملكها قوم الهيكل هؤلاء؟

لم تدخل الجموع سور الحبر. بل دُفعت نحو ردهة حنّان. يمضي يسوع بمفرده وسط الجنود والكهنة. يدخل إلى قاعة واسعة تبدو وكأنّها فقدت شكلها المستطيل بسبب عدد المقاعد الكثيرة الموضوعة على شكل حدوة حصان على ثلاث جهات، مع إبقاء مساحة خالية في الوسط، بعدها هناك أريكتان أو ثلاث موضوعة على منصّات.

وفي اللحظة التي يهَمّ فيها يسوع بالدخول، يلتقيه الرّابّي غمّالائيل، فيضرب الحرّاس السجين كي يفسح المجال لدخول رابّي إسرائيل. إنّما هذا، صلب كتمثال، طقسِيّ، يبطئ، بالكاد يحرك شفّتيه، دون أن ينظر إلى أحد، يَسأل: «مَنْ أَنْتَ. قل لي.» ويسوع بهدوء: «اقرأ الأنبياء وستجد الإجابة. العلامة الأولى هي لديهم. والأخرى ستأتي.»

يضمّ غمّالائيل رداءه ويدخل، وخلفه يدخل يسوع. وفيما غمّالائيل يتّجه إلى أحد الكراسي، يُجرّ يسوع إلى وسط القاعة، في مواجهة الخبر، وجه مجرم حقيقيّ. ويتمّ الانتظار حتّى دخول كامل أعضاء السنهدرين. ثمّ تبدأ الجلسة. ولكنّ قيافا يرى اثنين أو ثلاثة من الكراسي خالية ويسأل: «أين هو إلعازر؟ وأين هو يوحنا؟»

يقف كاتب شاب على ما أظنّ، ينحني ويقول: «لقد رفضا الحضور. هذا هو الكتاب.»

«فليُحفظ ويُسجّل، وسوف يجيبان. ماذا لدى أعضاء هذا المجلس المقدّسين بشأن هذا؟»

«أنا أتكلّم. في منزلي، هو لم يحفظ السبت. الله يشهد أنّي لا أكذب. إسماعيل بن فابي لا يكذب أبداً.»
«هل هذا صحيح يا متّهم؟»

يصمت يسوع.

«رأيتّه يعيش مع عاهرات معروفات. متظاهراً أنّه نبيّ، لقد جعل من وكره ماخوراً، ويزيد الطين بلّة بالسيدات الوثنيّات. كان معي هناك صادق،

كالآشبوننا وناحوم، أمين سرّ حنّان. ألا أقول الصدق يا صادق وكالآشبوننا؟
كذباني إن استحققتُ ذلك.»

«هذا صحيح. صحيح.»

«ماذا تقول؟»

يصمت يسوع.

«لم يفوت فرصة لم يسخر فيها منّا، ولم يجعلهم يسخرون منّا. لم تعد
العامّة تحبّنا بسببه.»

«هل تسمع؟ امتهنت الأعضاء المقدّسين.»

يصمت يسوع.

«هذا الرجل مستحوذ عليه من الشيطان. بعودته من مصر، يمارس
السحر الأسود.»

«كيف تثبت ذلك؟»

«بايماني ولوحيّ الشريعة!»

«اتّهام خطير. برّئ نفسك.»

يصمت يسوع.

«عملك غير قانونيّ، أنت تعرف. تستحقّ عليه الموت. تكلم.»

«هذا الاجتماع الذي نعده غير قانونيّ. قف يا سمعان ولنرحل.» يقول
غمّالائيل.

«ولكن أيها الرابي، هل جنت؟»

«أنا احترم القواعد. غير مسموح بالتصرّف كما نتصرّف نحن، سأ تقدّم بشكوى عامّة.» ويخرج الرابي غملاًئيل متصلياً كالتمثال، يتبعه رجل في حوالي الخامسة والثلاثين وهو يشبهه.

صخب قليل ينتهزه كل من نيقوديموس ويوسف كي يتكلّما في مصلحة الشهيد.

«غملاًئيل مصيب. غير قانوني هو التوقيت والمكان، والاتّهامات غير مؤكّدة، هل يمكن لأحد أن يتّهمه باحتقار الشريعة علانية؟ أنا صديقه وأقسم أنّي وجدته دائم الاحترام للشريعة.» يقول نيقوديموس.

«وأنا بالمثل. لذا أعطى رأسي كي لا أوقع على جريمة، ليس لأجله، بل لأجلنا نحن، وأخرج.» ويهمّ يوسف بالنزول من مكانه والخروج.

ولكنّ قيافا يزعم: «آه! أهكذا تتكلّمان؟ فليأت الشهود ويُقسّموا، إذاً. واسمعا. ثمّ ترحلان.»

يدخل وجها محكوم عليهما بالأشغال الشاقّة. نظرات تائهة، ابتسامات مجرّمة، حركات مراوغة.

«تكلّما.»

«ليس جائزاً الاستماع إليهما معاً.» يصيح يوسف.

«أنا رئيس الكهنة. أنا أمر. وصمتاً!»

يضرب يوسف بقبضة يده على المنضدة ويقول: «فلتنتفح عليك نار السماء! بدءاً من هذه اللحظة، فلتعلم أنّ يوسف الشيخ هو عدوّ السنهدرين وصديق المسيح. وبهذه الخطوة سأمضي لأقول للحاكم الشرعيّ إنّ القتل هنا يجري بلا احترام لروما.» ويخرج وهو يدفع بقوة كاتباً شاباً نحيفاً يريد منعه.

نيقوديموس، الأكثر هدوءاً، يخرج دون أن ينبس بكلمة، وعند خروجه يمرّ أمام يسوع وينظر إليه...

صَخَبَ مِنْ جَدِيدٍ. خَوْفٌ مِنْ رُومَا. وَيَسُوعُ مَا يَزَالُ دَائِماً هُوَ الضَّحِيَّةُ التَّكْفِيرِيَّةُ.

«تري أن كلّ هذا بسببك! فأنت المُفسِد لأفضل اليهود. أنتَ حقّرتهم.»
يصمت يسوع.

«فليتكلّم الشاهدان!» يصيح قيافا.

«نعم، هذا كان يمارس الـ... الـ... كنّا نعرفه... كيف يسمى هذا الشيء؟»

«قد يكون الكلام الرباعي Le tétragramme؟»

«هو ذا! لقد قتلته! كان يستدعي الأموات. يُعلّم عصيان السبت وتدنيس المذبح. نقسم بهذا. كان يقول إنّّه كان يريد أن ينقض الهيكل ليعيد بناءه في ثلاثة أيّام بمساعدة الشياطين.»

«لا. كان يقول: لن يقوم بيد إنسان.»

ينزل قيافاً من كرسيه ويدنو من يسوع. بقده الصغير، البدين، الشنيع، يبدو وكأنه ضفدع ضخّم بجانب وردة. ذلك أنّ يسوع رغم جراحه، رضوضه، اتّساخه وشعث شعره، ما يزال بهيّا للغاية وجليلاً.

«أما تجيب؟ أيّ اتّهامات يوجّهونها إليك! مريّة! تكلم كي تنزع عنك هذا العار.»

ولكن يسوع يصمت. ينظر إليه ويصمت.

«أجبنني إذاً. أنا حبرك. استحلفك باسم الله. أن تقول لي: أنت المسيح ابن الله؟»

«أنت قلت. أنا هو. وسوف تبصرون ابن الإنسان، الجالس عن يمين قوّة الآب، آتياً على سحاب السماء. فيما عدا ذلك لماذا تسألني؟ لقد تكلمتُ علانية مدّة ثلاث سنوات. لم أقل شيئاً في الخفاء. اسأل الذين سمعوني. وسيقولون لك ما قلته وما فعلته.»

واحد من الجنود الذين يمسكون به يضربه على فمه ويجعله ينزف من جديد، ويصيح: «أهكذا تجيب رئيس الكهنة، أيا أيّها الشيطان.»

ويسوع بلطف، يجيبه كما أجاب الآخر سابقاً: «إن كنتُ تكلمتُ حسناً، فلماذا تضربني؟ وإن كنتُ قد تكلمتُ بسوء، لماذا لا تقول لي في أيّ شيء أخطأت؟ أكرّر: أنا هو المسيح، ابن الله. لا يمكنني الكذب. الكاهن الأعظم، الكاهن الأبدي. أنا وحدي أحمل الصُدرة التي كُتب عليها: المذهب والحق. وأنا أمين لهما، حتّى الموت، حقير في أعين البشر، قدّوس في عينيّ الله، وحتّى القيامة السعيدة. أنا هو الممسوح. الحبر والمَلِك أنا. وسأمضي لأخذ

صولجاني، وبه، كما بمنخل، أنقي البيدر، هذا الهيكل سيُهَدَم ويُقام، جديداً، مقدّساً، ذلك أنّ هذا فاسد والله قد تركه لمصيره.»

«مجدّف!» يصيحون جميعهم معاً.

«وفي ثلاثة أيّام تقيمه، أيّها المجنون والممسوس؟»

«ليس هذا، بل هيكل سيقام، هيكل الله الحقّ، الحيّ، القدّوس، المثلث التقديس.»

«ملعون!» يصيحون من جديد معاً.

يرفع قيافا صوته الأَجَشَّ، ويمزّق ثيابه الكتّانية بحركات من الهلع مدروسة، ويقول: «ما حاجتنا إلى سماع شهود بعد؟ التجديف قيل. ماذا نفعل إذا؟»

والجميع بصوت واحد: «مستوجب الموت.»

وبحركات احتقار وسخط يخرجون من القاعة تاركين يسوع تحت رحمة الجنود ورهط شهود الزور. يلطمونه، ويلكمونه، ويغطّونه بالبصاق، يعصبون عينيه بخرقه ثمّ وهم يشدّون شعره بعنف، يدفعونه هنا وهناك وهو مقيد اليدين، بشكل يجعله يصطدم بالموائد، والكراسي والجدران، وفي هذه الأثناء يسألونه: «مَنْ ضربك؟ احزر.» ولمرّات كثيرة، يضعون أقدامهم بين ساقيه، يوقعونه أرضاً ويضحكون بدناءة وهم يشاهدونه ينهض بصعوبة ويداه مقيدتان.

الساعات تمرّ هكذا، والجلّادون المتعبون يتوقون إلى القليل من الراحة. يقودون يسوع إلى إحدى غرف المهملات بعد جعله يجتاز باحات كثيرة

وسط سخرية العامة المتواجدين بكثرة داخل أسوار المنازل الحبرية. يصل يسوع إلى الباحة التي فيها بطرس قرب ناره وينظر إليه. ولكن بطرس يهرب من نظرتة. يوحنا لم يعد هناك، لا أراه. أظنه رحل مع نيقوديموس...

يتقدم الفجر بلونه الأخضر الشاحب. أمر قد صدر: إعادة السجين إلى قاعة المجلس من أجل دعوى أكثر قانونية. إنها اللحظة التي ينكر فيها بطرس للمرة الثالثة معرفته بالمسيح، الذي يمرّ وآثار الآلام عليه. وفي ضوء الفجر الأخضر تبدو الكدمات أكثر فظاعة على الوجه الشاحب، العينان غائرتان وزجاجيتان، يسوع المتكدر بألم العالم... وما كاد ينبلج الفجر حتى يصيح الديك في الهواء بصوت أبح، تهكمي، شقي. وفي لحظة الصمت العظيم تلك التي حلت بظهور المسيح، لا يُسمع سوى صوت بطرس الأجل يقول: «أقسم يا امرأة. أنا لا أعرفه»، تأكيد قاطع، واثق، أجاب عليه على الفور كضحكة ساخرة صوت الديك الصغير الشقي.

ينتفض بطرس. يدور حول نفسه ليهرب ويجد نفسه في مواجهة يسوع الذي ينظر إليه بشفقة لا متناهية، وبألم عميق جداً وشديد جداً يكسر قلبي، كما لو كان عليّ بعد ذلك أن أرى يسوعي يختفي للأبد. يصدر عن بطرس نحيب ويخرج مترنحاً كما لو كان سكراناً. يهرب خلف خادمين يخرجان إلى الشارع ويختفي في الطريق التي ما تزال شبه مظلمة.

أُعيد يسوع إلى القاعة، ويكرّرون عليه مجتمعين السؤال الخداع: «باسم الله الحق قل لنا: هل أنت المسيح؟»

وبحصولهم على الإجابة السابقة، يحكمون عليه بالموت ويعطون الأمر بقيادته إلى بيلاطس.

يسوع، يرافقه كلّ أعدائه، عدا حنّان وقيافا، يخرج ماراً بباحات الهيكل حيث تكلم مرّات عديدة ونشر أعمال الخير والشفاء، يجتاز السور ذا الشرفات، يلج شوارع المدينة، يُجرّ فيها أكثر منه يقاد، ينزل باتجاه المدينة التي كساها مطلع الفجر بلون ورديّ.

أعتقد أنّهم بهدف وحيد هو إطالة أمد تعذيبه، قد جعلوه يقوم بدورة طويلة لا طائل منها في أورشليم، مارّين بشكل متعمّد في الأسواق، أمام الاسطبلات والنزل المليئة بالناس لأجل الفصح. ونفايات خضار الأسواق، كذلك غائط حيوانات الاسطبلات تصبح قذائف على البريء، الذي يبدو وجهه وقد كثرت فيه البقع الزرقاء، والتمزّقات الصغيرة الدامية، ومغطّى بأنواع مختلفة من القذارات التي انصبّت عليه. الشعر المثلث والزرّج قليلاً من العرق الدمويّ وقد صار أكثر كثافة، يتدلّى الآن أشعثاً، مختلطاً بالقشّ والأقذار، ينسدل على عينيه لأنّه انتفش حاجباً وجهه.

رجال السوق، البائعون والمشترون، يتركون كلّ شيء معلّقاً كي يتبعوا البائس، ليس بدافع المحبة. صبيان الاصطبلات وخدام النزل يخرجون مجموعات، صامّين آذانهم عن نداءات وأوامر سيّداتهم. اللواتي، لقول الحقيقة، كلّ النساء الأخريات، إن لم تكن جميعهنّ معارضات للإهانات، فهنّ على الأقلّ لا يكثرن بالصخب، وينسحبن مدمدّات لأنهنّ تُركن بمفردهن يخدمن الزبائن الكثر.

يزداد عديد القطيع النابح من دقيقة لأخرى. يبدو الأمر وكأنّ وباء غير متوقّع، يجعل طبيعة النفوس وهيئات الوجوه تتبدّل: تصبح الأولى نفوس مجرمين والأخرى أقنعة متوحّشة زرقاء من الغيظ أو حمراء من الغضب،

تصير الأيادي مخالب، والأفواه تتخذ شكل الذئاب وعواءها، العيون نظرتها شزراء [جامحة، حمراء، مضطربة] كعيون المجانين. وحده يسوع هو نفسه، رغم أنه مغطى الآن بالقذارة المنتشرة على جسده ومشوّه بالزرقاء والوذمات.

عند أحد العُقد [القناطر] حيث تضيق الطريق فيما يشبه الحلقة، بينما يزدحم الكلّ ويتباطأ، صرخة تشقّ الهواء: «يسوع!» إنه إيليا الراعي الذي يحاول أن يفسح طريقاً بإدارته هراوة ثقيلة. عجوز، قادر، مهدّد وقويّ، ويكاد ينجح في اللحاق بالمعلّم. ولكنّ الجمع الحائر بسبب الغارة المفاجئة، يرصّ صفوفه، ويفصل، ويدحر، ويتحكّم بالرجل الذي كان وحيداً مقابل كلّ هذا الحشد. «معلّم!» يصيح بينما تمتصّه دوامة الجموع وتدحره.

«اذهب!... الأم... أباركك...»

يعبر الموكب النقطة الضيقة. وكالماء الذي انفرج بعد مضيق، ينصبّ صاخباً في شارع واسع مرتفع فوق منخفض بين تلّين، على أطرافهما قصور رائعة لقوم أغنياء.

أعود فأرى الهيكل عند أعلى هضبته، وأدرك أنّ التطواف الذي لا لزوم له، والذي جعلوا المتهم يقوم به ليكون موضع استهزاء كلّ المدينة ويسمح للجميع بإهانته، بزيادة عدد مهينيه في كلّ خطوة، ينتهي بالعودة إلى نقطة الانطلاق.

يخرج فارس من أحد القصور مسرعاً. الكسوة المزخرفة القرمزية التي تملأ بياض حصان عربي، ومهابة مظهره، السيف مشرع عارٍ ومناور بنصل وحدّ على الظهور والرؤوس التي تنزف، تجعله يبدو كرئيس ملائكة. وعندما يشبّ بالحصان قليلاً وهو يدور، جاعلاً حوافره سلاح دفاع لنفسه

ولمعلّمه، وهي الوسيلة الأجدى في فتح ممرّ خلال الجمع، هذه الحركة تُسقط
الستر القرمزيّ والذهبيّ الذي كان يغطّي رأس الفارس، والمُحکم برباط
ذهبيّ، فأتعرّف على مَنّايين.

«تراجعوا!» يصيح. «كيف تسمحون لأنفسكم أن تُقلّقوا راحة حاكم
الربع؟» ولم يكن هذا القول سوى تظاهر كي يبرّر تدخّله ومحاولته الوصول
إلى يسوع. «هذا الرجل... دعوني أراه.... ابتعدوا... وإلاّ أناذي
الحراس...»

الناس، بسبب وابل الضربات ورفسات الحصان وتهديدات الفارس،
يتباعدون، فيصل مَنّايين حيث مجموعة يسوع وحراس الهيكل الممسكين به.
«افسحوا المجال! رئيس الربع أرفع منكم، أيّها الخدام المقزّزون. إلى
الخلف! أريد أن أتحدّث إليه.» ويصل إليه وهو بسيفه كأكثر السجّانين
إصراراً.

«معلّم!...»

«شكراً، ولكن اذهب! وليُعزّك الله!» وبقدر وسع يديه المربوطتين يشير
بالبركة.

يصفر الجمع من بعيد، وما أن يرى مَنّايين وقد انسحب، حتّى ينتقم لنفسه
بسبب إبعاده، بوابل من الحجارة والأقذار على المتّهم.

من الشارع الذي يصعد، والذي جعلته الشمس دافئاً، يتمّ التوجّه نحو
برج أنطونيا الذي بدت كتلته من بعيد.

صِيحَة حَادَّة مِنْ امْرَأَة شَقَّتِ الْهَوَاءَ: «آه! مَخْلَّصِي! حَيَاتِي لِأَجْلِ حَيَاتِكَ،
أَيُّهَا الْأَزَلِي!»

يَلْتَفَتِ يَسُوعُ، وَيَرَى أَعْلَى شَرْفَةِ مُزْهَرَةٍ تَكُلُّ مَنْزِلًا غَايَةً فِي الْجَمَالِ،
يُونَّا امْرَأَة خُوزِي وَسَطَ خَدَّامِهَا وَخَادِمَاتِهَا، مَعَ الصَّغِيرِينَ مَرْيَمَ وَمَاتِيَّاسَ
حَوْلَهَا، وَهِيَ تَرْفَعُ ذِرَاعَيْهَا نَحْوَ السَّمَاءِ.

وَلَكِنْ السَّمَاءُ لَا تَسْمَعُ الصَّلَاةَ الْيَوْمَ! يَرْفَعُ يَسُوعُ يَدَيْهِ وَيُرْسِمُ إِشَارَةَ
الْبَرَكَةِ وَالْوَدَاعِ.

«الْمَوْتَ! الْمَوْتَ لِلْمَجْدَفِ، الْمَفْسَدِ، الشَّيْطَانِ! الْمَوْتَ لِأَصْدِقَائِهِ!»
وَصَفَّارَاتٍ وَضَرْبَاتٍ وَحَجَارَةٍ تَطِيرُ نَحْوَ الشَّرْفَةِ الْمُرْتَفَعَةِ. لَا أَعْرِفُ إِذَا مَا
جُرِحَ أَحَدٌ، أَسْمَعُ صِيحَةَ حَادَّةً جَدًّا وَأَرَى الْمَجْمُوعَةَ تَتَفَرَّقُ وَتَخْتَفِي.

وَيَمْضُونَ، يَمْضُونَ صَاعِدِينَ... تَظْهَرُ بَيْوتُ أُورُشَلِيمَ تَحْتَ الشَّمْسِ،
خَالِيَةً، مَفْرُغَةً بِسَبَبِ الْكَرَاهِيَةِ الَّتِي تَدْفَعُ مَدِينَةً كَامِلَةً مَعَ سَكَّانِهَا الْفَعْلِيِّينَ
وَالْمَوْسِمِيِّينَ الْوَافِدِينَ لِمُنَاسَبَةِ الْفَصْحِ، ضِدَّ يَسُوعَ الْأَعْزَلِ.

تَخْرُجُ شَرْذِمَةٌ كَامِلَةٌ مِنَ الْجُنُودِ الرُّومَانِيِّينَ بِسُرْعَةٍ مِنْ قَلْعَةِ أَنْطُونِيَا
بِرْمَاحٍ مُوجَّهَةٍ ضِدَّ الرِّعَاحِ الَّذِينَ يَتَفَرَّقُونَ وَهُمْ يَصْرُخُونَ. يَبْقَى يَسُوعُ وَسَطَ
الطَّرِيقِ مَعَ الْحَرَّاسِ وَرُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ، الْكَتَبَةِ وَشُيُوخِ الشَّعْبِ.

«هَذَا الرَّجُلُ؟ هَذَا الْعَصِيَانُ؟ سَتَجِيبُونَ رُومًا عَنْ ذَلِكَ.» يَقُولُ قَائِدُ مِئَةِ
بِتْعَالٍ.

«إِنَّهُ مُسْتَحَقٌّ الْمَوْتَ بِمُوجِبِ شَرِيعَتِنَا.»

«ومنذ متى أُعيد لكم حقّ الحكم بالموت وتنفيذه؟» السؤال دائماً من أقدم قائد مائة، وجه صارم، رومانيّ بحقّ، وخذّ حفرتَه ندبة عميقة. يتكلّم بالاحتقار والاشمئزاز الذي يتكلّم به مع محكومين بالأشغال الشاقّة قذرين.

«نحن نعرف أنّنا لا نملك هذا الحقّ. نحن الرعايا الأوفياء لروما...»

«ها! ها! اسمعهم يا لونجين! أوفياء! رعايا! جيف! أعطيكُم كمكافأة

سهام نباليّ.»

«موت كهذا نبيل للغاية! ظهور البغال يلزمها السوط فقط...» يجيب

لونجين ببرودة هازئة.

يزبد سمّ رؤساء الكهنة والكتّبة والشيوخ. ولكنّهم يريدون الوصول إلى هدفهم، فيصمتون، يبلعون الإهانة دون أن يُظهروا أنّهم فهموها، وبانحنائهم أمام القائدين، يطلبون اقتياد يسوع إلى بيلاطس البنطيّ كي «يحاكمه ويحكم عليه بالعدل والنزاهة المشهورة بهما روما.»

«ها! ها! هل تسمعهم؟ لقد أصبحنا أكثر حكمة من منيرفا... هنا!

سلّموه! وسيروا في المقدّمة! مَنْ يدري. فأنتم أبناء آوى وقذرون. أن تكونوا في الخلف خطر هو. إلى الأمام!»

«لا نستطيع.»

«ولماذا؟ حينما يتّهم شخص ما، يجب أن يمثل أمام القاضي مع المتّهم.

هذا هو نظام روما.»

«منزل الوثنيّ نجس في عيوننا، ونحن قد تطهّرنا من أجل الفصح.»

«أه! المساكين! يتنجسون إن دخلوا!... وقتل اليهودي الوحيد الذي هو إنسان وليس ابن آوى، ولا من الزواحف على شاكلتكم، لا يدنسكم؟ حسناً، ابقوا حيث أنتم. لا تتقدموا خطوة وإلا علّقناكم على رماحنا. فليقف عشرة فرسان حول المتّهم. أمّا البقيّة فأمام هؤلاء السفلة ذوي الفم سيئ النّظافة.»

يدخل يسوع إلى دار الولاية وسط عشرة رماحين مشكّلين مربّعاً من الطّبر (سلاح مكّون من حربة وفأس معاً) حوله. قائدا المئة يمضيان قُدماً، ثم يختفيان خلف أحد الأبواب، أمّا يسوع فيتوقّف في فناء فسيح، وراءه باحة تتبدّى من وراء ستار يحركه الهواء. يعودان مع الحاكم الذي يرتدي حلّة رومانيّة ناصعة البياض ورداء قرمزيّاً فوقها. ربما كانوا يظهرون هكذا حينما كانوا يمثلون روما رسمياً.

يدخل بتراخ، مع ابتسامة شكّ على وجه حليق. يفرك بين يديه أوراق شجر الكبّاد ويشمها بتلذّذ. يتوجّه نحو ساعة شمسيّة ويعود بعد أن ينظر إليها. يُلقي حبّات بخور في مجمرة موضوعة عند قدميّ أحد الآلهة. يُحضّر ماء الكبّاد ويتغرغر به. ينظر إلى تسريحة شعره المجعّد في مرآة من معدن نقيّ. يبدو وكأنّه نسي المتّهم الذي ينتظر موافقته ليُقتل. كان ليثير غضب الحجارة نفسها.

وحيث إنّ الفناء مكشوف بالكامل من الأمام ومرتفع ثلاث درجات عاليات على مستوى الردهة المفتوحة على الشارع، الذي يرتفع بدوره ثلاث درجات أخرى عنها، يرى اليهود كلّ شيء بوضوح ويستشيطنون غضباً، ولكن لا يتجاسرون على التمرد خوفاً من الرماح والحراب.

أخيراً، بعد أن مشى طويلاً وعرضاً في الغرفة الواسعة، يمضي بيلاطس مباشرة نحو يسوع، ينظر إليه ويسأل قائدي المئة: «أهذا هو؟»
«هذا هو.»

«فليمثل مشتكوه.» ويذهب ليجلس على كرسيّ موضوع على منصّة.
على رأسه شعارات روما المتشابكة مع نسورها المذهّبة ورمز سلطتها.
«لا يمكنهم المثل. يتنجّسون.»

«هه!!! هذا أفضل. كي نوَقّر أنهار الخلاصات لإزاله رائحة الكباش
عن المكان. اجعلاهم على الأقلّ يقتربون. هنا، أسفل، وانتبها إلى ألا يدخلوا،
تحديداً لأنّهم لا يريدون ذلك، قد يكون هذا الرجل حجة لفتنة.»

يمضي جنديّ يحمل أمر الوالي الرومانيّ. يقف الآخرون صفّاً أمام
الردهة الداخليّة على مسافات متساوية، في جمال يماثل تسعة من تماثيل
لأبطال.

يتقدّم رؤساء الكهنة والكتّبة والشيوخ، يحيّون بانحناءات ذليلة،
ويتوقّفون في ساحة صغيرة أمام المنصّة، ما وراء درجات الردهة الثلاثة.

«تكلّموا باختصار. فقد أخطأتم بالفعل بإزعاجي في الليل وفتح الأبواب
بالقوة. ولكنّي سأحقّق. وسيُجيب المفوضون والمفوضون عن عصيان
المرسوم.» يتوجّه بيلاطس نحوهم مع بقائه داخل الردهة.

«جننا نخضع لروما، حيث إنّك تمثّل امبراطورها الإلهيّ، حكمنا على
هذا.»

«أية شكايّة توردون عليه؟ يبدو لي أنّه مسالم...»

«لو لم يكن هذا فاعل شرّ لما كنّا جنّنا به إليك.» وفي رغبتهم المحتدمة للشكاية يتقدّمون.

«أبعدوا العامّة! ست خطوات عن درجات الساحة. أمّا مجموعتنا المئة فليتأهبوا بالسلاح!»

يطيع الجنود على الفور، فيقف مائة منهم على المدرّج الخارجي الأكثر ارتفاعاً، وظهورهم للردهة، ومائة في الساحة الصغيرة التي تُفتح عليها بوّابة مدخل مسكن بيلاطس. قلتُ بوّابة المدخل: عليّ القول مدخل أو قوس نصر، لأنّه فتحة بغاية الاتساع يحدها حاجز، مفتوح الآن على مصراعيه، ويسمح بالدخول إلى الفناء عبر ممشى طويل في ردهة واسعة عرضها لا يقلّ عن ستّة أمتار، بحيث يمكن رؤية ما يحدث في الفناء المرتفع جيّداً. وما بعد الردهة الواسعة تُرى وجوه اليهود البهيمة التي تنتظر إلى الداخل بتهديد وشيطنة، ينظرون عبر الحاجز المسلّح، الكوع على الكوع، كما لاستعراض يوجه مائتين من سنان الرماح إلى القتلة الجبناء.

«آية شكاية توردون عليه؟ أكرّر.»

«لقد ارتكب جريمة ضدّ شريعة الآباء.»

«وهل أتيتم تزعجونني بسبب هذا؟ خذوه أنتم واحكموا عليه بحسب شرائعكم.»

«لا يجوز لنا أن نقتل أحداً. لسنا علماء. القانون اليهوديّ ليس سوى طفل قاصر أمام قانون روما الكامل. وكجاهلين وكرعايا لروما، سيدتنا، نحن نحتاج...»

«منذ متى أنتم كالسمن والعسل؟... ولكنكم قلتم الحقيقة، أيا أسياد الكذب! أنتم بحاجة لروما! نعم. كي تتخلصوا منه هو الذي يزعجكم. فهمتُ.» ويضحك بيلاطس وهو ينظر إلى السماء الصافية التي تنحصر كشريط مستطيل فيروزي داكن بين الجدران البيضاء المرمية للفناء.

«قولوا: آية جريمة ارتكبتها ضدّ شرائعكم؟»

«لقد وجدنا أنّه كان يشيع الفوضى في أمّتنا وكان يمنع دفع الجزية لقيصر، مدّعيّاً أنّه المسيح، ملك اليهود.»

يعود بيلاطس ليدنو من يسوع، الكائن وسط الفناء، حيث تركه الجنود مقيداً دون حرّاس، بقدر ما تبدو وداعته جليّة. ويسأله: «هل أنت هو ملك اليهود؟»

«أمن ذاتك تقول هذا، أم آخرون يلحون بذلك؟»

«وفيما يهمني ملكوتك؟ أنا يهودي مثلاً؟ أمّتك ورؤساؤها أسلموك لي كي أحاكمك. ماذا فعلت؟ أنا أعلم أنّك صادق. تكلم. هل حقاً أنت تطالب بالملك؟»

«مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من العالم لكان رجالي وجنودي يجاهدون كي لا يقبض عليّ اليهود. ولكنّ مملكتي ليست من الأرض وأنت تعلم أنّي لا أتطلّع الى السلطة.»

«هذا صحيح، أعلمه وتمّ إبلاغي به. ولكنك لا تنكر أنّك ملك؟»

«أنت تقول. أنا ملك. لهذا أتيتُ إلى العالم: كي أشهد للحقّ. وصديق الحقّ يسمع صوتي.»

«وما هو الحق؟ أنتَ فيلسوف؟ هذا لا جدوى له أمام الموت. مع ذلك فسقراط قد مات.»

«ولكنّ ذلك نفعه في الحياة، إجادة الحياة. وكذلك إجادة الموت. وللدخول إلى الحياة الثانية دون خيانة الفضائل الوطنية.»

«بجوبيتر!» ينظر إليه بيلاطس بإعجاب للحظة، ثمّ يستعيد تهكّمه الشكّاك. يقوم بحركة سأم، ويدير له ظهره، ويرجع إلى اليهود. «لستُ أجد فيه علّة واحدة.»

يهيج الجمع، مذعوراً من أن يفقد فريسته ومشهد العذاب. يصيح: «إنّه متمرّد!»، «إنّه مجذّف!»، «مشجّع للخلاعة!»، «يدفع إلى العصيان!»، «يرفض احترام القيصر!»، «يدّعي بأنّه نبيّ دون أن يكونه!»، «يمارس السحر»، «إنّه شيطان»، «يحرّض الشعب بمذاهبه بتعليمها في كلّ اليهودية، الّتي أتى بها من الجليل وهو يُعلّم»، «الموت له!»، «الموت له!»

«هل هو جليليّ؟ أنتَ جليليّ؟» يعود بيلاطس إلى يسوع: «ألا تسمع اتهاماتهم لك؟ برّئ نفسك.»

ولكن يسوع يصمت.

يفكّر بيلاطس... ويقرّر. «فلتقدّه وحدة مئة إلى هيرودس. وليحاكمه، فهو من رعاياه. أنا أعلم أنّه حقّ رئيس الربع وسأوقع مقدّماً على حكمه. فليأخذ علماً. اذهبوا.»

يسوع محاط مثل شقيّ بمائة جنديّ، يجتاز المدينة من جديد ويلتقي من جديد بيهوذا الاسخريوطيّ الّذي سبق أن التقى به بالقرب من أحد الأسواق.

نسيْتُ أن أقول هذا مِن قبل، بسبب اشمئزازي مِن جلبة الرعاع. نظرة الشفقة ذاتها على الخائن....

الآن أصبح ضربه بالأقدام والعصي أكثر صعوبة، ولكنّ الحجارة والقاذورات لم تتوقّف، وإن كانت الحجارة تصدر أصواتاً فقط على الخوذات ودروع الرومان، فهي تترك آثارها حينما تصيب يسوع، الذي يتقدّم فقط بثوبه، كونه ترك رداءه في جثسيماني.

عند الدخول إلى قصر هيرودس المترف، يرى خُوزي... الذي لا يستطيع النظر إليه، والذي يهرب كي لا يراه في هذه الحالة، مغطياً رأسه بردائه.

ها هو الآن في القاعة، أمام هيرودس. وخلفه الكتّبة والفريسيّون، الذين يشعرون هنا بالراحة، ويدخلون بصفة مشتكين زائفين. يرافقه فقط قائد المئة مع أربعة جنود أمام حاكم الربع.

هذا ينزل عن كرسيّه ويدور حول يسوع فيما هو يسمع اتّهامات أعدائه. يبتسم ويسخر. ثمّ يصطنع شفقة واحتراماً لا يربكان الشهيد، كما لم تكذّره التهكّمات.

«أنتَ عظيم، أنا أعلم. لقد استعلمتُ عنكَ وفرحتُ لكون خُوزي صديقك ومَنّاين تلميذك. أنا... هموم الدولة... ولكنّي كم أرغب أن أقول لك: عظيم... أن أسألك الغفران... نظرة يوحنا.. صوته يتّهماني، وهما دائماً أمامي. أنتَ القدّيس الذي تمحو خطايا العالم. اغفر لي، أيا أيّها المسيح.»

يصمت يسوع.

«لقد سمعتُ اتّهامهم لكَ بأنّك تقفُ ضدّ روما. ولكن ألسْتَ القضيبُ الموعود لضرب آشور؟»

يصمت يسوع.

«قيل لي إنّك تتنبأ عن نهاية الهيكل وأورشليم. ولكن أليس الهيكل أبدياً مثل روح، حيث أرادَه الله الَّذي هو أبديّ؟»

يصمت يسوع.

«هل أنت مجنون؟ هل فقدتَ قدرتك؟ أيسكتك الشيطان؟ هل تخلى عنك؟»

يضحك هيرودس الآن. إنّما بعدها يُصدرُ أمراً. ويجري الخدام محضرين كلباً سلوكيّاً ساقه مكسورة وينبح بشكل محزن، وسائس معتوه يقطر الماء من شعره، ويسيل منه اللعاب، مسخ، ولعبة الخدام.

يفرّ الكتّبة والكهنة وهم يصيحون لانتهاك الحرمات وهم يرون الكلب على نقالة.

هيرودس، زائف وساخر، يشرح: «إنّه المفضل لدى هيروديا. هديّة من روما. كُسِر له ساق أمس وهي تبكي. فلتأمر أن يبرأ. اجترح معجزة.» ينظر إليه يسوع بصرامة ويصمت.

«هل أهنتك. إذاً هذا. إنّهُ إنسان، رغم كونه أكثر قليلاً من بهيمة. أعطه الذكاء، أنت، ذكاء الآب... أليس هذا ما تقوله؟» ويضحك، مهيناً.

نظرة أخرى من يسوع أكثر صرامة وصمت.

«هذا الرجل متعفف جداً وهو مذهب الآن من الاحتقار. أحضروا خمرًا ونساء إلى هنا، وحلّوا وثاقه.»

يُحلّ الوثاق. بينما يجلب عدد كبير من الخدام الجرار والكؤوس، تدخل الراقصات... لا يسترهنّ شيء. هذب من كتّان متعدّد الألوان عند الخصر هو اللباس الوحيد على أجسادهنّ النحيلة من الوسط إلى الأرداف، لا شيء آخر. برونزيّات لأنهنّ أفريقيّات، رشيقات مثل الغزلان الفتية، يبدأن رقصاً صامتاً وخليعاً.

يدفع يسوع الكؤوس ويغلق عينيه دون أن يتكلّم. وبلاط هيرودس يضحكون أمام غيظه.

«خذ أيّها تشاء. عش! تعلّم الحياة!...» يلمح هيرودس.

يبدو يسوع كالتمثال. ذراعه متصلبتان، عيناه مغمضتان، لم يتحرّك حتّى حينما تحتكّ به الراقصات الفاسقات بأجسادهنّ العارية.

«يكفي. عاملتك كإله ولم تتصرّف كإله. عاملتك كإنسان ولم تتصرّف كإنسان. أنت مجنون. أحضروا لباساً أبيضاً. ألبسوه إياه كي يعلم بيلاطس البنطي أنّ حاكم الربع قد حكم عليه بالجنون. يا قائد المئة، ستقول للوالي إنّ هيرودس يقدّم إليه بتواضع احترامه ويبجلّ روما... اذهبوا.»

ويخرج يسوع، مقيداً من جديد، بجلباب من الكتّان يصل إلى ركبتيه فوق ثوبه الأحمر الصوفيّ.

ويعودون إلى بيلاطس.

الآن، عندما تخترق وحدة المائة بعناء الجمع الذي لم يكلّ من الانتظار أمام قصر الوالي -إنّه لمن المستغرب رؤية الجمع الكثير العدد في هذا المكان وفي الجوار، بينما بقيّة المدينة تبدو خالية- يرى يسوع جماعة الرعاة كلّها: أي إسحاق، يوناثان، لاوي، يوسف، إيليا، متياس، يوحنا، سمعان، بنيامين ودانيال، مع مجموعة صغيرة من الجليليين، أتعرف من بينهم على حلفى ويوسف بن حلفى، مع اثنين آخرين لا أعرفهما، ولكن أقول إنّهما يهوديان بسبب تسريحتهما. وإلى أبعد، يرى أيضاً يوحنا الذي انسلّ إلى داخل الرواق شبه مختبئ خلف عمود مع أحد الرومان، أظنه خادماً، فيبتسم لهذا ولهؤلاء... أصدقائه... ولكن ما يكون أصحابه قليلو العدد مع يونا ومناين وخوزي وسط محيط الكراهية الذي يغلي؟...

قائد المئة يحيي بيلاطس البنطي مقدّماً له تقريره.

«هنا أيضاً؟! أوف! نسل ملعون! اجعلوا الرعاع يتقدّمون وقودوا المتهم إلى هنا. هه! أيّ سأم!»

يتوجّه إلى الجمع وهو ما يزال متوقّفاً في منتصف الرواق.

«أيّها العبرانيون اسمعوا. لقد قدّمتم لي هذا الرجل على أنّه محرّض على الاضطرابات. وأنا قد اختبرته أمامكم فلم أجد فيه علّة ممّا تشتكون بها عليه. وهيرودس أيضاً لم يجد شيئاً أكثر منّي. فردّه إلينا. هو لا يستحقّ الموت. روما قد تكلمت. إنّما، وكيلا تستأؤوا من حرمانكم من هذه التسلية، سأعطيكم بالمقابل باراباس. وسأجلد هذا أربعين جلدة. وهذا يكفي.»

«لا! لا! ليس باراباس! ليس باراباس! الموت ليسوع! موتاً رهيباً! أطلق

باراباس واحكم على الناصري.»

«اسمعوا! لقد قلتُ الجَلْدَ. ألا يكفي؟ سأجعله يُجلَدُ إذن! إنه فظيع،
أتعلمون؟ قد يموت بفعل ذلك. ما السوء الذي فعله؟ أنا لا أجد أيّة علة فيه.
وسأحرّره.»

«اصلبه! اصلبه! الموت! أنتَ تحمي المجرمين! أيّها الوثنيّ! أنتَ
شيطان أيضاً!»

يتقدّم الجمع من أسفل صادمين أوّل صفّ من الجنود فيختلّ انتظامهم إذ
لم يستطع هؤلاء استخدام رماحهم. ولكنّ الصفّ الثاني، إذ ينزل درجة، يدير
الرماح ويحرّر رفاقه.

«فليجلد.» يأمر بيلاطس قائد مئة.

«كم جلدة؟»

«بقدر ما يبدو لك... المهمّ أن ننتهي إلى حلّ. أنا سئمتُ، اذهب.»

أربعة جنود يقودون يسوع إلى الباحة التي بعد الفناء. في وسط هذه
الباحة، المبلّطة بالكامل بالرخام الملوّن، عمود مرتفع مماثل لأعمدة الرواق.
وله على ارتفاع ثلاثة أمتار من الأرض تقريباً ذراع حديدية طولها على
الأقل متر تنتهي بحلقة. يربطون فيها يسوع ويده مضمومتان فوق رأسه،
بعد أن جعلوه يخلع ملابسه. لم يحتفظ سوى بسرّوال قصير من الكتّان
ونعليه. يرفعون اليدين المقيّدتين عند القبضتين حتّى الحلقة، لدرجة أنّه، رغم
طول قامته، لم يسند على الأرض سوى أطراف أصابع قدميه... لا بد أنّ هذا
الوضع هو بحدّ ذاته عذاب.

لقد قرأتُ، لستُ أدري أين، أنَّ العمود كان منخفضاً وأنَّ يسوع كان محنياً عليه. ممكن. أمّا أنا فأقول ما أرى.

يقف خلفه جلاّد له قسمات عبريّة جليّة، وأمامه آخر مماثل. إنّهما متسلّحان بسوطيين لهما سبعة سيور جليّة، متّصلة بالمقبض وفي نهايتها مطارق صغيرة من رصاص. وبايقاع كما في تمرين، يشرعان بالضرب. واحد من الأمام، والآخر من الخلف، بحيث إنّ جذع يسوع صار في دوامة من ضربات ولسعات السوطيين. الجنود الأربعة الذين استلموه، جلسوا بلا مبالاة يلعبون النرد مع ثلاثة جنود آخرين انضمّوا إليهم.

وأصوات اللاعبين تتماشى مع إيقاع السوطيين، اللذين يصفران مثل الثعابين ثمّ يرئّان مثل حجارة تلقى على جلد طبل مشدود. يضربان الجسد المسكين المرهف للغاية والأبيض كالعاج العتيق، والذي يصبح مخطّطاً بدايةً بلون ورديّ يزداد قتامة، ثمّ بنفسيّاً، ثمّ يتغطّى بآثار دمويّة منتفخة نيليّة اللون، تنهشم تاركة الدم يسيل في كلّ اتّجاه. يضربان على الأخصّ الصدر والبطن، ولكن لم تسلم الساقان ولا الذراعان ولا حتى الرأس من الضرب، كي لا يبقى جزء من الجلد لا يتعذّب.

ولا أيّ شكوى... ولو لم يكن مربوطاً بالحبال لسقط. ولكنّه لا يسقط ولا يئنّ. فقط بعد وابل من الضربات التي تلقّاها، يتدلّى رأسه على صدره كما لو كان قد أغمي عليه.

«أوهيه! توقّف! يجب أن يُعدَم حيّاً.» يصيح ويتذمّر أحد الجنود.

يتوقّف الجلاّدان ويمسحان عرقهما.

يقولان: «لقد أنهكنا. أعطونا أجراً، لنتمكن من الشرب حتى نستعيد قوانا...»

«هي المشنقة التي أعطيكماها! ولكن خذا...» ويلقي قائد العشرة قطعة نقدية كبيرة لكل من الجلاّدين.

«لقد عملتما كما يجب. إنه يشبه الفسيفساء. تبتو، أتقول إنه كان حقاً هو حبّ ألكسندر؟ إذاً، سنقوم بإعلامه كي يقيم له العزاء. فلنحلّ وثاقه قليلاً.»

يحلّون وثاقه فيسقط يسوع على الأرض كما لو كان ميتاً. يتركونه هناك، راكبين إياه من وقت إلى آخر بأقدامهم المنتعلة كي يروا إن كان يئنّ. ولكنّه يصمت.

«هل مات؟ أمممكن هذا؟ إنه شاب وحرفيّ، كما قيل لي... وكأنّه امرأة رقيقة.»

«سأهتّم أنا بالأمر.» يقول أحد الجنود. ويُجلّسه، مسنداً ظهره إلى العمود. حيث كان، هناك جلطات دموية... ثمّ يمضي إلى عين تسيل تحت الرواق، يملأ حوض ماء، ويفرغه على رأس وجسد يسوع. «هكذا! الماء يفيد الورد.»

يتنهدّ يسوع بعمق ويهمّ بالوقوف، ولكنّه يُبقي عينيه مغمضتين.

«آه! حسناً! هيّا أيّها الظريف! امرأتك تنتظرك!...»

ولكنّ عبثاً يسند يسوع يديه على الأرض محاولاً الوقوف.

«هلم! بسرعة! هل أنت ضعيف؟ هاك الإنعاش.» يسخر جندي آخر.
وبقبضة طبره (سلاح مكوّن من حربة وفأس معاً) يوجّه له ضربات متواترة
على وجهه ويصيب يسوع بين الوجنة اليمنى والأنف حيث يبدأ الدم يسيل.

يفتح يسوع عينيه، ويدير بصره. نظر مغشّى... يحدّق بالجندي الذي
ضربه، ويمسح الدم بيده، ثم يقف بعد جهد كبير.

«ارتدّ ملابسك. ليس من اللائق البقاء هكذا. يا قليل الحياء!»
ويضحكون وهم يتحلّقون حوله.

يطيع دون كلام. إنّما فيما ينحني -وهو وحده يعلم مقدار الألم وهو
ينحني إلى الأرض، مغطّي بالكدمات كما هو حاله، ومع الجراح التي حينما
يتمدّد الجلد تنفتح أكثر، وأخرى تتشكّل بسبب الفقاعات التي تتفزّر- يطيح
أحد الجنود بركلة من قدمه بالثياب ويبعثرها، وكلّ مرة يصل يسوع وهو
يترنّح إلى حيث سقطت، يطيح بها جندي في اتجاه آخر. ويسوع الذي يشعر
بألم حادّ، يتبعها دون أن يقول كلمة فيما يهزأ به الجنود بكلمات بذينة.

أخيراً يتمكّن من ارتداء ملابسه. ويرتدي أيضاً الثوب الأبيض الذي بقي
نظيفاً في ركن. وكأنّه يريد أن يخبئ ثوبه الأحمر البائس الذي كان بالأمس
غاية في الجمال وهو الآن متّسخ وملطّخ بالدم الذي سال في جثّسماني. وقبل
أن يلبس جلبابه القصير على اللحم، يمسح به وجهه المبلّل وينظّفه من الغبار
والبصاق. وهو، المسكين، الوجه المقدّس، يبدو نظيفاً، عليه فقط آثار ازرقاق
وجروح صغيرة. يعيد ترتيب شعره الأشعث، ولحيته، لحاجة فطريّة في أن
يكون مرتّباً في شخصه.

ثمَّ يقرّص تحت الشمس، لأنَّ يسوعي يرتجف... تبدأ الحمّى بالتسلّل إليه برعشاتها، ويشعر كذلك بالضعف الناتج عن فقدان الدم، الصيام، ومن المسير الطويل.

تُقَيّد يداه من جديد، ويرجع الحبل ليحزّ حيث سوار أحمر من الجلد المسلوخ.

«والآن؟ ماذا نفعل؟ أنا أشعر بالملل!»

«انتظر، اليهود يريدون ملكاً، سنعطيه إياه. هذا...» يقول أحد الجنود.

يجري خارجاً، بالتأكيد إلى باحة خلفيّة، ويرجع ومعه حزمة من أغصان الزعرور البرّي. ما تزال ليّنة لأنّ الربيع يحافظ على ليونة الأغصان، ولكنها قاسية بأشواكها الطويلة والحادة. وبخناجرهم ينزعون الأوراق والزهورات، يثنون الفروع على شكل دائرة ويغرزونها في الرأس المسكين. ولكن الإكليل الهمجيّ ينزل إلى عنقه.

«غير مناسب. اجعله أضيق. انزعه منه.»

يرفعون الإكليل خادشين الخدين، موشكين أن يعموه، منتزعين شعره وهم يقومون بهذا. يضيّقونه... الآن هو ضيق جدّاً ورغم غرزه بقوة مخترقاً بأشواكه الرأس، إلّا أنّه مهّدّ بالسقوط. فيرفعونه من جديد، منتزعين معه شعرات أخرى. يعدّلونه من جديد. الآن، هو مناسب. من الأمام ثلاثة شرائط شائكة. ومن الخلف حيث تتشابك نهايات الأغصان، عقدة حقيقيّة من الأشواك التي تدخل في الرقبة.

«هل ترى كم أنت جيّد؟ برونز طبيعي وياقوت حقيقيّ. انظر لنفسك أيا أيّها المَلِك في درعي.» يدمدم ذاك الَّذي أوحى بفكرة التعذيب.

«الإكليل لا يكفي كي يكون مَلِكاً. يجب الأرجوان والصولجان. في الاصطبل قصبة وفي القمامة خرقة حمراء. اجلبهما يا كورنيليوس.»

وحينما يحصلون عليهما، يضعون الخرقة القذرة الحمراء على كتفي يسوع. وقبل أن يضعوا في يديه القصبة، يضربونه على رأسه وهم ينحنون أمامه محيَّين: «السلام لك يا مَلِك اليهود.» ويتلوّون من الضحك.

يتركهم يسوع يفعلون ما يشاؤون، يتركهم يُجلسونه على "العرش" -حوض مقلوب، يستخدم بالتأكيد لشرب الجياد- يتركهم يضربونه، يهزؤون منه، دون أن ينطق بكلمة. ينظر إليهم فقط... نظرة وداعة، وألم مبرّح حتّى إنني لم أتحمّلها دون الشعور بجرح في قلبي.

لم يتوقّف الجنود عن الهزء إلّا حينما يسمعون صوت أحد القادة الأجشّ وهو يأمرهم بنقل المذنب إلى بيلاطس.

المذنب! بما أذنب؟

يصحبون يسوع إلى الفناء المغطّى الآن بخباء ثمين بسبب الشمس. وهو ما يزال بالإكليل والقصبة وثوب الأرجوان.

«تقدّم كي أعرضك على الشعب.»

ورغم انكسار يسوع، ينتصب بهيبة. آه! يا له حقّاً من مَلِك!

«اسمعوا أيّها العبرانيّون. الرجل هنا. وقد عاقبته. والآن اتركوه

يمضي.»

«لا! لا! نريد أن نراه، أخرجه! ولنرَ المجدّف.»

«قودوه إلى الخارج. وحاذروا ألا يأخذوه.»

وفيما يخرج يسوع إلى الرواق ويظهر داخل مربع الجنود، يشير إليه بيلاطس البنطي ويقول: «هو ذا الرجل. ملككم. ألا يكفي هذا بعد؟»

إنّ شمس اليوم القائظ، وهي الآن عموديّة تقريباً حيث إنّ الساعة هي بين الثالثة والسادسة، تنير وتبرز النظرات والوجوه. أهؤلاء بشر؟ لا، بل ضباع مسعورة. يصيحون، يظهرون قبضاتهم، يطلبون الموت...

يسوع واقف. أوكد لكم أنّه لم يكن بمثل هذا النبل كما هو الآن، حتّى وهو يجترح المعجزات الأكثر قدرة. نبل الألم. إنّما هو إلهيّ للغاية حتّى يكفي وسمه باسم الله. ولكن لقول هذا الاسم يجب على الأقلّ أن يكون المرء من البشر. وأورشليم ليس فيها بشر اليوم. ليس فيها سوى شياطين.

يدير يسوع بصره صوب الجموع، يبحث، فيجد وسط هذا البحر من الوجوه الحاقدة، الوجوه الصديقة... كم؟ أقلّ من عشرين صديقاً وسط آلاف الأعداء... ويحني رأسه، متأثراً بهذا التخلّي. تسقط دمعة... وأخرى... وأخرى... رؤية هذه الدموع لم تثر الشفقة، بل كراهية أكثر حنقاً.

يُعاد إلى الفناء.

«وإذا؟ اتركوه يمضي. هذا عدل.»

«لا. الموت! اصلبه.»

«سأعطيكُم باراباس.»

«لا. المسيح!»

«إِذَا تَكْفَلُوا أَنْتُمْ بِذَلِكَ. اصْلُبُوهُ عَلَى مَسْئُولِيَّتِكُمْ، لِأَنِّي لَا أَجِدُ فِيهِ عِلَّةَ
لأُصْلِبُهُ.»

«ادَّعَى أَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ. وَبِحَسَبِ نَامُوسِنَا يَسْتَوْجِبُ الْمَوْتَ مَنْ يَرْتَكِبُ مِثْلَ
هَذَا التَّجْدِيفِ.»

يَفْكَرُ بِيَلَاطُسَ. يَدْخُلُ ثَانِيَةً، يَجْلِسُ عَلَى عَرْشِهِ الصَّغِيرِ. يَضَعُ يَدَهُ عَلَى
جَبْهَتِهِ، وَكَوَعَهُ عَلَى رُكْبَتِهِ، وَيَتَفَحَّصُ يَسُوعَ.

«اقْتَرِبْ.» يَقُولُ.

يَذْهَبُ يَسُوعُ حَتَّى الْمَنْصَةِ.

«هَلْ هَذَا صَحِيحٌ؟» أَجِبُ.

يَصْمُتُ يَسُوعُ.

«مِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ؟ مَنْ هُوَ اللَّهُ؟»

«هُوَ الْكَلِّ.»

«وَتَمَّ؟ مَاذَا يَعْنِي الْكَلِّ؟ مَاذَا يَكُونُ الْكَلِّ لِشَخْصٍ يَمُوتُ؟ أَنْتَ مَجْنُونٌ...»

اللَّهُ غَيْرُ مَوْجُودٍ. أَنَا مَوْجُودٌ.»

يَصْمُتُ يَسُوعُ. لَقَدْ أَطْلَقَ الْكَلِمَةَ الْعَظِيمَةَ ثُمَّ يَعُودُ لِيُغْلِفَهُ الصَّمْتُ.

«يَا بَنْطِيَّ: مُعْتَقَّةٌ كَلُودِيَا بَرُوكُولَا تَسْتَأْذِنُ فِي الْمَثُولِ. لَدَيْهَا مَكْتُوبٌ

لَكَ.»

«يَا لِلْآلِهَةِ! النِّسَاءُ أَيْضاً الْآنَ! فَلَئَاتِ.»

تدخل إحدى الرومانيّات وتركع كي تقدّم له لوحاً من الشمع. المفروض أنّه توسّل من بروكولا لزوجها بالأّ يدين يسوع. تنسحب المرأة وهي تتقهقر بينما بيلاطس يقرأ.

«أنصح بتجنّب قتلك. هل أنت حقّاً أعظم من عرّاف؟ أنت تخيفني.»
يصمت يسوع.

«ولكن أما تعلم أنّ لي سلطاناً أن أطلقك أو أن أصّلبك؟»
«ما كان لك عليّ من سلطان، لو لم تكن قد أعطيتّه من فوق. لذلك فالّذي أسلمني إليك له خطيئة أعظم.»
«مَن هو؟ إلّك؟ أنا خائف...»
يصمت يسوع.

بيلاطس على جمر: يريد ولا يريد. يخشى عقاب الله، ويخاف روما وانتقام اليهود. يستولي عليه للحظة الخوف من الله. يذهب إلى مقدّمة الفناء ويقول بصوت كالرعد: «ليس مذنباً.»

«إن قلتَ هذا، فأنتَ عدوّ لقيصر. فالّذي ينصّب نفسه ملكاً هو عدوّه. أنتَ تريد أن تطلق الناصريّ. نحن سنخبر القيصر.»
يستولي على بيلاطس خوف الإنسان.

«خلاصة القول، أنتم تريدون موته؟ فليكن! ولكن لا يكن دم هذا البار على يديّ.» ويطلب إحضار حوض، ويغسل يديه في محضر الشعب، الّذي

يبدو وقد استولى عليه الهياج ويصيح: «علينا، علينا دمه، علينا وعلى أولادنا. نحن لا نخافه. إلى الصليب! إلى الصليب!»

يرجع بيلاطس البنطيّ إلى عرشه، ينادي قائد المئة لونجين وأحد العبيد. يُحضر العبد مائدة يسند إليها لافتة ليُجعل عليها كتابة: «يسوع الناصريّ، ملك اليهود.» ويُريها للشعب.

«لا. ليس هكذا. ليس ملك اليهود، بل هو قال إنّه ملك اليهود.» هكذا يصيح كثيرون.

«ما كتبته قد كتبته.» يقول بيلاطس بقسوة، ويقف، ويمدّ الكفين إلى الأمام وإلى أسفل ويأمر: «فليصلب. أيّها الجنديّ، اذهب وأعدّ الصليب.» وينزل دون أن يلتفت إلى الجمع الهائج، ولا إلى المدان الشاحب. يخرج من الفناء...

يبقى يسوع وسط الفناء تحت حراسة الجنود، منتظراً الصليب.

عشيّة 07 / 03 / 1944

لِمَنْ يمكنني التعبير عن ألمي؟ ولا لأيّ شخص من هذه الأرض، ذلك أنّه ليس من آلام هذه الأرض ولن يدركه أحد. هو ألم لذيق ولذّة أليمة. أودّ التألّم عشر مرّات، بل مائة مرّة أكثر. ليس لأيّ شيء من العالم أريد عدم التألّم بهذا. ولكنّ هذا لا يمنع أنّي أتألّم كمن يُخنق، كمن يُضغط عليه في ملزمة، يُحرق في فرن، يُطعن حتّى القلب.

لو كان مسموحاً لي التحرك، الانعزال عن العالم كله والتمكّن، في الحركة والنشيد، من منح العزاء لشعوري، بما أنّه شجن شعور، لكنّ نلتُ العزاء. ولكنني كيسوع على الصليب. لم تُعط لي الحركة ولا الانعزال وعليّ أن أزمّ شفّتي كي لا أدع الفضوليين يرون نزاعي اللذيذ. زمّ الشفتين، ليس طريقة كلام! عليّ بذل مجهود كبير للسيطرة على الاندفاع الذي يحملني على إطلاق صرخة الفرح والألم فائق الطبيعة الذي يهيج في داخلي ويصعد بحدّة لهيب أو قاذف ماء.

عينا يسوع اللتان يغشاهما الألم: عين الإنسان، تجذباني مثل المغناطيس. إنّهُ في مواجهتي ينظر إليّ وهو واقف على درجات دار الولاية، برأسه المكلّل، ويديه المقيّدتين على لباس المجانين الأبيض الذي أرادوا به أن يسخروا منه، وعلى العكس فقد ألبسوه لباس البراءة اللائق بالبريء. هو لا يتكلّم. إنّما كلّ شيء فيه يتكلّم ويدعوني ويطلب منّي.

ماذا يطلب؟ أن أحبه. هذا أعلمه وأعطيه له لدرجة أنّني أشعر بالموت كما لو أنّ خنجراً في صدري. ولكنّه يطلب شيئاً آخر لا أدركه، وأريد أن أفهمه. هذا هو عذابي. أريد أن أعطيه كلّ ما يمكن أن يرغبه حتّى إن كان عليّ أن أموت من الألم. ولكنني لا أنجح.

وجهه المتألّم يجذبني ويفتنني. إنّهُ بهيّ عندما يكون المعلّم أو المسيح القائم. ولكنّ هذه الرؤية تمنحني فقط الفرح، بينما هذه الأخرى تمنحني حبّاً عميقاً، أكثر عمقاً بكثير من حبّ أمّ لابنها المتألّم.

نعم، أفهم ذلك. الحبّ الشفوق هو الصلب بالنسبة للمخلوق الذي يتبع المعلّم حتّى العذاب الأخير. إنّهُ حبّ استبداديّ يمنع عنّا كلّ تفكير ليس الذي

لألمه. نحن لسنا لأنفسنا. نحن نعيش لكي نعزي عذابه وعذابه هو عذابنا الذي يقتلنا، ليس فقط مجازياً. ومع ذلك كلّ دمة ينتزعها منّا الألم هي ثمينة أكثر من لؤلؤة وكلّ حزن نستوعبه يشبه حزنه وهو أكثر اشتهاً وعشقاً من كنز.

أبت لقد دُفعتُ لكي أكتب ما أختبره. ولكن لا جدوى منه. أكثر من كلّ نشوة روحية يمكن لله أن يمنحني إياها، ستظلّ نشوة حزنه دائماً هي التي تحمل نفسي إلى السماء السابعة. الموت حبّاً وأنا أنظر إلى يسوعي الذي يتألم، أجده أجمل موت.

تأمل حول سلوك بيلاطس تجاه يسوع

1945 / 03 / 10

يقول يسوع:

«أريد أن أجعلك تتأملين الفقرة التي تتعلق بلقائي المتكرّر مع بيلاطس. يوحنا، كونه دائماً حاضراً أو على الأقل قريباً جداً، هو الشاهد والراوي الأدق. يروي أنّ لدى خروجي من بيت قيافا أُخِذْتُ إلى دار الولاية. ويحدّد "في الصباح الباكر" بالفعل، قد رأيت ذلك، كان النهار بالكاد قد بدأ. ويحدّد أيضاً: "هم [اليهود] لم يدخلوا كيلاً يتنجّسوا ومن أجل أكل الفصح". مراؤون، كما هم على الدوام، كانوا يجدون خطراً من التنجّس حينما تطأ أقدامهم تراب بيت وثنيّ، ولكنهم لم يكونوا يجدون في قتل بريء خطيئة. وبنفس راضية عن جريمتهم المرتكبة، استطاعوا تذوّق الفصح بشكل أفضل.

لهم أيضاً الآن أعداد كبيرة من المقتدين بهم. كل الذين يسيئون التصرف داخلياً، وخارجياً يجاهرون بالاحترام للدين وبمحبة الله، يشبهونهم. شكليات، شكليات ولا من دين حق! إنهم يثيرون في الاشمئزاز والسخط.

إذ لم يدخل اليهود عند بيلاطس، خرج هو لسمع ماذا لدى الجمع الذي كان يصرخ، وفهم بخبرته في القيادة والحكم بنظرة واحدة أن المذنب ليس أنا، بل هو هذا الشعب السكران بالكراهية. لقاء نظرتينا كان قراءة متبادلة لقلبين. لقد أدركت من كان هذا الرجل وهو أدرك من كنت. أنا أشفت عليه لأنه كان إنساناً ضعيفاً. وهو أشفق عليّ لأنني كنت بريئاً. حاول أن ينقذني منذ اللحظة الأولى. ولأن روما كانت هي المنوطة الوحيدة والمحتفظة بحق ممارسة العدالة تجاه الأشرار، جرب أن ينقذني بقوله: "احكموا عليه بحسب ناموسكم."

اليهود، المراءون للمرة الثانية، لم يكونوا يريدون إصدار الحكم. حقاً كان لروما حق القضاء، ولكن حينما رُجم استفانوس مثلاً، كانت روما ما تزال تحكم أورشليم، ومع ذلك حكموا عليه ونفذوا الموت دون الاكتراث لروما. بالنسبة لي، بالنسبة إلى الذي لم يكنوا له المحبة بل الكراهية والخوف -لم يكونوا يريدون الإيمان أنني مَسِيّا، ولكنهم لم يكونوا يريدون قتلي جسدياً في حال كنت كذلك- فتصرفوا بطريقة مختلفة واتهموني بأنني مثير للشغب ضد سلطة روما، أنتم تقولون عنه: "متمرداً"، للحصول على إدانة لي من روما. كانوا قد اتهموني في مجلسهم الدنيء، مرات عديدة خلال السنوات الثلاث لرسالتي، بالمجذّف والنبي الكذاب، ولكوني كذلك كان ينبغي أن أُرجم أو أُقتل. أمّا الآن كي لا يتموا الجريمة جسدياً بحيث يشعرون غريزياً أنهم يعاقبون عليها، جعلوا روما تتمها باتّهامي بأنني شرير ومتمرد. فليس أسهل

مِن اتّهام بريء حينما يكون الشعب ضالاً والرؤساء أبالسة كي ينفّسوا عن هواهم في الشراسة والاعتصاب، وإزاحة مَنْ يمثّل لهم عائقاً وإدانة.

لقد عدنا إلى زمن ذاك العهد. فالعالم، مِن وقت لآخر، ودائماً بعد تبني أفكار منحرفة، ينفجر في مظاهر الانحرافات هذه. وكما لو كان الجمع في حالة حمل، بعد أن غدّى وحشه في أحشائه بمذاهب الضواري، ينجبه كي يفترس، أولاً الذين هم الأفضل ثم يفترس ذاته.

يعود بيلاطس ليدخل دار الولاية ويدعوني، ويسألني. كان قد سمع عني. وكان من بين قادة المئة التابعين له مَنْ يردّدون اسمي بمحبّة معترفة بالجميل، بدموع في العيون وابتسامة في القلب، يتكلّمون عني كما عن فاعل خير. وفي تقاريرهم للحاكم، إذ يُسألون عن هذا النبيّ الذي كان يجذب الجماهير إليه ويكرز بمذهب جديد يجري الكلام فيه عن ملكوت غريب، ملكوت لا يوافق منطقاً وثنياً، فكان جوابهم دائماً أنني رجل وديع، صالح لا يبحث عن أمجاد هذه الأرض، وكان يغرس في الأذهان ويمارس احترام وطاعة المسؤولين. إنهم أكثر إخلاصاً من الإسرائيليين الذين يرون الحقيقة ويتجاوزونها. في الأحد الماضي، إذ لفتت انتباهه صيحات الجمهور، تقدّم على الطريق، ورأى مرور رجل غير مسلح على جحش وهو يبارك، يحيط به أطفال ونساء. وأدرك أنّه لا يمكن أن يكون هناك خطر على روما من ذلك الرجل. فأراد أن يعرف إن كنتُ ملكاً. في شكّه الوثنيّ المتهكّم، كان يريد أن يضحك قليلاً على ذلك الملك الذي يعتلي حماراً، وحاشيته أطفال حفاة، ونساء مبتسمات، ورجال من الشعب، يضحك من هذه المَلَكِيّة التي منذ ثلاث سنوات تركز بعدم الانجذاب إلى الثراء والسلطة، ولا تتكلّم عن أيّة غزوات غير غزوات الروح والنفس. وما هي النفس بالنسبة إلى وثنيّ؟ فحتّى آلهتهم

ليس لها نفس. فهل يمكن أن تكون للإنسان؟ والآن أيضاً هذا الملك بلا تاج، ولا قصر ولا بلاط ولا جنود، وهو يردّد أنّ ملكوته ليس من هذا العالم. حقّاً ليس هناك وزير واحد أو أيّ مجموعة تقف لتدافع عن ملكها وتنتزعه من أعدائه. أخذ بيلاطس الجالس على كرسيه، يتفحصني لأنني لغز بالنسبة إليه. لو كان أراح نفسه من الهموم البشريّة، من كبرياء منصبه، من أخطاء الوثنيّة، لأدرك على الفور من أكون. ولكن كيف يمكن للنور أن يلج حيث الكثير من الأشياء تسدّ الفتحات لتمنعه من الدخول؟

هكذا هو الأمر دائماً، يا أبنائي. حتّى الآن. كيف يمكن لله ونوره أن يدخل حيث لم يعد مكان لهما، وحيث الأبواب والنوافذ موصدة ومحصّنة بالكبرياء، بالبشريّة، بالرديلة، بالربا، بكثير وكثير من الحراس في خدمة الشيطان ضدّ الله.

لم يتمكّن بيلاطس من فهم ما هو ملكوتي. وما هو أكثر إيلاماً، أنّه لم يسألني لأشرح له. وفي دعوتي له لمعرفة الحقّ، هو الوثني الجامح، يجيب: "ما هو الحقّ؟" وأهمّل السؤال بهزّ كتفيه.

آه! أبنائي! يا أبنائي! آه! بيلاطس الزمن الحالي بالنسبة لي! أنتم أيضاً، مثل بيلاطس البنطيّ، تهملون الأسئلة الأكثر حيويّة هازين أكتافكم. تبدو لكم غير ذات نفع، عفا عليها الزمن. ما هو الحقّ؟ أهو المال؟ لا. هو النساء؟ لا. السلطة؟ لا. الصحة الجسديّة؟ لا. المجد البشريّ؟ لا. لذا فليهمّل، فهو لا يستحقّ أن تجروا وراء وهم. مال، نساء، سلطة، صحّة، رفاهية، مجد، تلكم أشياء محسوسة، نافعة، تُحبّ ويُبلّغ إليها بكلّ السبل. هكذا تفكّرون. وأسوأ من عيسو، تبادلون الخيرات الأبديّة بغذاء فظ يؤدي صحتكم الجسديّة ويلحق

الضرر بخلاصكم الأبدى. لماذا لا تلحون في السؤال: "ما هو الحق؟" هو، الحق، لا يطلب سوى أن يُعرّفكم عن نفسه كي يُطلعكم على مضمونه. هو أمامكم كما أمام بيلاطس، وينظر إليكم بعينيّ حبّ متضرّع، مناشداً إياكم: "اسألني، وسأعلمك". أترين كيف أنظر إلى بيلاطس؟ هكذا أنظر إليكم جميعاً. وإذا كنتُ أنظر إلى مَنْ يحبّني ويطلب كلامي نظرة محبة، فإنّي أنظر نظرات محبة متألمة لمن لا يحبّني، لا يبحث عني، لا يسمعي. ولكن بمحبة، دائماً بمحبة، لأنّ المحبة هي طبيعتي.

بيلاطس يتركني حيث أنا دون أن يسألني المزيد، ويذهب إلى الأشرار الذين يتكلمون بشكل أقوى ويفرضون أنفسهم بعنفهم. ويستمع إليهم، هذا التعس الذي لم يسمعي ورفض دعوتي لمعرفة الحق بهزّ كتفيه. يسمع الأكذوبة. الوثنيّة، مهما كان شكلها، تميل دائماً إلى احترام وقبول الكذب، مهما كان. والكذبة التي يقبلها ضعيف، تقود الضعيف إلى الجريمة. حينئذ بيلاطس، وهو على حافة الجريمة، ما زال يريد أن ينقذني مرّة ومرّتين. وهو هنا يرسلني إلى هيرودس. إنّهُ يعلم جيّداً أن المَلِك المخادع، المتذبذب بين روما وشعبه، سيتصرّف بطريقة لا يجرح بها روما ولا يصطدم بالشعب اليهودي. ولكن مثل كلّ الضعفاء، يؤخّر لساعات القرار الذي لا يشعر أنه قادر على أخذه، آملاً أن يهدأ الهياج.

قلتُ لكم هذا: "فليكن كلامكم: نعم، نعم؛ لا، لا". أمّا هو فلم يسمع به، ولو أنّ أحداً ردّده على مسمعه، لرفع كتفيه كالمعتاد. للانتصار في هذا العالم، لنيل الأمجاد والمكاسب، يجب معرفة جعل النعم: لا، أو من اللا: نعم، حسب ما ينصح به الحسّ السليم (أو الحسّ البشريّ). كم، كم من بيلاطس في القرن العشرين! أين هم أبطال المسيحيّة الذين كانوا يقولون نعم، دوماً نعم

لِلْحَقِّ وَمِنْ أَجْلِ الْحَقِّ، وَلَا، دوماً لَا لِلْكَذِبِ؟ أَيْنَ هُمُ الْأَبْطَالُ الَّذِي يَعْرِفُونَ
مُوَاجَهَةَ الْخَطَرِ وَالْأَحْدَاثَ بِقُوَّةِ الْفُؤَادِ وَبِنَشَاطِ مَشْرِقِ وَبَلَا تَأْجِيلٍ، إِذْ يَجِبُ
إِتِمَامُ الْخَيْرِ فِي الْحَالِ وَالْهَرُوبِ مِنَ الشَّرِّ فِي الْحَالِ بِدُونِ "لَكِنْ" أَوْ "لَوْ"؟

وَبَعْدَ رَجُوعِي مِنَ عِنْدِ هِيرُودَسَ، هِيَ ذِي تَسْوِيَةٍ جَدِيدَةٍ مِنَ بِيْلَاطُسَ:
الْجُلْدُ. وَمَا الَّذِي كَانَ يَأْمَلُهُ؟ أَمَا كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ الْجَمْعَ هُوَ الْوَحْشُ الَّذِي يَصْبَحُ
أَكْثَرَ وَحْشِيَّةً حِينَمَا يَبْدَأُ بِرُؤْيَا الدَّمِ؟ وَلَكِنْ كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَتَحَطَّمُ كَمَا أَكْفَرُ عَنْ
خَطَايَاكُمْ الْجَسَدِيَّةِ. وَتَحَطَّمْتُ. مَا مِنْ جُزْءٍ مِنْ جَسَدِي لَمْ يُضْرَبْ. أَنَا الرَّجُلُ
الَّذِي تَكَلَّمَ عَنْهُ إِشْعِيَاءُ. وَيُضَافُ إِلَى الْعِقَابِ الْمَأْمُورِ بِهِ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِهِ، إِنَّمَا
الْمُبْتَكِرُ مِنَ قَسْوَةِ الْبَشَرِ، الْأَشْوَاكُ.

هَلْ تَرَوْنَهُ أَيُّهَا الْبَشَرُ، مَخْلَصَكُمْ، مَلِكَكُمْ، الْمَكْلَلُ بِالْأَلَامِ مِنْ أَجْلِ تَحْرِيرِ
رُؤُوسِكُمْ مِنْ أَخْطَاءَ كَثِيرَةٍ تَخْتَمِرُ فِيهَا؟ هَلْ فَكَّرْتُمْ فِي الْأَلَمِ الَّذِي أَصَابَ
رَأْسِي الْبَرِيءَ كَمَا يَكْفُرُ عَنْكُمْ، عَنْ أَخْطَاءِ أَفْكَارِكُمْ الَّتِي تَزْدَادُ ضَرَاوَةً عَلَى
الدَّوَامِ وَالَّتِي تَتَحَوَّلُ إِلَى أَفْعَالٍ؟ أَنْتُمْ الَّذِينَ تَهِينُونَ أَنْفُسَكُمْ حَتَّى عِنْدَمَا لَا يَكُونُ
هُنَاكَ مِنْ دَاعٍ لَذَلِكَ، انْظُرُوا إِلَى الْمَلِكِ الْمُهَانَ، وَهُوَ اللَّهُ، بِرَدَاءِ السَّخْرِيَّةِ
الْقَرْمَزِيِّ الْمَمْرُوقِ، مَعَ صَوْلْجَانِ الْقَصَبِ وَتَاجِ الشُّوكِ. كَانَ يَحْتَضِرُ وَمَعَ ذَلِكَ
كَانُوا يَصْفَعُونَهُ بَعْدَ بَأْيَادِيهِمْ وَبِسَخْرِيَّاتِهِمْ. وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ نَحْوَهُ بِالشَّفَقَةِ.
وَكَالْيَهُودَ، اسْتَمَرَّيْتُمْ فِي إِظْهَارِ قَبْضَاتِكُمْ لِي وَالصَّرَاحُ: "اُخْرُجْ! اُخْرُجْ! لَيْسَ
لَنَا إِلَهٌ غَيْرُ قَيْصَرَ." أَيَا الْوَتْنِيِّينَ الَّذِينَ لَا تَعْبُدُونَ اللَّهَ، بَلْ أَنْفُسَكُمْ وَمَنْ
كَانَ أَكْثَرَ سُلْطَاناً مِنْ بَيْنِكُمْ؟ أَنْتُمْ لَا تَقْبَلُونَ بَابْنَ اللَّهَ. فَهُوَ لَا يُسَاعِدُكُمْ فِي
جَرَائِمِكُمْ. الشَّيْطَانُ هُوَ الْأَكْثَرُ عَوْناً. لِذَلِكَ تَفْضَلُونَ الشَّيْطَانَ. وَتَخَافُونَ مِنْ
ابْنِ الْإِنْسَانِ، مِثْلَ بِيْلَاطُسَ. وَعِنْدَمَا تَشْعُرُونَ بِسَيِّطَرَتِهِ عَلَيْكُمْ بِسُلْطَانِهِ، وَيَهْجِجُ
فِيكُمْ صَوْتَ الضَّمِيرِ الَّذِي يُؤَنِّبُكُمْ بِاسْمِهِ، تَسْأَلُونَ كَمَا بِيْلَاطُسُ: "مَنْ أَنْتَ؟"

مَنْ أَكُونُ، أَنْتُمْ تَعْرِفُونَ. حَتَّى الَّذِينَ يَنْكُرُونَنِي يَعْرِفُونَ مَا أَنَا وَمَنْ أَكُونُ. لَا تَكْذِبُوا. عَشْرُونَ قَرْنًا تَحِيطُ بِي وَتَسْلُطُ النُّورُ عَلَى مَنْ أَكُونُ وَتُعَرِّفُكُمْ عَلَى مَعْجَزَاتِي. إِنَّ بِيْلَاطُسَ هُوَ الْأَكْثَرُ اسْتِحْقَاقًا لِلْمَغْفِرَةِ. لَا أَنْتُمْ، يَا مَنْ حَظِيتُمْ بِمِيرَاثِ عَشْرِينَ قَرْنًا مِنَ الْمَسِيحِيَّةِ لِدَعْمِ إِيْمَانِكُمْ أَوْ لَتَرْسِيخِهِ فِيكُمْ، وَأَنْتُمْ لَا تَرِيدُونَ مَعْرِفَةَ شَيْءٍ. وَمَعَ ذَلِكَ كُنْتُ مَعَ بِيْلَاطُسَ أَكْثَرَ صَرَامَةً مِمَّا أَنَا مَعَكُمْ. لَمْ أَجِبْهُ. أَمَّا مَعَكُمْ فَأَتَكَلَّمُ، وَرَغْمَ ذَلِكَ، لَا أَنْجَحُ فِي إِقْنَاعِكُمْ أَنَّي أَنَا هُوَ، الَّذِي عَلَيْكُمْ وَاجِبُ عِبَادَتِي وَطَاعَتِي. حَتَّى الْآنَ أَنْتُمْ تَتَّهَمُونَنِي أَنَّي أَنَا بِذَاتِي سَبَبُ انْهِيَارِي فِيكُمْ، لِأَنَّي لَا أَسْمَعُكُمْ. تَقُولُونَ إِنَّكُمْ تَفْقَدُونَ الْإِيْمَانَ بِسَبَبِ ذَلِكَ. آه! كَاذِبُونَ! أَيْنَ هُوَ إِيْمَانُكُمْ؟ أَيْنَ هِيَ مَحَبَّتُكُمْ؟ مَتَى تُصَلُّونَ وَتَعِيشُونَ بِإِيْمَانٍ وَمَحَبَّةٍ؟ هَلْ أَنْتُمْ عِظْمَاءُ؟ تَذَكَّرُوا أَنَّكُمْ هَكَذَا لِأَنَّي أَنَا سَمَحْتُ بِهِ. هَلْ أَنْتُمْ مَجْهُولُونَ وَسَطُ الْجَمْعِ؟ تَذَكَّرُوا أَنَّ لَا إِلَهَ غَيْرِي. وَلَيْسَ أَحَدٌ أَعْظَمَ مِنِّي وَيَتَقَدَّمَنِي. أَعْطُونِي إِذَا تَعَبَّدَ الْمَحَبَّةَ هَذَا الَّذِي يَعُودُ إِلَيَّ وَأَنَا سَأَسْمَعُكُمْ، لِأَنَّكُمْ لَا تَعُودُونَ أَبْنَاءَ زَنَى، بَلْ أَبْنَاءَ اللَّهِ.

وَهَا هِيَ آخِرُ مَحَاوَلَاتِ بِيْلَاطُسَ لِإِنْقَازِ حَيَاتِي، بِإِفْتِرَاضِهِ إِمْكَانِيَّةَ إِنْقَازِهَا بِالْجُلْدِ عَدِيمِ الرَّحْمَةِ وَبِغَيْرِ حُدُودٍ. يَقْدِّمَنِي لِلْجَمْعِ: "هَذَا الرَّجُلُ!" لَقَدْ أَثَّرَتْ فِيهِ هُوَ شَفَقَةُ بَشَرِيَّةٍ. وَهُوَ يَرْجُو شَفَقَةَ الْجُمْهُورِ. وَلَكِنْ أَمَامَ الْقِسْوَةِ الْمَقَاوِمَةِ وَالتَّهْدِيدِ الْمُتَزَايِدِ، لَا يَجِدُ بِالنَّاتِجَةِ الْقِيَامَ بِعَمَلٍ عَادِلٍ بِشَكْلِ سَامٍ، وَصَالِحٍ، وَالْقَوْلِ: "إِنَّنِّي أَطْلُقُهُ لِأَنَّهُ بَرِيءٌ". أَنْتُمْ مُذْنِبُونَ، وَإِنْ لَمْ تَتَفَرَّقُوا، سَتَعْرِفُونَ مَدَى صَرَامَةِ رُومًا". هَذَا مَا كَانَ يَنْبَغِي لَهُ قَوْلُهُ لَوْ كَانَ بَارًّا، دُونَ أَنْ يُقِيمَ حَسَابًا لِلشَّرِّ الَّذِي سَيَعُودُ عَلَيْهِ نَتِيجَةً لِذَلِكَ.

بيلاطس ليس صالحاً بحقّ، لونجين الأقلّ سلطة من الحاكم وأقلّ حماية، هو الصالح، ففي وسط الطريق، وهو محاط بقلة من الجنود وأعداد كبيرة من الأعداء، يتجاسر ويدافع عنيّ، يساعدني، يمنحني استراحة، يشدّد من عزيمتي مع النساء التقيّات، ويقدم لي معونة من القيروانيّ، وأخيراً أن تكون أمّي عند أقدام الصليب. ذاك كان بطل البرّ وأصبح هكذا بطلاً للمسيح.

اعلموا أيّها البشر، المهتمّون فقط بمصلحتكم المادّية، أنّ الله يتدخّل حتّى في احتياجاتكم المادّية حينما يراكم أوفياء للبرّ الذي هو انبثاق من الله. أكافئ دائماً من يتصرّف باستقامة. وأدافع عمّن يدافع عنيّ. أحبّه وأعينه. أنا هو دائماً من قال: "من سيعطي كأس ماء باسمي لن يضيع أجره". وللذي يعطيني المحبّة، الماء الذي يروي شفّتي كشهيد إلهيّ، أعطي نفسي، وبالتالي الحماية والبركة.»

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

19- (يهودا الاسخريوطي بعد خيانتة)

31 / 03 / 1944 يوم جمعة الآلام، الساعة 2 صباحاً.

ها هي رؤياي الأكثر إيلاماً لهذه الساعات الأولى ليوم جمعة الآلام. إنها تحضرني فيما كنت أسرد ساعات أسي مريم: كنت أفكر أنّ تمضية الليلة التي تسبق الشهادة برفقة عذراء الآلام السبعة هي أفضل تحضير للشهادة.

أرى يهوذا. إنه بمفرده. في لباس أصفر فاتح وشريط أحمر عند الوسط. محذري الداخلي ينبّهني أنّه قد تمّ القبض على يسوع منذ وقت قصير، وأنّ يهوذا الذي هرب مباشرة بعد ذلك، هو الآن فريسة أفكار متناقضة. بالفعل يبدو الاسخريوطي كوحش هائج تهاجمه مجموعة من كلاب الحراسة. كلّ هبة ريح في الأوراق، أيّ صوت على الطريق، انسياب ماء عين، تدفعه إلى الارتجاف والانعطاف بارتياح وخوف، كما لو كان حسيب قد أدركه. يلتفت برأسه وهو منخفض، يلوي عنقه، يدير عينيه كمن يريد أن يرى ويهاب من الرؤية، وإذا ما تلاعب ضوء القمر بالظلّ مُشكّلاً أشكالاً بشريّة، تجحّظ عيناه، يقفز إلى الوراء، يمتنع أكثر ممّا هو ممتنع، يتوقّف لحظة ثمّ يهرب جرياً عائداً على أعقاب، متحوّلاً إلى دروب أخرى، إلى أن توقفه ضجة أخرى، تلاعب آخر بالضوء فيهرب إلى اتجاه آخر.

في مسيره الجنونيّ يمضي هكذا صوب داخل المدينة، ولكنّ صياحاً من الشعب ينبّهه أنّه بالقرب من منزل قيافا، وحينئذ، واضعاً يديه على رأسه، ومنحنياً كما لو كانت هذه الصيحات حجارة ترجمه، يهرب، يهرب. وفي

هروبه يسلك درباً تقوده مباشرة إلى البيت الذي فيه كان العشاء الأخير. فينتبه حينما يصبح في مواجهته، بسبب عين تسيل في هذا المكان من الدرب. دموع الماء التي تسقط قطرة قطرة في حوض حجري صغير، وصغير واهن للريح المتسلل في الدرب الضيق مُحدثاً نحيباً مخنوقاً، لا بدّ أنّهما ظهرا له كدموع مَنْ خانه وظلامة المُعذّب. يسدّ أذنيه حتّى لا يسمع، ويفرّ، مغلقاً عينيه كي لا يرى هذا الباب الذي منذ ساعات قليلة دخل منه مع المعلم، ومن خلاله هو خرج كي يجلب الرجال المسلّحين ليقبضوا عليه.

في ذلك الجري الأعمى يوشك على الاصطدام بكلب شارد، أوّل كلب أراه منذ بداية الرؤى، كلب ضخم رماديّ أشعث الوبر، الذي يتراجع وهو يهرّ، مستعدّاً للانقضاض على مَنْ ضايقه. يفتح يهوذا عينيه ليواجه بؤبؤين فسفوريّين يحدّقان به، ويرى بياض أنياب مُكشّرة وكأنّها تُشكّل ضحكة شيطانيّة. يُطلق صيحة هلع. والكلب الذي يمكن أن يكون قد اعتبرها صرخة مُهدّدة، ينقضّ عليه، ويتدحرج الاثنان في التراب: يهوذا من أسفل مشلول من الخوف، والكلب فوقه. وعندما يترك الكلب فريسته، ربما معتبراً إيّاه غير كفء لهذه المعركة، كان يهوذا ينزف بسبب عضّتين أو ثلاث، وفي ردائه تمزّقات كبيرة.

إحدى العضّات كانت بحقّ في خدّه، في الموضع ذاته الذي قبّل فيه يسوع. خدّه ينزف والدم يُلوّث ثوب يهوذا الأصفر عند الرقبة. فصار الدم كشبه ياقة، مبلّلاً الشريط الأحمر الذي يضمّ الملابس عند الرقبة جاعلاً إيّاه أكثر احمراراً. يضع يهوذا يده على خدّه، ينظر إلى الكلب الذي يبتعد، إنّما يراقبه من فتحة أحد الأبواب، ويدمدم: «بعلزبول!» ومطلقاً صيحة من جديد،

يفرّ ويتبعه الكلب لبعض الوقت. يهرب حتّى الجسر الصغير القريب من جَثْسِيْمَانِي. هناك، يبتعد الكلب عن فريسته إمّا لأنّه تعب من ملاحقته، وإمّا من الماء لأنّه مصاب بالكّأب، فيتراجع وهو يهرّ. يهوذا، الذي كان قد ألقي بنفسه في السيل كي يأخذ حجارة يلقيها على الكلب، إذ يراه مبتعداً، ينظر حوله ويتبيّن أنّ الماء وصل إلى منتصف الربلة (بطّة الساق). وبدون الاهتمام بثوبه الذي تبلّل أكثر فأكثر، ينحني فوق الماء ويشرب كما لو كان يحترق من الحمّى، ويغسل خدّه الذي ينزف ويؤلّمه. ومع أوّل استفاقة للفجر يصعد ثانية إلى الضفّة، من الجهة الأخرى كما لو كان ما يزال خائفاً من الكلب ولم يكن يجرؤ على الرجوع إلى المدينة.

يسير بضعة أمتار ويجد نفسه عند مدخل بستان الزيتون. فيصيح: «لا! لا!» متعرّفاً على المكان. إنّما بعد ذلك، لست أدري بأيّة قوّة لا تُقاوم أو بأيّة ساديّة شيطانيّة ومجرمة، يتقدّم في ذلك المكان. يبحث عن المكان الذي حصل فيه إلقاء القبض. إنّ أرض الدرب، وقد داستها أقدام كثيرة، والعشب المداس في إحدى المواضع والدم على الأرض، قد يكون دم ملّخس [عبد رئيس الكهنة الذي قطع بطرس أذنه]، يُظهران له أنّ هذا هو المكان الذي حدّد فيه البريء للجلادين.

ينظر، وينظر... ثمّ يُطلق صيحة خشنة، ويقفز إلى الخلف. يصيح: «هذا الدم! هذا الدم!...» ويشير إليه... لمن؟! يحدّده بذراعه الممدودة وسبّابته. في النور المتزايد يظهر وجهه المرتعب والشبحي. يبدو مجنوناً. عيناه جاحظتان وتلمعان كأنّه كان يهذي؛ شعره أشعث من الجري والهلع وكأنّه منتصب على رأسه؛ خدّه المتورّم يلوي فمه في تكشيرة. ثوبه ممزّق،

مُغَطَّى بالدم، مبلل، مُوحِل، ذلك أنَّ التراب الذي تبلل صار وحلاً، ويجعله شبيهاً بمتسول. ردائه ممزق أيضاً ومُوحِل، يتدلَّى من أحد كتفيه كالأسمال، ويرتبك به إذ يستمرّ بالصياح: «هذا الدم! هذا الدم!» يتقهقر كما لو أنَّ هذا الدم استحال بحراً يرتفع ويفيض. ينقلب يهوذا إلى الخلف فيصطدم رأسه من الخلف بحجر يجرحه. يئنُّ من الألم والخوف: «مَنْ هنا؟» يصيح. يُفترَض أنَّه ظنَّ أنَّ هناك مَنْ أوقعه ليعضبه. يلتفت بهلع. لا أحد! ينهض. الآن يقطر الدم عند مؤخرة عنقه. وتتسع الدائرة الحمراء على ثوبه. لا يتساقط على الأرض لأنَّه قليل، يتشرَّبه الثوب. الآن أصبح الحبل يتبدَّى على رقبتة.

يسير. يرى أثر النار التي أوقدها بطرس تحت إحدى أشجار الزيتون، ولكنه لا يعلم أنَّ بطرس هو الذي أشعلها، ويعتقد أن يسوع كان هنا. يصيح: «اذهبوا! اذهبوا!» وبيديه الممدودتين إلى الأمام، يبدو وكأنَّه يدفع شبحاً يعذِّبه. يهرب لينتهي تماماً عند صخرة الاحتضار.

الآن، أصبح الفجر جلياً ويسمح بالرؤية جيّداً وعلى الفور. يرى يهوذا رداء يسوع المطويّ على الصخرة، يتعرّف عليه. يودّ أن يلمسه. يخاف. يمدّ يده ويسحبها ثانية. يريد. لا يريد. ولكنَّ هذا الرداء يفتنه. ينوح: «لا! لا!» ثمَّ يقول: «نعم، بحقّ الشيطان! نعم، أريد أن ألمسه. لا أخاف! لا أخاف!» يقول إنَّه لا يخاف، ولكن الرعب يجعل أسنانه تصطكّ، والصوت الذي أحدثه غصن زيتون فوق رأسه إذ حرّكه الهواء صادمًا جذعاً قريباً، يجعله يصرخ من جديد. ومع ذلك يبذل جهداً ويمسك بالرداء. ويضحك. ضحكة مجنون، ضحكة شيطان. ضحكة هستيرية، متقطّعة، حزينة، لا تنتهي أبداً، لأنَّه انتصر على خوفه، ويقول ذلك: «أنت لا تخيفني يا مسيح. لا خوف بعد. كان

خوفي منك عظيماً إذ كنتُ أظنُّك إلهاً وقوياً. الآن لم تعد تخيفني، فأنتَ لستَ الله. أنتَ مجنون مسكين، ضعيف. لم تستطع الدفاع عن نفسك. ولم تحوّلني إلى رماد، كما لم تقرأ الخيانة في قلبي. مخاوفي!... يا لبلاهي! عندما كنتُ تتكلّم، حتّى مساء أمس، كنتُ أظنُّك تعرف. إنَّك لم تكن تعرف شيئاً. كان خوفي هو الذي يضيف الإحساس بالنبوءة على كلّ كلماتك العادية. أنتَ لا شيء. تركتَ نفسك للبيع، للتعرف عليك، لأخذك كالفأر من جحره. سلطانك! أصلك! آه! آه! آه! بهلول! القويّ هو الشيطان! إنّه أقوى منك. لقد انتصر عليك! آه! آه! آه! النبيّ! مَسِيّا! مَلِك إسرائيل! وقد أخضعتني ثلاث سنوات! بخوف دائم في قلبي! كان عليّ أن أكذب لأخدعك بحذق عندما كنتُ أريد أن أتمتّع بالحياة! ولكن حتّى وإن كنتُ قد سرقتُ وزنيثُ بلا كلّ هذا الدهاء الذي كنتُ أمارسه، فما كنتُ لتفعل بي شيئاً. خَوَاف! مجنون! جبان! خذ! خذ! خذ! لقد أخطأتُ بعدم فعلي بك ما أفعل بردائك هذا انتقاماً للوقت الذي استعبدتني فيه بسبب الخوف. خوف أرنب!... خذ! خذ! خذ!»

ومع كلّ "خذ". يهوذا يعصّ ويسعى لتمزيق نسيج الرداء. يجعّده بين يديه. وفيما هو يفعل ذلك يفرده وتظهر البقع التي تبلّله. يتوقّف هيجان يهوذا. يحدّق بتلك البقع. يلمسها، يشمّها. إنّه دم... يفرد الرداء. واضحة جداً الآثار التي تركتها اليدان المبقّعتان بالدم حينما كان يضغط النسيج على وجهه.

«آه!... دم! دم!... دمه... لا!» يترك يهوذا الرداء يسقط وينظر حوله. إلى الصخرة نفسها، حيث أسند يسوع ظهره حينما كان الملاك يشدّد عزمته، هناك بقعة دم داكنة جافة. «هناك!... هناك!... دم! دم!...» يخفض عينيه كي لا يرى، فيرى العشب المحمّر من الدم الساقط عليه. وهو، بفعل الندى الذي

أبقاه رطباً، بدا وكأنه سقط منذ قليل. إنه أحمر ويلمع تحت أول شعاع من الشمس. «لا! لا! لا أريد أن أرى! لا أستطيع أن أنظر إلى هذا الدم! أنقذوني!» ويحمل يديه إلى عنقه ويفقد كلّ تحكّم كما لو كان يغرق في بحر من الدم. «ارجع! ارجع! اتركني! اتركني! ملعون! ولكن هذا الدم بحر! إنه يغطّي الأرض! الأرض! الأرض! وعلى الأرض لا مكان لي، لأنني لا أقدر أن أرى هذا الدم الذي يغطّيها. إنني قايين للبريء!» أظنّ أنّ فكرة الانتحار قد حلّت في قلبه في تلك اللحظة.

وجه يهوذا يخيف. يلقي بنفسه على المنحدر ويهرب عبر بستان الزيتون، دون الرجوع من نفس الطريق التي سلكها من قبل. يبدو وكأنّ ضواري تلاحقه. يعود إلى المدينة. يلتفّ بردائه محاولاً تغطية جرحه ووجهه قدر المستطاع. يتّجه نحو الهيكل. ولكن بينما هو يمضي في هذا الاتجاه، في تقاطع إحدى الطرق، يجد نفسه في مواجهة أوباش يجرون يسوع إلى بيلاطس. لم يكن باستطاعته الانسحاب لأنّ مجموعة أخرى تدفعه من الخلف وهي تجري كي ترى. ولأنّ طويل القامة، يشرف حتماً ويرى. يلاقي نظرة المسيح...

تتقاطع النظرتان لبرهة. ثمّ يمرّ المسيح، مقيداً مضروباً، ويسقط يهوذا على ظهره، كأنّه أصيب بإغماء. فتدوسه الجموع بلا رحمة، وهو لم يُبدِ ردّة فعل. المفروض أنّه يفضل أن تدوسه أقدام عالم بأكمله على أن يقابل تلك النظرة.

بعد مرور رهط قتلة الله مع الشهيد وخلق الطريق، يعاود النهوض ويهرع نحو الهيكل. يزاحم ويكاد يرمي أحد الحراس الواقف على باب

السور. يصل حرّاس آخرون كي يمنعوا المسعور من الدخول، ولكنّه، مثل ثور هائج، يبعدهم جميعاً. أحدهم يتشبّث به لكي يمنعه من الدخول إلى قاعة السنهدرين حيث ما يزالون جميعاً مجتمعين للتداول، فيمسكه من عنقه ويخنقه، يلقيه إلى أسفل الدرجات الثلاث، وإن لم يكن ميتاً فهو أكيد على وشك الاحتضار.

«لا أريد نقودكم أيّها الملعونون.» يصيح وهو واقف في وسط القاعة، في المكان حيث كان يسوع سابقاً. تحسبه شيطاناً خرج من جهنم. مُدْمى، أشعث الشعر، يتأجج من الهذيان، اللُّعاب على فمه، يداه كالمخالب، يصيح وكأنّه يعوي بقدر ما كان صوته حادّاً، هادراً، خشناً. «لا أريد نقودكم أيّها الملعونون. لقد أهلكتموني. جعلتموني أرتكب أعظم خطيئة. إنني مثلكم، مثلكم أنا ملعون! خنتُ الدم البريء. فليقع عليكم هذا الدم وموتي. عليكم... لا! آه!...» يرى يهوذا الأرضية ملطّخة بالدم. «حتّى هنا، حتّى هنا دم؟ في كلّ مكان! في كلّ مكان دمه! إنّما كم من دم لدى حَمَل الله كي يغطّي الأرض هكذا ولا يموت؟ وأنا الذي سفكته! بسبب تحريضكم. ملاعين! ملاعين! ملاعين إلى الأبد! اللعنة على هذه الجدران! اللعنة على هذا الهيكل الدّنس! اللعنة على رئيس الكهنة قاتل الله! اللعنة على الكهنة غير المستحقّين، العلماء المزيّفين، الفرّيسيّين الماكرين، اليهود المتوحّشين! الكتّبة المراوغين! عليّ اللعنة! عليّ اللعنة! عليّ أنا! خذوا نقودكم ولتخفق نفوسكم في حلوّكم، كما الحبل لي.» ويلقي الكيس في وجه قيافا ويمضي وهو يصرخ، بينما ترنّ القطع وهي تتدحرج على الأرض بعد أن ضربت وجرحت فم قيافا.

لم يجرؤ أحد على منعه. يخرج. يجري عبر الدروب. وبشكل حتمي يجد نفسه مرتين آخرين في مواجهة يسوع عند ذهابه عند هيرودس وإيابه من عنده. يبتعد عن مركز المدينة كي يسلك بطريق الصدفة الدروب الضيقة الأكثر بؤساً وينتهي من جديد أمام منزل العلية. إنه مغلق بالكامل، وكأنه مهجور.

يتوقف، ينظر إليه. «الأم!» يتمتم. «الأم!...» يبقى متردداً... «أنا أيضاً لي أم! وقد قتلْتُ ابناً لأم!... ومع ذلك... أريد الدخول... أريد أن أرى من جديد تلك الغرفة. فهناك لا دماء...» يطرق الباب مرة... وأخرى... وأخرى... تأتي سيدة المنزل وتفتح مواربة الباب، فرجة... وحينما ترى هذا الانسان المضطرب، غير ممكن التعرف عليه، تصرخ محاولة إغلاق الباب. ولكن يهوذا، بضربة من كتفه، يفتحه على مصراعيه، ويلقي المرأة الخائفة، ويتجاوزها.

يجري باتجاه الباب الصغير المؤدي إلى قاعة العشاء. يفتحه. يدخل. شمس جميلة تلج من النوافذ المفتوحة على آخرها. يُطلق يهوذا تنهيدة تسكين. يدخل. هنا، كل شيء في سكون وصمت. الأواني مازالت كما تركت. يمكن إدراك أن لا أحد يهتم بهذا في الوقت الحاضر. بل يمكن الاعتقاد أن الاستعداد جارٍ للجلوس إلى المائدة.

يمضي يهوذا نحو المائدة. ينظر إذا ما كان من نبيذ في الجرار. يوجد. يشرب بنهم من الجرّة نفسها التي يرفعها بكلتا يديه. ثم يخرّ جالساً ويسند رأسه على ذراعيه المتقاطعين على المائدة. لم يتبين أنه يجلس مكان يسوع ذاته وأن أمامه الكأس التي استخدمت للافخارستيا. يتوقف برهة إلى أن يهدأ

لهاته الذي سببه جريه الطويل. ثم يرفع رأسه ويرى الكأس، ويدرك أين جلس.

يقف كالممسوس. ولكنّ الكأس يفتنه. مازال في قاعه قليل من النبيذ الأحمر، والشمس التي تضرب المعدن (الذي يبدو من الفضة) تجعل السائل يلمع. «دم! دم! دم هنا أيضاً! دمه! دمه!...» "افعلوا هذا لذكري!... خذوا اشربوا. هذا هو دمي... دم العهد الجديد الذي سيراك من أجلكم... آه! ملعون أنا! لا يمكن أن يُسكب من أجلي بعد لمغفرة خطيئتي. لا أطلب الغفران إذ لا يمكنه أن يسامحني. أخرج من هنا! أخرج من هنا! فلا مكان يمكن لقاين الله أن يجد فيه الراحة. إلى الموت! الموت!...»

يُخرج. يجد نفسه بمواجهة مريم، واقفة عند باب الغرفة التي منها غادرها يسوع. وهي، إذ تسمع الضجة، تظهر آملة رؤية يوحنا الغائب منذ عدّة ساعات. إنّها شاحبة وكأنّها فقدت دمه. عيناها جعلهما الألم تشبهان عينيّ ابنها. يقابل يهوذا تلك النظرة التي تنظر إليه بالمعرفة الحزينة الواعية نفسها التي نظر بها يسوع إليه في الطريق. وبكلمة «آه!» مرتعبة يسند ظهره إلى الجدار.

«يهوذا!» تقول مريم «يهوذا، ماذا جنّت تفعل؟» كلمات يسوع ذاتها، قيلت بمحبّة حزينة. يتذكّر ها يهوذا ويُطلق صرخة.

«يهوذا.» تُكرّر مريم «ماذا فعلت؟ قابلت المحبّة الكثيرة بالخيانة؟» صوت مريم ملاطفة مرتعشة.

يوشك يهوذا على الهرب. تناديه مريم بصوت كان يمكنه هداية شيطان:
«يهوذا! يهوذا! توقّف! توقّف! اسمع! أقول لكّ باسمه: تب يا يهوذا، هو
يغفر...» يهوذا يهرب. كان صوت مريم، هيئتها، دفقة من النعم أو على
الأرجح زوال النعم إذ أنّه يقاوم.

يمضي سريعاً. يقابل يوحنا الذي يهرع إلى المنزل ليأخذ مريم. لقد تمّ
النطق بالحكم. يسوع ماض إلى الجلجلة. حان الوقت لأخذ الأمّ إلى ابنها.
يتعرّف يوحنا على يهوذا، رغم أنّه لم يتبقّ سوى القليل من وسامة يهوذا التي
كان عليها منذ وقت قصير. «أنت هنا؟» يقول له يوحنا باشمئزاز واضح.
أنت هنا؟ عليك اللعنة. يا قاتل ابن الله! المعلم قد دين. ابتهج، إن كنت
تستطيع، ولكن أفسح الطريق. سوف آخذ الأمّ. ولا أودّ أن تقابلك ضحيّتك
الثانية، أيّها السافل.»

يفرّ يهوذا، يلفّ رأسه في مزقات ردائه تاركاً فقط فتحة لعينيه. الناس،
القليل من الناس الذين لم يتوجّهوا إلى المحكمة، يتجنّبونه كأنهم يرون
مجنوناً، وهو يبدو كذلك.

يضلّ عبر الريف. الريح تحمل من وقت لآخر صدى الجلجلة الآتية من
الجموع التي تتبع يسوع وتوجّه له اللعنات. وفي كلّ مرّة يصل هذا الصدى
إلى يهوذا، فإنّه يعوي مثل ابن آوى.

أظنه قد أصبح حقاً مجنوناً لأنّه يصدّم رأسه بإيقاع على الجدران
الحجريّة. أو ربّما أصبحت لديه فوبيا من السوائل، لأنّه كلّما رأى سائلاً أيّاً
كان: ماء، حليباً يحمله طفل في وعاء، زيتاً يسيل من قربة، فإنّه يعوي،
ويعوي ويصيح: «دم! دم! دمه!».

يوّد الشرب من الجداول ومن الينابيع. لا يستطيع لأنّ الماء يبدو له دماً، ويقول ذلك: «إنّه دم! إنه دم! يغرّقني! يحرقني! بي النار! دمه، الذي أعطاه لي بالأمس قد صار ناراً فيّ! اللعنة لي ولك!»

يتسلّق ويهبط التلال المحيطة بأورشليم. نظره يتّجه بشكل لا يُقاوم إلى الجلجلة، ولمرتّين يرى من بعيد الموكب الذي يزحف صعوداً على المنحدر، فينظر ويصيح.

ها هو الموكب عند القمّة. ويهوذا أيضاً على قمّة تلّ صغير مغطّى بأشجار الزيتون. يدخله، فاتحاً بوّابة ريفيّة وكأنّه سيّد ذاك المكان أو على الأقلّ معتاد عليه. لديّ انطباع بأنّ يهوذا لم يكن يهتمّ كثيراً بأملاك الغير. إنّهُ واقف تحت أحد أشجار الزيتون على طرف منحدر، ينظر إلى الجلجلة. يرى رفع الصليبان ويدرك أنّ يسوع قد صُلب. لا يستطيع أن يرى أو يسمع، ولكنّ هذيان أو سحر الشيطان يدفعه لأن يرى ويسمع كما لو كان على قمّة الجلجلة.

ينظر، ينظر كما في هلوسة. ينتفض: «لا! لا! لا تنظر إليّ، لا تتكلم معي! فأنا لا أتحمل. فلتمت، فلتمت يا ملعون! فليغلق الموت هاتين العينين اللتين ترعبانني، ذلك الفم الذي يلعني. ولكن أنا أيضاً ألعنك لأنّك لم تخلصني.»

وجهه مذعور للغاية، حتّى لا يمكن النظر إليه، خيطان من اللُّعاب يسيلان من فمه العاوي. الخدّ المعضوض داكن ومنتفخ ويجعل وجهه يبدو مشوّهاً. شعره ملتصق، ذقنه السوداء التي نمت خلال تلك الساعات على

خديّه، تضع كمّامة محزنة على خديّه وذقنه. عيناها، من ثمّ! العيان...
تدوران، تنحرفان، إنهما فوسفوريّتان. عينا شيطان. ينزع من وسطه الشريط
المصنوع من الصوف الخشن الأحمر الذي يزنّره بثلاث لفّات. يختبر
صلابته ويلفّه حول شجرة الزيتون ويشدّه بكلّ قوته. إنّهُ متين، قويّ. يختار
شجرة زيتون تتحمّل ما يريد فعله، ها هي. تلك التي تميل على المنحدر،
بأغصانها غير المرتّبة، تصلح. يتسلّق الشجرة. يثبّت بشدّة العقدة في أحد
الغصون الأكثر صلابة والذي يبرز إلى الفراغ. يهيئ الأنشودة. ينظر لآخر
مرّة باتجاه الجلجلة، ثمّ يُدخل رأسه في الأنشودة. الآن يبدو وكأنّ له ياقتين
حمرّاوين على قاعدة الرقبة. يجلس على الحافة ودفعة واحدة ينزلق في
الفراغ.

العقدة تخنقه. يتخبّط بضعة دقائق، تنقلب عيناها، يحيله الاختناق إلى
أسود، يفتح فمه، أوردة رقبتّه تنتفخ وتصبح سوداء. أربع أو خمس انتفاضات
من قدميه في الهواء، في تشنّجات أخيرة. ثمّ ينفّث فمه ويتدلّى لسان أسود
مبلل باللّعاب، المقلتان تخرجان من الرأس فيظهر بياض العين محتقناً بالدم،
قزحية العين تختفي إلى أعلى. لقد مات. الريح القويّة، التي هبّت قبل
العاصفة الوشيكة الحدوث، تهزّ المتدلّي المريع وتجعله يستدير مثل عنكبوت
مرعب يتدلّى بخيط من نسيجه.

تنتهي الرؤيا. وآمل أن أتوصّل قريباً إلى نسيان كلّ شيء عنها لأنني
أؤكد لكم أنّها رؤيا مروّعة.

(لو كان يهوذا قد ارتمى عند قدمي الأم قائلاً: "الرحمة"، لكانت تلقته بإشفاق كأنه جريح.)

يقول يسوع:

«مُرّوعة، ولكن ليست عبثاً. كثيرون يعتقدون أنّ يهوذا ارتكب أمراً قليل الأهمية. والبعض يصل حتّى إلى حدّ القول إنّ له فضلاً، إذ بدونه لم يكن ليتمّ الخلاص، وبالتالي فهو مبرّر أمام الله.

الحقّ أقول لكم أنّه إن لم تكن جهنّم موجودة بالفعل، بل ومكتملة بعذاباتها، لكانت خلقت من أجل يهوذا بأكثر رهبة وأبدية، لأنّه من بين كلّ الخطاة والمذنبين هو الأكثر إدانة وخطيئة، ولا تخفيف لإدانته إلى الأبد.

كان يمكن لتأنيب الضمير أيضاً أن ينقذه لو كان جعل من تأنيب الضمير توبة. ولكنّه لم يرد التوبة. وإلى جريمته الأولى التي هي الخيانة، تلك التي كان يمكن أن تُغفر بعد بسبب الرحمة العظيمة التي هي ضعفي المُحبّ، أضاف التجديف، مقاومة أصوات النعمة التي كانت تريد أن تكلمه مراراً عن طريق الذكريات، المخاوف، دمي وردائي، من خلال نظرتي، آثار إقامة الافخارستيا وكلمات أمّي. لقد قاوم كلّ شيء. أراد أن يقاوم كما كان يريد أن يخون. كما أراد أن يلعن. كما أراد أن ينتحر. المهمّ في الأمور هي الإرادة، في الخير كما في الشرّ.

حينما يسقط أحد ما دون أن يقصد السقوط، أغفر. ترين بطرس. لقد أنكرني. لماذا؟ حتّى هو لم يكن يعرف لماذا فعل هذا بالضبط. هل بطرس جبان؟ لا. بطرسي لم يكن جباناً. أمام الكتيبة وحراس الهيكل كان قد تجاسر

على ضرب مَلْخُسَ كي يدافع عني ويعرّض نفسه للقتل بسبب ذلك. ثم هرب، دون أن ينوي الهرب. ثم، أنكر، دون أن ينوي ذلك. ثم عرف جيّداً أن يبقى ويتقدّم على درب الصليب الدامي، على دربي، وصولاً إلى موت الصليب. وبالتالي فقد عرف أن يعطي عني شهادة رائعة لدرجة أنّه قُتل بسبب إيمانه الجريء. أنا أدافع عن بطرسي. عجزه كان الأخير في بشريّته، إنّما إرادته الروحيّة لم تكن حاضرة في تلك اللحظة. كانت نائمة، كليلّة من ثقل بشريّته. وعندما استيقظت، لم ترغب أن تبقى في الخطيئة وأرادت أن تكون كاملة. لقد غفرت له على الفور.

يهودا لم يرد. تقولين إنّّه كان يبدو مجنوناً ومغتاظاً. لقد كان غضباً شيطانيّاً. رعبه من رؤية الكلب، وهو حيوان نادر، خاصة في أورشليم، ناتج عن أنّهم كانوا ينسبون للشيطان، منذ عهد قديم، الظهور بهذا الشكل للهالكين. وقد جاء في كتب السحر أيضاً أن الشكل المفضّل للشيطان في الظهور هو شكل كلب غامض أو قطّة أو تيس. إنّ يهودا، الذي أصبح بالفعل فريسة الرعب نتيجة جريمته، مقتنعاً أنّه كان ينتمي إلى الشيطان بسبب هذه الجريمة، قد رأى الشيطان في هذا الحيوان الضالّ.

إنّ المذنب يرى في كلّ شيء ظلال الخوف. ضميره هو الذي يخلقها. ثمّ يهيج الشيطان هذه الظلال، التي قد تؤدّي بالقلب بعد إلى التوبة، ويجعل منها أشباحاً مرعبة تقود إلى اليأس. واليأس يقود إلى آخر جريمة: إلى الانتحار. ما فائدة إلقاء ثمن الخيانة، إن كان التخلّي عنها هذا لم يكن سوى ثمرة للغضب وليس مدعماً بإرادة مستقيمة للتوبة؟ في هذه الحال يصبح

التجرّد من ثمار الشرّ مستحقّاً للتقدير، أمّا كما فعل هو، فلا. إنّها تضحية لا فائدة منها.

أمّي، وقد كانت النعمة التي تتكلّم والمؤتمنة التي كانت تمنح المغفرة باسمي، قالت له: "تب يا يهوذا. وهو يغفر..." "آه! بلى كنتُ لأغفر له! لو كان ارتمى عند قدميّ الأمّ قائلاً: "الرحمة!"، وكانت، وهي، الرحومة، لكانت قد قبلته كمجروح، وعلى جراحه الشيطانيّة، التي لّقحها العدو بالجريمة، سكبت دموعها المخلّصة، وكانت ستقوده إلّيّ عند أقدام الصليب، وهي تمسكه من يده كي لا يقبض عليه الشيطان أو يضربه التلاميذ، تقوده كي يسقط دمي عليه أولاً، هو أعظم الخطأة. ولوقفت هي، الكاهنة الرائعة على مذبحها، بين الطهر والخطيئة، لأنّها أمّ العذاري والقديسين، ولكنّها أيضاً أمّ الخطأة.

ولكنّه لم يرد ذلك. تأملوا قدرة الإرادة التي أنتم متحكّمين بها بالمطلق. بها تستطيعون بلوغ السماء أو جهنّم. تأملوا ما معنى الإصرار على الخطأ.

المصلوب، الذي يُبقي ذراعيه مفتوحتين ومسمّرتين ليقول لكم إنّّه يحبّكم، وهو لا يريد، هو لا يمكنه أن يضربكم لأنّه يحبّكم، ويفضّل أن يمتنع عن احتضانكم، ألمه الوحيد الناتج عن وضعه كمصلوب، على أن يكون حرّاً كي يعاقبكم. إنّ المصلوب، الذي هو باعث رجاء إلهيّ بالنسبة للذين يتوبون ويريدون ترك الخطأ، يصبح بالنسبة لغير النادمين باعث رعب شديد يجعلهم يجدّفون ويتجاسرون على العنف تجاه أنفسهم. قتلة لأرواحهم وأجسادهم بسبب إصرارهم على الخطأ. ومظهر ذاك الوديع، الذي ترك نفسه للذبح أملاً في خلاصهم، يتّخذ مظهر طيف مرعب.

ماري، لقد تدمّرت من هذه الرؤيا. ولكنّها جمعة الآلام يا ابنتي. عليك أن تتألّمي، وللآلام التي تقاسينها بسبب آلامي وآلام مريم، تضمّي آلامك بسبب مرارة رؤية الخطأة يستمرّون في الخطأ. كانت هذه آلامنا. ويجب أن تكون آلامك. إنّ مريم تألّمت وما زالت تتألّم من ذلك، كما تتألّم من عذابي. عليك إذن أن تتألّمي من هذا. الآن، ارتاحي. بعد ثلاث ساعات ستكونين كلّك لي ولمريم. أباركك، يا بنفسجة آلامي ويا زهرة آلام مريم.

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

20- (التجديد الكامل)

02 / 04 / 1944 أحد الشعانين.

يقول يسوع:

الثنائي يسوع-مريم هما النقيض للثنائي آدم-حواء. فهو، المقدّر له أن يُبطل كلّ فعل آدم وحواء، يعيد البشريّة إلى الحالة التي كانت عليها لحظة خُلقت: غنيّة بالنعم والمواهب كلّها التي أغدقها عليها الخالق. لقد طرأ على البشريّة تجدد شامل نتيجة صنعة الثنائي يسوع-مريم، اللذين أصبحا بذلك الأبوين الجديدين للبشريّة. كلّ الزمن السابق قد أُبطل. وزمن وتاريخ الإنسان يُحسب بدءاً من تلك اللحظة التي فيها حوّا الجديدة، بتغيير شامل للخلقة، تُخرج من أحشائها الطاهرة آدم الجديد، بصنعة الربّ الإله.

ولكن لإبطال أفعال الأبوين الأوّلين، التي هي السبب في الآفات المميّنة، التشوّه الدائم، الافتقار، وبالأكثر: الضعف الروحيّ -بعد الخطيئة كان آدم وحواء قد تجرّدا من كلّ ما منحهما الآب القدّوس من غنيّ أبديّ- فقد كان على الإثنين التاليين، العمل على كلّ شيء ومن أجل كلّ شيء بطريقة معاكسة للإثنين الأوّلين. وبالتالي، الدفع بالطاعة إلى حدّ الكمال الذي يتلاشى ويضحّي بنفسه في الجسد، في الأحاسيس، في الفكر، وفي الإرادة، لقبول كلّ ما يشاؤه الله. وبالنتيجة، الدفع بالطهر إلى حدّ العفة المطلقة، التي بها الجسد... وماذا يعني الجسد لنا نحن الإثنين الطاهرين؟ وشاح ماء على الروح المنتصرة، ملاطفة نسيم على الروح المملّك، كريستال يعزل

الروح-السيد ولا يُفسد، دافع يرفع وليس ثقلاً يُوهن. هذا هو الجسد بالنسبة لنا. أقلّ ثقلاً وحساسية من ثوب كتّاني، مادة خفيفة وُضعت بين العالم وتألّق الذات فوق البشريّة، وسيلة لفعل ما كان يشاء الله. وليس شيئاً آخر.

هل عرفنا الحبّ؟ بالتأكيد. لقد عرفنا "الحبّ الكامل". الحبّ، أيا أيّها البشر، ليس هو الجوع الحسيّ الذي يدفعكم لتشبعوا بشراهة من جسد. هذا شبق، ليس أكثر. فحقاً عندما تحبّون بعضكم بهذه الطريقة -وتظنّون أنّ هذا هو الحبّ- لا تعرفون أن يكون لديكم تساهل تجاه بعضكم، تعاون، غفران. فما يكون حبكم حينئذ؟ إنّه كراهية. إنّه حرصاً رغبة هذيانية تدفعكم إلى تفضيل مذاق طعام عفن على الغذاء الصحيّ، المقويّ للأحاسيس النبيلة. لقد امتلكنّا "الحبّ الكامل"، نحن العفيفين الثّامنين. هذا الحبّ كان يعانق الله في السماء ومتّحداً به كما الأغصان بالجذع الذي يغذيها، كان ينتشر وينزل مُغدياً الراحة، المأوى، الغذاء، الرفاهية على الأرض وسكّانها. لم يكن أحد مستثنى من هذا الحبّ، لا ممّن هم أمثالنا، ولا الكائنات الأدنى، ولا الطبيعة النباتيّة، ولا المياه، ولا النجوم. حتّى الأشرار أنفسهم لم يكونوا مُستبَعدين من هذا الحبّ. فهم أيضاً، بالفعل، رغم أنّهم أعضاء مائتون، فقد كانوا مع ذلك أعضاء في جسد الخليقة العظيم، وكنا نرى فيهم إذاً، رغم تشوّهم ونجاستهم بسبب شرّهم، الوجه المقدّس للربّ الذي كوّنهم على صورته ومثاله.

فرحين مع الصالحين، باكيين على من لم يكونوا كذلك، مُصلّين (حبّ فاعل يعبر عن ذاته بابتغاء وإحراز الحماية من أجل المحبوبين) مُصلّين من أجل الصالحين كي يكونوا دائماً أفضل ويقتربوا باستمرار من كمال الصالح الذي يحبّنا من أعلى السماوات، مُصلّين من أجل المتذبذبين بين الصلاح

والشرّ لكي يتشدّدوا ويعرفوا الثبات على درب القداسة، مُصلّين من أجل الأشرار لكي يتكلّم الصلاح إلى أرواحهم، يجعلهم يهون ربما بصاعقة سلطانه، ولكن يهديهم إلى الربّ إلههم، كنّا نحبّ كما لم يحبّ إنسان. كنّا ندفع بالحبّ إلى قَمّة الكمال لكي نملاً بمحيط حبّنا الهوّة التي حفرها قلّة حبّ الأولين، اللذين أحبّا نفسيهما أكثر من الله، مُريدَيْن أن يكون لهما أكثر من المسموح لكي يتفوّقا على الله. بالتالي على الطهارة، على الطاعة، على المحبّة، على التجرّد من كلّ ثروات الأرض: (جسد، سلطة، مال: ثلاثيّة حدود الشيطان المتعارضة مع ثلاثيّة حدود الله: إيمان، رجاء، محبّة)؛ وبالتالي [التجرّد] من الحقد، من الفجور، من الغضب، ومن الكبرياء: الأهواء الأربعة الفاسدة المتعارضة مع الفضائل المقدّسة الأربع: قوّة، قناعة، برّ، فطنة، كان علينا توحيد ممارسة ثابتة لكلّ ما كان يخالف تصرّفات الثنائيّ آدم-حواء.

وإذا، بسبب إرادتنا الطيّبة البلا حدود، كان سهلاً علينا أن نفعل الكثير، إلّا أنّ الأزلّيّ وحده هو الذي يعلم إلى أيّ مدى كانت البطولة في إتمام تلك الممارسة في لحظات وظروف معيّنة. لا أريد هنا أن أتكلّم سوى عن واحدة فقط، وعن أمّي، وليس عني. عن حواء الجديدة التي رفضت منذ حداثة سني حياتها الإطراءات التي استخدمها الشيطان كي يدفعها إلى قضم الثمرة وتذوق الطعم الذي قد كان قد دفع رفيقة آدم إلى الجنون، عن حواء الجديدة التي لم تقتصر على رفض الشيطان فقط، بل والانتصار عليه بسحقه تحت إرادة الطاعة، الحبّ، العفّة، لأقصى مدى، بحيث إنّ الملعون بقي مسحوقاً ومقهوراً منها. لا! لا يقيم الشيطان من تحت عقب أمّي العذراء! إنّه يرغي ويزبد، يهدر ويلعن. ولكنّ لعبه يسيل إلى أسفل، ولكنّ عواءه لم يلامس الجوّ

الذي يحيط بقديستي، التي لا تشعر بالإنتان ولا تسمع انفجارات الضحك الشيطانية، ولم تر، لم تر حتى اللعاب المنقر للديء الأبدى، لأن التناغمات السماوية والعطور السماوية ترقص بعشق حول الجميلة والقديسة، ولأن عينها، الأكثر نقاء من الزنبق، والأكثر ولها من اليمامة الهادلة، تُحدّق فقط برّبها الأزلي التي هي له الابنة، الأمّ والعروس.

عندما قتل قايين هابيل، تفوّه فم أمّه بلعنات أوحّت بها روحها المنفصلة عن الله، ضدّ قريبها الأكثر حميميّة: ثمرة أحشائها، المُدنّسة من الشيطان والملوّثة بالرغبة البذيئة. وهذه اللعنة صارت اللطخة في مملكة الأخلاق البشرية، مثل جريمة قايين التي هي اللطخة في مملكة الحيوان البشريّ. دم على الأرض، سفك بيد الأخ. أوّل دم يجذب مثل مغناطيس ألفي كلّ دم تسفكه يد إنسان ساحبة إيّاه من أوردة الإنسان. لعنة على الأرض، تفوّه بها فم بشريّ، كما لو أنّ الأرض لم تكن مكتفية باللعنة التي تسبّب بها الإنسان التأثير ضدّ إلهه، وكان عليه أن يعاني من الشوك وقسوة الأرض، الجفاف، البرّد، الصقيع، القيط، تلك [الأرض] التي كانت قد خلّقت كاملة تخدمها عناصر كاملة لكي تكون مسكناً جذاباً وجميلاً للإنسان ملكها.

على مريم أن تلغي حوّاء. مريم ترى قايين الثاني: يهوذا. مريم تعلم أنّه قايين ليسوعها: هابيل الثاني. وتعلم أنّ دم هابيل الثاني هذا قد باعه قايين ذاك وقد سفك. ولكنّها لم تلعن، إنّها تحبّ وتغفر. تحبّ وتذكّر.

آه! يا لأمومة مريم الشهيدة! أمومة سامية بقدر أمومتك البتولية والإلهية! هذه الأخيرة الله وهبها لك، أمّا الأولى، أيتها الأمّ القديسة، المشاركة في الفداء، فقد وهبتها من ذاتك، لأنّك أنت، أنت وحدك قد عرفت، في تلك

الساعة، بينما كنتِ تشعرين أنّ قلبكِ المنسحق من الجلد الذي يمزق جسدي،
أن تقولي ليهودا تلك الكلمات، أنتِ، أنتِ وحدكِ قد عرفتِ، في تلك الساعة،
بينما كنتِ تشعرين أنّ الصليب يسحق قلبكِ، أن تحبّي وتغفري.

مريم: حوّاء الجديدة. تُعلّمكم الديانة الجديدة التي تدفع الحبّ إلى الغفران
لقاتل أحد الأبناء. لا تكونوا مثل يهوذا الذي يغلق قلبه أمام سيّدة النعمة هذه
وبيأس وهو يقول: "لا يمكنه أن يغفر لي"، مرتاباً في كلام أمّ الحقّ وبالتالي
في كلامي الذي لم يكفّ عن تكرار أنّي أتيتُ لأخلص لا لأفقد، لأغفر لمن
يأتي نحوي تائباً.

مريم: حوّاء الجديدة، نالت هي أيضاً من الله ابناً جديداً "بدلاً من هابيل
الذي قتله قايين"، ولكنّها لم تنله في ساعة فرح فضّة تخدم الألم تحت أبخرة
الشهوة وإعيااءات الإشباع. لقد نالت في ساعة ألم تامّ، عند أقدام الصليب،
وسط حشرجات المحتضر الذي كان ابنها، وإهانات جمع هم قتلة الله، وحزن
شديد كليّ لا تستحقّه لأنّ الله أيضاً لم يكن يعزّيها.

الحياة الجديدة للبشريّة ولكلّ إنسان تبدأ بمريم. في فضائلها وطريقة
حياتها تكمن مدرستكم. وفي ألمها المتعدّد الوجوه، حتّى في الغفران نفسه
لقاتل ابنها، ستجدون خلاصكم.»

يقول يسوع:

«يوماً ما سأكلّمك بعد عن قايين والأبوين الأوّلين. هناك الكثير للقول
والتأمّل فيه.»

1944 / 04 / 02

يقول يسوع:

«يُقرأ في التكوين: "ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها كانت أمّ كلّ حيّ".

آه! نعم. كانت المرأة قد وُلدت من "مساواة الرجل" حيث كوّنّها الله لتكون رفيقة آدم، مُشكّلاً إياها من ضلع الرجل. كانت قد وُلدت بمصيرها المؤلم لأنها أرادت أن تولد هكذا. لأنها كانت تريد أن تعلم ما خبّئه الله عنها، باحتفاظه لنفسه بفرح منحها فرح ذرّيّة دون الحطّ من قدر حواسّها. أرادت رفيقة آدم معرفة الخير المُخبّأ في الشرّ، وبالأخصّ، الشرّ المُخبّأ في الخير، الخير الظاهر. وبالفعل، إذ أغواها لوسيفورس، فقد رغبت في معارف وحده الله كان يمكنه معرفتها دونما خطر، وجعلت من نفسها خالقة. ولكن، باستعمالها قوّة الخير هذه بلا جدارة، فقد أفسدتها جاعلة منها عملاً سيئاً، حيث كان ذلك عصيانياً لله ومكراً وطمع الجسد.

وقد كانت منذئذٍ "الأمّ". نحيب لا نهاية له للأشياء حول براءة مَلِكَتِها المُدَنّسة! وعويل أسي من المَلِكة على هذا التدنيس، إذ أدركت أهمّيّته واستحالة إغائه! وإن كانت الظلمات والنكبات قد صاحبت موت البريء، فكذلك الظلمات والعاصفة صاحبت موت البراءة والنعمة في قلبيّ الأبوين الأوّلين. كان الألم قد وُلد على الأرض. والعناية الإلهيّة لم تشأ أن يكون أبدياً، فمحتكم بعد سنوات من الألم فرح الخروج من الألم للدخول إلى الفرحة إن عرفتكم العيش بنفوس مستقيمة. ويل للإنسان إن أراد أن يعود سيّداً على الحياة بشكل بشريّ! ويعيش مع ذكريات جرائمه وتضاعدها المستمرّ، لأنّ الحياة بلا خطيئة أكثر استحالة بالنسبة إليكم من الحياة بلا تنفّس. أنتم يا من خُلِقتُم لتعرفوا النور الذي سمّمته الظلمات جاعلة منكم ضحاياها.

الظلمات! تحيط بكم باستمرار. تغلفكم موقظة ما محاه السرّ، ولأنكم لا تعارضونها بإرادة الانتماء إلى الله، تنجح في تسميكم من جديد بسمّها الذي جعلته المعموديّة غير مؤدّ.

الله الآب أبعد الإنسان، الذي كانت دلائل عصيانه واضحة، عن مكان المسرّات الفردوسيّة كي لا يخطئ ثانية وأكثر أيضاً بمدّ يده النهمة إلى شجرة الحياة. لم يكن الآب قادراً بعد على الوثوق بأولاده ولا الإحساس بالأمن في جنّته الأرضيّة. كان الشيطان قد تسلّل إليها مرّة ليخدع المخلوقين المحظيّين وكان قد استطاع قيادهما إلى الخطأ عندما كانا بريئين، وكان إمكانه فعل ذلك بسهولة أكبر الآن وهما لم يعودا بريئين.

أراد الإنسان أن يمتلك كلّ شيء دون أن يترك لله كنز أن يكون المبدع. فليمضِ إذن مع الثروة التي اكتسبها بالعنف وليصحبها معه إلى أرض المنفى كي تُذكّره دائماً بخطيئته، كمّاك مُحْتَقَر ومجرّد من هباته. المخلوق الفردوسيّ قد صار مخلوقاً أرضيّاً. وكان من المفروض أن تمرّ عصور من الألم كي يأتي الفريد، الذي استطاع مدّ يده إلى ثمرة الحياة، ويقطف هذه الثمرة من أجل كلّ البشريّة. قَطَفَهَا بيديه المثقوبتين وأعطاهما للبشر كي يعودوا مشاركين في إرث السماء ومالكين للحياة التي لا تموت إلى الأبد.

يقول التكوين أيضاً: "وعرف آدم حواء امرأته".

كانا قد أرادا أن يعرفا أسرار الخير والشرّ. فكان من العدل أن يعرفا الآن كذلك ألم وجوب تكاثرهم هم أنفسهم بالجسد، وليس لهما عون مباشر من

الله سوى فيما لا يستطيع الإنسان خلقه: الروح، شرارة تنطلق من الله، نسمة
ينفخها فينا الله، ختم يوضع على الجسد كعلامة للخالق الأبديّ. وحواء ولدت
قايين. وقد كانت حواء تحمل خطيئتها.

ألفت انتباهكم هنا إلى أمر يغيب عن الأغلبية. حواء كانت مثقلة
بخطيئتها. لم يكن الألم قد بلغ على الفور بعد مبلغاً كافياً لتقليص خطيئتها.
وكجسم محمّل بالذيفانات (سموم قاتلة) نقلت إلى ابنها ما كان يعجّ فيها. وولد
قايين، الابن الأول لحواء، قاسياً، حسوداً، سريع الغضب، فاسقاً، فاسداً،
مختلفاً قليلاً عن الضواري بالنسبة للفطرة، ويفوقها كثيراً بالنسبة لما هو فائق
الطبيعة، رغم أنّه في ذاته الوحشيّة كان يرفض احترام الله حيث كان ينظر
إليه كعدوّ، ظانّاً أنّه مسموح له ألاّ تكون لديه عبادة صادقة. وكان الشيطان
يحرّضه على السخرية من الله. ومن يسخر من الله لا يحترم إنساناً على
الأرض. كذلك أولئك المتّصلين بمن يسخرون بالأبديّ يختبرون مرارة
الدموع لأنّ ليس لهم أمل في حبّ مُبجّل من أطفالهم، ولا ثقة الحبّ الوفيّ من
القرين، ولا يقين من الصداقة الصادقة لدى الصديق.

دموع ودموع غسلت وجه حواء وغسلت قلبها بسبب قسوة ابنها، مُلقية
بذرة التوبة في قلبها. دموع ودموع حقّقت لها انكماش خطيئتها، ذلك أنّ الله
يغفر للتائب المتألّم. فكان للابن الثاني لحواء نفس غسلتها دموع والدته، وكان
وديعةً مُحترماً لأبويه، ومخلصاً لربّه الذي يشعر بقدرته الفائقة التي تشعّ من
السموات. لقد كان فرح أمّه المنسحقة.

إنّما كان ينبغي لدرب ألم حواء أن يكون طويلاً ومؤلماً، يتناسب درب
اختبارها الخطيئة. في هذا الأخير، ارتعاش الحواس؛ وفي الآخر، ارتعاش

الآلام. في الواحد، القبلات؛ في الآخر، الدم. من الواحد، ابن؛ ومن الآخر، موت ابن كانت تُفضّله بسبب صلاحه. هابيل صار أداة تطهير للمذنبه. ولكن يا له من تطهير أليم! ملأت بصراخ ألمها الأرض المُرّوعة من قاتل الأخ ومزجت دموع أمّ بدم ابن، بينما الذي سفك هذا الدم، كُرهاً بالله وأخيه المحبوب من الله، كان يهرب يتبعه ندمه.

قال الربّ لقايين: "لَمْ اغتظتَ؟" لماذا، إذاً تخلفتَ عني، تغتاز من أني لم أنظر إليك بعناية؟

كم من قايين على الأرض! إنهم يتوجّهون إليّ بتعبّد ساخر ومُراءٍ أو إنهم لا يعبدوني على الإطلاق، ويريدون أن أنظر إليهم بحبّ وأفويض عليهم السعادة. إنّ الله هو مَلِككم، وليس خادمكم. الله أبوكم. ولكنّ الأب ليس خادماً على الإطلاق إنّ نظرنا إلى الأمر بالعدل. الله عادل، وأنتم لستم كذلك. ولكنّه هو العادل. فلا يمكنه بالتأكيد، إذ يغدق عليكم من نعمه بغير قياس إنّ أحببتموه قليلاً فقط، ألاّ يؤدّبكم إنّ احتقرتموه لهذه الدرجة. فالعدل لا يعرف طريقين. بل وحيدة هي طريقه. كما تتصرّفون يكون لكم. إنّ كنتم صالحين تنالون الخير. وإن كنتم أشراراً تنالون الشرّ. وثقوا، إنّ الخير الذي تنالونه هو على الدوام أعظم مقارنة بالشرّ الذي ينبغي أن تنالوه بسبب طريقة حياتكم بثورتكم ضدّ الشريعة الإلهية.

وقال الله: "أليس صحيحاً أنّك إنّ تفعل خيراً تنل الخير وإن تفعل شراً تربض الخطيئة في الحال عند بابك؟" بالفعل، الخير يؤدّي إلى رفعة روحية ثابتة ويجعل القدرة على فعل الخير أعظم على الدوام حتّى بلوغ الكمال والقداسة. بينما يكفي الخضوع للشرّ حتّى يكون الانحدار والابتعاد عن

الكمال، وسيطرة الخطيئة التي تدخل القلب وتجعله ينحط تدريجياً إلى إثم يتعاضم باستمرار.

"ولكن"، يقول الله أيضاً: "إليك يكون اشتياقها وأنت تسود عليها". نعم الله لم يجعلكم عبيداً للخطيئة. الأهواء تحتكم وليست فوقكم. الله أعطاكم الذكاء والقوة لتسيطروا على ذواتكم. حتى للأبوين الأولين، المضروبين بصرامة الله، ترك لهم الذكاء والقوة الأخلاقية. ثم الآن، مذ أتمّ الفادي الذبيحة من أجلكم، فقد أضحت لكم أنهار النعمة عوناً للذكاء والقوة، فتقدرون، بل عليكم أن تسودوا على شهوة الشر. بإرادتكم المدعومة بالنعمة عليكم أن تفعلوا ذلك. لذا رتلّت الملائكة عند ميلادي على الأرض: "السلام للناس ذوي الإرادة الصالحة". لقد أتيتُ كي أعيد لكم النعمة وبواسطة تحالفها مع إرادتكم الصالحة، سيأتي السلام للناس. السلام: مجد سماء الله.

"وقال قايين لأخيه: 'فلنخرج.' كذبة تخفي الخيانة التي تقتل خلف ابتسامة. الإجرام دائم الخداع لضحاياه وللعالم الذي يسعى إلى خداعه. ويودّ خداع الله أيضاً، ولكن الله يقرأ ما في القلوب. 'لنخرج'.

بعد عصور كثيرة قال أحدهم: "السلام لك يا معلّم"، وقبله. قايين الأول والثاني أخفيا جريمتهما خلف مظهر مسالم وصبّا رغبتهما، غضبهما، عنفهما وكلّ ميولهما الفطرية السيئة على الضحية، لأنّهما لم يسودا على نفسيهما، بل جعلاً روحهما عبداً بأناهما الفاسدة.

سمّت حوّاء في التكفير. وهبط قايين إلى جهنّم. أخذه اليأس وألقاه فيها. ومع اليأس، آخر ضربة قاتلة للروح الذي أضحى يحتضر بسبب الجريمة، يأتي الخوف الجسديّ، الجبان، من العقاب البشريّ. لم يعد كائناً يذكر السماء،

الإنسان الذي لديه روح ميتة هو حيوان يرتجف من الخوف على حياته الحيوانية. إنَّ الموت، الذي مظهره ابتسامة للأبرار لأنَّهم به هم ذاهبون إلى فرح امتلاك الله، هو رعب للذين يعلمون أنَّ الموت يعني الانتقال من جهنم القلب إلى جهنم الشيطان للأبد. وكمهلوسين يرون الانتقام في كلِّ مكان جاهزاً لضربهم.

إنَّما اعلَمُوا، أَتَكَلَّمْ إِلَى الْأَبْرَارِ، اَعْلَمُوا لَوْ أَنَّ تَأْنِيبَ الضَّمِيرِ وَظُلُمَاتِ قَلْبٍ مَذْنِبٍ تَسْمَحُ وَتَثِيرُ هَلُوسَاتِ الْخَاطِئِ، فَلَيْسَ مَسْمُوحٌ لِأَحَدٍ أَنْ يُنَصَّبَ نَفْسَهُ دَيَّاناً لِأَحَدٍ الْإِخْوَةِ، وَحَتَّى حَسِيباً. وَاحِدٌ فَقَطْ هُوَ الدَّيَّانُ: اللهُ. وَإِنْ أَقَامَ عَدْلُ الْإِنْسَانِ الْمَحَاكِمَ، فَيَجِبُ انْتِمَانُهَا عَلَى الْعَنَاءِ بِإِقَامَةِ الْعَدْلِ، وَالْوَيْلُ لِلَّذِينَ يُفْسِدُونَ هَذَا الْأَسْمَ وَيَحْكُمُونَ بِحَسَبِ أَهْوَائِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ، أَوْ تَحْتَ ضَغْطِ السُّلْطَاتِ الْبَشَرِيَّةِ. اللَّعْنَةُ عَلَى مَنْ يَجْعَلُ مِنْ نَفْسِهِ حَسِيباً خَاصّاً لِوَاحِدٍ مِنْ أَمْثَالِهِ! بَلْ وَلَعْنَةُ أَعْظَمَ عَلَى الَّذِينَ، لَيْسَ بِتَأْثِيرِ غَضَبٍ مَتَهَوِّرٍ، بَلْ بِحَسَابٍ بَشَرِيٍّ بَارِدٍ، يَحْكُمُونَ بِالْمَوْتِ أَوْ بَعَارِ السَّجْنِ بِدُونِ وَجْهِ حَقٍّ. فَإِنْ كَانَ يَقَعُ عَلَى مَنْ يَقْتُلُ الَّذِي قَتَلَ عِقَابَ أَكْبَرَ سَبْعَةِ أَضْعَافٍ، كَمَا قَالَ الرَّبُّ بِأَنَّهُ سَيَحْصُلُ لِمَنْ يَضْرِبُ قَائِمِينَ، فَإِنَّ مَنْ يَدِينُ بِلَا عَدْلِ، مِنْ خِلَالِ عِبُودِيَّةِ لِلشَّيْطَانِ بِصِفَةِ سُلْطَانٍ بَشَرِيٍّ، سَيُضْرَبُ سَبْعَةَ وَسَبْعِينَ ضِعْفاً مِنْ شِدَّةِ اللهِ. يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا حَاضِراً فِي الْأُذْهَانِ عَلَى الدَّوَامِ، خَاصَّةً فِي هَذِهِ السَّاعَةِ، أَيُّهَا النَّاسُ الَّذِينَ تَتَقَاتَلُونَ، لِتَجْعَلُوا مِنَ الَّذِينَ يَسْقُطُونَ أَسَاسَ انْتِصَارِكُمْ، دُونَ أَنْ تَعْلَمُوا بِأَنَّكُمْ تَحْفَرُونَ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ فَخّاً سَتُلْقَوْنَ فِيهِ، مُلْعُونِينَ مِنَ اللهِ وَالنَّاسِ. لِأَنِّي قُلْتُ: "لَا تَقْتُلْ".

حواء ترتقي على طريق تكفيرها. تعاظمت الندامة فيها أمام اختبارات خطيئتها. كانت تريد معرفة الخير والشر. فكانت ذكرى الخير المفقود، بالنسبة إليها، كذكرى الشمس التي أظلمت فجأة، والشر أمامها يمثل في جثة ابنها المقتول، وحولها بسبب الفراغ الذي تركه ابنها القاتل والهارب.

وُولِدَ شِيث. وَمِنْ شِيثَ أَنْوَش. الكاهن الأول. أنتم تنفخون أذهانكم بأنهار علمكم وتتكلمون عن التطور كما إشارة لتوالدكم التلقائي. تقولون إن الإنسان-الحيوان تطور إلى الإنسان الأسمى. نعم، هذا حق. ولكن بحسب طريقتي، في ميداني، لا في الذي لكم. كلا، ليس في التحول من مصير ذوات الأربع إلى الذي للناس، إنما في التحول من الذي للناس إلى الذي للروح. وكلما نما الروح تطورت أكثر.

أنتم يا مَنْ تتكلمون عن الغدد وبملاء الثقة تنسبون مركز الحياة إلى الغدة النخامية والغدة الصنوبرية، ليس فقط في الزمن الذي تعيشون، بل أيضاً في الأزمنة السابقة، والتي تلي حياتكم الحالية، فلتعلموا أن غدتكم الحقيقية، التي تجعل منكم مالكي الحياة الأبدية هي روحكم. كلما نما أكثر كلما امتلكتكم الأنوار الإلهية وتطورتم من بشر إلى آلهة، آلهة لا تموت، وهكذا، دون مخالفتكم لرغبة الله، وصيته فيما يخص شجرة الحياة، سوف تستحقون امتلاك هذه الحياة الحقيقية بحسب مشيئة الله في امتلاكها، لأنه خلقها من أجلكم أبدية ومتألقة، عناقاً طوباوياً مع أبعديته التي تجذبكم بذاتها وتشارككم ملكياتها.

كلما تطور الروح كلما عرفتكم الله أكثر. معرفة الله تعني محبته وخدمته، وبهذا تكونون قادرين على التضرع إليه من أجل أنفسكم والآخرين. وبالتالي

تصيرون الكَهَنَة الَّذِينَ يَتَضَرَّعون مِنَ الأرض لِأجل إِخوتهم. إِنَّ المَكْرَسَ
كاهن هو، إِنَّها هو كذلك المؤمن الوثاق، الوفيّ، المفعم حبّاً. وهو بالأخصّ
النفس الضحية الَّتِي تبذل ذاتها بدافع المحبّة. فالله لا يراقب اللباس بل النفس.
الحقّ أقول لكم، إِنَّ أمام عينيّ يتبدّى كُثْرٌ مِنْ مقصوصي الشعر ليس لهم مِنْ
الكهنوت سوى قصّ الشعر. وكثير مِنْ الأشخاص العلمانيّين، الَّذِينَ تتملّكهم
المحبّة وبها يبذلون أنفسهم، وهي لهم زيت الرسامة الَّذِي يجعل منهم كهنة
لي، يجهلهم العالم ولكنّني أعرفهم وأباركهم.»

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

21- (يوحنا يمضي لاصطحاب الأم)

1944 / 04 / 07 الجمعة العظيمة، الساعة 10:30

في هذه الساعة يقول لي مَنْ ينبّهني داخلياً (محدثي الداخلي) أَنْ يوحنا قد ذهب إلى الأم.

أرى المفضلّ شاحباً أكثر ممّا كان عليه في دار قيافا مع بطرس. ربّما كان وميض النار هناك يعكس حرارته على الخدين. الآن يبدو شديد النحول، فاقداً للدم كما بعد مرض شديد. يبرز وجهه من جلبابه الليلكيّ كوجه غريق من شدة الشحوب. عيناه أيضاً مظلمتان، شعره كالح ومشعث، ذقنه التي نمت خلال تلك الساعات تلقي وشاحاً فاتحاً على وجنتيه وذقنه، فتظهره بشقرته الفاتحة أكثر شحوباً. لم يعد له من وداعة، من فرح يوحنا، ولا أيضاً من يوحنا الغاضب الذي منذ قليل، في ثورة غيظه، تمالك نفسه بصعوبة في التعامل بقسوة مع يهوذا.

يقرع باب البيت، وحيث أنّ أحد الذين في الداخل، خشية أن يجد في مواجهته يهوذا مجدّداً، يسأل من الطارق، فيجيب: «هذا أنا يوحنا». فيفتّح الباب ويدخل.

هو أيضاً يمضي في الحال إلى قاعة العشاء (العلية) دون أن يردّ على صاحبة البيت التي تسأله: «ولكن ما الذي يحدث في المدينة؟»

يحبس نفسه داخلاً ويسقط على ركبتيه أمام الكرسي حيث كان يجلس يسوع ويبكي وهو يناديه بألم. يُقبل المفروش حيث كان يسوع يضمّ يديه،

يمسح بلطف الكأس الذي كان بين أصابعه... ثم يقول: «آه! أيها الله العليّ، ساعدني! ساعدني لأقول ذلك للأُم! لا أملك الشجاعة!... مع ذلك عليّ أن أقوله لها. أنا من عليّ أن أقوله لأنني بقيتُ وحيداً!»

ينهض ويفكر. يلمس مرّة أخرى الكأس كي يستمدّ القوّة من هذا الشيء الذي لمسّه المعلم. ينظر حوله... ويرى أيضاً في الركن المنشفة حيث وضعها يسوع والتي استعملها في مسح يديه بعد غسل الأرجل، والأخرى التي ربطها على وسطه. يتناولهما، يطويهما، يلامسهما ويقبّلهما. يبقى حائراً، منتصباً وسط الغرفة الخالية. يقول: «لنمضِ!» ولكنه لا يتّجه إلى الباب. بل على العكس يرجع إلى المائدة، يأخذ الكأس والخبز الذي قطع منه يسوع جزءاً ليأخذ اللقمة ويعطيها مغموسة ليهوذا. يقبّلها ويأخذها مع المنشفتين ويضمّهما إلى قلبه كالذخيرة. ويكرّر: «لنمضِ!» ويتنهد. ويسير نحو السلم الصغير ويصعد، ظهره مقوس، بخطوة متثاقلة متردّدة. يفتح ويخرج.

«يوحنا، أتيتَ؟» وتظهر مريم ثانية على باب غرفتها، متّكئة على إطار الباب كما لو كانت غير قادرة على الوقوف وحدها.

يرفع يوحنا رأسه وينظر إليها. يودّ أن يتكلّم ويفتح فمه، ولكنه لا يقدر. تنساب دمعتان على وجنتيه. يحني رأسه خجلاً من ضعفه.

«تعال هنا يا يوحنا، لا تبكي. ليس لك أن تبكي. أنت أحببته دائماً وكنت باعث فرح له. فليكن هذا عزاءك.»

تفتح هذه الكلمات سدود دموع يوحنا. فيبكي بشدّة وبنحيب جعل سيّدة المنزل تأتي، ومريم المجدليّة وامرأة زبدي والأخريات...

«تعال إليّ يا يوحنا.» وتترك مريم الإطار وتمسك بيدها التلميذ وتسحبه إلى داخل غرفتها كما لو كان طفلاً؛ وتغلق الباب بهدوء كي تبقى معه بمفردها.

يوحنا لا يقاوم، ولكن حينما يحسّ بيد مريم المرتعشة على رأسه، يسقط على ركبتيه واضعاً الأشياء التي كان يضمّها إلى قلبه على الأرض، ووجهه إلى الأرض، ممسكاً طرف ثوب مريم على وجهه المتشنّج، يشهق: «سامحيني! سامحيني! أمّي سامحيني!»

مريم، واقفة وقلقة، يد على قلبها والأخرى على امتداد جسمها، تقول له بصوت ممزّق: «ماذا عليّ أن أغفر لك يا ولدي المسكين؟ ماذا؟ لك أنت!»

يرفع يوحنا وجهه، مُظهرًا إيّاه كما هو، دون أثر للكبرياء الرجوليّ: وجه ولد مسكين يبكي، ويصيح: «لأنّني هجرته! لأنّني هربت! لأنّني لم أدافع عنه! آه! معلّمي! أيا معلّمي! المغفرة! كان عليّ أن أموت قبل أن أتركك! أمّي، أمّي، مَنْ يرفع عني الآن تأنيب الضمير هذا؟»

«اهداً يا يوحنا. هو يغفر لك، وقد غفر لك. إنّهُ لا يبالي أبداً بضعفك. فهو يحبّك.» تتكلّم مريم وهي تتوقّف بين جملها القصيرة، كما لو كانت تلهث، واضعة يداً فوق رأس يوحنا والأخرى على قلبها المسكين الذي جعله الضيق يخفق.

«ولكنّي لم أحسن فهمه ولا حتّى في مساء الأمس... ونمت بينما كان يطلب تعزية سهرنا. يسوعي تركّته وحيداً! ثمّ هربتُ عندما جاء هذا الملعون مع قطاع الطرق...»

«يوحنا، لا تلعن. لا تكره يا يوحنا. دع القضاء للآب. اسمع: أين هو الآن؟»

يسقط يوحنا من جديد، وجهه إلى الأرض وهو يبكي بأكثر شدة.

«أجب يا يوحنا، أين ابني؟»

«أُمِّي... أنا... أُمِّي، هو... أُمِّي...»

«لقد دين، أنا أعلم. أسألك: أين هو في هذه اللحظة.»

«لقد بذلتُ قصارى جهدي كي يراني... سعيْتُ لدى ذوي السُّلطة للحصول على الرحمة، كي أجعله... كي أجعله يعاني أقلّ. لم يفعلوا به شراً كثيراً...»

«لا تكذب يا يوحنا. ولا حتّى إشفافاً على أمّ. لن تنجح بذلك وسيكون عبثاً. أنا أعلم. منذ مساء الأمس وأنا أتابعه في آلامه. إنّك لا ترى ذلك. إنّما جسدي قد تمزق من جلده، على جبيني هي الأشواك، شعرتُ بالضربات... كلّ شيء. أمّا الآن... فلم أعد أرى. الآن أنا أجهل أين هو ابني المحكوم عليه بالصلب!... بالصلب!... بالصلب!... آه! إلهي، أعطني القوّة! يجب أن يراني. يجب ألاّ أشعر بألمي طالما هو يشعر بآلمه. لاحقاً، عندما سينتهي كلّ شيء... اجعلني أموت أيا إلهي، حينذاك، إن شئت. الآن لا. من أجله هو لا. كي يراني. هيّا بنا يا يوحنا. أين هو يسوع؟»

«رحل من منزل بيلاطس. هذا الصباح، هو من الجمع الذي يصيح حوله، وهو مقيد على درجات دار الولاية، ينتظر الصليب أو هو يسير نحو الجلجلة.»

«يوحنا، أخبر أمك، والنساء الأخريات. ولنذهب. خذ هذا الكأس، هذا الخبز، وهذه الأقمشة... ضعها هنا. ستكون تعزية لنا... فيما بعد... ولنذهب.»

يجمع يوحنا الأغراض التي بقيت على الأرض ويخرج ليدعو النساء. ومريم تنتظره وهي تمرر هذه الأقمشة على وجهها، كما كي تشعر من خلالها بلمسات يد ابنها؛ تُقبل الكأس والخبز وتضع الكل على رَفِّ. تلتفت بردائها الذي تُنزله على عينيها، فوق الوشاح الذي يغطي رأسها وتلقه حول رقبتها. إنها لا تبكي، بل ترتعش. ويبدو كأنّ الهواء غير كاف من فرط ما تلهث وفمها مفتوح. يرجع يوحنا تتبعه النساء باكيات.

«بناتي، اصمتن! ساعدنني كي لا أبكي! هيا بنا.» وتتكى على يوحنا الذي يقودها ويسندها كما لو كانت عمياء.

تتوقف الرؤيا هكذا. إنها الساعة الثانية عشرة والنصف، أي الساعة الحادية عشرة والنصف حسب الساعة الشمسية.

(النص أدناه كان مدرجاً في نسخة 1985، وهو لم يعد موجوداً في النسخة الإيطالية ولا في النسخة الإنكليزية الحالية، فقد تم إدراجه في دفاتر 1944 تاريخ 7 نيسان [أبريل])

...بعد ذلك، من الساعة ١٣ إلى ١٦ (التوقيت الشمسي) بقيت خائفة، لست غافية بل في إعياء شديد حتى لم أكن قادرة على الكلام ولا الحركة ولا فتح العينين. كان بإمكانني فقط أن أتألم، ودون أن أرى شيئاً رغم أنني في ألمي كنتُ أتأمل في نزاع يسوع. وفجأة، في الساعة ١٦، بينما كنتُ أفكر في

يديه المسمّرتين، رأيتُ موت يسوع. شيئاً واحداً فقط: الموت. إدارة الرأس من الشمال إلى اليمين في تشنّج أخير، نفث آخر زفرة عميقة، تحريك الفم في محاولة نطق كلمة تحوّلت، بسبب استحالة نطقها، إلى أنين عميق انتهى بشهقة بسبب الموت الذي يكتم الصوت، والبقاء هكذا، بعينين مغمضتين وفم نصف مفتوح، للحظة برأس مستقيم، متصلّب على العنق كما من تشنّج اختلاجي داخليّ، ثمّ وهو يهوي إلى الأمام ولكن إلى اليمين. لا شيء آخر.

بعدها استعدتُ شيئاً من القوّة، إنّما قليلاً جداً حتّى الساعة ١٩ (توقيت شمسي)، وثمّ من جديد رحّت في غفوة رهيبة حتّى بعد منتصف الليل. لم أجد أيّة سلوى من رؤيا. أنا وحيدة، أنا كذلك مثل مريم بعد الدفن. لا رؤى ولا كلام، وأتألم لذلك للغاية. لتعزيتي قليلاً، أخذتُ أصف يسوع كما كنتُ قد رأيته مساء أمس، عندما توضّح لي وداع مريم قبل العشاء.

كان يسوع جاثياً عند قدميّ مريم يعانق خصرها مسنداً رأسه على ركبتيها ثمّ رافعاً إياه بالتعاقب لينظر إليها. النور من مصباح مثلث الرؤوس، موضوع على زاوية المائدة بالقرب من كرسيّ مريم، وينير بمجمله وجه يسوعي. على عكس الأمّ التي بقيت في الظلّ لأنّ النور كان خلفها، أمّا يسوع فقد كان مناراً جيّداً.

كنتُ تائهة في تأمل وجهه وأنا ألاحظ أدقّ التفاصيل. وأكرّر ذلك ثانية. الشعر مفروق وسط الرأس ويسقط خصلاً طويلة على الكتفين، مموج بطول شبر، وينتهي بحلقات حقيقيّة. لامعاً، ناعماً، مصفّفاً، بلون أشقر فاقع، منتهية أطرافه خاصّة بلون نحاسيّ واضح. جبهة مرتفعة جداً، جميلة للغاية، ملساء، الصدغان غائران قليلاً عليهما عروق زرقاء تلقي ظلاً نيلياً خفيفاً يشفّ من

تحت الجلد الناصع البياض، من هذا البياض الخاصّ ببعض الأشخاص ذوي الشعر الأشقر المحمرّ: هو بياض حليبيّ يميل قليلاً إلى اللون العاجيّ إنّما مع مسحة زرقاء، وجلد رفيف جداً كأنّه تويج الكاميليا البيضاء، دقيق تشفّ عنه العروق الدقيقة، وحساس لدرجة إظهار كلّ انفعال سواء كان شحوباً شديداً أو احمراراً زاهياً.

أمّا يسوع فإنّي أراه دائم الشحوب وقد لوّحته الشمس قليلاً نتيجة تنقلاته في أوقات مختلفة في فلسطين. مريم، على العكس، أكثر بياضاً لأنّها عاشت منعزلة أكثر في البيت وبياضها أكثر وردية. بياض يسوع عاجيّ بظلال زرقاء. أنفه طويل مستقيم، مقوس بخفة بالقرب من العينين، أنف رقيق وجميل التكوين غاية الجمال. العينان عميقتان، غاية في الجمال، لهما لون وصّفته كثيراً بلون الياقوت الأزرق الداكن جداً. الأهداب والحاجبان كثيفة، إنّما ليس كثيراً، طويلة، جميلة، مشرقة، كستنائية داكنة بومضة ذهبية في نهاية كلّ شعرة. أمّا شعر مريم فعلى العكس، فهو كستنائي فاتح جداً، وأدقّ وأقلّ كثافة. ربما تبدو هكذا لأنّها فاتحة أكثر حتّى إنّها تكاد تكون شقراء. فم يسوع منسّق، يميل إلى الصغر، دقيق الرسم يشبه كثيراً فم أمّه، الشفتان بضخامة مناسبة، ليستا من الرفع حتّى تبدوا ملتويتين ولا هما بارزتان كثيراً. في الوسط هما مدورتان لهما انحناء جميلة؛ نهايتاهما تتلاشيان فتظهران أقلّ صغراً ممّا هو عليه الفم الجميل للغاية، لهما لون أحمر سليم ينفّث على صفّ من الأسنان المنتظمة، القويّة، أسنان مائلة إلى الطول وناصعة البياض. أسنان مريم على العكس، صغيرة ولكن منتظمة ومتساوية.

الخدّان نحيلان، ولكنّهما ليسا هزيلين. متطاولان وقليلًا البيضاوية ولكنّهما غاية في الجمال، الوجنتان ليستا ناتئتين كثيراً ولا شديديّ الانحدار.

الحية كثيفة على الذقن وتنقسم إلى طرفين مجعدين، تحيط بالفم، دون أن تغطيه، حتى تستقرّ عند الشفة السفلى وتصعد أقصر فأقصر تجاه الخدين حيث تصبح في أعلى زاوية الفم غاية في القصر فتقتصر على إضفاء ظلّ يذكرّ بغبار النحاس على شحوب الوجنتين. حيث هي كثيفة، فلها لون النحاس الداكن: شُقرة حمراء داكنة. وكذلك الشاربان ليسا كثيريّ الكثافة وهما قصيران، بحيث يكادان يغطيان الشفة العلوية بين الأنف والشفيتين ويتوقّفان عند ركنيّ الفم. الأذنان صغيرتان، حسنتا التكوين مسندتان على الرأس وغير متباعدتين.

حبّي له صار أعمق ومفعماً تعاطفاً مع آلامه وأنا أراه بهذا الجمال، بينما أفكّر كم رأيته مشوّهاً عندما ظهر لي مرّات عديدة مساء أمس أثناء آلامه أو بعدها. وحينما كنتُ أراه ينحني وهو يضع رأسه على صدر مريم، كالطفل المحتاج إلى الملاطفة، كنتُ أتساءل مرّة أخرى كيف استطاع الناس أن يثوروا ضده، وهو الوديع والطيب في جميع أفعاله مستميلاً القلوب لمجرّد مظهره. كنتُ أرى يديه الجميلتين الطويلتين الشاحبتين تعانقان ردف مريم، حزام مريم، ذراعيّ مريم، وكنتُ أقول لنفسي: «عماً قليل سيُثقبان بالمسامير!» وكنتُ أتألم. وكان ألمي واضحاً حتى لمن هم الأقلّ ملاحظة.

تقتُ إليك اليوم كثيراً، يا أبي، إذ كان يبدو لي أنّ قلبي ينفجر أو يرتخي بالتناوب، ويبدو لي كأنّي منذ أجيال لم ألاقِ يسوع. لحسن الحظ أنّها الساعة الثانية من صباح السبت وساعة المناولة تقترب. ولكنني وحيدة. يسوع صامت، ومريم صامتة، ويوحنا صامت. وكنتُ آمل فيه على الأقلّ، لا شيء. صمت مطبق وظلمة مطلقة. حقاً إنّهُ الغمّ...

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

22- (من دار الولاية إلى الجلجلة)

1945 / 03 / 26

بعد إدانته، يبقى يسوع هكذا، يحرسه الجنود في انتظار الصليب، (يمضي بعض الوقت هكذا) ليس أكثر من نصف ساعة، ربّما أقلّ. ثمّ يعطي لونجين المكلف بتولّي شأن التنفيذ أوامره.

ولكن قبل أن يُقاد يسوع خارجاً، إلى الطريق، كي يتلقّى الصليب ويبدأ المسير، ينظر إليه لونجين مرّتين أو ثلاث مرّات بفضول مُتّسم بالتعاطف، وبنظرة المتعوّد على بعض الأمور، يقترب من يسوع مع جنديّ ويقدم له، إرواءً لعطشه، كوب نبيذ، على ما أظنّ، لأنّ سائلاً له شُقرة وردية فاتحة صُبّ من قارورة معدنية عسكرية. «سوف يفيدك. لا بدّ أنّك تشعر بالعطش، وفي الخارج شمس، والطريق طويلة هي.»

ولكنّ يسوع يجيب: «فليكافئك الله على رحمتك، ولكن لا تحرم نفسك.»
«ولكن أنا سليم وقويّ... أنت... أنا لا أحرّم نفسي... ثمّ إنّني أفعل ذلك في هذا الظرف بطيبة خاطر كي أشدّد عزمك... جرعة واحدة... كي تُظهر لي أنّك لا تكره الوثنيين.»

لم يعد يسوع يرفض ويشرب جرعة من الشراب. كانت يدها محرّرتين، كما لم يعد معه القصبّة ولا خرقة القماش ويمكنه أن يفعل هذا بنفسه. وبعد ذلك يرفض، رغم أنّ الشراب البارد والطيب يخفّف الحمى المتبدّية بآثار حمراء تتأجّج على خديه الشاحبين وعلى شفّتيه الجاقتين، المشقّقتين.

«خذ، خذ. هذا ماء وعسل. هذا يسندك، يرويك... أنت تثير شفقتي.. نعم... شفقتي... لم تكن أنت من يجب أن يُقتل بين العبرانيين... وأسفاه!... أنا لا أكرهك... وسأحاول ألا أجعلك تتألم إلا فيما لا بدّ منه.»

ولكنّ يسوع لم يشرب ثانية... كان حقاً عطشاناً... العطش الرهيب، عطش من فقد الكثير من الدم والمحموم... هو يعلم أنّه ليس شراباً مخدراً ويشربه طوعاً، ولكنّه لا يريد ألماً أقلّ. ولكنّي أدرك، كما أفهم ما أقول بفضل نور داخليّ، أنّ شفقة الرومانيّ تعزيّه أكثر من الماء بالعسل.

«فليردّ الله لك هذه التعزية بالبركات.» يقول بعد ذلك. وما يزال يبتسم... ابتسامة ممزّقة بغم منتفخ، مجروح، يحركه بصعوبة، كذلك لأنّ الجزء ما بين الأنف والوجنة اليمنى مرضوض بشدّة ومتورّم بسبب ضربة العصا التي تلقّاها في الباحة الداخليّة بعد الجلد.

يصل اللصّان يحيط بكلّ منهما عشرة جنود. إنّها ساعة الرحيل. لونجين يُصدر أوامره الأخيرة.

وحدة مئة انتظمت في صفّين يبعد الواحد عن الآخر مسافة ثلاثة أمتار، لتخرج هكذا إلى الميدان، حيث وحدة مئة أخرى شكّلت مربّعاً لإبعاد الجمع حتّى لا يعيق الموكب. عند الميدان الصغير، هناك الخيّالون: وحدة من عشرة فرسان بالإضافة إلى قائدهم الشاب الذي يأمرهم ويوجّههم. جنديّ مترجّل يمسك لجام الحصان الأدهم لقائد المئة. يمتطي لونجين السرج ويتقدّم الأحد عشر فارساً بحوالي المترين.

تُحْضَرُ الصَّلْبَان: صليبا اللصين أقصر. وصليب يسوع أطول كثيراً. أقول إنّ القطعة الطوليّة لا تقلّ عن أربعة أمتار. أرى الصليب وقد جُلِبَ كاملاً.

قرأتُ عن هذا الموضوع، عندما كنتُ أقرأ... أي منذ أعوام، أنّ الصليب قد تمّ تجميعه على قَمّة الجلجلة وأنّ المحكومين يحملون العارضتين فقط على أكتافهم طوال الطريق. ممكن، ولكنني أرى صليباً حقيقياً كامل التكوين، متيناً، مع ذراعين معشّقين في القطعة الرئيسيّة ومثبتاً جيداً بالمسامير والبراغي. بالفعل، لو فكّر المرء أنّه كان معدّاً لحمل ثقل لا يُستهان به، الذي هو جسد شخص بالغ، ولتحمله أيضاً أثناء التشنّجات الأخيرة، وهي كذلك لا يُستهان بها، لأدرك أنّه لا يمكن تشكيله على القمّة الضيّقة وغير المريحة للجلجلة.

قبل إعطاء الصليب ليسوع، تُعلّق على رقبتّه لافتة مفادها «يسوع الناصريّ ملك اليهود». والحبْل الذي يمسك اللافتة يشتبك مع الإكليل، الذي يتحرّك ويخدش حيث لم يكن من خدوش ويخترق نقاطاً جديدة مسبّبة له آلاماً جديدة ومسيلة الدم من جديد. يضحك الناس بفرح ساديّ، يهينون، يشتمون.

الآن هم مستعدّون، ولونجين يعطي أمر المسير: «في المقدّمة الناصريّ، خلفه اللصّان؛ عشرة جنود حول كلّ منهم، الوحدات العشريّة السبع الأخرى كما جناحين وكدعم، وسيكون مسؤولاً الجندي الذي يجعل المحكومين يُضربون حتّى الموت.»

يَنزِلُ يسوع الدرجات الثلاث المؤدّية إلى الميدان من البهو. ويَظهر واضحاً في الحال أنّ يسوع في حالة وهن شديد. إنّهُ يترنّح وهو ينزل

الدرجات الثلاث، متعثراً بالصليب الذي يضغط على كتفه المجلوط بالكامل،
ومن اللافتة التي تتحرك أمامه وتحزّ بحبلها رقبتة، ومن تأثير ذبذبة القطعة
الطويلة للصليب على الجسد التي تقفز على الدرجات وعلى خشونة الأرض.

يضحك اليهود وهم يرونه مثل رجل سكران يتأرجح ويصيحون
بالجنود: «ادفعوه. اجعلوه يسقط على التراب، هذا المجدّف!»

ولكنّ الجنود يفعلون فقط ما عليهم أن يفعلوه، أي يأمرّون المحكوم أن
يسلك منتصف الطريق ويسير. يحثّ لونجين حصانه ويتحرّك الموكب بطيئاً.

ولونجين يودّ أيضاً أن يسرع، بسلوك الدرب الأقصر للمضيّ إلى
الجلجلة، لأنّه لم يكن واثقاً من تحمّل المحكوم. ولكنّ العصابة الهائجة
وتسميتهم هكذا (بالعصابة)، هو أيضاً شرف- لم تُرد هذا. فالأكثر خبثاً كانوا
قد تقدّموا إلى مفترق الطرق حيث تتفرّع الطريق من جهة تجاه الأسوار ومن
الأخرى تجاه المدينة. فيثورون، ويصيحون حينما يرون لونجين يسعى
لسلوك الطريق التي باتجاه الأسوار. «ليس لك هذا! ليس لك هذا! هذا غير
قانوني! الشريعة تقول إنّ المدينة كلّها يجب أن ترى المحكومين حيث
ارتكبوا الخطأ!» واليهود الذين في نهاية الموكب، يُدركون أنّ في المقدّمة
هناك محاولة لحرمانهم من حقّ لهم، فيضمّون صياحهم لصياح زملائهم.

حُبّاً بالسلام، يتّخذ لونجين الطريق المؤدّية إلى المدينة ويقطع مسافة
منها. ولكنّه يشير كذلك إلى قائد عشرة أن يقترب منه (أقول قائد عشرة لأنّ
له رتبة وقد يكون كمن نطلق عليه صفة ضابط مرافق) ويقول له على مهل
أمراً ما. هذا يرجع إلى الخلف وهو يهرول، وينقل الأمر إلى كلّ قائد عشرة

يصل إليه. ثم يرجع إلى لونجين كي يقول له بأن الأمر قد نُقِل. وأخيراً يعود إلى مكانه الأولي في الصف الذي هو وراء لونجين.

يتقدّم يسوع لاهثاً. كلّ حفرة في الطريق هي شرك لقدميه المترنّحتين وعذاب لكتفيه المجلوطين، ولرأسه المكّلل بالشوك والذي تسقط عليه مباشرة شمس شديدة الحرارة تختفي من وقت إلى آخر خلف ستار من سحب رمادية، ورغم اختفائها لا تتوقّف عن الإحراق. يسوع محتقن من التعب، والحمّى، والحرارة. أعتقد أنّ النور نفسه والصيحات تعذّبه. وإن لم يكن يستطيع سدّ أذنيه كي لا يسمع تلك الصيحات الهائجة، فإنّه يغلق قليلاً عينيه كي لا يرى الطريق المبهرة من الشمس... إنّما عليه كذلك أن يفتحهما لأنّه يتعثّر بالحجارة والحفر، وكلّ مرّة يتعثّر فيها، يتألّم لأنّ الصليب يتحرّك بغتة ويصدم الإكليل، ويتزحزح على كتفيه المجلوطين ويوسع جرحه ويزيد من ألمه.

لم يعد بوسع اليهود أن يضربوه مباشرة؛ ولكن ما زالت تصل إليه بعض الحجارة وبعض ضربات من العصيّ، الأولى، بشكل خاصّ في الساحات الصغيرة المزدحمة بالناس، والثانية على العكس عند المنعطفات، في الشوارع الصغيرة التي تصعد وتنزل بدرجات، أحياناً واحدة وأحياناً ثلاثة وأحياناً أكثر، بسبب اختلاف المستويات المتواتر في المدينة. وهناك، يبطئ الموكب بالضرورة، ويوجد دائماً متطوّع (!) يتحدّى الرماح الرومانيّة كي يكيل ضربة جديدة لآية التعذيب الذي هو يسوع الآن.

يدافع عنه الجنود قدر استطاعتهم. ولكن حتّى وهم يدافعون عنه كانوا يضربونه، لأنّ التلويح بالأذرع الطويلة للرماح في مسافة قصيرة، تصدمه

وتجعله يتعثّر. ولكن عند الوصول إلى إحدى النقاط يقوم الجنود بحركة لا غبار عليها، ورغم الصيحات والتهديدات، ينحرف الموكب فجأة في درب يتّجه مباشرة إلى الأسوار، نزولاً، عبر درب يختصر الطريق كثيراً إلى موقع الإعدام.

يسوع يلهث باطّراد. يسيل العرق على وجهه في الوقت الذي يسيل الدم من جراح إكليل الشوك. الغبار يلتصق بوجهه المبلّل ويلطّخه ببقع غريبة، لأنّ هناك كذلك ريح الآن. هَبّات من ريح بفواصل طويلة بحيث تُسقط الغبار الذي يرفعه الناس كزوابع، تؤدي بالبقايا إلى داخل العينين والحلق.

عند باب القضاء يتزاحم الآن أشخاص وأشخاص. هؤلاء الذين توقّعوا فبُكّروا في الحضور كي يختاروا أفضل مكان للرؤية. ولكن قبل الوصول إليهم بقليل، يوشك يسوع على السقوط. وفقط التدخل السريع من أحد الجنود، الذي أوشك يسوع أن يسقط عليه يمنعه من الوصول إلى الأرض. يضحك الجمهور ويصيحون: «دعوه! كان يقول للجميع: "انهضوا" فلينهض هو الآن...»

إلى ما وراء الباب، هناك سيل وجسر صغير. تعب جديد ليسوع أن يمضي فوق هذه الألواح المتفكّكة التي تنتنّط عليها بقوة خشبة الصليب الطويلة. ومنجم قذائف جديد لليهود. حجارة من السيل تطير وتضرب الشهيد المسكين...

حينئذ يبدأ الصعود إلى الجلجلة. درب عارٍ، بلا أثر لظلّ، حجارته مفكّكة، تستهلّ الصعود مباشرة.

هنا أيضاً، عندما كنتُ أقرأ، قرأتُ أنّ الجلجلة لم تكن لترتفع أكثر من بضعة أمتار. ممكن. فهو ليس جبلاً بالتأكيد. إنه تلّ، وبالتأكيد جبل الصلب أكثر انخفاضاً مقارنة بـ لونغارني حيث توجد كاتدرائية القديس مينيأتو في فلورنسا. قد يقال: «آه! هذا ليس بشيء!» نعم، بالنسبة لمن هو سليم وقويّ هذا ليس بشيء. ولكن يكفي أن يكون القلب ضعيفاً، لمعرفة إن كان سهلاً أم صعباً!... أنا أعلم أنّه بعد الإعياء بالقلب، حتّى ولو كان النهج بسيطاً، لم أكن لأستطيع تسلّق هذا المنحدر دون كثير ألم، ولكان عليّ التوقّف في كلّ لحظة، وبلا حمل على الأكتاف. وأعتقد أنّ قلب يسوع كان مريضاً جداً خاصّة بعد الجلد والتعرّق الدمويّ... ولا أتأمّل بشيء آخر غير هذين الأمرين.

يحيى يسوع إذن بألم حادّ في الصعود، ومع ثقل الصليب الذي لا بدّ أنّه، بسبب طوله، غاية في الثقل.

يصادف حجراً بارزاً، وبسبب إنهاكه يرفع قدمه قليلاً جداً، فيتعثّر ويسقط على ركبته اليمنى، ومع ذلك ينجح في النهوض بمساعدة يده اليسرى. ويُطلق الناس صيحات فرح... يقف مجدّداً، يتقدّم، بأكثر انحناء ولاهثاً، محتقناً، ومحموماً...

اللافتة التي تهتزّ أمامه، تعيق الرؤية، وثوبه الطويل، بما أنّه يتقدّم الآن مقوس الظهر، يسترسل على الأرض من الأمام ويعرقل مشيته. يتعثّر من جديد ويسقط على ركبتيه، ويُجرّح من جديد حيث هو مجروح، والصليب الذي ينفلت من يديه ويسقط، بعد أن يرتطم بقوة على ظهره، يضطرّه على الانحناء لرفعه وإعادة وضعه بعناء على كتفيه. وبينما هو يفعل ذلك يُرى بوضوح جرح كتفه الأيمن الناجم عن احتكاك الصليب، الذي فتح جراح

الجُدّ العديدة ليجعل منها جرحاً واحداً ينضح ماءً (مصلاً) ودماً، لدرجة أنّ الجلباب صار كلّه مبقّعاً في تلك المنطقة. حتّى إنّ الناس يصفقون بسعادة لهذه السقطة السيئة للغاية.

يحتّ لونجين على الإسراع، والجنود، بلكرات من صفائح سيوفهم القصيرة، يحتثون المسكين يسوع على التقدّم. يعاودون السير ببطء أكبر رغم كلّ الجهود.

يبدو يسوع كالسكران تماماً من فرط ترنّحه أثناء السير، يصطدم تارة بهذا وأخرى بذاك الصفّ من صفّي الجنود الذين يشغلون الطريق كلّها. ينتبه إليه الناس ويصيحون: «مذهبه تصاعد إلى رأسه. انظروا، انظروا كيف يترنّح!» وآخرون، ليسوا من الشعب، ولكن من الكهنة والكتبة، يسخرون: «لا! بل هي ولائم منزل لعازر الّتي ما زالت تصعد إلى رأسه. هل كانت لذينة؟ والآن كلّ طعامنا...» وعبارات أخرى مشابهة.

لونجين، الّذي يلتفت من آن إلى آخر، يشفق عليه ويأمر بالتوقّف لبضعة دقائق. فيهينه الرعاع، حتّى إنّ قائد المئة يأمر جماعته بإجراء اللازم. فيتراجع الجمهور الجبان، أمام الرماح الّتي تلمع وتُهدّد، فيبتعدون وهم يصيحون وينحدرون هنا أو هناك على الجبل.

وهنا أعاود رؤية جماعة من الرعاة صغيرة يخرجون من خلف أنقاض، قد يكون جداراً صغيراً مُهدّماً. إنهم حزانى، مضطربون، يكسوهم الغبار، ممزّقون، ينادون المعلّم بقوة نظراتهم. فيدير رأسه، يراهم... يحدّق فيهم كما لو أنّهم وجوه ملائكة، ويبدو كأنّه يرتوي ويتقوى بدموعهم، ويبتسم...

وَتُعْطَى الأوامر مجدّداً بالتقدّم، ويمرّ يسوع تماماً بمحاذاتهم ويسمع بكاءهم القلق. يدير بصعوبة رأسه من تحت نير الصليب ويبتسم لهم ثانية.

تعزياته... عشرة وجوه... تَوْقُف تحت الشمس المُحْرِقة...

ثمّ على الفور، آلام السقطة الثالثة الكاملة. وهذه المرّة، ليس لأنّه تعرّض. ولكنّه يسقط بسبب إغماءة ناتجة عن خور قوّته الفجائيّ. يسقط بكلّيته ويرتطم وجهه بالحجارة المفكّكة، ماکثاً في التراب تحت الصليب الساقط عليه. يحاول الجنود رفعه. ولكن بما أنّه يبدو كأنّه ميت، يبلغون قائد المئة. وبينما هم ذاهبون وراجعون، يستعيد يسوع وعيه، وببطء، بمساعدة اثنين من الجنود أحدهما يرفع الصليب والآخر يساعد المحكوم على الوقوف، يعود إلى مكانه. إنّهُ حقّاً منهمك.

«احترسوا كيلا يموت إلّا على الصليب!» يصيح الجمع.

«لو جعلتموه يموت قبلاً، سيستجوبكم الوالي، تذكّروا هذا. يجب أن يصل المحكوم حيّاً إلى الإعدام.» يقول رؤساء الكتّبة للجنود.

يرشقهم الجنود بنظرات قاسية، إنّما لا يتكلّمون تبعاً للنظام.

لونجين، حينذاك، الذي لديه خشية اليهود ذاتها من أن يموت المسيح على الطريق، وهو لا يبغي المشاكل. ودون الحاجة لأن يُذكّره أحد، فهو يعرف واجبه كمكّلف بالتنفيذ وتدبير ذلك. ويتدبّر الأمر بتضليل اليهود الذين هرعوا إلى الأمام من الطريق التي وفدوا إليها من كلّ اتّجاه في الجبل وهم يتصبّبون عرقاً، خادشين أنفسهم كي يمرّوا عبر الأدغال القليلة والشائكة في هذا الجبل المجدب والمحروق، ساقطين على حُتّات الصخور التي تعيقهم كما

لو أنّ المكان كان مكبّ أنقاض لأورشليم، دون الشعور بأيّ عناء غير فقدان أيّ جزء من لهاث الشهيد، نظرة واحدة من نظراته الأليمة، حركة وإن كانت لا إرادية من العذاب، ودون خوف من شيء غير التوصل إلى الحصول على أفضل مكان. لونجين إذن يُصدر الأمر بسلوك الطريق الأطول، الذي يصعد بتعرج إلى القمة ولهذا هو أقلّ سرعة.

يبدو أنّ هذا المسلك، من كثرة ارتياده، قد استحال درباً مألوفاً كفاية. وهذا يتقاطع مع درب آخر يصل إلى منتصف الجبل تقريباً. ولكنني أرى أنّ في مكان أعلى، لأربع مرّات، الطريق المباشرة تتقاطع مع هذه، التي تصعد بانحدار أخفّ كثيراً وبالمقابل فهي أطول كثيراً. وعلى هذه الطريق هناك أناس يصعدون، ولكن لا يشاركون الغوغائيين في صخبهم المشين وهم يتبعون يسوع للتمتّع بعذابه: معظمهم من النساء الباقيات المتحجّبات، ومجموعات صغيرة من الرجال قليلة العدد في الحقيقة، يتقدّمون كثيراً عن النساء اللواتي يكدن يختفين عن الأنظار، عندما، أثناء المتابعة، ينعطف حول الجبل. هنا الجلجلة لها، في تشكيلها الغريب، حدة على شكل خطم من جهة، بينما من الجهة الأخرى تهبط عمودياً.

يختفي الرجال خلف الحدة الصخرية ولم أعد أراهم.

الناس الذين كانوا يتبعون يسوع يزعمون من الغيظ. كان الأجمل، بالنسبة إليهم، رؤيته يسقط. ومع اللعنات البذيئة للمحكوم وللذين يقودونه، يتبع البعض الموكب القضائيّ والبعض الآخر يصعدون جرياً تقريباً من الطريق السريعة لتعويض إحباطهم بمكان ممتاز على القمة.

النساء اللواتي يتقدّمن باكيات، يستدرن حين يسمعن الصيحات، ويرين الموكب ينعطف من تلك الجهة. يتوقّفن آنذاك ساندات الظهر على الجبل، خائفات من أن يرميهنّ إلى أسفل اليهود العنيفين. يُنزلن الأوشحة أكثر على وجوههنّ، وواحدة منهن متوشّحة بالكامل كالمنقّبة، غير مُحرّرة سوى عينيها السوداوين جدّاً. إنّهن يلبسن ملابس فاخرة، ومعهن رجل عجوز قويّ للدفاع عنهنّ، ولأنّه ملتحف معطفه، لم أميّز وجهه. لا أرى سوى ذقنه الطويلة التي يغلب فيها البياض على السواد، والتي تبرز من ردائه الداكن.

عندما يصل يسوع إلى موضعهنّ، يبكين بشدّة أكبر وينحنين في تحيّات عميقة. ثمّ يتقدّمن بعزم. يريد الجنود إبعادهنّ برماحهم، ولكن تلك المتوشّحة كمنقّبة تزريح وشاحها للحظة أمام الفارس الواصل على حصان كي يرى هذا العائق الجديد، ويعطي أمراً بالسماح لها بالمرور. لم أستطع رؤية وجهها ولا ثوبها، لأنّها أرجعت وشاحها بسرعة البرق وملابسها مغطّاة بالكامل بردائها الواصل إلى الأرض، الثقيل، المقفل بالكامل بصفّ من الحلقات. اليد التي خرجت للحظة لتكشف الوشاح، بيضاء وجميلة، وعيناها السوداوان هما الشيء الوحيد الذي يمكن رؤيته من تلك السيّدة العظيمة ذات النفوذ بالتأكيد حيث أنّ مأمور لونجين يطيعها هكذا.

يقتربن من يسوع باكيات ويركعن عند قدميه بينما يقف هو لاهثاً... ومع ذلك يعرف الابتسام للسيدات التقيّات وللرجل الذي يرافقهنّ، والذي كشف عن نفسه ليظهر أنّه يوناثان. ولكن هذا لم يدعه الحراس يمرّ، فقط النساء.

إحداهنّ تكون يُونّا امرأة خُوزي. تبدو منهكة أكثر ممّا كانت عليه وهي على فراش الموت. ليس لها من اللون الأحمر سوى آثار الدموع، ثمّ وجه

أبيض كالثلج مع عينيها الوديعتين السوداوين اللتين من ضباييتهما صارتا بلون بنفسجيّ داكن مثل بعض الأزهار. في يدها قارورة فضيّة تقدّمها ليسوع، ولكنّه يرفض. فضلاً عن ذلك فإنّ تقطّع أنفاسه يجعله غير قادر حتّى على الشرب. بيده اليسرى يمسح العرق والدم الذي يسقط على عينيّه، والذي بسيلانه على خديّه الحمرّاوين ومن عنقه بسبب العروق المنتفخة من ضربات قلبه المتلاحقة، يُبلّل ثوبه كلّهُ عند الصدر.

امرأة أخرى، ترافقها خادمة شابة تحمل صندوقاً بين ذراعيها، تفتحه وتُخرج منه نسيجاً كتّانيّاً ناصع البياض، مربّعاً، وتقدّمه للفادي. إنّهُ يقبله. وبما أنّه لم يكن قادراً أن يستعمله بنفسه بيد واحدة، تساعد المرأة المفعمة شفقة، متنبّهة لئلاّ تصدم الإكليل، في وضعه على وجهه. ويسوع يضغط النسيج المنعش على وجهه المسكين ويبقيه هكذا، كما لو أنّه كان يجد فيه سلواناً عظيماً. ثمّ يعيد النسيج ويتكلّم: «شكراً يُونّا، شكراً نيقى... سارة... مارسيل... إليز... ليديا... حنة... فاليريا... وأنت. لكن... لا... تبكين... عليّ... يا بنات... أورشليم... بل على الخطايا... خطاياكن... وخطايا... مدينتكن... باركي... يا يُونّا... أنّه لم يعد... لكِ أولاد... انظري... ذلك رحمة من الله... أن لا... أن لا يكون لكِ أولاد... لأنّهم... سيتألّمون من... هذا. وأنت أيضاً... أليصابات... من الأفضل... أنّ هذا كان... من أن يكون بين قاتلي الله... وأنتن أيتّها... الأمّهات... ابكين على... أولادكن، لأنّ... هذه الساعة لن تمرّ... دون عقاب... وأيّ عقاب، فإن كان هكذا... للبريء... فستبكين حينئذ... لأنكنّ حبلتن... أرضعتن... وأنّ لكنّ بعد... أبناءكن... فأُمّهات... ذلك الحين... سيبكين لأنّ... الحقّ، أقول لكنّ... سيكون

محظوظاً... أوّل... مَن... يسقط... حينئذ... تحت الأنقاض. أبارككن...
أذهبن... إلى البيت... صليّين... مَن أجلي. الوداع، يونانان... أبعدهن...»
ووسط صخب حادّ مَن بكاء النساء ولعنات اليهود، يستأنف يسوع
السير.

يسوع يتصبّب عرقاً مَن جديد. الجنود كذلك يتعرّقون والمحكومان
الآخران، لأنّ شمس هذا اليوم العاصف كانت حارقة مثل اللهب، ومنحدر
الجبل الذي أصبح ملتهباً يضاف إلى حرارة الشمس. كم هو تأثير هذه
الشمس على ملابس يسوع الصوفيّة، الملامسة لجراح الجلد، يسهل تصوّر
ذلك والروع منه... أمّا هو فلم يتفوّه بشكوى. فقط، رغم أنّ الطريق أقلّ
انحداراً وقد خلت مَن تلك الحجارة المفكّكة، الخطرة جدّاً على قدميه اللتين
يجرّهما الآن، يترنّح يسوع بأكثر شدّة، يكاد يصدّم صفّاً مَن الجنود ثمّ الصفّ
المقابل، منحنيّاً أكثر فأكثر صوب الأرض.

يفكّرون بإزالة هذا العائق بإمرار حبل على وسطه وإمساكه مَن طرفيه
كما لو أنّه عنان. نعم، هذا يسنده، ولكنّه لا يرفع عنه حمّله. على العكس،
باصطدام الحبل بالصليب يزحزحه باستمرار على كتفه ويجعله يضرب
الإكليل الذي جعل مَن جبهة يسوع وشماً دمويّاً. علاوة على ذلك يحكّ الحبل
الوسط حيث جراح كثيرة وبالتأكيد لا بدّ أنّه يفتحها مَن جديد، كذلك الجلباب
الأبيض يصطبغ عند الوسط بالورديّ الباهت. كي يساعده، يجعلونه يعاني
أكثر بعد.

يتابع الدرب، ينعطف حول الجبل، ويعود تقريباً في الأمام نحو الطريق
المختصرة. هناك مريم مع يوحنا. أظنّ أنّ يوحنا اقتادها إلى هذا المكان

الظليل، خلف منحدر الجبل كي تستعيد قوّتها قليلاً. إنّهُ أكثر أماكن الجبل انحداراً. ليس هناك ما يحاذيه سوى هذا الدرب. في الأسفل الجانب ينحدر بسرعة وفي الأعلى المنحدر شديد الميل. ولهذا يتجاهله المتوحّشون. هناك ظلّ، أظنّه الشمال، ومريم، وهي تسند ظهرها إلى الجبل، هي في منأى من الشمس. إنّها تقف متّكئة على المنحدر الجبليّ، ولكنها منهكة. تلهث هي أيضاً، شاحبة كميتة في ثوبها الأزرق الداكن جدّاً، يقارب السواد.

ينظر إليها يوحنا بإشفاق حزين. هو أيضاً فقد كلّ أثر للون وهو شاحب، عيناه تعبتان وجاحظتان، أشعث الشعر، خداه غائرتان كما لو كان مريضاً. النساء الأخريات -مريم ومرثا أختيّ لعازر، مريم التي لحفى وتلك التي لزبدي، سوسنة التي من قانا، صاحبة المنزل وأخريات أيضاً لا أعرفهنّ- كلهنّ في منتصف الدرب وينظرن إذا ما وصل المخلص. ولدى رؤيتهنّ وصول لونجين، يهرعن إلى مريم لينبئنّها بالخبر. ومريم، المستندة على يوحنا من المرفق، تفلت منه، مهيبة في ألمها، ومن جانب الجبل تقف بجرأة في منتصف الدرب، ولم تبعد إلّا لدى وصول لونجين، الذي من أعلى حصانه، ينظر إلى المرأة الشاحبة والذي يرافقها، الأشقر، الشاحب، الذي مثلها له عيانا وديعتان كالسمااء. يهزّ لونجين رأسه بينما هو يتجاوزها يتبعه الأحد عشر خيّالاً.

تحاول مريم المرور بين الجنود الراجلين، ولكنّ هؤلاء، إذ يشعرون بالحرارة وهم متعجّلون، أكثر منه من الحجارة التي تتطاير من الدرب المبلّط احتجاجاً على الرحمة الكثيرة، يحاولون دفعها بالرماح. إنّهم اليهود، الذين يرشقون بعد اللعنات بسبب التوقّف الذي سبّته النساء الورعات ويقولون:

«بسرعة! غداً الفصح. يجب أن ينتهي كل شيء قبل المساء! متواطئون يا مَنْ تحتقرون شريعتنا! طغاة! الموت للغزاة ولمسيحهم! إنهم يحبّونه! انظروا كم يحبّونه! ولكن خذوه! ضعوه في مدينتكم الملعونة! نحن نتخلّى عنه لكم! نحن لا نريده! الجيفة للجيف! البرص للبرص!»

يضيق لونجين ذرعاً وينخس حصانه، يتبعه عشرة من الرماحين، نحو السفلة الذين يهينونه، والذين يهربون مرّة ثانية. وإذ هو يفعل هذا يرى عربية متوقّفة، بالتأكيد قد صعدت إلى هنا من مساكب الخضار عند أسفل الجبل، التي تنتظر بحملها من الخضار مرور الجمع للنزول في اتجاه المدينة. أظنّ أنّ بعض الفضول دفع القيروانيّ وأبناءه للصعود إلى هنا، لأنّه لم تكن هناك ضرورة لفعل ذلك. الولدان ممدّان على كومة الخضار، ينظران ويضحكان على اليهود الهاربين. الرجل من جهته، رجل قويّ في حوالي الأربعين-الخمسين من عمره، يقف بجوار الحمار الخائف الذي يريد التقهقر، ينظر بانتباه إلى الموكب.

يتفرّس فيه لونجين. وهو يفكر أنّه يمكن أن يكون مفيداً له ويأمره: «أيّها الرجل تعال هنا.» يتظاهر القيروانيّ بأنّه لم يسمع، ولكن لا مزاح مع لونجين. يكرّر الأمر بطريقة جعلت الرجل يُلقي بالعنان إلى أحد ابنيه ويدنو من قائد المئة.

«هل ترى هذا الرجل؟» يسأله، وبينما هو يتكلّم هكذا يلتفت ليشير إلى يسوع فيرى بدوره مريم، التي تتوسّل إلى الجنود ليسمحوا لها بالمرور. فيشفق عليها ويصيح: «دعوا المرأة تمرّ.» ثمّ يعود إلى الحديث مع

القيرواني: «لم يعد يستطيع التقدّم مع حِمْلِهِ. أنتَ قويّ. خذ صليبه واحمله عنه حتّى القمّة.»

«لا أستطيع... معي الحمار... وهو حرون... وولديّ لا يجيدان السيطرة عليه.»

ولكن لونجين يقول له: «هيا، إن كنتَ لا تريد فقدان الحمار والحصول على عشرين جلدة كعقاب.»

لم يعد يجرؤ القيروانيّ على الرّدّ. ينادي الولدين: «أسرّعا إلى المنزل، وقولا إنّني أصل حالاً.» ثمّ يذهب إلى يسوع.

يصل إليه تماماً في اللحظة التي يلتفت فيها يسوع إلى أمّه، التي يراها للتوّ فقط تتوجّه إليه، ذلك أنّه كان يتقدّم منحنيّاً جدّاً وعيناه تكادان تكونان مغلقتين كما لو كان أعمى، ويهتف: «ماما!»

إنّها أوّل كلمة منذ أن عُذّب تعبّر عن آلامه. ذلك أنّ في هذه الكلمة اعتراف بكلّ شيء وبكلّ الآلام الرهيبة للروح، والجسد والوجدان. إنّها صرخة ممزّقة وممزّقة لطفل يموت وحيداً، بين الحرّاس ووسط أسوأ العذابات... والذي يصل إلى الخوف حتّى من أنفاسه. إنّها شكوى طفل يهذي تُمزّقه رؤى الكوابيس... ويريد الأمّ، الأمّ لأنّ قُبَلتها المنعشة وحدها هي التي تُسكّن حرارة الحمّى، وصوتها يطرد الأشباح، وحضنها يجعل الموت أقلّ رعباً...

تضع مريم يدها على قلبها كما لو أنّها تلقت طعنة خنجر وتترنّح ترنّحاً خفيفاً، ولكنّها تستعيد توازنها، تسرع الخطى وهي تمدّ ذراعيها نحو ابنها

المعذب، وتصيح: «بنّي!» إنّما تقولها بلهجة تذيب قلب أيّ كان من الألم إن لم يكن قلب ضبع.

وأرى أنّ حتّى وسط الرومان حركة تنمّ عن الشفقة... ولو أنّهم رجال مسلّحون ومعتادون على المجازر، المتّسمة بالجراح... ولكنّ كلمتي: «ماما!» و «بنّي!» هما سيّان بالنسبة للجميع ولكلّ الذين، أكرّر، ليسوا أسوأ من الضباع، وهما تُقالان وتُفهمان في كلّ مكان، وتثيران في كلّ مكان موجات الشفقة.

القيروانيّ يمتلك هذه الشفقة... يرى أنّ مريم لا تتمكّن من معانقة ابنها بسبب الصليب، وبعد أن تمّد يديها تنزلهما، مقتنعة بأنّها غير قادرة على ذلك. تنظر إليه فقط، مُحاولّة أن تبتسم ابتسامتها الشهيدة، لتعزيته بينما شفتاها المرتعشتان ترشف دموعها. وهو، إذ قد لوى رأسه تحت نير الصليب، يحاول بدوره الابتسام لها وإرسال قبلة لها بشفتيه المجروحتين والمشقّقتين من الضرب والحمّى. ويسرع القيروانيّ، أمام هذا المشهد، ليرفع الصليب، ويفعل ذلك بلطف الأب، كي لا يصدّم الإكليل ولا يحكّ الجراح.

ولكنّ مريم لا تستطيع تقبيل ابنها... فأيّة لمسة وإن كانت بسيطة، ستكون عذاباً لجسده الممزّق، فتحجم مريم عن لمسه. وثمّ... فإنّ للمشاعر الأكثر قداسة حياءً عميقاً، وتبغى الاحترام أو على الأقلّ الإشفاق. أمّا هنا فالفضول وبالأخصّ الاحتقار. لذا تتلاثم فقط نفساهما المنقبضتان.

الموكب، الذي يستأنف السير تحت تأثير دفع أفواج الناس الهائجة التي تستعجله، يفرّقهما، دافعاً الأمّ إلى الجبل، جاعلاً إياها عُرضة لاحتقار شعب بكامله... الآن يسير القيروانيّ خلف يسوع مع الصليب. ويسوع المتحرّر من

هذا الحِمل، يمشي بشكل أفضل. يلهث بشدّة، غالباً ما يضع يده على قلبه كما لو كان يشعر بألم كبير، حيث هناك جرح في منطقة القصّ القلبيّ، والآن، إذ يستطيع ذلك باليدين غير المقيّدتين، يرفع شعره اللزج من جرّاء الدم والعرق، الساقط إلى الأمام، إلى ما وراء الأذنين ليُشعر بالهواء على وجهه المحتقن، ويحلّ شريط الرقبة الذي يؤلمه عندما يتنفس... ولكنّ مشيته تصبح أسهل.

تنسحب مريم مع النساء. تتابع الموكب بمجرد أن يمرّ، تتّجه بعد ذلك من طريق مختصرة نحو قمةّ الجبل متحدّيةً لغنات الغوغائيين آكلي لحوم البشر. الآن، وقد أصبح يسوع حرّاً، سرعان ما يتمّ اجتياز آخر تعرّج من تعرّجات الجبل والاقتراب من القمة المزدهمة بشعب يُطلق الصيحات.

يتوقّف لونجين ويأمر، بإبعاد الجميع إلى أسفل بلا رحمة لإخلاء القمة، موضع تنفيذ الحكم. ونصف جماعة المئة تجري لتنفيذ الأمر وهي تدفع جميع الموجودين في المكان بلا رحمة، مستخدمين في ذلك سيوفهم القصيرة ورماحهم. وتحت وابل ضربات باطن السيوف والعصيّ يهرب اليهود من القمة. ويودّون التمرّكز على فسحة تحتها. ولكن الذين فيها لم يتراجعوا فتتأجج بينهم مشاجرات عنيفة. يبدون وكأنّهم جميعاً مجانين.

كما قلتُ العام الماضي، الجلجلة، في قمّتها، لها شكل شبه منحرف غير منتظم، يرتفع قليلاً من جهة، منها ينحدر الجبل سريعاً حتّى بعد منتصف ارتفاعه قليلاً. على هذه الفسحة الصغيرة أُعدّت ثلاث حفر عميقة مُدعّمة بقرميد أو صخور. محفورة خصيصاً. قريباً منها، حجارة وأتربة معدّة لتدعيم

الصلبان. وحُفِرَ أخرى، في المقابل، تُركت مليئة بالحجارة. ويُفهم أنهم يُفِرُّونها بحسب عدد الذين يشغلونها.

تحت القمّة شبه المنحرفة، من الجهة التي لا ينزل فيها الجبل، يوجد نوع من المسطّحات بانحدار بسيط مُكوّناً فسحة صغيرة أخرى. من هذه يتفرّع دربان واسعان يحاذيان القمّة، بشكل تصبح معه القمّة معزولة ومرتفعة على الأقلّ مترين من كافّة الجوانب.

الجنود الذين دفعوا الجمع من القمّة، يُخمدون المشاجرات بضربات مُقنّعة من الرماح ويُخلون الطريق ليتمكّن الموكب من المرور دون عائق في القسم الأخير من الطريق، ويمكنون هناك مشكّلين حاجزاً بينما يصل المحكومون الثلاثة محاطين بالخيالة ومحميين من الخلف بالنصف الآخر من مجموعة المئة، إلى النقطة التي عليهم التوقّف عندها: عند سفح مسطح طبيعي، مرتفع، الذي يشكّل قمّة الجلجلة.

أثناء حدوث ذلك، أرى المريمات وخلفهنّ قليلاً يُونا امرأة خوزي مع أربع سيّدات أخريات ممّن كنّ سابقاً. الأخريات قد انسحبن، ولا بدّ أنّهنّ قد فعلن ذلك من تلقاء أنفسهنّ، ذلك أنّي أرى يوناتان هنا خلف سيّدته. لم يعد هناك تلك التي ندعوها فيرونيكا والتي ناداها يسوع باسم نيقى، ولا خادمتها أيضاً ولا السيّدة المحبّبة بالكامل التي أطاعها الجنود. أرى يُونا، العجوز المسمّاة إليز، حنة (رَبّة ذاك المنزل حيث كان يسوع أثناء موسم القطاف في السنة الأولى ج2-ف75) واثنين لم أعرف من تكونان.

خلف تلك النسوة والمريمات أرى يوسف وسمعان ابنيّ حلفى، وحلفى بن سارة مع مجموعة الرعاة. لقد قاوموا الذين كانوا يريدون إبعادهم وهم

يهينونهم، وقوّة هؤلاء الرجال، التي ضاعفها حبّهم وألمهم، كانت بالغة العنف بحيث أنّهم فازوا، مشكّلين نصف دائرة حرّة في مقابل اليهود الجبناء الذين لم يجرؤوا سوى على الصراخ بالموت ومدّ قبضاتهم. وليس أكثر، لأنّ عصيّ الرعاة ثقيلة وكثيرة العقد ولم يفتقر هؤلاء الشجعان إلى القوّة والتصدي. وأنا لا أخطئ بقولي هذا. فمن الشجاعة حقّاً أن يتصدّى لكلّ هذا الجمع العدائيّ جماعة قليل عددها، معروفون أنّهم جليليّون أو من الأوفياء للجليليّ. الموضع الوحيد، في كلّ موضع الصلب، الذي لا يُشتم المسيح فيه!

الجبل، من جهاته الثلاث المنحدرة برفق تجاه الوادي، ليس سوى خليّة نمل. لم تعد الأرض الصفراء والعارية تُرى، وتحت الشمس التي تظهر وتختفي، يبدو كمرج براعم مُزهر بكلّ الألوان لتراصّ أغطية الرأس ومعاطف الساديين التي تغطيه. ومما وراء سيل، على الدرب، جمع آخر، وخلف الجدران، آخر أيضاً. على الأسطح القريبة آخر أيضاً. أما بقية المدينة فعارية... خالية... صامتة. كلّ شيء هنا: الحبّ كلّ والكراهية كلّها. الصمت كلّ الذي يحبّ ويغفر. كلّ الصياح الذي يكره ويلعن.

بينما يهتّئ الرجال المكلفون بالتنفيذ أدواتهم وإفراغ الحفر، وينتظر المحكومون وسط مربّعاتهم، فإنّ اليهود، الملتجئين إلى الركن المقابل للمريمات، يوجّهون الإهانات لهنّ. يهينون حتّى الأمّ: «الموت للجليليين! الموت! الجليليون! الجليليون! الملعونون! الموت للمجدّف الجليلي! سمّروا على الصليب حتّى البطن الذي حمله! أبعدوا من هنا الأفاعي التي تلد الشياطين! الموت! طهّروا إسرائيل من النساء اللواتي يحالفن التيس!...»

لونجين الذي ترَجَّل من على حصانه، يلتفت ويرى الأم... يأمر بإيقاف هذه الغوغاء. جماعة نصف المئة التي كانت خلف المحكومين تهتمّ بالرعاع وبإخلاء الساحة الثانية الصغيرة بالكامل. فيفرّ اليهود حينئذ عبر الجبل وهم يدوسون بعضهم بعضاً. يترَجَّل الأحد عشر الآخرون أيضاً من على الجياد وواحد منهم يأخذ الأحد عشر حصاناً، إضافة إلى حصان قائد المئة ويقودها إلى الظلّ، خلف حافة الجبل.

يتوجّه قائد المئة نحو القمة. تتقدّم يُونّا امرأة خُوزي وتوقفه. تعطيه الجرّة وكيساً، ثمّ تنسحب وهي تبكي، لتذهب إلى زاوية الجبل مع الأخريات. في الأعلى كلّ شيء قد أُعدّ. يُصعد المحكومون. ويسوع يمرّ ثانية بالقرب من أمّه التي تُطلق أنّة وهي تحاول كتمانها واطعة رداءها على فمها. يراها القضاة ويضحكون ويسخرون منها.

يوحنا، يوحنا الوديع، الذي لفّ ذراعه خلف كتفي مريم ليسندها، يستدير بنظرة عنيفة، عينه لها وميض فسفوريّ. لو لم يكن ينبغي له حماية النساء، أظنه كان ليطبق على حلق واحد من هؤلاء الجبناء.

وما كاد المحكومون يصبحون على المسطح المشوّوم، حتّى أحاط الجنود بالمكان من الجهات الثلاث. لم يبقَ خالياً سوى الجهة المنحدرة بشدّة.

يُصدر قائد المئة الأمر للقيروانيّ بالذهاب، فيمضي على مضض هذه المرّة، ولا أقول بساديّة، ولكن بحبّ. حتّى إنّهُ يتوقّف بالقرب من الجليليين مُشاركاً إيّاهم تلقّي الإهانات التي يوجّهها الجمع لهذا القليل من الأوفياء للمسيح.

يرمي اللسان صليبيهما على الأرض وهما يلعنان. يسوع صامت.
انتهى درب الآلام.

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

23- (الصَّلب)

1945 / 03 / 27

أربعة رجال مفتولو العضلات، سماتهم تبدو لي يهوديّة، وهم يستحقّون الصّلب أكثر من المحكومين، بالتأكيد هم من زمرة الجلاّدين ذاتها، يقفزون من أحد المسالك إلى موضع التعذيب. يلبسون جلابيب قصيرة بلا أكمام وفي أيديهم مسامير، مطارق وحبال يُظهرونها للمحكومين الثلاثة ساخرين منهم. الجمع يهيج بهذيان فظيع.

يُقدّم قائد المئة الجرّة إلى يسوع لكي يشرب الخليط المخدر من النبيذ الممزوج بالمُرّ، ولكن يسوع يرفضه. على عكس اللصّين اللذين يتجرّعان كمّية منه. ثمّ توضع الجرّة الواسعة الفوهة بالقرب من إحدى الصخور الضخمة، عند أعلى القمّة تقريباً.

يُعطى الأمر للمحكومين بخلع ملابسهم. اللصّان يفعلان ذلك دون أدنى حياء. بل يلهوان بالقيام بحركات بذيئة وخاصة تجاه المجموعة الكهنوتيّة المرتدية ملابس كتّانيّة بيضاء، والتي عادت بكلّ هدوء إلى الساحة الصغيرة الأدنى، مندسّين إلى ذلك المكان مستغلّين مزيّتهم. وينضمّ إليهم اثنان أو ثلاثة من الفرّيسيّين وشخصيّات نافذة أخرى جعلتهم الكراهية أصدقاء. وأرى شخصيّات معروفة مثل الفرّيسيّ جيوقانا وإسماعيل، الكاتب صادق، وإيلي الذي من كفرناحوم...

يُقَدِّمُ الجَلَّادُونَ للمحكومين ثلاثة خرق كي يربطوها عند ثنية الفخذ، ويتناولها اللصَّان بأقذع الشتائم. يسوع، الذي يخلع ملابسه ببطء بسبب ألم الجراح، يرفضها. ربما هو يأمل بالاحتفاظ بسرّوالة القصير الذي احتفظ به حتّى أثناء الجُلْد. ولكن لدى الطلب منه أن يخلعه، يمدّ يده مستجدياً الخرقَة من الجَلَّادين كي يستر عريه. حقّاً هو التلاشي إلى درجة طلب خرقَة رتّة من مجرمين.

ولكنّ مريم رأت وخلعت القماشَة الطويلة الناعمة البيضاء التي تُوشَّح بها رأسها تحت المعطف الداكن، وقد سكبت فيها دموعاً غزيرة. تخلعها دون أن تُسقط الرداء، وتعطيها ليوحنا كي يقدّمها للونجين من أجل ابنها. يأخذ قائد المئة الوشاح دون صعوبة. وحينما يرى لونجين أنّ يسوع يهَمّ بالتعرّي الكامل، ليس في مواجهة الجمع، بل إلى الجهة التي ليس فيها أحد، مُظهراً هكذا ظهره المخطط بالكدمات ونزوف الجراح المفتوحة أو القشور الداكنة، فيقدّم له وشاح الأمّ. يتعرّف عليه يسوع. فيلقه مرّات عديدة حول حوضه ويثبّته جيّداً كي لا يسقط... وعلى الكتان المبلّل حتّى الآن بالدموع فقط، تسقط قطرات الدم الأولى، لأنّه حينما انحنى كي يخلع نعليه ويضع ملابسه، تفتح من جديد العديد من الجراح المغطّاة بالدم المتجلط، ويعود الدم للسيلان.

الآن يلتفت يسوع صوب الجمع، فيرى هكذا أنّ الصدر أيضاً، الذراعين، الساقين قد جُلِدَت كلّها بالسياط. على مستوى الكبد بقعة زرقاء ضخمة، وتحت القوس الأيسر للأضلاع سبعة آثار بارزة تنتهي بسبعة تمزّقات نازفة داخل دائرة بنفسجيّة... ضربة سوط وحشيّة في هذه المنطقة الحسّاسة من الحجاب الحاجز. الركبتان مرضوضتان من السقطات المتكرّرة

التي بدأت حالاً بعد القبض عليه وانتهت في الجلجلة، سوداوان متورّمتان ومفتوحتان عند الداغصة [الصابونة]، وخاصة الركبة اليمنى، حيث جرح واسع نازف.

يستهزئ الجمع به مُشكّلين ما يشبه الجوقة: «آه! جميل! أجمل بني البشر! بنات أورشليم تعبدك...» ويُنشدون كما بترنيم المزامير: «حبيبي أبيض وأشقر، عَلم بين ربوة [مميّز بين آلاف وآلاف]. رأسه ذهب إبريز، وغدائره [شعره] كسعف النخل، حريريّة كريش الغراب، عيناه كحمامتين تغتسلان على أنهار، ليس بماء بل بالحليب، بحليب محجريهما. خذاه كروضة أطياب، وشفته الحماوين سوسن تقطران مرّاً ذكياً. يده كما مصوغتان من ذهب تنتهيان بياقوت ورديّ. وجذعه عاج مُعَرّق بالسفير. ساقاه عامودا رخام أبيض ممتازان موضوعان على قاعدتين من ذهب. عَظْمَتَه كتلك التي للّبنان، أكثر عَظْمَةً مِنَ الأرز السامق. لسانه يقطر حلاوة وهو بجملته شهيّ.» ويضحكون ويصرخون كذلك: «الأبرص! الأبرص! هل زنيّت إذن مع آلهة [أصنام] وثنيّة حتّى ضربك الله هكذا؟ هل تكلمت على قدّيسي إسرائيل مثل مريم أخت موسى، إذا ما عوقبت هكذا؟ آه! آه! الكامل! أنت ابن الله؟ ولكن لا! أنت مسخ الشيطان! على الأقلّ هو، مامون [الشيطان] قادر وقويّ. أنت... أنت مجرد خرقة لا حول لها ومقرّزة.»

فُيّد اللصّان على الصليبين واقتيدا إلى مكانيهما، واحد عن اليمين والآخر عن اليسار بالنسبة للصليب المعدّ ليسوع. يصيحان، يلعانان، ويشتمان، خاصّة حينما جُلب الصليبان إلى الحفرتين وتمّ هزّهما، فحزّت

الحوال رسغيهما [معصميهما]، شتائهما ضدّ الله، ضدّ الشريعة، والرومان واليهود جهنميّة هي.

جاء دور يسوع. يتمدّد على الخشبة بوداعة. أمّا اللصّان فكانا في منتهى التمرّد، وإذ لم يقدر عليهما الجلادون الأربعة، فقد طلبوا تدخّل بعض الجنود لإمساكهما، كي لا يدفعا بركلات من أقدامهما مراقبي المساجين الذين كانوا يربطونهما من رسغيهما. أمّا بالنسبة لیسوع فلا حاجة للعون. يتمدّد واضعاً رأسه حيث يقولون له. يفتح ذراعيه كما يقولون له، يمدّد ساقيه كما يأمرونه. يهتم فقط بأن يضبط وضع وشاحه.

الآن جسده الطويل النحيل والأبيض يبرز عن الخشبة الداكنة والأرض المصفرة. يجلس اثنان من الجلادين على صدره كي يبقوه ثابتاً. وأفكر في ضيق النفس والآلام التي أحسّ بها تحت هذا الثقل، ثالث يأخذ ذراعه اليمنى فيمسك بإحدى يديه بالجزء الأوّل من الساعد وبالأخرى أطراف الأصابع. الرابع، الذي يحمل في يديه مسماراً طويلاً حاداً عند الرأس، مربّع الساق، وينتهي بصفيحة دائريّة مسطّحة، واسعة مثل فلس تلك الأيام، ينظر إن كان الثقب الموجود في الخشبة مطابقاً للمفصل الإشعاعي في الرسغ. هو مناسب. يضع الجلاد رأس المسمار على الرسغ، يرفع المطرقة ويضرب الضربة الأولى.

يسوع الذي كانت عيناه مغلقتين، يُطلق صرخة ويتشجّع على إثر هذا الألم الحادّ ويفتح عينيه اللتين تسبحان بالدموع. لا بدّ أنّه يختبر ألماً مبرّحاً... المسمار يخترق الأوردة والأعصاب مهشّماً العضلات، محطّماً العظام...

تجيب مريم على صرخة ابنها المعبّد بأنّين فيه شيء من شكوى الحَمَل أثناء ذبحه، وتنحني، كالمحطّمة، واضعة رأسها بين يديها. ويسوع، كي لا يعذبها، يكفّ عن الصراخ. ولكن الضربات موجودة، منتظمة، عنيفة، حديد على حديد... ويجب أن نضع بالاعتبار أن تحتها عضواً حياً يتلقاها.

سُمرت اليد اليمنى. دور اليد اليسرى. الثقب لا ينطبق على عظام المعصم. حينئذ يأخذون حبلاً، يربطون المعصم الأيسر ويشدّونه حتّى ينخلع المفصل وتُنزَع الأوتار والعضلات، عدا عن تمزيق الجلد المحزوز من قبل بحبال التقييد. اليد الأخرى لا بدّ أنّها تتألم أيضاً، ذلك أنّها تتمطّى بالنتيجة ويتّسع الثقب حول مسمارها. الآن بالكاد يتمّ الوصول إلى بداية مشط اليد، بالقرب من الرسغ. فيذعنون، ويسمّرون حيث يقدرّون، أي بين الإبهام والأصابع الأخرى، تماماً في مركز مشط اليد. هنا يدخل المسمار بشكل أسهل، ولكن بألم أشدّ، لأنّه يقطع أعصاباً هامّة، حتّى إنّ أصابعه لم تعد تتحرّك، بينما تتشجّج وترتعش أصابع يده اليمنى ممّا يشير إلى حيويّتها. إنّما يسوع لم يعد يصرخ، بل يُطلق فقط شكوى خشنة خلف شفّتيه المغلقتين بقوة، ودموع الألم تسقط على الأرض بعد أن تكون قد سقطت على الخشبة.

الآن دور القدمين. على بعد مترين أو أكثر من نهاية الصليب زاوية صغيرة، تكفي بالكاد لقدم واحدة. تُحمَل إليها القدمان ليروا إن كان المقاس مناسباً. وبما أنّها إلى أسفل قليلاً والقدمان لا تصلان إليها إلاّ بصعوبة، يُسحب الشهيد المسكين من الكاحلين. ويحكّ خشب الصليب الخشن الجراح، يزحزح الإكليل الذي ينزع شعراً من جديد ويوشك على السقوط. فيعيده أحد الجلادّين، بلكمة، إلى موضعه...

الآن يقف الجالسان على صدر يسوع ليجلسا على الركبتين، ذلك أن يسوع يقوم بحركة لا إرادية ليجذب ساقيه وقد رأى لمعان المسمار الطويل جداً تحت الشمس. له ضعف طول وعرض المسمارين المستخدمين في اليد. يستقرّان على الركبتين المسلوختين، ويضغطان على الساقين المسكينتين المغطّاتين بالكدمات، بينما يكمل الاثنان الآخراّن العمل، أصعب كثيراً هو تسمير قدم على الأخرى، في محاولة توفيق مفصليّ رسغيّ القدمين معاً.

ورغم الدأب على إبقاء القدمين ثابتتين عند الكاحل والأصابع العشرة، على الزاوية، تتزحزح القدم السفليّة بسبب اهتزاز المسمار، فيضطرون إلى انتزاع المسمار تقريباً، لأنّه بعد ولوجه الأجزاء الرخوة، فإنّ المسمار، الذي انثلم قليلاً نتيجة اختراقه القدم اليمنى، ينبغي أن يُوجّه أكثر قليلاً إلى الوسط. ويضربون، يضربون، يضربون... لم يعد يُسمَع سوى ضربات المطارق المريعة على رأس المسمار، لأنّه لم يعد على كلّ الجلجلة سوى عيون وآذان متنبّهة، لاستقبال كلّ حركة وكلّ صوت للاستمتاع...

علاوة على صوت الحديد الغليظ، تُسمَع شكوى مخنوقة لحمامة: الأنين الخشن لمريم التي تتحني أكثر فأكثر مع كلّ ضربة، كما لو كانت المطرقة تجرحها هي، الأمّ الشهيدة. وأدرك أنّها توشك على التحطّم بسبب ذلك العذاب. الصلب رهيب يساوي الجّد في ألمه، ولكنّه أفضع عند رؤيته، إذ يرى المسمار وهو يختفي داخل اللحم الحيّ، ولكنّه في المقابل أقصر في الوقت. بينما الجّد يُنهك بسبب طول أمدّه.

بالنسبة لي، احتضار البستان، الجَد والصلب لحظات هي الأكثر فظاعة. تكشف لي كلّ عذاب المسيح. الموت يعزّيني، إذ أقول لنفسِي: «انتهى!» ولكنها ليست النهاية، إنّها بداية لآلام جديدة.

الآن يُجرّ الصليب إلى جوار الحفرة وهو يثب على الأرض غير المستوية، هازاً المصلوب المسكين. يُرفع الصليب، الذي أُفليت مرّتين من هؤلاء الذين يرفعونه، فمرة يسقط فجأة، ومرة أخرى على الذراع اليمنى للصليب، مسبباً آلاماً مبرّحة ليسوع، لأن الارتجاج يحرك الأعضاء المجروحة. ولكن حينما يُترك الصليب بعد ذلك ليسقط في حفرة، قبل تثبيته بالحجارة والتراب، يتأرجح في كلّ اتجاه مسبباً الاهتزازات للجسد المسكين المعلق بثلاثة مسامير، لا بدّ أن الألم فظيع.

كلّ ثقل الجسد يتحرك إلى الأمام وإلى أسفل، وتتسع الثقوب، وخاصة جرح اليد اليسرى، ويتسع ثقب القدمين في حين يتدفّق الدم بغزارة أكبر. وإن كان دم القدمين يسيل على طول الأصابع إلى الأرض وعلى طول خشبة الصليب، فإنّ دم اليدين يسيل على الساعدين، لأنّ المعصمين أعلى من الإبطيين، بسبب الوضعية، ويسيل كذلك على طول الجانبين نازلاً من الإبطيين إلى الجذع. يتزحزح الإكليل حينما يتأرجح الصليب قبل أن يثبت بسبب انكفاء الرأس إلى الوراء، فتُغرّز في الرقبة عقدة الأشواك الكبيرة التي في نهاية الإكليل الشائك، ثمّ يعود ليثبت على الجبهة ويخدش، يخدش بلا رحمة.

أخيراً يثبت الصليب جيّداً في مكانه ولم يعد هناك سوى عذاب التدلي. ويُرفع كذلك اللصّان اللذان بمجرد أن وُضعا عمودياً، يصرخان كما لو كان يتمّ سلخهما حيّين من جرّاء عذاب الحبال التي تحزّ المعصمين وتحيل لون

الأيدي إلى السواد، فتنتفخ الأوردة كالحبال. يصمت يسوع. أمّا الجمع فلم يعد يصمت، على العكس، يعاود صخبه الجهنميّ.

أصبح الآن لقمة الجلجلة نصب تذكاريّ وحارس شرف. في حدّها الأعلى صليب يسوع، وعلى جانبيه الآخران. وحول القمة نصف مجموعة المئة في حالة استعداد، داخل دائرة الرجال المسلّحين الفرسان العشرة وقد ترجّلوا الآن يقترعون بالنرد على ملابس المحكومين. لونجين يقف بين صليب يسوع والصليب الأيمن. وكأنّه حارس شرف للملك الشهيد. على الدرب الأيسر وعلى الساحة الأكثر انخفاضاً، النصف الآخر لمجموعة المئة، في وضع راحة، بإمرة الضابط المرافق للونجين، منتظرين الإشارة إن كانت هناك حاجة إليهم. الجنود تتملّكهم لامبالاة تكاد تكون تامّة. فقط يرفع أحدهم وجهه أحياناً تجاه المصلوبين.

لونجين، على العكس، يراقب كلّ شيء بفضول واهتمام، يقارن ويحكم عقله. يقارن المصلوبين وخاصة المسيح بالمشاهدين. عينه النافذة لا تضيّع أيّ تفصيل، وكي يرى أفضل، يحمي بيده عينيه من الشمس التي تضايقه.

بالفعل هي شمس غريبة، لها لون أصفر محمّر كّلون الحريق. ثمّ يبدو أنّ الحريق قد انطفأ فجأة بسبب سحابة سوداء كالقار ظهرت من خلف سلسلة جبال اليهوديّة واجتازت بسرعة السماء لتختفي خلف جبال أخرى. وحينما عادت الشمس كانت مشتتة لدرجة أنّ العين لا تستطيع تحملها إلاّ بصعوبة.

وفيما هو ينظر، يرى مريم تماماً أسفل المنحدر، رافعة وجهها الممزّق نحو ابنها. فيستدعي أحد الجنود الذين يلعبون النرد ويقول له: «إن أردت الأمّ الصعود مع الابن المرافق لها فلتصعد. اصحبها وساعدها.»

وتصعد مريم مع يوحنا، الذي ظنّ أنه 'ابنها'، السّلم الصغير المنحوت في تكوين الجبل الكلسيّ، على ما أظنّ، وتجتاز صفّ الجنود لتقف تحت الصليب، ولكن على مسافة حتّى يتمكّن يسوعها من رؤيتها وتتمكّن هي من رؤيته. وفي الحال ينهال عليها الجمع بالسباب المهين للغاية، وقد ألحقوها بالشتائم الموجّهة لابنها. أمّا هي، فبشفتيها المرتعشتين والبيضاويين، تعمل فقط على مواساته، بابتسامة ممزّقة تُمسح عليها الدموع الّتي لم تستطع أيّة قوّة إرادة أن تحبسها في عينيها.

الناس، بدءاً من الكهنة، الكتّبة، الفرّيسيّين، الصدّوقيّين، الهيروديّين وآخرين من نفس الطبع، يتسلّون بسيرهم المتواصل على الدرب الصاعد فوراً إلى القمة، مارّين إلى نهاية المرتفع، ونازلين من الدرب الآخر والعكس. وهم وبالمرور من أسفل القمة إلى الساحة الصغيرة الثانية، لا يتورّعون عن توجيه الشتائم بحقّ المحتضر. كلّ الدناءة والوحشيّة وكلّ الكراهية والجنون الّتي يقدر عليها الإنسان باللسان تنطلق كالأمواج من تلك الأفواه الشيطانيّة. وأكثرهم هياجاً أعضاء الهيكل مع الفرّيسيّين الّذين يساعدونهم.

«وإذا؟ أنت، يا مخلص الجنس البشريّ، لماذا لا تخلص نفسك؟ هل هجرنا ملكك بعزبول؟ وتبرّأ منك؟» يصيح ثلاثة من الكهنة.

وشرذمة من يهود: «أنت الّذي كنت تقول منذ أقلّ من خمسة أيّام، بمساعدة الشيطان، للآب... ها! ها! ها! أن يمجّدك، كيف إذن لا تُذكّره بالالتزام بوعدته؟»

وثلاثة من الفريسيين: «مجدّف! خلّص الآخرين، بمساعدة الله كما كان يزعم! أمّا نفسه فلا يقدر أن يخلّصها! هل تريد أن نؤمن بك؟ إذاً اجترح المعجزة. لا تستطيع، أليس كذلك؟ الآن يداك مسمّرتان وأنت عريان.»

ويقول صدوقيّون وهيروديّون للجنود: «أنتم الذين أخذتم ملابسه، اتّقوا السحر! فعليه العلامة الجهنّمية!»

وجمع بصوت واحد: «انزل عن الصليب ونحن نؤمن بك. يا هادم الهيكل... مجنون!... انظر هناك، إلى هيكل إسرائيل المقدّس والممجد. إنه لا يُمسّ، أيّها المُدنّس! وأنت تموت.»

وكهنة آخرون: «مجدّف! أنت، ابن الله؟ انزل إذاً من هناك. اصعقنا إن كنت الله. نحن لا نخشاك ونبصق عليك.»

وآخرون يمرّون وهم يهزّون رؤوسهم: «لا يعرف سوى البكاء. خلّص نفسك، إن كنت حقّاً المختار!»

الجنود: «خلّص نفسك، إذاً. حوّل إلى رماد حثالة الحثالة هذه! نعم حثالة الامبراطوريّة، هذا هو أنتم، يا أحقر اليهود. افعل هذا! وستضعك روما في الكابيتول وتعبدك كإله!»

الكهنة وشركاؤهم: «أذرع النساء كانت أكثر متعة من ذراعي الصليب، أليس ذلك صحيحاً؟ ولكن انظر: إنّ... (ويقولون كلمة بذيئة) هناك على وشك أن يتلقّفنك. إنّ معك أورشليم بأكملها كي تكون كما خاطبة لك.» ويصفرون كسائقي الطنابر.

وآخرون يُلقون الحجارة: «أنت يا مَنْ تُكثر الخبز، حوّلها إلى خبز.»

وآخرون إذ يقدّون هوشعنا أحد الشعانين يُلقون أغصاناً ويصيحون:
«ملعون الآتي باسم الشيطان! ملعون ملكوته! المجد لصهيون التي فصلته
عن وسط الأحياء!»

يقف فرّيسيّ في مواجهة الصليب، يُظهر قبضته جاعلاً فيها قرنين
ويقول: أكنتَ تقول "أكلُك [أعهد بك] إلى إله سيناء"؟ الآن إله سيناء يُعدّك
لنار الأبدية. لماذا لا تنادي يونان لكي يردّ لك الصنيع الحسن؟»

وآخر: «لا تُفسد الصليب بضربات رأسك. ينبغي أن يُستخدَم لاتباعك.
جيش بأكمله سيموت على خشبتك. أقسم لك باسم يهوه. وسأبدأ بوضع لعازر
عليه. وسنرى إن كنتَ تقيمه من الموت الآن.»

«نعم! نعم! لنذهب إلى لعازر. لنسمّره من الجهة الأخرى من
الصليب.» ويُقدّون مثل الببغاوات كلام يسوع البطيء: «لعازر، صديقي،
هلمّ خارجاً! حلّوه ودعوه يمضي.»

«لا! كان يقول لمريم ولمرثا، نسائه: "أنا هو القيامة والحياة". ها! ها!
ها! القيامة لا تعرف كيف تدفع الموت، والحياة تموت!»

«ها هي مريم مع مرثا. فلنسألها عن مكان لعازر ونذهب لنجلبه.»
ويتقدّمون نحو النساء ليسألوهنّ بغيرسة: «أين لعازر؟ في القصر؟»

ومريم المجدلية، في الوقت الذي تهرب النساء المرعوبات خلف
الرعاة، تتقدّم، مستعدة في ألمها جرأة زمن الخطيئة القديم وتقول: «اذهبوا.
ستجدون في القصر جنود روما وخمسمائة من الرجال المسلّحين من أراضي
سيُخصونكم مثل تيوس عجائز مُعدّة لوجبات عبيد الرحي.»

«وَقِحَة! أَهْكَذَا تَكَلِّمِينَ الْكَهَنَةَ؟»

«يَا مُدَنِّسِي الْقُدْسِيَّاتِ! أَيُّهَا الْمُقَرَّرُونَ! الْمَلْعُونُونَ! اسْتَدِيرُوا! فَخَلْفَكُمْ، أَنَا أَرَاهَا، أَلْسَنَةُ النَّارِ الْجَهَنَّمِيَّةِ.»

يستدير الجبناء، في رعب حقيقي، بقدر ما هو واثق تأكيد مريم، ولكن إن لم تكن ألسنة اللهب خلفهم، فرماح رومانية حادة مسددة إلى الكلى. بالفعل، فقد أصدر لونجين أمراً، ونصف مجموعة المئة التي كانت في الاستراحة، تدخل في الحراسة، وهؤلاء يَخْرُونَ أَرْدَافَ أَوَائِلٍ مِنْ يَصَادِفُونَهُمْ بِرِمَاحِهِمْ. فيهربون وهم يصيحون، ويبقى نصف مجموعة المئة لسدّ مدخليّ الدربين وتكوين حاجز في الساحة الصغيرة. يُطْلَقُ الْيَهُودُ اللَّعْنَاتِ، وَلَكِنْ رُومًا هِيَ الْأَقْوَى.

ترخي مريم المجدلية وشاحها -وكانت قد رفعتَه لتتكلّم مع الَّذِينَ كَانُوا يَهِينُونَهَا- وتعود إلى مكانها. وتلحق بها الأخريات.

ولكنّ اللصّ الأيسر يستمرّ في الإهانات مِنْ أَعْلَى صُلْبِهِ. يبدو أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَجْمَعَ كُلَّ شَتَائِمِ الْآخَرِينَ وَيَكْرِّرَهَا جَمِيعاً، قَائِلاً فِي النِّهَايَةِ: «خَلَّصَ نَفْسَكَ وَخَلَّصْنَا، إِنْ كُنْتَ تَرِيدُ أَنْ نُؤْمِنَ بِكَ. الْمَسِيحُ، أَنْتَ؟ أَنْتَ مُجَنُّونَ! الْعَالَمُ هُوَ لِلْمَاكِرِينَ وَاللَّهُ غَيْرُ مُوجُودٍ. أَنَا مُوجُودٌ. هَذَا حَقِيقِي، وَكُلُّ شَيْءٍ مُتَاحٌ لِي. اللَّهُ؟ كَلَامٌ فَارِغٌ! وَضَعُ كِي نَبْقَى فِي سَكُونٍ. فَلْتَحْيِ ذَاتِنَا! هِيَ وَحْدَهَا الْمَلِكَةُ وَالْإِلَهَةُ!»

اللسّ الآخر الذي على اليمين ينظر إلى مريم، التي تكاد تكون عند قدميه، وينظر إليها أكثر ممّا ينظر إلى المسيح. منذ برهة وهو يبكي متمتماً:

«الأم». يقول: «اصمت. ألا تخاف الله، حتّى الآن وأنت تحت هذا الحكم؟ لماذا تهين الصالح؟ وعذابه أشدّ من عذابنا. وهو لم يفعل شراً.» ولكنّ الآخر يستمرّ في اللعنات.

يسوع يصمت. وهو يلهث بسبب الجهد الذي يفرضه عليه وضعه، بسبب الحمّى، بسبب حالته القلبيّة والتنفسيّة، نتيجة لقسوة الجلد الذي تلقّاه بطريقة عنيفة، كذلك الضيق العميق الذي جعله يعرق دماً، يحاول الحصول على تعزية، بتخفيف الثقل الذي يثقل قدميه، فيتعلّق بيديه بقوة ذراعيه. ربما يفعل ذلك ليتغلّب قليلاً على التشنّج الذي يؤلم قدميه ويفضحه ارتعاش عضليّ. ولكنّ نفس الرعشة تصيب أوتار الذراعين التي أُجهدت في هذا الوضع وأثلجت عند أطرافها، لأنّ وضعهما في الأعلى وصعوبة وصول الدم إلى المعصمين ثمّ سيلانه من ثقبَي المسمارين جاعلة الأصابع بلا دورة دمويّة. وخاصّة أصابع اليد اليسرى التي تيبّست وبقيت بلا حراك، منثنية على راحة اليد. حتّى أصابع القدمين توحى بالعذاب. الإبهامان بشكل خاصّ، ربّما لأنّ عصبيهما كانا أقلّ إصابة، يرتفعان، ينخفضان، ويتباعدان.

ثمّ يكشف الجذع عن معاناته كلّها بحركته السريعة ولكن السطحيّة التي أتعبته دون تسكينه. الأضلاع المتّسعة جدّاً والمرتفعة بتكوينها، بسبب بنية جسده الكاملة، هي الآن متمدّدة أكثر ممّا ينبغي بسبب الوضع الذي اتّخذه الجسد والوذمة الرئويّة التي تكوّنت في الداخل بالتأكيد. ومع ذلك لم يُجد في التخفيف من جهد التنفّس أكثر من كون البطن كله يساعد بحركته الحجاب الحاجز الذي يُشَلّ باطراد. يزداد الاحتقان والاختناق دقيقة إثر دقيقة، كما يدلّ اللون المزرقّ الذي يخطّ الشفتين بلون أحمر تضرمه الحمّى،

والاستطالات باللون الأحمر البنفسجيّ تطلي العنق على طول الأوردة الوداجيّة المنتفخة، وتتّسع حتّى الخدّين، باتّجاه الأذنين والصدغين، بينما الأنف ضامر فاقد الدم، والعينان غائرتان في دائرة شاحبة محرومة من الدم الذي أساله الإكليل.

تحت قوس الأضلاع الأيسر نرى الضربة الممتدّة بدءاً من طرف القلب، غير منتظمة، ولكن عنيفة، ومن وقت إلى آخر بفعل تشنّج باطنيّ، تصيب رعشة عميقة الحجاب الحاجز وتظهر في انبساط كامل في الجلد بقدر ما يستطيع هذا الجسد المسكين المجروح والمحتضر من التمدّد.

الوجه له نفس المظهر الذي نراه في صورة الكفن، الأنف مائل ومنتفخ من جهة، حتّى إنّ إبقاء العين اليمنى مغلقة تقريباً نتيجة التورّم الذي أصاب تلك الجهة، يزيد التشابه. الفم على العكس، مفتوح، مع جرح فيه على الشفة العليا وقد تحوّل إلى قشرة.

لا بدّ أن العطش، بسبب فقدان الدم والحمّى والشمس، كان شديداً. لدرجة أنّه، بحركة آليّة، يشرب قطرات عرقه ودموعه، وأيضاً قطرات الدم النازلة من الجبهة إلى الشاربين، فيرطبّ لسانه... إكليل الشوك يمنعه من الاستناد على عود الصليب كي يساعد في الارتكاز على الذراعين والتخفيف عن القدمين. الكليتان وكلّ الفقرات الظهرية تتقوّس إلى الخارج، وتبقى منفصلة عن عود الصليب من الحوض إلى أعلى، بسبب قوّة القصور الذاتيّ التي تجعل جسداً معلّقاً كما كان جسده ينحني إلى الأمام.

لم يتوقّف اليهود المطرودون خارج الفسحة الصغيرة عن الإهانات، واللصّ غير التائب صدى لهم. الآخر، الذي ينظر الآن إلى الأمّ بشفقة تتعاضم باستمرار ويبكي، يجيبه بحدة حينما يدرك أنّ الإهانات تتضمنها هي أيضاً.

«اصمت! تذكر أنّك وُلدت من امرأة. وفكر أنّ أمينا بكتا بسبب ولديهما. وبكتا بدموع خجل... لأننا مجرمان. ماتت أمّانا... كم أودّ أن أطلب منها الغفران... ولكن هل سأستطيع ذلك؟ كانت قديسة.. وقتلتها من الألم الذي سببته لها... أنا خاطئ... من يغفر لي؟ أيتها الأمّ، باسم ابنك الذي يموت، صلي من أجلي.»

ترفع الأمّ للحظة وجهها المعذب وتنظر إليه، هذا التعس الذي تقوده ذكرى أمّه وتأمّله في الأمّ إلى التوبة، وبدأت كأنها تلاطفه بنظراتها التي ليامة.

يبكي ديماس بأكثر شدة، الأمر الذي يثير أكثر سخریات الجمع ورفيقه. يصيح الجمع: «أحسنّت! اتّخذها لك أمّاً. هكذا يكون لها ابنان مجرمان!» واللصّ بازدراء: «إنها تحبّك لأنك صورة مصغّرة من محبوبها.»

يسوع يتكلّم لأول مرّة: «يا أبتاه، اغفر لهم لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون!»

هذه الصلاة تنتصر على كلّ خوف لدى ديماس. يتجرّأ على النظر إلى المسيح ويقول: «اذكرني يا ربّ متى جئت في ملكوتك. أنا أتألّم بعدل هنا. ولكن هبني الرحمة والسلام بعد الحياة. سمعتك مرّة تتكلّم، وأنا من جنوني رفضتُ كلامك. الآن أنا نادم. أندم على خطاياي أمامك، يا ابن العليّ. أو من

أَنَّكَ أَتَيْتَ مِنْ اللَّهِ. أَوْ مِنْ بِقُدْرَتِكَ. أَوْ مِنْ بِرَحْمَتِكَ. أَيُّهَا الْمَسِيحُ، اغْفِرْ لِي بِاسْمِ
أَمِّكَ وَبِاسْمِ أَبِيكَ الْقُدُّوسِ. »

يلتفت يسوع وينظر إليه بشفقة عميقة وابتسامة ما زالت جميلة للغاية
مِنْ فَمِهِ الْمَسْكِينِ الْمَعَذِّبِ. ويقول: «وَأَنَا أَقُولُ لَكَ: الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِيَ فِي
الْفَرْدُوسِ. »

يهدأ اللصّ التائب، ولعدم تذكّره الصلوات التي تعلّمها في طفولته، يردّد
كدعاء: «يَا يسوع الناصريّ، مَلِكِ الْيَهُودِ، ارحمني. يَا يسوع الناصريّ مَلِكِ
اليهود، رجائي فيك. يَا يسوع الناصريّ مَلِكِ الْيَهُودِ، أَوْ مِنْ بِالْوَهْيِيتِكَ. »
أَمَّا الْآخِرُ فَيَصِرُّ عَلَى تَجْدِيفِهِ.

صارت السماء تُظْلِمُ أَكْثَرَ بِاطِّرَادٍ. الْآنَ أَصْبَحَ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ تَنْفَرَجَ
الْغُيُومُ لِتُمْرَرَ الشَّمْسُ. بَلْ تَتَكَدَّسُ طَبَقَاتُ أَكْثَرِ قَتَامَةٍ، بَيَاضاً، اخْضِرَاراً،
تَسِيْطَرُ، تَنْسَحِبُ حَسَبَ نِزَوَاتٍ رِيحٍ بَارِدَةٍ تَجْتَازُ السَّمَاءَ عَلَى فُتْرَاتٍ، ثُمَّ تَهْبِطُ
إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ تَهْدَأُ مِنْ جَدِيدٍ، وَالْجَوُّ أَكْثَرَ شَوْماً حِينَمَا يَصْمِتُ، فَهُوَ خَانِقٌ
وَمَمِيتٌ، وَحِينَمَا يَصْفَرُ فَهُوَ قَاطِعٌ وَسَرِيعٌ.

فِي الْبَدَايَةِ، النُّورُ الَّذِي كَانَ سَاطِعاً فَوْقَ الْقِيَاسِ، عَلَى وَشَكِّ أَنْ يَصْبَحَ
مُخْضِراً. وَالْوُجُوهُ تَتَّخِذُ مَظَاهِرَ غَرِيبَةٍ. الْجُنُودُ، تَحْتَ خُودَاتِهِمْ وَفِي دُرُوعِهِمْ
الْلَامِعَةِ فِي الْبَدءِ وَقَدْ أَصْبَحَتْ الْآنَ مَغْلَفةً بِنُورٍ مُخْضِرٍّ وَتَحْتَ سَمَاءٍ مِنْ
رَمَادٍ، فَيَبْدُونَ بِقِسَمَاتٍ قَاسِيَةٍ وَكَأَنَّهَا مَنْحُوتَةٌ. الْيَهُودُ، الَّذِينَ أَغْلِبَهُمْ سَمَرُ
الْبَشَرَةِ وَالشَّعْرُ وَاللَّحْيَةُ، يَبْدُونَ غَرَقَى بِقَدْرِ مَا كَانَتْ وَجُوهُهُمْ هَلِعةً. أَمَّا

النساء فقد ظهرن كتماثيل من الثلج المزروق بسبب شحوبهنّ الذي هرب منه الدم وقد أبرزه النور.

يبدو يسوع وكأنّه أصبح ممتقاً بشكل مروّع، وكما لو كان موشكاً على التحلّل، كما لو كان ميتاً بالفعل. يبدأ رأسه يهوي على صدره. تخور قواه بسرعة. يرتعش رغم الحمى التي تحرقه. وفي ضعفه يهمس بالاسم الذي نطقه وحده في البداية من أعماق قلبه: «ماما!»، «ماما!». يهمسه ببطء كما لو كان يزفر، كما لو كان يشعر بهذيان خفيف يمنعه من التمالك بالقدر الذي تودّ إرادته ذلك. ومريم في كلّ مرة لا تستطيع أن تحجم عن مدّ ذراعيها له كما كي تعينه.

القصة يضحكون من تشنّج المحتضر هذا ومن تلك التي تشاركه. ومن جديد يصعد الكهنة والكتبة خلف الرعاة إلى الساحة الصغيرة المنخفضة. وبما أنّ الجنود يودّون دفعهم، يثورون قائلين: «ألا يقف هنا هؤلاء الجليليون؟ نحن أيضاً نريد أن نقف هنا كي نتنبّث من تحقق العدل بالكامل، ولا يمكننا أن نرى من بعيد في هذا النور الغريب.»

بالفعل، يتأثّر الكثيرون من النور الذي يوشك أن يغلف العالم، والبعض يخافون. كذلك الجنود يشيرون إلى السماء وإلى أحد الأشكال المخروطية كأنّه من صخر رماديّ من فرط ما هو قاتم، والذي يرتفع مثل كوز الصنوبر من خلف إحدى القمم. يبدو وكأنّه إعصار بحريّ. يرتفع ويرتفع ويبدو أنّه يُنتج سُحباً تزداد سواداً باطّراد، كما لو كان بركاناً يتقيأ دخاناً وحمماً.

وفي هذا النور الغسقي والمرعب يعطي يسوع يوحنا لمريم ومريم ليوحنا. يميل برأسه، إذ قد وقفت الأم في مكان أقرب تحت الصليب كي ترى أفضل، ويقول لها: «يا امرأة هو ذا ابنك. يا بني هذه أمك.»

يزداد اضطراب وجه مريم بعد هذا القول الذي هو وصية يسوعها، الذي لا يملك شيئاً يعطيه لأُمّه سوى إنسان. هو الذي، حُبّاً بالإنسان، حرّمها من الله-الإنسان الذي وُلِدَ منها. ولكنّها، وهي الأمّ المسكينة، تجتهد في ألاّ تبكي إلاّ بصمت لأنّها لا تقدر، لا تقدر ألاّ تبكي. تسيل دموعها رغم الجهود التي تبذلها كي تحبسها، ولو أنّها تَبَتَّتْ ابتسامة ممزّقة على شفّتها من أجله، كي تواسيه هو...

لم تتوقّف الآلام عن التعاضم ولم يتوقّف النور عن الخفوت.

وفي هذا النور الآتي من عمق البحر يخرج من خلف اليهود نيقوديموس ويوسف، ويقولان: «ابتعدوا!»

«لا يمكن! ماذا تريدان؟» يقول الجنود.

«المرور. نحن صديقان للمسيح.»

يلتفت رؤساء الكهنة: «مَنْ يجرؤ على الإعلان أنّه صديق المتمرّد؟» يقول الكهنة ساخطين.

ويوسف، بجرأة: «أنا النبيل عضو مجلس المشورة العظيم: الشيخ يوسف الذي من الرّامة، ومعني نيقوديموس، رئيس اليهود.»

«مَنْ يتواطأ مع المتمرّد، هو متمرّد.»

«وَمَنْ يَتَوَاطَأَ مَعَ الْقَتْلَةِ هُوَ قَاتِلٌ، يَا إِلِيَّعَازَرُ بْنُ حَنَّانٍ. أَنَا عَشْتُ كَمَا بَارَّ
وَالآنَ أَنَا كَهْلٌ قَرِيبٌ مِنَ الْمَوْتِ. وَلَا أُرِيدُ أَنْ أَصْبِحَ ظَالِمًا بَيْنَمَا السَّمَاءُ تَنْزِلُ
عَلَيَّ وَمَعَهَا الدِّيَّانُ الْأَبَدِيُّ.»

«وَأَنْتَ يَا نِيقُودِيمُوسُ! أَنَا مَندهش!»

«وَأَنَا أَيْضًا، وَمِنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ: هُوَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ صَارَتْ فَاسِدَةٌ لِلْغَايَةِ
لِدَرَجَةٍ أَنَّهُ لَمْ تَعُدْ تَعْرِفُ اللَّهَ.»

«أَنْتَ تَقْرَئُ زَنِي.»

«ابْتَعدْ إِذْنِ وَدَعْنِي أَمْرًا. لَا أَطْلُبُ سِوَى هَذَا.»

«كَيْ تَتَدَنِّسَ أَكْثَرَ بَعْدَ؟»

«إِنْ لَمْ أَكُنْ قَدْ تَدَنِّسْتُ بِالْبَقَاءِ بِالْقَرَبِ مِنْكُمْ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَ يَدْنَسُنِي. أَيُّهَا
الْجَنْدِيُّ خُذْ لَكَ هَذَا الْكَيْسَ وَتَصْرِيحَ الْمُرُورِ.» وَيُعْطِي قَائِدَ الْعَشْرَةِ الْأَقْرَبَ
كَيْسًا وَلَوْحَ شَمْعٍ.

يَأْخُذُ قَائِدُ الْعَشْرَةِ عِلْمًا وَيَقُولُ لِلْجُنُودِ: «دَعُوا الْاِثْنَيْنِ يَمْرَآنَ.»

يَقْتَرِبُ يَوْسُفُ وَنِيقُودِيمُوسُ مِنَ الرِّعَاةِ. لَا أَعْرِفُ حَتَّى إِذَا مَا كَانَ
يَسُوعُ يَرَاهُمَا، فِي هَذَا الضَّبَابِ الَّذِي يَزْدَادُ كَثَافَةً بِأَطْرَادٍ وَنَظَرَهُ الَّذِي يَضْفِي
النِّزَاعَ عَلَيْهِ غِشَاوَةً. وَلَكِنَّهُمَا يَنْظُرَانِ إِلَيْهِ وَيَبْكِيَانِ دُونَ أَيِّ اعْتِبَارٍ بَشَرِيٍّ،
رَغْمَ اللَّعْنَاتِ الَّتِي انصَبَّتْ عَلَيْهِمَا مِنَ الْكَهَنَةِ.

تَتَعَاطَمُ الْأَلَامُ بِأَطْرَادٍ. وَيَخْتَبِرُ الْجَسَدُ تَحْدِثَاتِ التَّكَرُّزِ الْأُولَى يَفَاقِمُهَا كُلَّ
صَخْبٍ مِنَ الْجَمْعِ. يَمْتَدُّ مَوْتُ الْأَنْسِجَةِ وَالْأَعْصَابِ مِنَ الْأَطْرَافِ الْمَعْدَبَةِ إِلَى

الجذع، جاعلاً حركة التنفّس أصعب فأصعب، وتقلّص الحجاب الحاجز أضعف وضربات القلب أكثر اضطراباً. ويتحوّل وجه المسيح بالتناوب من حمرة حادة إلى شحوب مخضرّ لمن يموت من النزيف. الفم يتحرّك بتعب أكبر، إذ إنّ أعصاب الرقبة والرأس مجهدة للغاية من استخدامها كرافعة لكلّ الجسد عشرات المرّات، بالاستناد على عارضة الصليب، فتتشرّج العضليّ حتّى الفكّ. الحلق المتورّم من الشرايين السباتيّة المحتقنة، يُسبّب ألماً ويجعل الودمة تمتدّ إلى اللسان الذي يظهر متضخّماً وحركاته بطيئة جداً. أمّا العمود الفقريّ، حتّى في الفترات التي لا تجعله التشنّجات التكرّزية ينحني إلى قوس كامل من مؤخّرة العنق إلى الوركين، حيث يتركز كنقاط متطرّفة على جذع الصليب، يتقوّس أكثر فأكثر إلى الأمام، ذلك أنّ الأطراف لا تكفّ عن التناقل من ثقل الجسد الميت.

يرى الناس هذه الأشياء قليلاً وبصعوبة لأنّ النور صار الآن بلون الرماد الداكن، وفقط الذين هم تحت عود الصليب يمكنهم الرؤية جيّداً.

في لحظة معيّنة ينكفيّ يسوع إلى الأمام وإلى الأسفل كما لو كان ميتاً، لم يعد يلهث، والرأس يتدلّى بلا حراك إلى الأمام. الجسد من الوركين إلى أعلى منفصل تماماً مشكّلاً زاوية مع ذراعيّ الصليب.

تُطلق مريم صيحة: «لقد مات!» صيحة أليمة تسري في الجوّ المظلم. ويسوع يبدو حقّاً ميتاً.

تردّ عليها صيحة أخرى من امرأة، وأرى حركة وسط مجموعة النساء. ثمّ يبتعد عشرة أشخاص وهم يحملون شيئاً ما. ولكنني لم أستطع أن أتبيّن مَنْ

الذي يبتعد هكذا. كان الضوء الضبابي ضعيفاً جداً. تحسب المرء غائصاً في غيم كثيف من الرماد البركاني.

«مستحيل.» يصيح كَهَنَة ويهود. «مُخَاتَلَة كي نبتعد. أيّها الجنديّ انكزه برمحك. فهذا دواء ناجع ليعيد له الصوت.» ولأنّ الجنود لم يفعلوا هذا، ينهال وابل من الحجارة وكتل الأتربة نحو الصليب، ضارباً الشهيد وساقطاً على الدروع الرومانيّة.

الدواء، كما يقول اليهود بسخرية، صنع المعجزة. بالتأكيد إحدى الحجارة ربما ضربت مباشرة جرح إحدى اليدين أو الرأس نفسه، إذ إنهم كانوا قد ألقوها إلى أعلى. يُطلق يسوع أنيناً يدعو للثناء ويرجع إلى نفسه. يعود الصدر إلى التنفّس بكثير من الألم والرأس بالدوران من اليمين إلى اليسار بحثاً عن موضع يستريح فيه كي يكون الألم أقلّ، فلا يجد سوى ألم أشدّ.

ومرّة أخرى، بعناء شديد، مستنداً على قدميه المعذبتين، مستمدّاً القوّة من إرادته، منها فقط، يتصّلب يسوع على الصليب، يستقيم كما لو كان رجلاً سليماً وبكلّ قوّته، يرفع وجهه وهو ينظر بعينين مفتوحتين إلى العالم الذي يمتدّ تحت قدميه، المدينة البعيدة التي ترى بالكاد مثل بياض متموج في الضباب، والسماء السوداء حيث اختفى كلّ ازرقاق وكلّ أثر للنور. و صوب هذه السماء المغلقة، الكثيفة، المنخفضة، المشابهة لسبّورة كبيرة سوداء داكنة، يُطلق صيحة عظيمة، منتصرة بقوة إرادته، باحتياج نفسه، بعائق فكّيه المتصلّبين، بلسانه المنتفخ، بحلقه المتورّم: «إيلوي، إيلوي، لما شبقنتي!» (هكذا سمعته يقولها).

لا بدّ أنّه شعر بالموت، وبهجر مطلق من السماء، كي يجاهر بهجر الآب بصيحة عظيمة كهذه.

يضحك الناس ويسخرون منه. ويهينونه: «ليس لله شأن بك! فالشياطين يلعنهم الله!»

ويصيح آخرون: «فلنر إن كان إيليا، الذي يناديه، يأتي ليخلصه.»

وآخرون: «اعطوه قليلاً من الخلّ لكي يغرغر به حلقه. هذا مفيد للصوت! إيليا أم الله، لأننا لا نعلم ماذا يريد هذا المجنون، هما بعيدان... يتطلّب الأمر صوتاً كي يتمّ السماع!» ويضحكون كضباع أو كأبالسة.

ولكن لم يعطه أيّ من الجنود خلاً ولم يأت أحد من السماء لمواساته. إنّهُ احتضار الضحية العظيمة، المنفرد، الكامل، الأليم، بل هو فائق الطبيعة في شدّته.

ويعود من جديد وابل الآلام الموحشة تلك التي أضنته في جثسيماني. يعود من جديد وابل خطايا العالم كلّهُ لضرب الغريق البريء، لالتهامه في مرارتها. وبالأخصّ يعود من جديد الإحساس، الأكثر صلباً من الصليب نفسه. الباعثة على اليأس أكثر من كلّ عذاب، المتمثّل في أنّ الله تركه وصلاته لا تصعد إليه...

وهذا هو العذاب النهائي. ذلك الذي يسرّع الموت، إذ يجعل آخر قطرات الدم تعبر من المسام، لأنّه يسحق آخر أنسجة القلب، لأنّه يتمّ ما بدّأته أوّل دراية بهذا الهجر: الموت. ذلك أنّها كانت السبب الأوّل لموت يسوعي، أيا الله، يا مَنْ ضربته بسببنا!

بعد هجرِكَ، وبفعل هجرِكَ، ماذا يصبح مخلوق؟ إمّا مجنوناً أو ميتاً. ولم يكن ممكناً ليسوع أن يصير مجنوناً، ففطنته كانت إلهية، وفطنته الإلهية تلك، كانت تنتصر على الصدمة النفسية الكاملة لمن كان الله قد ضربه. إذن، صار ميتاً: الميت، الميت الفائق القداسة، الموت مطلق البراءة. مات هو الذي كان الحياة، قتله هجرِكَ وخطايانا.

تتكاثف الظلمة. تختفي أورشليم بالكامل. منحدرات الجلجلة نفسها تبدو كأنّها أُلغيت. وحدها القمة مرئية، كما لو أن الظلمات كانت ترفعها عالياً لتستقبل الضوء الوحيد والأخير الذي كان باقياً، مقدّمة إيّاها كما تقدّمة مع نصبها الإلهي، على غطاء من العقيق السائل. كي تراه عيون الحبّ والكره. ومن هذا الضوء الذي ليس بالضوء يأتي صوت يسوع النائح: «أنا عطشان!»

بالفعل كانت هناك ريح تُتلف حتّى من كان في أتمّ صحّة، ريح متواصلة والآن عنيفة، محمّلة بالغبار، باردة، مرعبة. أفكر بالألم الذي يسبّبه عنف هبوبها على الرئتين والقلب، على حلق يسوع، على أعضائه المتلّجة، المسترخية، والمجروحة. إنّما حقّاً كلّ شيء حلّ يعذب الشهيد.

يذهب أحد الجنود إلى وعاء وضع فيه مساعدو الجلاد خلاً مع العلقم، لأنّ مرارته تساعد على زيادة إفراز اللعاب عند المعذبين. يأخذ الإسفنجة المغموسة في السائل، يغرزها في نهاية قسبة رفيعة ومع ذلك هي صلبة مهيّأة على مقربة، ويقدم الإسفنجة للمحتضر. يتناول يسوع بلهفة نحو الإسفنجة التي تقترب. تحسبه طفلاً جائعاً يبحث عن صدر أمّه.

مريم التي تنتظر وقد راودتها الفكرة بالتأكيد، تئنّ مستندة على يوحنا: «آه! وأنا لا أقدر منحه ولو قطرة من دموعي... آه! لماذا يا صديقي لم تعد تدرّ حليباً؟ آه! يا الله لماذا، لماذا تتركنا هكذا؟ معجزة لابني! مَنْ يرفعني كي أروي له ظمأه من دمي، بما أنه لم يعد لديّ حليب؟...»

يسوع الذي مصّ بلهفة السائل اللاذع والمر، يدير رأسه المشمزّ. وعلاوة على ذلك، لا بدّ أنّ هذا الشراب كان حارقاً لشفتيه المجروحتين والمشقّقتين. يبتعد، ينهار ويستسلم.

كلّ ثقل جسده يقع على القدمين وإلى الأمام. الأطراف المجروحة هي التي تعاني من الآلام الفظيعة بانفتاحها تحت ثقل جسد يستسلم. لم تعد هناك حركة تُسكّن هذا الوجع. الحوض وما فوقه منفصل تماماً عن الخشب ويبقى هكذا.

يميل الرأس إلى الأمام بتثاقل لدرجة أنّ العنق يبدو مقعّراً في ثلاثة مواضع: من الحلق الغائر بالكامل، ومن طرفي القصّ [عضلتي الرقبة]. التنفّس لاهث أكثر فأكثر ومتقطّع. لقد أصبح حشرجة إغمائية أكثر من كونه تنفّساً. من وقت إلى آخر فرط سعال أليم يجلب إلى الشفاه زبدًا وردياً خفيفاً. تصبح المدّة الفاصلة بين زفير وزفير أطول. لم يعد البطن يتحرّك؟ فقط الصدر ما يزال يرتفع، ولكن بكثير من الصعوبة والمشقة... ويتفاقم الشلل الرئويّ باطراد.

وبضعف مطّرد، مستحيلاً إلى نوح طفوليّ، يناديها: «ماما!» والتعسة تتمتم: «نعم، يا كنزي، أنا هنا.» وحينما يغشى بصره يقول: «أمّي، أين أنت؟ لم أعد أراك. هل تهجرينني أنتِ أيضاً؟» ولم يعد حتّى كلاماً، بل تمتمة

بالكاد مسموعة، حيث يستقبل القلب أكثر من الأذن كلّ تنهّات المحتضر.
فتقول: «لا، لا يا بنيّ! أنا لا أتركك! اسمعني يا محبوبي... ماما هنا، هي هنا... وعذابها الوحيد أنّها لا تقدر المجيء إلى حيث أنت...»

مشهد تمزّق... ويوحنا يبكي دون أن يتمالك نفسه. لا بدّ أنّ يسوع يسمع هذا البكاء، ولكنّه لا يقول شيئاً. أعتقد أنّ الموت الوشيك يجعله يتكلّم كما لو كان يهذي ولا يدري حتّى ما يقول، وللأسف، لا يدرك حتّى تعزية الأمّ ولا محبة المفضل.

لونجين -الذي ترك وضع الراحة عن غير قصد، حيث كان واقفاً مكتوف اليدين على صدره وساقاه متصالبتان، يتكئ على إحداها تارّة وعلى الثانية تارّة أخرى كي يريحهما بسبب طول الانتظار، هو الآن، على العكس، يقف متصلياً في وضع استعداد، اليد اليسرى على سيفه، واليمنى ممدّدة بجوار جسده كما لو كان يسير على أعتاب العرش الإمبراطوريّ- لا يريد أن يتأثر. ولكنّ وجهه يتبدّل بسبب الجهد الذي يبذله كي يغلب انفعاله، وتلمع عيناه بدمعة احتجزها فقط انضباطه الصارم.

الجنود الآخرون، الذين كانوا يلعبون النرد، توقّفوا، ووقفوا ليضعوا خوذاتهم التي كانت قد استُخدمت في تحريك النرد، ويلبثون في مجموعة بالقرب من السلم الصغير المحفور في تكوين الجبل الكلسيّ، بصمت وانتباه. الآخرون في الخدمة ولا يمكنهم أن يبرحوا أماكنهم. يبدو كأنهم تماثيل. ولكنّ أحدهم الأكثر قرباً، والذي يسمع كلام مريم، يتمتم بشيء بين شفّتيه ويهزّ رأسه.

صَمَتْ. ثمّ، بوضوح في الظلمة التامة، العبارة: «لقد تمّ!» بعد ذلك
اللاهات يتعاضم أكثر فأكثر، مع فترات صمت أطول بين الحشرجات.

يجري الوقت على هذا الإيقاع المُقلّق. تعود الحياة حينما يشقّ الصمت
اللاهات المرّ للمحتضر... وتتوقّف الحياة حينما لا يُسمَع هذا الصوت الأليم.

معاناة في سماعه... ومعاناة في عدم سماعه... يقال: «كفى عذاباً!»
ويقال: «آه! يا الله! لا يكن هذا نفسَه الأخير.»

تبكي كلّ المريمات، رؤوسهنّ على المنحدر. ويُسمَع جيّداً بكاؤهنّ لأنّ
الجمع يصمت ثانية الآن كي يتلقّى حشرجات المنازع.

صَمَتْ آخر بعد. ثمّ تصرّع يُنطق بعذوبة لانهائية، في صلاة حارّة:
«أبتي، بين يديك أستودع روحي!»

صَمَتْ آخر. الحشرجة أيضاً تصير خفيفة. لم تعد سوى نفس يخرج من
بين شفتيه وحلقه.

ثمّ ها هو التشنّج الأخير ليسوع. اختلاج مخيف، يبدو وكأنّه يريد أن
ينترع الجسد من الخشبة المثبت عليها بثلاثة مسامير، يصعد ثلاث مرات من
القدمين إلى الرأس، يسري عبر كلّ الأعصاب المسكينة المعذّبة؛ يرفع الجذع
ثلاث مرّات بطريقة غير طبيعيّة، ثمّ يتركه بعد أن يمدّده وكأنّه اضطراب
للأحشاء، فيهوي ويتقرّر كما لو كان قد فُرّغ؛ ثمّ يرتفع، ينتفخ، يعصر بشدة
الصدر فيتقرّر الجلد بين الضلوع التي تتوتّر وهي تظهر تحت البشرة وفاتحة
جروح الجلد؛ فتجعل الرأس يرتدّ إلى الخلف بعنف مرة، اثنتين، ثلاث
مرّات، فيضرب الخشب بقسوة؛ تنقبض كلّ عضلات الوجه بتشنّج واحد،

فيظهر انحراف الفم تجاه اليمين، فيُفْتَح وَيُبَسِّط الجفنان حيث يُرى تحتها دوران كرة العين وظهور البياض. يتوتر الجسد كله؛ وفي آخر تقلص من التقلصات الثلاثة، يصبح قوساً ممدداً، مرتعشاً، مريع المنظر، ثم صرخة قويّة، غير مُتَخَيِّلَة من هذا الجسد المنهك، تنطلق، تُمزّق الجو «الصيحة العظيمة» التي تتحدّث الأناجيل عنها وهي المقطع الأوّل من كلمة «ماما»... ثم لا شيء...

يهوي الرأس مجدداً على الصدر، الجسم إلى الأمام، تتوقّف الرعشة ويتوقّف أيضاً التنفّس. لقد مات.

تجيب الأرض على صرخة المقتول بزمجرة مرعبة. وكأنّ ألف بوق للعمالقة تُخرج صوتاً موحّداً، وعلى هذا التناغم المرعب، ها هي العلامات الموحشة، تَمَزُّقٌ للبرق الذي يشقّ السماء في كلّ اتجاه، ساقطاً على المدينة، على المعبد، وعلى الجمع... أعتقد أنّ البعض قد صُعِق، لأنّ الجمع قد ضُرب بشكل مباشر. البروق هي النور الوحيد وغير المنتظم الذي يتيح الرؤية.

ثمّ فجأة، وأثناء استمرار وابل الصواعق، ترتجّ الأرض في زوبعة ريح إعصاريّة. يمتزج زلزال الأرض والإعصار لإنزال العقاب الرئويّ بالمجدّفين. تتموّج قمّة الجلجلة وترقص مثل طبق في يد مجنون، بهزّات وترنّحات شديدة تهزّ الصلبان الثلاثة حتّى لتبدو وكأنّها ستقلبها.

لونجين، يوحنا والجنود يتشبّثون حيث يتمكّنون من ذلك، بقدر استطاعتهم، تحسّباً من السقوط. أمّا يوحنا فبينما يتشبّث بالصليب بيد، يسند مريم بالأخرى، التي بسبب الألم والهزّات، تلتجئ إلى صدره. الجنود

الآخرون، وخاصة أولئك الذين عند حافة المنحدر، يهرعون إلى الوسط، كيلا يُرموا إلى أسفل المنحدر. يصيح اللسان رعباً، يصرخ الجمع بقوة أكبر ويودّون الفرار، ولكن بلا جدوى. يسقط بعضهم فوق بعض، يهرس بعضهم بعضاً، يتدهورون في شقوق التربة، يُجرّحون، يتدحرجون على طول المنحدر، يصبحون مجانين.

يتكرّر ثلاث مرات زلزال الأرض وإعصار الهواء، ثمّ هو السكون المطلق لعالم ميت. فقط بروق تشقّ السماء بلا رعود، وتضيء مشهد اليهود الذين يهربون في كلّ اتجاه، أياديهم في شعورهم أو ممتدّة إلى الأمام، أو مرفوعة نحو السماء، التي احتقروها والآن هم خائفون منها. يخفّف الظلمة لمعان منير، يساعده الانبعاث الصامت والمغناطيسي للبروق، ممّا يتيح رؤية أنّ كثيرين ظلّوا على الأرض: أمواتاً أو في حالة إغماء، لا أعرف. منزل يحترق داخل الأسوار واللهيب يتصاعد مستقيماً في الهواء الساكن، وقد أضفى مسحة حمراء زاهية على الأخضر الرماديّ الذي للجوّ.

ترفع مريم رأسها من على صدر يوحنا وتنظر إلى يسوعها. تناديه إذ إنّها لا تراه جيّداً في النور الضعيف وبعينيها المسكينتين المليئتين بالدموع. تناديه ثلاثاً: «يسوع! يسوع! يسوع!» هذه أوّل مرّة تناديه فيها باسمه منذ وصوله إلى الجلجلة. أخيراً، في وميض برق يُشكّل إكليلاً على قمّة الجلجلة تراه، بلا حراك، مائلاً بكلّيته إلى الأمام، رأسه منكّس للغاية إلى الأمام، جهة اليمين، لدرجة أنّه يلمس كتفه بالخدّ والأضلاع بالذقن، وتدرّك. تمّدّ يديها المرتعشتين في الظلمة وتهتف: «ابني! ابني! ابني!» ثمّ تُنصّت... فمها

مفتوح وتبدو وكأنّها تريد أن تسمع حتّى به، كما قد وسّعت العينين كي ترى،
كي ترى... لا يمكنها تصديق أنّ يسوعها لم يعد موجوداً...

يوحنا، الذي نظر أيضاً واستمع وفهم أنّ كلّ شيء قد انتهى. يحتضن
مريم ويحاول إبعادها قائلاً: «لم يعد يتألم.»

ولكن قبل أن يكمل الرسول جملته، مريم، التي أدركت، تفلت منه،
وتدور حول نفسها، تنحني نحو الأرض، تضع يديها على عينيها وتهتف:
«لم يعد لي ابن!»

ثمّ تترنّح وتوشك على السقوط لولا أنّ يوحنا كان قد تقبّلها على صدره،
ثمّ يجلس على الأرض كي يسندها على صدره بشكل أفضل، ريثما حلّت
المريمات محلّ الرسول لدى الأمّ إذ بالفعل لم تعد تمنعهنّ دائرة الجنود العليا،
إذ إنّهم، الآن وقد هرب اليهود، قد اجتمعوا في الساحة الصغيرة بالأسفل
ليعلّقوا على الحدث.

تجلس المجدليّة حيث كان يوحنا، وتكاد تمّد مريم على ركبتيها، وهي
تسندها بين ذراعيها وصدرها، مُقبّلة وجهها الذي هرب منه الدم، منحنية
على كتفها مشفقة عليها. أمّا مرثا وسُوسنة، فباِسْفَنجة ونسيج مبلل بالخل،
تغسلان صدغيها ومنخريها، بينما أخذت سلفتها مريم تُقبّل يديها وهي تناديهما
بصوت ممزّق، وما أن تفتح مريم عينيها، وتلفت إليها بنظرة جعلها الألم
بليدة، حتّى قالت لها: «ابنتي، ابنتي الغالية، اسمعيني... قولي لي إنك
ترينيني... أنا مريمك... لا تنظري إليّ هكذا...» وبعد أن فتحت أوّل شهقة
حلق عينيّ مريم وسالت الدموع الأولى، تقول مريم الطيّبة التي لحفى:
«نعم، نعم، ابكي... هنا معي، كما مع أمّ، مسكينتي، الابنة القديسة»، وحينما

سَمِعَتْهَا تَقُولُ: «آه! مريم! مريم! هل رأيتِ؟» تقول متممة: «نعم! نعم... ولكن... ولكن... ابنتي.... آه! يا ابنتي...» لا تجد شيئاً آخر تقوله وتبكي مريم العجوز، دموع حزينة تلقى صداها لدى الأخريات جميعاً، أي مرثا ومريم، وأمّ يوحنا وسُوسنة.

لم تعد النساء الورعات الأخريات هنا. أظنّ أنّهنّ قد رحلن ومعهنّ الرعاة، لدى سماع صرخة المرأة تلك...

الجنود يتكلّمون فيما بينهم.

«هل رأيتَ اليهود؟ الآن تملّكهم الخوف.»

«كانوا يقرعون صدورهم.»

«كان الكهنة أكثرهم رعباً!»

«وأيّ رعب! لقد شعرتُ بزلازل أخرى. ولكن أبداً لم تكن كهذا. انظر:

لقد لبثت الأرض مليئة بالتشقّقات.»

«لقد انهدم مقطع كامل من الطريق الطويلة.»

«وبالأسفل هناك جثث.»

«دعها! لتتنقص الثعابين.»

«آه! حريق آخر! في الريف...»

«ولكن هل مات حقاً؟»

«ألا ترى؟ هل تشكّ بذلك؟»

يَظهر مِن خِلف الصخرة يوسف ونيقوديموس. بالتأكيد كانا قد احتميا
خلف ملاذ الجبل للنجاة مِن الصاعقة. يذهبان للقاء لونجين: «نريد الجثمان.»
«فقط الوالي يمنحه. اذهبا، وبسرعة، لأنني سمعتُ أنَّ اليهود يريدون
الذهاب إلى دار الولاية للحصول على كسر الساقين. ولا أودُّ أن يهينوه.»
«وكيف تعرف هذا؟»

«تقرير المُخبر. اذهبا. أنا في انتظاركما.»

يسرع الاثنان عبر الطريق المنحدرة ويختفيان.

وهنا يدنو لونجين مِن يوحنا ويقول له بروية شيئاً لم أفهمه، ثمَّ يأخذ
رمحاً مِن أحد الجنود. ينظر إلى النساء اللواتي انشغلن بمريم التي تستعيد
ببطء قوّتها. كنَّ يدرن ظهورهنَّ جميعاً للصليب.

يقف لونجين في مواجهة المصلوب، يدرس جيّداً الطعنة، ثمَّ يطعن،
الرمح العريض يخترق بعمق مِن أسفل إلى أعلى، مِن اليمين إلى اليسار.
يوحنا الذي يتخبّط بين رغبته في النظر والرعب مِن المنظر، يدير
رأسه لحظة.

«انتهى الأمر يا صديقي.» يقول لونجين ويضيف: «هكذا أفضل. كما
لفارس، ودون تكسير عظام... بالحقيقة كان بارّاً!»

مِن الجرح يرشح كثير مِن الماء وبالكاد خيط مِن الدم بات يشكّل
جلطات. يرشح، قلتُ. لم يخرج إلّا راشحاً مِن الشقّ الواضح الذي يبقى بلا
حراك. لأنّه لو كان يتنفس، لانفتح وانغلق بسبب حركة البطن والصدر...

... وبينما على الجلجلة كلّ شيء يلبث على هذا المشهد التراجيدي،
ألق يوسف ونيقوديموس اللذين ينزلان من طريق مختصرة كي يسرعا.
إنّهما تقريباً في الأسفل حينما يلتقيا بغمّلائيل. غمّلائيل مشعث الشعر،
بلا غطاء رأس، بلا رداء، ثوبه الرائع متسخ بالتراب وممزق بفعل الأشواك.
غمّلائيل يصعد جرياً وهو يلهث، يداه في شعره الأشعث الرماديّ، شعر
رجل عجوز. يتحادثون دون وقوف.

«غمّلائيل! أنت؟»

«أنت، يوسف؟ هل تركته؟»

«أنا، لا. ولكن لماذا أنت هنا؟ وهكذا؟...»

«أشياء رهيبة! كنتُ في الهيكل! العلامة! الهيكل متشقّق! الحجاب
الأرجواني والياقوتي يتدلّى ممزّقاً! قدس الأقداس مكشوف! لعنة علينا!» لقد
تكلم وهو مستمرّ في الجري نحو القمة، وقد جنّ بفعل الدليل.

ينظر إليه الاثنان وهو يبتعد... يتبادلان النظر... يقولان معاً: «"هذه
الحجارة سترتجف عند كلماتي الأخيرة!" كان قد وعده بذلك!...»

يسرعان الخطى نحو المدينة.

عبر الحقول، بين الجبل والأسوار، وفيما وراء ذلك، في جو مازال
معتماً، يهيم أناس كالبلهاء... صيحات، بكاء، عويل... منهم من يقول: «دمه
أمطر ناراً!» وآخرون: «ظهر يهوه بين البروق ليلعن الهيكل!» وآخرون
يتمتمون: «القبور! القبور!»

يمسك يوسف بواحد يرطم رأسه بالجدران ويناديه باسمه، يقوم بجره فيما يدخل المدينة: «سمعان، ماذا تقول؟»

«اتركني! أنت أيضاً أحد الأموات! كلّ الأموات! خرج الجميع! وهم يلعنونني.»

«لقد جنّ.» يقول نيقوديموس.

يتركانه ويمضيان بهمة إلى دار الولاية.

المدينة فريسة الرعب. ناس يهيمون وهم يقرعون صدورهم؛ وآخرون يقفزون إلى الخلف أو يستديرون فزعين سامعين خلفهم صوتاً أو خطوة.

في واحد من العقود [القناطر] الكثيرة المظلمة، ظهور نيقوديموس وهو يرتدي الصوف الأبيض -لأنه نزع رداءه الداكن على الجلجلة كي يسرع- يجعل أحد الفرّيسيّين الهاربين يطلق صرخة رعب. ثمّ يتبيّن أنه نيقوديموس، فيتمسّك بعنقه بانفتاح غريب، ويصيح: «لا تلعني! لقد ظهرت لي أمي وقالت لي: "ملعون أنت إلى الأبد!" ثمّ يرتمي على الأرض وهو يقول: «أنا خائف! أنا خائف!»

«ولكنّهم جميعاً مجانين!» يقول الاثنان.

يصلان إلى دار الولاية. وهناك فقط، وأثناء انتظارهما استقبال الوالي لهما، يتوصّل يوسف ونيقوديموس إلى تبين سبب كلّ ذلك الرعب. قبور كثيرة كانت قد تفتّحت نتيجة الهزة الأرضيّة، وكان قوم قد أقسموا أنّهم شاهدوا خروج الهياكل العظميّة التي، للحظة، كانت قد استعادت مظهرها بشرياً ومضت وهي تتهم أولئك الذين كانوا المذنبين بقتل الله وتلعنهم.

أتركهما في فناء دار الولاية، حيث يدخل صديقي يسوع دون افتعال قصص عن التقزز الغبي والخوف من التدنس، وأعود إلى موضع الصلب، وقد لحقتُ بغمَلائيل الذي أضحي منهكاً، وهو يصعد الأمتار الأخيرة. يتقدّم وهو يقرع صدره، ولدى وصوله إلى أولى الساحتين الصغيرتين، يرتمي أرضاً، كشكل طويل أبيض على الأرض المصفرة، ويئن: «العلامة! العلامة! قل إنك تسامحني! أنين، مجرد أنين واحد، تخبرني به أنك تسمعني وتسامحني.»

أدرك أنه يظنه ما يزال حياً. لم يثب إلى رشده إلا حين يصدمه أحد الجنود برمحه ويقول له: «قف واصمت. لا فائدة! كان يجب أن تفكر في ذلك قبلاً. لقد مات. وأنا الوثني أقول لك: إن الذي صلبتموه، كان حقاً ابن الله!»

«ميت؟ أنت مت؟ آه!...» يرفع غمَلائيل وجهه المروّع، يحاول أن يرى حتّى هناك على أعلى القمّة، في النور الغسقي. يرى القليل، ولكن بما يكفي كي يفهم أن يسوع مات. ويرى المجموعة التقيّة التي تعزي مريم، ويوحنا، واقفاً إلى يسار الصليب، يبكي، ولونجين يقف إلى اليمين، في وقفة مهيبة ومُجلّة.

يركع ويمد ذراعيه ويبكي: «كنت أنت هو! كنت أنت هو! لا يمكن أن نحظى أبداً بالمغفرة. لقد طلبنا أن يكون دمك علينا. وهو يصرخ إلى السماء، والسماء تلعننا... آه! إنما قد كنت الرحمة!... أنا أقول لك، أنا، رابي اليهوديّة الفاني: "دمك علينا، رحمة بنا". انضحنا به! إذ هو وحده يمكنه أن يجعلنا ننال الغفران...» يبكي. ثمّ ببطء أكثر، يقرّ بعذابه الخفي: «لقد نلتُ العلامة المطلوبة... ولكنّ عصوراً وعصوراً من العمى الروحيّ تجثم على رؤياي

الداخلية، وفي مواجهة إرادتي الحالية يرتفع صوت فكري المتكبر القديم...
ارحمني! يا نور العالم، إلى الظلمات التي لم تدركك، أنزل واحدة من أشعّتك!
أنا الشيخ اليهودي المؤمن بما كان يعتقد أنه الصواب وكان الخطأ. والآن أنا
أرض بور محترقة، بلا أية شجرة قديمة من الإيمان العتيق، بلا أية بذرة أو
نبته من الإيمان الجديد. أنا صحراء قاحلة. اجترح أنت المعجزة وأنبت زهرة
تحمل اسمك في قلب الشيخ الإسرائيلي العنيد المسكين. أنت، المحرّر،
اخترق تفكيري المسكين، أسير الصيغ. قالها إشعياء: "...لقد دفع الثمن عن
الخطاة، وضع عليه خطايا الكثيرين". آه! وخطيئتي أيضاً، يا يسوع
الناصري...»

ينهض. ينظر إلى الصليب الذي يتّضح أكثر فأكثر في النور الذي يعود،
ثم يمضي محنياً، هَرِماً، متلاشياً.

ويعود الصمت إلى موضع الصلب، لا يكاد يقطعه سوى دموع مريم.

اللصان وقد أنهكهما الخوف، لا يعودان يتكلمان.

يرجع نيقوديموس ويوسف مسرعين، وهما يقولان إنّ معهما إذن
بيلاطس. ولكنّ لونجين، الذي لا يثق بهذا كثيراً، يُرسل أحد الجنود بحصان
إلى الوالي كي يعرف ماذا يفعل باللصين كذلك. يذهب الجندي ويرجع
بسرعة مع أمر بتسليم يسوع وكسر أرجل الآخرين، حسب إرادة اليهود.

ينادي لونجين الجلادين الأربعة، الذين قرفصوا بجبن تحت الصخرة
وهم ما يزالون مرعوبين من الحدث، ويأمرهم بضرب سيقان اللصين
بهرافات حتّى النهاية. يتقبّل الأمر بلا احتجاج ديماس الذي ضُرب على قلبه

بعد أن ضُربت ركبته بهراوة منزوعة الحديد، فيتكسر تقريباً على شفتيه اسم يسوع، في حشجة. أمّا اللص الآخر، فبلعنات رهيبة. كانت حشرجتهما محزنة.

يودّ الجلادون الأربعة الاهتمام أيضاً بيسوع لفصله عن الصليب. إنّما يوسف ونيقوديموس لم يسمحا لهم. ينزع يوسف كذلك رداءه ويطلب من يوحنا الاقتداء به والإمساك بالسلام، بينما هما يصعدان مع العتلات والكمّاشات.

تقف مريم وهي ترتعش، تسندها النساء، وتقرب من الصليب.

في هذه الأثناء يمضي الجنود إذ قد انتهى عملهم. ولونجين، قبل أن ينزل إلى ما بعد الساحة السفليّة، يلتفت من على ظهر جواده لينظر إلى مريم والمصلوب. ثمّ تُسمّع جلجلة الحوافر على الصخور ورنين السلاح على الدروع، ويبتعد أكثر فأكثر.

يُنزع مسمار الكف الأيسر. يهوي الذراع على مدى الجسم الذي يتدلى الآن نصف مفصول.

يطلبان من يوحنا أن يصعد أيضاً، تاركين السلام للنساء. ويوحنا، متسلّقاً السلم حيث كان من قبل نيقوديموس، يمرّر ذراع يسوع حول رقبته ويبقيه هكذا، ملقى على كتفه، معانقاً إياه بذراعه من الوسط ويمسكه بأطراف الأصابع حتّى لا يصدّم الشقّ الرهيب لليد اليسرى، المفتوح تقريباً. وحينما يُنزع المسمار من قدميه، يعاني يوحنا كثيراً في الإمساك بجسد معلّمه وإسناده بين الصليب وجسده.

تجلس مريم تحت عود الصليب، وظهرها له، مستعدة لتقبل يسوع على ركبتيها.

وكان الأصعب فصل مسمار الذراع الايمن. فرغم كلّ جهود يوحنا، تدلّى الجسد بالكامل إلى الامام، ورأس المسمار مغروز بعمق في الجسد. ولأنهما لم يريدا أن يجرحاه أكثر بعد، فإنّ الرّجلان الرحيمان يعانيان كثيراً، أخيراً يقبضان على المسمار بالكماشات ويُخرجانه بكلّ بطة.

يوحنا يمسك يسوع من إبطيه، ورأسه على كتفه، بينما يمسكه نيقوديموس ويوسف واحد من فخذه والآخر من ركبته، وينزلان باحتراس وهم يمسكانه هكذا على السلالم.

حين وصلوا الأرض، أرادوا أن يمددوه على الملاءة التي مدّوها على أرديتهم، ولكن مريم أرادتة. فتحت رداءها وتركتة ممدداً من إحدى الجهات وباعدت بين ركبتيها كي تجعل مهداً ليسوعها.

وبينما يستدير التلاميذ ليعطوها الابن، يهوي الرأس المكلّل إلى الخلف وتدلّى الذراعان إلى الأرض لتحكّا التربة بيديه المجروحتين لو لم تسرع شفقة السيّدات التقيّات في إمساكهما ليحطن دون ذلك.

الآن هو في حضن أمّه... وكأنّه طفل كبير متعب ينام متكوراً في حضن الأمّ. مريم تمرّر ذراعها اليمنى خلف كتفيّ ابنها واليسرى فوق البطن كي تمسكه من الردفين. الرأس على كتف الأمّ. وتناديه... تناديه بصوتها الممزّق. ثمّ تُبعدّه عن كتفيها وتلاطفه بيدها اليسرى، تأخذ اليدين وتمدّهما وتقبلهما قبل أن تضعهما فوق بعضهما البعض، وتبكي على الجروح. ثمّ

تلمس الوجنتين، وخاصة حيث الزُّرقة والتورّم، تُقبل العينين الغائرتين، والفم الملتوي قليلاً صوب اليمين والنصف مفتوح. تريد أن تعيد ترتيب شعره، كما فعلت بالذقن الملبّدة بالدم، إنّما وهي تقوم بهذا تلاقي الأشواك. إنّها تتأذى وهي تنزع ذاك الإكليل، وتريد أن تقوم بذلك بنفسها باليد الوحيدة الحرة، وتُبعد الجميع قائلة: «كلّا! كلّا! أنا! أنا!» وكأنّ لديها بين أصابعها رأس مولود ليّن من كثرة احتراسها وهي تفعل ذلك. وحينما نجحت في نزع الإكليل المُعذّب، تتحني كي تعني بقبلاتها بكل خدش للشوك. وببيدها المرتعشة تُفرق الشعر المشعث، تُرتبه، تبكي وتتكلّم بهدوء شديد. وتمسح بأصابعها الدموع التي تسقط على أعضاء الجسد المسكين البارد المُغطى بالدم، وتفكر بتنظيفه بدموعها وبوشاحها الذي ما يزال حول كليتيّ يسوع. فتجذب إليها طرفاً منه وتبدأ بتنظيفه ومسح أعضائه المقدّسة. لا تكفّ عن ملامسة وجهه، ثمّ يديه، ثمّ ركبتيه المكسّوتين بالرضوض، ثمّ تصعد كي تمسح الجسد الذي تنهال عليه دموعها الغزيرة.

وفيما هي تقوم بهذا تلتقي يدها بفتحة الجنب. اليد الصغيرة المغطاة بنسيج ناعم، تدخل كلّها تقريباً في ثقب الجرح الواسع. تميل مريم كي ترى، في شبه الضوء الذي تَكُون، وترى. ترى الجنب المفتوح وقلب ابنها. حينئذ تصرخ. تبدو وكأنّ سيفاً يفتح قلبها هي أيضاً. تصرخ، ثمّ تنكبّ على ابنها وتبدو كأنّها ميتة هي أيضاً.

يساعدونها ويعزّونها، يريدون أن يرفعوا عنها الميت الإلهي. فتصرخ: «أين، أين أضعك ويكون مكاناً أميناً ولائقاً بك؟» ينحني يوسف بكليته في انحناء جليلة، وهو يضع يده المفتوحة على صدره ويقول: «اطمئنّي يا

امرأة! قбри جديد وجدير بعظيم. سأعطيه له. ونيقوديموس صديقي، قد أحضر الطّيب إلى القبر وسيقدّمه له شخصياً. ولكن رجاء، لأنّ المساء قد اقترب، دعينا نقوم بذلك... إنّها سهرة السبت. كوني طيّبة أيّتها المرأة القدّيسة!»

يتوسّل إليها أيضاً يوحنا والنسوة بنفس الطريقة، ومريم تتركهم يأخذون ابنها من على ركبتيها، وتقف، في ضيق، بينما هم يلقّونه بالملاءة، وهي تتوسّل إليهم: «آه! بلطف!»

نيقوديموس ويوحنا من الكتفين، ويوسف من القدمين، يرفعون الجثمان المغلّف ليس فقط بالملاءة، بل الممدّد أيضاً على المعاطف التي استعملوها كنقالة، ويمضون نزولاً عبر الطريق.

مريم تنزل باتجاه القبر، تسندها سلفتها والمجدليّة، يتبعهن مرثا ومريم التي لزبدي وسُوسنة، بعد أن جمعن المسامير والكماشات، الإكليل، الاسفنجة والقصبّة.

على موضع الصّلب بقيت الصّلبان الثلاثة. الصّليب الأوسط خاوٍ وعلى الآخرين الغنيمة الحيّة تموت.

"والآن، يقول يسوع، انتبهي جيّداً. أوفّر عليك وصف القبر، المصاغ بشكل جيّد العام الماضي، في 19 شباط 1944. فهذه الرؤيا هي التي ستستخدمينها، والأب ميغليوريني سيضيف، في النهاية، تلك التي لنحيب مريم التي أعطيتها في 4 تشرين الأوّل 1944. ومن ثمّ تضعين من جديد ما سترين. هذه هي الأجزاء الجديدة للآلام، ويجب وضعها بحيث تُورد بدقّة، لكي لا تخلق أيّ لبس أو تترك ثغرات."

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

24- (كرب مريم الرهيب عند القبر. تطيب جسد المخلص.)

1944 / 02 / 19

لا فائدة من قول ما أختبره. فأكون أستعرض آلامي فقط، والتي لا قيمة لها بالنسبة للآلام التي رأيتها. سأكتب إذن دون تعليق على ذاتي.

أنا أحضر دفن ربّي.

الموكب الصغير، بعد نزوله من موضع الصّلب، يجد عند أسفله قبر يوسف الذي من الرّامة المحفور في كلس الجبل. يلجه الأتقياء مع جسد يسوع.

أرى القبر مجهّزاً هكذا. غرفة محفورة في الصخر في عمق حديقة مُزهرة. تشبه المغارة، ولكن يدرك المرء أنّها محفورة بيد إنسان. هناك حجرة القبر بالمعنى الحصريّ للكلمة، بفجواتها (وهذه مصنوعة بشكل مختلف عن تلك التي للدياميس¹). إنّها تجاويف مستديرة تخترق الصخرة مثل ثقب الخلية، هذا لإعطاء فكرة عنها. الآن كلّها خالية. أرى العين الفارغة لكلّ فجوة مثل بقعة سوداء في الصخر الرماديّ. ويتقدّم غرفة الدفن هذه، ما يشبه غرفة انتظار. في وسطها منضدة حجريّة من أجل المسح. وهي التي وُضع عليها جسد يسوع في ملأته.

يَدْخُلُهُ أَيْضاً يَوْحَنَّا وَمَرْيَمُ. وَلَيْسَ أَكْثَرَ لِأَنَّ حَجَرَةَ التَّهْيِئَةِ هَذِهِ صَغِيرَةٌ، وَلَوْ وُجِدَ فِيهَا أَشْخَاصٌ آخَرُونَ، لَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَتَحَرَّكُوا. النِّسَاءُ الْآخَرِيَّاتُ قَرَبَ الْبَابِ، أَوْ بِالْآخَرَى قَرَبَ الْفَتْحَةِ، إِذْ لَا بَابَ هُنَاكَ بِالْمَعْنَى الْحَصْرِيِّ.

حَامِلاً يَسُوعَ يَكْشِفَانِ عَنْهُ.

وَأَثْنَاءَ إِعْدَادِهِمَا اللَّفَافِ وَالطِّيُوبِ فِي رَكْنٍ عَلَى رَكِيزَةٍ، عَلَى ضَوْءٍ مَشْعَلَيْنِ، تَنْحَنِي مَرْيَمُ عَلَى ابْنِهَا وَتَبْكِي. وَتَمْسُحُهُ مِنْ جَدِيدٍ بَوْشَاحِهَا الَّذِي مَا يَزَالُ عَلَى كَلِيتَيِّ يَسُوعَ. دُمُوعُ الْأُمِّ هُوَ الْغَسْلُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَتَلَقَّاهُ جَسَدُ يَسُوعَ، وَإِنْ كَانَتْ غَزِيرَةٌ وَوَفِيرَةٌ، إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَنْفَعْ إِلَّا فِي رَفْعِ الْغُبَارِ وَالْعَرَقِ وَالدَّمِ سَطْحِيّاً وَجَزْئِيّاً عَنْ هَذَا الْجَسَدِ الْمَعْدَبِ.

لَا تَتَعَبُ مَرْيَمُ مِنْ مَلَاطِفَةِ تِلْكَ الْأَطْرَافِ الْمُثَلَّجَةِ. بِنَعُومَةٍ أَكْثَرَ مِمَّا لَوْ كَانَتْ تَلْمَسُ تِلْكَ الَّتِي لَطْفٌ وَلِيدٌ، تَأْخُذُ الْيَدَيْنِ الْمُسْكِينَتَيْنِ الْمَمْرُقَتَيْنِ، تَضُمَّهُمَا بَيْنَ يَدَيْهَا، تَقْبَلُ أَصَابِعَهُ، تَفْرُدُهَا، تَحَاوُلُ أَنْ تَضُمَّ شَفَتَيَّ الْجِرَاحِ كَمَا كِي تَعَالِجُهَا لِتَكُونَ أَقْلَ أَلَمًا، تَضَعُ عَلَى خَدَّيْهَا يَدَيْهِ اللَّتَيْنِ لَنْ تَسْتَطِيعَا الْمَدَاعِبَةَ، وَتَنْزَنَّ، تَنْزَنَّ فِي أَلَمِهَا الْفَظِيعِ. تَنْهَضُ وَتَضُمَّ الرَّجْلَيْنِ الْمُسْكِينَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَقِيَّتَا هَكَذَا مَهْمَلَتَيْنِ، كَمَا لَوْ أَنَّهُمَا كَانَتَا مِنْهَكَتَيْنِ لِلْغَايَةِ مِنْ طَوْلِ الطَّرِيقِ الَّتِي سَلَكَتَاهَا مِنْ أَجْلِنَا. وَلَكِنَّهُمَا تَزْحَرْحَتَا كَثِيراً عَلَى الصَّلِيبِ، وَبِالْأَخْصِ الْيَسْرَى الَّتِي بَقِيَتْ مَسْطُحَةً، وَكَأَنَّهَا لَمْ يَكُنْ لَهَا كَا حَلٌّ.

ثُمَّ تَعُودُ إِلَى الْجَسَدِ وَتُلَاطِفُهُ، إِنَّهُ بَارِدٌ وَمُتَصَلِّبٌ. تَرَى مِنْ جَدِيدٍ شَقَّ الرَّمْحِ. الْآنَ حَيْثُ الْمَخْلُصُ مَمْدَّدٌ عَلَى ظَهْرِهِ عَلَى اللَّوْحِ الْحَجْرِيِّ، فَالْشَّقُّ مَفْتُوحٌ وَفَاغِرٌ كَالْفَمِ، يَسْمَحُ بِرُؤْيَا أَفْضَلٍ لِلتَّجْوِيفِ الصَّدْرِيِّ (زَاوِيَةِ الْقَلْبِ

يمكن رؤيتها بوضوح بين القص والقوس الضلعيّ الأيسر، وحوالي سنتيمترين إلى أعلى يوجد الشقّ الذي سبّبه سن الرمح في الفؤاد والشغاف، بطول واحد سنتيمتر ونصف، بينما الشقّ الخارجيّ عند الجهة اليمنى بطول سبعة سنتيمترات على الأقلّ) تصرخ مريم من جديد كما على الجلجلة. وتبدو كأنّ الرمح اخترقها من فرط ما تتلوّى من الألم واضعة يديها على قلبها، المخترق مثل قلب يسوع. كم من القبلات على هذا الجرح، يا للألم المسكينة!

ثمّ تعود إلى الرأس الهاوي وتقومه لأنّه ظلّ هاوياً إلى الخلف بشكل خفيف وبشدّة جهة اليمين. تحاول إغماض الجفنين المُصِرّين على البقاء شبه مفتوحين، والفم الذي بقي مفتوحاً، متشنّجاً، ملتوياً قليلاً نحو اليمين. تمشّط الشعر، الذي كان بالأمس فقط جميلاً، والذي أصبح الآن متشابكاً مثقلاً بالدم. تُخلّص الخصل الطويلة، تملّسها على أصابعها، وتلقّها كي تعيد لها شكل شعر يسوعها الجميل، الناعم جدّاً والمقصب جدّاً. لا تكفّ عن الأنين وهي تتذكّره حين كان طفلاً... هذا هو الباعث الأساسيّ لألمها: ذكرى طفولة يسوع، محبّتها له، عناياتها حيث كانت تخاف حتّى من الهواء على هذه الخليقة الصغيرة الإلهيّة، والمقارنة بينها وبين ما صنعه البشر به الآن.

نحيبها يؤلمني، وحركتها حينما تقول وهي تننّ: «ماذا فعلوا بك، ماذا فعلوا بك يا ابني؟» غير قادرة على رؤيته هكذا: عرياناً، متيّساً، على حجر، فتحتضنه بين ذراعيها، ممرّرة ذراعها تحت كتفيه، ضامّة إياه باليد الأخرى على صدرها، تهدده، هدهدة مغارة الميلاد نفسها. كلّ هذا يجعلني أبكي وأتألم كما لو أنّ يداً كانت تحفر قلبي...

كرب مريم الروحيّ الرهيب.

الأمّ واقفة بجوار حَجَرِ المسح تتأمّل، وتُلاطِف، وتئنّ، وتبكي. نور الشعلتين المرتعش ينير وجهها بين فينة وأخرى، وأرى دموعاً كبيرة تنساب على خديها الشاحبين في وجهها المُتَلَف. وأسمع الكلام. كلّهُ، بوضوح، رغم الهمس به بين الشفتين، حوار حقيقيّ بين نفس الأمّ ونفس ابنها. وأتلقّى أمر كتابته.

«ابني المسكين! كم من جراح!... كم تألّمت! انظر ماذا فعلوا بك!... كم أنت بارد يا بنيّ! أصابعك مثلّجة. وكم هي خادمة! تبدو وكأنّها محطّمة. وهي لم تكن أبداً خادمةً هكذا، ولا حتّى في نومك الطفوليّ العميق، ولا في ثقل تعبك كحرفي... وكم هما مثلّجتان! اليدان المسكينتان! أعطهما لأمّك، يا كنزي، يا حبّي، يا حبّي المقدّس! انظر كيف تُقَبّتا! ولكن انظر يا يوحنا، أيّ شقّ! آه! يا للقساة! هنا، هنا، أعط لأمّك هذه اليد المجروحة. فأداويها. آه! لن أسبّب لك ألماً... سأستخدم الدموع والقبلات، وسأدفنهما بأنفاسي وحبّي. هبني ملاطفة، يا بنيّ! أنت جليد، وأنا أحترق من الحمّى. الحمّى التي بي ستخفّ بصقيعك، وصقيعك سيخفّ بملامسة حرارتي. ملاطفة يا بنيّ! مضت ساعات قليلة لم تلاطفني بها، وتبدو لي دهوراً. كانت تمضي أشهر بدون ملاطفاتك، وكانت تبدو لي ساعات لأنني كنت أنتظر دائماً وصولك، وكنتُ أجعل من اليوم ساعة، ومن الساعة دقيقة، لأقول لنفسي إنك لم تكن قد ابتعدتَ لقمر أو عدة أقمار، بل فقط لبضعة أيّام، ولكن فقط لبضعة ساعات. لماذا يطول الوقت الآن؟ آه! يا للعذاب غير الإنسانيّ! لأنك متّ. قتلوك! لم

تعد على الأرض! لم تعد! أين أرسل نفسي كي تفتش عن نفسك وتعانقها، لأن إيجادك، وامتلاكك، وشعوري بك كان حياة لجسدي وروحي. أين أفتش عنك مع أمواج حبي، لم أعد أجدك، لم أعد أجدك! لم يبق لي منك سوى هذا الجثمان البارد، هذا الجثمان الذي بلا نفس! أيا نفس يسوعي، أيا نفس مسيحي، أيا نفس ربّي، أين أنت؟ لماذا انتزعتم النفس من ابني أيتها الضباع المتوحشة المقترنة بالشیطان؟ ولماذا لم تصلبوني معه؟ هل خفتم من جريمة أخرى؟ (صوتها يصبح أكثر فأكثر قوّة وممزقاً). وما كان ليكون قتل امرأة مسكينة، بالنسبة إليكم أنتم الذين لم تترددوا في قتل الله المتجسّد؟ ألم ترتكبوا جريمة أخرى؟ أهنالك ما هو أكثر بشاعة من ترك أمّ تعيش بعد قتل ابنها؟»

الأمّ، التي برفعها صوتها كانت قد رفعت أيضاً رأسها، تعود الآن للانحناء نحو الوجه الخامد والتكلّم بهدوء، معه لوحده: «أقلّه في القبر، هنا في القبر، في الداخل، نكون معاً كما كنّا معاً في النزاع على الخشبة، ومعاً في رحلة ما وراء الحياة وفي لقاء الحياة. ولكن إن لم أقدر أن أتبعك في رحلة ما وراء الحياة، فإنّي أقدر أن أبقى هنا في انتظارك.»

تنتصب من جديد وتقول بصوت مرتفع للحاضرين: «ابتعدوا جميعاً. أنا أبقى. أغلقوا عليّ هنا معه. سأنتظره. ماذا تقولون؟ أنّ ذلك غير ممكن؟ لماذا لا يمكن؟ لو كنتُ متّ، ألا أكون هنا مستلقية بجواره، منتظرة التجهيز؟ سأكون بجواره، ولكن على ركبتيّ. كنتُ كذلك حينما أبصر النور، لطيفاً ورديّاً، في ليلة من ليالي كانون الأوّل [ديسمبر]. وهكذا سأكون معه الآن في هذه الليلة في عالم لم يعد له المسيح. آه! ليل حقيقيّ! لم يعد من نور!... آه! ليلة مثلّجة! المحبّة ماتت! ماذا تقول يا نيقوديموس؟ سأتنجّس؟ دمه لا ينجّس.

أنا لم أنتجس حينما ولدته. آه! كيف خرجت، أنت، يا زهرة بطني، دون تمزيقٍ لأنسجة، ولكن حقاً مثل زهرة النرجس المعطرة، التي تتفتح من جوهر البُصيلة وتنتج زهرة حتى لو لم تعانق الأرض الرحم. إزهار بتوليّ تحقق فيك، أيا أيها الابن الآتي من العناق السماويّ، والمولود وسط فيض التآلفات السماويّة.»

الآن الأمّ الممزّقة تنحني من جديد على ابنها. غائبة عن كلّ ما ليس هو، وتتمتم بهدوء: «ولكن أنت، هل تذكر يا بنيّ، هذا البهاء السامي الذي كان يكسو كلّ الأشياء بينما كانت ابتسامتك تُولد في العالم؟ هل تذكر ذلك النور الطوباويّ الذي أرسله الله من السماوات كي يغلف سرّ إزهارك وكي تجد نفسك أقلّ رفضاً من قبل هذا العالم المظلم، لك أنت الذي كنت نوراً آتياً من نور الأب والروح البار اقليط. والآن؟... الآن ليل وبرد... وأيّ برد! أيّ برد! إنني أرتعش منه كلياً. أكثر برداً من تلك الليلة من كانون الأوّل [ديسمبر]. حينذاك كان فرح الحصول عليك كي يدفئ قلبي. وكان لديك اثنان يحبّانك... الآن... الآن أنا وحيدة وعلى وشك الموت أنا أيضاً. ولكنني سأحبّك حباً مضاعفاً: نيابة عمّن أحبّوك قليلاً بحيث إنهم هجروك لحظة الألم؛ وسأحبّك نيابة عمّن كرهوك؛ نيابة عن العالم كلّ، سأحبّك يا بنيّ. لن تشعر ببرودة العالم. لا، لن تشعر بها. أنت لم تفتح أحشائي لتولد، ولكن كي لا تشعر بالبرد أنا مستعدة أن أفتحها وأغلقها عليك في عناق أحشائي. هل تذكر كم أحبّتك هذه الأحشاء، يا طفلي الخافق... إنها دوماً ذات الأحشاء. آه! هذا حقّي وواجبي كأُمّ. هي رغبتني. ليس سوى الأمّ يمكن أن تكون لها تلك الرغبة، يمكن أن يكون لها تجاه ابنها محبة عظيمة عظم الكون.»

يمضي صوتها في الارتفاع، والآن، بكلّ قوّته، تقول: «ارحلوا. أنا باقية. عودوا بعد ثلاثة أيّام وسنخرج معاً. آه! رؤية العالم ثانية وأنا متّكئة على ذراعك، أيا بنيّ! كم سيكون العالم جميلاً في نور ابتسامتك القائمة! العالم سيرتعش من خطوات ربّه! والأرض ارتعشت حينما انتزع الموت نَفْسَكَ وَمِنْ قَلْبِكَ خرج روحك. أمّا الآن فستزلزل... آه! ليس من رعب أو ألم بعد، ولكن رعشة عذبة لا أعرفها، ولكنّي أشعر بها بحدس المرأة، وهي تهزّ عذراء، تسمع وقع عريسها الآتي للعرس بعد غياب. بل أفضل أيضاً: سترتعش الأرض رعشة قداسة، كما اضطربتُ أنا، حتّى أعماق أعماقي، حينما حصلتُ في داخلي على الربّ الواحد والثالث، حينما خَلَقْتَ إرادة الأب مع نار الحبّ البذرة التي منها أتيت يا صغيري القدّوس، يا ولدي، يا مَنْ كَلَّكَ لي! كَلَّكَ! كَلَّكَ مِنْ الماما! مِنْ الماما!... كلّ ابن له أب وأمّ، حتّى ابن الزنا له أب وأمّ. أمّا أنتَ فلكَ فقط أمّ لتصنع جسدك من الورد والزنبق، لتصنع توشيات عروقتك السماوية كأنهار جليّنا، وشِفاه الرّمّان هذه، وهذا الشعر الأكثر ظُرفاً من جزّة ماعز تلالنا الشقراء، وتينك العيين، بحيرتين صغيرتين من الفردوس. لا، بل بالحريّ هما من الماء الذي منه يأتي النهر الوحيد والرباعيّ من مكان الملذّات، والذي يحمل معه في فروعه الأربعة، الذهب والعقيق، الزمردّ والعاج، والماس، والنخيل، والعسل والورود والثروات اللانهائية، أيا فيشون، أيا جيحون، أيا حدّاقل والفرات: الطريق للملائكة المغتبطة بالله، الطريق للملوك المتعبّدين لك، الجوهر المعلوم أو المجهول، إنّما الحيّ، الحاضر حتّى في القلب الأكثر ظلمة! فقط أُمَّكَ هي التي فعلت لك هذا بكلمتها "نعم"... من نغم ومحبة شكّلتك، من نقاء وطاعة صنعتك، أيا فرحي! قلبك، ما هو؟ إنّهُ شعلة قلبي التي انقسمت كي تتكثّف في

إكليل حول قبة الله لعذرائه، هذا ما هو قلبك. آه!» (الصرخة ممزقة لدرجة أن المجدلّية اندفعت لنجدتها في نفس الوقت الذي اندفع فيه يوحنا. لم تجرؤ الأخريات، وباكيات ومحجّبات، يلقين نظرة عبر الفتحة). آه!! حطّموا قلبك! لهذا أنت بارد ولهذا أنا باردة! لم تعد فيك شعلة قلبي وأنا لا أقدر أن أستمّر في الحياة بانعكاس تلك الشعلة التي كانت شعلتي وأعطيتها لك كي تصنع لك منها القلب. هنا، هنا، هنا على صدري! قبل أن يقتلني الموت، أريد أن أدفئك، أريد أن أهدهك. كنتُ أغني لك: "لا بيت، لا طعام، ليس سوى الألم". أيتها الكلمات النبويّة! ألم، ألم، ألم لك ولي! كنتُ أغني لك: "نم، نم على قلبي". وكذلك الآن: هنا، هنا، هنا...»

وجالسة على حافة الحجر، تأخذه على ركبتيها وهي تمرّر ذراع ابنها حول كتفيها، سائدة رأس ابنها على كتفها وسائدة رأسها على رأسه، ضامّة إياه إلى صدرها وهي ممزقة ومفطرة القلب، تهدده وتقبّله.

يقترّب نيقوديموس ويوسف واضعين على ما يشبه المقعد، في الجهة الأخرى من الحجر، أواني ولفائف، وكفناً نظيفاً وحوضاً مليئاً بالماء، على ما أظنّ، وقطع ضماد، على ما يبدو.

تري مريم وتسأل بصوت مرتفع: «ماذا تفعلان؟ ماذا تريدان؟ تجهيزه؟ لماذا؟ اتركاه على ركبتي أمّه. لو توصّلتُ إلى تدفنته، سيسرع في قيامته. لو استطعتُ تعزية الأب وتعزيته من كراهية قاتليه، سيسرع الله في غفرانه، وهو في عودته.»

المتألّمة تهذي تقريباً.

«لا، لن أعطيه لكما! لقد أعطيته مرّة، أعطيته مرّة للعالم والعالم لم يقبله. قتله لأنّه لم يكن يريدّه. الآن لن أعطيه بعد! ماذا تقولان؟ إنكما تحبّانه؟ حسناً! ولكن، لماذا لم تدافعا عنه؟ هل انتظرتما لتقولاً له إنكما كنتما تحبّانه، إلى حين لم يعد يسمعكما... كم هو مسكين حبّكما! ولكن لو كنتما تخافان العالم لدرجة عدم جرأتكما على الدفاع عن بريء، فعليكما على الأقلّ ردّه لي، أنا أمّه، كي تدافع عن ولدها. كانت تعلم من يكون وما كان يستحقّ. أنتما!... أنتما حصلتما عليه كمعلّم، ولكنكما لم تتعلّما شيئاً. أليس ذلك صحيحاً؟ أكذب ربّما؟ ولكن ألا تريان أنكما لا تؤمنان بقيامته؟ هل تؤمنان بها؟ لا. لماذا أنتما هنا، تُعدّان اللفائف والطيوب؟ لأنكما تظنّان أنّه مجرد ميت مسكين، اليوم متجمّد، وغداً متفسّخ، ولهذا تريدان تطييبه. اتركا هناك مراهمكم. تعاليا اعبدوا المخلّص بقلب رعاة بيت لحم النقيّ. انظرا: في نومه، هو فقط متعب يرتاح. كم تعب في حياته! لقد تعب على الدوام وباطّراد، وثمّ، في الساعات الأخيرة هذه!... والآن هو يرتاح. بالنسبة لي، بالنسبة لأمّه هو ليس سوى ولد كبير متعب ينام. مضجعه بائس وكذلك حجرته! إنّما كذلك مهده الأوّل لم يكن أكثر جمالاً، ولا مسكنه الأوّل أكثر متعة. الرّعاة تعبّدوا للمخلّص وهو طفل نائم. وأنتما اعبدوا المخلّص في نومه المنتصر على الشيطان. ومن ثمّ، كما الرّعاة، امضيا وقولا للعالم: "المجد لله! الخطيئة ماتت! الشيطان انهزم! وليكن السلام على الأرض وفي السماء بين الله والبشر!" أعدّا السُّبُل لعودته. أنا أرسلكما، أنا التي جعلتني الأمومة كاهنة طقسيّة. امضيا. قلتُ إنني لا أريد. لقد غسلته بدموعي، وهذا يكفي. لا نفع للباقي، ولا تتصوّرا أنكما ستضعانه عليه. سيكون من الأسهل له أن يقوم إن كان متخلّصاً من هذه اللفائف المأتميّة وغير النافعة. لماذا تنظر إليّ هكذا يا

يوسف؟ وأنت يا نيقوديموس؟ هل رعب هذا اليوم جعلكما في خبل؟ هل فقدتما الذاكرة؟ ألا تتذكران؟ "لهذا الجيل الشرير والفاسق الذي يطلب آية، فلن يعطى إلا آية يونان... كذلك سيكون ابن البشر في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ". ألا تتذكران؟ "إن ابن الإنسان يُسلّم إلى أيدي الناس فيقتلونه، لكنّه سيقوم في اليوم الثالث". ألا تتذكران؟ "انقضوا هيكل الله الحقّ هذا وأنا في ثلاثة أيّام أقيمه". الهيكل كان جسده أيا أيّها البشر. أتَهزّ رأسك؟ تشفق عليّ؟ أظنّني مجنونة؟ ولكن كيف؟ لقد أقام الأموات، ألن يتمكن من إقامة نفسه؟ يوحنا؟»

«أمّي!»

«نعم، نادني "أمّي". لا يمكنني العيش وأنا أفكر أنني لن أدعى هكذا! يوحنا: لقد كنتَ حاضراً حينما أقام ابنة يائير وشاب نائين. ألم يكونا ميتين؟ لم تكن مجرد غفوة ثقيلة؟ أجب.»

«كانا ميتين. الفتاة منذ ساعتين، والشاب منذ يوم ونصف اليوم.»

«وقاما من الموت بأمره؟»

«قاما من الموت بأمره.»

«هل سمعتما؟ أنتما الاثنان، هل سمعتما؟ ولكن لماذا تهزّان الرأس؟ آه! ربما تريدان القول إنّ الحياة تعود أسرع لمن هو بريء وشاب. ولكن ابني هو البريء! وهو الشاب على الدوام. ابني هو الله!...»

تُلقِي الأمُّ نظرةً مُمزَّقةً ومحمومةً على الأولين، اللذين، إذ هما منهكان
إنما مُعانِدان، يعدّان لفائف الأربطة المغموسة في الطيوب. تخطو مريم
خطوتين. لقد أعادت إضجاع الابن على الحَجَر برقّة كمن يضع وليداً في
مهده. تخطو خطوتين، وتتحني عند أسفل المَضْجَع المأتمّي، حيث تبكي
المجدليّة راكعة. تمسكها من كتفها، تهزّها، تناديها: «مريم، أجيبني. إنهما
يظنّان أنّ يسوع لا يمكنه أن يقوم لأنّه إنسان وقد مات من الجراح، ولكن ألم
يكن أخوك أكبر سنّاً منه؟»

«بلى.»

«ألم يكن جرحاً بكلّيته؟»

«بلى.»

«ألم يكن متفسّخاً قبل نزوله القبر؟»

«بلى.»

«ألم يقيم من الموت بعد أربعة أيّام من الاختناق والنفسّخ؟»

«بلى.»

«فإذا؟»

صمت مُطبّق وطويل. ثمّ صيحة لا إنسانيّة. تترنّح مريم واضعة يدها
على قلبها. فيمسكونها، ولكنّها تُبعدهم. تبدو كما لو أنّها تُبعد الأتقياء. ولكن
في الحقيقة كانت تُبعد مَنْ هي وحدها تراه. وتصيح: «تراجع! تراجع! أيّها

الشرس! ليس هذا الانتقام! اصمت! لا أريد سماعك! اصمت! آه! إنه يلسع قلبي!»

«مَنْ يا أُمِّي؟»

«أيا يوحنا، إنه الشيطان! الشيطان الذي يقول: "لن يقوم. لم يقل هذا أيّ نبيّ". أيا إِيها الله العليّ! ساعدوني جميعاً، أيتها النفوس الصالحة، أنتم، أيّها البشر الأتقياء! إنّ عقلي يضطرب! ما عدتُ أذكر شيئاً. ماذا يقول الأنبياء؟ ماذا يقول المزمور؟ آه! مَنْ يكرّر لي المقاطع التي تتكلّم عن يسوعي؟»

إنّها المجدليّة التي، بصوتها الرنان، تتلو مزمور داود الذي يتكلّم عن آلام المسيح.

تبكي الأمّ بأكثر حدّة، يسندها يوحنا، وتنهمر دموعها فوق ابنها الميت الذي غُمِر بها. ترى ذلك مريم، تمسحه وتقول بصوت منخفض: «دموع غزيرة، وحينما كنتَ شديد العطش لم أستطع أن أعطيك ولا حتّى قطرة واحدة منها. والآن... أنا أغمرُك بها! وكأنّك شجيرة تحت ندى كثيف. هنا، إذ تمسحك أمّك يا بنيّ! ذقتَ مرارة كثيرة! فلا يسقطنّ بعد على شفّيتك الجريحتين مرار وملح دموع الأمّ!...»

ثمّ تنادي بصوت مرتفع: «مريم. داود لا يقول... أتعرفين إشعياء؟ قولي لي كلامه...»

تقول المجدليّة فقرة الآلام وتُنهي وهي تشهق: «...سَلِّم للموت حياته وأُحصي مع الأثمة، وهو الذي حَمَلَ خطايا العالم وشفّع في الخطاة.»

«آه! اصمتي! الموت، لا! لم يُسَلِّم للموت! لا! لا! آه! لا يزرعنّ عدم إيمانكم، مع تجربة الشيطان، الشكّ في قلبي! هل ينبغي لي ألاّ أُصدّقك يا بنيّ؟ ألاّ أُصدّق كلامك المقدّس؟! آه! قل ذلك لنفسي! تكلم. من الضفاف البعيدة حيث ذهبت لتحرّر من ينتظرون مجيئك، ألقِ صوتك النَّفسيّ إلى نفسي التي تنتظرك، إلى نفسي التي هي هنا، مستعدّة لاستقبال صوتك. قلْ لأُمّك إنّك ستعود. قلْ: "في اليوم الثالث سأقوم". أرجوك ذلك يا ابني وإلهي! ساعدني على حماية إيماني. إنّ الشيطان يلفّه في دوامة ليخنقه. لقد رفع الشيطان فمه الثعبانيّ عن جسد الإنسان لأنّك أنت انتزعت منه هذه الفريسة، والآن هو يغرز أنيابه السامّة في لحم قلبي ويشلّ خفقاته، القوّة والحرارة. إلهي! إلهي! إلهي! لا تسمح بأن أرتاب! لا تدع الشكّ يثّلجني! لا تمنح الشيطان حريّة أن يقودني إلى اليأس! ابني! ابني! ضع يدك على قلبي. وهي ستطرد الشيطان. ضعها فوق رأسي. وستعيد له النور. قدّس شفّتيّ بلمسة كي تقوى على قول: "أنا أوّمن" حتّى في مواجهة عالم بأكمله لا يؤمن. آه! أيّ ألم في عدم الإيمان! يا أبتاه! يجب الغفران كثيراً لمن لا يؤمن. ذلك أنّ غياب الإيمان... غياب الإيمان... يجعل كلّ هول سهلاً. أقول لك ذلك... أنا التي أشعر بذلك العذاب. يا أبتاه، الرحمة لعديمي الإيمان! أعطهم أيّها الأب القدّوس، أعطهم، باسم هذا القربان المذبوح، وباسمي، القربانة التي ما تزال تُذبح، أعطِ الإيمان لعديمي الإيمان!»

صمت طويل.

يشير نيقوديموس ويوسف إلى يوحنا والمجدليّة.

«تعالى يا أُمِّي.» هي المجدليّة الّتي تتكلّم مُحاوِلة إبعاد مريم عن ابنها وفصل أصابع يسوع المتشابكة في أصابع مريم الّتي تُقبّلها وهي تبكي.

تنتصب الأُمّ. إنّها مهيبة. تمّد للمرّة الأخيرة تلك الأصابع المسكينة الّتي هجرها الدم، تضع يده الخامدة على طول جسده. ثم تُنزل ذراعيها نحو الأرض، في استقامة، والرأس مائل إلى الخلف قليلاً، تصلّي وتُقدّم. لا يُسمَع الكلام. ولكن من كامل هيئتها يمكن إدراك أنّها تصلّي. إنّها حقّاً الكاهنة على المذبح، الكاهنة في لحظة التقدمة. «نقدّم لعظمة جلالك، يا مانح العطايا، القربان الطاهر، القربان المقدّس، القربان البريء من الدّنس...»

ثمّ تلتفت: «افعلوا إذن، ولكنّه سيقوم. عبثاً ترتابون في عقلي، وأنتم عميان عن الحقيقة الّتي قالها لكم. عبثاً يحاول الشيطان مهاجمة إيماني. مازال ينقص فداء العالم العذاب الّذي يسبّبه الشيطان المهزوم لقلبي. إنّني أتحمّله وأقدّمه من أجل الّذين سيأتون. الوداع يا بنيّ! الوداع يا ولدي! الوداع يا صغيري! الوداع... الوداع... يا أيّها القدّوس... الصالح... المحبوب للغاية والمُحبّ... الجمال... الفرح... نبع السلام... الوداع... على عينيك... شفّتيك... شعرك الذهبيّ... أعضائك المثلّجة... قلبك المُخترق... آه! على قلبك المُخترق... قُبّلتني... قُبّلتني... قُبّلتني... الوداع... الوداع!... ربي! ارحمني!»

تكملة رؤيا 19 / 02 / 1944

...انتهى المُعدّان من إعداد اللفائف. يذهبان إلى المنضدة ويعرّيان يسوع حتّى من وشاحه. وفي إعداد سريع جدّاً، يمرّران إسفنجة، أظنّ ذلك،

أو قطعة من الكتان على الأعضاء التي ترشح من ألف موضع. ثم يمسحان كلّ الجسد بطيوب. حقاً يغمرانه بطبقة من المرهم. في البداية رفعاه لينظّفا أيضاً المنضدة الحجرية، حيث يضعون الكفن، المتدلي أكثر من نصفه من رأس المَضَج. ويعيدان إضجاعه على صدره، ويمسحان الظهر كلّهُ، الفخذين، الساقين، كلّ الجزء الخلفي. ثم يديرانه بتؤدة، منتبهين لنلّا تُزال طبقة الدهن، ثمّ يقومان أيضاً بدهن الجزء الأمامي. في البداية الجذع ثمّ الأعضاء. أولاً الأرجل، وفي النهاية اليدين، اللتين يضمّانهما عند أسفل البطن. المفروض أن يكون مزيج الطيوب لزجاً كالصمغ، لأنني أرى اليدين ثابتتين في مكانها، بينما كانتا من قبل تنزلقان باستمرار بسبب ثقلهما كأعضاء ميتة. القدمان لا. إنهما تحافظان على وضعهما: الواحدة أكثر استقامة والأخرى أكثر تمدّداً. في النهاية الرأس. بعد أن دهن بكلّ عناية، بحيث أنّ الملامح اختفت تحت طبقة الدهن، يربطان الذقن بضمادة كي يُبقيا الفم مغلقاً.

تتّ مريم بأكثر حدة.

ثمّ يرفعان طرف الكفن المتدلي ويطويانه على يسوع. فيختفي تحت هذا الكفن الكتانيّ السميك. لم يعد سوى شكل مغطّى بنسيج.

يَنظر يوسف ليري أنّ كلّ شيء في مكانه، ويضع أيضاً على الوجه كفناً من الكتان وأنسجة أخرى، تشبه ضمادات مستطيلة قصيرة وعريضة، تتّجه من اليمين إلى اليسار، فوق الجسد لتتّبت الكفن، جيّد الالتصاق بالجسد. ليس كما يُرى في الموميا، ولا في قيامة لعازر. إنّهُ نواة ضماد.

اختفى الآن يسوع. حتّى شكله أضحى مبهماً تحت الأقمشة. فهو أشبه بحزمة طويلة من القماش، ضيّقة عند الطرفين، أعرض في الوسط، موضوعة على الحَجَر الرمادي.

مريم تبكي بأكثر حدّة.

يقول يسوع:

«واستمرّ العذاب بهجمات دوريّة حتّى فجر الأحد. أثناء الآلام تلقّيتُ تجربة واحدة. ولكنّ الأمّ، المرأة، قد كفّرت عن المرأة، حاملّة وزر كلّ سوء، لمرات عديدة. والشيطان جدّ في مطاردة المنتصرة بوحشيّة مضاعفة مائة مرّة. مريم انتصرت عليه. لمريم التجربة الأكثر وحشيّة. تجربة ضدّ جسد الأمّ، تجربة ضدّ قلب الأمّ. تجربة ضدّ روح الأمّ. يظنّ العالم أنّ الفداء اختتم مع آخر نفس لي. لا. الأمّ قد أكملته، بإضافة عذابها المثلث للتكفير عن الشهوة الثلاثيّة، بجهادها لثلاثة أيّام ضدّ الشيطان الذي كان يحاول ثنيها عن الإيمان بكلامي وإنكار إيمانها بقيامتي. مريم كانت الوحيدة التي استمرت بالإيمان. إنّها عظيمة ومغبوطة أيضاً بسبب هذا الإيمان.

لقد عرفت [ماريا فالتورتا] هذا [العذاب] كذلك. ألم مبرّح في ألم جَسْميّ. لن يدرك العالم هذا الطرح. ولكنّ "الذين هم في العالم وليسوا من العالم" سيدركونه ويحبّون الأمّ المتألّمة بشكل أقوى. لأجل ذلك منحتك إياه. اذهبي بسلام مع بركتنا.»

1- [دياميس]: مقابر تحت سطح الأرض تتألّف من حجرات وممرّات وفجوات للقبور.

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com

25- (ختم القبر والعودة إلى قاعة العشاء)

1945 / 03 / 28

يُطفئ يوسف الذي من الرّامة إحدى الشعلتين، يُلقي نظرة أخيرة ويتوجّه صوب مدخل القبر وهو يمسك عالياً الشعلة الباقية.

تنحني مريم ثانية كي تُقبّل ابنها من فوق الأغطية. وهي تحاول السيطرة على ألمها كي تجعل منه شكلاً من أشكال الاحترام للجثمان المُطَيّب الذي لم يعد ملكاً لها. ولكن لدى اقترابها من الوجه الموشح، لا تتمالك نفسها، وتسقط من جديد في نوبة حزن شديد.

تُرفع من هناك بعناء، وتُبعد عن المضجع المأتمّي بمنتهى الصعوبة. ويعاد ترتيب الأقمشة المبعثرة، ويتمّ إبعاد الأمّ المسكينة محمولة أكثر منها مُسنّدة. فتبتعد وهي تدير وجهها إلى الوراء، كي ترى، ترى يسوعها الذي يبقى وحيداً في ظلمة القبر.

يُخرجون إلى الحديقة الصامتة في نور المساء. ذلك أنّ الضياء النسبي الذي عاد بعد مأساة الجلجلة، يبدأ في الخفوت بسبب الليل الهابط. وهناك، في بستان يوسف، الظلال أكثر تقدّماً عن أيّ مكان آخر، تحت أغصان شجر التفّاح السميكة التي ما تزال عارية من الأوراق وبالكاد مزينة ببراعم بيضاء وردية لأشجار التفّاح، المتأخّرة بغرابة عن أوانها، بينما في أماكن أخرى هي مكسّوة بالأزهار المتفتحة، بل أخصبت أيضاً ثماراً صغيرة.

يُدحرجون حجر القبر الثقيل إلى موضعه. فروع طويلة لشجرة ورد مشعّنة تتدلّى من أعلى المغارة تجاه الأرض، فتبدو وكأنّها تطرق على الباب الحجريّ وتقول: «لماذا تُغلق أمام أمّ باكية؟» وتبدو وكأنّها تبكي هي كذلك قطرات دم، حيث أنّها تُسقط بتلاتها الحمراء وتنشر تويجاتها، على مدى الحجر الداكن، وبراعمها المتزاحمة تطرق المدخل القاسي. ولكن سرعان ما سيُبلّل باب القبر هذا دم آخر ودموع أخرى.

مريم الّتي يسندها يوحنا حتّى ذلك الحين وتنتحب بهدوء إلى حدّ ما، تنفصل عن الرسول، وبصرخة، أظنّها جعلت حتّى ألياف النباتات ترتجف، تُلقّي بنفسها على الباب، وتهاجم نتوءه لتزحزحه. تتسلّخ أصابعها وتتكرّس أظافرها دون أن تنجح في ذلك، حتّى إنّها تضغط برأسها على هذا النتوء الخشن. وهي في أناتها أشبه بلبوة تزار مغشياً عليها على عتبة فخّ حُبس صغارها فيه، مفعمة حناناً وشراسة بفعل محبّتها الأموميّة.

لم يعد بها شيء من عذراء الناصرة الوديعة، من المرأة الصابرة المعروفة بأنّها كذلك إلى ذلك الحين. إنّها الأمّ فقط وببساطة هي الأمّ المتعلّقة بولدها بكلّ أنسجة وكلّ أعصاب جسدها ومحبّتها. إنّها الأكثر «ولاية» بحق على هذا الجسد الّذي ولدته، الولاية الوحيدة بعد الله، ولا تريد أن تُنتزع منها تلك المِلْكِيّة. إنّها «المَلِكَة» الّتي تدافع عن تاجها: الابن، الابن، الابن.

كلّ التمرّد وكلّ التمرّدات الّتي خلال ثلاثة وثلاثين عاماً يمكن أن تعتمل في امرأة أخرى ضدّ ظلم العالم لطفلها، كلّ الضراوات المقدّسة والمشروعة الّتي يمكن أن تكون لدى أيّ أمّ أخرى في الساعات الأخيرة هذه كي تضرب وتقتل بيديها وأسنانها قتلة وليدها، كلّ تلك الأشياء الّتي أخضعتها على الدوام

حُبّاً بالجنس البشريّ، تثور الآن في قلبها، تغلي في دماؤها، وبوداعتها حتّى في ألمها الذي يجعلها تهذي، هي لا تلعن ولا تثور. ولكنّها تسأل فقط الحجر أن يفتح، أن يسمح لها أن تدخل، لأنّ مكانها في الداخل، حيث هو. ولكنّها تطلب فقط من البشر، القساة في إشفاقهم، أن يطيعوها ويفتحوا.

بعد ضربها الحجر المقاوم وتلطّيخه بدم يديها، تلتفت وتتكّى، فاتحة ذراعيها، وحاضنة طرفي الحجر، رهيبة في جلال الأمّ المتألّمة، تأمر: «افتحوا! ألا تريدون؟ إذاً، سأبقى هنا. إن لم أبق في الداخل؟ إذاً، فهنا في الخارج. هنا زادي ومضجعي. هنا مسكني. ليس لي أيّ منزل آخر ولا أيّ هدف آخر. أنتم امضوا. ارجعوا إلى هذا العالم المريع. أنا سأبقى حيث لا جشع، ولا رائحة دم.»

«لا يمكنكِ ذلك يا امرأة!»

«لا يمكنكِ يا أمّي!»

«لا يمكن يا مريم العزيزة!»

ويحاولون فصل يديها عن الحجر، مرعوبين من عينيها اللتين لم يعرفوهما بهذا الوميض الذي يحيلهما قاسيتين وصلبتين، زجاجيتين، فوسفوريتين.

العنف ليس من شيم الودعاء، والبسطاء لا يعرفون الإصرار على الكبرياء... وفجأة تفقد مريم كلّ حدّة إرادتها والطابع الحسميّ لأمرها. تستعيد وداعة نظرات الحمامة المعذّبة، تفقد مهابة حركتها. تستعيد مجدداً حركة توسّل، وتشبك يديها راجية: «آه! دعوني! باسم موتاكم، باسم الأحياء الذين تحبّونهم، أشفقوا على أمّ مسكينة!... اسمعوا... اسمعوا قلبي. إنّهُ في حاجة

للسلام كي يفقد ذلك النبض العنيف. لقد شرع بالنبض هكذا في الأعلى، في موضع الصلب. كانت المطرقة تطرق طن، طن، طن... وكانت كلّ طرقة تجرح ولدي... ويترجّع صداها في عقلي وقلبي... ورأسي مليء بتلك الضربات، وقلبي يخفق بسرعة مثل تلك الطن، طن، طن، على يديّ، وقدمي يسوعي، يسوعي الصغير... ولدي! ولدي!...»

يعود إليها من جديد العذاب كلّهُ، الذي كان يبدو وكأنّه سكن بعد صلاتها إلى الأب، بجانب منضدة المسح. يبكي الجميع.

إنّني بحاجة إلى عدم سماع صرخات ولا ضربات. والعالم مليء بالأصوات والضوضاء. إنّ كلّ صوت يبدو لي: "الصيحة العظيمة" التي جَمَدَت الدم في عروقي، وكلّ ضجيج يبدو لي صوت المطرقة على المسامير. أحتاج إلى عدم رؤية وجوه بشر. والعالم مليء بالوجوه... منذ اثنتي عشرة ساعة وأنا أرى وجوه قَتَلَة... يهوذا.. الجلّادين... الكَهَنَة... اليهود... الكلّ، الكلّ قَتَلَة!... بعيداً! بعيداً... لا أريد أن أرى أحداً بعد... في كلّ إنسان ذئب وثعبان. أشعر بالاشمئزاز والخوف من البشر... دعوني هنا، تحت هذه الأشجار الساكنة، على هذا العشب المزهّر... عمّا قليل ستظهر النجوم... وقد كانت دائماً صديقات له ولي... مساء أمس صاحبتنا في احتضارنا المنفرد... وهي تعرف الكثير... إنّها من الله... آه! الله! الله!...» تبكي وتركع. «السلام، يا إلهي! لم يبق لي سواك!»

«تعالى يا ابنتي! الله سيمنحك السلام. ولكن تعالي. غداً هو سبت الفصح. ولن نتمكن من جلب الطعام لك...»

«لا شيء! لا شيء! لا أريد طعاماً! أريد ولدي! أنا أشبع من ألمي، وأرتوي من دموعي... هنا... ألا تسمعون كم يبكي هذا البوم الصغير؟ إنه يبكي معي، وعما قليل ستبكي العنادل. وغداً، في الشمس، ستبكي القبرات، والدُّخلات وكلّ العصافير التي كان يحبّها، وستأتي اليمامات معي لتطرق على هذا الحجر ولتقول، ولتقول: "قُومِي يَا حَبِيبَتِي، يَا جَمِيلَتِي وَتَعَالِي. يَا حَمَامَتِي فِي مَحَاجِي الصَّخْرِ، فِي سِتْرِ الْمَعَاوِلِ، أَرِنِي وَجْهَكَ، أَسْمِعْنِي صَوْتَكَ". [نشيد الأنشاد 14-2/13] آه! ماذا أقول! هم أيضاً، هم أيضاً، القَتَلَةُ الماكرون، نادوني به، بكلمات نشيد الأنشيد! نعم، هلمّ يا بنات أورشليم، لترين ملكنّ بالتاج الذي توجّه به وطنه في يوم عرسه مع الموت، يوم انتصاره كفادي.»

«انظري يا مريم! حرّاس الهيكل يصلون. هيّا بنا، كي لا يحتقروك.»

«الحرّاس؟ احتقارهم؟ لا. إنهم جبناء، جبناء. ولو كنتُ أسير إليهم، رهبة في ألمي، لكانوا يهربون مثل الشيطان أمام الله. ولكنّي أتذكّر أنّي مريم... ولن أضربهم بحسب ما أملك من الحقّ. سأبقى صالحة... ولن يروني حتّى. وإن رأوني وسألوني: "ماذا تريدان؟" سأقول لهن: "منّة أن أتسمّ الهواء المُطَيَّب الذي يخرج من هذا الشقّ". سأقول: "باسم أمّكم". والجميع لهم أمّ... اللصّ الشّفوق قالها أيضاً...»

«ولكنّ هؤلاء الأشخاص أكثر سوءاً من اللصوص. وسيشتمونك.»

«آه!... هل من شتيمة لم أتعرف إليها، بعد تلك التي لهذا اليوم؟»

إنّها المجدليّة التي تجد المبرّر القادر أن يُخضع المتألّمة للطاعة. «أنتِ صالحة، قديسة أنتِ، ومؤمنة، وشجاعة. ولكن نحن ماذا نكون؟... ترين!

الأغلبية هربوا، والباقون يرتعشون. الشكّ الذي فينا الآن، يتملّكنا. أنتِ هي الأمّ. ليس لديكِ حقوق وواجبات تجاه ابنكِ فقط، بل لديكِ حقوق وواجبات تجاه ما هو عائد لابنكِ. ينبغي أن تعودِي معنا، وسطنا، كي تجمعينا، كي تُسكّني من روعنا، وتبثّي فينا إيمانكِ. لقد قلتِ ذلك، بعد عتابكِ الصائب لجبننا الغريزيّ ولنقص إيماننا: "سيكون من الأسهل له أن يقوم من الموت لو تخلص من هذه اللّفائف غير النافعة". وأنا أقول لكِ: "لو أمكننا أن نتحد في الإيمان بقيامته، فسيقوم سريعاً. سندعوه بمحبّتنا..." يا أمّي، أمّ مخلصي، عودي معنا، أنتِ، حُبّ الله، كي تهبينا هذه المحبّة التي تملكينها! هل تريدين أن تضيع من جديد مريم المجدليّة المسكينة التي أنقذها هو بالكثير من الرحمة؟»

«لا، فأعير بهذا. أنتِ محقّة. عليّ بالعودة... البحث عن الرُّسل... التلاميذ... الأهل... الجميع... والقول... القول: آمنوا. القول: إنّه يسامحكم... لمن قلتُ هذا؟... آه! للاسخريوطي. يجب... نعم، يجب البحث عنه، حتّى هو... فهو أعظم خاطئ...» تُبقي مريم رأسها منحنياً على صدرها، ترتعش كما لو كانت مشمّزة، ثمّ تقول: «يوحنا، ستفتش عنه وتأتي به إليّ. ينبغي لك أن تفعل هذا، وأنا ينبغي لي أن أقوم به. أبت، حتّى هذا فليكن من أجل خلاص البشريّة. هيّا بنا.»

تنهض. ويخرجون من الحديقة شبه المظلمة. وينظر إليهم الحرّاس وهم يخرجون دون أن يتدخّلوا.

الطريق، الترابيّة والمخرّبة بسبب أنهار البشر الذين جابوها وضربوها بأرجلهم، بحجارتهم وعصيّهم، تنعطف حول موضع الصّلب كي تصل إلى

الطريق الرئيسيّة الموازية للأسوار. هنا أيضاً آثار الحدث أكثر كثافة. تصرخ مريم مرّتين وتنحني كي تدرس التربة في نور سيّئ، إذ يُخَيَّل إليها أنّها ترى دمّاً وتظنّ أنّه دم يسوعها. ولكنّني أعتقد، أنّها ليست سوى قطع من قماش ممزّق في معمعة الهرب.

السيّل الصغير الذي يجري على طول الطريق، يهمس بلطف في هذا الصمت المطبق الذي يطغى على كلّ شيء. تبدو المدينة وكأنّها مهجورة حيث لا يتأتّى منها سوى الصمت. ها هو الجسر الصغير الذي يقود إلى درب الصلب الشاقّ، وفي قبالته، ها هو باب القضاء. قبل الاختفاء خلفه، تلتفت مريم إلى الوراء لتتظر إلى قمة الجلجلة... وتسكب دموعاً حزينة. ثمّ تقول: «هيا بنا. قودوني. لا أريد رؤية أورشليم، شوارعها، وسكّانها.»

«نعم، نعم، ولكن فلنسرع. سيقفلون الأبواب، أترين؟ وحراستهم مشدّدة. روما تخشى الاضطرابات.»

«إنّها محقّة. أورشليم هي جُحر نمور! سبّط قتلة! رهط قاطعي طرق. ليس فقط للخيرات المادّية، بل أيضاً للحياة التي يمدّ إليها هؤلاء الغاصبون مخالِبهم الخاطفة. منذ اثنتين وثلاثين سنة وهم ينصبون الفخاخ لحياة ابني... كان حَمَلاً وردياً يرضع، حَمَلاً صغيراً ذا شعر ذهبيّ أجعد... كان بالكاد يعرف أن يقول "ماما"، ويخطو أولى خطواته ويضحك بأسنانه القليلة بين شفتيه المرجانيّتين الفاتحتين، حينما أتوا ليذبحوه... يقولون الآن إنّّه كان يجذّف، ودنّس السبت، ودفع للعصيان، وطمع في العرش، وخطئ مع النساء... ولكن ماذا كان يفعل حينذاك؟ أيّ تجديف كان ينطق به وهو بالكاد يعرف أن ينادي أمّه؟ ما الذي كان يمكن للبريء الأبديّ أن يُدنّس من

الشریعة، وهو آنذاك كان ما یزال صغیر البشر البريء؟ أيّ عصیان كان
یمکنه أن یثیر وهو الَّذی لم یکن یعرف فعل نزوة واحدة؟ وأيّ عرش كان
یطمع به؟ هو الَّذی كان عرشه على الأرض وفي السماء، ولم یکن یطلب
شیئاً آخر. في السماء كان له حُضن الآب، وعلى الأرض حُضني. أبداً لم
تكن له نظرة حسیّة، وأنتنّ، الجمیلات والشابات، یمكننّ قول ذلك. ولكن
حینذاك، حینذاك... كانت تنحصر حواسّه بطلب الدفء والغذاء، كان مفعماً
بالمحبّة، نعم، لثديي الدافئ كي یضع علیه وجهه الصغیر وینام، لصدري
الَّذی منه تسيل المحبّة حلیباً... آه! یا ولدي!... وكانوا یریدونك میتاً! هذا ما
كانوا یریدون انتزاعه منك: الحياة! كنزك الوحید. أن ینتزعوا من الأمّ الابن،
والابن من الأمّ، لیجعلونا أكثر من في الكون تعاسة وحزناً. لماذا انتزاع
الحياة من الحيّ؟ لماذا انتحال الحقّ في انتزاع هذا الشیء الَّذی هو الحياة:
خیر الزهرة والحيوان، خیر الإنسان؟ یسوعي لم یکن یطلب منكم شیئاً. لم
یطلب نقوداً، ولا حلیّاً، ولا منازل. كان له منزل صغیر ومقدّس، وتركه حبّاً
بكم، أنتم البشر-الضباع. ذاك الَّذی یحظى به حتّى صغیر الحيوان، تخلّى عنه
من أجلكم، ومضى فقيراً ووحيداً، یجوب العالم بلا حتّى المضجع الَّذی كان
قد صنعه له البارّ، بلا حتّى الخبز الَّذی كانت تعدّه له أمّه، وكان ینام حیثما
استطاع إلى ذلك سبیلاً، ویأكل کیفما تیسّر له. في منازل الناس الشرفاء كأیّ
ابن إنسان، أو على مضجع من أعشاب الحقول، تسهر علیه النجوم. یجلس
إلى مائدة أو یتقاسم مع عصافیر الله حبّات القمح أو ثمار الأشواك البریّة. لم
یكن یطلب منكم شیئاً، على العکس كان یعطیکم. كان یرید الحياة فقط كي
یمنحكم الحياة بكلمته. وأنتم، وأنتِ یا أورشلیم، جرّدتموه من الحياة. هل
شبعتم وتمتّعتم بدمه وجسده؟ أم إنّ ذلك لم یکفك بعد؟ وأنتِ، الضبع، بعد أن

كنتِ مصّاص دماء وعُقَاباً، تريدِين أن تقتاتِي بجثته، ولم تشبَعِي بعد من العار والعذابات، أترِيدِين بعد أن تتكَبِّي عليه وتتمتَّعِي بتحْقِير جثته والنظر من جديد إلى تشنَّجاته، رعشاته، شهقاته، اختلاجاته، فيَّ أنا، في أمَّ مَنْ قتلتموه؟ هل وصلنا؟ لماذا تتوقَّفون؟ هذا الرجل، ماذا يريد من يوسف؟ ماذا يقول؟»

بالفعل أحد العابرين النادرين أوقف يوسف، وفي صمت المدينة الخالية المطبق أمكن سماع كلامهما جيّداً.

«أصبح معلوماً دخولكَ منزل بيلاطس. إنَّكَ مُدَنِّسٌ للشريعة. سوف تحاسب على ذلك. الفصح محرَّم عليك! أنتَ نجس.»

«وأنتَ أيضاً يا حَلِقِيّا. لقد لمستَنِي وأنا مغطَّى كلياً بدم المسيح وبِعَرَقه وهو ميت!»

«آه! يا للهول! أبعد! أبعد! هذا الدم، أبعده!»

«لا تخف. لقد تركك ولعنك.»

«ولكن أنت ملعون كذلك. والآن، وأنتَ على وفاق مع بيلاطس، لا تظنَّ أنَّكَ ستختلس الجثمان. لقد أخذنا الاحتياطات كي تتوقَّف اللعبة.»

اقترَب نيقوديموس بتمهّل بينما توقّفت النساء مع يوحنا، متّكئات على أحد الأبواب المقفلة.

«لقد رأينا.» يجيب يوسف. «جبنا! تخافون حتّى من ميت! ولكنني سأفعل ما يحلو لي في بستانِي وقبري.»

«سنرى.»

«سنرى. وسأستعين ببيلاطس.»

«نعم، فأنتَ تفسق مع روما الآن.»

يتقدّم نيقوديموس: «أن يكون المرء مع روما أفضل من كونه مع الشيطان، مثلكم، يا قَتْلَةَ الله! عدا عن ذلك، قل لي: كيف استعدتَ شجاعتك؟ منذ برهة كنتَ تفرّ، كالفريسة المرتعدة. هل زال هذا عنك؟ وما حدث لك، ألم يعدّ يَكْفِيكَ؟ ألم يحترق أحد منازلك؟ ارتعش! العقاب لم ينتهِ. بل على العكس، هو آتٍ. سيهدّدك مثل نيميسيس الوثنيين [العاب تجري في وهدة زيوس]. ولا الحرّاس ولا الأختام سيمنعون المنتقم من القيام والضرب.»

«ملعون!» يهرب حلقياً ويمضي ليصدم النساء. يُدرك ويشتم مريم بفضاعة.

يوحنا لا يتفوّه بشيء، بل يثب عليه مندفعاً مثل الفهد ويطرحه أرضاً. يضغط عليه بركبتيه ويضع يديه حول عنقه ويقول له: «اطلب منها المغفرة وإلا سأخنقك أيّها الشيطان.» ولم يتركه إلا حينما يقول وهو تحت الضغط ويكاد يختنق بيديّ يوحنا: «أسف.»

ولكنّ صيحته جذبت الدوريّة. «قف هناك! ماذا يحدث؟ فتن أخرى؟ توقّفوا جميعاً وإلا ستُضربون. من أنتم؟»

«يوسف الذي من الرّامة ونيقوديموس، المصرّح لهما من الوالي بدفن الناصريّ المقتول، ونحن عائدان من قبره مع أمّه والابن والأهل والأصدقاء. وهذا، أهان الأمّ فأرغمناه على طلب الصفح.»

«هذا فقط؟ كان يجب عليكم خنقه. هيا. أيها الجنود اقبضوا على هذا الرجل. ماذا يريد أيضاً مصاصو الدماء هؤلاء؟ حتى قلب الأمّهات؟ سلام، أيها اليهود!»

«يا للهول! لم يعودوا بشراً... يوحنا، كن طيباً معهم. انظر إلى ذكرى يسوعك ويسوعي. لقد كان يكرز بالغفران.»

«أنتِ على حقّ يا أمّي. ولكنهم مجرمون ويُفقدونني صوابي. يُدَنّسون المقدّسات: يهينونك ولا يمكنني السماح بذلك.»

«إنهم مجرمون، نعم. ويعرفون أنهم كذلك. انظر كم هي خالية الشوارع وكيف أنّ القلّة الباقية ينسحبون خلسة. إنّ المجرمين خائفون بعد الجريمة. يروّعني أن أراهم يفرّون هكذا، يدخلون منازلهم، يعتزلون خوفاً. أراهم جميعاً مذنبين بقتل الله. انظري هناك يا مريم، ذاك العجوز. إنه على حافة القبر، ومع ذلك، الآن في النور المتسرّب من الباب الذي فُتح وينيره، يخيل لي أنّي رأيته في رتل المتّهمين ليسوعي، هناك، على موضع الصّلب... كان يناديه باللصّ... يسوعي لصّ!.. وهذا الشاب، الذي هو أكبر قليلاً من طفل، كان يشتمه شتائم فظيعة وهو يطلب دمه عليه... آه! التّعس!... وذاك الرجل؟ ذو العضلات المفتولة والقويّ، ألم يكن ليكفّ عن ضربه؟ آه! لا أريد أن أرى! انظروا: على وجوههم تنطبع وجوه نفوسهم، ولم تعد لهم وجوه بشريّة بل شيطانيّة... كانوا شجعاناً في مواجهة ابن الإنسان المُقيّد، المصلوب... والآن يهربون، يختبئون، يحبسون أنفسهم. يخافون. ممّن؟ من ميت. بالنسبة لهم هو ليس سوى ميت، فهم ينكرون أنّه الله. إذاً من أيّ شيء يخافون؟ عمّن يخلقون أبوابهم؟ عن الندم. العقاب. لا فائدة: الندم فيكم وسيلاحقكم إلى الأبد.

العقاب ليس بشرياً. ولا تجدي معه المزاليج والهرافات، الأبواب والقضبان. هو يهبط من السماء، من الله، المنتقم للذبيح الذي له، ويخترق الأبواب والأسوار، ويسمكم بشعلته السماوية، يسيمكم من أجل العقاب فائق الطبيعة الذي ينتظركم. العالم سيُقبل إلى المسيح، إلى ابن الله وابني، سيُقبل إلى الذي طعنتموه، أما أنتم فستكونون الموسومين إلى الأبد، قايين الله، موسومين كخزي للجنس البشري. أنا، المولودة من نسلكم، أنا أم الجميع، ينبغي لي القول إنكم كنتم لي، أنا ابنتكم، أكثر من أزواج الأم الأشرار، وفي عداد أولادي الذين بلا حدود، فإنكم الذين تفرضون عليّ أعظم تعب كي أقبلكم، لأنكم ملوثون بالجريمة تجاه ابني، ولا تتوبون قائلين: "كنت مسيّا. نحن نتعرف عليك ونعبدك". ها هي دورية رومانية أخرى. لم تعد المحبة على الأرض. لم يعد السلام بين البشر. والكراهية والحرب في هياج مثل تلك المشاعل المدخنة. الحاكمون يخافون من الحشود الجامحة. يعرفون بالخبرة أنّ هذا الحيوان الذي يدعى الإنسان، حينما يتذوق طعم الدم، يصبح شرهاً للمجزرة... ولكن لا تخافوا منهم. إنهم ليسوا أسوداً حقيقية ولا فهوداً حقيقية، هم ضباع في غاية الجبن. ينقضّون على حمل بلا حول ولا قوة، ولكنهم يخشون الأسد المسلّح بالرماح وبالسلطة. لا تخافوا أبناء آوى الزاحفة هؤلاء. سيدفعهم خطوكم الحديديّ إلى الهرب، ووميض رماحكم يجعلهم أكثر وداعة من الأرانب. هذه الرماح! إحداها فتحت قلب ابني! أيّ رمح منها؟ أراها فأشعر بسهم في القلب... ومع ذلك أودّ لو تكون كلّها بين هذه الأيدي المرتعشة كي أرى أيّ واحد منها ما يزال عليه آثار الدم وأقول: "هذا هو! أعطني، أيّها الجنديّ! أعطه لأُمّ كتذكار لأُمّك البعيدة، وسأصلي من أجلها ومن أجلك". ولن يرفض لي ذلك أيّ جنديّ منهم، ذلك أنهم، كرجال حرب،

كانوا الأفضل لدى احتضار الابن والأم. آه! لماذا لم أفكر في هذا هناك بالأعلى؟ كنتُ كمن ضُربت على الرأس. كانت تلك الضربات قد أرهقتني... آه! يا لها من ضربات! مَنْ يتيح لي ألا أسمعها هنا، في رأسي المسكين؟ الرمح... كم أريده!...»

«يمكن أن نفتش عنه يا مريم. يبدو لي أن قائد المئة صالح معنا. وأعتقد أنه لن يرفض. سأذهب غداً.»

«نعم، نعم يا يوحنا. أنا فقيرة، لا أملك إلا القليل من المال، ولكنني مستعدة للتخلي عن آخر فلس مقابل الحصول على هذا الحديد... آه! كيف أمكنني ألا أطلبه منه حينذاك؟»

«مريم يا عزيزتي، لا أحد منا كان يعلم بأمر هذا الجرح... عندما رأيته، كان الجنود بعيدين.»

«حقاً... لقد أضناني الألم. والملابس؟ لا شيء منها لدي! سأبذل دمي كي أحصل عليها...» وتسكب مريم من جديد دموعاً حزينة.

وتصل هكذا إلى الشارع حيث العلية، في الوقت المناسب، فقد كانت منهكة وتجرّ نفسها حقاً مثل عجوز منهارة. وهي تقول ذلك.

«تشجعي! ها قد وصلنا.»

«وصلنا؟ أهو قصير لهذه الدرجة الدرب الذي بدا لي هذا الصباح طويلاً؟ هذا الصباح؟ أكان ذلك هذا الصباح؟ ليس أكثر؟ كم من الساعات أم كم من العصور مضت منذ أن ولجت مساء أمس وخرجتُ هذا الصباح؟ هل حقاً أنا، الأم ذات الخمسين سنة، أم امرأة المئة سنة، امرأة الزمن

الطويل، غنيّة بالعصور على منكبيّ المنحنيين وعلى رأسي الشائب؟ يبدو لي وكأنّي عشتُ كلّ آلام العالم وهي كلّها على منكبيّ اللتين ناءتا تحت الثقل. صليب غير ماديّ، إنّما الثقيل للغاية! من الحجارة. قد يكون أثقل من صليب يسوعي. ذلك أنّي أحمل صليبي وصليبه مع ذكرى تمزّقه الفظيع وحقيقة تمزّقي. فلندخل، إذ لا بدّ لنا من الدخول. ولكنّه ليس مواساة. بل هو تنامي الألم. من هذا الباب دخل ابني لتناول وجبته الأخيرة. ومنه خرج كي يمضي للقاء الموت. وكان عليه وضع قدمه حيث وضع الخائن قدمه لدى خروجه لاستدعاء الذين سيقبضون على البريء. وأمام هذا الباب رأيتُ يهوذا... رأيتُ يهوذا! ولم ألعنه. ولكنّي كلّمتُه كأُمّ معذّبة، معذّبة من أجل الابن الصالح والابن الشرير... رأيتُ يهوذا! الشيطان هو من رأيتُه فيه! أنا التي وضعتُ دائماً لوسيفوروس تحت عقبي، وإذ لم أنظر سوى إلى الله، لم أخفض نظري أبداً على الشيطان، قد تعرّفتُ إلى وجهه وأنا أنظر إلى الخائن. تكلمتُ مع الشيطان... وهرب لأنّه لا يتحمّل صوتي. هل تركه الآن؟ بحيث يمكنني التحدّث إلى هذا الميت، والحبل به، أنا الأمّ، من جديد مع دم الله، كي أله للنعمة؟ أقسم لي يا يوحنا أنّك ستبحث عنه ولن تكون عنيفاً معه. أنا لستُ هكذا، مع أنّي أنا التي لها الحقّ في ذلك... آه! دعوني أدخل هذه الغرفة حيث تناول يسوع وجبته الأخيرة، وحيث بسلام قال صوت ولدي كلامه الأخير! «نعم، سندخل. ولكن الآن، انظري، تعالي هنا، حيث كنّا بالأمس. استريحي. حيّي يوسف ونيقوديموس اللذين يمضيان.» «أحيّيهما، نعم. آه! أحيّيهما، أشكرهما، أباركهما!» «ولكن تعالي، تعالي. ستفعلين هذا على مهل.»

«لا. هنا. يوسف... آه! لم أعرف أحداً بهذا الاسم لم يحبّني...»

مريم التي لحفى تنفجر بالبكاء.

«لا تبكي... حتّى يوسف... فالحبّ هو الذي كان يدفع ابنك إلى الخطأ. كان يريد أن يهبني سلاماً بشريّاً... ولكن اليوم!... رأيته... آه! كلّ مَنْ يُدعى يوسف طيّب هو مع مريم... يوسف، أشكرك، وأنت أيضاً يا نيقوديموس... قلبي يركع تحت أقدامكما المتعبة من الطريق الطويلة التي قطعتموها من أجله... لآخر إجلال قدّمتموه له... ليس لي سوى قلبي أقدمه لكما... وأقدمه لكما، أنتما الصديقان الوفيّان لابني... و... واعذرا كلاماً قالته لكما في المقبرة أمّ مطعونة الفؤاد...»

«آه! أيتها القديسة! أنت اغفري!» يقول نيقوديموس.

«كُوني بخير الآن. استريح في إيمانك. سنأتي غداً.» يضيف يوسف.

«نعم، سنأتي. نحن رهن إشارتك.»

«غداً هو السبت.» تعترض سيّدة المنزل.

«السبت مات. سنأتي. وداعاً. فليكن الربّ معنا.» ويمضيان.

«تعال يا مريم.»

«نعم يا أمّي، تعالي.»

«لا، افتحوا. لقد وعدتموني بهذا بعد التحيات. افتحوا هذا الباب! لا يمكنكم إغلاقه في وجه أمّ، أمّ تسعى إلى تنفّس الهواء الذي فيه رائحة نفّس وجسد ابنها. ألا تعلمون أنّ هذا النّفّس وهذا الجسد، أنا الذي أعطيتُهما له؟

أنا، أنا التي حملته تسعة أشهر، ولدته، أرضعته، أنشأته، اعتنيتُ به؟ هذا النفس هو نفسي! رائحة الجسد هذه هي رائحتي! رائحتي، وقد غدت أجمل بعد في يسوعي. دعوني أحسّ بها مرّة أخرى.»

«ولكن نعم، يا عزيزتي، غداً. اليوم أنتِ متعبة. مشتتة بالحمى. لا تقدرين. حالك سيئة.»

«نعم، حالي سيئة. ذلك لأنّ في عينيّ منظر دمه وفي أنفي رائحة جسده المغطّى بالجروح. فلأنظر إلى المنضدة التي اتّكأ عليها حياً وسليماً، ولأحسّ بعطر جسده الغضّ. افتحوا! لا تدفنوه للمرّة الثالثة! لقد أخفيتموه عنيّ تحت الطيوب واللفائف، ثمّ حجبتموه عنيّ خلف الحجر. والآن لماذا، لماذا تأبون على أمّ أن تجد من جديد آخر أثر له في أنفاسه التي تركها خلف هذا الباب؟ دعوني أدخل. سأبحث على الأرض، على المنضدة، على كرسيه، عن آثار قدميه، يديه. وسأقبلها، سأقبلها حتّى تفنى شفتاي. سأفتش، وأفتش... قد أجد شعرة من رأسه الأشقر، شعرة ليست مغطّاة بالدم. هل تعرفون ما قيمة شعرة من ابن لدى أمّه؟ أنت، يا مريم التي لكلوبا، أنت يا سالومة، أنتما أمان. وألا تدركان؟ يوحنا؟ يوحنا؟ اسمعني. أنا أمّك: هو جعلني كذلك. هو! يجب أن تطيعني. افتح! أنا أحبّك يا يوحنا. لقد أحببتك دائماً لأنّك كنت تحبّه. وسأحبّك أكثر بعد. ولكن افتح. افتح، أقول لك! ألا تريد؟ لا تريد؟ آه! لم يعد لي ابن إذن!؟ يسوع لم يكن يرفض لي طلباً أبداً، لأنّه كان ابني. أنت ترفض. فأنت لست ابني. أنت لا تفهم ألمي... آه! يوحنا، سامحني... سامحني... افتح... لا تبك... افتح... آه! يسوع!... يسوع!... اسمعني... فليصنع روحك معجزة! افتح لأمّك المسكينة هذا الباب الذي لا يريد أحد أن يفتحه! يسوع! يسوع!»

تضمّ مريم قبضتيها وتطرق الباب المحكم الإغلاق. ألمها في ذروته.
وتنتهي بأن تشحب وهي تهمس: «آه! يسوعي! أنا آتي! آتي!» وترتمي خائفة
القوى بين أذرع النساء اللواتي يبكين، اللواتي يسندنها كي لا تسقط على عتبة
هذا الباب، ويحملنها هكذا إلى الغرفة المواجهة.

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

26- (ليلة الجمعة المقدسة. مراثي العذراء.)

1945 / 03 / 29

مريم، تسندها النساء الباقيات، تستعيد وعيها وتبكي دون أن يكون لها قوة إلا على البكاء بلا توقّف. يبدو حقاً أنّ على حياتها أن تنساب وتفنى بالكامل في دموعها هذه.

يُردن أن ينعشنها. تقدّم لها مرثاً قليلاً من النبيذ، وتريدها سيّدة المنزل أن تتناول ولو قليلاً من العسل، مريم التي لحلفى، الجاثية على ركبتها أمامها، تقدّم لها فنجاناً من الحليب الدافئ وهي تقول: «لقد حلبته بنفسى من عنيزة راحيل الصغيرة (ربما هي بنت أولئك الناس المتواجدين في منزل لعازر كمستأجرين أو حرّاس، لا أعلم). ولكنّ مريم لا تريد شيئاً. البكاء، فقط البكاء. جلّ همّها سماع الوعود بالتفتيش عن الرُّسل والتلاميذ، والبحث عن الرُّمح والملابس، وحينما يطلع النهار، لأنّهم الآن لا يريدون أن يتركوها تذهب، سيدعنها تدخل إلى قاعة العشاء [العلية].

«نعم. إن سكنت قليلاً، إن ارتحت قليلاً، سأخذك إليها.» تقول سلفتها. «سندخلها معاً، وأنا على رُكبتيّ سأبحث لك عن كلّ أثر ليسوع...» وتشهق مريم التي لحلفى بالبكاء. «إنّما هل ترين؟ ها هنا الكأس والخبز الذي قطعه، واستخدمه في الافخارستيا. هل هناك أقدم من هذا التذكار. أترين؟ يوحنا أحضرهما لك منذ هذا الصباح كي تريهما هذا المساء... المسكين يوحنا الذي هو هناك والذي يبكي وهو خائف...»

«خائف؟ لماذا؟ تعال يا يوحنا.»

يَخرج يوحنا من الظلّ، إذ لم يكن في الغرفة سوى مصباح صغير موضوع على المنضدة بالقرب من أغراض الآلام، ويركع عند قدميّ مريم، التي تلاطفه وتسأله: «لماذا أنت خائف؟»

ويوحنا، مُقبلاً يديها وباكياً: «لأنّك بحال سيئة. محمومة وفي ضيق... ولا تهدئين. وإن استمرّيت هكذا، فستموتين كما مات هو...»

«آه! لو كان هذا حقاً!»

«لا! أمّي! ماما! آه! إنه لأعذب لي أن أقول: "ماما"، مثلما أقول لأُمّي! دعيني أقولها لك... ولكن، كما لا أجد فرقاً بين أمّي وبينك، وحتىّ إنني أحبّك أكثر منها، لأنّك أنت هي الأمّ التي أعطانيها هو ولأنّك أمّه، فلا تجعلي فرقاً كبيراً بين الابن المولود منك والابن الذي أعطي لك... وأحبّيني قليلاً كما تحبّينه هو... ولو كان هو من يقول لك: "أنا خائف من أن تموتي"، فهل تجيبينه: "آه! لو كان هذا حقاً؟ لا. ما كنت لتقولي هذا. ولكنك كنت تأسفين على رحيلك وتركه في عالم من الذئاب، هو حمّلك... أفلا تتألّمين من أجلي؟... إنني حمّل أكثر منه، ليس بالصّلاح والنقاء، ولكن بالغباء والخوف. ولو فقدتُك، لافترست الذئاب يوحنا المسكين دون معرفته الثغاء ولو لمرة واحدة ليتكلّم عن معلّمه... هل تريدان أن أموت هكذا، دون أن أخدمه؟ غيباً في الموت كما في الحياة؟ لا، أليس كذلك؟ فإذا حاولي أن تهدئي يا ماما.. من أجله.. آه! ألا تقولين إنّه سيقوم؟ نعم، تقولين ذلك، وهذا صحيح. إذاً، هل تريدانه أن يجد المنزل خالياً منك لدى قيامته؟ لأنّه بالتأكيد سيأتي إلى هنا... آه! يا للمسكين، يا ليسوع المسكين، فيما بدلاً من هتاف حبّك يسمع عويلنا

المأتمّي، وبدلاً من حضنك يضع عليه رأسه الشهيد والممجد يجد مغلاق قبرك.... ينبغي لك أن تعيشي. كي تحييه حينما سيعود... لا أقول: "لحبنا". جميعنا نستحقّ كلّ التأنيب بسبب طريقة سلوكنا. ولكن "لحبك". آه! كيف سيكون اللقاء؟ وهو، كيف سيكون؟ يا أمّ الحكمة، أمّ يوحنا الجاهل للغاية، أنتِ يا مَنْ تعلّمين كلّ شيء، قولي لنا كيف سيكون، عندما يظهر قائماً.»

«جراح ساقّي لعازر كانت ملتئمة، ولكنّا كنّا نرى آثارها. وظهر ملفوفاً في لفائف مليئة بالنتانة.» تقول مرثا.

«ووجب أن نغسله مراراً وتكراراً...» تضيف مريم.

«وكان ضعيفاً، ووجب أن ننعش قواه حسب أمره.» تُتّهي مرثا.

«ابن أرملة نائين كان كالمذهول وكان يبدو وكأنّه طفل غير قادر على المشي أو الكلام بطلاقة، حتّى إنّ رده إلى أمّه كي تُعلّمه من جديد التمتّع بخيرات الحياة. وابنة يائيروس، هو بنفسه قاد أولى خطواتها.» يقول يوحنا.

«أعتقد أنّ ربّي سيرسل إلينا ملاكاً كي يقول لنا: "انتوني بثوب نظيف". وحبّي قد أعدّه بالفعل. إنّهُ في القصر. أنا لم أستطع نسجه، ولكنّي جعلتُ مُرضعتي تنسجه، التي اطمأنت على مستقبلتي الآن، ولم تعد تبكي. لقد جلبتُ الكتان الأغلى ثمناً، وحصلتُ على الأرجوان من بلوتينا، ونُعّمي نسجت حواف الثوب، وأنا صنعتُ الحزام والصرّة والشال، طرّزته آناء الليل حتّى لا يراني أحد. أنتِ التي علّمتني يا أمّي. ليس كاملاً. إنّما أكثرْتُ فيه من اللآلئ التي ترسم اسمه على الحزام وعلى الصرّة، هي ماسات دموع حبّي

وقبلاتي التي تجعله جميلاً. كلّ غرزة هي خفقة تفان لأجله. وسأحمله له.
تسمحين بذلك، أليس كذلك؟»

«آه!... لم أكن أظنّ أنهم يجرّدونه من ثوبه... لست معتادة على ممارسات العالم ووحشيّته... كنتُ أظنّني أعلم... (وتتحدّر الدموع من جديد على طول خديها الشمعيّين) ولكنّني أرى أنّني لم أكن أعلم شيئاً... وكنتُ أفكّر: "وبعد ذلك أيضاً سيكون له ثوب الأمّ." كان يعجبه كثيراً! لقد أراد هو بهذا الشكل، وقد قال لي ذلك منذ زمن بعيد: "ستصنعين ثوباً هكذا وهكذا، وستجلبينه لي في الفصح... إذ يجب أن تراني أورشليم في ثوب ملك أرجواني..." آه! هذا الصوف، الأكثر بياضاً من الثلج، أثناء نسجه صار أحمرّاً في عينيّ الله وعينيّ، لأنّ قلبي تلقّى جرحاً جديداً من هذا القول... جراحي الأخرى، بعد سنوات أو شهور، إن لم تكن قد خُتمت، فعلى الأقلّ جفّ رشح الدم فيها. ولكن هذه! كلّ يوم، كلّ ساعة كانت تعيد السيف في القلب: "يوم أقلّ! ساعة أقلّ! بعد ذلك، يموت!" آه! آه!... كان الخيط على المغزل وعلى النول يصبح أحمرّاً بالنسبة لي... بعد ذلك تمّت صباغته من أجل العالم... ولكنّه كان آنذاك أحمرّاً...» وتبكي مريم من جديد.

يحاولن التخفيف عنها بالحديث عن القيامة. تسأل سوسنة: «ماذا تقولين؟ كيف ستكون قيامته؟ وكيف سيقوم؟»

وهي، تائهة، معميّة بساعة الشهادة الخلاصيّة هذه، تجيب: «لا أعلم... لم أعد أعلم شيئاً... سوى أنّه قد مات!...» وتتفجر من جديد ببكاء عنيف وتُقَبِّل قطعة القماش التي كانت عند خاصرة ابنها، وتضمّها إلى قلبها وتهدهدها كما لو كانت طفلاً...

وتتلمّس المسامير، الأشواك، الإسفنجة، وتهتف: «هذه! هذه هي ما عرف وطنك أن يعطيك إياه! حديد، أشواك، خلّ ومرّ! وشتائم، شتائم، شتائم! ومن بين كلّ أبناء إسرائيل، كان اختيار واحد من قيروان ليحمل لك الصليب. هذا الرجل مكرّم بالنسبة إليّ مثل زوج. ولو كنت أعلم أنّ أيّ آخر مدّ يد المساعدة لابني، لقبّلت قدميه. ولكن ألم يشفق أحد؟ اخرجوا! ارحلوا! حتّى رؤيتكم تسبّب لي ألماً! لأنّ من بينكم جميعاً، من بينكم جميعاً، لم يعرف أحدكم حتّى أن يستحصل له على عذاب أخفّ وطأة. خدام بطّالون وبلا جدوى لملككم، اخرجوا!» إنّها شديدة في حدّتها. واقفة، صلبة، بل تبدو أعظم، بعينيها الأمرتين، وذراعها الممدودة تشير إلى الباب. تأمر مثل ملكة على العرش.

يخرج الجميع بلا ردّة فعل لعدم إثارتها أكثر، ويجلسون خارج الباب المقفل، ليسمعوا أنينها وكلّ صوت يمكن أن يصدر عنها. ولكن بعد ضجيج الكرسيّ الذي دفعته، وركبتيها اللتين ارتطمتا بالأرض، لأنّها ركعت ورأسها على الطاولة التي عليها أغراض الآلام، لا يُسمع منها سوى بكاء بلا توقّف ولا عزاء.

تهمس، إنّما بهدوء حتّى إنّ الذين في الخارج لم يتمكّنوا من سماعها: «أبتاه، أبتاه، غفرانك! إنّني أصبح متكبّرة وشريرة. ولكن أنت ترى ذلك: ما أقوله صحيح. كانت جموع حوله، وفي هذا العيد كانت كلّ فلسطين داخل الأسوار المقدّسة... مقدّسة؟ لا. لم تعد مقدّسة... كانت لتبقى هكذا لو هو مات داخلها. ولكنّ أورشليم لفظته مثل القيّ الذي تجيش منه النّفس. لم يعد في أورشليم إذن سوى الجريمة... والآن، من كلّ الناس الذين كانوا يتبعونه، لم

يَتِمَكَّنُ مِنَ الْإِلْتِمَامِ سِوَى قَبْضَةٍ مِنْهُمْ مُلْتَزِمِينَ، لَا أَقُولُ لِتَخْلِيصِهِ -فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ الْمَوْتُ مِنْ أَجْلِ الْفِدَاءِ- بَلْ لَجَعْلُهُ يَمُوتُ بِأَقَلِّ مِنْ هَذَا الْعَذَابِ. لَقَدْ قَبِعُوا فِي الظِّلِّ أَوْ هَرَبُوا... وَقَلْبِي يَثُورُ أَمَامَ كُلِّ هَذَا الْجُبْنِ. أَنَا الْأُمُّ. وَلِهَذَا اغْفِرْ لِي خَطِيئَةَ قَسْوَةِ كِبْرِيَائِي...» وَتَبْكِي...

كُلٌّ مَنِ فِي الْخَارِجِ هُمْ عَلَى شَوْكٍ وَلِأَسْبَابٍ عَدِيدَةٍ.

يَعُودُ سَيِّدُ الْمَنْزِلِ، الَّذِي كَانَ قَدْ خَرَجَ بِدَافِعِ الْفُضُولِ، وَيَجْلِبُ أَخْبَاراً مَرِيعَةً. يُقَالُ إِنَّ كَثِيرِينَ مَاتُوا فِي الزَّلْزَالِ، وَكَثِيرِينَ جُرِّحُوا بِسَبَبِ التَّصَادُمِ بَيْنَ الْيَهُودِ وَالْأَوْفِيَاءِ لِلنَّاصِرِيِّ، وَتَمَّ الْقَبْضُ عَلَى كَثِيرِينَ، وَأَنَّ إِجْرَاءَاتٍ جَدِيدَةً سَتُتَّخَذُ بِسَبَبِ أَعْمَالِ الشَّعْبِ وَالتَّهْدِيدَاتِ ضِدَّ رُومَا، وَأَنَّ بِيْلَاطُسَ أَمَرَ بِالْقَبْضِ عَلَى كُلِّ أَنْصَارِ النَّاصِرِيِّ وَكُلِّ رُؤَسَاءِ السَّاهِدِينَ الْمَوْجُودِينَ فِي الْمَدِينَةِ أَوْ الْهَارِبِينَ فِي أَنْحَاءِ فِلَسْطِينَ، وَأَنَّ يُونَا تَحْتَضِرُ فِي قَصْرِهَا، وَأَنَّ مَنَائِينَ قَبِضَ عَلَيْهِ هِيرُودُسُ لِأَنَّهُ أَهَانَهُ وَسَطَ الْبَلَاطِ بِوَصْفِهِ قَاتِلَ اللَّهِ. خِلَاصَةً الْقَوْلِ، كِتْلَةٌ مِنَ الْأَخْبَارِ الْكَارِثِيَّةِ...

تَتَنَّى النِّسَاءُ. لَيْسَ خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهِنَّ بِقَدْرِ مَا هُوَ الْخَوْفُ عَلَى أَبْنَائِهِنَّ وَأَزْوَاجِهِنَّ. سُوَسَنَةُ تَفَكَّرُ بِزَوْجِهَا، الْمَعْرُوفُ بِأَنَّهُ مِنْ أَتْبَاعِ يَسُوعَ فِي الْجَلِيلِ. مَرْيَمُ الَّتِي لَزَبَدِي تَفَكَّرُ بِزَوْجِهَا، الَّذِي يَحِلُّ ضَيْفًا عِنْدَ أَحَدِ الْأَصْدِقَاءِ، وَبَابْنِهَا يَعْقُوبُ الَّذِي لَيْسَ لَدَيْهَا أَيُّ خَبَرٍ عَنْهُ مِنْذُ مَسَاءِ الْيَوْمِ. وَمَرَّتَا تَقُولُ وَهِيَ تَتَنَحَّبُ: «لَا بَدَّ أَنْهُمْ ذَهَبُوا الْآنَ إِلَى بَيْتِ عَنِيَا! وَمَنْ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَنْ كَانَ لِعَازَرِ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُعَلِّمِ؟»

«وَلَكِنَّهُ مُحَمِّي مِنْ رُومَا.» تَجِيبُهَا مَرْيَمُ سَالُومَةً.

«آه! محميّ! مَنْ يعلم، مع الكراهية التي يكتّنها لنا رؤساء إسرائيل، أيّ اتّهامات يوجّهونها له لدى بيلاطس... آه! يا الله!» تضع مرثا يديها في شعرها وتصيح: «السلاح! السلاح! المنزل مليء به... وكذلك القصر! أنا أعلم! لقد جاء لاوي الحارس هذا الصباح، عند الفجر، وأخبرني... ولكنك أنت أيضاً تعلمين! وقُلْتِه لليهود على موضع الصلب... حمقاء! لقد وضعت بين أيدي الطغاة السلاح لقتل لعازر!...»

«قُلْتُها، نعم، قُلْتُ الحقّ دون علمي به. ولكن اصمتي، أيتها الخوّافة! ما قُلْتِه هو أكبر ضمان للعازر. سوف يحرصون على عدم المجازفة بالبحث حيث يعلمون بوجود أناس مسلّحين! إنهم جبّاء!»

«اليهود، نعم. أمّا الرومان، فلا.»

«أنا لا أخشى روما. فهي عادلة ورزينة في أحكامها.»

«مريم على حقّ.» يقول يوحنا. «قال لي لونجين: "أتمنّى أن يتركوكم بسلام. وإن لم يفعلوا، تعال أو أرسل أحداً إلى دار الولاية. بيلاطس متسامح مع أتباع الناصريّ. وقد كان كذلك معه. وسندافع عنكم."»

«وماذا لو فعل اليهود كلّ شيء بأنفسهم؟ مساء أمس كانوا هم من قبض على يسوع! وإن قالوا إننا مُدَنِّسين، فيكون لهم الحقّ في القبض علينا أيضاً. آه! أولادي! لي أربعة! أين قد يكون يوسف وسمعان؟ كانا على موضع الصلب، ثمّ نزلا حينما لم تصمد يُونّا. للمساعدة والدفاع عن النساء... هما، الرُّعاة، حلفى... الجميع! آه! يكونون قد قتلوهم بالتأكيد. هل سمعتِ أن يُونّا تحتضر؟ بالتأكيد هي كذلك لأنّها جُرّحت. وهما، قبل أن يتمكّن الرعاع من

ضرب امرأة، لا بدّ أنّهما قد دافعا عنها وماتا!... ويوضاس ويعقوب؟
صغيري يوضاس! كنزي! ويعقوب الوديع مثل صبيّة! آه! لم يعد لي أبناء!
صرتُ مثل أمّ أولاد المكابيين!...»

يبكي الجميع بيأس. فيما عدا سيّدة المنزل التي مضت تبحث عن مخبأ
لزوجها، ومريم المجدليّة، التي لا تبكي. ولكنّ عينيها تقذفان ناراً، إذ عادت
المرأة المتسلّطة القديمة. لا تتكلّم، ولكنّها ترشق بعينيها رفيقاتها المنكسرات،
وتكاد توجّه إليهنّ صفة في غاية الوضوح: «الجبن!»

ويمضي بعض الوقت هكذا... ومن آن إلى آخر تقوم واحدة وتفتح
الباب بهدوء، تلقي نظرة خاطفة، ثمّ تغلقه.
«ماذا تفعل؟» تسأل الأخريات.

فتقول من نظرت: «إنّها ما تزال جاثية. تصلّي.» أو: «تبدو وكأنّها
تتكلم مع شخص ما.» أو: «وقفت وهي تشير متحرّكة هنا وهناك في
الغرفة.»...

مراثي العذراء. [بلا تاريخ]

«يسوع! يسوع! أين أنت؟ هل مازلتَ تسمعني؟ هل تسمع أمّك المسكينة
التي تصرخ، في هذه اللحظة، باسمك المقدّس والمبارك، بعد الاحتفاظ به في
قلبها لساعات كثيرة؟ اسمك القدّوس، الذي كان حبّي، حبّ شفّتي اللتين كانتا
تتذوّقان طعم العسل حين النطق باسمك، والذي الآن، على العكس، عندما
أنفّوه به فإنّ شفّتي تبدوان ترتشفان المرارة التي بقيت على شفّتك، مرارة

المزيج الفطيع... اسمك، حبّ قلبي الذي كان ينتفخ فرحاً حينما كان يقوله،
كما كان قد تمّدّد لكي ينقل دمه ويستقبلك ويكسوك حينما نزلت من السماء
إليّ، صغيراً جداً، ضئيلاً جداً حتّى أمكنك أن تحطّ في كأس نعناع برّيّ.

أنت، العظيم للغاية، أنت، القدير، المتلاشي في بذرة إنسان من أجل
خلاص العالم. اسمك، ألم قلبي، الآن وقد انتزعوك من ملاطفات أمك لرميك
بين أذرع الجلّادين، الذين عذبوك حتّى الموت. لقد انسحق قلبي، من وجوب
حبس هذا الاسم طوال ساعات كثيرة، والذي كانت صرخته تتصاعد كلّما
تنامى ألمك، حتّى انكساره، كما لو أنّ أرجل عملاق تدوسه. آه! نعم، ألمي
عملاق، يسحقني، يسحنني ولا يمكن لأيّ شيء أن يخفّفه.

لمن أقول اسمك؟ لا شيء يجيب على صرختي. حتّى ولو كنتُ أصيح
حتّى يُفتّت الحجر الذي يُغلق قبرك، فما كنتُ لتسمعه، لأنّك ميت. ألم تعد
تسمع أمك؟ كم ناديتُك خلال الأعوام الأربعة والثلاثين هذه، أيا بنيّ! منذ
اللحظة التي تبينّت فيها أنّه ينبغي لي أن أكون أمّاً، وأنّ ابني الصغير يُدعى
"يسوع!". لم تكن بعد قد وُلدت، وأنا، إذ كنتُ ألامس أحشائي حيث كنتُ
تنمو، كنتُ أناديك بهدوء: "يسوع!" وكان يبدو لي أنّك تتحرّك لتقول لي:
"ماما". قد خمنتُ لك منذئذ صوتاً، كنتُ أحلم به. كنتُ أسمعُه قبل أن يُوجد.
وعندما سمعته، ضعيفاً مثل حَمَل مولود حديثاً، يرتعش في الليلة الباردة التي
وُلدت فيها، عرفتُ عمق الفرح... وكنتُ أظنّني قد عرفتُ عمق الألم بسبب
دموع طفلي البردان، غير المرتاح، الذي كان يسكب بواكير دموع الفداء،
وأنا لم يكن لديّ نار ولا مهد ولم أكن أستطيع التألّم بدلاً عنك، يا يسوع. لم
يكن لديّ سوى صدري كما نار ووسادة، وحبّي للتعبد لك، يا ابني القدّوس.

كنتُ أظنّني قد عرفتُ عمق الألم... وقد كان فجر هذا الألم، كان حافّته.
الآن أوجه. الآن هو القاع. هو العمق الذي ألمسه الآن، بعد النزول طوال
الأعوام الأربعة والثلاثين تلك، مدفوعة بالكثير من الأمور وواهنة، اليوم،
عند أقدام صليبك الرهيب.

حينما كنتُ صغيراً كنتُ أهدهدك وأنا أغني: "يسوع! يسوع!" أيّ تناغم
أقدس وأجمل من هذا الاسم، الذي يجعل ملائكة السماء تبتسم؟ بالنسبة إليّ،
كان أكثر روعة من الغناء الشديد العذوبة للملائكة ليلة ميلادك. كنتُ أرى
فيه السماء، بل هي السماء بأكملها التي كنتُ أراها من خلال هذا الاسم.
والآن، في قلبي ذاك لك وأنت ميت لا تسمعني، ولا تجيبني، كما لو أنّك لم
تكن في الوجود أبداً، أرى الجحيم، كلّ الجحيم. هاك: الآن أفهم معنى كلمة
مُدان. وهي عدم التمكن بعد من قول: "يسوع!" يا للهول! يا للهول! يا
لهول!...

كم سيدوم هذا الجحيم لأملك؟ أنت قلت: "في غضون ثلاثة أيّام سأعيد
بناء هذا الهيكل". طوال اليوم وأنا أكرّر كلماتك هذه التي قُلْتها، كي لا أقع
صريعة، لأكون مستعدّة لتحيتك لدى عودتك، والاستمرار في خدمتك...
ولكن كيف يمكن أن أعرفك ميتاً طوال ثلاثة أيّام؟ ثلاثة أيّام في الموت، أنت،
أنت، حياتي؟

ولكن كيف؟ أنت الذي تعرف كلّ شيء، لأنّك الحكمة اللامتناهية، ألا
تعرف ألم أملك؟ ألا يمكنك تصوّر هذا وأنت تتذكّر حينما فقدتُك في أورشليم
ورأيتني أشقّ الجموع التي كانت حولك، بوجه غريق يلمس الشاطئ بعد
معركة طويلة مع الموج والموت، بوجه امرأة تخرج من عذاب، منهكة، وقد

هرب منها الدم، عجوزاً، منكسرة؟ حينذاك فقط كان يمكنني التفكير بأنك
فُقدت. كان يمكنني التوهم أن الأمر هكذا فقط. اليوم لا. اليوم لا. أعلم أنك
ميت. الوهم غير ممكن. لقد رأيتك تُقتل. حتى لو كان الألم قد جعلني أنساه،
فها هنا دمك على وشاحي يقول لي: "لقد مات! لم يعد لديه دم! وهذا هو آخر
دم خرج من قلبه!" من قلبه، من قلب ولدي، من ابني! من يسوعي! آه! إلهي!
يا إله الرحمة، لا تجعلني أتذكر أن قلبه قد فُتح!

يسوع، لا يمكنني أن أبقى هنا، وحدي، بينما أنت هناك، وحدك. أنا التي
لم أحب قط طرق العالم ولا الجموع، وأنت تعلم هذا، ومنذ أن غادرت
الناصرية، وأنا أتبعك باطّراد كي لا أعيش بعيدة عنك. لقد واجهت الفضول
والاحتقار، ولم أهتم بالتعب لأنه كان يتلاشى حينما كنت أراك، لكي أعيش
حيث تكون. والآن أنا وحيدة هنا، وأنت هناك وحيد! لماذا لم يتركوني في
قبرك؟ كنت سأجلس بجوار سريرك المثلج، ممسكة بواحدة من يديك بين
يدي، لكي أشعرك بأنني بالقرب منك... لا، للإحساس بأنك أنت بالقرب مني.
إنك لا تشعر بعد بشيء. إنك ميت!

كم من الليالي قضيتها بجوار مهدك، وأنا أصلي، وأنا أحب، وأنا أتلذذ
بك. هل تريد أن أقول لك كيف كنت تنام، بقبضتين صغيرتين مغلقتين
كبرعمي زهر بالقرب من وجهك الصغير القدوس؟ هل تريد أن أقول لك
كيف كنت تبتسم في نومك، وكيف، بتذكرك بالتأكيد لحليب أمك، كنت تقوم
بحركة المص وأنت نائم؟ هل تريد أن أقول كيف كنت تستيقظ وتفتح عينيك
الصغيرتين، وتضحك وأنت تراني أنحني على وجهك، وكيف كنت تمد يديك
بفرح، نافذ الصبر كي أحملك، وكيف، بصيحة رقيقة مثل زغرودة طير

الدخلة، كنتَ تطالب بغذائك؟ آه! كم كنتُ سعيدة حينما تلتصق بصدري وكنتُ أشعر بدفء نعومة خديك، ولمسات يديك لثديي!

لم تكن تعرف البقاء بدون أمك. والآن، أنتَ وحيداً! سامحني يا بني، لأنني تركتكَ وحيداً. سامحني لأنني لم أترك لأول مرة في حياتي ولأنني لم أصرّ على البقاء هناك. هناك كان مكاني. لو كنتُ بجوار سريرك المأتمّي، أرتب لفائفك كما في الماضي وأبدّلها، لكنتُ شعرت بحزن أقل... حتّى وإن لم يكن بمقدورك أن تكلمني أو تبتسم لي، كان سيبدو لي وكأنني أحظى بك، من جديد، صغيراً. لكنتُ سأضمك إلى قلبي فلا أدعك تشعر ببرودة الحجر، وصلابة الرخام. ألم أحملك اليوم أيضاً؟ فصدر الأمّ قادر دائماً على احتضان الابن، حتّى وإن كان رجلاً. الابن هو طفل دائماً بالنسبة لأمّه، حتّى وإن كان مُنزلاً من على الصليب، مكسوّاً بالجراح والإصابات.

كَمْ، كَمْ من الجروح! كَمْ من الألم! آه! يا يسوعي، يا يسوعي المجرّوح بقسوة بالغة! المجرّوح هكذا! المقتول هكذا! لا. لا. ربّي، لا! لا يمكن أن يكون صحيحاً! أنا مجنونة! يسوع مات؟ أنا أهذي. يسوع لا يمكن أن يموت! أن يتألّم، نعم. أن يموت، لا. فهو الحياة! هو ابن الله. هو الله. الله لا يموت.

لا يموت؟ وإذاً لماذا دُعي "يسوع"؟ ماذا تعني كلمة "يسوع"؟ هي تعني... آه! هي تعني: "مخلّص"! لقد مات! لقد مات لأنّه المخلّص. كان عليه أن يخلّص جميع البشر، باذلاً ذاته... لا، أنا لا أهذي؟ لا، لستُ مجنونة. لو كنتُ هكذا! لعانيتُ أقل! هو قد مات. هذا هو دمه. هذا هو إكليله. هي ذي المسامير الثلاثة: فبهذه ثقبوا جسده!

أيها البشر، انظروا بماذا ثقتُم الله، ابني! وعليّ أن أغفر لكم. وعليّ أن أحبكم. لأنّه هو غفر لكم. لأنّه هو قال لي بأن أحبكم! جعلني أمكم، أمّا لقتلة ولدي! واحد من أقواله الأخيرة، وهو يصارع حشرة الاحتضار... "أمي هو ذا ابنك... أبناؤك". حتّى وإن لم أكن تلك التي تطيع، لوجب عليّ أن أطيع اليوم، لأنها وصيّة المائت.

هاك. هاك يا يسوع. أنا أغفر. أنا أحبهم. آه! قلبي يتحطّم في هذا الغفران، وفي هذا الحبّ! هل تسمع إنني أغفر لهم وأنني أحبهم؟ أصلي من أجلهم. هاك: أصلي من أجلهم... أغمض عينيّ لكيلا أرى وسائل العذاب هذه كي أتمكّن من الغفران لهم، للتمكّن من أن أحبهم، للتمكّن من أن أصلي من أجلهم. كلّ مسمار يلزم لصلب كلّ إرادة لعدم الغفران من قبلي، لعدم الحبّ، لعدم الصلاة من أجل جلاّديك.

ينبغي لي، أريد أن أفكر أنني إلى جانب مهدك. حينذاك أيضاً كنتُ أصلي من أجل البشر، إنّما حينذاك كان الأمر سهلاً. كنتُ حيّاً، وأنا، رغم أنّني كنتُ أعتبر البشر غليظي القلب، إلّا أنّني لم يكن بوسعي التفكير أبداً أنّ بإمكانهم أن يكونون بمثل هذه الوحشيّة تجاهك، أنت الذي أغدقت عليهم الإحسانات بما فاق كلّ حدّ. كنتُ أصلي وأنا مقتنعة بأنّ كلامك كان لي جعلهم صالحين. وفي قلبي كنتُ أقول لهم وأنا أنظر إليهم: "أنتم أشرار، مرضى، الآن يا إخوتي. ولكن عمّا قليل سيتكلّم، ولكن عمّا قليل هو سينتصر على الشيطان فيكم. وسيمنحكم الحياة المفقودة!" الحياة المفقودة! وأنت، أنت، أنت الذي فقدت حياتك من أجلهم، أيا يسوعي!

لو تمكّنت من رؤية هول هذا اليوم وأنت بعد في أقمطتك، لتحوّل حليبي
الحلو إلى سم بسبب الألم! لقد قالها سمعان: "سيف سيجوز في قلبك". سيف؟
بل غابة من السيوف! كم من الجراح أثنوك يا بني؟ كم أنه أطلقتها؟ كم من
تشنّج؟ كم قطرة دم سكبتها؟ وكلّ منها كان سيفاً بالنسبة لي. أنا غابة من
السيوف. فيك، لم يكن جزء واحد من جلدك دون جرح. وفيّ أنا، لم يكن
جزء دون أن يُخرق. سيوف خرقت جسدي وجازت في قلبي.

أثناء انتظاري ميلادك، كنتُ أهَيّ لك الأقمطة والبياضات بغزلها من
أكثر كتّان الأرض نعومة، لم أنظر إلى الثمن للحصول على أملس نسيج. كم
كنتُ جميلاً في أقمطة أمّك! كان الجميع يقولون لي: "ابنك جميل يا امرأة!".
كنتُ جميلاً! وجهك الصغير الوردّي كان يبرز من بياض الكتّان. كانت لك
عينان أكثر زُرقة من السماء، ورأسك الصغير كان يبدو وكأنّه مغلف بسُحب
ذهبيّة لشدة ما كان شعرك أشقر وناعماً. كانت تفوح منه رائحة زهر اللوز
الموشك أن يتفتح. كانوا يظنّون أنني كنتُ أعطرك. لا، لم يكن لكنزي سوى
عطر الأقمطة التي تغسلها أمّه، وتُدقّها وتُقبلها بقلبها وشفتيها. لم أكن أكلّ
أبدأ من العمل لأجلك...

والآن؟ الآن لم يعد لي ما أفعله من أجلك. منذ ثلاث سنوات ابتعدت عن
البيت، ولكنّك كنتَ ما تزال هدف أيّامي. التفكير فيك. في ملابسك. في
غذائك: عجن العجين وصنع الخبز، الاعتناء بالنحل لتعطيك العسل، العناية
بالأشجار لتمنحك ثماراً. كم كنتَ تحب الأشياء التي كانت تحملها لك أمّك! لا
أيّ طعام من موائد الأثرياء، ولا أيّ ثوب من نسيج ثمين يضارع النسيج
الذي خاطته، واعتنت به، وأعدته يد أمّك. حينما كنتُ أذهب لرؤيتك، كنتُ

تتظر على الفور إلى يديّ، كما عندما كنتَ صغيراً جدّاً، وكُنّا، يوسف وأنا، نقدّم لك عطايانا الفقيرة كي نُشعرك أنّك أنتَ "مَلِكنا". لم تكن أبداً شرهاً يا ولدي، ولكنّ الحبّ هو ما كنتَ تبحث عنه، كان هو غذاءك، وكنتَ تجده في عنايتنا. الآن أيضاً، هذا ما كنتَ تجده، وتبحث عنه، يا بنيّ المسكين، المحبوب قليلاً من العالم!

الآن، لا شيء. كلّ شيء قد تمّ. أمّك لن تفعل شيئاً لك بعد. أنتَ لم تعد بحاجة إلى شيء... الآن أنتَ وحيد... وأنا وحيدة... آه! مغبوط هو يوسف الذي لم يرَ هذا اليوم. ليتني لم أكن بعد هنا أنا أيضاً! إنّما لما وجدتَ حينئذ حتّى هذه التعزية برؤية أمّك المسكينة. لكنّك وحيداً على الصليب، مثلما أنتَ وحيد في القبر، وحيد مع جراحك.

آه! إلهي! إلهي كم من الجراح في ابنك، في ابني! كيف أمكنني رؤيتها دون أن أموت، أنا التي كان يُغمى عليّ حينما كنتَ وأنتَ صغير تؤذي نفسك؟

مرّة سقطتَ في حديقة الناصرة وجرحتَ جبهتك. بضعة قطرات من الدم. أمّا أنا، التي شعرتُ أنّي أموت حينما رأيتُ قطرات دمك أثناء ختانك -بالفعل كان على يوسف أن يسندني لأنّني كنتُ أرتعش كمن يحتضر- كان يبدو لي أنّ هذا الجرح الضئيل سيقْتلك، وبدموعي أكثر منه بالماء والزيت اعتنيتُ به، ولم أطمئنّ إلّا حينما توقّف عن رشح الدم. مرّة أخرى، حينما كنتَ تتعلّم الشغل، وجرحتَ نفسك بالمنشار، جرحاً صغيراً. ولكن الأمر كان كما لو أنّ المنشار قد قطعني إلى اثنتين. لم أرتح إلّا بعد ستّة أيّام، حينما رأيتُ يدك وقد شفيت.

والآن؟ والآن؟ الآن، قد فُتحت يداك، قدماك، جنبك، الآن جسدك ممزق،
الآن وجهك تكسوه الكدمات. هذا الوجه الذي لم أكن أجرو على لمسه بقبلة.
وجبهتك وعنقك تكسوهما الجراح، ولم يعطك أحد علاجاً ولا تعزية.

انظر إلى قلبي، أيا إلهي الذي ضربتني في ابني! انظر إليه! أليس مثخناً
بالجراح مثل جسد ابني وابنك؟ إن ضربات السوط قد سقطت عليّ مثل وابل
البرد حينما كانوا يجلدونه. ما هي المسافة بالنسبة إلى الحب؟ لقد تألّمت
عذابات ابني! كما لو أنني كابدتها وحدي! كما لو أنني كنت أنا على حجر
القبر! انظر إليّ أيا إلهي! ألا ينزف قلبي دماً؟ ها هي دائرة الأشواك، أنا
أشعر بها. رباط يعصرني ويخترقني. ها هو ثقب المسامير: ثلاثة خناجر
مثبتة في قلبي.

آه! يا لهذه الضربات! هذه الضربات! كيف لم تنهأ السماء بسبب هذه
الضربات المُنْدَسَة لجسد الله؟ وعدم المقدرة على الصراخ! عدم قدرتي على
الوثوب لانتزاع السلاح من القتلة والدفاع عن ابني المحتضر. بل وجوب
سماعها، السماع... وعدم القيام بأيّ شيء! ضربة على المسمار، والمسمار
يدخل الجسد الحيّ. ضربة أخرى ويدخل أكثر بعد. وأخرى وأخرى والعظام
والأعصاب تتحطّم، إلى أن تخترق جسد ابني وقلب أمّه.

وحينما رفعوك على الصليب؟ كم عانيت من الآلام يا ابني القدّوس! ما
زلت أرى يدك تتمزّق من اهتزاز السقطة. وقلبي تمزّق مثلها. لقد أُصِبتُ
بالرضوض، والجَلْد، والوخز، والضرب، والخرق مثلك. لم أكن معك على
الصليب، ولكن انظر إليها، إلى أمك! هل هي مختلفة عنك؟ لا. ما من
اختلاف في الاستشهاد. بل إنّ استشهادك انتهى، أمّا الذي لي فما زال

مستمراً. لم تعد تسمع الاتهامات الكاذبة، أنا أسمعها. أنت لم تعد تسمع التجديفات المريعة، وأنا مازلت أسمعها. أنت لم تعد تشعر بنهش الأشواك والمسامير، ولا العطش ولا الحمى، وأنا مليئة بلسعات النار كمن يموت محروقاً ويهذي.

لو كانوا على الأقلّ سمحوا لي أن أقدم لك قطرة ماء! لمنحك دموعي، إذا كانت ضراوة البشر تمنع عن الخالق الماء الذي خلقه. لقد أعطيتك من الحليب الكثير، لأننا كنا فقراء، يا بنيّ، وفي هروبنا إلى مصر فقدنا الكثير، وكان ينبغي علينا إعادة بناء سقف لنا، وأثاث عدا عن الملابس والطعام، ولم نكن نعرف كم سيدوم هذا المنفى، ولا ما كنا سنجده عند العودة إلى البلاد. فأعطيتك الحليب وقتاً أكثر من المعتاد كي لا تشعر بنقص في الغذاء. كنت أنا عنزتك، إلى أن امتلكنَا عنزة، يا طفل أمك. كان لك آنذاك كثير من الأسنان وكنت تعضّ... آه! يا للفرح لدى رؤيتك تضحك في ألعابك الطفولية!... كنت تريد أن تمشي. كنت سليماً وقوياً للغاية. وكنت أسندك لساعات وساعات، دون شعوري بألم في الظهر، وأنا منحنية عليك، وأنت الذي كنت تخطو خطواتك الصغيرة، ومع كل خطوة كنت تقول: "ماما!"، "ماما!". آه! يا للغبطة لدى سماعك تغني هذا الاسم!

لقد كنت تقول لي اليوم أيضاً: "ماما، ماما!" ولكن لم يكن بإمكان أمك سوى أن تراك تموت، لم أكن أستطع حتى أن ألامس قدميك! قدميك؟ آه! حتى وإن كانتا في متناول يديّ، فلم أكن لأستطيع لمسها حتى لا أزيد عذابك. كم كان على قدميك المسكينتين أن تتألّما، أيا يسوعي! لو كنت استطعت الصعود إليك، ووضع نفسي بين الخشب وجسدك، وأمنع اصطدامك بالخشب أثناء

تشنّجات الاحتضار. ما زلتُ أسمع ارتطام رأسك بالخشب في انتفاضاتك الأخيرة. وهذا الصوت، هذا الصوت يجعلني أجنّ. إنه كالمطرقة في رأسي.

ارجع، ارجع يا ابني الغالي! ابني القدّوس! إنني أموت. لا أستطيع تحمّل غمي هذا. أرني وجهك ثانية. نادني ثانية. لا يمكنني التفكير بأنك بدون صوت، بدون نظر، جثمان بارد وبلا حياة! آه! أيها الأب أنجدي. يسوع لا يسمعني! ألم تنته الآلام؟ ألم يتمّ الكلّ؟ ألا تكفي هذه المسامير، هذه الأشواك، هذا الدم، وهذه الدموع؟ أيلزم شيء آخر بعد لشفاء الإنسان؟

أبتاه، إنني أذكر لك أدوات تعذيبه ودموعي. ولكنّ هذه كانت الأقلّ أثراً. إنّ هجرتك له هو الذي أماته في هذا الضيق غير البشريّ. هجرتك هو الذي يجعلني أصرخ. لم أعد أسمعك. أين أنت يا أبي القدّوس؟ كنتُ "المتلئة نعمة". الملاك قال ذلك: "السلام لك يا مريم المتلئة نعمة، الربّ معك، مباركة أنت بين النساء". لا. ليس صحيحاً! ليس صحيحاً! أنا كمن هي ملعونة منك بسبب خطيئتها. لم تعد معي. النعمة انسحبت، كما لو كنتُ حواء ثانية خاطئة.

ولكنني كنتُ وفيّة لك على الدوام. بماذا خيّبتُ أملاك؟ فعلت بي كلّ ما بدا لك، وقلتُ لك على الدوام: "نعم يا أبي، أنا مستعدّة". إذاً هل يمكن للملائكة أن تكذب؟ وحنّة¹، التي أكّدت لي أنّك ستعطيني ملاكك ساعة الألم؟ أنا وحيدة. ما عدتُ أجد نعمة في عينيك، لم أعد أمتلكك فيّ، أنت، النعمة. لم يعد لي ملاك. هل يكذب القدّيسون إذاً؟ بماذا خيّبتُ أملاك، إن كانوا هم لا يكذبون، وأنا استحققتُ هذه الساعة؟

ويسوع؟ بماذا قصر، حَمَلَكَ النقيّ والوديع؟ في أيّ شيء أخطأنا إليك، كي نستحقّ، بالإضافة إلى الاستشهاد الذي سبّبه البشر، وجوب تحمّل عذاب هجرِكَ الذي لا قياس له؟ هو، هو، بعدئذ، الذي كان ابنك والذي كان يناديك بهذا الصوت الذي هزّ الأرض وارتجف بنحيب شفقة! كيف أمكنك تركه وحيداً في هذه العذابات الكثيرة؟

مسكين قلب يسوع الذي كان يحبك كثيراً! أين هي علامة جرح القلب؟ ها هي. انظر، يا أبي، إلى هذه العلامة. هنا أثر يدي التي دخلت في جرح الحربة الواسع. هنا.. هنا... لا الدموع، ولا قُبلة الأمّ، التي أحرقت عينيها وأضنت شفيتها من الدموع والقبلات، قد محتها. هذه العلامة تصيح وتعاتب. هذه العلامة، أكثر من دم هابيل، تهتف نحوكَ من الأرض. وأنت، يا مَنْ لعنتَ قايين وأجريتَ عليه انتقامك، لم تتدخل من أجل هابيلي، المنزوف من كلّ قايين له، وسمحتَ بآخر إهانة! فسحقتَ قلبه بهجرِكَ، تركتَ إنساناً يعرّيه، كي أراه، وأنسحق. ولكن بالنسبة لي لا يهمّ. بل من أجله هو، من أجله، أسأل هذا الطلب وأناديك لتستجيب. لم يكن ينبغي لك أن...

آه! عفوك يا أبي! عفوك يا أبي القدّوس! اغفر لأُمّ تبكي ولدها... لقد مات! مات ابني! مات وقلبه مفتوح. آه! أبي، يا أبي، الرحمة! أنا أحبّكَ! نحن أحببناكَ وأنتَ أحببتنا كثيراً! كيف سمحتَ أن يُجرَح قلب ابننا؟ آه! يا أبي!... يا أبي، الرحمة لامرأة مسكينة. أنا أهذي يا أبي.. أنا، أمتك، اللاشيء الذي لك، أجرؤ على توجيه العتاب لك! الرحمة! لقد كنتَ صالحاً. لقد كنتَ صالحاً. الجرح، الجرح الوحيد الذي لم يسبّب له ألماً، هو هذا.

هَجْرُكَ لَهُ جَعَلَهُ يَمُوتُ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، لَتَمْنَعُ عَنْهُ عَذَابَاتُ أُخْرَى.
لَقَدْ كُنْتَ صَالِحاً. تَفْعَلُ كُلَّ شَيْءٍ بِهَدَفٍ صَالِحٍ. نَحْنُ الْمَخْلُوقَاتُ الَّذِينَ لَا نَفْهَمُ.
كُنْتَ صَالِحاً. صَالِحاً كُنْتَ. قُولِي يَا نَفْسِي، هَذِهِ الْكَلِمَةُ، لِرَفْعِ عِضَةِ الْآلَامِ
عَنْكَ. اللَّهُ صَالِحٌ وَأَحَبُّكَ عَلَى الدَّوَامِ يَا نَفْسِي. مِنَ الْمَهْدِ إِلَى هَذِهِ السَّاعَةِ،
أَحَبُّكَ دَائِماً. مَنَحَكَ كُلَّ فَرَحِ الزَّمَانِ. كُلَّهُ. لَقَدْ مَنَحَكَ ذَاتَهُ. قَدْ كَانَ صَالِحاً،
صَالِحاً، صَالِحاً. شُكْراً يَا رَبِّ، فَلْتَكُنْ مَبَارَكاً لِصِلَاحِكَ اللَّامْتَنَاهِي!

شُكْراً. يَا يَسُوعَ، أَقُولُ شُكْراً لِأَجْلِكَ كَذَلِكَ! فَأَقْلَهُ هَذَا الْجَرْحَ لَمْ تَشْعُرْ بِهِ
يَا بَنِي! أَنَا وَحْدِي شَعَرْتُ بِهِ فِي قَلْبِي حِينَمَا رَأَيْتُ قَلْبَكَ مَفْتُوحاً. الْآنَ رَمَحَكَ
هُوَ فِي قَلْبِي يَحْفَرُ وَيَمزُقُ. وَلَكِنْ هَكَذَا أَفْضَلُ! فَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ بِهِ.

لَكِنْ، يَا يَسُوعَ، الرَّحْمَةُ! إِشَارَةٌ مِنْكَ! لِمَسَّةٍ، كَلِمَةُ لَأُمَّكَ الْمَسْكِينَةِ بِقَلْبِهَا
الْمَمزُوقِ! إِشَارَةٌ، إِشَارَةٌ يَا يَسُوعَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ تَجِدَنِي عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ لَدَى
رَجُوعِكَ.»

تَتِمَّةُ رُؤْيَا: 1945 / 03 / 29

قَرَعَ قَوِيٌّ عَلَى الْبَابِ يَجْعَلُ الْجَمِيعَ يَرْتَجِفُ. صَاحِبُ الْبَيْتِ يَهْرَبُ
بِجَسَارَةٍ. مَرْيَمُ الَّتِي لَزَبْدِي تَوَدُّ لَوْ يَتَّبِعُهُ ابْنُهَا وَتَدْفَعُ يُوْحَنَّا نَحْوَ الدَّارِ.
الْأُخْرَيَاتِ، مَا عَدَا الْمَجْدَلِيَّةَ، يَلْتَصِقْنَ بِبَعْضِهِنَّ بِأَنْبِيَاءٍ. هِيَ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ الَّتِي
تَنْتَصِبُ بِشَجَاعَةٍ وَتَتَّجِهُ نَحْوَ الْبَابِ وَتَسْأَلُ: «مَنْ الطَّارِقُ؟»

يَجِيبُ صَوْتُ امْرَأَةٍ: «أَنَا نِيقِي. لَدَيَّ مَا أُعْطِيهِ لِلْأُمِّ. افْتَحُوا! بِسُرْعَةٍ.
الدَّورِيَّةُ تَطُوفُ.»

يوحنا، الذي انفصل عن أمّه، وجرى إلى جوار المجدليّة، يتولّى فتح الأقفال العديدة، التي أُقفلت كلّها هذا المساء. يفتح. تدخل نيقى مع خادمتها ورجل مفتول العضلات يصحبها. يُغلّقون.

«لديّ شيء...» وتبكي نيقى ولا تتمكّن من الكلام...

«ماذا؟ ماذا؟» يقترب منها الجميع في فضول.

«على موضع الصلب... رأيتُ يسوع في تلك الحالة... وكنتُ قد أعددتُ وشاحاً لخاصرته كي لا يستعمل خِرَق الجلّادين... ولكنّه كان يتصبّب عرقاً، والدم على عينيّه، ففكرتُ أن أعطيه له كي يتنشّف. وقد فعل... وأعاد لي الوشاح. ولم أعد أستخدمه... كنتُ أريد الاحتفاظ به كذخيرة بعرقه ودمه. وحينما رأينا هياج اليهود بعد لحظة، مع بلوتينا والأخريات الرومانيّات، ليديا وفاليريا، كلّنا معاً، قررنا أن نرجع، خوفاً من أن ينتزعوا منّا هذا الوشاح. الرومانيّات نساء قويّات. وضعنا وسطهنّ، أنا والخادمة، ودافعن عنّا. حقّاً هنّ دَنَس لإسرائيل... وخطر هو لمس بلوتينا. ولكنّ هذه الأمور، نفكر فيها زمن الهدوء. اليوم، كان الجميع سكارى... وفي البيت بكيتُ... لساعات... ثمّ حدث الزلزال وأغمي عليّ... وحينما أفتتُ، أردتُ أن أقبل هذا الوشاح ورأيتُ... آه!... عليه وجه الفادي!...»

«دعينا نرى! دعينا نرى!»

«لا. الأمّ أولاً، فهذا حقّها.»

«إنّها منهكة للغاية! ولن تصمد...»

«آه! لا تقولوا هذا! بل على العكس سيكون تعزية لها. أخبراها!»

يقرع يوحنا برفق عند المدخل.

«مَن؟»

«أنا يا أُمِّي. نِقي بالخارج... وقد جاءت ليلاً... حاملةً لكِ تذكّاراً.. هديّة... تأمل أن تعزّيك بها.»

«آه! هديّة واحدة يمكنها أن تعزّيني! ابتسامة وجهه...»

«أُمِّي!» ويحيطها يوحنا بذراعيه خوفاً من أن تسقط ويقول لها كمن يَأتمنها على اسم الله الحقيقي: «إنّه هو. إنّها ابتسامة وجهه المطبوعة على الوشاح الذي مسحته به نِقي على موضع الصلب.»

«آه! أبتاه! يا أيّها الله العليّ! الابن القدّوس! الحبّ الأبديّ! فلتكونوا مباركين! الإشارة! الإشارة التي سألتُك إياها! دعها، دعها تدخل!»

تجلس مريم، لأنّها لم تعد تتمالك نفسها، وبينما يشير يوحنا للنسوة اللواتي يترقّبن دخول نِقي، تستعيد مريم وعيها.

تدخل نِقي وتركع عند قدميها والخادمة إلى جانبها. ويوحنا، واقفاً بالقرب من مريم، يمرّر ذراعه حول كتفيها كما ليسندها. نِقي لا تتفوّه بكلمة، بل تفتح الصندوق وتُخرج منه الوشاح، وتبسطه. ووجه يسوع، الوجه الحيّ ليسوع، الوجه المتألّم ومع ذلك المبتسم ليسوع، ينظر إلى الأمّ ويبتسم لها.

تُطْلِق مريم صيحة حبّ موجعة وتمدّ ذراعيها. تردّد النسوة صرختها من الباب حيث هنّ مجتمعات، ويقتدين بها جاثيات أمام وجه المخلص.

لا تجد نياقي كلاماً. تمرّر النسيج من يدها إلى يد الأمّ، وتنحني بعد ذلك لتُقبّل طرفه. ثمّ تخرج وهي تتراجع دون انتظار عودة مريم من انتشائها.

تمضي... لقد أصبحت خارجاً، في ظلام الليل، عندما يفطنون لها... لم يبق سوى إقفال الباب كما كان سابقاً.

مريم من جديد وحدها، في حديث النفس مع صورة ابنها. ذلك أنّ الجميع ينسحبون من جديد.

يمرّ بعض الوقت. ثمّ تقول مرثا: «ماذا نفعل بشأن الدهن [الطيوب]؟ غداً هو السبت...»

«ولن نستطيع جلب شيء...» تقول سالومة.

«يجب أن نقوم بصنعه... بضعة أرطال من الصبر والمرّ... ولكنّ غسله كان سيئاً...»

«يجب أن يكون كلّ شيء جاهزاً لفجر أوّل يوم بعد السبت.» تلاحظ مريم التي لحفى.

«والحرّاس؟ كيف سنتصرّف؟» تسأل سوسنة.

«سنخبر يوسف إن لم يدعونا ندخل.» تجيب مرثا.

«لن نستطيع تحريك الحجر.»

تجيب المجدليّة: «آه! تقولين إنّنا كوننا خمساً لن نستطيع؟ نحن جميعاً قوَّيات... والحبّ يتكفّل بالباقي.»

«وأنا سآتي معكنّ.» يقول يوحنا.

«أنتِ بالتأكيد لا. لا أريد أن أفقدك أيضاً يا بنيّ.»

«لا تفكّر بالأمر. نحن نكفي.»

«ولكن في هذه الأثناء... مَنْ يعطينا الطيوب؟»

يلبّثن جميعهنّ مثقلات...

ثمّ تقول مرثا: «كان يمكن أن نسأل نيقى إن كان حقّاً ما قيل عن يُوّنا... عن الاضطرابات...»

«هذا صحيح! لكنّنا حمقاوات. وكان بإمكاننا حينذاك أخذ الطيوب أيضاً... فقد كان إسحاق على عتبة بابها حينما رجعنا...»

«في القصر، الكثير من القوارير الصغيرة لخلاصات، والبخور الفاخر. سأذهب لأجلها.» وتنهض مريم المجدليّة من مكانها وتضع الرداء.

تصيح مرثا: «لن تذهبي.»

«سأذهب.»

«أنتِ مجنونة! سوف يقبضون عليك!»

«أختك على حقّ. لا تذهبي!»

«آه! يا لكنّ من نساء عديمات الجدوى وصيّاحات! في الحقيقة كان
ليسوع مجموعة جميلة من التابعات! هل استنفذتن مخزون شجاعتكن؟
بالنسبة لي، فعلى العكس، على قدر ما أستنزفها يأتيني منها.»

«أنا سأذهب معها. أنا رجل.»

«وأنا أملك وأمنعك.»

«كوني مطمئنة يا مريم سالومة، وأنت أيضاً يا يوحنا. أذهب بمفردي.
لست خائفة. أعرف ما يكون التجوال في الشوارع أثناء الليل. قد فعلت ذلك
آلاف المرات من أجل الخطيئة... هل عليّ أن أخشى الآن وأنا أذهب لخدمة
ابن الله؟»

«ولكن اليوم المدينة في اضطراب. لقد سمعت الرجل.»

«إنّه أرنب، وأنتم أيضاً. سأذهب.»

«وإن التقيت الجنود؟»

«سأقول: "أنا ابنة ثيوفيلوس، السوري، خادم قيصر الأمين".
وسيتركونني أمضي، ثم... إنّ الرجل أمام امرأة شابة وجميلة هو لعبة
مسالمة أكثر من قشة تبين. أنا أعلم ذلك، لخجلي...»

«ولكن أين يمكنك إيجاد الطيوب في قصر مهجور منذ سنوات؟»

«أتظنين هذا؟ آه! مرثا! ألا تتذكرين كيف أنّ إسرائيل قد أرغمتكم على
مغادرته لأنّه كان واحداً من أماكن لقائي مع عشّاقي؟ وكان عندي فيه كلّ ما

يُستَخدَم في جعلهم أكثر جنوناً بي. وحينما خلّصني مخلصي، خبّأتُ في مكان، أعلمه أنا وحدي، قوارير المرمر والبخور اللذين كنتُ أستخدمهما في قصوف الحبّ. وأقسمتُ أن تكون دموعي وحدها على خطيئتي وتعبدتي ليسوع كلّيّ القداسة هي عطري وبخوري العطر لمريم التائبة، وأنّ علامات عبادتي الدّيسة للحواسّ والجسد، سأستخدمها فقط لأقدّسها عليه ولدهنه. الآن هي الساعة. أنا ذاهبة. امكثوا في سكون. معي ملاك الله ولن يحدث لي سوء. وداعاً. سأتيكم بالأخبار. ولا تقولوا لها شيئاً... فهذا يفاقم قلقها...»

وتخرج مريم المجدليّة واثقة من نفسها، مهيبة.

«أمّي، هذا يعلمك درساً... ويقول لك: "لا تجعلي العالم يقول إنّ ابنك جبان". غداً، أو بالأحرى اليوم، إذ الآن هو الهزيع الثاني، سأذهب للبحث عن الرفاق، كما أرادت...»

«إنّه السبت... لا يمكنك...» تعترض سالومة كي تبقى.

«"السبت مات" أقول ذلك أنا أيضاً مع يوسف. العهد الجديد قد بدأ. ومعه شرائع أخرى، توضحيات أخرى، وطقوس أخرى.»

تحني مريم سالومة رأسها على ركبتيها وتبكي بلا احتجاج.

«آه! لو يمكننا الحصول على الأخبار عن لعازر!» تنوح مريم التي لكلوبا.

«لو تدعوني أمضي، فستحصلون عليها. لأن سمعان الكنعاني قد تلقى
أمراً بأن يقود الرفاق إلى بيته، بيت لعازر. يسوع قال هذا لسمعان
بحضوري.»

«واحسرتها! كلهم هناك؟ إذاً فقد ضاع الجميع!» مريم التي لكلوبا
وسالومة تسكبان دموع الهم.

يمضي بعض الوقت وسط الدموع والانتظار. ثم تعود مريم المجدلية
منتصرة، محملة بحقائب مليئة بالقوارير الثمينة.

«أترون أنه لم يحدث شيء؟ ها هي زيوت من كل نوع، وناردين،
ولبان، وراتنج بلسمي. وما من مر ولا صبر... لم أكن أريد أية مرارة... فأنا
أتجرعها كلها الآن... إنما في هذه الأثناء سنمزج هذه وغداً سنأخذ... سنأخذ
المر والصبر... آه! بالدفع، إسحاق سيمنحنا إياها حتى ولو كان سبتاً.»

«هل رأوك؟»

«لا. لم أصادف في الأرجاء ولا حتى خفاش.»

«والجنود؟»

«الجنود؟ أظنهم يشخرون في مضاجعهم.»

«والعصيانات... والاعتقالات...»

«خوف ذاك الرجل هو الذي رآها...»

«من في القصر؟»

«إنّما لاوي وزوجته. إنّهما في سلام مثل الأطفال. لقد فرّ الرجال المسلّحون... إيه! إيه! لدينا شجعان لا يهابون، بإيماني!... لقد فرّوا بمجرد أن علموا بالإدانة. أقول الحقّ: روما قاسية وتستعمل السوط... لكن بهذا تخيف وتُخدّم. ولديها رجال، وليس أرايب... آه! نعم! هو كان يقول: "سيعرف أتباعي مصيري نفسه". هوم! لو انضمّ كثير من الرومان إلى يسوع، هذا ممكن. أمّا لو استلزم الأمر شهداء من الإسرائيليين! فسيفي بمفرده... هذه حقيقتي. وهذه ليونّا، التي... نعم. نحن لسنا جنّاء فقط، بل كذّبة. ليونّا منهكة فقط. هي وإليز شعرتا بالتوعك على الجلجلة. الواحدة، أمّ رأت ابنها ميتاً، وبسماعها حشرات يسوع شعرت بتوعك. والأخرى رقيقة، لم تعتد على السير الطويل وتحت الشمس. ولكن لا جراح ولا احتضار. بالتأكيد هي تبكي مثلنا. ليس أكثر. وهي تتأسّف لابتعادها. وستأتي غداً وهي ترسل طيوبها، ما كان لديها. ومعها كانت قد مكثت فاليريا بأمر من بلوتينا، والآن رحلت مع العبيد إلى منزل كلوديا، ذلك أنّ لديها الكثير من البخور. وحينما تأتي، لأنّها هي أيضاً، شكراً للسماء، ليست أرنباً برياً يرتعش دائماً، لا تبدأ في الصراخ كما لو كنتنّ تشعرن بسيف ذي حدّين على رقابكن. هيّا، انهضن! لنأخذ الهاونات، ولنعمل. البكاء لن يجدي نفعاً، أو على الأقلّ ابكين واعملن. بلسمنا سترطّبه دموعنا، وسيشعر بها عليه... سيشعر بحبنا.» وتعصّ شفتيها حتّى لا تبكي ولتهب الشجاعة للأخريات، المنهكات حقّاً.

ويعملن بهمة.

مريم تستدعي يوحنا.

«أمّي، ما بك؟»

«هذه الضربات...»

«إنهنّ يسحقن البخور...»

«آه! ولكن... عذراً... لا تُصدِّروا هذه الضجة... تبدو لي أنّها المطارق...»

بالفعل المدفّات النحاسيّة على قدور الهاون تُصدّر حقّاً صوت المطارق.
يخبر يوحنا النساء فيخرجن إلى الدار حتّى يخفت الصوت.
يعود يوحنا إلى الأمّ.

«كيف حصلن عليه؟»

«مريم أخت لعازر ذهبت إلى قصرها وإلى يُونّا... وسيُجلب المزيد...»

«ألم يأت أحد؟»

«لم يأت أحد بعد نيقى.»

«ولكن انظر إليه يا يوحنا، كم هو جميل حتّى في ألمه هذا!» مريم
ويداها متشابكتان، مستغرقة أمام الوشاح الذي بسطته على صندوق وثبته
بأثقال.

«جميل، نعم يا أمّي. ويبتسم لك... لا تبكي بعد... ها قد مرّت عدّة
ساعات. ويقلّ زمن انتظار عودته...» ومع ذلك يبكي يوحنا...

تمسح مريم خذّه، وهي لا تنظر إلاّ إلى صورة ابنها. يخرج يوحنا، وقد أعمته الدموع.

كذلك المجدليّة، الّتي رجعت لتأخذ القوارير، كانت في نفس الظروف. ولكنّها تقول للرسول: «يجب ألا يرانا أحد نبكي، وإلاّ فإنّ هؤلاء لن يُحسِنَ فِعْلَ شيء بعد. وينبغي العمل...»

«...وينبغي الإيمان.» ينهي يوحنا.

«نعم، الإيمان. لو لم يكن بالإمكان الإيمان، لساد اليأس. أنا أوّمن. وأنت؟»

«وأنا أيضاً...»

«أنتَ تقولها بشكل سيّئ. أنتَ لا تحبّ بعد كفاية. فلو كنتَ تحبّ بكلّ ذاتك، فلا يمكنكَ ألا تؤمن. الحبّ هو نور وصوت، كذلك في مواجهة ظلمات الإنكار نفسه وصمت الموت يقول: "أوّمن".»

المجدليّة رائعة، فارعة للغاية وجليلة، حاسمة في اعترافها الإيمانِيّ! لا بدّ أنّ قلبها معذب، وعيناها اللتان تحرقهما الدموع تقولان ذلك، ولكنّ نفسها لم تُقَهَر.

ينظر إليها يوحنا بإعجاب ويهمس: «أنتِ شجاعة!»

«دائماً. كنتُ هكذا إلى درجة تحدّي العالم، وكنتُ بدون الله حينذاك. الآن وقد حصلتُ عليه هو، أشعر أنّني أستطيع أن أتحدّى حتّى الجحيم. أنتَ

الصالح، عليك أن تكون أكثر شجاعة مني. ذلك أن الخطيئة تُحبط، هل تعلم؟
أكثر من الهزال. ولكن أنت بريء... ولهذا كان يحبك كثيراً...»

«وكان يحبك كذلك...»

«وأنا لم أكن بريئة. ولكنني كنت غنيمة و...»

قرع شديد على الباب.

«إنها فاليريا، افتح.»

يفتح يوحنا بلا خوف، يسوده هدوء مريم.

فعلاً هي فاليريا مع عبيدها الذين يحملون المحفة التي نزلت منها.
تدخل وهي تحيي باللاتينية: «السلام [Salve].»

«السلام لك يا أخت، ادخلي.» يقول يوحنا.

«هل أستطيع أن أقدم للأُمّ تقدمة بلوتينا؟ وكلوديا ساهمت أيضاً. إن لم
تسبب رؤيتها لي ألماً.»

يدخل يوحنا عند مريم.

«من الطارق؟ بطرس؟ يهوذا؟ يوسف؟»

«لا، إنها فاليريا. لقد أحضرت راتنجاً ثميناً. وتودّ تقديمه لك... إن لم
يسبب لك هذا ألماً.»

«عليّ أن أسمو فوق الألم. هو دعا أبناء إسرائيل والوثنيين إلى ملكوته.
دعاهم جميعاً. الآن... هو مات... ولكنني أنا هنا من أجله، وسأستقبل الجميع.
فلتدخل.»

تدخل فاليريا. خلعت رداءها الداكن وهي ترتدي ثوباً ناصع البياض.
تنحني حتى الأرض، تحيي وتكلم: «سيدتي، أنت تعرفين من نحن. إننا أول
المفتديات من ظلمة الوثنية. لقد كنّا وحلاً وظلمة. ابنك منحنا أجنحة ونوراً.
الآن هو... يرقد في سلام. ونحن نعرف عاداتكم. ونريد أن تُصَبّ طيوب
روما أيضاً على الظافر.»

«فيلباركنّ الرب يا بنات ربّي. و... اغفرن لي إن كنتُ لا أعرف أن
أقول أكثر...»

«لا تجهدي نفسك يا سيدتي. روما قويّة، ولكنها تعرف كذلك أن تدرك
الحزن والحبّ. إنها تفهمك أيتها الأمّ المتألّمة. الوداع.»

«ليكن السلام معك يا فاليريا! ولبلوتينا، ولكنّ جميعاً، بركتي.»

تنسحب فاليريا تاركة بخورها وخلاصات أخرى.

«أترين يا أمّي؟ الجميع يقدّم لملك السماء والأرض.»

«نعم.» تقول مريم. «كلّ العالم. وأمّه لم تستطع أن تهبه سوى

الدموع.»

يصيح ديك فرحاً في مكان ما غير بعيد من هنا. ينتفض يوحنا.

«ماذا بك يا يوحنا؟» تسأل العذراء.

«كنت أفكر بسمعان بطرس...»

«ولكن ألم يكن معك؟» تسأل المجدلية التي دخلت الغرفة.

«بلى. في منزل حنان. ثم أدركت أنه كان عليّ أن آتي إلى هنا. وما عدتُ رأيته بعد ذلك؟»

«عما قليل ينبج الفجر.»

«نعم. افتحوا.»

يفتحون النوافذ، وتتبدى الوجوه أكثر هلعاً في شحوب نور الفجر الأخضر.

انتهت ليلة الجمعة المقدسة.

1- حنة التي لفانويل: معلّمة مريم في الهيكل.

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

27- (تأملات حول آلام يسوع ومريم)

إملاء الأحد 20 / 02 / 1944

الآن، وقد حلّ الليل، يقول يسوع:

«لقد رأيت مقدار تكلفة أن نكون مُخَلَّصِينَ. لقد رأيت ذلك فيّ وفي مريم. لقد أصبحت على دراية بكلّ عذاباتنا، ورأيت بأيّ بذل، بأيّة بطولة، بأيّ صبر، بأيّة وداعة، بأيّ ثبات، بأيّة صلابة قد كابدناها حبّاً بتخليصكم.

كلّ الذين يريدون، الذين يطلبون من الربّ الإله أن يجعل منهم "مُخَلَّصِينَ"، ينبغي أن يفكّروا جيّداً بأننا أنا ومريم القدوة، وأنّ هذه هي العذابات التي ينبغي مشاركتها لإتمام الخلاص. لن يكون ذلك بالصليب، الأشواك، المسامير، ضربات الشياطين الحسّية. بل ستكون عذابات أخرى، من شكل وطبيعة أخرى. إنّما ستكون مؤلمة ومُستنفِذة على حدّ سواء. وفقط باستنفاد الضحية عبر تلك الآلام يمكن أن تصبحوا مُخَلَّصِينَ.

إنّها رسالة مضيئة. الأكثر شقاءً. والحياة وفقاً للقاعدة الأكثر شظفاً لراهب أو لراهبة، مقارنةً بها، تشبه الزهرة مقابل كومة من الأشواك. فهي ليست قاعدة من نظام بشريّ، بل هي قاعدة لكهنوت، لرهبة إلهيّة، أنا هو مؤسّسهما، وأنا الذي أقّس وأقبل وفقاً لمنظومتني، مختاريها، وأضع عليهم ثوبي: الألم المطلق، وصولاً إلى التضحية.

لقد رأيت أوجاعي، لقد تأتت كيما أكفر عن خطاياكم. ما من موضع من جسدي كان مستثنى منها، لأن لا شيء في الإنسان يخلو من الخطيئة، وكل أجزاء أناكم الجسدية والمعنوية -تلك الأنا التي منحكم إياها الله بكمال صنيعته إلهية، والتي امتهنتموها بالخطيئة الأصلية، وبميولكم الشريرة، بإرادتكم الطالحة- هي أدوات تستخدمونها لارتكاب الخطيئة.

إنما أنا قد أتيت كي أمحو فيها عواقب الخطيئة بدمي وألمي، غاسلاً الأجزاء الفردية، الجسدية والمعنوية، كي أطهرها وأقويها ضد الميول الشريرة.

إن يدي قد جرحتا وقيدتا، بعدما أرهقهما التعب من حمل الصليب، كي أكفر عن كل الجرائم التي ارتكبتها يد الإنسان. ابتداءً من تلك الفعلية والذاتية المتمثلة بحمل وتوجيه سلاح ضد أخ، جاعلةً من كل واحد منكم قاييناً، إلى السرقة، تزييف الاتهامات، ارتكاب أفعال تعارض الاحترام تجاه أجسادكم وتجاه أجساد الآخرين، والتراخي في الكسل الذي هو بيئة مؤاتية لردائلكم. بسبب التحرر غير المشروع ليديكم قد جعلت يديّ تصلبان، مسمراً إياهما على خشبة، حارماً إياهما من كل حركة غير مشروعة وغير ضرورية.

قدَمي مخلصكم، بعد أن أنهكتا وسُحجتا على حجارة درب آلامي، قد تُقبتا، سُمرتا للتكفير عن كل الإثم الذي ترتكبونه بواسطة أقدامكم، جاعلين منها الوسيلة للمضي إلى جرائمكم، سرقاتكم، ردائلكم. لقد وسمتُ دروب، ساحات، منازل، أدراج أورشليم، كي أطهر كل دروب، ساحات، أدراج، منازل الأرض من كل الإثم الذي وُلد عليها وبداخلها، وقد بذرتة في العصور

الماضية وستبذره في العصور الآتية إراداتكم السيئة، منصاعة لتوجيهات الشيطان.

إنّ جسدي قد ترقط، تكدم، تمزق كي أعاقب في كلّ التعبد المتطرف، الوثنية التي أعطيتموها لأجسادكم وأجساد من تحبونهم بدافع من نزوة حسية، أو أيضاً بدافع من عاطفة هي في ذاتها لا تستحق اللوم، إنّما تغدو كذلك بأن تحبوا أحد الوالدين، زوج، ابن، أخ، بأكثر ممّا تحبون الله.

لا. فوق كلّ محبة وكلّ رابط على الأرض، هناك، يتوجب، أن تكون المحبة للربّ إلهكم. ليس، ليس من عاطفة أخرى ينبغي أن تسمو على هذه. أحبوا أحبائكم من خلال الله، لا بأكثر من الله. أحبوا الله بكلّ ذواتكم. إنّ ذلك لن يستنفذ محبتكم إلى درجة جعلكم غير مكثرين بأنسبائكم، بل هو بالأحرى سوف يغذي محبتكم تجاههم بالكمال المستمد من الله، لأنّ من يحبّ الله يحظى بالله فيه، وبامتلاكه الله يحظى بالكمال.

لقد جعلت من جسدي جرحاً كي أنزع من أجسادكم سمّ الحواس، عدم الاستحياء، عدم الاحترام، الانجراف وتعظيم الجسد المقدّر له أن يعود تراباً. ليست عبادة الجسد هي ما تجعله جميلاً، بل الانفصال عن الجسد هو ما يمنحه الجمال الأبديّ في سماء الله.

لقد تعذب رأسي بآلاف العذابات: بالضربات، بالشمس، بالصيحات، بالأشواك، كي أكفر عن خطايا فكريكم. إنّ الكبرياء، نفاذ الصبر، عدم الاحتمال، عدم التسامح، تتكاثر كما الفطريات في أدمغتك. لقد جعلت منه عضواً مُعذّباً، مُحْتَبَساً في نعش مزيّن بالدم، كي أكفر عن كلّ ما يصدر عن فكريكم.

لقد رأيت الإكليل الوحيد الذي أردته. إكليلٌ يمكن لمجنون وحده أو مُدان أن يضعه. ما من أحد سليم العقل (أتحدّث بمنطق بشريّ) وحرّ بنفسه، يفرضه على نفسه. إنّما قد تمّ اعتباري مجنوناً، وأنا، بشكل فائق الطبيعة، بشكل إلهيّ، كنتُ مجنوناً، بابتغائي الموت من أجلكم أنتم الذين لا تحبّونني، أو الذين تحبّونني قليلاً جدّاً، بابتغائي الموت كي انتصر على الشرّ فيكم عارفاً بأنكم تحبّونه أكثر من الله، وكنتُ فريسة الإنسان، سجينه، مُداناً من قبله. أنا، الله، كنتُ مُداناً من قبل الإنسان.

كم هو نافذ صبركم تجاه تفاهات، كم تغدون متناقضين بفعل سخافات، كم أنتم غير قادرين على احتمال وعكات بسيطة! إنّما انظروا إلى مخلصكم، تأملوا كم كان من المفترض أن يكون باعثاً على الاهتمام ذاك الوخز المتواصل للأشواك في مواضع جديدة، تشابكها مع خصلات الشعر، تحرّكها المتواصل دون إمكانيّة تحريك الرأس، عدم إمكانيّة إسناده بأيّة طريقة لا تسبّب له عذاباً! إنّما فكّروا ماذا كانت بالنسبة لرأسي المعذب، المتقرّح، المحموم، صيحات الجموع، الضربات على الرأس، الشمس الحارقة! إنّما فكّروا أيّما ألم كان يصيب عقلي المسكين، لقد مضيتُ إلى نزار الجمعة وأنا أساساً لستُ سوى ألم بفعل الجهد المبذول عشية الخميس، في عقلي المسكين حيث كانت تتصاعد حمّى كلّ الجسد الممزّق، والغثيان الذي أضرمه التعذيب!

وفي رأسي: عينايا قد حظيتا بالأمهما، وبآلامه حظي فمي، أنفي حظي بآلامه، وبآلامه لساني. كي أكفر عن نظركم التّوّاق لرؤية ما هو شرّير، الذي به ينسى البحث عن الله، كي أكفر عن الكثير والكثير من الكلام الكاذب

والقذر والفاسق، الذي تتفوّهون به بدلاً من أن تستخدموا شفاهكم للصلاة، للتعليم، للتعزية، وقد نال كلّ من الأنف واللسان عذابهما كي أكفر عن شراھتكم وشهوانيتكم الشّميّة، والتي عبرها أيضاً ترتكبون نواقص هي أرضيّة لخطايا أكبر، وترتكبون ذنوباً بالجشع لأطعمة تفوق الحاجة، دون التحلّي بالشفقة تجاه من هو جائع، أطعمة لا يمكنكم غالباً اقتناؤها إلّا باللجوء إلى مكاسب غير مشروعة.

وأعضائي الداخليّة لم تكن بمنأى من العذاب. ولا واحدة منها. اختناقات وسعال للرئتين بفعل كدمات الجلد البربري، والاستسقاء [احتباس الماء في خلايا نسيج الجسم] بسبب الوضعيّة على الصليب. إنهاك وألم في القلب المنزاح من مكانه والمتأذي من الجلد الوحشي، من الألم المعنوي الذي كان قد سبقه، من تعب الصعود تحت وطأة ثقل الخشب، من فقر الدم المتأثي من كلّ الدم المراق قبلاً. الكبد والطحال محتقان، الكليتان مكدومتان ومحتقتان.

لقد رأيت إكليل الكدمات الذي كان حول كليتي. إنّ علماءكم، لتقديم دليل بمواجهة إنكاركم للبرهان، الذي هو الكفن، على معاناتي، يشرحون كيف أنّ الدم، التعرّق الاحتضاري، اليُوريا [البولة] لجسد مضنيّ، بمزجها مع الحنوط، قد أمكنها أن تُنتج تلك اللوحة الطبيعيّة لجسدي المائت والمعذب.

كان من الأفضل الإيمان دونما حاجة لبراهين كثيرة. كان من الأفضل القول: "هذه صنعة إلهيّة" ومباركة الربّ الذي سمح لكم أن تمتلكوا البرهان القاطع على صلبي والعذابات التي سبقته!

إنّما، ولأنّكم الآن لم تعودوا تُحسِنون الإيمان بالبساطة التي للأطفال، بل تحتاجون لأدلة علميّة -كم هو مسكين إيمانكم الذي دونما مساندة وتحفيز العلم

لا يمكنه الوقوف والمشي- فاعلموا أنّ الصّدّامات الرّضيّة الهمجيّة لكليتيّ كانت العامل الكيميائيّ الأقوى في معجزة الكفن. إنّ كليتيّ، اللتين كادت ضربات السياط أن تسحقهما، لم تعودا قادرتين على تأدية وظيفتهما. كما تلك التي لأشخاص احترقوا بالنار، لم تعودا قادرتين على الترشيح، وتراكمت اليُوريا [البولة] وانتشرت في دمي، في جسدي، مسبّبة معاناتي التسمّم اليوريمي، والمركّب الكيميائيّ الذي نضح من جثماني ثبّت الانطباع على القماش. والطبيب منكم، أو مَنْ هو منكم مصاب بتَبَوّلن الدم [urémie]، يمكن أن يدرك أيّ معاناة قد سبّبتها لي السموم اليوريميّة، الغزيرة لدرجة أنّها كانت قادرة على إنتاج بصمة لا تمحى.

العطش. أيّ تعذيب هو العطش! وقد رأيت ذلك. لم يوجد واحد، من بين كثيرين، عرف أن يعطيني رشفة ماء. منذ العشاء فصاعداً، ما عدتُ حظيتُ بأيّة تغذية. والحمّى، الشمس، الحرارة، الأتربة، نزف الدم، كانت قد سبّبت عطشاً شديداً لمخلّصكم.

لقد رأيت رفضي للنبيذ المزوج بالمرّ. لم أرد أن ألطّف معاناتي. عندما نقدّم أنفسنا بمثابة ضحايا، ينبغي أن نكون ضحايا دون تدابير رحومة [مُخَفِّفة]، دونما مرونة، دونما تلطيف. ينبغي شرب الكأس تماماً كما قُدّمت. تذوّق الخلّ والمرارة حتّى بلوغ القاع. لا النبيذ المخدّر الذي يُسكّن الألم.

آه! إنّ مصير الضحيّة قاسٍ بحقّ! إنّما طوبى لمن يختاره على أنّه مصير له.

هذه هي آلام يسوعك في جسده البريء. ولا أكلمك عن عذاباتي المتأّتية من عاطفتي تجاه أمّي وبسبب تألّمها. كان لازماً ذاك الألم. إنّما بالنسبة لي

فقد كان التمزق الأكثر قسوة. ووحده الآب يعلم ما الذي كابده كلمته في روحه، في عقله، في جسده! كذلك تواجد أمي، فعلى الرغم من أنه كان أكثر ما رغبه قلبي الذي كان بحاجة لتلك التعزية في العزلة اللامحدودة التي كانت تحيط به، فإن العزلة اللامحدودة المتأتية من الله ومن البشر، قد كانت تعذيباً.

قد كان ينبغي أن تتواجد هناك، ملاكاً بشرياً لمنع اليأس من مهاجمتي كما كان قد منعه الملاك الروحي في جثسيماني، كان عليها أن تتواجد هناك لتوحيد ألمي مع ألمي من أجل فدائكم، كان عليها أن تتواجد هناك كي تتسلم منصبها كأُم للبشرية. إنما رؤيتها تموت مع كل جرح يصيبني كان ألمي الأعظم. فلا ألم الخيانة، ولا ألم الشعور بأنّ تضحيتي لن تكون مجدية لكثيرين، اللذين تبدّوا لي قبل ساعات قليلة عظيمين جداً لدرجة جعلي أتعرق دماً، كانا قابليْن للمقارنة بهذا.

لكنك رأيت كم كانت مريم عظيمة في تلك الساعة. إنّ التمزق لم يمنعها من أن تكون أقوى كثيراً من يهوديت. تلك قتلت. هذه جعلت نفسها تُقتل من خلال ابنها. ولم تلعن، ولم تكره. لقد صلت، لقد أحببت، لقد أطاعت. كانت أماً على الدوام، إلى درجة التفكير، وسط تلك العذابات، أنّ يسوعها كان بحاجة إلى وشاحها العذراوي على جسده البريء صوناً لحشمتها، هي أحسنت أن تكون بذات الوقت ابنة آب السماوات وأن تتحلّى بالطاعة لإرادته الثقيلة الوطأة لتلك الساعة. لم تجدف، لم تتثر، لا على الله، لا على البشر. لقد غفرت لهم. والله قالت: "لتكن مشيئتك".

وأيضاً قد سمعتها بعد ذلك: "أيها الآب، إنني أحبك وأنت أحببتنا!" إنها تتذكّر وتعلن أنّ الله قد أحبّها وتجدّد له فعل محبتها. في تلك الساعة! بعدما

طَعَنَهَا الْآبَ، وَطَعَنَهَا بِبَاعِثٍ وَجُودِهَا. إِنَّهَا تَحَبُّهُ. هِيَ لَا تَقُولُ: "لَمْ أَعِدْ أَحَبَّكَ لِأَنَّكَ ضَرَبْتَنِي". إِنَّهَا تَحَبُّهُ. وَهِيَ لَا تَتَظَلَّمُ بِسَبَبِ أَلَمِهَا، إِنَّمَا بِسَبَبِ الْأَلَمِ الَّذِي عَانَاهُ ابْنُهَا. إِنَّهَا لَا تَصْرُخُ لِأَجْلِ قَلْبِهَا الْمَمْرُوقِ، وَلَكِنْ بِسَبَبِ ثَقَبِ جَسَدِي. إِنَّهَا تَسْأَلُ الْآبَ عَنْ مَسَوِّغِ ذَلِكَ، لَا عَنْ مَسَوِّغِ أَلَمِهَا. تَسْأَلُ الْآبَ عَنْ مَسَوِّغِ ذَلِكَ بِاسْمِ ابْنِهِمَا.

إِنَّهَا بِحَقِّ عَرُوسِ اللَّهِ. إِنَّهَا بِحَقِّ الَّتِي حَمَلَتْ بِالِاتِّحَادِ مَعَ اللَّهِ. هِيَ تَعْلَمُ أَنَّ ابْنَهَا لَمْ يَكُنْ نَتِيجَةً اتِّصَالٍ بَشَرِيٍّ، بَلْ وَحْدَهَا النَّارُ الَّتِي نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ لِتَخْتَرِقَ أَحْشَاءَهَا الطَّاهِرَةَ وَتَضَعُ فِيهَا الْبَذْرَةَ الْإِلَهِيَّةَ، جَسَدَ الْإِنْسَانِ-اللَّهِ، جَسَدَ اللَّهِ-الْإِنْسَانِ، جَسَدَ فَادِي الْعَالَمِ. هِيَ تَعْلَمُ ذَلِكَ، وَكَعُرُوسٍ وَأُمٍّ تَطْلُبُ مَبْرَرًا لِذَاكَ الْجَرَحِ. الْجَرَّاحُ الْآخَرُ كَانَتْ لَازِمَةً، إِنَّمَا وَحَيْثُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ كَانَ قَدْ تَمَّ، فَلِمَاذَا هَذَا الْجَرَحُ؟

الْأُمُّ الْمَسْكِينَةُ! قَدْ كَانَ هُنَاكَ مَبْرَرًا، لَكِنْ أَلَمْ يَكُنْ لَمْ يَسْمَحْ لَكَ أَنْ تَقْرَأْهُ عَلَى جَرَحِي. إِنَّهُ كَيْ يَرَى الْإِنْسَانَ قَلْبَ اللَّهِ. أَنْتِ قَدْ رَأَيْتِهِ يَا مَارِيَا [فَالْتَوَرَّتَا]، وَلَنْ تَنْسِيَهُ أَبَدًا.

لَكِنْ، أَتَرِينَ؟ كَذَلِكَ مَرِيَمُ لَمْ تَرَ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ الْمَبْرَّرَ فَائِقَ الطَّبِيعَةِ لِذَاكَ الْجَرَحِ، تَفَكَّرَ عَلَى الْفُورِ بِأَنَّهُ لَمْ يَسَبِّبْ لِي أَلَمًا، وَتَبَارَكَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ. هِيَ لَمْ تَكْتَرِثْ أَنَّ ذَلِكَ الْجَرَحَ قَدْ سَبَّبَ لَهَا، الْأُمُّ الْمَسْكِينَةُ، أَلَمًا عَظِيمًا، كَانَ يَكْفِي بِالنِّسْبَةِ لَهَا أَنَّهُ لَمْ يَسَبِّبْ لِي أَلَمًا، وَتُبَارَكَ الرَّبُّ الَّذِي يَضْحِي بِهَا.

إِنَّهَا لَا تَطْلُبُ سِوَى الْقَلِيلِ مِنَ التَّعْزِيَةِ كَيْ لَا تَمُوتَ. فَهِيَ ضَرُورِيَّةٌ لِأَجْلِ الْكَنِيسَةِ النَّاشِئَةِ، الَّتِي جُعِلَتْ أُمًّا لَهَا مِنْذُ سَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ. إِنَّ الْكَنِيسَةَ، كَمَا مَوْلُودَ جَدِيدٍ، بِحَاجَةٍ لِلْعَنَایَةِ وَلِحَلِيبِ أُمُومِيٍّ. وَمَرِيَمُ سَتُعْطِيهِمَا لَهَا، عَاضِدَةً

الرُّسُل، مُحَدَّثَةٌ إِيَّاهُمْ عَنِ الْمَخْلُص، مَصْلِيَّةٌ لَهَا. وَلَكِنْ كَيْفَ يُمْكِنُ ذَلِكَ إِذَا مَا مَاتَتْ هَذَا الْمَسَاءَ؟ إِنَّ الْكَنِيسَةَ، الَّتِي عَلَيْهَا أَنْ تَلْبِثَ بَضْعَةُ أَيَّامٍ دُونَ رَئِيسِهَا، سَوْفَ تَغْدُو يَتِيمَةً تَمَاماً إِذَا مَا مَاتَتِ الْأُمُّ أَيْضاً. وَمَصِيرُ حَدِيثِي الْوِلَادَةِ الْإِيْتَامُ هُوَ مَصِيرُ مُتَقَلِّقٍ عَلَى الدَّوَامِ.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخِيبُ أَبَداً صَلَاةَ صَادِقَةٍ وَيُعْزِي أَبْنَاءَهُ الَّذِينَ يَرْجُونَهُ. إِنَّ مَرْيَمَ قَدْ تَيَقَّنَتْ مِنْ ذَلِكَ فِي التَّعْزِيَةِ الَّتِي تَأْتَتْ مِنْ وَشَاحِ فَيْرُونِيكَ. هِيَ، الْأُمُّ الْمُسْكِينَةِ، قَدْ انْطَبَعَتْ فِي عَيْنِهَا صُورَةٌ وَجْهِ الْمُنْطَفِئِ. إِنَّهَا مَا عَادَتْ قَادِرَةً عَلَى تَحْمِلِ تِلْكَ الرُّؤْيَا. إِنَّ ذَاكَ، الْهَرَمَ، الْمُتَوَرِّمَ، ذَا الْعَيْنَيْنِ الْمَقْفَلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ لَا تَنْتَظِرَانِ إِلَيْهَا، ذَا الْفَمِ الْمَلْتَوِي الَّذِي لَا يَكْلَمُهَا وَلَا يَبْتَاسِمُ لَهَا، مَا عَادَ بَعْدَ يَسُوعِهَا. إِنَّمَا هِيَ هِيَ ذَا وَجْهَ لِيَسُوعِ الْحَيِّ. مُتَأَلِّمٌ، مَجْرُوحٌ، إِنَّمَا حَيٌّ بَعْدَ هِيَ هُوَ نَظَرُهُ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَيْهَا، فَهِيَ الَّذِي كَمَا لَوْ أَنَّهُ يَقُولُ: "مَامَا!". هِيَ هِيَ ابْتِسَامَتُهُ الَّتِي تُحْيِيهَا بَعْدَ.

أَه! يَا مَارِيَا [فَالْتَوَرَّتَا]! ابْحَثِي عَنْ يَسُوعِ فِي الْمَلِكِ. هُوَ سَيَأْتِي دُوماً وَيَنْظُرُ إِلَيْكَ، سَيُنَادِيكَ، سَيَبْتَاسِمُ لَكَ. سَوْفَ نَتَشَارَكُ الْأَلَمَ، لَكُنَّا سَنَكُونُ مُتَّحِدِينَ!

أَه، يَا يُوْحَنَّا الصَّغِيرَةَ [مَارِيَا فَالْتَوَرَّتَا]، لَقَدْ تَشَارَكْتَ الْأَلَمَ مَعَ يَسُوعَ وَمَعَ مَرْيَمَ. كُونِي كَمَا يُوْحَنَّا، عَلَى الدَّوَامِ. كَذَلِكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ. لَقَدْ سَبَقَ أَنْ قُلْتُ لَكَ: "لَنْ تَكُونِي عَظِيمَةً بِسَبَبِ التَّأَمُّلَاتِ وَالْإِمْلَاءَاتِ، فَتِلْكَ هِيَ لِي، بَلْ لِأَجْلِ مَحَبَّتِكَ. إِنَّ الْمَحَبَّةَ الْأَكْثَرَ سَمَوّاً هِيَ مِشَارَكَةُ الْأَلَمِ". إِنَّ هَذَا يُنْمَحُ إِمْكَانِيَّةً اسْتِشْعَارِ أَبْسَطِ رَغْبَاتِ اللَّهِ وَجَعَلَهَا حَقِيقَةً وَاقِعَةً مَهْمَا كَانَتْ الصَّعَابُ.

انظري بأية رهافة رقيقة وحيوية قد تَصَرَّفَ يوحنا من ليلة الخميس إلى ليلة الجمعة. وما بعد ذلك. فلنتأمل في تلك الساعات.

برهة من الارتباك. ساعة من الخمول. إنما، إذ انتصر على التبدل بفعل رجفة الاعتقال وارتعاش المحبة، يأتي، يأخذ معه بطرس، كيما يتعزى المعلم بروية رئيس رُسُلِهِ ورسوله المفضل.

ثم يفكر بالأم، التي قد يهتف إليها أحد عديمي الرحمة نبأ حدوث الاعتقال. وها هو يمضي إليها. إنه لا يعلم أن مريم كانت تعيش بالفعل تمزقات الابن، وأنها، بينما كان الرُّسُلُ ينامون، كانت ساهرة وتصلّي، مُنَارِعَةً مع ابنها. هو لا يعلم ذلك. ويمضي إليها ويهيئها للنبا.

ثم يتنقل بين منزل قيافا ودار الولاية، منزل قيافا وقصر هيرودس، ومجدداً من منزل قيافا إلى دار الولاية. والقيام بذلك في ذاك الصباح، شاقاً طريقه عبر الحشود السكري بالكراهية، مرتدياً ملابس تشير إلى أنه جليلي، لم يكن أمراً يبعث على الاطمئنان. لكن المحبة تشدد عزمه، ولا يفكر بنفسه، بل بآلام يسوع وأمه. كان يمكن أن يُرجم كونه من أتباع الناصري. لا يهم. إنه يتحدى كل شيء. الآخرون قد هربوا، إنهم يختبئون، منقادين بالاحتراس والخوف. هو تقوده المحبة، يبقى ويُظهر نفسه. إنه طاهر، والمحبة تزدهر في الطهر.

وإذا ما كانت شفقتة وحسّه الشعبيّ السليم قد حثاه على إبقاء مريم بعيداً عن الحشود وعن دار الولاية - هو لا يعلم أن مريم تشارك ابنها كل آلامه، تقاسيها روحياً - فهو عندما قدّر أن الساعة التي يحتاج فيها يسوع لأمه قد

حانت، وأَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِبْقَاءُ الْأُمِّ مُنْفَصِلَةً عَنِ الْابْنِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ، فَهُوَ يَقُودُهَا إِلَيْهِ، يَسَانِدُهَا، يَحْمِيهَا.

مَاذَا تُشَكِّلُ هَذِهِ الْحَفَنَةُ مِنَ الْأَشْخَاصِ الْأَوْفِيَاءِ: رَجُلٌ وَحِيدٌ، لَا حَوْلَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ، فَتًى، بَلَا نَفُوزَ، عَلَى رَأْسِ قَلَّةٍ مِنَ النِّسَاءِ، مُقَارِنَةً بِحُشْدِ هَائِجٍ؟ لَا شَيْءَ. كُومَةُ أَوْرَاقٍ يُمْكِنُ لِلرِّيحِ أَنْ تَبْعَثَرَهَا. قَارِبٌ صَغِيرٌ وَسَطٌ مُحِيطٌ عَاصِفٌ يُمْكِنُهُ إِغْرَاقُهُ. لَا يَهَمُّ. إِنَّ الْمَحَبَّةَ هِيَ قُوَّتُهُ وَشِرَاعُهُ. إِنَّهُ مُسَلَّحٌ بِهَا، وَبِهَذِهِ يَحْمِي الْمَرْأَةَ وَالنِّسَاءَ حَتَّى النِّهَايَةِ. إِنَّ يُوْحَنَّا قَدْ اِمْتَلَكَ الْمَحَبَّةَ الرَّحُومَةَ كَمَا لَمْ يَمْتَلِكْهَا أَحَدٌ آخَرٌ فِي الْعَالَمِ بِاسْتِثْنَاءِ أُمِّي. إِنَّهُ رَائِدٌ مَنْ يَمْتَلِكُونَ هَكَذَا مُحَبَّةً. إِنَّهُ مُعَلِّمٌ بِهَذَا الْأَمْرِ. اتَّبِعِيهِ فِي الْمِثَالِ الَّذِي يَقْدِّمُهُ لَكَ بِالطَّهَارَةِ وَالْمَحَبَّةِ، وَسَتَكُونِينَ عَظِيمَةً.

الآن اذهبي بسلام، أباركك.»

1945 / 04 / 07

يقول يسوع:

«...وحيث أَنَّنِي أَتَوَقَّعُ مَلاحِظَاتٍ كَثْرًا مِنْ توما وَمِنْ كَتَبَةِ الزَّمَنِ الْحَالِيِّ عَلَى جُمْلَةٍ ضَمِنَ إِمْلَاءِ الْأَحَدِ 20 / 02 / 1944، وَالَّتِي تَبْدُو مُتَعَارِضَةً مَعَ رَشْفَةِ الْمَاءِ الَّتِي قَدَّمَهَا لَوْنَجِينَ... -آه! كَمَا نَاكِرِي الْفَائِقَ لِلطَّبِيعَةِ، إِنَّ عَقْلَانِيَّيِ التَّعَارُضِ مَعَ الْكَمَالِ، لَسَوْفَ يَغْتَبِطُونَ لَتَمَكَّنَهُمْ مِنْ إِيجَادِ صَدْعٍ فِي التَّنَاسُقِ الرَّائِعِ لَصَنِيعَةِ الصَّلَاحِ الْإِلَهِيِّ هَذِهِ وَلِتَضَحِيَّتِكَ يَا يُوْحَنَّا الصَّغِيرَةَ، كَيْ يَتَمَكَّنُوا، مُسْتَفِيدِينَ مِنْ هَذَا الصَّدْعِ لِأَعْمَالِ فَأْسِ عَقْلَانِيَّتِهِمُ الْقَاتِلَةِ، لَهْدَمِ كُلِّ شَيْءٍ!- فَلَكَ أَمْنٌ ذَلِكَ، أَقُولُ وَأُشْرِحُ.

إنّ رشفة الماء المسكينة تلك -قطرة في نار الحمى وفي جفاف الأوردة المُفَرَّغة- التي قَبِلْتُها بدافع محبة تجاه نفس كان يتوجّب إقناعها بالمحبة لجذبها إلى الحقّ، المأخوذة بعناء عظيم بسبب اللهاث الشديد الذي كان يخنق أنفاسي ويعرقل البلع، والجَدّ الشنيع الذي سحقني، لم تمنحني سوى تغذية فائقة للطبيعة. بالنسبة لجسدي قد كانت عديمة الجدوى، كي لا أقول تعذيباً... إنّ عطشي وقتها كانت يتطلّب أنهاراً... ولم أكن أستطيع أن أشرب بسبب كرب معاناة الآلام الصدرية. وأنتِ تعلمين ما هو هذا الألم. قد كانت تتطلّب أنهاراً، لكنّها لم تُعط لي. وما كنتُ لأستطيع شربها بسبب الاختناق المتعاضم باطراد. إنّما أيّ تغذية كانت لتمنح قلبي لو أنّها كانت قد قدّمت لي! كنتُ أموت بسبب المحبة، بسبب محبة لم تمنح لي. إنّ الرأفة محبة هي. وفي إسرائيل لم تكن هناك رأفة.

عندما تتأمّلون، أنتم الطيّبين، أو تُحلّلون، أنتم المتشكّكين، تلك "الرشفة"، أعطوها الاسم الصحيح "رأفة"، لا شراباً. لذلك يمكن القول، دونما التورّط بالكذب، أنّي: "منذ العشاء فصاعداً لم أحظ بتغذية". من بين كلّ الناس الذين كانوا يحيطون بي لم يوجد ولا شخص واحد قد تحلّى بالتعاطف تجاهي، حيث أنّي لم أرغب بتناول النبيذ المخدّر. لقد نلتُ الخلّ والسخرية. نلتُ الخيانة والضرب. هذا ما نلّته. لا شيء آخر...»

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

28- (السبت المقدس، ا- النهار)

1945 / 03 / 30

ينبلج الفجر متردداً، بصعوبة. والشروق يتأخر بغرابة رغم عدم وجود غيوم في السماء. وتبدو النجوم وكأنها فقدت كل حيوية لها. وكما كان القمر شاحباً أثناء الليل، فكذاك باهتة هي الشمس أثناء شروقها. إنهما مغشيان... ربما بكيا هما أيضاً، كي يكون لهما هذا المظهر المغشى كما الذي لأعين الصالحين الذين بكوا ويكون موت الرب؟

ما أن يدرك يوحنا أن الأبواب قد فُتحت، حتى يخرج، صامماً أذنيه عن التوسّلات الأمومية. تعتصم النساء في المنزل وهنّ أكثر خوفاً، خاصّة الآن وقد مضى الرسول أيضاً.

مريم ما تزال في غرفتها، اليدان مستسلمتان فوق الركبتين، تنظر بثبات من النافذة المفتوحة، التي تطلّ على حديقة متوسطة الاتساع، مليئة بالأزهار المتفتحة على مدى الأسوار المرتفعة وبمساكب الزهور الغريبة. أمّا باقات الزنبق، فهي على العكس، ليس لها سيقان الزهور المستقبلية، كثيفة، جميلة، إنّما ليس فيها سوى أوراق. إنّها تحدّق، وتحّدق وأظنّها لا ترى شيئاً سوى ما هو داخل عقلها المسكين المتعب: احتضار ابنها.

تروح النساء ويجئن. يقتربن منها، يلاطفنها، يتوسّلن إليها كي تقتات... وفي كلّ مرّة يأتين إليها، تفوح منهنّ أمواج من عطر ثقيل، ممزوج، مسبّب للدّوار.

مريم ترتعش في كلّ مرّة، إنّما لا شيء آخر. لا كلمة، لا حركة، لا شيء. إنّها منهكة. تنتظر. ليس لديها سوى الانتظار. إنّها المُنتظرة.

طَرَقَ على الباب... تهرع النسوة ليفتحن. تلتفت مريم من على كرسيّها دون أن تقف وتحقّق بالباب المُوارب.

تدخل المجدليّة. «إنّه مَنّاين... يودّ لو نطلب منه خدمة ما.»

«مَنّاين... دعيه يدخل. لقد كان إنساناً صالحاً على الدوام. لكنني كنتُ أظنّ أنّه لم يكن هو...»

«مَن كنتِ تظنّين أنّه هو يا أمّي؟...»

«فيما بعد... فيما بعد. دعيه يدخل.»

يدخل مَنّاين. ليس بذي أبهة كالمعتاد. إنّهُ يلبس ثوباً عادياً، كستنائياً أقرب للأسود، ومعطفاً مماتلاً. بلا جواهر ولا سيف. لا شيء. يبدو شخصاً ميسوراً ولكن من الشعب.

ينحني للتحية، بداية يداه متصالبتان على صدره، ثمّ يركع كما أمام مذبح.

«انهض وسامحني لعدم الإجابة على الانحناء. لستُ قادرة...»

«لا ينبغي لكِ ذلك. وأنا ما كنتُ لأسمح به. تعلمين مَن أكون. لذلك أتوسّل إليك أن تعتبريني خادماً لك. هل أنتِ بحاجة إليّ؟ أرى أنّ ما من رجل حولك. أعلم من نيقوديموس أنّ الجميع فرّوا. لم يكن من شيء يُفعل،

هذا صحيح، ولكن على الأقلّ منحه المواساة برويتنا. أنا... أنا، حيّته عند ميدان التدريب المسقوف، ثمّ لم أستطع، لأنّ... ولكن لا جدوى من القول. هذا كذلك أراد الشيطان. الآن أنا حرّ وأتيت لأكون في خدمتك. أوامرك يا امرأة.»

«أودّ أن أعلم وأعلم لعازر.. أخته قَلَّتَان، وسلفتي ومريم الأخرى أيضاً. نودّ أن نستعلم عن سلامة لعازر، يعقوب، يهوذا [يوضاس] ويعقوب الآخر.»

«يهوذا؟ الاسخريوطي! ولكنّه خان!»

«يهوذا [يوضاس] ابن أخ زوجي.»

«آه! سأذهب.» وينهض. ولكن بينما هو يقوم تبدر منه إيماءة ألم.

«ولكن هل أنت مجروح؟»

«هوم!... نعم. إنّما ليس بالأمر الهام. ذراعي تؤلمني قليلاً.»

«أيمكن أن يكون هذا بسببنا؟ ألهذا لم تكن هناك بالأعلى؟»

«نعم، لهذا. ولذلك فقط أنا أتألم، وليس بسبب الجرح. لقد خَرَجْتُ مع ذاك الدم كلّ بقايا الفرّيسيّة والعبريّة والشيطانيّة التي كانت في داخلي، لأنّ الشيطانيّة صارت ديانة إسرائيل. أنا مثل الطفل الذي بعد أن قُطِعَ حبله السريّ، لم يعد له صلة بدم الأمّ، والقطرات القليلة المتبقّية في الحبل المقطوع لا تدخل إليه، وقد منعها حبل الكتّان. لكنّها تسقط... إذ أضحت بلا جدوى. الوليد يعيش بقلبه ودمه. هكذا أنا. حتّى الآن لم أكن قد اكتملتُ تماماً. والآن

وصلتُ إلى النهاية، وأُتيْتُ، وأبصرتُ النور. لقد وُلِدْتُ بالأمس. أُمِّي يسوع الناصريّ. وَوَلَدَنِي حينما صرخ صرخته الأخيرة. أعلم... لأنني هربتُ إلى منزل نيقوديموس هذه الليلة. فقط أودّ رؤيته. آه! حينما ستذهبون إلى القبر، أخبروني. سأتي... فأنا أجهل وجهه، وجه الفادي!»

«هو ينظر إليك يا مَناين. استدر.»

الرجل الذي كان قد دخل إلى الغرفة محنيّ الرأس ولم تبرح عيناه مريم، يستدير شبه مذعور ويرى الكفن. فيرتمي أرضاً ليتعبّد...

ويبكي. ثمّ ينهض، ينحني أمام مريم ويقول: «أمضي.»

«ولكنّه السبت. أنتَ تعلم. إنّنا متّهمون أصلاً بانتهاك الشريعة بتحريض

منه.»

«نحن متشابّهون، ذلك أنّهم ينتهكون شريعة الحبّ. الأولى والأعظم. هو كان يقول ذلك. فليُعزّك الربّ.» ويخرج.

وتمرّ الساعات. كم هي بطيئة على مَنْ ينتظر...

تنهض مريم وهي تتكئ على الأثاث، وتتقدّم حتّى المدخل. تحاول اجتياز الرواق الواسع للمدخل. ولكنها حينما لا تعود تجد ما تتكئ عليه، تترنّح كما لو كانت مخمورة. مرثاء، التي تراها من الباحة الواقعة ما وراء المدخل المفتوح في طرف الرواق، تجري.

«إلى أين تريدان الذهاب؟»

«هناك، إلى الداخل. لقد وعدتموني بذلك.»

«انتظري يوحنا.»

«يكفي هذا الانتظار. ترون أنني هادئة. اذهبوا، حيث أنكم اقفلتم من الداخل، وافتحوا. أنا أنتظر هنا.»

سُوسَنَّة، إذ أنهنَّ هرعن جميعهنَّ، تمضي لجلب صاحب المنزل ومعه المفاتيح. في هذه الأثناء تتكئ مريم على الباب الصغير كما لو كانت تريد فتحه بقوة إرادتها. ها هو الرجل. خائف، محبط، يفتح وينسحب. ومريم، متكئة على ذراعي مرثا ومريم التي لحفى، تدخل إلى قاعة العشاء.

كلّ شيء ما يزال كما كان في نهاية العشاء. إنّ تتابع الأحداث والأمر الذي أعطاه يسوع حالا دون أيّ تغيير. فقط المقاعد أُعيدت إلى مكانها، ومريم، التي لم تكن في القاعة، تتّجه مباشرة إلى المكان الذي كان يجلس فيه يسوعها. تبدو وكأنّ يداً تقودها. تبدو كالسائرة أثناء نومها لصلابة سعيها في المضيّ إليه... تمضي، تدور حول الأريكة، تنسلّ بينها وبين المائدة... تبقى واقفة للحظة ثمّ تنطرح على الطاولة بانفجار بكاء. ثمّ تهدأ. تركع وتصلّي، رأسها مستند على حافة الطاولة. تلامس المفروش، المقعد، الآنية، حافة الطبق الكبير حيث كان الحَمَل، السكّين الكبير الذي استُخدم في التقطيع، الجرة الموضوعة أمام هذا المكان. لم تعلم أنّها تلمس ما لمسه الاسخريوطيّ أيضاً. ثم تلبث كالمذهولة، رأسها متكئ على ذراعيها المتصالبتين، اللتين وضعتهما على المائدة.

يصمت الجميع، إلى اللحظة التي تقول فيها سلفتها: «تعالى يا مريم.
لنخس اليهود. هل تريدون أن يدخلوا هنا؟»

«لا، لا. إنه مكان مقدّس. هيّا. ساعدوني... أحسنتم بإخباري ذلك. أريد
كذلك صندوقاً، جميلاً، كبيراً، مُحكماً كي أحفظ كل كنوزي.»

«غداً سيتم جلبه لك من القصر. إنه الأجمل في المنزل. صندوق متين
ومُحَكَّم. أعطيه لك بكل سرور.» تعد المجدليّة.

يخرجن. مريم منهكة بحق. تترنّح وهي تصعد الدرجات القليلة. وإن
كان ألمها أقلّ مأساويّة، فلأنّها لم تعد تمتلك القوّة لذلك. ولكنّها في سكونها،
تظلّ أكثر مأساويّة.

يعاودن دخول الغرفة التي كنّ فيها سابقاً، وقبل أن ترجع إلى مكانها،
تلمس مريم وجه الكفن المقدّس، كما لو كان وجهاً من لحم.

طرّق آخر على الباب. تسرع النسوة في الخروج وفتح الباب. تقول
مريم بصوتها المتعب: «إذا كان التلاميذ وخاصّة سمعان بطرس ويهوذا،
فليدخلوا عليّ في الحال.»

ولكنّه الراعي إسحاق. يدخل بعد بضعة دقائق باكياً وعلى الفور يسجد
أمام الكفن ثمّ أمام الأمّ، ولا يجد ما يقوله. هي التي تقول: «شكراً. لقد رآك
ورأيتك. أعلم. لقد نظر إليكم قدر المستطاع.»

يبكي إسحاق بأكثر شدّة. لم يقدر على الكلام إلا حينما انتهى من البكاء.
«لم نكن نريد الانصراف، ولكن يوناتان توسّل إلينا. كان اليهود يهدّدون

النسوة.. ثم لم نعد نستطيع الرجوع. كان... كان كل شيء قد انتهى... إلى أين كان ينبغي أن نذهب حينئذ؟ تفرّقنا عبر الحقول، وحينما حلّ الليل، اجتمعنا في منتصف الطريق بين أورشليم وبيت لحم. وكان يبدو لنا إبعاد موته بذهابنا إلى مغارته... إنّما بعد ذلك، شعرنا أنّ ليس من الصواب الذهاب إلى هناك... كان من الأنانيّة، ورجعنا إلى المدينة... ووجدنا أنفسنا في بيت عنيا دون أن ندري كيف...»

«أبنائي!»

«لعازر!»

«يعقوب!»

«الجميع هناك. كانت حقول لعازر في الفجر مليئة بقوم تائهين يكون... أصدقائه وتلاميذه عديمي النفع!... أنا... ذهبتُ إلى لعازر وكنتُ أظنّني الأوّل... أبدأ، كان هناك ابنك يا امرأة، وابنك، مع أندراوس، برتلماوس، متى. سمعان الغيور هو الذي كان قد أقنعهم بالذهاب إلى هناك. ومكسيمين، إذ خرج باكراً عبر الريف، وجد آخرين. ولعازر أعانهم جميعاً. وهو ما يزال مشغولاً بهم. يقول إنّ المعلّم كان قد أمره بذلك، والغيور يقول الشيء ذاته.»

«ولكن سمعان ويوسف، ابناي الآخراّن، أين هما؟»

«لا أعلم يا امرأة. لقد بقينا معاً إلى أن حدث الزلزال. بعد ذلك... لم أعد أعلم شيئاً على وجه الدقّة. وسط الظلمات والبروق والأموات القائمين وزلزلة الأرض والإعصار، فقدتُ صوابي. وجدتُ نفسي في الهيكل. ولا أزال أتساءل كيف استطعتُ أن أكون هناك في الداخل، وراء الحدّ المقدّس.

تصوّري أنّ بيني وبين هيكَل الطيوب، لم يكن سوى ذراع... تصوّري! حيث كانت قدمي كان المكان المخصّص لكهنة الخدمة! و... ورأيتُ قدس الأقداس!... نعم. لأنّ حجاب القدس قد تمزّق من أعلى إلى أسفل، كما لو أنّ إرادة عملاق قد مزّقه... لو أنّهم رأوني في الداخل لرُجمتُ. ولكن لم يكن أحد يرى بعد. لم أصادف سوى أشباح أموات وأشباح أحياء. إذ إنّهم كانوا يبدون أشباحاً في وميض البروق، وفي وهج الحرائق ومع الرعب على الوجوه...»

«آه! سمعاني! يوسف!»

«وسمعان بطرس؟ ويهوذا الاسخريوطي؟ وتوما وفيلبس؟»

«لا أعرف يا أمّي... أرسلني لعازر لأرى، إذ قد قيل له أنّهم... أنّهم كانوا قد قتلوكنّ.»

«اذهب على الفور إذن لتهدئي روعه. لقد سبق أن أرسلتُ منّابين. ولكن اذهب أنت أيضاً وقل... وقل إنّ الوحيد الذي قُتل. وأنا معه. وإن رأيت تلاميذ آخرين اصطحبهم معك إلى هناك. أمّا الاسخريوطي وسمعان بطرس فأريدهما أنا.»

«أيتها الأمّ... اغفري لنا إن لم نفعل أكثر.»

«أغفر كلّ شيء. اذهب.»

يَخرج إِسحاق، وتخنقه مرثا ومريم، سالومة ومريم الّتي لحلفى بالرجاء والتوصيات والأوامر. أمّا سُوَسَنّة فتبكي بهدوء لأنّ أحداً لم يحدثها عن زوجها. حينئذ تتذكّر سالومة زوجها وتبكي هي الأخرى.

صمت من جديد إلى أن يُطرق الباب مجدداً.

وبما أنّ المدينة ساكنة، كان خوف النسوة أقلّ. ولكن ما أن فُتح الباب ولاح وجه لونجين الحليق، حتّى هرب الجميع كما لو أنّهنّ كنّ رأين ميتاً في كفنه أو الشيطان شخصياً. صاحب البيت الّذي كان يتسكّع في الرواق، كان أوّل الهاربين.

إذاك تهرع المجدليّة الّتي كانت مع مريم. ولونجين بابتسامة صغيرة ساخرة لا إراديّة على شفّتيه، دخل، وهو ذاته أغلق الباب الثقيل. لم يكن باللباس الرسميّ، بل عليه حلّة رماديّة قصيرة، تحت رداء داكن أيضاً.

تتبادل مريم المجدليّة ولونجين النظرات. ثمّ، وهو ما يزال مستنداً على الباب، يسأل: «هل يمكنني الدخول دون تدنيس أو إخافة أحد؟ رأيتُ هذا الصباح عند الفجر يوسف الّذي حدّثني عن رغبة الأمّ. أطلب المعذرة لأنني لم أفكر بذلك من نفسي. ها هو الرمح. احتفظتُ به كتذكّار من... قدّيس القديسين. آه! من جهة هذا، هو كذلك! ولكن من العدل أن يكون للأمّ. أمّا بالنسبة للملابس... فهذا أصعب. لا تقولي لها ذلك... ربما بيعت بالفعل ببضعة دراهم... فهذا من حقّ الجنود، ولكنّي سأحاول أن أجدها...»

«تعال. هي هناك.»

«ولكن أنا وثني!»

«لا يهّم. أذهب لأخبرها إن رغبتَ في ذلك.»

«آه! لا... لم أكن أفكر أنني أستحق ذلك.»

تمضي مريم المجدليّة إلى العذراء. «أمّي، لونجين هنا بالخارج... وهو
يقدم لك الرمح.»

«دعيه يدخل.»

صاحب البيت، الواقف عند العتبة، يتذمّر: «إنه وثنيّ.»

«أنا أمّ الجميع يا رجل، كما هو فادي الجميع.»

يدخل لونجين، وعلى العتبة يحييها على الطريقة الرومانيّة بحركة من
ذراعه (خلع رداءه) ثمّ كلاميّاً: السلام لك سيّدي. رومانيّ يحييك: يا أمّ
الجنس البشريّ. الأمّ الحقيقيّة. لم أرد أن أكون أنا الذي... الذي... ذاك الأمر،
ولكنني كنتُ مأموراً. إنّما، لو أُتيح لي أن أقدم لك ما ترغبين، فإنّني أعذر
القدر لاختياره لي لهذا الأمر المريع. ها هو ذا.» ويعطيها الرمح الملفوف
في شرشف أحمر، الحديد فقط، وليس الذراع.

تأخذه مريم وقد زاد شحوبها. تختفي شفاهها من الشحوب. تبدو وكأنّ
الرمح أفقدها دمها. حتّى شفاتها ترتعش وهي تقول: «فليقدك إليه
لصالحك.»

«كان البارّ الوحيد الذي التقّيته في امبراطوريّة روما الواسعة. أنا آسف
لعدم تعرّفي عليه إلّا من خلال أحاديث رفاقي. الآن... الوقت متأخّر جدّاً!»

«لا يا بنيّ. هو انتهى من التبشير. ولكنّ بشارته باقية، في كنيسته.»

«وأين هي كنيسته؟» لونجين متهمّ قليلاً.

«إنّها هنا. اليوم ضُربت وتشتّتت، إنّما غداً فستجتمع مجدّداً كالشجرة التي تعيد ترتيب أوراقها بعد العاصفة. وحتىّ إن لم يبقَ إنسان، فأنا موجودة. وبشارة يسوع المسيح، ابن الله وابني، مكتوبة كلّها في قلبي. ليس عليّ سوى النظر إلى قلبي كي أتمكّن من أن أردّها.»

«سأتي. إنّ ديناً رئيسه مثل هذا البطل لا يمكن إلّا أن يكون ديناً إلهياً. السلام لك سيّدي!»

يمضي لونجين كذلك.

تُقبّل مريم الرمح حيث ما تزال آثار دم ابنها... وهي لا تريد مسح هذا الدم «ياقوت الله على الرمح الوحشيّ.» كما تقول...

وهكذا يمضي اليوم وسط انقشاعات وزخّات مطر عاصفة.

يرجع يوحنا فقط حينما صارت الشمس عموديّة مُعلنة أنّه الظّهر.

«أمّي، لم أجد أحداً، ما عدا... يهوذا الاسخريوطيّ.»

«أين هو؟»

«آه! أمّي! يا له من هول! كان متدلّياً من شجرة زيتون، منتفخاً ومسوداً كما لو كان ميتاً منذ أسابيع. متحلّلاً، رهيباً... فوقه العقبان والغربان، ما أدري، تصيح في شجار فظيع... ضجّتهم هي التي جذبتني إلى ذلك الاتجاه.»

كنتُ على طريق جبل الزيتون، وعلى أحد المنحدرات رأيتُ دوّامات الطيور السوداء تلك. فذهبتُ إليها... لماذا؟ لستُ أعلم، ورأيتُ. يا للهول!...»

«يا للهول! تحسّن القول. ففوق الصلاح هناك العدل. بالفعل الصلاح غائب في هذه الآونة... ولكن بطرس! بطرس!... يوحنا، لديّ الرمح. ولكن الملابس.. لونجين لم يحدّثني عنها.»

«أمّي، أنوي الذهاب إلى جثسيماني. لقد قبض عليه بدون رداء. قد يكون ما يزال هناك. ثم سأذهب إلى بيت عنيا.»

«اذهب، اذهب من أجل الرداء... الآخرون عند لعازر. فليس هناك داع للذهاب إلى لعازر إذاً. اذهب وارجع إلى هنا.»

يمضي يوحنا جرياً، دون أن يأخذ قوتاً. كما مريم هي صائمة. النسوة أكلن خبزاً وزيتوناً وهنّ واقفات يعملن بطيوبهنّ.

تصل يُونّا امرأة خُوزي مع يوناثان. ملامحها قد تبدّلت بسبب الدموع. وما أن ترى مريم تقول: «لقد أنقذني! أنقذني ومات هو! أمّا الآن فأودّ لو لم أنقذ!»

والأمّ الحزينة هي التي عليها أن تواسي هذه الابنة المبرأة، إنّما التي ما تزال تحتفظ بحساسية مرّضية. تواسيها وتقوّيها قائلة لها: «لو لم تعرفيه وتحبّيه لما أمكنك أن تخدميه الآن. كم سيكون هناك ما يتوجّب فعله في المستقبل! ويجب أن نعمل، لأنّ، كما ترين... نحن بقينا، والرجال هربوا. المرأة هي المعطية الحقّة للحياة على الدوام. للخير. للشرّ. نحن سننجب الإيمان الجديد. نحن مفعمات به، وقد استودعه الله عريسنا داخلنا. ونحن

سننجه للأرض، من أجل خير العالم. انظري، كم هو جميل! كيف يبتسم ويتوسل العمل المقدس الذي سنعمله! يُونا، أنا أحبك، أنت تعلمين ذلك. لا تعودي تبكين.»

«ولكنه مات! نعم، هنا هو ما يزال يشبه إنساناً حياً. ولكنه لم يعد حياً الآن. كيف يكون العالم دونه؟»

«سيعود. اذهبي، صلي، وانتظري. كلما آمنت أكثر، كلما قَدَم موعد قيامته. قوّتي تكمن في هذا الإيمان... وحده الله والشيطان وأنا، نعلم أيّ هجوم يُشَنّ على إيماني هذا بقيامته.»

تمضي يُونا كذلك، نحيلة ومنحنية مثل زنبقة مثقلة بالماء. ولكن بعد رحيلها، تعود مريم لتهوي في عذابها.

«للجميع! عليّ أن أمنح القوّة للجميع. ومن يعطينيها؟» وتبكي وهي تلامس صورة الوجه، ذلك أنّها الآن جالسة بالقرب من الصندوق الذي مَدَّ عليه المنديل.

يصل يوسف ونيقوديموس، ويحولان دون خروج النسوة لشراء المرّ والطيب لأنّهما أحضرا ظروفاً منها. إنّما قوّتهما خارت أمام الوجه المطبوع على النسيج ووجه الأمّ التالف.

يجلسان في أحد الأركان بعد أن سلّما عليها، ويصمتان. إنّهما جادّان، واجمان... ثمّ يمضيان. لم تعد لها القوّة على الكلام، ولكن كلما تقدّم المساء مسرعاً بسبب كتلة الغيوم الخانقة، يتعاضم كونها مخلوقة مسكينة ممزّقة. إنّ ظلال المساء هي كذلك بالنسبة لها، كما لكلّ من يتألّم، منبع ألم عظيم للغاية.

تصبح الأخريات أيضاً أشدّ حزناً، وخاصةً سالومة، مريم التي لحلفى
وسُوسنة. ولكنّ العزاء يدركهنّ أخيراً، إذ يأتي معاً كلّ من زبدي وزوج
سُوسنة وسمعان ويوسف ابنا حلفى. الاثنان الأوّلان يبقيان في الرواق وهما
يشرحان كيف أنّ يوحنا وجدّهما فيما كان يعبر ضاحية عوفل. الاثنان
الآخران، من ناحيتهما، وجدّهما إسحاق تائيهين في الريف، يتساءلان إن كانا
سيرجعان إلى المدينة أم يفتّشان عن أخويهما اللذين كان يفترض أنّهما في
بيت عنيا.

يقول سمعان: «أين هي مريم؟ أريد أن أراها.» وتتقدّمه أمّه، يدخل
ويعانق قريبته المبتلاة.

«أأنت وحدك؟ لماذا يوسف ليس معك؟ لماذا افترقتما؟ أما تزالان على
خلاف؟ لا يصحّ هذا. هل تريان؟ إنّ سبب الشقاق قد مات؟!» وتُريه وجه
المنديل.

ينظر سمعان إليه ويبكي. ويقول: «لم نعد نفترق، ولن نفترق. نعم، إنّ
سبب الشقاق قد مات، ولكن ليس كما تظنّين؟ إنّ السبب قد مات لأنّ يوسف
قد فهم الآن... إنّ يوسف هو في الخارج... ولا يجرؤ على المجيء...»

«آه! لا. أنا لا أخيف أبداً. وأنا لستُ سوى رحمة. كنتُ لأغفر حتّى
للخائن، إنّما لم أعد أقدر. لقد انتحر.»

وتنهض. وتمشي منحنية وهي تنادي: «يوسف! يوسف!»

ولكنّ يوسف، الغارق في دموعه، لا يجيب.

فتذهب إلى الباب، كما كانت قد فعلت للتحدّث مع يهوذا، ومتمكّنة على الإطار، تمدّ يدها الأخرى لتضعها على رأس أكبر وأعدّ أولاد أختها. تلاحظه وتقول: «دعني أستند على واحد اسمه يوسف! كلّ شيء كان سلاماً وصفاء طالما كان لي هذا الاسم كملك في بيتي. ثمّ مات قديسي... ومات معه كلّ خير بشريّ لمريم المسكينة... وبقي لي الخير الفائق الطبيعة الذي هو ربّي وابني... الآن أنا المتروكة... ولكن لو أمكنني أن أكون بين ذراعيّ واحد اسمه يوسف أحبّه، وأنت تعلم إن كنتُ أحبّك، سيقلّ شعوري بالإهمال. سيبدو لي وكأنّني رجعتُ إلى الوراء، ولأمكنني القول: "يسوع غائب، ولكنّه لم يمت. إنّهُ في قانا، في نائين لقضاء بعض الأعمال، ولكنّه يعود الآن...". تعال يا يوسف، ولندخل معاً إلى حيث ينتظرك ليبتسم لك. لقد ترك لنا ابتسامته كي يقول لنا إنه بلا حقد.»

يدخل يوسف وهي تمسكه بيدها، وحينما يراها قد جلست، يركع أمامها، رأسه على ركبتها وهو ينتحب: «غفرانك! غفرانك!»

«ليس منّي، بل منه ينبغي أن تطلب ذلك.»

«لا يمكنه أن يمنحني إياه. على موضع الصلب، حاولتُ أن ألفت انتباهه. نظر للجميع، إنّما ليس إليّ... إنّهُ محقّ... عرفته وأحبّته كمعلّم متأخراً جدّاً. الآن انتهى.»

«الآن يبدأ. ستذهب إلى الناصرة وتقول: "أنا أوّمن". سيكون لإيمانك قيمة لا نهائية. ستحبّه بكمال رُسُل المستقبل الذين لهم استحقاق حبّ يسوع بالروح فقط. هل ستفعل هذا؟»

«نعم! نعم! كي أصلح ما أفسدت. ولكنني أودّ لو أسمع منه هو كلمة واحدة ولن أسمعها أبداً...»

«سيقوم في اليوم الثالث وسيتكلّم مع الذين يحبّهم. الجميع ينتظرون سماع صوته.»

«أنتِ مباركة، أنتِ التي تستطيعين أن تؤمني...»

«يوسف! يوسف! زوجي كان عمّك، وآمن بشيء كان الإيمان به أصعب بعد من هذا. عرف أن يؤمن أنّ مريم الناصريّة المسكينة كانت عروس وأمّ لله. فلماذا أنتِ، يا ابن أخ هذا الصالح وحامل اسمه، لا يمكنك أن تؤمن أنّ الله قادر أن يقول للموت: "كفى!" وللحياة: "عودي!"؟»

«أنا لا أستحقّ هذا الإيمان، لأنني كنتُ سيئاً. كنتُ ظالماً معه. أمّا أنتِ... أنتِ هي الأمّ. باركيني. اغفري لي.. امنحيني السلام...»

«نعم... السلام... الغفران... آه! يا إلهي! مرّة قلتُ: "كم هو صعب أن يكون المرء هو "الفادي". الآن أقول: "كم هو صعب أن أكون أمّ الفادي!" الرحمة يا إلهي! الرحمة!... اذهب يا يوسف. أمّك تألمت كثيراً في هذه الساعات. واسيها... أنا أبقى هنا... مع كلّ ما لديّ من ولدي... ودموعي الوحيدة ستنال لك الإيمان. وداعاً يا ابن أختي. قل للجميع إنني أريد أن أصمت... أفكر... أصلي... أنا... أنا امرأة مسكينة، معلّقة فوق هوة بخيط... والخيط هو إيماني... والذي يصدم باستمرار هذا الخيط هو قلّة الإيمان الذي لكم، لأنّ لا أحد يعرف الإيمان بشكل كامل وبقداسة... ولا تعرفون كم يسبب

لي هذا من التعب... لا تعرفون أنكم تساعدون الشيطان في تعذيبى.
اذهب...»

وتبقى مريم بمفردها...

تجتو أمام المنديل. تُقَبِّلُ جبهة وعينين وفم ابنها وتقول: «هكذا! هكذا!
كي أنال القوة... يجب أن أؤمن. يجب أن أؤمن. من أجل الجميع.»

هبط الليل، بلا نجوم، مظلماً، خانقاً. وتبقى مريم في الظل مع ألمها.
نهار السبت انتهى.

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic

mariavaltortainarabic@gmail.com

29- (السبت المقدس، II- الليل)

1945 / 03 / 31

تدخل مريم التي لحلفى بحذر وتُصغي. ربما تظنّ أن العذراء قد غفت.
تقترب، تنحني وتراها راكعة، وجهها إلى الأرض على المنديل. تهمس: «يا
للمسكينة! بقيت هكذا!»

المفروض أنها ظنّتها نائمة هكذا أو مغمى عليها. ولكنّ مريم، وقد
خرجت من مناجاتها، تقول: «لا، كنتُ أصلي.»

«إنّما على ركبتيك! في الظلمة! في البرد! النافذة مفتوحة! انظري؟ إنّك
متجمّدة.»

«لكنّني أشعر يا مريم أنّي أفضل كثيراً. فبينما كنتُ أصلي -وحده
الأزليّ يعلم كم كنتُ منهكة بعد مساندة المتردّدين مراراً كثيرة، إنارة أرواح
لم ينرها موته نفسه- بدا لي أنّي شعرتُ بعطر ملائكيّ، انتعاش من السماء،
لمسة جناح... للحظة... ليس أكثر. إنّما بدا لي ذلك وسط بحر المزار الذي
غمرني بهياجه طوال ثلاثة أيّام، كما لو أنّه قد بثّ قطرة من الحلاوة
السلاميّة. لقد بدا لي كما لو أنّ قبة السماء المغلقة انفرجت، وكما أنّ شعاعاً
من الحبّ النورانيّ كان يهبط على المُهمّلة. قد بدا لي أنّ همسة لا مادّية آتية
من مسافات لانهائيّة كانت تقول: "قد أكمل بحقّ." فصارت صلاتي، المكثّرة
حتّى تلك اللحظة، أكثر سكوناً. تلوّنت بالسلام النورانيّ -آه! بالكاد تلوّنت!-

بالسلام النورانيّ الذي كان اتّصالي بالله في المناجاة... مناجاتي!... مريم هل أحببت كثيراً حلفى حينما كنت العروس العذراء؟»

«آه! مريم!... كنتُ أتَهَلَّل فرحاً في الفجر وأنا أقول لنفسي: "مرّت ليلة. ومرّ معها يوم من الانتظار"، وكنتُ أتَهَلَّل عند غروب الشمس قائلة: "يوم آخر قد انتهى. ودخولي تحت سقفه أضحي أقرب". وحينما كانت تغيب الشمس، كنتُ أغني كالقبرة وأنا أفكر: "سيأتي عمّا قليل". وحينما كنتُ أراه مُقبلاً، بوجهه الجميل مثل يوحنا -ولهذا يوحنا هو المفضّل لديّ- بعينه عين الأيل العاشق مثل يعقوبي، آه! حينئذ، لم أكن لأعرف أين أنا! وحينما كان يحييني قائلاً: "عروستي الحلوة!" وكنتُ أتمكّن من القول له: "سيدي"، حينئذ كنتُ أظنني... أظنني لم أكن لأشعر بالألم حتّى لو دهستني عربة ثقيلة أو اخترقني سهم. وبعدها، عندما صرّت عروسه... آه!» مريم تهيم في نشوة ذكرياتها. ثمّ تسأل: «ولكن لماذا هذا السؤال؟»

«لكي أشرح لك ما كانت المناجاة بالنسبة لي. ضاعفي أحاسيسك مئة مرّة، ارفعيها إلى قوّة ألف وألف، وستدركين ما كانت المناجاة بالنسبة لي على الدوام، انتظر هذه الساعة... نعم، أظنّ أنّي حتّى وإن لم أكن أصلي في سلام المغارة أو غرفتي، وكنتُ أستسلم لعمل المرأة، فنفسي كانت تصلي بلا انقطاع... وحينما كنتُ أتمكّن من القول: "ها هي ساعة لقائي بالله تحلّ"، كان قلبي يضطرم وهو يخفق بشدّة. وعندما كنتُ أتلاشى فيه... حينئذ... لا... هذا لا يمكنني شرحه لك. حينما تصبحين في نور الله ستفهمين... كلّ هذا كان قد ضاع منذ ثلاثة أيّام... وكان أكثر تمزيقاً من فقدان ابن... والشيطان كان يعمل على هذين الجرحين المتراكبين: موت ابني وهجر الله، مضيفاً إليهما

جرحاً ثالثاً هو هول غياب الإيمان. مريم أنا أحبكِ كثيراً، وأنتِ قريبتى. ستقولين هذا لولديكِ الرسولين فيما بعد، كي يعرفا المقاومة في رسالتهما التبشيرية والانتصار على الشيطان. إنني متأكدة أنني لو كنت تقبلتُ الشك، واستسلمتُ لتجربة الشيطان، وكنتُ لأقول: "من غير الممكن أن يقوم" مُنكرة الله -لأنّ في قول ذلك إنكار لحقيقة وسلطان الله- كان ليتهاوى في العدم فداء عظيم جداً. وأنا، حواء الجديدة، كنتُ سأقضم ثمانية من تفاحة الكبرياء والحسّ الروحيّ وكنتُ لأخرّب عمل فاديّ. وسيُجرّب الرُّسل هكذا باستمرار: من العالم، من الجسد، من السُّطة، من الشيطان. فليلبثوا ثابتين، أمام كلّ العذابات، والجسديّات تصبح الأكثر خفّة، كي لا يهدموا ما فعله يسوع.»

«قوليه أنتِ يا مريم لابنيّ... ماذا تريدان أن تعرف سلفتكِ المسكينة قوله؟! آه! ومع ذلك! لو كانا قد أتيا! الصبر، الهروب من الساعة الأولى! ولكن بعد ذلك!»

«أنتِ ترين أنّ لعازر وسمعان كانا قد أمرا بقيادتهم إلى بيت عنيا. فيسوع يعلم كلّ شيء...»

«نعم... ولكن... آه! حينما سأراهما، سأعاتبهما عتاباً مُرّاً. كانا جبانين. ليكن الجميع جبناء! أمّا هما، ولداي، فلا! لن أسامحهما أبداً...»

«سامحي، سامحي... كانت لحظة ضياع... لم يكونا يظنّان أنّه كان بالإمكان القبض عليه. هو قالها...»

«ومن أجل هذا تماماً لا أسامحهما. لأنّهما كانا يعرفان. وكانا مُستعدّين إذن. وحين العلم بالشيء والإيمان بمن قاله، لا يعود شيء يُدهش!»

«مريم، لكم أيضاً قال: "سأقوم". ومع ذلك... لو كنتُ أستطيع فتح صدركم ورأسكم، ففي القلب والعقل كنتُ سأقرأ: "لا يمكن أن يكون هذا".»
«ولكن على الأقل... نعم... صعب هو الإيمان... ولكننا بقينا مع ذلك في موضع الصلب.»

«بنعمة مجانية من الله. وإلا لهربنا نحن أيضاً. لونجين، هل سمعته؟
قال: "شيء رهيب". وهو مُحارب. ونحن النساء، وحدنا مع شاب، صمدنا بفضل معونة مباشرة من الله. لا تفاخري إذاً. فليس هذا بجدارتنا.»
«ولماذا ليست لهم؟»

«لأنهم سيكونون كَهَنَة المستقبل. فعليهم إذاً المعرفة. المعرفة بالاختبار،
كم الجحود سهل على مَنْ كان وفياً لفعل إيمان. إنَّ يسوع لا يريد كَهَنَة قليلي
الوفاء له لدرجة أن يصيروا أعداءه الأكثر عدداً...»

«أنتِ تتكلمين عن يسوع وكأنه كان قد رجع بالفعل.»

«هل ترين؟ أنتِ أيضاً تعترفين بأنك لا تؤمنين. فكيف يمكنكِ إذاً لوم
ابنيكِ؟»

لا تعرف مريم التي لحلفى بماذا تردّ. تنكّس رأسها، تحرّك الأشياء آلياً.
تعثر على المصباح الصغير وتخرج به، لترجع به بعد إضاءته وتضعه في
مكانه المعتاد.

مريم جلست من جديد بجوار المنديل المفرد. المنديل الذي تحت الضوء الأصفر لمصباح الزيت، بشعلته المرتجفة، يكتسب حيوية خاصة ويبدو كأنه يحرك الفم والعينين.

«ألا تتناولين شيئاً؟» تسأل سلفتها وهي مكدرة قليلاً.

«القليل من الماء. أنا عطشانة؟»

تذهب مريم لتعود... ومعها حليب.

«لا تصرّي، لا أستطيع. الماء نعم. لم يعد في ماء... وأظنّ حتّى ولا دم. ولكن...»

طُرق على الباب. تخرج مريم التي لحفى. وشوشة في الرواق ثمّ يدخل يوحنا رأسه.

«هل رجعت يا يوحنا؟ أيضاً لا شيء؟»

«بلى. سمعان بطرس... ورداء يسوع... معاً... في جنسيمانى. الرداء...» ينسلّ يوحنا على ركبتيه ويقول: «ها هو... ولكنه ممزق تماماً وملئ بالدم. طبعات اليدين ليسوع. هو وحده الذي كانتا له طويلتين ونحيفتين جداً. أمّا التمزّقات فبفعل أسنان، وواضح أنّه فم رجل. أظنّ أنّه... أنّه كان يهوذا الاسخريوطي، إذ بالقرب من المكان الذي عثر فيه سمعان بطرس على الرداء، كانت هناك قطعة من ثوب يهوذا الأصفر. لقد عاد هناك... بعدئذ... قبل أن يقتل نفسه. انظري يا أمّي.»

مريم لا تفعل شيئاً سوى لمس وتقبيل رداء ابنها الثقيل الأحمر، ولكن بسبب إلحاح يوحنا، تفتحه وترى انطباعات دم داكنة على لون الدم الأحمر وتمزقات الأسنان. ترتعش وتهمس: «كم من الدم!» تبدو وكأنها لا ترى سواه.

«أمي... الأرض احمرّت. سمعان، الذي أسرع إلى أعلى في ساعات الصباح الأولى، يقول إنّ العشب كان ما يزال عليه دم نديّ على الأوراق... يسوع... لا أعرف... لم يكن يبدو مجروحاً... من أين أتى كلّ هذا الدم؟»

«من جسده. بسبب الكرب... آه! يسوع-الضحية الكاملة! آه! يسوعي!» مريم تبكي بكثير من الحرقعة، بنحيب شديد، بحيث أنّ النساء يُقبلن نحو الباب لينظرن، ثمّ ينسحبن. «هذا، هذا بينما كان الجميع يهجرونك... أنتم، ماذا كنتم تفعلون بينما هو كان يكابد نزاعه الأوّل؟»

«كنّا نياماً يا أمي...» ويبكي يوحنا.

«هل كان سمعان هناك؟ أخبرني.»

«كنتُ قد ذهبتُ أبحث عن الرداء. كنتُ قد فكرتُ أن أسأل يونا ومرقس... ولكنهما هربا. المنزل مغلق وكلّ شيء مهجور. حينئذٍ نزلتُ إلى الأسوار لأسير على طول الطريق التي سلكت يوم الخميس... كنتُ في ذلك المساء بغاية التعب والحزن، حتّى إنّني لم أكن لأتذكر أين ترك يسوع معطفه. خُيل إليّ أنّه كان يلبسه ثمّ لم يعد عليه... في مكان الاعتقال، لا شيء... حيث كنّا نحن الثلاثة، لا شيء... فاتجهت إلى الدرب الذي سلكه المعلم... فرأيتُ سمعان متكوراً بجوار الصخرة، وظننتُ أنّه كان قد مات

أيضاً. صرختُ، فرفع رأسه... ظننتُه مجنوناً لشدة تبدّله. صرخ وحاول الهرب. ولكنّه كان يترنّح، وقد أعمته الدموع التي كان قد ذرفها، فأمسكتُ به. فقال لي: "اتركني. إنني شيطان. لقد أنكرتُه، كما كان هو يقول... وصاح الديك وهو نظر إليّ. فهربتُ... ركضتُ في كلّ اتجاه عبر الريف ثمّ وجدتُ نفسي هنا. وهل ترى؟ لقد جعلني يهوه أجد هنا دمه ليّتهمني. دم في كلّ مكان! دم في كلّ مكان! على الصخرة، على الأرض، على العشب. أنا قد تسبّبتُ في إراقته. كما أنتَ، كما الجميع. أمّا أنا فقد أنكرتُ هذا الدم". قد كان يبدو لي وكأنّه يهذي. حاولتُ تهدئته وإبعاده. ولكنّه لم يكن يريد. كان يقول: "هنا! هنا! لحراسة هذا الدم وردائه. أريد أن أغسله بدموعي. وحينما لا يعود هناك دم على النسيج، قد أعود حينئذٍ وسط الأحياء قارعاً صدري وقائلاً: 'لقد أنكرتُ الربّ'". فقلتُ له إنّك كنتَ تريدُينه وكنتَ قد أرسلتني لأبحث عنه. ولكنّه لم يكن يريد التصديق. حينئذٍ قلتُ له إنّك كنتَ تريدُين أيضاً يهوذا كي تغفري له وإنّك كنتَ تتألّمين لعدم تمكّنك من ذلك بعد بسبب انتحاره. حينئذٍ بكى ولكن بهدوء أكثر. أراد أن يعلم. كلّ شيء. وروى لي أنّ العشب كان ما يزال الدم عليه ندياً وأن الرداء قد عومل بسوء من قبل يهوذا، حيث أنّه كان قد وجد قطعة من ملابسه. تركّته يتكلّم ويتكلّم، ثمّ قلتُ له: "تعال إلى الأمّ". آه! كم توسّلتُ كي أقنعه! وحينما كان يبدو لي أنّي نجحتُ في إقناعه، ووقفتُ للمجيء، هو ما عاد يريد. فقط حين حلّ المساء أتى. ولكن ما أن عبر الباب، حتّى اختبأ من جديد في بستان مهجور، قائلاً: "لا أريد أن يراني الناس. على جبهتي مكتوب: ناكِر الله". الآن، وقد هبط الليل تماماً، نجحتُ في سحبه إلى هنا.»

«أين هو؟»

«خلف هذا الباب.»

«أَدْخِلْهُ.»

«أُمِّي...»

«يُوحَنَّا...»

«لا تلوميه. إنه تائب.»

«أما زالت معرفتك بي قليلة؟ أَدْخِلْهُ.»

يخرج يوحنا. ويرجع بمفرده. يقول: «لا يجرؤ. حاولي أن تناديه أنت.»

ومريم بلطافة: «سمعان بن يونا، تعال.» لا شيء. «سمعان بطرس، تعال.» لا شيء. «سمعان يسوع ومريم، تعال.» نوبة بكاء حادة. ولكنه لا يدخل. تنهض مريم. تترك الرداء على الطاولة وتتوجّه صوب الباب.

بطرس متللم بالخارج مثل كلب بلا سيّد. يبكي بشدّة، متكوراً حتّى أنّه لم يسمع صرير الباب الذي يُفْتَح، ولا صوت حذاء مريم. يتنبّه إلى أنّها هنا حينما تنحني لتمسك يده الضاغطة على عينيه وتجبره على الوقوف. تدخل الغرفة وهي تسحبه مثل ولد. تُقفل الباب وتضع المزلاج، ومنحنية من الحزن كما هو من الخجل، تعود إلى مكانها.

يمضي بطرس إلى قدميها، جاثياً على ركبتيه، ويبكي دون توقّف. مريم تمسح شعره الرماديّ، المبلّل بالعرق بسبب الألم. ما من شيء آخر سوى هذا

المسح، حتّى يغدو أكثر سكوناً. أخيراً، عندما يقول بطرس: «لا يمكنك أن تغفري لي. فلا تلاطفيني إذاً، فأنا قد أنكرته.» فتقول مريم: «بطرس، أنت أنكرته، هذا صحيح. لقد كانت لك الشجاعة لإنكاره علانية، الشجاعة الدنيئة لفعل هذا. وما عدا الرّعاة ومَنّاين، نيقوديموس ويوسف ويوحنا، فإنّ الآخرين جميعاً... لم يكونوا سوى جبّاء. الجميع أنكروه: رجال ونساء إسرائيل، عدا بضعة نسوة... لا أذكر أبناء الأخت وحلفى بن سارة، فهؤلاء كانوا أهلاً وأصدقاء. أمّا الآخرون!... فلم تكن لديهم حتّى الشجاعة الشيطانيّة ليكذبوا كي ينقذوا أنفسهم، ولا الشجاعة الروحيّة للتوبة والبكاء، ولا الشجاعة الأعظم للاعتراف علانية بالخطأ. أنت رجل مسكين. كنت بالأحرى كذلك طالما بالغت بالاعتداد بنفسك. الآن أنت إنسان. غداً، ستصبح قديساً. وحتّى ولو لم تكن ما أنت عليه، كنتُ مع ذلك سأسامحك. كنتُ سأسامح يهوذا، لأخلص روحه. لأنّ قيمة روح، حتّى واحد فقط، تستحقّ كلّ الجهود للتغلب على الكراهيات والأحقاد، حتّى الانسحاق. تذكّر هذا يا بطرس. وأكرّره عليك: إنّ قيمة نفس واحدة هي هكذا، حتّى ولو استوجب ذلك الموت من الجهد لبلوغ القرب منها، يجب أن نمسكها هكذا، بين الذراعين، كما أمسك رأسك الأشيب، إذا أدرك المرء أنّه بإمساكه بها هكذا يخلّصها. هكذا كالأمّ التي، بعد العقاب الأبويّ، تضمّ رأس ابنها المذنب إلى قلبها، وأكثر من ذلك بحديث قلبها الممزّق الذي يخفق، يخفق حبّاً وألماً، تصوّبه وتردّه، أكثر منه بالضربات الأبويّة. يا بطرس الذي لابني، بطرس المسكين الذي كنت، مثل الجميع، بين يديّ الشيطان في ساعة الظلمات تلك، ولم تتبيّن ذلك، وتظنّ أنّك كنت تتصرّف من ذاتك، تعال، تعال هنا إلى قلب أمّ أبناء ابني. هنا، لن يؤذيك الشيطان بعد. هنا تهدأ العواصف في انتظار الشمس- يسوعي، الذي

سيقوم كي يقول لك: "السلام لك، يا بطرسي"، وترتفع نجمة الصبح. نقيّة، بهيّة، وتجعل كلّ مَنْ تُقبّله نقيّاً بهيّا، كما يحدث في ماء بحرنا الصافي في الصباحات الربيعية المنعشة. مِنْ أَجْلِ هذا أردتُكَ كثيراً. عند أقدام الصليب، كنتُ أتعذّب بشدّة بسببه وبسببكم -كيف لم تشعر بهذا؟- وكنتُ أنادي أرواحكم بقوة لدرجة أنّني اعتقدتُ أنّها أتت بالفعل إليّ. وإذ حُبستم في قلبي، أو بالأحرى وُضِعتُم على قلبي، مثل خبز التقدمة، فقد أبقيتُكم تحت حمّام دمه ودموعه. كنتُ أستطيع ذلك، لأنّه، عبر يوحنا، جعلني أمّاً لكلّ ذرّيته... كم أردتُكَ!... في ذلك الصباح، في عصر ذاك اليوم، وفي الليل واليوم الجديد... لماذا جعلتَ الأمّ تنتظر كثيراً، يا بطرس المسكين، المجروح والمُداس مِنَ الشيطان؟ ألا تعرف أنّ مهمّة الأمّهات إعادة الترتيب، الشفاء، الغفران، والقياد؟ أقودك إليه. هل تريد رؤيته؟ هل تريد أن ترى ابتسامته كي تقتنع أنّه ما زال يحبّكَ بعد؟ نعم؟ آه! إذاً، انفصل عن صدري، صدر المرأة المسكينة، وَضَعَ جبهتك على جبهته المكّلة، فمك على فمه المجروح، وقَبَّل ربّكَ. »

«لقد مات... ولم يعد بإمكانني هذا أبداً.»

«بطرس، أجبني. بالنسبة إليك، ما هي آخر معجزة لربّكَ؟»

«الأفخارستيا. أو بالحريّ، لا. هي شفاء الجنديّ هناك.. هناك... آه! لا

تجعليني أتذكّر!...»

«امرأة وفيّة، مُحَبّة، شُجاعة، لحقت به إلى موضع الصلب ومسحت

وجهه. وهو، كي يقول ما يقدر عليه الحبّ، طبع وجهه على النسيج. ها هو

يا بطرس. هذا هو ما نالته امرأة في ساعة الظلمات الجهنميّة والغضب

الإلهيّ، فقط لأنّها أحبّت. تذكّر هذا يا بطرس. مِنْ أَجْلِ الأوقات التي سيُخِيل

لَكَ فِيهَا أَنَّ الشَّيْطَانَ أَقْوَى مِنَ اللَّهِ. اللَّهُ كَانَ سَجِينَ النَّاسِ، مِنْهُكَ، مُحْكُومًا،
مَجْلُودًا، وَالْآنَ مَيِّتًا... وَمَعَ ذَلِكَ، بِمَا أَنَّ حَتَّى فِي أَشَقِّ الْأَضْطِّهَادَاتِ، اللَّهُ هُوَ
اللَّهُ عَلَى الدَّوَامِ، وَإِذَا مَا ضُرِبَ الْفِكْرُ، فَاللَّهُ الَّذِي يُوجِدُهُ لَا يُمَسُّ، وَهِيَ هِيَ اللَّهُ،
الَّذِي يَجِيبُ النَّاكِرِينَ، وَالْكَافِرِينَ، وَذَوِي حِمَاةٍ كَلِمَةً "لِمَاذَا"، وَلِلْمَذْنُبِينَ
بِالْقَوْلِ: "لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ"، لِمَدْنَسِي الْمَقْدَّسَاتِ بِقَوْلِهِمْ: "مَا لَا أَفْهَمُهُ
لَيْسَ صَحِيحًا"، يَجِيبُ بِهَذَا النِّسِيحِ بِلا كَلِمَاتٍ. انْظُرْ إِلَيْهِ. لَقَدْ قُلْتَ لِي يَوْمًا،
إِنَّكَ كُنْتَ تَقُولُ لِأَنْدِرَاوَسَ: "مَسِيَّا سَيَتَجَلَّى لَكَ؟ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ
صَحِيحًا!" ثُمَّ كَانَ عَلَى مَنْطِقِكَ الْبَشَرِيِّ أَنْ يَخْضَعَ لِقُوَّةِ الرُّوحِ الَّتِي كَانَتْ
تَرَى مَسِيَّا حَيْثُ لَمْ يَكُنِ الْمَنْطِقُ يَرَاهُ. وَفِي مَرَّةٍ أُخْرَى، فِي الْبَحْرِ أَثْنَاءَ
الْعَاصِفَةِ، كُنْتَ تَسْأَلُ: "هَلْ آتِي يَا مَعْلَمٌ؟" ثُمَّ فِي مَنْتَصَفِ الطَّرِيقِ، عَلَى الْمَاءِ
الْهَائِجِ، شَكَّكَ قَائِلًا: "لَا يُمْكِنُ لِلْمَاءِ أَنْ يَحْمِلَنِي"، وَبِسَبَبِ شَكِّكَ أَوْشَكَتَ عَلَى
الْغَرَقِ. فَقَطَّ عِنْدَمَا يَنْتَصِرُ الرُّوحُ الَّذِي يَعْرِفُ أَنْ يُؤْمِنَ عَلَى الْمَنْطِقِ
الْبَشَرِيِّ، يُمْكِنُكَ أَنْ تَجِدَ الْعَوْنَ مِنَ اللَّهِ. وَمَرَّةً أُخْرَى كُنْتَ تَقُولُ: "إِذَا كَانَ
لِعَازَرٍ قَدْ مَاتَ مِنْذُ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ، فَلِمَاذَا أَتَيْنَا؟ لِنَمُوتَ عِبَثًا". ذَلِكَ أَنَّكَ بِمَنْطِقِكَ
الْبَشَرِيِّ لَمْ يَكُنْ بِإِمْكَانِكَ تَقَبُّلَ حَلٍّ آخَرَ. وَمَنْطِقُكَ كَذَّبَهُ الرُّوحُ، الَّذِي بِإِظْهَارِهِ
لَكَ بِالَّذِي أُقِيمَ مَجْدُ الَّذِي أَقَامَهُ، قَدْ بَيَّنَّ لَكَ أَنَّكُمْ لَمْ تَكُونُوا قَدْ ذَهَبْتُمْ سَدَى. وَفِي
مَرَّةٍ أُخْرَى، بَلْ بِالْأُخْرَى فِي مَرَّاتٍ أُخْرَى عَدِيدَةٍ، كُنْتَ تَقُولُ، وَأَنْتَ تَسْمَعُ
رَبَّكَ يَتَكَلَّمُ عَنِ الْمَوْتِ، وَعَنِ الْمَوْتِ الْمَرِيعِ: "هَذَا لَنْ يَحْدُثَ لَكَ أَبَدًا!" وَتَرَى
مَدَى تَكْذِيبِ مَنْطِقِكَ. وَأَنَا، الْآنَ، أَنْتَظِرُ سَمَاعَ كَلِمَةِ رُوحِكَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ
الْأَخِيرَةِ...»

«المغفرة.»

«ليس هذه. كلمة أخرى.»

«أؤمن.»

«أخرى.»

«لا أعلم...»

«أنا أحب. أحب يا بطرس. وسيُغفر لك. ستؤمن. ستصير قوياً. ستصير الكاهن، ليس الفرّيسيّ الذي يُثقل وليس لديه سوى الشكليات وليس الإيمان الفعّال. انظر إليه. تجرّأ على النظر إليه. الجميع نظروا إليه وأجلّوه. حتّى لونجين... وأنت لا تعرف؟ ومع ذلك قد استطعت أن تنكره! إن لم تتعرّف عليه الآن، من خلال نار أمومتي، ألمي المحبّ الذي يجمعكم، ويعيد لكم السلام، فلن تستطيع أبداً. هو يقوم. كيف سيمكنك النظر إليه في سطوعه الجديد، إن كنت لا تعرفه في وجهه الذي للمعلّم الذي تعرفه، لتصل إلى معرفة الظافر الذي لا تعرف؟ إذ إنّ إزميل ومطرقة الألم، كلّ ألم الأجيال والعالم، قد عملت على وجهه وغيّرتة خلال هذه الساعات من مساء الخميس إلى الساعة التاسعة ليوم الجمعة [ما يقابل الساعة الثالثة بعد الظهر]. قبل ذلك كان فقط المعلّم والصديق. الآن هو القاضي والمَلِك. لقد اعتلى عرشه ليحكم، لبس التاج، وسيبقى هكذا. عدا عن أنّه لن يكون بعد القيامة المجيدة الإنسان القاضي والمَلِك. بل الله القاضي والمَلِك. انظر إليه. انظر إليه بينما البشريّة والألم يحجبانه كي تتمكّن من النظر إليه حينما ينتصر في ألوهيّته.»

أخيراً يرفع بطرس رأسه من على ركبتَي مريم وينظر إليها، بعينين حمراوين من الدموع، في وجه طفل عجوز حزين ومذهول من الشر الذي صنعه ومن الخير العظيم الذي يجده.

تُجبره مريم على النظر إلى ربه. حينئذ يئن بطرس كما أمام وجه حي: «سامحني، سامحني! لا أدري كيف حدث هذا. ما كان هذا. لم أكن أنا. كان هناك شيء يعمل لم يكن أنا! ولكنني أحبك يا يسوع! أحبك يا معلّمي! ارجع! ارجع! لا تمض هكذا دون أن تقول أنك فهمتني!» تكرر مريم الحركة التي قامت بها في حجرة الدفن. الذراعان ممدودتان، واقفة، وكأنّها الكاهنة لحظة التقديم. وكما قدّمت هناك القربان الذي بلا عيب، فهي تقدّم هنا الخاطئ التائب. إنّها بحق أمّ القديسين والخطاة! ثمّ تنهض بطرس، تواسيه بعد، وتقول له: «الآن أنا أكثر فرحاً. أعلم أنك هنا. امض الآن إلى جانب النساء ويوحنا. كلّم بحاجة إلى الراحة والقوت. اذهب وكن طيباً...» وكأنّها تحدّث طفلاً.

ثمّ، في المنزل، الذي هو أكثر سكوناً في هذه الليلة الثانية منذ موته، تميل العادات البشريّة من نوم وطعام إلى العودة من جديد، وتبرز المظهر المتعب والمذعن للساكين حيث يتعافى الأحياء ببطء من صدمة الموت، فقط مريم تريد أن تظلّ واقفة، ثابتة في مكانها، في انتظارها، في صلاتها. دائماً. دائماً. دائماً من أجل الأحياء والأموات. من أجل الصالحين والخطاة. من أجل عودة، عودة، عودة الابن.

أرادت سلفتها أن تبقى معها، ولكنّها تنام الآن نوماً ثقيلاً وهي جالسة في أحد الأركان، ورأسها متّكئ على الجدار. تأتي مريم ومرثا مرتّتين، بعد ذلك، إذ تنعسان، تنسحبان إلى غرفة مجاورة وبعد كلمات قليلة تغطّان هما كذلك

في النوم... وأبعد قليلاً، في غرفة صغيرة كاللعبة، تنام سالومة مع سُوسَنَة،
بينما على حصيرتين على الأرض ينام بجلبة بطرس ويوحنا. الأول بنحيب
آلي تائه وسط شخيرهِ، والثاني بابتسامة طفل يحلم برؤى مفرحة.

تستعيد الحياة نشاطها، والجسد حقوقه... وحدها نجمة الصبح تتألق بلا
نوم، بحبّها، ساهرة بقرب صورة ابنها.

وتمرّ ليلة السبت المقدّس هكذا، حتّى لحظة صياح الديك، مع أوّل شعاع
نور للفجر، الذي يوقظ بطرس وهو يصيح، وصيحته الخائفة والأليمة توقظ
النائمين الآخرين.

انتهت المهادنة بالنسبة إليهم، وعادت المشقة. بينما هي لا تؤدّي سوى
إلى تعاضم قلق الانتظار لدى مريم.

--- نهاية الجزء التاسع ---

----- (عودة إلى الفهرس) -----

www.sites.google.com/site/mariavaltortainarabic
mariavaltortainarabic@gmail.com